مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

آلات الفناء

THE DOOMSDAY MACHINE

اعترافات مخطط أمريكي للحرب النووية

دانيل إلزبرگ
DANIEL ELLSBERG

ترجمة وتقديم:
د. محمد جياد الأزرقي

آلات الفناء

THE DOOMSDAY MACHINE

اعترافات مخطط أمريكي للحرب النووية

آلات الفنـاء

THE DOOMSDAY MACHINE

اعترافات مخطط أمريكي للحرب النووية

دانيل إلزبركَ

DANIEL ELLSBERG

ترجمة وتقديم:

د. محمد جياد الأزرقي

Image

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Doomsday Machine
Confessions of a Nuclear War Planner

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

.BLOOMSBUR PUBLISHING, Bloomsbur Publishing Inc

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2017 by Daniel Ellsberg

This translation of the Doomsday Machine is published
.by arrangement with Bloomsbury Publishing Inc

All rights reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc.
S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3824-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحْتويَات

الإمـداء 7

مقدمة المترجم 9

تمهيد 49

مقدمة المؤلف 53

القسم الأول
أنا والقنبلة

الفصل الأول: كيف استطعت ذلك؟ 77

الفصل الثاني: القيادة والتحكم 101

الفصل الثالث: التخويل أو التفويض 135

الفصل الرابع: قاعدة إيواكوني 149

الفصل الخامس: قيادة عمليات حوض الپَسَفِك 157

الفصل السادس: خطة الحرب 167

الفصل السابع: إطلاع مكجورج بَندي 185

الفصل الثامن: «خطتي» للحرب النووية 205

الفصل التاسع: أسئلة موجّهة لمجلس قيادة الأركان المشتركة 219

الفصل العاشر: برلين وفجوة الصواريخ 241

الفصل الحادي عشر: قصة خطابين 275

الفصل الثاني عشر: أنا وأزمة الصواريخ الكوبية 297

الفصل الثالث عشر: كوبـــــا 315

القسم الثاني

الطريق إلى الفناء

الفصل الرابع عشر: قصف المدن 349

الفصل الخامس عشر: إحراق المدن 377

الفصل السادس عشر: قتل الشعب 403

الفصل السابع عشر: المجازفة باستخدام آلات الفناء 1 415

الفصل الثامن عشر: المجازفة باستخدام آلات الفناء 2 431

الفصل التاسع عشر: مفارقات الدكتور سترَنجْگُلف 447

الفصل العشرون: تهديدات الضربة الأولى باستخدام اسلحتنا النووية 463

الفصل الحادي والعشرون: تفكيك آلات الفناء 497

معجم المصطلحات 519

الإهداء

للشبيبة الذين أنشدوا:

نحن أنصار السلام، السلام نحن أعداء الحروب، الحروب

سوف نمضي للأمام، للأمام نحو تحرير الشعوب، الشعوب

المترجم

مقـدمـة المترجـــم

يُعتبر دانيَل إلزبَرگ في طليعة المبلغين Whistle Blowers عن خطايا الحكومة الأمريكية، وسجّل بفخر اعتزازه بالخروج عليها وفضح أسرارها، التي تجمعت لديه من خلال عمله في دوائرها ومؤسساتها. عُرف بإصداره كتاب شهير بعنوان أوراق الپنتگون في عام 1971، الذي طرح فيه أسرار وزارة الدفاع ووثائقها، وتورّط العسكر والسياسيين الأمريكيين [https://en.wikipedia.org/wiki/Pentagon_Papers] في فيتنام اعتباراً من عام 1945 لغاية عام 1967. تجمّعت لدى المؤلف وثائق ومذكّرات ومستمسكات رسمية كثيرة بفعل أشغاله مراكز هامة في البيت الأبيض وفي فيتنام وفي مؤسسة راند. قال، «قمت بفصل كافة الملاحظات والوثائق والمذكرات التي تخص فيتنام عن تلك التي تخص خطط الحرب النووية. وضعت الأخيرة في صندوق سلّمته لأخي هاري، ليحتفظ لي به في منزله في مدينة هَستِنگ أون هِدسُن في مقاطعة وستچستر في ولاية نو يورك».

نوى المؤلف إصدار كتاب ثان يخصّصه لموضوع التخطيط لحرب نووية اعتماداً على تلك المصادر الرسمية، التي أودعها عند أخيه. لكنّ صندوق المصادر هذا ضاع خلال ظروف تحدّث عنها المؤلف تفصيلاً. وعليه فكتابه هذا، قد تأخّر صدوره ما يقارب من 50 عاماً، حتى رُفعت السرية عن معظم الوثائق التي ضاعت، بموجب قانون **حرية الاطلاع على المعلومات**. مكّنه هذا أن يستعيد نسخ الوثائق وينبش ذاكرته ليضع هذا الكتاب، الذي يقع في قسمين شملا تمهيداً ومقدمة وواحداً وعشرين فصلاً. تولت مؤسسة بلومزبري العالمية، التي مقرها في نو يورك مهمة نشر هذا الكتاب القيّم.

يلفت إلزبَرگ انتباه القراء في الفصل الأول إلى ظنون الأمريكيين بأنّهم في سباق مع هتلر لتحقيق إنجاز القنبلة الذرية. فالعلماء الألمان هم أول من استطاع شطر نوى العناصر الكيمياوية الثقيلة. ولم يكن هناك سبب للافتراض بأنّهم سوف يتوقفون ولن يحافظوا على موقعهم العلمي المتقدم للتنافس والحصول على تلك الطاقة ووضعها في متناول هتلر وطموحاته اللامحدودة في الغزو

وتسجيل الانتصارات. إنّ فكرة استحواذ ألمانيا على مثل هذا السلاح وتفرّدها به، حتى ولو لوقت قصير، هو برأي المؤلف ما دفع العلماء المشاركين في مشروع مانهاتِن، وبخاصة منهم اليهود المهاجرين من أوروپا مثل سيلارد وفرمي للاستعجال والعمل الدؤوب.

حين وضعت الحرب أوزارها، اكتشف الأمريكيون أنّهم على وهم كبير، فما كان لدى الألمان قنبلة ذرية! غير أنّه جاء چَرچِل وأعلن في شهر مارس عام 1946 بأنّ «الستار الحديدي» قد أسدِل فشقّ القارة وفصل ما بين أوروپا الحرة وبين الحكم الطغياني في الشرق. بعد مرور أقلّ من نصف عام على دحر النازية وحلفائها اليابانيين، أشار چَرچِل إلى السيطرة الشمولية لموسكو على كافة العواصم في وسط أوروپا وشرقها باستثناء أثِنا. وهذا بالضبط هو ما دفع هاري ترومَن في شهر مارس التالي أن يدعو الكونگرس لتقديم العون إلى اليونان، التي كان النظام الملكي فيها مهدداً من قبل تمرد قادة الحزب الشيوعي في البلاد.

يمضي المؤلف للاعتراف بأنّ، «الأكثر إشكالية أنّني أستطيع القول إنّ مثل تلك الأحكام خاطئة للغاية ومتهورة، والادّعاء أنّ تلك النظم مقابلة للنازية ولديها نزعة وشهية للتوسع إشباعاً لعدوانيتها العسكرية متى كان ضرورياً وممكناً، ليس دقيقاً. افترض القائمون على رأس السلطة في البلاد أنّ النظامين الشيوعيين في الاتحاد السوفياتي وأوروپا الشرقية، واللذين يتسلحان الآن بالسلاح النووي ولديهما قوات عسكرية تشكل تهديداً مباشراً لأوروپا الغربية وأمريكا أعظم ممّا شكله هتلر. وهذا باعترافه غير صحيح. ثمّ يضيف، «الأكثر من ذلك، أنّ المساواة بين الأنظمة الشيوعية وبين هتلر قد ألغت أيّة محاولة لمفاوضات ذات معنى لحلّ الخلافات حول الحدّ من التسلح. الخيار الوحيد، الذي خلقه الغرب لنفسه ليس إلّا الاستعداد العسكري التام لصدّ هجوم وهمي وشيك أو «احتواء» التهديد السوفياتي «للعالم الحرّ».

تعرّض إلزبَرگ في نهاية الفصل الأول إلى حالة الرعب والهوس، التي طغت على فهم الجهات والمؤسسات التي كانت تخطط للحرب النووية خلال فترة الحرب الباردة فيستشهد بقراءة «دراسة تحليلية عن الظروف المُثلى، من وجهة نظر السوفيات، للقيام بهجوم صاعق. الخطة الأساسية، ستكون غارة بالصواريخ العابرة للقارات مصحوبة بغارات جوية تقوم بها القاذفات على قواعد قواتنا الجوية في عمق الأراضي الأمريكية، يرافقها إطلاق صواريخ كروز من غواصاتهم على قواعدنا على ساحلي المحيطين الأطلسي والهادي، وعلى مراكز القيادة ومحطات الرادار في شمال البلاد.... كي تدمّر الصواريخ أهدافها خلال دقائق معدودة». ومن هوسهم، وضعوا لها ساعة الصفر «في منتصف ليلة من ليالي شهر أغسطس، ظلماء داكنة غاب فيها القمر».

يتطرق المؤلف في الفصل الثاني إلى موضوع الاستعدادات لأيّ هجوم نووي مباغت من قبل السوفيات والإنذارات الكاذبة عن مثل هذه الهجمات. فمثلاً، بعث مركز الرادارات المتقدمة الحديثة BMEWs الموجود في قاعدة ثول في گرينلاند إشارات في أحد الأسابيع عن تهديدات عديدة مختلفة المستوى. ظهر فيما بعد أنّ «التهديد» الذي ظهر على شاشات الرادار كان سرباً من البط الكندي يطير على ارتفاعات شاهقة. في مرة أخرى ظهر أنّ إشارات الرادارات المتقدمة قد انطلقت لدى بزوغ القمر على الأراضي النرويجية وتصاعدت تلك الإشارات تدريجياً بارتفاعه في الأفق منذرة بالخطر القادم.

وبناء عليه، فإنّ الأوامر بالإقلاع، الذي يتبعه انفجار أو حتى تفجير نووي في قاعدة أمريكية ومن ثمّ انقطاع الاتصالات، قد يقود إلى إقلاع عدد من الطائرات الحاملة للأسلحة الذرية، التي تعتبر غير آمنة بشكل كبير. في الحقيقة، إنّ مثل هذه الاحتمالات قليلة لكنّها ليست نادرة وربّما تتعاقب بشكل أكثر. إنّ التحذيرات الكاذبة التي تقود إلى إقلاع الطائرات لغرض المناورات الوقائية precautionary كانت شائعة في المنطقة، التي زارها المؤلف وكما غيرها من المناطق حول العالم. إنّ عدد القواعد والطائرات المشاركة يزيد من فرص الانفجارات العرضية، التي قد تحدث في مكان ما. ولكن حتى لو كان الإقلاع نتيجة أمر من قائد قاعدة، فإنّ تفجيراً كبيراً من النوع الذي يدمر وسائل الاتصالات، قد يقود إلى إقلاع طائرات أخرى من قواعد مجاورة مصحوباً بانفجارات أخرى، وتؤدي هذه إلى انقطاع الاتصالات في ذات الوقت.

يرى المؤلف أنّه لو كان تمّ التدريب على مثل هذه الإجراءات، فإنّ الطيارين سيتوقعون تحت أيّ ظرف بأنّ عدم توفر الأدلة عن أيّ هجوم يعني أنّهم يقومون بطلعات لأغراض المناورة، وسيتعودون على الرجوع إلى قواعدهم. سوف لن يتعرضوا لأيّ ضغط لكسر تلك العادات أو يخالفون الأوامر أو ينطلقون نحو الأهداف المرسومة حتى وإن لم تصدر أوامر إليهم بفعل ذلك. سيعودون إلى قواعدهم بشكل روتيني. أخبره آمر قاعدة جويّة متقدمة قرب الحدود بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية، وهو ضابط طيار برتبة رائد أنّه يشعر بأنّ لديه القوة بموجب المبادئ الأساسية للحرب، أن يخالف التعليمات المباشرة والصريحة القادمة من قيادة أركان القوة الجوية. «لم ينتابني العجب أنّ قائداً ميدانياً يمكن أن يتولد لديه مثل هذا الشعور تحت ظروف معينة. لقد كان ذلك هو الحدس، الذي جاء بي إلى كوريا. لكنّني لم أتوقع أنّ صاحبي هذا قد فكر بالموضوع، أو أنّه على استعداد ليخبرني مباشرة أنّه لا يشعر بضرورة الالتزام بالأوامر التي تصدر من المقرات العليا». ثمّ أضاف قائلاً، «من الطبيعي أنّه إذا انطلق أحدهم نحو الأهداف المقررة، فأعتقد أنّ الآخرين سيحذون حذوه». ثمّ توقف ثانية وقال وكأنّه يتأمل بالأمر، «قد يلحقون به. إذا أغار أحدهم فإنّ البقية سيتبعونه، رغم أنّني أخبرتهم

بأنْ لا يفعلوا ذلك».

وهذا ما جعل المؤلف يعتقد أنّ فلم Dr. Strangelove، الذي شاهده عام 1964 هو فلم وثائقي. صوّر ذلك الفلم، الذي كان من إخراج ستانلي كوبرِك، ما قام به الجنرال جاك رِپَر. كانت الأحداث تصوّر محاولة عن احتمال قيام حرب عالمية ثالثة. [https://en.wikipedia.org/wiki/Dr._Strangelove] قاد رِپَر سرباً من الطائرات في دورية للإنذار المبكر فتمرّد وقاد سربه منطلقاً لإلقاء قنابل نووية حرارية على موسكو. كان انتحارياً لسبب ما أو أصيب بلوثة عقلية وهو يحوم في الجو وما توقع أن يعود حيّاً من مهمته، فوقعت أحداث يوم القيامة.

في فصله الثالث يناقش المؤلف 4 باستفاضة وإسهاب الرسالة التي بعثها الرئيس أيزنهاور إلى الأدميرَل دي فِلت قائد العمليات الحربية في حوض الپَسَفِك ومقره في هوائي، والتي خوله بموجبها شنّ حرب نووية شاملة، إذا كانت الاتصالات مقطوعة بين مقرّه والعاصمة واشنطن، لأيّ سبب من الأسباب. يرى المؤلف في ذلك مشكلة عويصة، خاصة وأنّ الأدميرَل المذكور قد نقل تفويضه إلى قادة الأسطول السابع والقواعد الأمريكية في اليابان وأوكيناوا وكوريا وتايوان وگوام. «إذا كانوا جميعاً على صواب بصدد رسالة الرئيس، فإنّ هذا التوجيه بنقل التخويل إلى القادة ذوي المناصب الأدنى، مخالف وحلّ محلّ التوجيه السري. كنت اطلعت على هذا التوجيه في خطط الحرب، بما فيها خطط الضرورات الطارئة العامة الخاصّة بقيادة حوض الپَسَفِك GEOP، عن الحرب النووية الشاملة، وكيف أنّ الهجوم النووي الأمريكي يجب أن يكون بمبادرة تعتمد فقط على قرار الرئيس في وقت الهجوم».

اطلع العالم قبل عام تقريباً على ما تناقلته وكالات الأنباء حول تهديدات متقابلة بين الرئيسين ترامپ وكِم جونگ أون حول من يمتلك الأصابع الأطول والأزرار الأكبر بما معناه، «في مكتبي أزرار لو شئت الضغط عليها بأصبعي لأحرقتكم عن آخركم نووياً!» كانت وثائق رسمية قد كشفت عن عصيان ضابط لشكّه في أمر إرسال طلب للقاعدة الأمريكية في أوكيناوا لشن حرب نووية. صرح جون بوردن الضابط في القوات الجوية الأمريكية في حديث أدلى به لموقع «Bulletin of the Atomic Scientists» أنّه عندما بلغ التوتر في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ذروته خلال ما أطلق عليه بـ «أزمة الصواريخ الكوبية» عام 1962، أمرت القيادة الأمريكية قواعدها الصاروخية الواقعة في جزيرة أوكيناوا اليابانية في بحر الصين الجنوبي بإطلاق 32 صاروخاً حاملاً لرؤوس نووية على عدة مدن في دول تحكمها أحزاب شيوعية حينذاك.

ونقل الموقع عن بوردن الأحد 25 أكتوبر عام 2015 قوله إنّ زميله الراحل الضابط وِليَم باسيت قائد إحدى القواعد الصاروخية تلقى بعد منتصف ليل 28 أكتوبر عام 1962، الأمر بإطلاق صواريخ «Mace B» المزودة بقنابل نووية «Mark 28» على كلّ من مدينة فلاديفُستُك في أقصى الشرق الروسي والعواصم الصينية بكين والكورية الشمالية بيونـگ يانـگ والفيتنامية الشمالية هَنوي. وحسب بوردن، فإنّ باسيت استغرب الأمر، لا سيما وأنّ الجاهزية القتالية للقوات الأمريكية كانت حينذاك على مستوى «DEFCON 2»، ما يعني «على وشك حدوث حرب نووية»، ولم يتم رفعها إلى مستوى «DEFCON 1»، أي المستوى الأقصى والثقة الكاملة في حدوث حرب نووية، عندما يتعين فوراً استخدام أسلحة الدمار الشامل للردع والانتقام. السبب الآخر الذي أدى إلى ريب وشكوك باسيت في صحة الأمر الصادر له، هو أنّ ثلاثة من الأهداف الواجب ضربها كانت تقع خارج حدود الاتحاد السوفياتي، الذي كان عدواً محتملاً للولايات المتحدة في حرب توقعها الجانبان. ولهذا لم يقدم باسيت على تنفيذ الأمر، واتصل فوراً بقادة قواعد أمريكية أخرى متمركزة في الجزيرة اليابانية المحتلة من قبل قوات الولايات المتحدة، ونصحهم بإبقاء الصواريخ في مكانها. [https://arabic.rt.com/news/798481-%D8%B9%D8%B3]

أضاف بوردن الذي تواجد إلى جانب باسيت في تلك اللحظة الحاسمة لمصير سكان الأرض، أنّه سمع باسيت يقول في اتصال هاتفي مع مركز إدارة الصواريخ إنّ الأمر المشفر الذي استلمه لم يكن واضحاً. وقال: «لم تتم زيادة المستوى إلى DEFCON1، وهذه حالة غير عادية للغاية، ويجب علينا مواصلة العمل بحذر... قد يكون هذا (الأمر) واقعياً بالفعل، أو هو أكبر طفرة غير متوقعة نشهدها في حياتنا».

كما أمر باسيت جنديين اثنين كانا تحت إمرته بإطلاق النار على ضابط آخر كان يريد وضع يده على الزرّ المخصص بإطلاق الصواريخ، في حال شروع هذا الضابط في وضع أصبعه فعلاً على زر الإطلاق دون تلقيه أمراً مباشراً من باسيت. وأكد بوردن أنّ إدارة القاعدة التي كان باسيت مسؤولاً عنها أوصت بعدم إطلاق الصواريخ النووية. أمّا باسيت فحظر على العسكريين الذين شهدوا هذه الواقعة إفشاء ما جرى تلك الساعة وما حدث من اتصالات. توفي وِليَم باسيت عام 2011، وظل محتفظاً بهذا السرّ حتى مماته ولم يبلغ أيّ أحد بمأثرته هذه التي حالت دون وقوع كارثة نووية.

يناقش إلزبَرگ في الفصل الرابع من كتابه مسألة وجود الأسلحة النووية في اليابان، خاصّة في ميناء إيواكوني. أشارت اتفاقية الأمن المشترك بين البلدين إلى تعهد أمريكا بعدم وضع أية أسلحة نووية خارج جزيرة أوكيناوا، ويعلق الأمريكيون بسخرية مقيتة أنّ لدى اليابانيين «حساسية» اتجاه

تلك الأسلحة! يشدد المؤلف أنّ الولايات المتحدة تخالف بنود تلك الاتفاقية كلّ يوم، إذ تزور السفن وحاملات الطائرات والغواصات الأمريكية موانئ البلاد باستمرار وهي تحمل تلك الأسلحة. وهذا يشكل خطورة على كافة الموانئ والمدن التي يمكن أن تصبح أهدافاً لضربات انتقامية من أعداء أمريكا. إضافة إلى ذلك أنّ من الممكن أن تتعرض تلك السفن إلى عمليات تخريبية أثناء رسوّها يمكن أن تسفر عن انفجارات نووية. كما يمكن أن يحدث ذلك أيضاً بسبب حوادث تصادم عرضية أو نشوب حرائق على ظهر تلك السفن، تؤدي إلى انفجارات تنجم عنها إشعاعات وإطلاق مواد نووية في أجواء تلك المدن والموانئ.

وعليه ليس من الغريب أن تقابل الحركات الشعبية وأحزاب المعارضة الوجود الأمريكي على الأرض والمياه اليابانية باحتجاجات وتظاهرات لا تنقطع. فمثلاً، على خلفية قتل جندي أمريكي لامرأة يابانية وسلسلة حوادث مماثلة، شهدت جزيرة أوكيناوا إحدى أكبر المظاهرات خلال العقدين الماضيين، احتجاجاً على الوجود العسكري الأمريكي في اليابان. وجرت المسيرة الاحتجاجية، التي انضم إليها، حسب منظميها، أكثر من 65 ألف شخصاً بما فيهم محافظ أوكيناوا، تاكيشي أوناگا، ومسؤولون في الأحزاب اليابانية المعارضة، الأحد 19 يونيو 2016، في العاصمة الإدارية للمحافظة ناها، الواقعة بالقرب من قاعدتي كادينا وفوتيمنا الجويتين العسكريتين الأمريكيتين. كما انطلقت في ذات الوقت تظاهرة عشوائية تضامنية في محيط مقر البرلمان الياباني بطوكيو.

وفي حادث أخير، أثار أصداء شديدة بين السكان المحليين، قتلت فتاة يابانية في العشرين من عمرها على يد عنصر سابق في المشاة البحرية الأمريكية يعمل في إحدى القاعدتين الأمريكيتين كعامل مدني. انطلقت المسيرة، في ناها، بالوقوف دقيقة صمت حداداً على روح الفتاة القتيلة، لتتواصل بقراءة الرسالة التي كتبها والد الفتاة ووجهها إلى شعب اليابان وحكومتها من المنبر. واحتج المتظاهرون أيضاً على مخططات طوكيو وواشنطن لنقل القاعدة الأساسية لمشاة البحرية الأمريكية في أوكيناوا من وسط الجزيرة إلى ساحلها الشمالي، فيما طالب محافظ أوكيناوا، تاكيشي أوناگا، في كلمة ألقاها خلال المظاهرة، بإبعاد القاعدة عن الجزيرة بشكل كامل. واختتمت المسيرة بتوقيع عريضة طالبت حكومتي اليابان والولايات المتحدة بتقديم اعتذارات رسمية لعائلة الفتاة القتيلة ولجميع مواطني أوكيناوا.

يذكر أنّ شرطة الجزيرة اعتقلت، في 19 مايو من ذلك العام، مواطناً أمريكياً يدعى كِنِث شينزاتو، وهو مدني كان يعمل في قاعدة «كادينا» الجوية الأمريكية بالجزيرة ويبلغ 32 عاماً من العمر للاشتباه بأنّه قتل الفتاة رينا شيمابوكورو، وهي من السكان المحليين. واعترف الأمريكي

بارتكاب جريمة اغتصاب الفتاة وقتلها طعناً. [/https://arabic.sputniknews.com/world/201602221017579016] وتجدر الإشارة إلى أنّ أوكيناوا تحتضن 32 قاعدة عسكرية أمريكية (62 -% من القواعد العسكرية الأمريكية المنتشرة في اليابان) تغطي حوالي 25 -% من مساحة أراضي الجزيرة وتستوعب حوالي 50 ألف مواطناً أمريكياً من بينهم 26 ألف عسكرياً وعاملاً مدنياً. وتشكل هذه القوة حوالي 50 -% من العدد الإجمالي للوحدات الأمريكية المرابطة في اليابان، الأمر الذي يحوّل أوكيناوا إلى معقل جيوسياسي بالغ الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة، التي تستخدمه من أجل الدفاع عن مصالحها وتوسيع نفوذها في منطقة جنوب شرق آسيا المجاورة للصين، إحدى أكبر القوى في العالم التي تسعى إلى وضع حد للهيمنة الأمريكية على الساحة الدولية. من جهة أخرى، تواجه هذه القواعد، منذ فترة طويلة، اتهامات بإصدار ضجيج شديد وتلوث البيئة في الجزيرة، فيما يعتبر كثير من المواطنين وجود القواعد على الأراضي اليابانية نوعاً من الإرث الثقيل لمرحلة الاحتلال الأمريكي لليابان بعد الحرب العالمية الثانية.

ينتقل إلزبَرگ في الفصل الخامس ليتحدث عن اطلاعه على الخطط النووية للولايات المتحدة في المحيط الهادي، ضمن دراسة قام بها مع عدد من زملائه في المؤسسة. قرأ بتمعن وتركيز تلك الخطط، وقام فيما بعد بزيارة مراكز القيادة وحاملات الطائرات ومدارج إقلاع الطائرات وهبوطها في كافة قواعد المحيط المذكور بكامله. ظهر أمامه مباشرة إغفال مذهل. لقد افترض قبل أن يطرح أيّ سؤال، «أنّنا في أوج تخطيطنا للمواجهة النووية واستعدادنا للصدام أن يقتصر ذلك على خصم واحد هو الاتحاد السوفياتي، غير أنّني اكتشفت أنّه لا توجد أحكام إطلاقاً لمهاجمة الأهداف الروسية فقط. كافة خطط الحرب مع الاتحاد السوفياتي تشمل ضرب أهداف صينية، حتى المدن الرئيسية». كما وجد أنّ أفراد القيادة الذين التقى بهم متوثبون للهجوم على الصين. ظهر ذلك من أقوال قائد القوة الجوية في المحيط الهادي، الأدميرَل أكستروم، الذي صرح وهو يلتقط أنفاسه غضباً من تعليق المؤلف افتراض حرب على روسيا فقط، «يجب أن... نفترض... القليل... من العقلانية... لدى الجهات العليا... إنّهم سوف لن يفعلوا شيئاً... بالغ الجنون... للشروع بالحرب.... ضدّ قوة شيوعية... في حين تُترك القوى الشيوعية الأخرى... سالمة تسرح وتمرح على هواها».

وبطبيعة الحال، هناك خطورة جديّة يعكسها موقف هؤلاء العسكر المتعجرفين. وفقاً لتقرير نشرته صحيفة رول كول، «فإنّ مجلس علوم الدفاع... قد شجع الرئيس الأمريكي ترامپ على النظر في مسألة تحديث ترسانة الأسلحة، وإجراء جملة من التعديلات على الأنظمة الدفاعية وخطة التسلح،

وذلك لإنتاج عدد أكبر من [https://www.noonpost.com/content/16733] الأسلحة، المصممة خصيصاً للاستخدامات النووية المحدودة». في الواقع، تبدو ستراتيجية الاستخدام النووي المحدود بسيطة لكنّها مخادعة، فكلّ ما يستحقه تطبيق هذه الستراتيجية هو افتعال صراع ما، للتدخل وتوظيف الأسلحة النووية بحجة محاولة إنهائه.

وعلى ضوء هذه الستراتيجية، فإنّ استخدام أسلحة ذات قدرة نووية محدودة ضدّ إحدى قوات الأعداء التقليديين للولايات المتحدة، سيعكس مدى جدية المساعي الأمريكية، وأنّ واشنطن من الجنون بمكان أن تطلق حرباً نووية شاملة. وبالتالي، فإنّ هذه الستراتيجية ستجعل العدو يتراجع مهابة الخوض في حرب لا تحمد عقباها، بدل المخاطرة في الرد بالمثل، والمشاركة في حرب نووية، ومواصلة الأعمال العدوانية المعهودة. كان العديد من المفاهيم الستراتيجية المقترحة للتعامل مع الاتحاد السوفياتي، إما غير مسؤولة، أو غير متوافقة تماماً مع قدرات الولايات المتحدة الحالية، لذلك تم التخلص منها على الفور، حسب المقال.

من جهة أخرى، إذا خطر ببال متابعي هذا الشأن أنّ «الحرب النووية المحدودة» تبدو عبارة ملطفة، فهم حتماً على صواب. فكيف يمكن التخفيف من وقع قصف منطقة ما بقنبلة نووية، حتى ولو كانت الأسلحة ذات قدرة نووية محدودة؟ وبناء عليه، فإنّ الدخول في حرب نووية محدودة مع الصين أو روسيا، سينتج عنه لا محالة استخدام هذه الدول لرؤوسها النووية للانتقام. في واقع الأمر، إنّ التخطيط لاستخدام أسلحة ذات قدرة نووية محدودة، لا يعدو أن يكون سوى وهم خطير. فبالعودة إلى التاريخ الأمريكي، وضحت إدارة نِكسُن عدم جدوى هذا المفهوم، من خلال إدراج مخططها المتعلق بالضربات النووية المحدودة ضد الاتحاد السوفياتي، تحت مسمى «نظرية الرجل المجنون». وفي هذا الصدد، أشارت الصحيفة المذكورة في تقريرها، إلى أنّ «هذه التوصية ذات صبغة تطويرية لا ثورية»، حيث أنّ ستراتيجية الحرب النووية المحدودة لا تستند إلى مفهوم حديث جديد، بل هي في الواقع محض امتداد لنظرية سابقة ومتأصلة في التاريخ السياسي الأمريكي.

وفي موضوع ذي صلة بما ورد أعلاه، تناول المؤلف في فصله السادس الصراع الدائم القائم بين الجناحين المدني والعسكري في مبنى الپنتگون. يورد على ذلك مثال التستر على خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JSCP، وعدم رغبة العسكر في اطلاع الوزير ومن في مكتبه من المدنيين على محتواها، خوفاً من التدخل لتعديلها أو تحويرها سواء على مستوى الصدامات الشاملة والصدامات المحدودة مع الخصوم والأعداء. استطاع إلزبَرگ أخيراً «والشكر موصول للمقدّم بوب لُكمَن من الأركان الجوية، الذي هيّأ لي الفرصة ونحن في غرفة في قبو مبنى الپنتگون أنْ أقرأ (أقدس

المقدسات). وبذا تمكنت أخيراً أن أطلع على تعريف الحرب الشاملة، التي تعني الصراع المسلح مع الاتحاد السوفياتي».

لقد وضع العسكر المتعجرفون خططاً دموية لتدمير البشرية من خلال جرائم حرب ينفذونها بوسائل لا يتصورها العقل. ذكر المؤلف، «لقد حسبت مثلاً أنّ موسكو قد تقرر لها أن تُضرَب بأكثر من 80 سلاحاً نووياً. وهناك إحصائية ذكرت أنّ الرقم الصحيح هو 108 صاروخاً». ثم يمضي للقول إنّه في عام 1961 كانت توجد في حيازة سلاح الجو الأمريكي حوالي 1700 طائرة مقاتلة، بما فيها أكثر من 600 طائرة من نوع B-525. يوجد في ركن القنابل على كلّ طائرة من سلاح الجو هذا قنابل حرارية أكبر حجماً من تلك التي شاهدها بنفسه في أوكيناوا. ثمّ يشرح، «تتراوح قوة معظمها من 5-25 مِگاتن. تلك التي من عيار 25 مِگاتن تكون قوتها التدميرية أكثر من 1250 مرة من قنبلة الانشطار النووي التي ألقيت على نَگزاكي. وهي مساوية لما يقدّر 25 مليون طناً من مادة TNT، أو حوالي 12 مرة من مجموع أطنان القنابل، التي أسقطت خلال الحرب العالمية الثانية». ويذكّرنا أنّه يوجد في مخازن السلاح الأمريكية حوالي 500 قنبلة بقوة انفجارية تبلغ 25 مِگاتن. لكلّ من هذه الرؤوس النووية قوة نارية أكثر من كافة القنابل والمتفجرات التي استخدمت في كافة الحروب في تاريخ البشرية. «تشمل خطة المواقع المستهدفة من قبل القوات المهاجمة بكاملها تدمير كافة المواقع العسكرية وكلّ مدينة في الاتحاد السوفياتي والصين. لقد أعدّت أمريكا رأساً نووياً على الأقل لكلّ 25000 شخصاً في البلدين المذكورين».

يكشف المؤلف في نهاية الفصل حقيقة فحواها، «أنّ حلفائنا الأوروپيين الغربيين الأعضاء في حلف الأطلسي سيتعرضون للفناء مرتين. الأولى بواسطة الصواريخ السوفياتية متوسطة المدى المحمولة على عربات متحركة لم تستطع ضرباتنا الجوية من تحديد مواقعها لتصيبها. ثانياً، بواسطة الإشعاعات النووية التي تحملها الريح من مناطق الكتلة السوفياتية، التي تمّ قصفها نووياً بشكل مكثف». والسؤال هو بأيّ حقّ يهدد هؤلاء الأجلاف حياة سكان المعمورة بالفناء، خاصة في أوروپا وآسيا؟

إضافة إلى القتل البربري، تحدث الباحثون عن سيناريو آخر عن نهاية العالم في حالة الحرب النووية، وهو ما يعرف «الشتاء النووي». يكون هذا نتيجة مواجهة حامية بين أكبر قوتين نوويتين في العالم، تملكان 6450 و6850 رأساً نووية بالترتيب. حدوث هذا الاحتمال مرهون بإطلاق أمريكا وروسيا ألفي رأس نووي من كلّ جانب لتستهدف مدناً وأهدافاً رئيسية، وكلّ دولة ستحاول إسقاط الأخرى ومعهما سيسقط الجانب الأعظم من الإنسانية. سيترتب على ذلك انبعاث نحو 150 مليون طن

من الدخان الأسود الناتج عن احتراق المدن ومختلف المناطق التي ستشملها المواجهات. سوف تنتشر هذه الأدخنة إلى مختلف مناطق الأرض خلال فترة لا تتجاوز الأسابيع القليلة. وستهبط درجات حرارة الأرض إلى أكثر من ست درجات تحت الصفر وذلك خلال أول سنة عقب نشوب الحرب. [https://aawsat.com/home/article/1462711] وستنخفض إلى ما أدنى من أربع درجات تحت الصفر لفترة عقد كامل وذلك في المتوسط.

تشير الدراسة إلى أنّ نصف الكرة الشمالي سيعاني من درجات حرارة بالغة البرودة، لكنّ مختلف بقاع العالم ستتأثر بالظاهرة أيضاً. ووفقاً لتقديرات العلماء، فإنّ ذلك سيكون بمثابة تحول مناخي غير مسبوق في تاريخ البشرية سواء من حيث سرعتها أو نطاقها، كما أنّ معدلات الترسيب العالمي سوف تتراجع بنسبة 45 في المائة. ومع درجات الحرارة شديدة الانخفاض، لن تنجح تقريباً أيّة محاولة لزراعة المحاصيل، بما يضمن أنّ من لم يقضِ نحبه إثر المواجهة النووية، سوف يموت من الجوع، وحتى إذا لم تجرِ الأمور على هذا النحو، فإنّ اهتراء طبقة الأوزون، أحد الآثار الجانبية للحرب النووية، سيسمح بتسرب كميات كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية إلى سطح الأرض، وسوف يضر ذلك تقريباً بجميع المنظومات البيئية وسيجعل من الصعب على الإنسان التواجد في الطبيعة.

خصص المؤلف الفصل السابع لنقل تذمّر العسكريين وضيقهم بسلطة المدنيين عليهم. أورد مثالين صارخين عن جوهر المشكلة يتعلقان بقائد سلاح الجو الجنرَل كُرتِس لَومَي وأدميرال البحرية آلرايت بُرك. في مقابلة أجراها مع لَومي، الذي عيّنه الرئيس كندي بذلك المنصب، حول من يتدبر الأمور في حالة وقوع هجوم نووي مدمر على واشنطن من قبل الغواصات السوفياتية. تحدّث الجنرال بصوت خشن وطرح سؤالاً خطابيا، «بعد كلّ شيء، مَن هو الأكثر كفاءة في رأيك لاتخاذ القرار بشنّ الحرب النووية على أساس التحذيرات المسبقة، سياسي حصل على منصبه قبل شهرين فقط... أم رجل امضى حياته المهنية وهو يستعدّ لها؟» جادل لّومَي بازدراء واضح مسألة السلطة والتحكّم، فردّد «السلطة والتحكم! ماذا يعني ذلك؟ أن تخبر المحارب ماذا يجب أن يفعل. هذا هو المقصود بذلك. وهذا هو عمل العسكري المحترف. يتحدثون عن ممارسة الرئيس لحقه في السلطة والتحكّم. ماذا يعني الرئيس؟» ثمّ تلفظ الحرف الأول من الكلمة p وكأنّه يبصقه. ثمّ تابع، «سياسي! ماذا يعرف السياسي عن الحرب؟» ثمّ أطال تلفظ كلمة حرب w-a-a-a-r. «من يحتاج الرئيس إذا كانت هناك حرب w-a-a-a-r؟ لا أحد! كلّ ما نحتاجه منه هو أن يخبرنا أنّه توجد حرب».

الحادثة الأخرى تتعلق بأدميرَل البحرية آلرايت بُرك، الذي طلب منه وزير الدفاع مَكنمارا إعادة المدمرة سان خوان، التي تحمل الأسلحة النووية وهي راسية في المياه الإقليمية لليابان في

مخالفة صريحة لمعاهد الأمن المشترك بين البلدين، إلى قاعدتها في أوكيناوا. ذكر إلزبرگ بأنّ بُرك بدأ مناقشة مذكرته وتقرير التحقيق، دون أن يكلف نفسه عناء توضيح كيف استطاع الحصول على نسختين مسروقتين منهما. ذكر نيتزَ أمام مساعده هاري أنّ «بُرك كان غاضباً». كان معروفاً عنه سرعة الغضب، لكنّ هذا السلوك بحضور مساعد وزير الدفاع كان أمراً مفاجئاً بالنسبة إلى نيتزَ. لم يحاول بُرك إنكار الحقائق التي وردت في التقرير أو تبريرها. الشيء الوحيد الذي صرح به وسط غضبه أن سأل، «ماذا فكّرت وأنت تقوم بهذا العمل؟ أنت شخص مدني تتدخّل في عمليات سفن سلاح البحرية الأمريكية؟» ثمّ استمرّ يقول إنّه ليس من المقبول أن يفترض وزير الدفاع أنّ لديه السلطة لإخبار سلاح البحرية أين يضع سفنه.

شكل العسكر عنصر تحدّ للرئيس المدني كَنَدي الذي اعقب فترة حكم الرئيس الجنرَل أيزنهاور. دفعوه بأقصى ما يستطيعون لاتخاذ القرارات المتعلقة بشن الحرب، خاصّة وأنّ فترته اتسمت بالتوترات والتهديدات من قبل الدول الشيوعية خلال الحرب الباردة. زاد كَنَدي عدد المستشارين العسكريين الأمريكيين في فيتنام الجنوبية، وفي أبريل 1961، فشل مرتزقة الجيش الأمريكي عندما حاولوا الإطاحة بالحكومة الكوبية والرئيس فيدل كاسترو في عملية غزو خليج الخنازير. اغضب كندي العسكر حين رفض بعد ذلك خطط رؤساء الأركان المشتركة لتنظيم هجمات كاذبة على الأرض الأمريكية لنيل موافقة الشعب على شنّ حرب على كوبا. كانت تلك هي السنة التي أوقف فيها «الملازم كَنَدي» الإسناد الجوي لقواته المحاصرة، التي غزت خليج الخنازير. وكان امتنع فيها من هدم جدار برلين حين بدأ السوفيات بوضعه، ورفض إرسال مزيد من القوات المقاتلة إلى فيتنام وقبلها إلى لاوس. في أكتوبر 1962، اكتشفت طائرات التجسس الأمريكية وجود قواعد صواريخ سوفياتية في كوبا. تبع هذا فترة من التوتر عُرِفت باسم أزمة الصواريخ الكوبية، [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9] وكادت تقود العالم إلى حرب نووية. عُقِد مؤتمر فينا بين الرئيسين كندي وخروچوف، الذي تمخّض عن تفكيك قواعد الصواريخ السوفياتية في كوبا لحلّ الأزمة. ولكن نُقِل عن الجنرال لَومَي انتقاده لضعف موقف الرئيس كَندي في ذلك المؤتمر، وإصراره على غزو كوبا وإسقاط حكومتها، بغضّ النظر عن مقررات المؤتمر المذكور.

لو تساءلنا يوماً ماذا سيحدث لو اندلعت حرب نووية وما أكثر الدول التي ستتضرر وكم عدد البشر الذين من الممكن أن يموتوا، فكابوس الحرب النووية ليس مجرد تخيلات بل سيناريوهات كادت أن تقع أكثر من مرة. [https://arabic.sputniknews.com/world/201905191041163706-%D9] كان اندلاع

حرب نووية شاملة كابوساً خلال فترة الحرب الباردة، خاصة لدى الذين ولدوا في تلك الحقبة، بحسب ما نشرت مجلة «nationalinterest» الأمريكية. صوّر العديد من الأفلام الوثائقية والتاريخية إمكانية حدوث هذه الحرب والنتائج المترتبة عليها. فإذا وقع هجوم نووي شامل، فستعود معظم دول العالم الصناعي إلى العصر الحجري مرة أخرى، بالإضافة إلى مقتل مئات الملايين مباشرة. وربما يصل عدد القتلى بسبب الإشعاع والمرض والمجاعة في فترة ما بعد الحرب، إلى مليار شخص أو أكثر.

كشفت مؤسسة أرشيف الأمن القومي الأمريكي في عام 2011، عن وثيقة تعليمات أعدتها مجلس الأركان المشتركة. وكانت هذه الوثيقة تفترض اندلاع أزمة جديدة ببرلين، على غرار الأزمة التي وقعت في عام 1961، لكنّها كانت ستتصاعد إلى حرب واسعة النطاق بأوروبا الغربية، بحسب الوثيقة. كانت خطة الولايات المتحدة الخاصة بالحرب النووية تُعرف باسم SIOP، أو خطة «التشغيل المتكاملة الموحدة». أول خطة من هذا النوع قدمت في عام 1962، وعُرفت باسم SIOP-62، وجرى توثيق آثارها على الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو والصين.

وفقاً للوثيقة، فإنّ توقعات مستقبل دول الاتحاد الشيوعي، التي كانت ستتعرض للضربة الكبرى للقوة الذرية الأمريكية، كانت غير معلومة وقاتمة. قسمت الوثيقة سيناريوهات الهجوم إلى قسمين. السيناريو الأول كان من المنتظر أن يشهد ضرب الاتحاد السوفياتي وحلفائه بقوة الإنذار النووي الأمريكية، التي تمثل نسبة من إجمالي القوى النووية تكون في حالة تأهب دائم. أما السيناريو الثاني، فكان سيشهد استخدام الثقل الكامل للقوة النووية، والمعروف باسم «القوة الكاملة».

كان من المفترض أن تضرَب نحو 1000 منشأة مرتبطة بـ «القدرة على التوصيل النووي». وكان السيناريو، الذي افترض تحذيراً مسبقاً من وقوع هجوم سوفياتي وتوجيه ضربة وقائية أمريكية، سيشهد مهاجمة 75-% من هذه الأهداف بقوة الإنذار. ذكرت الوثيقة أن نسبة الأهداف التي كانت ستدمر تتراوح بين 83-% و88-%، مع ضمان تدمير 70-%. كان من المنتظر ضرب 199 مدينة سوفياتية، عدد سكانها يبلغ خمسين ألف نسمة أو أكثر. وهذا الهجوم كان سيحول 56 -% من سكان المناطق الحضرية و37 -% من مجموع السكان إلى ضحايا، معظمهم كان سيموت في نهاية المطاف، بسبب انهيار المجتمع بعد الهجوم.

وفي الصين، كان الهجوم سيضرب المدن، وهو ما كان سيحول 41 -% من سكان المناطق الحضرية و10-% من إجمالي السكان إلى ضحايا. وكان عدد القتلى المتوقع هناك بسبب الهجمات النووية الأمريكية يبلغ 1378000 شخصاً. وسيسفر عن تدمير 295 مدينة، تاركاً خمس مدن فقط،

يبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة أو أكثر، دون أذى. في حين كان 72 -% من سكان المناطق الحضرية و54 -% من إجمالي السكان سيصبحون ضحايا، وفقاً لأرشيف الأمن القومي الأمريكي. وهو ما يعني مقتل 108 ملايين نسمة من إجمالي 217 مليون نسمة. كان من شأن الهجوم الأمريكي النووي الشامل على الاتحاد السوفياتي والصين والدول الاشتراكية الأخرى في عام 1962، أن يؤدي إلى مقتل 335 مليون شخص في غضون أول 72 ساعة.

هذا هو الموضوع الذي خصص له إلزبَرگ الفصل الثامن من كتابه وتحدث عن الخطة، التي وضعها بنفسه وتضمنت إلغاء SIOP، أو خطة «التشغيل المتكاملة الموحدة»، وبالتالي مسألة تخويل العسكريين السلطة لشن حرب نووية دون الرجوع إلى الرئيس. واشترطت وضع أقفال مركبة على الأسلحة النووية تفتح بواسطة شفرات يبعثها الرئيس. طالبت بعدم قصف المدن والتجمعات السكانية واستثناء الصين ودول المنظومة الاشتراكية وعدم استخدام كافة الأسلحة، خاصة صواريخ پولارِس، وعدم زجّ كافة القوات في المعركة مرّة واحدة. كما اقترحت الاقتصار على استخدام الأسلحة التقليدية في بداية الصراع، وعدم تدمير جميع مراكز السيطرة والتحكم للعدو بغية الإبقاء على فريق يمكن التفاوض معه لإنهاء الحرب بأسرع وقت ممكن ومن ثمّ الانسحاب. «أرسِلت النسخة النهائية إلى نائب وزير الدفاع روزوَل گِلپاترِك ليوقع عليها، ثمّ أرسِلت إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة بتاريخ 5 مايو من عام 1961، وكان عنوان الخطة (توجيه سياسي لخطط الحرب المركزية)». ذكر المؤلف أنّ خطته أصبحت أساساً لخطط الحرب العملية، لكنّه قام بتعديلها ثلاث مرات «كي تصبح أقل استفزازاً لسلاح الطيران». جرى التعديلان الأولان في عامي 1962 و1963 في زمن إدارة كندي وجرى تعديل ثالث عام 1964 خلال حكم جونسُن.

أعدّ المؤلف بطلب من إدارة كندي الجديدة قائمة من الأسئلة حول خطط الولايات المتحدة لحرب نووية ضدّ الاتحاد السوفياتي والصين، احتوت على 30 سؤالاً. ناورت قيادة الأركان المشتركة وماطلت واضطرت في النهاية على الإجابة عن سؤال واحد فقط تعلق بعدد الخسائر البشرية، التي يمكن أن تنجم عن هجوم نووي على الاتحاد السوفياتي والصين ومنظومة الدول الاشتراكية الأخرى. «إذا تمّ تنفيذ الخطط الحربية القائمة، فكم عدد البشر الذين سيقتلون في الاتحاد السوفياتي والصين لوحدهما؟».

«كان الجواب على شكل مخطط وُضِع على الصفحة رقم 2 وأظهر أنّ 275 مليون شخصاً سيقتلون خلال الساعات الأولى من هجماتنا وأنّ 325 مليون شخصاً آخر سيكونون في عداد الموتى خلال 6 أشهر». وسيموت حوالي 100 مليون شخصاً آخر في بلدان أوروپا الشرقية الدائرة في فلك

السوفيات وفق خطط أمريكا الحربية الموضوعة. إنّ التفجيرات المترتبة على القصف النووي، التي ستحدث في الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه وفي الصين ستهلك القسم الأعظم من السكان في الكتلة السوفياتية - الصينية، وكذلك الشعوب المحايدة التي تجاورهما، مثل فنلندا والسويد والنمسا وأفغانستان وكذلك في اليابان وپاكستان. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار هبوب تيارات الرياح، فإنّ الفنلنديين سيُمحَون عن بكرة أبيهم بفعل الانفجارات التي ستحدث في قواعد الغواصات السوفياتية قرب حدودهم. وسيزيد هذا من عدد الخسائر البشرية بمقدار 100 مليون شخصاً آخرين، بدون إسقاط ولو رأس نووي أمريكي واحد على أراضي تلك البلدان الخارجة عن مناطق حلف الأطلسي وحلف وارسو. «تفصِح النتائج المتوقعة عن لا عقلانية مذهلة وجنون في قلوب وعقول من يخططون للحرب النووية وآلاتها المدمّرة». اختتم المؤلف فصله هذا بالقول، «في عام 1986 كان لدى الولايات المتحدة 23 رأساً نووياً، وكان لدى الاتحاد السوفياتي 40159. وعليه فإنّ مجموع ما تملك القوتان هو 63476 رأساً نووياً». وهذا عدد كاف لتدمير العالم آلاف المرات!

تاريخيّاً، كان أيزنهاور قد هدّدَ في عام 1953 بضرب الصين بقنبلة هيدروجينيّة، فيما طالبَ عدد من أعضاء مجلس الشيوخ دوريّاً بإلقاء قنابل ذريّة على روسيا. وكانت تهديدات خروچوف وإنذاراته وادعاءاته الفارغة «أنّ السوفيات يصنعون الصواريخ كما السّجق»، من الأمور التي زادت من هلع العسكر الأمريكيين، كما كشف المؤلف في فصله العاشر. تحدث عن أزمة برلين ومسألة «فجوة الصواريخ» التي اعتمدها سلاح الطيران للمطالبة بزيادة تمويله لإنتاج مزيد من الصواريخ البالستية، في حين كشفت صور القمر الاصطناعي الأمريكي كورونا أنّ السوفيات يمتلكون 4 صواريخ فقط! ضغط سلاح الطيران بشكل أكبر لزيادة حجم قوة صواريخه برفع عددها وتعمد قادة هذا السلاح تخفيض أرقامهم أصلاً لكي تجاريهم إدارة كنَدي فتخصص الأموال لزيادة الإنتاج والأعداد حسب طلبهم. أورد المؤلف، «أنّ الوزير مَكنَمارا لم يستطع الاعتراف حتى داخل البنتگون بأنّه يفكّر بتحديد عدد الصواريخ وجعله 1000 صاروخاً، الذي كان هو هدفه غير المعلن. أمّا الجنرَل پَوَر، وبمساندة من الجنرَل لومَي، فكان يطلب 10000 صاروخاً. أخبر وزير الدفاع الرئيس بأنّنا في الحقيقة لم نحتج أكثر من 400 صاروخاً، لكنّه مال إلى 1000 صاروخاً ليستطيع أن يحصل على موافقة الكونگرس وينفذ بريشه».

أمّا عن برلين فقد كانت موضع أزمة مع الاتحاد السوفياتي مرتين. بنهاية الحرب العالمية الثانية، احتلّ الحلفاء الجزء الغربي لألمانيا والاتحاد السوفياتي الجهة الشرقية. ثمّ أقر ذلك مؤتمر پوتسدام عام 1945 باعتبار ألمانيا مناطق نفوذ أمريكية، سوفياتية، فرنسية، بريطانية. انتهت

المفاوضات بين الدول المنتصرة في الحرب، حول مستقبل وضع ألمانيا إلى طريق مسدود، فاتفقت كلّ من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا في ندوة لندن أبريل يونيو 1948 على توحيد مناطق نفوذها. أثار ذلك غضب ستالِن فقرّر ضرب حصار على برلين الغربية. حاول السوفيات إجبار القوات الغربية على الرحيل إلا أنّ القوات الغربية تمسكت بمواقعها. وعلى أثر ذلك قامت الولايات المتحدة بإرسال مساعدات لسكان برلين البالغ عددهم 2.2 مليون نسمة، حتى قام السوفيات بفك حصارهم واعتبرت الولايات المتحدة ذلك انتصاراً حققته ضد السوفيات في إطار الحرب الباردة. أعلن استقلال ألمانيا الغربية في مايو 1949 وتلاه استقلال ألمانيا الشرقية في أكتوبر 1949. ولمواجهة الشرق أدمجت الدول الغربية مناطق نفوذها من خلال مؤتمر لندن 1948 المذكور وطالبت بإقامة حكومة مركزية. لكنّ ذلك لم يرض الاتحاد السوفياتي فقام بحصار برلين الغربية. وكان ردّ فعل الدول الغربية هو إقامة جسر جويّ طيلة سنة 1949، وتمّ رفع الحصار بالإعلان عن قيام جمهورية ألمانيا الغربية الرأسمالية بتاريخ 5 أغسطس عام 1949 وألمانيا الشرقية الاشتراكية بتاريخ 7 أكتوبر من السنة ذاتها. وفي سنة 1961 تجددت الأزمة وتمّ بناء جدار للفصل بين شطري المدينة.

;://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%B1_%D]
[8%A8%D8%B1%D9%84%D9%8A%D9%86

يمضي المؤلف للقول، «شعرت، كما حال.....، أنّه من المهم جدّاً أن نبقي على موقفنا في برلين قدر الإمكان، لكنّني ما اعتقدت إطلاقاً أنّ حرباً نووية في أوروبا أو في أيّ مكان في العالم، مبرّرة لهذا السبب وحده». تراجع وهو بكامل وعيه عن الموقف باعتماد التهديد، «الذي رأيت أنّنا يجب ألّا نلجأ إلى تنفيذه. اعتقدت ومعي عدد من الزملاء في راند، بما فيهم هاري رَوِن ومورتِن هالپرِن، الذي كان مستشاراً شاباً في قضايا نزع السلاح، أنّ الولايات المتحدة يجب أن تتحاشى إشعال حرب نووية محدّدة أو شاملة، تحت أي ظرف، لأنّها ستكون كارثية». لقد شعروا بقوة إزاء هذه المسألة، رغم أنّه موقف تعارض مع سياسة الدفاع للولايات المتحدة وستراتيجيتها في حلف الناتو القائمة على الاستعداد لتنفيذ وعودها وتهديداتها بحرب نووية ضدّ القوات السوفياتية التقليدية الكبيرة العدد في شرق برلين وحولها، المؤلفة في غالبها من فرق دبابات ذات بأس.

احتفظ المؤلف لنفسه من خلال اعترافه بحق استفزاز خروچوف وجعله يتصرف بتهور، وذلك من خلال إعداده لخطابين. ألقى الأول روزوِل گِلپاترِك، نائب وزير الدفاع، أمام رجال الأعمال في فرجينيا، ودفع القيادة الروسية لاختلاق أزمة برلين والتفكير بقطع طرق الوصول إلى غرب المدينة. أما الخطاب الثاني فقد ألقاه روبرت مَكنَمارا في حفل تخرج طلبة جامعة مِشِگَن في آن آربر، ودفع

السوفيات لينشروا صواريخهم البالِستية متوسطة المدى، والتي استهدفت فرض حالة التوازن الستراتيجي ضدّ التفوّق الأمريكي، والتحذير من إقدام الولايات المتحدة على الضربة النووية الأولى. كانت الصواريخ السوفياتية هذه المرة في طريقها إلى منطقة الكاريبي. الخطاب الثاني نسخة معدلة من خطاب ألقاه وزير الدفاع في اجتماع سريّ أمام قادة حلف الناتو في العاصمة أثِنا.

ذكر إلزبَرگ في نهاية فصله الحادي عشر أنّه حذف ما قدّمه مَكنمارا من نتائج الدراسات حول الحرب النووية الافتراضية، التي ظهرت عام 1966، حين قارن المسارين اللذين يمكن أن تأخذهما تلك الحرب الوهمية. إذا التزم الجانبان بمهاجمة الأهداف العسكرية فقط فستبلغ ضحايا الولايات المتحدة 25 مليون مواطناً، وسيعاني السوفيات نفس عدد الخسائر أيضاً. ويخسر الأوروپيون أعداداً أقلّ من ذلك. ولكن إذا شرع الجانبان في ضرب المناطق الحضرية - الصناعية فإنّ الولايات المتحدة ستخسر 75 مليون مواطناً يقابلهم 100 مليون مواطناً في الجانب السوفياتي. وستخسر أوروپا 115 مليون مواطناً. وضع لذلك شروطاً لخّصها بالقول، «بدلاً من تشجيع محاولات الاستقلال، كما في واقع القوة النووية الفرنسية، التي ستفسِد ستراتيجيتنا وتجعلها غير ممكنة، لأنّها تنوي ضرب المدن السوفياتية ومراكز القيادة والسيطرة في بداية الحرب».

كانت مداخلته أنّ ستراتيجية الولايات المتحدة تحت قيادة مركزية، لها الفرصة الأفضل والوحيدة لتحقيق نتائج الخيار الأول بدلاً من الخيار الثاني في حرب نووية مستقبلية. اعترف المؤلف أنّه لم تتهيأ له الفرصة لمعرفة النوايا من استفزاز الفرنسيين، وبدا له أنّ روبرت مَكنَمارا، كما حال بِل كوفمَن، غاضب من الجنرَل ديگول وخططه النووية المستقلة.

جُرّبت أول قنبلة نووية فرنسية سطحية بقوة ثلاثة أضعاف قنبلة هِروشِما باليابان عام 1945. تلتها قنبلة «اليربوع الأبيض»، ثم «اليربوع الأحمر» حسب ترتيب الألوان الثلاثة للعلم الفرنسي، لتختتم التجارب الاستعمارية النووية بمنطقة حمودّية رقان بالقنبلة الرابعة والأخيرة التي سميت «باليربوع الأخضر». كان هذا في 25 أبريل 1961، لتنفتح شهية النظام الديگولي من أجل التنويع في التجارب النووية في العديد من مناطق الصحراء الجزائرية لتصل قوة تفجيراتها إلى 127 كيلوطن من خلال التجربة الباطنية بمنطقة «إينكر» بالهقار!

[https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA]

تعتبر تجارب رقان النووية أهم الاتفاقيات التاريخية ببن فرنسا وإسرائيل من خلال الاتفاق السري الذي وقعه الطرفان مع بعضيهما عام 1953. كانت إسرائيل تبحث عن الأرض لإجراء مثل

هذه التجارب من خلال توفر 11 أستاذاً في الذرة شاركوا في تجارب أوكلاهوما الأمريكية و6 دكاترة و400 تقنياً في نفس الاختصاص. في الوقت ذاته، كانت فرنسا تبحث عن الحلقة المفقودة في امتلاك القنبلة النووية بعد أن تخلى عنها حلفاؤها القدماء أمريكا وبريطانيا، وامتنعتا عن تزويدها بالطرق والمراحل التجريبية الميدانية للتفجير النووي. كما استفادت فرنسا بشكل كبير من رؤوس أموال أغنياء اليهود لضمان القوة النووية للكيان الصهيوني بغية تأمين بقائهم في منطقة الشرق الأوسط. هكذا شهدت سنوات الخمسينيات أول مراحل التعاون في التراب الجزائري بعد الصواريخ المتوسطة المدى التي طورتها فرنسا لإسرائيل وجربتها في منطقة بشار على مجاهدي الثورة الجزائرية، والذي أطلق عليه اسم (ياريحو) بالعبرية، ما يعني بلدة أريحا الفلسطينية باللغة العربية. لقد تم إنجاز هذا المشروع عام 1957 بسرية وتكتم تامين.

صرح الجنرال فاو أنّ إجمالي التفجيرات بالصحراء الجزائرية 117 تفجيراً نووياً بمختلف المقاييس. في يوم الانفجار الموافق 13 فبراير 1960، أحس السكان بزلزال كبير متبوع بغبار كثيف مع وميض ضوئي يمكن رؤيته من منطقة كرزاز (بشار) على بعد 650 كلم من منطقة حمودّية. في ذلك اليوم سجلت فرنسا دخولها المدوي إلى نادي القوى النووية مخلفة وراءها بالحمودّية نفايات نووية ملقاة فوق الأرض لا زالت بعد نصف قرن تخلف ضحايا لها.

عاش العالم 13 يوماً عصيباً في عام 1962 مخافة حدوث حرب نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. قبول احتمال الحرب ليس مسألة نفسيّة، ولا يتعلّق حصراً بدرجة تقبّل الخسائر والتضحية، بل هو في أن تكون مستعدّاً فعلياً ومادياً لهذا الاحتمال، وقد أعددت العدّة له، وهيّأت نفسك ومجتمعك للحظة الحرب. هذا الخيار ينبع عادة من قناعةٍ بأنّ كلفة ردّ الصفعة تصبح أقلّ من كلفة البديل وأنّك، في عالمنا وإقليمنا، محكومٌ عليك بأن تصير عالة وإمّعة، أو ضحيّة، إن لم تقدر على الدفاع عن نفسك. والكثير من الشّعوب يدفع أكلافاً تفوق بكثيرٍ كلفة الحرب، لأنه لا يقدر عليها. المسألة، بالطبع، ليست في أن تقفز إلى مواجهات لم تتحسّب لها، وتجرّ معك بلدك ومستقبله، أو أن تفهم الحرب كمغامرة، أو ضربة قد تصيب وتكسب، فهذا تماماً منهج صدّام حسين. ومشكلة صدّام ليست فقط في أنّه أعادنا عقوداً إلى الوراء، بل في أنّه أصبح مثالاً سيّئاً لمحبّيه وكارهيه، أي بين من يستنسخ، من جهة، هزائم صدّام ومنهجه، ويقدّسها ويعتبرها مقياس الوطنية، وبين من يتّهم كلّ من لا يقود سياسته خوفٌ لاعقلاني من الغرب ومن الحرب بأنّه يسلك، بالضرورة، مسار صدّام وطريقه [https://www.al-akhbar.com/Opinion/274796]

الموضوع خلاصة أنّ أجهزة الدفاع الجوي في كوبا أسقطت طيارة استطلاع أمريكية من نوع

U2 باستخدام صاروخ SAM الروسي الصنع. سقطت الطائرة في المياه الإقليمية الأمريكية فتكتموا على الأمر أوّلاً. بعد مراجعة الصور التي بعثتها الطائرة، لوحظ وجود منطقة مكشوفة وسط غابات شمال غرب الجزيرة وأنّ أشخاصاً يلعبون كرة القدم! كان ذلك شيئاً غريباً لأنّ الكوبيين لا يعرفون كرة القدم ويلعبون لعبة البيسبول. المهم، تمّ رصد مواقع ثابتة لإطلاق صواريخ وأخرى منصوبة على عربات متحركة. بعبارة أخرى، أنّ السوفيات تمكنوا من وضع 38 صاروخاً بالِستياً متوسطة المدى في كوبا تهدّد الأرض الأمريكية، والجماعة نيام. باستطاعة تلك الصواريخ تدمير كافة المدن الكبرى على الساحل الشرقي للبلاد من ميامي إلى أتلانتا ثم ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية، والعاصمة واشنطن ومدينتي نو يورك وبوسطن ثم شمالاً حتى ولاية مَين. كما تستطيع صواريخ السوفيات الوصول إلى القواعد الجوية في العمق الأمريكي، بما فيها منطقة أوماها حيث مقر قيادة سلاح الطيران والمطارات العسكرية والمدنية التي نُقِلت إليها الطائرات القاذفة بعيدة المدى.

جُنّ جنون الأمريكان، فتحدث الرئيس كَنَدي إلى الشعب الأمريكي مساء ذلك اليوم، الاثنين المصادف 22 أكتوبر من عام 1962، وأصدر إنذاراً شديد اللهجة للسوفيات معتبراً أنّ نصب الصواريخ يعتبر هجوماً على نصف الكرة الأرضية الغربي، وأعلن حصاراً على الجزيرة لمنع وصول المزيد من تلك الصواريخ. تصرّف خروچوف بهدوء ولم تقترب سفنه من خط الحصار. غير أنّه بعث رسالة وصفها المؤلف بالواقعية والاتزان وعرض سحب تلك الصواريخ مقابل تعهد بتوقيع الرئيس كَنَدي نفسه بعدم غزو الجزيرة. أعقب ذلك برسالة ثانية صباح اليوم التالي، طالب فيها بسحب الصواريخ الأمريكية الموجودة في تركيا. غضب العسكر المتحفزون للانقضاض على الجزيرة ورفضوا عرض خروچوف. «استمرت مجموعات العمل في خططها للمضي في ضربات جوية يعقبها غزو كان مقرّراً له أن يبدأ بعد يومين». لكنّ كَنَدي وبعد تفكير عميق اختار السلام ففاجأهم ووافق على العرض الروسي، وانتهت الأزمة وفق تلك الشروط. اختتم المؤلف فصله الثاني عشر بالقول، «شعرت بشيء من التأكّد أنّ خروچوف كان على وشك التنازل، لكنّ كَنَدي تراجع بشكل كارثي، حين ما كان عليه أن يتراجع». باعتقادي أنّ ذلك ربّما قد تكون له علاقة باغتيال كَنَدي بعد عام تقريباً، أي بتاريخ 23 نوفمبر من عام 1963.

ألقى المؤلف في الفصل الثالث عشر مزيداً من الأضواء على أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962.

- لا شكّ أنّ إسقاط طائرة استطلاع أمريكية فوق كوبا صباح يوم السبت قد شكّل تصعيداً مشؤوماً للأزمة. وكما تبين فإنّ نتيجة ذلك كان الاعتراف بخسارة الرائد

الطيار أندِرسُن، وهو الأمريكي الأول والوحيد على يد القوات السوفياتية خلال الحرب الباردة. ولكن إلى جانب طائرات U2 الاستطلاعية، كانوا يبعثون أيضاً طائرات استطلاع صغيرة تجتاز الجزيرة على ارتفاعات منخفضة جيئة وذهاباً كلّ ساعتين. كانت أيضاً تلقي قنابل صوتية لإرعاب السكان الكوبيين، وتمّ إسقاط إحداها صباح اليوم ذاته.

- من الأسرار التي اختار خروچوف عدم البوح بها في ذلك الوقت وظلت مجهولة من قبل كافة الأمريكيين، لمدة 25 عاماً أو أكثر. أوّلاً لم يكن عدد العسكر السوفيات في كوبا 7 آلاف جندياً وضابطاً، كما افترِض مسبقاً، أو 17 ألف ضابطاً وجندياً، حسب تقديرات وكالة المخابرات المركزية عند انتهاء الأزمة. كان العدد الفعلي 42 ألفاً. ثانياً، بالإضافة إلى صواريخ سام والصواريخ البالِستية، جلب السوفيات إلى الجزيرة أكثر من 100 رأساً نووياً تكتيكياً صغيراً.

- شعر ملاحو السفن الأمريكية بالغبطة لمواجهة بحرية مع غواصة سوفياتية لأوّل مرة تحت مثل تلك الظروف. لم يكن أحد من قادة السفن الأمريكية المشاركة في الملاحقة، على علم أنّ الغواصة، التي كانت من الصنف البطيء وتعمل بقوة الديزل، مزودة بطوربيدات نووية قوّة كلّ منها تبلغ 10- 15 كيلوطن، بنفس قوة قنبلة هِروشِما، وكانت قادرة على تدمير عدد من تلك السفن الأمريكية التي تلاحقها بضربة واحدة. كانت المدمرات البحرية والحاملات وطائرات الهليوكوپتر تتابع أماكن تواجد وتحركات 3 من أصل 4 غواصات من نوع فوكستروت تمّ إرسالها إلى منطقة البحر الكاريبي. شعر قائد الغواصة المذكورة وضباطها أنّ غواصتهم تتعرض لهجوم، لكنّهم حافظوا على هدوء أعصابهم.

- اقترح كندي خلال لقاء أخيه روبرت بالسفير السوفياتي دوبرِنِن سحباً متبادلاً للصواريخ من كوبا وتركيا، على أن ينسحب السوفيات خلال 48 ساعة وينسحب الأمريكيون من تركيا خلال 4- 5 أشهر، شرط أن تظل مسألة الانسحاب الأمريكي سرية. تململ كاسترو من ذلك الاقتراح واشترط حماية نظامه، فعدّل السوفيات موافقتهم على شروط كَنَدي، بإضافة تعهد بعدم غزو الجزيرة.

- في الليلة التي تقابل فيها روبرت كَنَدي مع السفير دوبرِنِن، ورد في مجريات الحديث

بينهما، «إنّ أولئك الذين يفضلون الدبلوماسية قد فقدوا قوة الدّفع... سيكون من الصعب الوقوف بوجه التيار. الجنرَلات متحفزون للقتال. إنّهم يريدون بدأ الهجوم». فحوى الرسالة التي تلقاها خروچوف من سفيره دوبرِنِن، هي أنّ استمرار الأزمة وتصاعدها قد يعرّض كَنَدي لمحاولة انقلاب عسكري.

اعترف المؤلف في نهاية الفصل أنّ الجنس البشري اقترب من نهايته في شهر أكتوبر من عام 1، أقرب ممّا تصوره أيّ مسؤول في مركز عال في حكومة الولايات المتحدة في تلك اللحظات، أو في الأعوام الأربعين التي تلتها. بالتأكيد، كانت النهاية أقرب ممّا كان يدركه، ليس لأنّ الرئيسين مدفوعان أو لم يُدركا الأخطار المحتملة الشديدة. قال، «في الحقيقة كان كلاهما حذراً إلى درجة لم يعياها، أكثر ممّا يعرفه العالم أو أغلب الأفراد المحيطين بهما. وأكثر من ذلك، أنّ لديهما اشمئزاز مشترك لفكرة الحرب النووية، وقد عرفا بأنّ مثل هذه الحرب ستقضي على الحضارة، بل على البشرية.».

التاريخ يعيد نفسه. كانت القمة التي عُقدت في أكتوبر 1986 بين رونلد ريگن وميخائيل گرباچوف، واحدة من أكثر اللحظات إثارة وتلقائية في الحرب الباردة. لو استمرت قمة رِكافِك يوماً آخر، لكان ممكناً أن يتوصلا إلى اتفاق لخفض أسلحتهما النووية، ولكانت القمة حققت النجاح. لكن ذلك لم يحصل. وبحسب ما يروي، كان الاتفاق مرغوباً، لكنّه مستحيل. [https://elaph.com/Web/Culture/2019/08/1262420.html] فالجانبان أدركا أنّ لديهما رؤوساً وصواريخ نووية أكثر كثيراً من حاجتهما الفعلية. وعرف الجانب السوفياتي من جانبه أنّ تكلفة صيانة الأسلحة النووية كانت تشلّ الاقتصاد. بالتالي، شكلت القمة اختراق طبقات الجليد من عدم الثقة بعدما جنّبت خيوط رفيعة من الحظ العالم نهاية مروعة. وبصرف النظر عن التفاصيل، من البديهي القول إنّه كان سيكون من الصعب على الدولتين العظميتين إلغاء ترسانتيهما النوويتين من دون قيام الصينيين والهنود والإسرائيليين وغيرهم من الدول بالشيء نفسه.

خصّص المؤلف فصله الرابع عشر للحديث عن قصف المدن باعتباره جريمة حرب، وبدأه بنداء وجّهه الرئيس الأمريكي روزفلت «لكافة الحكومات، التي لها ضلع بالأعمال العدوانية ضدّ المدنيين علناً». طالبها أن تعبّر عن التزامها بأنّ قواتها المسلحة، تحت أيّ ظرف وفي أيّ موقع، لن تلجأ إلى القصف الجوي للتجمعات السكانية والمدن غير المحصنة، وأن تعمل بموجب قواعد الحرب المعروفة، التي يجب العمل بها من قبَل كافة الأطراف، وطلب من الجميع الاستجابة المباشرة لهذا النداء».

من مفارقات القدر أنّ الولايات المتحدة كانت أوّل من طوّر السلاح النووي واستعمله. قام طيرانها بقصف مدينتي هِروشِما ونَكَزاكي باستخدام قنابل نووية بسبب رفض تنفيذ إعلان مؤتمر بوتسدام، الذي كان نصه أن تستسلم اليابان استسلاماً كاملاً بدون أيّ شروط. إلا أنّ رئيس الوزراء الياباني سُزوكي رفض ذلك القرار وتجاهل المهلة التي حدَّدها إعلان بوتسدام. وبموجب الأمر التنفيذي الذي أصدره الرئيس هَري ترومَن، قامت الولايات المتحدة بإطلاق السلاح النووي **الولد الصغير** على مدينة هِروشِما يوم الاثنين الموافق 6 أغسطس عام 1945، ثم تلاها إطلاق قنبلة **الرجل البدين** على مدينة نَكَزاكي بعد ثلاثة أيام، في التاسع من الشهر ذاته. كانت هذه الهجمات هي الوحيدة التي تمت باستخدام الأسلحة النووية في تاريخ الحرب.

قتلت القنبلتان ما يصل إلى 140000 شخصاً في هِروشِما، و80000 شخصاً، في نَكَزاكي بحلول نهاية سنة 1945، حيث مات ما يقرب من نصف هذا الرقم في نفس اليوم الذي تمت فيه التفجيرات. ومن بين هؤلاء، مات 15- 20٪ متأثرين بالجروح أو بسبب آثار الحروق، والصدمات، والحروق الإشعاعية، يضاعفها الأمراض، وسوء التغذية والتسمم الإشعاعي. ومنذ ذلك الحين، توفي عدد كبير بسبب سرطان الدم (231 حالة) والسرطانات الصلبة (334 حالة)، نتيجة التعرض للإشعاعات المنبثقة من القنابل. كانت معظم الوفيات من المدنيين في المدينتين [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7].

إنّ بين مسؤولي الطيران من أمثال دَوهَت في إيطاليا واللورد ترَنچَرد في بريطانيا والجنرَل بَلي مِچِل قائد العمليات الجوية الأمريكية في فرنسا، هم من رحّب بفكرة «الاستخدام الستراتيجي للقوة الجوية»، باعتبارها أفضل السبل لخوض الحروب في فترة الثلاثينات. وعمل مسؤولون بريطانيون مثل وِنستُن چَرچِل على إذكاء روح العدوان والكراهية وإذلال ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، واستغل ضدّها كافة الفرص والمبررات في مطلع الحرب العالمية الثانية، مثل قضية الغارة على نوتردام في هولندا.

وهي الغارة التي جعلت چَرچِل يبرّر قراره بعد تسلمه لمنصبة لمدة 4 أيام فقط ليصدر أمراً لسلاح الجو الملكي بالإغارة على المناطق السكنية في ألمانيا. وهو شيء أراده وآمن به لوقت طويل. ذكر للوزير المسؤول عن إنتاج الطائرات الحربية بتاريخ 8 يوليو من عام 1940، «الشيء الوحيد الذي سَيُجبر هِتلر على الانسحاب والسقوط هو الهجوم المدمّر تماماً والفاني بواسطة القاصفات الثقيلة، التي ستنطلق من هذا البلد متجهة إلى وطن النازية. يجب أن نكون قادرين على أن نطغي عليهم بهذه السبل». لقد كان ضرورياً في أذهان الرأي العام البريطاني والعديد من المسؤولين، أنّ تلك السياسة

البريطانية كانت في إطار المعاملة بالمثل. صرّح چَرچِل، «هذه هي الطريقة التي نردّ فيها عليهم، وهي من حقنا الشرعي. في الحقيقة إنّها التزام أخلاقي مطلوب منّا القيام به. إذا كان بدأ هذا النوع من الحرب، فإنّه يتعيّن علينا أن نقابله بالمثل».

ضرب المدن بالقنابل ليس أمراً جديداً في حياة چَرچِل. في عام 1920 حين كان وزيراً للمستعمرات، قامت في العراق ثورة ضدّ الاحتلال البريطاني للبلد، الذي قالوا إنّهم «جاءوا إليه كمحررين لا فاتحين!». لعبت عشائر الجنوب والوسط دوراً حاسماً واشتبكت مع القوات البريطانية. في ضحى أحد أيام شهر مايو من ذلك العام أسقطت طائرة بريطانية صغيرة قنبلة على سوق مدينة الناصرية في جنوب العراق، فقتلت شخصاً وجرحت عدداً من المواطنين، كان بينهم ولد بعمر 10 سنوات، حين بُترت ذراعه نتيجة انفجار القنبلة، فأصبحت كنيته منذ ذلك الحين «عباس دانه!» وكلمة «دانه» تعني قنبلة في لهجة تلك المدينة.

جدير بالذكر أنّ چَرچِل لعب إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية دوراً تخريبياً أساسياً لبدء الحرب الباردة نتيجة زعزعة الثقة في الحليف الذي دخل جنوده ودباباته برلين بعد أن طاردوا قوات النازية من أطراف مدينة ستالِنگراد حتى العاصمة الألمانية. يختتم المؤلف فصله بالقول، «لكلّ طنّ من القنابل، التي ألقيت على إنگلترا خلال فترة 9 أشهر، أسقطت طائرات إنگلترا والولايات المتحدة، خاصة إنگلترا، ما يعادل 100 طناً من القنابل على المدن الألمانية. ونجم عن تلك الغارات مقتل أكثر من نصف مليون مواطن ألماني من المدنيين».

انتقل المؤلف من قصف المدن في الفصل الرابع عشر إلى إحراقها في الفصل الخامس عشر. يمكن تسجيل الملاحظات التالية. ساعد الفاشست والنازيون حكومة فرانكو الفاشية في إسپانيا في أواخر الثلاثينات فقصفوا مدريد وبعض المدن الأخرى، التي منها ما خلده پِكاسو في لوحته الفنية. في مطلع الأربعينات بدأ إحراق المدن من قبل البريطانيين وإبادة الأحياء السكنية وفق الخرائط. قصفوا برلين 5 مرّات قبل أن تُضرَب لندن بحوالي 200 طناً من المتفجرات التي ألقيت على مساحة ميل مربع واحد. ثمّ تلاه إحراق مدينة هامبُرگ ليلة يوم 27 يوليو عام 1943. فقد ما يقرب من 44000 مواطناً من ساكني المدينة حياتهم في تلك الليلة المرعبة. وجرى بعده إحراق مدينة درسدن المتأخر الذي لم يخدم أيّ غرض عسكري، فقد كانت ألمانيا على وشك الهزيمة. أورد المؤلف قول أحد المسؤولين، «كانت عاصفة النار في درسدن هي الأسوأ. ولكن من وجهة نظرنا، كانت ضربة حظّ. لقد أغرنا على برلين 16 مرّة بنفس القوة التي أغرنا فيها على درسدن. حاولنا في كلّ مرّة أن نخلق عاصفة نارية. لم يتميز الوضع في درسدن بشيء سوى أنّ كافة ما خططنا له جرى حسب الأمر

المطلوب. كان الأمر يشبه محاولة ضرب كرة لعبة الگولف لإدخالها في الحفرة. من المؤسف أنّه كانت لدرسدن أهمية عسكرية قليلة وأنّ المذبحة جاءت في وقت متأخر جدّاً، ولم يكن لها تأثير على مجريات الحرب وأوضاعها». هاجمت طائرات سلاح الجو البريطاني مدينة درسدن مستعملة قنابل المگنيسيوم مساء يوم أربعاء الرماد الموافق 13 فبراير من عام 1945. قامت القاصفات الأمريكية في اليوم التالي بالإغارة على المدينة مستعملة قنابل شديد الانفجار والقنابل الحارقة في وضح النهار، يوم عيد فالنتاين. في اليوم الذي تلاه استعملت قنابل دخانية كوّنت طبقة كثيفة من الغيوم فوق المدينة، حسب رواية المؤلف.

أمّا في اليابان، فقد استخدم الجنرَل لَومَي طرقاً جديدة تقوم على الطيران المنخفض واستخدام قنابل المگنيسيوم شديدة الانفجار وإلحاقها باستعمال قنابل الناپالم. تدمّر القنابل هياكل البيوت والمباني وتأتي نيران الناپالم فتلتهمها، نتيجة تكوين تيارات هوائية تذكي النيران اشتعالاً وتنشرها بسرعة فائقة. استخدم لَومَي تلك الفكرة لتدمير طوكيو بغارة نارية ليلة 10- 9 مارس من عام 1945 وبعدها تدمير 6 مدينة يابانية. «قُتِل خلال تلك الليلة ما يقرب ما بين 80 ألفاً إلى 120 ألفاً من المدنيين، واضطرّ حتى طياري القاصفات وملاحيها لاستخدام أقنعة الأوكسجين وهم على ارتفاع 5 آلاف قدماً في الجو، أي بمقدار ميل فوق اللهُب المستعرة، كي لا يتقيأوا نتيجة شمّ روائح اللحم البشري المحترق». أشار أحد التقارير إلى تقديرات لومَي بأنّ مساحة 51 ميلاً مربعاً من المدينة قد دُمّرت تماماً.

وأخيراً جاء القرار لتجريب استخدام القنبلة الذرية. أصدر ترومَن قراره بإسقاط قنبلتين على اليابان. الأولى على هِروشِما والأخرى على نَگزاكي بتاريخ 6 و9 من شهر أغسطس عام 1945. العذر هو أنّ ذلك كان البديل لغزو أمريكي، ما كانت له ضرورة، لأنّ اليابان كانت على وشك الاستسلام. «حين أعلن ترومّن أنّ الاحتمالات المتوقعة للخسائر الفعلية نتيجة إسقاط القنبلة الذرية لم تولد لديه لحظة تردّد ولم تحرمه لذة النوم، اعتبِر الكثير من المواطنين الأمريكيين مثل هذا الاعتراف شيئاً غريباً، بما فيهم أنا نفسي، حين قرأت الخبر. لربّما كان بإمكانه أن يقول أنّه كان قراراً شاقّاً، في الحقيقة مثيراً للكرب، وكان مشكلة أخلاقية وقراراً خطيراً. لا مجال للفكاك من ذلك. كيف أنّ مثل هذا الأمر لم يكن تحدّياً أخلاقياً؟» يبدو أنّ إفناء السكان المدنيين عن طريق إحراقهم، قد أصبح وسيلة أمريكية للحرب الجوية، كما كانت بالنسبة للبريطانيين منذ أواخر عام 1940. وعليه لم تكن المسألة أخلاقية بدليل ما نُقِل عن الجنرَل لَومي من قوله، «»لقد أحرقنا وسلقنا وشوينا الكثير من الشعب في طوكيو في ليلة 10-9 مارس، ثمّ حوّلنا الآخرين إلى بخار في هِروشِما ونَگزاكي معاً».

يكشف المؤلف في الفصل السادس عشر بعضاً من غرائب الأمور، حين وضع العسكر

الأمريكيون الخطة الحربية الأولى ضدّ الاتحاد السوفياتي في شهر نوفمبر 1947. اشتملت ضرب 24 مدينة سوفياتية باستخدام 34 قنبلة ذرية. غير أنّه كان لدى الولايات المتحدة في حينها 13 قنبلة ذرية، وربّما 7 منها فقط جاهزة للاستعمال. لم يعرف مخططو الحرب تلك الحقيقة، لأنّ كلّ شيء كان سرّياً للغاية، حسب قول المؤلف.

في عام 1956، تضاعف عدد الضحايا حسب التقديرات إلى 10 أضعاف ما كان عليه قبل عام. «وصف محللو راند تلك الزيادة بأنّها جسيمة، كونها وصلت إلى 150 مليون مواطناً سوفياتياً. بحلول عام 1961، وكما علمت لتوّي، فإنّ قيادة الأركان المشتركة قد وضعت رقم الخسائر بما يُقدّر أكثر من 200 مليون مواطناً في الكتلة السوفياتية. لماذا حدثت تلك الزيادة؟ ولماذا في ذلك الوقت؟».

ذكر المؤلف أنّ صدمته من زيادة تقديرات الخسائر، «صاحبها أكثر من سؤال في ذهني. كيف ولأيّ سبب اقترح المخططون أو متخذو القرارات تلك الزيادة الباهظة؟ هل استنتج أحدهم أنّ «قتل الشعب» باستعمال 400 قنبلة نووية ستقضي على حياة عشرات الملايين من الروس ليس كافياً للردع؟ أم أنّ الأمر إيفاء بالتزامنا لأعضاء حلف الناتو للردّ على أو إحباط أيّ هجوم سوفياتي أرضي عليهم، تطلب تلك الزيادة في مقدار الأضرار الجانبية؟ أو ما هي الأسس، التي توصلوا بموجبها إلى أيّ من تلك التقديرات والأحكام؟».

وافق أيزنهاور على خطة SIOP وأورثها لخلفه كَنَدي. قدّم عرض موجز للرئيس الجديد عن الخطة والنتائج المتوقعة لها في شهر يوليو من عام 1961، فعلق وقد بدا مصدوماً وهو يقول، «ونسمّي أنفسنا بشراً!» أعاد ذكر هذا التعليق أمام وزير خارجيته دِين راسك. وحسب قول المؤلف، «ولكن بالتأكيد ليس أمام أعضاء قيادة الأركان المشتركة ولا الرأي العام الأمريكي. ظلّ الخيار، الذي طرحته خطة الحرب الشاملة، على الرّفّ طيلة فترة رئاسة كَنَدي القصيرة الأمد، وأيضاً طيلة فترة حكم خلفه لِندِن جونسُن».

يضيف المؤلف أنّه، كانت للرؤساء فورد وكارتر ورَيگِن، خيارات عديدة «لبدائل نووية محدودة» تكون آثارها أقلّ بكثير من آثار الخطط الجهنمية المروعة apocalyptic. غير أنّ الجنرَل لي بَتلَر، وهو قائد سلاح الطيران السابق، قد كشف أنّ واضعي الخطط في أوماها والپنتگون، لم يعيروا حقيقة مقترحات هؤلاء الرؤساء اهتماماً، سواء في تخطيطهم وفي العمليات التدريبية والمناورات، التي أجراها سلاح الطيران، وظلوا ملتزمين بأنّ الحرب، التي يخططون لها ستكون حرباً شاملة».

وجدير بالذكر أنّ أرشيف الأمن القومي الأمريكي نشر على موقعه الخاص على الإنترنت، خطة كانت قد أعدتها الولايات المتحدة الأمريكية عام 1960، لتدمير كلّ من الاتحاد السوفياتي والصين، بشكل كامل. الموقع الأمريكي التابع للأمن القومي، نشر وثائق عن خطة لإحداث إبادة جماعية في كلي البلدين. وأشار المختصون بأنّ الخطة التي حملت اسم «SIOP» كخطة متكاملة لتدمير كلي البلدين اللذين باتا يهددان الولايات المتحدة الأمريكية كقوتين صناعيتين. أشارت الخطة هذه المرة إلى استخدام القوات الأمريكية للأسلحة النووية لتدمير 70 في المئة من الإمكانات الصناعية للاتحاد السوفياتي. وفي الوقت نفسه سيؤدي ذلك بحسب الإدارة الأمريكية لوفاة حوالي 70 مليون سوفياتياً. [https://www.alalamtv.net/news/3757411]

وبحسب إدارة الأركان الأمريكية في ذلك الوقت، فإنّ القضاء على أكبر عدد من السكان يعتبر معياراً هاماً وكبيراً لتحقيق الانتصار على الاتحاد السوفياتي. تضمنت الخطة «SIOP» استخداماً تفصيلياً للأسلحة النووية التي ستستخدم من قبل القوات الأمريكية. وكانت إدارة المحفوظات والسجلات الوطنية الأمريكية، قد نشرت في عام 2015، قائمة بأهداف القنابل الذرية للولايات المتحدة الأمريكية، التي شملت أهدافاً في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية والصين. تمّ تحديد 179 هدفاً في موسكو و145 في لِنِنگراد و91 في برلين الشرقية. كان أحد أهم أولويات الوثيقة تدمير القاذفات السوفياتية قبل إقلاعها من مطاراتها.

يستعرض المؤلف في الفصلين السابع عشر والثامن عشر المقامرة الجنونية التي أقدم عليها الأمريكيون باختبار القنبلة الذرية الأولى. كانت هناك مخاوف وتحفظات عبّر عنها العالم الفيزيائي أنريكو فَرمي، حين قيل إنّ احتمال مخاوفه كان لا يتجاوز 3 بالمليون. لكن حساباته أشارت إلى أنّ النسبة أعلى من ذلك وقد تصل إلى 10-%. «ومع ذلك استمرّ أوپنهايمر وكومپتُن وكونَنتو گروفر في خططهم. باختصار، كان اختبار ترِنِتي الأوّل في المُگوردو قد شكّل مقامرة واعية من قبَل العلماء الكبار في مجمّع لاس ألموس ورؤساؤهم المباشرون. وهي مقامرة شملت قدر كلّ كائن حيّ على وجه الأرض وفي الجو وفي أعماق المحيطات». إنّ مخاوف فَرمي كانت حول إمكانية أنّ التفجير قد يولد حرارة كافية لإشعال النايتروجِن في الغلاف الجوي للأرض وإشعال الهايدروجِن في مياه البحار والمحيطات. لم يكن الأمر معروفاً من قِبَلِ الرئيس أو أيّ مسؤول آخر في العاصمة واشنطن، باستثناء المجموعة المساهمة في مشروع مانهاتِن في عام 1945 أو السنوات الثلاث الماضية قبلها، منذ أثير الموضوع مع كومپتُن من قِبَلِ أوپنهايمر في شهر يوليو عام 1942.

يعترف المؤلف في نهاية فصله، «إنّ الضعف المفترض في قوة الولايات المتحدة وقدراتها،

كان لا أساس له من الصحّة أصلاً، كما كان الحال في مشروع مانهاتِن خوفاً من امتلاك النازيين لبرنامج تطوير القنبلة الذرية قبلنا. ومنه ما جرى حديثاً بصدد مخاوفنا الواهية الأسس عن امتلاك صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل عام 2003، واحتلال العراق بذرائع باطلة». من المعروف أنّ الولايات المتحدة بررت غزو العراق آنذاك بذريعة امتلاكه أسلحة دمار شامل بشكل سري. إلا أنّ اللجنة الأممية المعنية بالعثور عليها بعد التدخل الأمريكي أكدت عدم وجود أيّ سلاح من هذا النوع في البلاد، فيما اعترف المسؤولون الأمريكيون، بينهم وزير الخارجية الأسبق كولِن پاوِل، بفبركة ومبالغة في الأدلة التي استخدمتها واشنطن لتبرير حربها على العراق.

[https://www.history.com/topics/world-war-ii/the-manhattan-project]

الأمريكيون يقامرون في حياة الكوكب وما عليه من الكائنات. للتاريخ، انتحر هِتلر يوم 30 أبريل عام 1945، وتمّ اختبار أول قنبلة ذرية بعد 10 أسابيع في ولاية نو مكسيكو يوم 16 يوليو عام 194. ألقيت هذه القنبلة على هِروشِما بتاريخ 6 أغسطس وأخرى على نگزاكي بتاريخ 9 أغسطس. فقد 390 مواطناً يابانياً حياتهم في المدينة الأولى و80000 مواطناً يابانياً في المدينة الثانية، أحْرِق نصفهم وفارق الحياة ساعة الانفجار.

ثمّ جاءت فكرة القنبلة الهايدروجِنيّة H-Bomb. السبب لتطوير هذه القنبلة الفائقة super bomb هو الحصول على قدرة لتدمير منطقة شاسعة بقنبلة واحدة. برأي المؤلف، «إنّ استعمالها يتطلب قراراً بإبادة عدد كبير من المدنيين. إنّنا قلقون بشأن الإشعاعات النووية وتأثيراتها المحتملة على المستوى العالمي». جاء مثل هذا القرار بتاريخ 31 يناير 1950 على لسان الرئيس حين، «أعلن ترومَن على الرأي العام أنّه أمر مفوضية الطاقة الذرية أن تستمر في عملها لتطوير كافة أشكال أسلحة الطاقة الذرية، بما فيه ما يُسمّى القنبلة الهايدروجِنيّة أو القنبلة الفائقة». وبهذا يكون هذا الرئيس قد أمر بتطوير قنبلة اليورنيُم وقنبلة البِلوتَنيُم ثم القنبلة النِترونيّة وأخيراً القنبلة الهايدروجِنيّة. إنّ الرجل بحق هو «الرئيس الذري»، وأمريكا «مصنع آلات الفناء».

ركّز المؤلف في فصله التاسع عشر على موضوعين هما (1) عدم إبقاء موضوع تفويض إطلاق الأسلحة الذرية سرّياً و(2) عدم تدمير هيكل القيادة العليا للعدو وفق سياسة «قطع الرأس»، التي كانت من بنات أفكار زبِگنيو برزِنسكي، مساعد الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي. بطبيعة الحال، لم يقف السوفيات مكتوفي الأيدي إزاء تلك الفكرة الجهنميّة، بل صمّموا نظاماً للعمل في مثل هكذا ظروف سمّوه Mertvaya Ruka، «اليد الميتة». [https://www.wired.com/2009/09/mf-deadhand/] عرّج المؤلف على مصمّم هذا النظام

فالَري يارنِچ، الذي اعتبر نظامه أكثر أمناً من البدائل الأخرى. قال المؤلف إنّ الرجل تمسّك برأيه هذا حتى وافته المنية في شهر ديسمبر من عام 2012، وبعد أن قدّم المشورة للأمريكيين على مدى عدة حقب حول الحدّ من الأسلحة النووية. لقد اعتقد ذلك لأنّ النظام يعتمد على إطلاق الصواريخ إثر استلام تعليمات من القيادة العليا في موسكو فقط. إلّا أنّ النظام لا زال يعتمد على الإطلاق عقب وصول التحذيرات. وبناء عليه، فإنّ النظامين في البلدين يستمران لمنع تدمير الصواريخ السوفياتية قبيل إطلاقها ويسمح باستباق الصواريخ الأمريكية في الحال قبل انطلاقها. لكنّ النظام السوفياتي هذا، كان يرمي إلى إزالة أيّ ضغط إضافي على القادة السوفيات في موسكو، لكي يطلقوا صواريخهم اعتماداً على إشارات التحذير، إذا بدت تلك الإشارات موثوقة. ولكنّه سوف لن تكون هناك هجمات سوفياتية انتقامية ضدّ أيّة هجمات أمريكية، لأنّ القادة أنفسهم سيكونون على وشك الإبادة، حسب التخطيط الأمريكي.

وعلى أيّة حال، وكما ذكر دَيفِد هَوفمَن، رئيس مكتب واشنطن پوست في موسكو، بعد عدة مقابلات مع يارنِچ، لإعداد كتابه عن «اليد الميتة»، ونعاه بعد وفاته قائلاً، «عبّر يارنِچ في السنوات الأخيرة من حياته عن كثير من الشكوك حول أنظمة الدفاع وإبادة العدو، التي خصّص حياته لجعلها تعمل بشكل حسن في كافة الأحوال. أخبرني في إحدى المرات، أنّه كان من السخف أن يبقوا نظام (اليد الميتة) سرّياً. يكون هذا النظام الانتقامي مفيداً للردع فقط حين يعلم الخصم بوجوده». والأبعد من ذلك، بدأ يُشكّك في حكمة اللجوء إلى الردع النووي، وما يتعلق منه بالتحذير المصوب، خاصّة بعد أن انتهت الحرب الباردة. خشي أن يقود مثل هذا التحذير إلى حادثة أو إطلاق صاروخ عن طريق الخطأ. لم يحافظ يارنِچ على صمته، وقرّر أن يعلن على الملأ أفكاره ومخاوفه، حسب قول هوفمَن.

تطلب مثل هذا الأمر شجاعة، إذ أنّه حتى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، بقيت مناقشة موضوعات من هذا القبيل تحت الرقابة في روسيا. في مطلع التسعينات، «استولى على يارنِچ حلم بأنّه في يوم من الأيام ستقوم الولايات المتحدة وروسيا بتبادل أسرارهما حول السيطرة والتحكّم». كان متأكّداً أنّ ذلك سيقود إلى تحقيق فكرة الردع عن طريق اللجوء إلى امتلاك عدد أقلّ من الرؤوس النووية. كما أنّه فضل عدم وضع الصواريخ في حالة تأهب دائم للانطلاق من قواعدها. «عاد وصقل دون كلل أو ملل شرح منطقِه لتبرير ذلك، لكنّ كلي الحكومتين ما كانتا راغبتين في الاستماع له. القادة الكبار للسيطرة والتحكم بالأسلحة النووية، لم يستطيعوا تصوّر انفتاح من هذا القبيل على بعضهما البعض، ليس هنا ولا في روسيا».

في شهر سبتمبر من عام 1974 وبعد استقالة نِكسُن، كشف روجَر مورِس، المساعد السابق

للمستشار كِسِنجَر، لأوّل مرّة لمجلة واشنطن الشهرية، أنّ نِكسُن أشرف على خطط لهجمات نووية على فيتنام الشمالية ما بين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1969. خلال هجمات رأس السنة الجديدة ضدّ فيتنام الشمالية وطِبقاً لخطة كِسِنجَر وتأكيداته التي سبقت الانتخابات بأنّ «السلام في اليد»، ذكر د. إقبال أحمد بشأن هذا الأمر، أنّ عضو الوفد الفيتنامي لمحادثات السلام في پاريس، خوان ثِوي قد أخبره خلال تلك الزيارة أنّ هنري كِسِنجَر قد هدّد فيتنام الشمالية باستخدام «القنابل النووية 12 مرّة».

في الحقيقة أنّ كلّ رئيس اعتباراً من ترومَن حتى كلِنتُن قد شعر أنّه ملزم في نقطة معينة خلال فترة إدارته، وبطبيعة الحال، بشكل سرّيّ أن يُهدّد و/أو يناقش مع أعضاء قيادة الأركان المشتركة خططاً وتحضيرات لإمكانية الاستعمال الوشيك وشن حرب بأسلحة نووية تكتيكية أو ستراتيجية، خلال أزمة صراع، لم تكن أصلاً نوويّة. كما أورد المؤلف 25 حالة استعملت فيها الولايات المتحدة السلاح النووي أو هددت به أو أوشكت على استعماله، في مختلف الظروف وفي مناطق عديدة من العالم اعتباراً من اليابان عام 1945 إلى ليبيا عام 1996. كما أشار إلى السبب، الذي دفع كافة الرؤساء بعدم التصريح رسمياً «بالالتزام بفكرة عدم شنّ الضربة الأولى No First Use». لقد رفضوها جميعاً، رغم الاقتراحات المتكررة من قبل الصين، التي أعلنت التزامها وقت جرّبت للمرة الأولى سلاحها النووي عام 1964. وكما فعلت الهند بعد اختبارها الثاني عام 1998، وكذلك الاتحاد السوفياتي بين الأعوام 1982- 1993، خاصة أنّ ميخائيل گوربَچوف، قد أعاد تأكيد ذلك وهو في آخر شهر له في السلطة، بالتزام بلده بهذا المبدأ واقترح أن تقوم الولايات المتحدة باتخاذ نفس الخطوة. لكنّ هذا الاقتراح وكما هو متوقع، رُفِض من قبلِ إدارة بُش. كما رفضت الولايات المتحدة بعناد اقتراح غالبية الشعوب الأخرى للالتزام بمبدأ NFU، باعتباره أساساً لوقف انتشار الأسلحة النووية، كما رفضت التصديق على معاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة الذرية خلال مؤتمر عام 1995 ومؤتمر مراجعة القضية ذاتها عام 2000.

وما يهمّنا كعرب من أمر هذه التهديدات أنّ الولايات المتحدة أعطت لنفسها الحق، بموجب **مبدأ كارتر** لعام 1980 باعتبار منطقة الخليج العربي [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%82] واقعة ضمن مناطق مصالحها، وهدّدت أنّها ستدافع عنها باستعمال الأسلحة النووية، إذا اقتضت الضرورة. حدث هذا بعد غزو السوفيات لأفغانستان وسقوط نظام الشاه في إيران عام 1979. يبقى هناك سؤال حول استعمال الأسلحة النووية التكتيكية في أفغانستان والعراق. الجواب على ذلك هو «نعم» رغم الإنكار الرسمي.

https://www.geopolitica.ru/en/en/article/usa-have-used-tactical-nuclear-

weapons-afghanistan-and-iraq

تفتحت العبقرية العسكرية الأمريكية عن فكرة لإيقاف حركة الأرض. هل سمع أحد بخطة جنونية لإطلاق 1000 صاروخاً من نوع أطلس وتيتان، توضع بشكل متواز مع سطح الأرض وفي الاتجاه المعاكس لحركة دورانها، كي تتوقف لحظة فتعجز الصواريخ السوفياتية عن ضرب أهدافها على القارة الأمريكية الشمالية، وتعود قافلة أدراجها إلى الأراضي السوفياتية فتلحق بها الدمار؟ هذا ما أخبرنا به المؤلف في فصله الأخير.

يدّعي الأمريكيون أنّ الغرض الأساسي من أسلحتهم النووية هو ردع أيّ هجوم على الولايات المتحدة أو أيّ من حلفائها. وبحسب رأي المؤلف فإنّ «الغرض الأساسي، الذي نسعى إليه يجب أن يكون تخفيض عدد الصواريخ الأمريكية بكاملها، المتحرك SLBMs والثابت ICBMs وتفكيكها، الذي كان يجب أن يتمّ منذ عدة أجيال. إنّ مثل هذا التحول لا يزيل تماماً الأخطار المترتبة على قيام حرب نووية، لكنّه على الأقل يلغي فكرة التهديد بشتاء نووي مدمّر».

يحرّض المؤلف ويدعو مواطني العالم على رفع الشرعية عن الأسلحة الذرية والتهديدات باستعمالها. في الحقيقة، أنّ وجود جانبين ضدّ بعضهما البعض في حالة إنذار دائم، يشكّل خطراً عليهما وعلى العالم، أكثر ممّا لو امتلك جانب واحد تلك الآلات. «لو استطعنا تفكيك الآلات المتوفرة، فلن يعود هناك أيّ مبرر ستراتيجي لأيّ جانب لبناء تلك القدرات، هذا إذا توفرت نوايا واعية قبل كلّ شيء». الأخبار السارة برأيه، هي أنّ تفكيك آلات الفناء في أحد البلدين أو كليهما، مفهوم بسيط نسبيّاً من الناحية العملية، غير أنّه صعب للغاية من الناحيتين السياسية والبيروقراطية. «يمكن إنجاز هذا التفكيك بسرعة وبسهولة خلال فترة لا تتجاوز سنة واحدة. لكنّ ذلك يعني، وهنا تبرز قوة معارضة المؤسسات المعنية بأنّنا نتخلى عن أهداف معينة غير ممكنة وقدرات خادعة حول إمكانات قواتنا النووية، وبشكل خاص، التصوّر بأنّه من الممكن الحدّ من الأضرار التي تصيب الولايات المتحدة»، عن طريق الضربة الاستباقية، التي تستهدف القواعد الأرضية للصواريخ عابرة القارات، ومراكز القيادة والسيطرة والمواصلات وقادة البلاد (قطع رأس القيادة)، وغيرها من الأهداف، التي توفر موارد دعم المجهود الحربي، بما فيها المراكز الصناعية في المناطق المدنية وطرق المواصلات ومحطات توليد الطاقة الكهربائية. لكنّ توقعات انتشار الوعي اليوم، تعطي كل فرد وشعب ومؤسسة في العالم أساساً مقنعاً عاجلاً لم يُسبق له مثيل، لطلب أنّ مثل هذه القدرات و«البدائل» المخطط لها يجب أن تُفكّك مباشرة.

وبصدد موضوع التفكيك هذا، زعمت مجموعة من العلماء ابتكار طريقة للكشف عما إذا كان

قد تم إلغاء تنشيط الرؤوس الحربية النووية بنجاح. فحالياً يكاد يكون من المستحيل معرفة ما إذا كان السلاح نفسه قد تم تفكيكه، إذ ابتكر خبراء معهد ماسَچوسِت للتكنولوجيا (MIT) شعاع نيوتروني يكشف عن وجود نوع محدد من الپلوتونيوم المستخدم في الأسلحة. ووفقاً لموقع «ديلي ميل البريطاني»، تتمتع الرؤوس الحربية النووية بمواد مميزة [https://www.youm7.com/story/2019/9/30/%D8%B9%D9%84] وكذلك وجود الپلوتونيوم المسؤول عن القوة التدميرية للسلاح.

يقول الخبراء إنّ طريقة الكشف هذه لإثبات ما إذا كانت القنابل قد تم تفكيكها، يمكن استخدامها لضمان عدم تخزين الدول للأسلحة النووية سرّاً. فقد تشكل الرؤوس النووية المخزنة التي لم يتم تفكيكها بشكل صحيح، خطراً شديداً إذا تم بيعها أو سرقتها أو تفجيرها عن طريق الخطأ. ذكر أرِك دانَجوليان، العالم النووي بمعهد ماسَچوسِت للتكنولوجيا الذي قاد المشروع، «هناك حاجة حقيقية لاستباق هذه الأنواع من السيناريوهات الخطرة ومتابعة هذه المخزونات، وهذا يعني حقاً تفكيكاً مؤكداً للأسلحة نفسها». هل سيحدث هذا في أمريكا اليوم؟

يقترب موعد انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة بمرور الأيام المصحوب ببروز الفضائح. هناك بطبيعة الحال شمائل يودّ المواطن أن يتميّز بها رجل القيادة، كالصدق والجدّية والتواضع والعفاف والثبات على المبادئ والرصانة والهدوء والثقة بالنفس والاتزان في السلوك. لكنّ سمسار البيت الأبيض بذيء ومبتذل وسوقي وجاهل ونزق ونرجسي وأيضاً مخبول. وفوق ذلك جبان تهرّب من الخدمة العسكرية في فيتنام بورقة من طبيب ذكر أنّ عظماً صغيراً في قدمه يسبب له الألم عند لبس الحذاء العسكري، فحصل على الإعفاء من الخدمة المذكورة! لكنّني شاهدته في أكثر من اجتماع انتخابي وهو يلف نفسه بالعلم الأمريكي ويُقبّله! ثمّ يتباهى الأرعن بكبر حجم أصابعه فوق الأزرار النووية. وهذه فكرة مرعبة حقاً.

د. محمد جياد الأزرقي
أستاذ متمرس، كلية ماونت هوليوك
قرية مونِگيو، ماسَچوست،
الولايات المتحدة 9/ 11/ 2019
mjiyad@mtholyoke.edu

تمهيد

اطلعت في أحد أيام ربيع عام 1961 وبعد بلوغي سنّ 30 عاماً، على الكيفية التي سينتهي إليها هذا العالم. ليس الأرض وحدها، وحسب اعتقادي الخاطئ حينها، ليس الحياة البشرية على سطح هذا الكوكب، بل أيضاً تدمير غالبية المدن في القسم الشمالي من الكرة الأرضية. سلموني وأنا في مكتب في البيت الأبيض ورقة مكتوب عليها مقطع واحد قصير عنوانه «سري للغاية - حساس» وكُتِبت تحت ذلك عبارة «لاطلاع الرئيس فقط».

حين يُذكر «لاطلاع شخص معين فقط» فيعني ذلك أصلاً أنّ المحتوى يُقرأ ويُطلع عليه من قبل ذلك الشخص، وفي هذه الحالة الرئيس ذاته. غير أنّه من الناحية العملية، يتمّ الاطلاع عليه من قبل أمناء سرّ المكتب والمساعدين، وهم حفنة من الناس، بدلاً من عدة مئات يطلعون في العادة على الوثائق السرية للغاية، حتى ما يُصنف منها بأنّه «حساس». وهذا يعني وجوب المحافظة على سرية المحتوى لأسباب بيروقراطية أو سياسية.

بعد ذلك وحين عُيّنت مساعداً خاصاً لوكيل وزير الدفاع، غالباً ما وجدت نفسي أقرأ نسخاً من البرقيات والمذكرات الموجهة «لاطلاع شخص معين فقط»، رغم أنّني لست ذلك الشخص. وفي الوقت الذي أكمِل فيه قراءة البرقية/الوثيقة/المذكرة، باعتباري مستشاراً في مكتب وزير الدفاع، أصبح الأمر روتينياً بالنسبة لي أن أطلع على الوثائق السرية للغاية. لكنّني لم أشاهد من قبل وثيقة معنونة «لاطلاع الرئيس فقط..» ولم أشاهد بعدها وثيقة من هذا النوع.

أطلعني على الوثيقة المذكورة وكيل مساعد للرئيس في شؤون الأمن الوطني اسمه بوب كومَر. الصفحة الأولى تشير إلى أنّها تحتوي على جواب لسؤال وجهه الرئيس كندي لمجلس قيادة الأركان المشتركة قبل أسبوع. أطلعني كومَر على الإجابة، لأنّني كنت من كتب السؤال أصلاً، والذي بعثه كومَر لمجلس القيادة باسم الرئيس.

كانت صيغة السؤال كالتالي، «لو تمّ تنفيذ خططكم لحرب (نووية) مباغتة وشاملة كما هو مطروح، فكم عدد الخسائر المتوقع في الاتحاد السوفياتي والصين؟»."

جاءت الإجابة على شكل مخطط. يشير الخط الأفقي إلى العدد بمرور الأشهر وهو خط مستقيم يبدأ بالصفر. أمّا الخط العمودي فيظهر عدد الخسائر من البشر خلال الساعات الأولى لبدء الهجوم، ويستمر لغاية 6 أشهر. وهو رقم لعدد الضحايا المتزايد بمرور الوقت اعتباراً من الإصابات الأولية وما يتلوها من سقوط الإشعاعات الذرية واتساع رقعة انتشارها. المخطط التالي من الذاكرة، وكيف لي أن أنسى ذلك.

العدد الأقل إلى يسار المخطط هو 275 مليون ضحية والعدد إلى اليمين يمثل الضحايا خلال 6 أشهر ويبلغ 325 مليون ضحية.

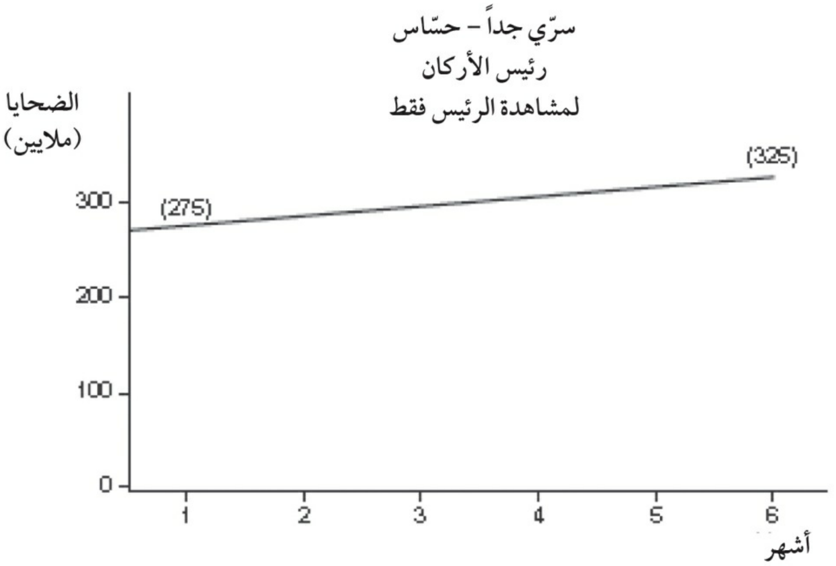

طرحت صباح ذلك اليوم سؤالاً آخر موجّهاً لقيادة هيئة الأركان المشتركة ويحمل توقيع الرئيس أيضاً. طلبت توضيح عدد الضحايا على المستوى العالمي من هجماتنا الذرية المباغتة، وطلبت أن يضعوا تقديراتهم عن عدد الضحايا خارج الاتحاد السوفياتي والصين، ممّن سيتأثرون بوصول الإشعاعات الذرية إلى مناطقهم. أطلعني كومَر على الإجابة بعد أسبوع. وضعوا هذه المرة الأعداد على شكل جدول أضافوا إليه التعليقات والملاحظات.

باختصار، أشار ذلك الجدول إلى زيادة الأرقام الأولى بمقدار 100 مليون ضحية في منطقة

أوروبا الشرقية نتيجة للهجوم المباشر على قواعد حلف وارسو والدفاعات الجوية التي ستتعرض لسقوط الإشعاعات الذرية. وربما سيكون هناك 100 مليون ضحية على الأقل في أوروبا الغربية، اعتماداً على المناطق التي تتعرض لهبوب الرياح. وهذا يعني أنّ الأرقام ستتوقف على فصل السنة، الذي سيتم فيه ذلك الهجوم الذري المباغت. أضف إلى ذلك، فإنّه يوجد حوالي 100 مليون ضحية أخرى على الأقل ممّن سيتعرضون للإشعاعات، وهم من سكان البلدان المحايدة التي تجاور منطقة الكتلة السوفياتية والصين. تشمل هذه فنلندا والسويد والنمسا وأفغانستان والهند واليابان. فمثلاً ستمحى فنلندا من الوجود بسبب الإشعاعات الناجمة من التفجيرات الأمريكية لمرافئ الغواصات السوفياتية في مدينة لننگراد.

وبحسب تقديرات رئاسة هيئة الأركان المشتركة، فإنّ عدد الضحايا الناجم عن الضربة النووية الأمريكية للاتحاد السوفياتي وقواعد حلف وارسو والصين سيكون تقريباً 600 مليون ضحية. وهذا يعادل المحرقة النازية Holocaust بمقدار 100 مرة.

تذكرت ما خطر ببالي حين أمسكت المذكرة الأولى بيدي وهي تحمل مخطط الضحايا، وهو أنّ هذه الورقة يجب ألّا يكون لها وجود. ما كان يجب أن تتوفر لا في أمريكا ولا في أيّ مكان آخر. إنّها تمثل الشرّ بعينه، وتتجاوز أيّة جريمة بشرية اقترفت في تاريخ الكون. يجب ألّا يوجد شيء مثلها على سطح الأرض. لا شيء إطلاقاً يمكن أن يُشير إليها.

من التأثيرات المتوقعة الرئيسية غير المقصودة في المناطق المحايدة والدول الحليفة، وما يُطلق عليه «الأضرار الجانبية»، ظهرت بشكل موجز في الوثيقة الثانية. تسلمتها في الأسبوع التالي من ربيع عام 1961، وفيها خلاصة أرقام عن إبادة أكثر من نصف بليون إنساناً.

أصبح هدفي في الحياة منذ ذلك اليوم، هو إحباط تنفيذ مثل هذه الخطط الجهنمية.

مقدمة المؤلف

كان لديّ سرّ حاولت عدم الإفشاء به لمدة عامين وقت كنت متهماً باستنساخ الأوراق السرية للغاية للپنتگون، وكذلك خلال السنتين التاليتين حين كان البلد يتابع **فضيحة ووترگَيت**. ومن ثمّ تكتمت عليه للسنوات الأربعين التالية. من بين فريق الدفاع عنّي خلال إجراءات المحاكمة، كان السرّ معروفاً فقط من قبَل محاميّ الرئيسي لَنَرد بَودِن، وليس من قبل المحامين المشتركين معه، ولا من قبَل شريكي في الاتهام توني رُسّو، ولا حتى زوجتي پَترِشا.

غالباً ما سألني المراسلون خلال محاكمتي، التي جرت في لوس أنجلِس، خاصة منهم پيتر شراگ، الذي كان يعدّ كتاباً عن القضية، «كم من الوقت أمضيت وأنت تستنسخ تلك الوثائق؟ وكم استغرق ذلك؟» كنت أردّ بجواب غامض وأحاول تحاشي الموضوع. يُشير التقدير الواقعي أنّ الأمر استغرق أكثر ممّا يلزم لاستنساخ **أوراق الپنتگون** وحدها. ساعدني غموضي وتحاشي إجابتي على تجنّب سؤال آخر في حينه، «ماذا استنسخت أيضاً؟».

الحقيقة هي أنّه اعتباراً من خريف عام 1969 إلى يوم تركت **مؤسسة راند** Rand في شهر أغسطس عام 1970، استنسخت كلّ شيء أحتفظ به من الأوراق السرية للغاية، والتي مثلت جزء يسيراً. كان لديّ المزيد من الخزانات لحفظ الوثائق السرية، التي كانت بحدود 15 ألف صفحة. كنت أبغي أن أرفع الستار عنها جميعاً، وليس فقط **أوراق الپنتگون**. إنّ ذلك الهدف إضافة إلى طبيعة الوثائق الأخرى، كانت هي السرّ، الذي حافظت عليه منذ بدأت الاستنساخ حتى هذه اللحظة.

يتعلق العديد من الوثائق الأخرى بفيتنام، بما فيها وثائق سرية للغاية حررتها بنفسي في أواخر عام 1968 حتى مطلع عام 1969 بأمر من هنري كِسِنجر، بعد أن عيّنه الرئيس المنتخَب رِچَرد نِكسُن مساعداً لقضايا الأمن الوطني. لكنّ أغلب ما استنسخته إضافة إلى **أوراق الپنتگون**، قد اشتمل على ملاحظاتي ودراسات سرية عن خطط للحرب النووية ووثائق تخص أجهزة السيطرة والتحكم

بالأسلحة النووية ودراسات عن الأزمات النووية. احتوت الوثائق على نصوص منقولة ونسخ من وثائق عن قضايا حرجة وخطط لمعارك سابقة وبرقيات ودراسات أعددتها بنفسي وأخرى أعدّها آخرون، بما فيها دراسات عن السياسة النووية من إعداد الفريق العامل مع كِسِنجر في مركز الأمن الوطني.

أغلب الذين سمعوا باسمي خلال 47 سنة الماضية، كان من خلال نشر دراستي للقرارات السرية لحكومة الولايات المتحدة لخلق حرب فيتنام. وهي الدراسة، التي وضعت لها عنواناً هو **أوراق البنتگون**. ولربما استطاعوا معرفة أنّني حصلت على مصادر دراستي، لأنّني كنت ضمن من أعدّ تلك الوثائق وأنّني عملت في وقت مبكر في البنتگون خلال فترة التصعيد ومن ثمّ في وزارة الخارجية وكان عملي في فيتنام ذاتها.

الذي لم يعرفه الكثيرون هو أنّني عملت كمستشار في مؤسسة راند، التي تتمتع بمركز رفيع في أنظمة الدفاع الوطني للولايات المتحدة. وهدف راند هو معالجة قضايا مختلفة منها الردع والإجهاض، وإذا اقتضى الأمر، القيام بمحاولات ميؤوس منها لغرض السيطرة وإنهاء أيّة كارثة نووية بين القوى الكبرى. وراند هذه مؤسسة غير ربحية تأسست عام 1948 بهدف القيام بالبحوث السرية وتوفير التحليلات للقوة الجوية.

في ربيع عام 1961 وضعت المسودة السرية للغاية لتوجيهات وزير الدفاع روبرت مكنمارا إلى مجلس قيادة هيئة الأركان المشتركة JCS حول الخطط العملية لأيّة حرب نووية عامة. كنت قبلها في شهر يناير من ذلك العام قد قدمت تقريراً ملخصاً إلى مكجورج بُندي، مساعد الرئيس كنَدي لقضايا الأمن حول مخاطر الخطط الحالية للحرب النووية وخصوصياتها، وذلك خلال الأسبوع الأول من دخوله إلى البيت الأبيض. وبعد مرور وقت قصير، فُتِح المجال أمامي للاطلاع على القضايا السرية للغاية، ومنه تقديرات أعداد الضحايا المتوقعين نتيجة خططنا لهجوم نووي مباغت.

كنت في السنة التالية الشخص الوحيد الذي اشترك مع مجموعتين تقدمان تقاريرهما إلى اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن الوطني خلال أزمة الصواريخ في كوبا. وبعد سنة وقبيل التحاقي بوزارة الدفاع كشخص مدني يشغل منصباً رفيعاً في تلك الوزارة، كنت الباحث الوحيد في دراسة لوكالات الأمن الوطني للنظر في الأزمات النووية السابقة المتعلقة بمناطق كوريا وكوبا وبرلين وجزر كوموي في شمال اليابان وفي لبنان وقناة السويس، ممّا يسّر لي الاطلاع على مستويات عديدة من القضايا بالغة السرية. وفرت تلك المسؤوليات لي معرفة غير اعتيادية كانت في ذلك الوقت مستحيلة لأيّ شخص مدني للاطلاع على خطط وعمليات خاصة بالقدرات النووية والمخاطر التي يمكن أن تتأتى عنها.

كان سرّاً محفوظاً حتى اللحظة التي بدأت فيها استنساخ **أوراق البنتگون** وغيرها من الوثائق المتعلقة بفيتنام والموجودة في مكتبي في مؤسسة راند، التي عدت إليها بعد رجوعي من الخدمة الحكومية في فيتنام. لقد قررت أنّه من الأهمية بمكان أن أكشف محتويات ما لدي من الأسرار الأخرى، التي تتعلق بالقضايا النووية. أردت اطلاع الكونگرس والمواطنين الأمريكيين والعالم أجمع على الخطر الذي خلقته سياسات الولايات المتحدة النووية خلال الربع الأخير من القرن الماضي. لا أعلم تقريباً بوجود أيّ شخص تتوفر له الخبرة، دعك من الإرادة، ليستطيع كشف عمق تلك المخاطر وحدّتها وله اطلاع ولديه ملاحظات تفصيلية مثل التي توفرت لي. شعرت أنّ تلك الوثائق ضرورية وذات مصداقية، إذا ما قورنت بحقائق الأسرار التي لا يمكن تصورها.

أخبرت شخصاً واحد بما كنت أقوم به في هذا الخصوص وما الذي كنت أنوي على الإقدام عليه. إنّه راندي كيلَر، الذي يُعتبر موقفه في مقاومة الخدمة العسكرية الإلزامية نموذجاً يُحتذى به، وهو الذي أشار إليّ بسلوكه المشرف هذا نحو الطريق السليم قبل شهر تقريباً. كان مطلوباً منه أن يسلم نفسه للسلطات خلال وقت قصير ليقضي فترة السجن المقررة له. حين تحدثت إليه في سان فرانسسكو في شهر نوفمبر من عام 1969، كنت أريده أن يعرف قبل أن يغيب في غياهب السجون، ماذا يعني موقفه بالنسبة لي، وأنّني سأقوم بعمل سيكون له تأثير ملموس وطلبت مشورته باعتباره ناشطاً سياسياً.

كانت قناعاته مشابهة لقناعاتي حول الأهمية النسبية للبيانات المتعلقة بالأسلحة النووية مقابل وضع الدراسة عن فيتنام، التي سُميت فيما بعد **أوراق البنتگون**. لقد حثني أن أضع موضوع فيتنام جانباً بقوله، «في الحقيقة أنّنا نعرف الآن ما نحتاج معرفته عن فيتنام». ثمّ أضاف، «ما ستكشفه لن يغير الأمور في شيء، ولكن أفهم من كلامك أنّك الشخص الوحيد القادر على تحذير العالم من أخطار خططنا للحرب النووية. وهذا ما يجب أن تفعله». قلت له، «أتفق معك من حيث الأهمية، ولكن فيتنام هي المكان الذي تتساقط فيه القنابل في الوقت الحالي. وإذا أزحت اللثام عن كلّ ما أعرفه الآن، بما فيه الوثائق النووية، فإنّ الصحافة سوف لن تعير انتباهاً إلى تاريخ فيتنام. أعتقد أنّني يجب أوّلاً أن أكشف الحرب، بغضّ النظر عن الاختلاف، الذي يمكن أن تحدثه في اختزال أمدها. سأعود بعد ذلك لكشف الوثائق المتعلقة بالحرب النووية».

استناداً إلى تلك القرارات التكتيكية، قمت بفصل كافة الملاحظات والوثائق التي تخص فيتنام عن تلك التي تخص خطط الحرب النووية. قمت بوضع الأخيرة في صندوق سلمته لأخي هَري، ليحتفظ لي به في منزله في مدينة هَستِنگ أون هِدسُن في مقاطعة وستچستر في ولاية نو يورك.

اعتقدت حينها بضرورة الفصل بين هذين الصنفين وأنّهما يتطلبان لذلك كشفاً منفصلاً، على أن

يأتي كشف الوثائق النووية في فترة لاحقة. في الوقت الذي تمّ فيه توجيه الاتهام لي عام 1971، قامت 1 صحيفة بنشر أجزاء من **أوراق البنتاگون** رغم صدور أربعة أوامر فدرالية بعدم فعل ذلك. قررت أن أحتفظ بوثائق خطط الحرب الذرية حتى فترة ما بعد استكمال محاكمتي الحالية. وهذا هو السبب الذي دعاني إلى تحاشي أن يسألني أحد خلال المحاكمة «ماذا استنسخت أيضاً؟» ما كان بودي أن أجبَر على الكشف عن الوثائق النووية، قبل أن تأخذ وثائق حرب فيتنام مسارها للنشر أوّلاً.

كما أنني انتظرت حتى نهاية المحاكمة الثانية التي توقعتها بعد نشر وتوزيع **أوراق البنتاگون** بشكل عام وموسّع. ركزت الاتهامات في محاكمة لوس أنجلس على استنساخ الوثائق والاحتفاظ بها من قِبَلي ومن قِبَل «شريكي في المؤامرة» توني رُسّو، الذي هيّأ لي وساعدني مبدئياً في عملية الاستنساخ. تمت دعوة هيئة محلفين أخرى سرية للاجتماع في مدينة بوسطن للتحقيق في نشر **أوراق البنتاگون** وتوزيعها. كانت الهيئة مستعدة لتوجيه الاتهام إليّ فقط، إذ لم يكن توني مشتركا في تلك العملية. لكنّ هذا الاتهام شمل هذه المرة صحفيين من نو يورك تايمز، وهما نيل شيهان وهَدرِك سمِث، وآخرين اطلعتهم على بعض الوثائق، بما فيهم نُعوم چومسكي وهَوَرد زَن ورِچَرد فالك.

توقعت أنّ محاكمتي الثالثة لنشر أسرار خطط الحرب النووية، التي أنوي إماطة اللثام عنها، ستقضي عليّ لأنّني لن أنجو منها هذه المرة. ستكون سلاحاً ضدي لدفع جهود النيابة العامة للمطالبة بالحكم عليّ بالسجن مدى الحياة، الذي بدأ أصلاً منذ المحاكمة الأولى، وأنّهم سينجحون هذه المرة بعد كبوتهم السابقة.

لكنّ الأمور لم تجرِ على ذلك المنوال، لأسباب غير اعتيادية. أوّلاً، وبعد أن أمضيت ما يقارب السنتين أمام المحكمة واحتمال سجني لمدة 115 عاماً، فإنّ 12 جُنحة في محكمتي المبدئية قد أسقِطت. وعنى هذا أنّه سوف لن تتمّ محاكمتي للمرة الثانية وفقاً لتلك الجُنح. لقد حدث هذا بعد أن تمّ الكشف عن مخالفات البيت الأبيض الإجرامية ضدّي خلال مجريات محاكمتي وقبلها.

ظهر فيما بعد أنّ الرئيس نِكسُن قد أحيط علماً بشكل سري أنّني استنسخت وثائق عن قضايا تتجاوز **أوراق البنتاگون** من مركز الأمن القومي في البيت الأبيض ذاته. وأنّه على الأرجح أن أقوم بكشف الوثائق عن تهديداته لفيتنام الشمالية حول تصعيد الحرب واحتمال القيام بهجمات نووية، تستهدف أصلاً تحقيق نصر سريع. وفي خطوة لإجهاض أيّة محاولة للكشف عن مطاليبه وتهديداته، التي أطالت أمد الحرب سنتين على الأقل وتوسعت لتشمل كمبوديا ولاوس، فأضافت في النهاية 20 ألف ضحية نُقشت أسماؤهم على جدار نصب حرب فيتنام في العاصمة واشنطن، أمر بالشروع لتنفيذ مجموعة من الخطوات الجنائية لإسكات صوتي الفاضح لسياسته السرية.

تفاوتت تلك الجرائم ما بين مراقبة هاتفي اللاشرعية وسرقة ملفي الشخصي من عيادة طبيبي النفسي في لوس أنجلس لأغراض الابتزاز، واستخدام وكالة المخابرات المركزية وجهودها الفاشلة «لإعجازي تماماً». كلّ هذه أصبحت جزء من إجراءات الاتهام، التي قادت إلى استقالة نِكسُن، التي مهدت الطريق لإنهاء حرب فيتنام بعد مرور 9 أشهر. ونظراً لأنّ تلك الجرائم قد لوثت النوايا لمحاكمة ثانية حول توزيع كتاب **أوراق البِنتگون**، فإنّها قادت بدورها إلى فضّ اجتماعات هيئة المحلفين الكبرى في بوسطن وإلغاءها بشكل مفاجئ. وهكذا انتهت المحاكمة الثانية قبل أن تبدأ.

ومع ذلك، لم يكن البيت الأبيض ولا جرائمه هي التي أوقفتني لنشر ما أعلم أمام العالم في أواسط السبعينات، ولا بعد استنساخ آلاف الصفحات والوثائق عن الحرب النووية المباغتة والمحتملة، وهي موجودة في مكتبي في مؤسسة راند منذ أربع سنوات. كان التأخير بفعل الطبيعة، حين هبّت عاصفة مدارية، قالت عنها زوجتي پَترِشا أنّها من فعل الرحمن، رغم أنّها أفسدت كافة خططي وسببت لي كرباً عظيماً. ومع ذلك جعلتني أضع رأسي على الوسادة إلى جانب زوجتي الحبيبة خلال 40 سنة الماضية، بدلاً من المكوث خلف قضبان زنزانة السجن.

بعد أن وضعت وثائقي ومذكراتي عن البرنامج النووي في صندوق، سلمته وديعة عند أخي هَنري، الذي أخفاه لمدة عامين ولغاية يوم 13 يونيو عام 1971 في قبو بيته. يقع ذلك البيت في مدينة هَستِنگ أون هُدسُن في ولاية نو يورك، حيث يسكن مع زوجته صوفيّا.

غير أنّه بعد أن مُنعت صحيفتا نو يورك تايمز وواشنطن پَوست من استمرار نشر الأسرار وبدأت حملة مطاردتي وزوجتي، خشي أخي. قام بوضع صندوق الوثائق والمذكرات في كيس پلاستِك للقمامة أخضر اللون ودفنه تحت كومة من الأوراق والأغصان في الطرف البعيد من حديقة بيته الخلفية.

خلال الأيام 13 التالية، كان منتسبو مكتب التحقيقات الفدرالي يتعقبون آثاري وزوجتي پَترِشا. بدأنا في ذلك الوقت نتنقل من مكان لآخر بمساعدة مجموعة من المناوئين لحرب فيتنام أطلقت عليهم اسم «جمهور تلّ زهور اللافندر» تكريماً للبطل ألِكس گِنِس والآخرين، وهم الذين وضعوا نسخاً من تاريخ فيتنام في متناول 17 صحيفة أخرى. قام أخي بنقل كيس الوثائق، فكان ما عمله فعلاً جيداً. أخبرته إحدى جاراته في اليوم التالي أنّها لمحت عدداً من الأشخاص بملابس مدنية يتفحصون كومة الأوراق والأغصان في طرف حديقته البعيد باستعمال آلة لكشف المعادن.

في الحقيقة أنّ هنري نقل الكيس المذكور ودفنه في مكبّ النفايات الخاص بالمدينة، إذ حفر له

حفرة في تلة صغيرة عند أطراف المكبّ ودفنه فيها. كانت علامته وجود طباخ غازي قديم مرمي بالقرب من هناك.

غير أنّه في ذلك الصيف وقبل مثولي أمام المحاكمة تعرضت مدينة هَستِنگ أون هُدسُن والمناطق المجاورة لها إلى إعصار مداري اسمه إعصار دورياً المصحوب بالأمطار الغزيرة والرياح العاتية، التي تسببت في انهيار جانب مكبّ النفايات نحو المنحدر باتجاه الطريق العام، فتدحرج الطباخ الغازي القديم من مكانه السابق لأكثر من 1000 قدماً. لم يخبرني هَنري بما جرى، رغم أنّه أمضى الأيام والأسابيع وهو يحاول تحديد مكان دفن الكيس الأخضر.

قضى هو وزوجته وصديقته باربرا دَنيَر وزوجها عدداً من أيام عطلهم الأسبوعية يبحثون عن الكيس الضائع. استعانت الصديقة باربرا بسائق البلدوزر، الذي يدفع النفايات في داخل المكبّ، كي يساعدها في البحث عن كيس الپلاستك أخضر اللون، الذي وضعت فيه نسخة أطروحتها المعدة لنيل شهادة الماجستير، والذي ألقته خطأ مع القمامة!

المشكلة أنّه قد رُميت في المكبّ آلاف من أكياس الپلاستك خضراء اللون، وعليه لم يُعثر على كيس الوثائق. توقف زوج باربرا عن المشاركة في البحث، وكان الأمر قد استفحل على ذهنها ممّا تسبّب في وقوع شرخ في حياتهما الزوجية. وكذا الحال مع أخي هَري، الذي توقف هو الآخر عن البحث. لكنّ باربرا استمرت لمدة عام آخر تتردد على المكبّ بحثاً عن ذلك الكيس، وحضرت أحياناً برفقة ابنتها.

كنت في حينها مشغولاً بالمحاكمة وما سينكشف خلالها. غير أنّ جهود هَري البطولية جعلتني أعتقد أنّه سيتمّ العثور على «الكنز المفقود». وحين أوشكت المحاكمة على الانتهاء، أبلغني أنّ المدينة قررت نقل النفايات من مكانها لمكان آخر واستعمال الموقع لوضع أسس كونكريتية لبناء مجمع سكني للشقق. ثمّ أضاف مازحاً سوف لن نجد الكنز المفقود ما لم نلجأ إلى استخدام المتفجرات! وهكذا ضاعت الوثائق السرية.

مرت 45 عاماً وما زالت الأسرار دفينة في المكبّ ودوائر الحكومة، ولن يجدي البحث ولا استعمال المتفجرات للمساعدة في كشفها. غير أنّ صدور **قانون حرية المعلومات** FOIA، قد فتح الطريق لكشف عن الأسرار، التي ظلت حبيسة لمدة نصف قرن تقريباً. الأمر المفرح، أنّ أغلب ما فُقِد في مكبّ النفايات من المعلومات ما عاد سرّياً، خاصة خلال السنوات 32 الماضية، وفق ذلك القانون وبفضل الجهود العنيدة، التي بذلها وِليَم بَرّ مدير أرشيف الوثائق الأمنية الوطنية في جامعة جورج

واشنطن، وقبله فرَد كپلان في روايته Wizards of Armageddon عام 1983، التي كانت نموذجاً فريداً بين الاستقصاء الأكاديمي باستخدام المقابلات والوثائق، التي أصبحت عامة بموجب القانون المذكور لكشف التاريخ السري المعاصر، وما كُشِف عنه، والذي مكّنني إلى درجة كبيرة من تلمّس طريقي لرواية ما حدث.

كما أن بزوغ عصر الرقمنة Digital era ساعدني على وضع كافة ملفاتي ومذكراتي وملاحظاتي على الإنترنت في موقعي ellesberg.net. يوجد عدد من المواضيع الهامة القريبة لما أعرض هنا، والتي لم أجد لها متسعاً من الوقت ولا المجال لأضمّنها بين دفات هذا الكتاب، خاصة ما يتعلق منها بالتطورات والحوادث، إثر مساهماتي في نشاطات حقبة الستينات. سأتناول هذه القضايا في موقعي على الإنترنت.

يمكن العثور على المذكرات والوثائق المشار إليها في هذا الكتاب على موقعي تحت عنوان «يوم القيامة». وهذا يعني كافة الوثائق والملاحظات، التي ما زالت في حوزتي منذ فترة عملي في مؤسسة راند وعملي في البنتگون وفي فيتنام خلال حقبتي الخمسينات والستينات، خاصة الملفات الضخمة عن أزمة الصواريخ في كوبا وأزمة جزيرة كوموي عام 1958، ومسودة خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JSCP والمذكرات التي جرى تبادلها بهذا الخصوص. كما توجد ملاحظات إضافية لم أضعها في هذا النص لعدم سعة المجال. سأواظب نشر تعليقاتي على مجريات الأمور الحالية، التي لها علاقة بما ورد في هذا الكتاب، وخاصة ما يتعلق منها بالأزمة النووية مع كوريا الشمالية.

* * *

يبدو واضحاً من خلال نصوص الكتاب التالية، التي تستند إلى الوثائق التي رُفِعت عنها السرية، ومن الملفات والمعلومات المتوفرة في موقعي الإلكتروني، لماذا كانت تلك المعلومات جديرة بالتضحية بحريتي والمجازفة في تمضية بقية حياتي في السجن، لأنّني استهدفت نشر تلك الحقائق منذ نصف قرن مضى. وبطبيعة الحال، هناك مجازفة حتى في أيامنا هذه، إن كنت وضعت يدي على وثائق داخلية مقاربة لتلك التي اطلعت عليها في السابق. ما زلت أحاول بطرق شتّى وبأساليب عديدة أن أوقِظ النيام في أمريكا وغيرهم حول العالم كي أطلعهم على المواد، التي كنت رغبت إماطة اللثام عنها، بالضبط لأنّني أعتقد أنّ التاريخ قد زُيّف علناً. ومن المحزن بشكل مأساوي أنّ الأمور لم تتغيّر بشكل أساسي عمّا كانت عليه. لا زالوا يُزيّفون ويكذبون!

بإمكاني القول إنّه اعتماداً على اطلاعي وقراءتي للأدبيات المعلنة أجدها تحتوي على تفصيلات لا يمكن مقارنتها بما توفر في حقبتي الستينات والسبعينات. ولكن هذه طبعاً، لا تشمل ملخصات تقوم على المعرفة العميقة، كالتي قدّمها مساعد الرئيس القادم لشؤون الأمن الوطني عام 20، التي لا تساوي تلك التي قدمتها لمساعد الرئيس جون كَنَدي السيد مكجورج بُندي في شهر يناير من عام 1961. (سأتناول ذلك بالتفصيل في الفصل السابع)، إضافة إلى ما كنت قدمته من جديد إلى بُندي في السنوات القلائل التالية. النتائج المطروحة في الصفحات التالية حول الشتاء النووي، قد تمّ الكشف عنها خلال الحقب التالية. وكذلك الحال بالنسبة إلى الجوانب الرئيسية لأزمة الصواريخ في كوبا وقضية الإنذارات الكاذبة. في خلاصة جزئية لهذا الكتاب، أود إخبار ذلك المساعد للرئيس ترامپ، إن كان يحتاج إلى ملخص، بأنّ ما تعلمته كان في غالبه من أواخر الخمسينات ومطلع الستينات.

- إنّ العناصر الأساسية لاستعداد أمريكا لحرب نووية تظل اليوم كما كانت عليه قبل 60 عاماً تقريباً. ستظل آلاف الرؤوس النووية على أهبة الاستعداد للانطلاق متوجهة نحو القواعد العسكرية الروسية، بما فيها مواقع القيادة والسيطرة، وأغلبها داخل المدن أو قربها. المنطق الرسمي المعلن لمنظومة الصواريخ هذه هو الافتراض بالحاجة إلى الردع أو الردّ على أيّة هجمة عدوانية روسية ضدّ الولايات المتحدة. هذا المنطق السائد يقوم على الخداع. فردع هجوم نووي مباغت يقوم به السوفيات، أو الردّ على مثل هذا الهجوم ما كان **إطلاقاً** هو الوحيد أو الغرض الأساسي من خططنا النووية واستعداداتنا. إنّ طبيعة ومستوى ومواقع قواتنا النووية الستراتيجية، كانت دائماً مرسومة وفق أغراض مغايرة تماماً، وهي محاولة حصر الأضرار التي تصيب أمريكا جرّاء هجمات روسية انتقامية لهجمات مباغتة من الجانب الأمريكي على الاتحاد السوفياتي أو روسيا. إنّ القدرات، بشكل خاص، تهدف إلى تقوية مصداقية التهديدات الأمريكية للبدء بهجمات محدودة أو تصعيدها. التهديد الأمريكي «بأخذ المبادرة للسيطرة على المناطق أساساً من خلال صراعات غير نووية ضدّ قوات السوفيات أو الروس وحلفائهم.

- تطلبت القدرات الستراتيجية للولايات المتحدة على الدوام، القيام بضربة أولى، بغض النظر عن القيادة والرئيس. تقوم الولايات المتحدة بضربة مباغتة دون أيّ استفزاز، وتكون أيضاً ضربة قاضية لا تتطلب ضربة «ثانية» تحت أيّ ظرف، إذا لم يكن ممكناً تحاشي القيام بضربة استباقية. ورغم أنّه تمّ إنكار ذلك رسمياً، فإنّ ضربة

استباقية محدودة لغرض التحذير، إمّا باستعمال تحذير تكتيكي عن ضربة متوقعة، أو تحذير ستراتيجي بأنّ تصعيداً ذريّاً على وشك الوقوع، فإنّ كافة هذه موجودة في جوهر تحذيراتنا الستراتيجية.

- وجّه دونلد ترامپ خلال حملة انتخابات الرئاسة لعام 2016، سؤالاً إلى مستشار السياسة الخارجية حول الأسلحة النووية قائلاً، «إذا كنّا نمتلك هذه الأسلحة فلماذا لا نستطيع استخدامها؟» الجواب الصحيح، لقد قمنا بذلك. في مخالفة للرأي السائد أنّه «لم يُستعمل أيّ سلاح نووي منذ هِروشِما ونَگزاكي، فإنّ رؤساء أمريكا قد لجأوا إلى استعمال الأسلحة النووية عدداً من المرات خلال بعض «الأزمات» أكثرها بشكل سري لم يطلع عليه الرأي العام الأمريكي، ولكن يعرفه الخصوم جيّداً وعلى علم به. لقد استعملوها بطرق دقيقة، حين وُجّهت الصواريخ نحو مكان معيّن، دون أن يُضغط على الزناد. أن يكون جهاز الإطلاق جاهزاً دون الضغط على الزناد، فهو الهدف الرئيسي والمبرر لامتلاك ذلك الجهاز. (سأشرح ذلك بالتفصيل في الفصل 20).

الأبعد من ذلك، أنّ «الردع الموسع» يغطي كافة الحلفاء في أوروپا واليابان، ويعتمد على جاهزيتنا والمحافظة على استعداداتنا لتنفيذ تهديداتنا بالاستخدام الأول، بدأ بمبادرات الهجمات الذرية بالأسلحة التكتيكية قصيرة المدى و/أو القيام بهجوم علني لإفشال الضربة الأولى على الأرض السوفياتية/الروسية، باستخدام صواريخ نووية ستراتيجية بعيدة المدى ردّاً على هجمات كبيرة غير نووية من قبَل قواتها وقوات حلفائها التقليدية.

كرّر الرئيس الحالي دونلد ترامپ، حين كان مرشحاً للرئاسة عام 2016 عدم رغبته في رفع مبدأ الاستخدام الأول عن «طاولة الاختيارات» في أيّة مواجهة، بما فيها مواجهة مع **داعش** أو في أوروپا. كما أنّه صرّح بأنّه سيكون «آخر من يستعمل السلاح النووي»، ما لم يكن طبعاً ينوي الاستخدام الأول. سُئل خلال نقاشات الحملة المذكورة عن «الأسلحة النووية وما يدور من الأقوال إنّ الرئيس أوباما كان ينوي تغيير سياسة البلد بشأنها، والتي كانت سائدة منذ وقت طويل، بمعنى تحويلها من الضربة الأولى إلى الاستخدام الأول، فهل تؤيد مثل هذه السياسة؟».

استمر يتحدث لمدة دقيقتين وذكر فيما ذكر، «أطلب من الجميع إنهائها، تخلصوا

منها، ولكنّني بالتأكيد لن أقدم على الضربة الأولى. إنّني أعتقد أنّه إذا اخترنا البديل النووي، فإنّ الأمر سينتهي. وفي نفس الوقت، يجب أن نكون على أهبة الاستعداد. لن أرفع شيئاً عن طاولة الخيارات».

خلال الدقيقتين المقررتين لردّ كلِنتُن، حاولت ألّا تكرر كلمات ترامپ حول «الطاولة» أو الإجابة عن السؤال سوى «تطمين الحلفاء... أن دفاعنا مشترك ولدينا معاهدات نلتزم بها». لكنّه لو تمّ الضغط عليها، لكانت وزيرة الخارجية السابقة قد أعطت إجابة مشابهة لإجابة ترامپ، كما فعل في كافة المقابلات التي أجريت معه. إنّ معاهداتنا للدفاع المشترك لم تتطرق إلى حرمان الولايات المتحدة من الاستخدام الأول للسلاح النووي. وبّخت الوزيرة خلال حملة انتخابات الرئاسة لعام 2008، السناتُر بَرَاك أوباما لأنّه ذكر بأنّه لن يستعمل السلاح النووي ضدّ پاكستان. قالت أنّه يتوجب على كلّ رئيس ألّا يذكر أنّه سيستعمل أو لن يستعمل هذا السلاح أو ذاك.

وفي نفس الوقت ولغاية عام 2016، كان الرئيس أوباما تحت ضغط ليتراجع عن تصريحه حول سياسة التعهد بعدم الاستعمال الأول، من قِبَل وزير الدفاع ووزير الخارجية ووزير الطاقة، إضافة إلى الدول الحليفة، من الذين بانت آثار جهودهم ونصائحهم جلية في سطور مقالة نُشِرت عام 2010 في **مجلة الأوضاع النووية** NPR. وخلال آخر سنة من فترة حكمه، استمرّ في انتهاج سياسة التهديد الممكنة للمبادرة بحرب نووية، غير معلنة على الرأي العام، والتي كانت سمة إدارة كلّ رئيس أمريكي، اعتباراً من فترة حكم ترومَن. لقد ورث الرئيس ترامپ تلك السياسة وأعاد تأكيدها، كما استمرّ في نهج سياسة رِچَرد نِكسُن، التي أطلق عليها اسم «نظرية الرجل المجنون»، التي ينظر إليها البعض بشيء من القلق، بأنّها أكثر عقلانية من بعض الذين سبقوه.

- شكلت هذه السياسة تهديداً بهجوم نووي من قبل الولايات المتحدة على أيّة دولة قد تكون في صراع معها، مثل كوريا الشمالية. إنّ هذا الرفض المتكرر من قبَل الولايات المتحدة للالتزام بعدم اللجوء إلى الاستخدام الأول، كان دائماً يحول دون التوصل للقيام بحملة فعالة للحدّ من انتشار الأسلحة النووية. وهي مستمرة بعمل ذلك تحت إدارة ترامپ. في الحقيقة، إنّها شجّعت انتشار تلك الأسلحة في بلدان أملت الحصول

عليها لمواجهة تهديدات أمريكا أو تقليد تلك التهديدات وافتعالها. كما أنّ الجوانب الأخرى لسياسة أمريكا النووية قد أثمرت نفس النتائج، أي تعزيز الانتشار بشكل فعّال. وبطبيعة الحال، إنّ الإصرار في المحافظة على خزيننا من آلاف الصواريخ الذرية، العديد منها على أهبة الاستعداد للانطلاق، بعد مرور ربع قرن ونحن في فترة **ما بعد الحرب الباردة**، يُلغي نصائحنا لبقية دول العالم «إنّها ليست بحاجة لهذا السلاح» وليس هناك مبرر لإنتاج صاروخ واحد.

- بالنسبة إلى هجمات ستراتيجية أمريكية مقصودة ومسموح بها، فإنّ النظام الذري مصمم ليكون مستعداً للاستجابة لمدى واسع من الأحداث، أكثر ممّا يتصوره الرأي العام. وأكثر من ذلك فإنّ اليد المخولة للضغط على الزناد في القوة النووية، ما كانت إطلاقاً تحت سلطة الرئيس أو إرادته ولا حتى في يد أعلى المسؤولين العسكريين رتبة (سأتناول الموضوع في الفصلين 3 و7).

- كما اكتشفت من خلال بحوثي عن القيادة والسيطرة في أواخر الخمسينات، أنّ الرئيس أيزنهاور قد خوّل تلك الصلاحية بشكل سري للمبادرة بشن هجمات نووية، إلى الضباط في مسرح العمليات تحت ظروف معينة. منها انقطاع الاتصالات مع واشنطن، وهو أمر يحدث يومياً خلال عمليات المحيط الهادئ، أو في حالة عجز الرئيس، وهو أمر حدث للرئيس أيزنهاور مرتين خلال فترة رئاسته، أو تحت ظروف أزمة مشابهة، حين يتولى القادة التابعون تلك المهام.

ولشدة دهشتي أنّني بعد أن نبهت البيت الأبيض خلال إدارة كنَدي، وبدلاً من الرجوع عن «قرارات القائد الأعلى» الذي سبقه، فعل كنَدي ذلك أيضاً ومثله الرؤساء جونسُن ونِكسُن وكارتر. وتبعهم بالتأكيد كلّ رئيس آخر حتى هذا اليوم، رغم أنّ الحقب السابقة قد شهدت بعض الصلاحية لقلة من المدنيين خارج واشنطن، واعتبِر هذا التفويض سرّاً وطنياً بالغ المستوى والأهمية.

وجدت نفس الشيء في الاتحاد السوفياتي، والآن روسيا. إنّ النقاش العام حول الخطط الأمريكية لخلق حالة «عجز» القيادة والسيطرة السوفياتية، قد قادت إلى وضع نظام «اليد الميتة». يمنح هذه الصلاحية لضمان الضربات/الهجمات الانتقامية ضدّ

أيّة ضربة أمريكية تلحق الخراب بموسكو أو في مراكز القيادة والسيطرة. عومِل هذا باعتباره سرّاً حكومياً. وهذا شيء متناقض من جانب الطرفين لأنّ السريّة والإنكار يقللان من ردع أيّة هجمة تلحق العجز بالطرف الآخر (كما سنرى في الفصل 9).

هناك سبب عاجل لتنوير الرأي العالمي حول هذه الحقيقة التي تخصّ العصر النووي، وهي أنّه من الناحية الافتراضية، هذا التفويض السري المتماثل موجود داخل كلّ بلد نووي، بما فيه البلدان النووية الجديدة وهي إسرائيل والهند وپاكستان وكوريا الشمالية. كم أصبعاً يمكن أن يداعب الأزرار النووية في پاكستان؟ ربّما حتى الرئيس الپاكستاني نفسه لا يعرف ذلك بشكل مؤكّد. وفي نفس الوقت تسربت تقارير إلى الإعلام الأمريكي خلال العامين 2016 و2017، فحواها أنّ الخطط الطارئة والتدريبات تهدف أساساً إلى قطع رأس قيادة كوريا الشمالية وهيكل بنيتها السياسية والعسكرية. سيكون لهذا تأثير في ذلك البلد لخلق «نظام اليد الميتة» على غرار ما وجد منذ أيام السوفيات، بغية التأكد من شنّ الغارات الانتقامية في حالة تعرض البلد إلى أيّة هجمات نووية.

- لحسن الحظ كشفت لنا خطط الاتحاد السوفياتي عن وجود تفهم متنام حول المخاطر البالغة، التي خلقتها أزمة الصواريخ في كوبا. لكنّ دراستي السرية عام 1964، والتي تبعت مساهمتي في متابعة الأزمة على أعلى المستويات، قد أظهرت أنّ المجازفة كانت أعلى من أيّة حسابات واستنتاجات توصلنا إليها في حينها. بالرغم من إيماني بأنّ تصميم قائدي كلي البلدين هو تجنب حرب نووية، فإنّ الأمور تصاعدت خارج السيطرة وكانت على وشك مدّ اليد للضغط على الزناد وانطلاق خططنا لحرب نووية شاملة (سأتحدث عن ذلك في الفصلين 12 و13).

يكون أيّ نظام نووي ستراتيجي عرضة للإنذارات الكاذبة والحوادث وإطلاق الصواريخ دون تفويض، وهذه أمور لا يعرفها الرأي العام، ولا حتى أغلب المسؤولين الكبار. كان هذا محور تركيزي على التحقيقات السرية بين الأعوام 1958- 1961. أكّدت الدراسات، التي أجريت عقب ذلك التاريخ، الإصرار على وجود تلك المخاطر. هناك احتمال أنّ النظام قد ينطلق «عن طريق الخطأ» أو عدم وجود تفويض خلال الأزمة، إضافة إلى احتمال التنفيذ المتعمد للتهديد النووي، الذي سيدمر

النظام نفسه ومعه العالم بأكمله. وهذه دائماً مجازفة غير معقولة تفرضها الدول الكبرى على سكان المعمورة.

- إنّ مثل هذه المخاطر الكارثية المتوقعة قد أخفيت عن الأنظار كي لا يطلع عليها الرأي العام. لقد تعلمت عام 1961، باعتباري داخل الحلقة، أنّ عملية اتخاذ القرارات النووية والسياسات والخطط والتدريبات لحرب نووية عامة، معرضة للخطر، حسب تقديرات رئاسة الأركان المشتركة، حين أشارت إلى فناء مئات الملايين من البشر، ربّما ثلث مجموع سكان العالم. الذي لم نعرفه في حينه ولم يعرفه أعضاء هيئة رئاسة الأركان ولا الرئيس ولا مستشاروه للشؤون العلمية، ولا أيّ أحد آخر لغاية مرور حقبتين أي حتى عام 1983، هما مسألتي الشتاء النووي والمجاعة النووية. وهذا يعني أنّ الحرب النووية الكبرى، التي أعددنا لها العدة في حينه أو بعد ذلك، ستقتل كافة البشر على سطح الأرض، ومعهم معظم الكائنات كبيرة الحجم (راجع الفصل 18).

إنّه الدخان وليس البقايا الذرية المتساقطة، التي ستكون محدودة على القسم الشمالي من الكرة الأرضية، هو الذي يحمل الخراب لبقية العالم. الدخان والسخام الناجمين عن العواصف النارية التي ستجتاح المئات من المدن، سيظلان في الجو لمدة حقبة أو أكثر، وهما يغلفان الكرة الأرضية بغيوم تحجب غالبية ضوء الشمس وحرارتها، ممّا سيؤدي إلى انخفاض درجات الحرارة حول العالم إلى ما كانت عليه أيام العصر الجليدي. سيؤدي ذلك أيضاً إلى موت كافة النباتات والمحاصيل الزراعية حول العالم، ويؤدي هذا بدوره إلى حدوث مجاعة عالمية خلال سنة أو سنتين.

إنّ خطط الولايات المتحدة النووية الحرارية في مطلع الستينات، لو تمّ تنفيذها خلال أزمتي الصواريخ في برلين أو في كوبا، لكانت قتلت أكثر بمرات من تقديرات هيئة الأركان المشتركة، المشار إليها في التمهيد لهذا الكتاب. ذكِر حينها أنّ الضحايا البشرية ستكون بحدود 600 مليون إنساناً. لو قامت تلك الحرب لتسببت في شتاء نووي كان قضى على كافة البشر جوعاً، وكان تعدادهم ثلاثة بلايين إنساناً.

لقد تمّ تخفيض عدد الرؤوس النووية، التي يمتلكها الجانبان بقدر كبير قارب حوالي 80-% مقارنة بما كان عليه العدد في مطلع الستينات. ومع ذلك فإنّ التقديرات العلمية الحديثة تؤكد وتزيد من قوة التحذيرات السابقة قبل حوالي 30 عاماً، بأنّ جزء قليلاً ممّا تبقى من ترسانة الأسلحة النووية لدى

الطرفين كاف لإحداث شتاء نووي اليوم، بناء على أسس الخطط القائمة، التي تستهدف مراكز القيادة والسيطرة والأهداف الأخرى في داخل المدن أو قربها. بعبارة أخرى، إنّ إقدام أيّ من الجانبين على تنفيذ الضربة الأولى باستعمال هجوم أصغر ممّا خطط له في الستينات والسبعينات، والذي ما زال جاهزاً للتنفيذ من قبَل روسيا أو أمريكا، سيؤدي إلى الموت الناجم عن حجب ضوء الشمس وحرارتها، وما يترتب عليهما من حدوث مجاعة وانتشارها بين البشر في كافة أنحاء المعمورة، والذين يبلغ عددهم 7 بلايين إنساناً.

سوف لن يكون هناك مجال لحصر الأضرار في جانب الدولة المهاجمة أو حتى حلفائها، ولا بين سكان «العدو» أو سكان البلدان المحايدة حول العالم نتيجة للضربة الأولى قبل شنّ الهجمة الثانية، حتى وإن لم تحصل هجمات انتقامية، أو حتى لشنّ هجمة استباقية للقضاء على ترسانة الطرف الآخر ومنشآته قضاء مبرماً. بعبارة أخرى، تنفيذ أيّة مهام مناطة بالسلاح الذي صُمّم أصلاً ليقوم بها. الخراب الذي يصيبها ويصيب الآخرين نتيجة للضربة الأولى سيكون غير محدود.

ليس هناك دليل على أنّ نتائج آخر الدراسات العلمية خلال الحقبة الماضية للظواهر المناخية الناجمة عن الحرب النووية، قد نفذت إلى ضمائر المسؤولين الأمريكيين ولا الروس، أو أثرت بأيّ شكل من الأشكال على استعداداتهم النووية أو مواقفهم إزاء مفاوضات الحدّ من التسلح.

هناك سبب جيد للشكّ بأنّه لا جورج بُش الابن ولا بَرّاك أوباما ولا جورج بُش الأب ولا بِل كلِنتُن خلال العشرين سنة الماضية من صدور الدراسات الأولية عن الموضوع، قد طلب أيّ منهم ولو لمرة واحدة ملخصاً للاطلاع على نتائج تلك الدراسات، أو قدّمَت لأيّ منهم «خيارات» متعددة حين تجري التدريبات على مختلف أجهزة الحرب النووية وأدواتها. ذُكِر أنّ گربَچوف قد أشار إلى أنّه تأثر بشكل قويّ بالدراسات السوفياتية لظواهر المناخ المشار إليها. وهي ما كانت أساس رغبته لإجراء تخفيض كبير أو حتى إلغاء بعض الأسلحة النووية، خلال محادثاته مع رَيگِن، الذي قدّم بدوره بطرح تخفيضات مماثلة.

إذا كان الرئيس دونلد ترامپ قد اطلع على هذه المعلومات، ومن المؤكد تقريباً أنّه لم يفعل، فإنّه والبعض من أعضاء حكومته والمسؤولين الآخرين، إضافة إلى قادة الأغلبية الجمهورية في الكونگرس، معروف عنهم إنكارهم لنتائج تلك الدراسات العلمية القائمة على أفضل نماذج التنبؤ بالتطورات المناخية.

* * *

في ختام فلمه الساخر الشهير عام 1964 بعنوان Dr. Strangelove، قدّم ستانلي كُبرِك مفهوم «ماكنة يوم القيامة» Doomsday Machine، التي صُممت لردع هجوم نووي على الاتحاد السوفياتي وتدمير الحياة البشرية، واعتبار ذلك ردّاً تلقائياً على مثل هذا الهجوم. وضع الرئيس الروسي في الفلم جهازاً أخبر عنه العالم فيما بعد. ينطلق هذا الجهاز تلقائياً لحظة انفجار سلاح نووي تطلقه طائرة B52، يقودها طيار أمريكي متمرد محتال، دون إذن من الرئيس الأمريكي.

لقد استعار كُبرِك الاسم والمفهوم لهذا الجهاز الافتراضي من زميل قديم اسمه هِرمَن كان، وهو فيزيائي عمل في مؤسسة راند، بعد أن ناقش الأمر معه. نشر كان عام 1960 كتاباً بعنوان (الحرب النووية الحرارية) كما نشر عدداً من المقالات المعروفة عام 1961. ذكر أنّه قادر فعلاً على تصميم مثل هذه الأداة، التي يمكن تصنيعها خلال 10 سنوات بكلفة رخيصة. وهذه إحدى الخصائص الرئيسية لتكون نظاماً للردع ربّما سيكلف حوالي 10 ملايين دولاراً، بدلاً من بليون دولاراً، حسب تقديراته. يشكل هذا جزء يسيراً للغاية من الميزانية الحالية للأسلحة الستراتيجية، ويمكن وضع هذه الأداة داخل البلد أو في مياه المحيط. سوف لن تعتمد على إرسال رؤوس نووية محمولة على طائرات غالية الكلفة عليها لكي تصل إلى أهدافها أن تقطع مسافة ما يقارب نصف مدار العالم، أو إرسال صواريخ بعيدة المدى كي تخترق دفاعات العدو.

لكنّه ذكر بوضوح إنّه شيء غير مرغوب فيه، ستخرج الآلة عن السيطرة لكونها عنيدة وغير مرنة وتعمل بشكل تلقائي، وقد تفشل في عملية الردع وسيكلف فشلها هذا «حياة العديد من البشر». في الحقيقة ستقضي على كافة البشر. وهي نتيجة أطلق عليها الفيلسوف جون سُمرفِل فيما بعد اسم «آلة الفناء» Omnicide. أكّد العالم الفيزيائي كان في عام 1961 أنّه لم يُصمم أو يصنع أيّ جهاز من هذا النوع، ولن يكون ذلك في الاتحاد السوفياتي ولا الولايات المتحدة.

ذهب العالم الفيزيائي إدوارد تِلر المعروف بلقب «أبو القنبلة الهايدروجينية» إلى القول إنّ مفهوم «آلة الفناء» الذي سخر منه، لا يمكن تحقيقه. أجاب عن سؤال طرحته عليه في أواخر عام 1، أنّ تصميم وصنع آلة من هذا النوع «أمر مستحيل» لتقتل باستعمال السلاح النووي الحراري، الذي شارك في اختراعه «أكثر من ربع سكان المعمورة».

فكّرت في ذلك التأكيد في حينها وعن مفهومه «بأنّ الكأس مليء بالماء لحدّ ثلاثة أرباع حجمه». عمل تِلر مع كان وكِسِنجر ومع نازي مصمم للصواريخ اسمه فِرنر فون براون، الذي جيء به من ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وأعطاه كان شخصية Dr. Stronglove في فلمه المشار إليه سابقاً. كان تقدير تِلر للخسائر البشرية قريباً من تقديرات مجلس القيادة المشتركة، وما

خططت له في عام 1961، رغم أنّ تقديراته أدقّ لأنّه غطى الخسائر الناجمة عن الحرائق. وهو أمر لم تلتفت إليه تقديرات المجلس المذكور. وبهذا يصل مقدار كمية الفناء إلى ثلث أو نصف سكان العالم.

كان مجلس القيادة المشتركة على خطأ عام 1961 وكذا قبلها تقديرات كان عام 1960 وأيضاً تقديرات تِلر عام 1983. لا أحد يتصف بالكمال! بعد مرور عام على شهادة تِلر أمام المجلس التشريعي لولاية كاليفورنيا حول قضية التجميد المشترك للأسلحة النووية، عُقد مؤتمر قدّمت فيه البحوث الأولى عن صورة الشتاء النووي وتأثيرات الدخان المنطلق إلى الجو بفعل الحرائق الناجمة عن استخدام 1000 أو أكثر من 1000 من مجموع 50 ألف قنبلة هايدروجينية لضرب المدن. خلافاً لما كتب عنه كان وتِلر، فإنّ الآلة الأمريكية ليوم القيامة موجودة منذ عام 1961 ولعدة أعوام قبله على هيئة قنابل جاهزة للاستخدام في قواعد القوة الجوية الستراتيجية، التي سرعان ما ستنضم إليها الصواريخ التي تطلق من غواصات پولارِس. ورغم أنّ هذه الآلة سوف لن تقتل كافة البشر أو تحدث فيهم مجاعة حدّ الموت، فإنّ آثارها لو انطلقت ستحدث شيئاً مقارباً ليوم القيامة.

* * *

ومثل المواضيع التي تخص العمليات السرية وخطط الاغتيالات، فإنّ الخطط النووية والتهديدات المتعلقة بها، تعتبَر أيضاً مواضيع محرمة لا يجب طرحها على طاولة النقاش العام، بأمر حفنة من الموظفين والمستشارين، الذين لا يعرفون شيئاً عن هذه المواضيع أصلاً. إضافة إلى كلّ ذلك، فإن إحساسهم بالمسؤولية والثقة باعتبارهم أمناء وحراساً لتلك الأسرار الحساسة، هناك شعور قويّ بينهم أنّهم مهنيّون يلتزمون جانب الصمت. يستمر هؤلاء المسؤولون في المحافظة على التمكن من الاطلاع على ما يستجد من الأسرار، والتعلق بآمال الحصول على مراكز استشارية بعد أن يتركوا الخدمة الحكومية. الخلط المزدوج بين هذا التقدير الخفي والسرية الرسمية المنتظمة والكذب والتشويش، قد أدى إلى خلق عجز في الفهم العام للمشكلة على المستويين الأكاديمي والإعلامي، وإلى الجهل التام لدى الرأي العام والكونگرس بها.

وباختصار، فإنّ جوانب التخطيط النووي واستعداد القوات، وهما الموضوعان اللذان أصبحتُ على دراية بهما لمدة نصف قرن مضى، ما زالا قائمين إلى يومنا هذا وعرضة دائمة وعلى مستوى أصبح معروفاً لدى علماء البيئة ويغطيان مساحات أكبر ممّا كان يُعتقد في حينها. أصبحت المخاطر الحالية للمرحلة النووية في وقتنا هذا، تفوق كثيراً مخاطر انتشار هذه الأسلحة وعمليات الإرهاب الخارجة عن إشراف بعض الدول، وتطغى تماماً على الرأي العام خلال الحقبة والجيل الماضيين، بشكل خاص. تشكل الترسانة النووية والخطط لكلتي الدولتين الأعظم في العالم، ليس فقط عقبة كأداء

في وجه الحملة العالمية المضادة لانتشار الأسلحة النووية لأنّها واضحة بذاتها، ولكن لكونهما تشكلان خطراً وجودياً على الجنس البشري وغيره من الحيوات على وجه البسيطة.

الحقيقة الخفية، التي أهدف إلى إماطة اللثام عنها، هي أنّه خلال أكثر من 50 عاماً أدركتُ أنّ الحرب النووية الحرارية تمثل كارثة ليس لها مثيل ولا رجعة عنها ولا يمكن تخيلها وتهدد الحضارة الإنسانية وكلّ شيء حيّ على هذه الأرض. وهي شيء يُشبه ما جرى في چرِنوبل وكَترينا وانفجار بئر النفط العائد لشركة گولف وكارثة فوكِشيما دايچي، وقبلها الحرب العالمية الأولى. هذه جميعاً كوارث يمكن أن تحدث ثانية على مستوى أوسع ممّا سبقها. وهذا هو واقع الحال وحقيقة هذا اليوم.

ليس هناك سياسة في تاريخ البشرية تستحق لقب «اللاأخلاقية» أو «الجنون» مثل التي لدينا الآن. إنّ قصة نشوء هذا المأزق الكارثي وكيف استمرّ بشكل متواتر خلال مدة نصف قرن، ليس إلّا مرضاً إنسانياً مزمناً. إذا كان الشعب الأمريكي والشعب الروسي وغيرهما من شعوب العالم غير قادرة على مواجهة هذه السياسات وتغيير دفتها وإنهاء مخاطر الفناء، الذي صنعته لنفسها، فإنّ هذا النداء سيظل مطروحاً على الدوام. وسأكون في صفّ المؤمنين بتحقيق هذا الهدف السامي.

القسم الأول
أنا والقنبلة

الفصل الأول
كيف استطعت ذلك؟

إعداد مُخطِط للحرب النووية

لو تمّ تفكيك **آلة يوم القيامة**، لاستطعنا معرفة كيفية بنائها وإدامتها. كيف يمكن لنا فعل ذلك؟ كيف يستطيع الأمريكيون والروس تحقيق هذه المهمة؟

بودي أن أتناول هذا السؤال من عدة جوانب، ولكنّي أطرحه على نفسي أولاً. كيف استطعت أنا، الذي ما زلت في أواخر عشرينات عمري أن أعمل في إعداد خطط لحرب ذرية؟ خطط أعرف أنّها لو نُفِذت ستفني مئات الملايين من البشر، في الحقيقة أكثر من ذلك.

كان سؤالاً مُثقلاً، بالنسبة لي. في النهاية شكلت مشاركتي في ذلك الإعداد بداية مواقفي الخاصة حول عمليات القصف والطريقة غير الاعتيادية، التي دخلت فيها العصر النووي. يعود اشمئزازي العميق من قصف المدنيين واستخدام السلاح النووي إلى طفولتي خلال الحرب العالمية الثانية. فقبل سنة من الغارة الجوية على پَرِل هاربر، تأثرت حين كنت في سن 9 سنوات بأشرطة السينما عن الغارات الخاطفة، التي تعرّضت لها لندن London Blitz، والتي كشفت عن وحشية النازيين وقسوتهم، اللتين يصعب إدراكهما. إنّ دكّ المدن الملأى بالبشر من كافة الأعمار وحرقها، دليل على الشخصية النازية الشيطانية.

بعد الهجوم على پَرِل هاربر، بدأنا نحن الصغار في المدارس نتدرب على ما يجب فعله في حالة وقوع غارة من هذا النوع على مدينتنا. جلب المعلم للصف في أحد الأيام نموذجاً للقنابل الحارقة كي نتعرف عليها. بدا لي حجم القنبلة صغير نسبياً ولونها فضي، صُمّمت لنشر الحرائق بعد انفجارها. قال المعلم إنّها مليئة بعنصر المغنيزيوم القابل للاشتعال، ولا يمكن إطفاؤه بالماء. يجبُ أن تغطى النار بالرمال لتمنع وصول الأوكسجين إليها، لأنّه يزيدها اشتعالاً. وبناء عليه وضعوا في كلّ غرفة من

غرف مدرستنا دلواً كبيراً مليئاً بالرمال استعداداً لذلك الغرض. فهمت هذا أنّه جزء من عملنا للمساهمة في المجهود الحربي. ولو فكرت حينها في الموضوع لأدركت أنّ احتمال خرق القاصفات الألمانية واليابانية لأجواء بلادنا كي تصل إلى ديترويت وتحرقها بالقنابل، احتمال ضعيف. لكنّ فكرة استعمال القنابل الملأى بالمغنيسيوم، قد شغلت بالي كثيراً. كان أمراً غير طبيعي أن أعتقد أنّ بإمكان الإنسان أن يصنع مثل هذه القنابل ويلقيها على البشر الآخرين كي تحدث حرائق لا يمكن إطفاؤها. وكما قيل لنا نحن الصغار أنّ مواد تلك القنابل تحرق اللحم وتفحّم العظام حين تصلها، ولا تتوقف عن الاشتعال حتى عند ذلك الحدّ. لم يستوعب عقلي فكرة إقدام ناس ورغبتهم في إحراق الأطفال بتلك الطريقة.

وبعد فترة بدأنا نشاهد أشرطة السينما وهي تظهر الطائرات البريطانية والأمريكية تخترق بشجاعة الأجواء المعادية لتلقي بحمولتها من القنابل على أهدافها في ألمانيا واليابان. قالوا لنا حينها إنّ طائراتنا قامت بغاراتها في وضح النهار وقصفت بشكل دقيق فقط المصانع الحربية والأهداف العسكرية، وللأسف فإنّ بعض المدنيين وقعوا ضحايا لتلك الغارات.

حتى والدي الذي يحمل شهادة مهندس إنشائي في ديترويت قد ساهم في إرسال معظم تلك القاصفات. كان في بداية الحرب مديراً لقسم الهندسة الإنشائية ومسؤولاً عن التصميم في مصنع Ford Willow Run، وهو مصنع تخصص في إنتاج طائرات B24 لصالح القوة الجوية. أخبرني أنّ ذلك المصنع كان أكبر مصنع من نوعه في العالم، إذ كان يُنتج الطائرات بنفس الطريقة التي أنتِجت بها سيارات فورد. أي باستعمال فكرة خط التجميع Assembly Line. كان طول الخط في المصنع ميلاً وربع الميل.

اصطحبني والدي مرة إلى ذلك المصنع FWR لأشاهد كيف يتمّ تجميع أجزاء كلّ طائرة لتكتمل في نهاية الخط. استطعت على مدى طول بصري أن أرى عربات محملة بالعمال وهم يضعون أقسام الهياكل ويشدّونها ويلحمونها ببعضها البعض. كان مشهداً مذهلاً بالنسبة لصبي بعمر 12 عاماً شديد الفخر بما كان يقوم به والده من واجب. كانت مهمته الأخرى خلال الحرب، تصميم وبناء مصنع أكبر لصنع محركات الطائرات، وهو كان أيضاً أكبر مصنع من نوعه في العالم، أطلق عليه اسم Dodge Chicago Plant، الذي صُنِعت فيه محركات طائرات B29s.

بالتأكيد، لم أكن أعرف أنّ مقاتلات والدي تلقي أيضاً وبشكل متزايد قنابل حارقة ملأى بعنصر المغنيسيوم، التي شاهدت نموذجها الصغير في المدرسة، وتحمل أيضاً مواد كيمياوية أخرى مثل الفسفور الأبيض وقنابل الناپالم، التي لها نفس فاعلية إحراق اللحم وتفحيم العظام وغير قابلة على الانطفاء. كان لدي شكّ أنّ والدي على علم بأنّ طائراته قد فعلت ذلك. لم نشاهد أشرطة سينمائية لما

كانت تفعله طائراتنا على الأرض ولا عن الحرائق التي عصفت بهَمبورگ ولا درَسدِن ولا طوكيو نتيجة غارات تلك الطائرات.

ولو كنت مطلعاً تماماً على ما فعلت طائراتنا من نوع B29 في طوكيو على وجه الخصوص، وكيف قامت بتقليد الرعب، الذي أنزله النازيون بضحاياهم، لما كنت أعرف كيف سيكون ردّي إزاء ذلك؟ لا أعرف ذلك حقاً. لربما كنت وجدت عزاء لنفسي، أنّ النازيين واليابانيين هم الذين بدأوا الحرب وشرعوا في قصف المدن أوّلاً، وأنّ الردّ الانتقامي على ذلك العدوان مسألة عادلة وضرورية، وأنّ أيّ أسلوب يُستعمل لدحر مثل هؤلاء الأعداء الفظيعين، لا شكّ له ما يبرره.

أقنعتني مثل هذه الأفكار لتبرير إسقاط القنبلة الذرية على اليابان، حالي كحال بقية الأمريكيين، رغم أنّ هذه الفكرة كانت نتيجة خبرة تولدت لديّ وأنا صغير في المدرسة عند نهاية الحرب العالمية الثانية. خلافاً لما اعتقده الأمريكيون، ممّن ليس لهم علم بشيء اسمه **مشروع مانهاتِن،** كانت أحاسيسي الأولى بتهديدات العصر النووي قد بانت قبل 9 أشهر من تدمير هِروشِما، وفق عذر مُختلق تماماً.

حدث هذا خلال السنة التاسعة في صف دراسات علم الاجتماع في خريف عام 1944. كنت في سنّ 13 عاماً طالباً في مدرسة داخلية، بعد حصولي على منحة دراسية غطت نفقاتي كاملة من مدرسة كرانبرُك. وهي مدرسة خاصة في منطقة بلومفيلد هِلز في مِشِگن. ناقشنا مدرسنا برادلي پاتِرسُن حول مفهوم كان شائعاً في علم الاجتماع حول نظرية وليم أوگبُرن عن التخلف الثقافي/ الحضاري.

الفكرة هي أنّ التطور التكنولوجي يسير بسرعة تفوق الجوانب الأخرى من الثقافة/الحضارة، المتمثلة بمؤسساتنا الحكومية وقيمنا وعاداتنا وأخلاقنا وفهمنا للمجتمع ولأنفسنا. في الحقيقة، أنّ نفس مؤشر التقدم المشار إليه، يركّز فقط على التكنولوجيا. وما تأخر بعدها وما تطور بشكل أبطأ أو لم يتطور إطلاقاً، كان كلّ شيء يتعلق بقدرتنا على توجيه التكنولوجيا والتحكّم بها بشكل عقلاني وأخلاقي وحكيم.

ولغرض توضيح ذلك قام مدرسنا پاتِرسُن بتسمية «تقدم في التكنولوجيا يمكن تحقيقه قريباً». قال إنّه يمكن الآن بناء قنبلة U-235، من نظائر اليورَنيَوم Uranium، التي لها قدرة تفجيرية أعظم بآلاف المرات مقارنة بأيّة قنبلة تمّ استخدامها في الحرب حتى تلك اللحظة. لقد استطاع العلماء الألمان في أواخر عام 1938 من اكتشاف عنصر اليورَنيَوم، الذي يمكن معالجته بشطر نواته/ذرته، كي تؤدي إلى إطلاق كميات غزيرة من الطاقة الهائلة.

نُشِرت خلال الحرب بعض المقالات المعروفة حول إمكانية القنبلة الذرية، خاصة U-235 في مجلات مثل ساتِردَي إيفننگ پوست وبعض المجلات العلمية الخيالية sci-fi. بالرغم من أنّ كلّ واحدة من تلك المقالات قد أدت إلى تحقيقات سرية حول إمكانية تسرّب معلومات عن **مشروع مانهاتِن**، الذي كان يُعتبر بالغ السرية، ما كانت تلك المقالات تسريباً لأيّ شيء يتعلق بالمشروع المذكور. يبدو أنّ تلك المقالات كانت وليدة وحي من مقالات نُشرت سابقاً عامي 1939 و1940، قبل فرض الرقابة الذاتية على المعلومات العلمية الذي جاء فيما بعد. لقد اطلع مدرسنا پاتِرسُن على واحدة من تلك المقالات، فجاء إلينا يتحدث عن نموذج الاختراعات، التي تشكل قفزة ممكنة للعلم والتكنولوجيا تسبق تقدم مؤسساتنا الاجتماعية.

ولو افترضنا أنّ دولة أو عدة دول قد عمدت إلى تبني فكرة الانشطار النووي وتنفيذها لصنع قنبلة فنجحت في ذلك، ما هي احتمالات التطبيق، التي ستواجه البشرية؟ كيف يمكن أن تستخدَم من قبل الأفراد والدول، كما نراها اليوم؟ هل ستكون متوازية لاستخدامات الصالح والطالح منها بالنسبة للعالم؟ هل ستكون قوة من أجل السلام أو أداة للتدمير؟ طلب منّا مدرسنا أن نفكر بالموضوع ويكتب كلّ منا مقالة يعرضها للمناقشة أمام الصف خلال أسبوع.

أتذكّر أنّني توصلت إلى استنتاجي بعد تفكير بالموضوع لعدة أيام. في الحقيقة أنّ غالبية الطلبة تقريباً قد توصلوا لنفس الاستنتاج. كان أمراً واضحاً أنّ وجود مثل هذه القنبلة يشكل خطورة على البشرية، التي لا تستطيع تحمّل مثل هذه القوة التدميرية، التي لا يمكن التحكم بها بشكل آمن. إنّ سوء استعمال هذه القوة وارد، وهذا يشكّل مخاطر جمة ذات عواقب غير حميدة.

إنّ مثل هذه القنبلة ستكون قوية جدّاً. لدينا ما يكفي من القنابل القادرة على تدمير أحياء برمّتها في أيّة مدينة، سمّوها «مدمرة الأحياء»، وتحتوي على 10- 20 طناً من المتفجرات. البشرية ليست بحاجة إلى آلة تدمير أخرى تفوق قوة هذه بآلاف المرات. قنبلة واحدة تكفي لتدمير مدينة بكاملها والحضارة الإنسانية، وربّما كافة الكائنات، التي ستكون عرضة لهذا التدمير الخطير.

وكما أتذكّر، فإنّ هذا الاستنتاج اعتمد فقط على من يمتلك هذه القنبلة، وكم عدد ما يمتلك منها، أو من سيحصل عليها أولاً. ستكون تلك بادرة سيئة حتى لو امتلكتها البلدان الديمقراطية أولاً. وبعد أن تمّت مناقشة مداخلاتنا في الصفّ أمام الطلبة، أتذكر أنّه مرّت شهور قبل أن أفكّر في الموضوع ثانية. أتذكر بالضبط لحظة حدوث ذلك.

كان يوماً حاراً من أيام شهر أغسطس في ديترويت. كنت واقفاً عند تقاطع شوارع وأنا أقلب

صفحات جريدة ديترويت نيوز أمام كشك بيع الصحف والمجلات. مرّت إحدى قاطرات النقل العام فأحدثت دوياً عالياً لحظة قرأت الخبر حول تدمير مدينة كاملة في اليابان بإسقاط قنبلة واحدة عليها. كان ما طرق ذهني حينها أن قلت لنفسي، «أعرف بالضبط نوع هذه القنبلة. إنّها من نوع U-235، التي كتبنا عنها وناقشناها في الصف خلال فصل الخريف الماضي».

قلت لنفسي: نحن صنعنا القنبلة أولاً، ونحن أيضاً أوّل من استخدمها لتدمير مدينة.

شعرت بالفزع وطغى عليّ إحساس بأنّ شيئاً فظيعاً قد حصل لِلإنسانية لحظة إسقاط تلك القنبلة. كان شعوراً تملكني لأوّل مرة باعتباري أمريكياً في سنّ 14 عاماً، بأنّ بلدي قد اقترف خطأً منكراً. صحيح أنّني شعرت بالغبطة أنّ الحرب انتهت بعدها بتسعة أيام، لكنّ ذلك لم يجعلني أفكر بأنّ ردّ فعلي بتاريخ 6 أغسطس كان خطأً.

شعرت بالقلق وعدم الارتياح في الأيام التالية، خاصة حين تحدّث هَري ترومَن عبر الراديو بلهجة المنتصر، على لسان شخص من وسط غرب البلاد. كان بالغ السعادة، خاصّة حين تفاخر بنجاحنا في السباق لصنع القنبلة الذرية ومدى فاعليتها في إلحاق التدمير على أرض اليابان. أظهر لي ذلك التبجّح أنّ الرئيس لم يعرف الصورة كاملة، ولم يدرك أهمية ما جرى ذلك اليوم، وأنّه سجّل سابقة لتطبيقات شريرة في المستقبل.

ما هي الأفكار غير المرجحة التي طرأت على خاطر صبي أمريكي في سن 14 عاماً خلال الأسبوع الذي انتهت فيه الحرب؟ نعم هذا صحيح، إن لم يكن من طلبة المدرس پاتِرسُن في مادة علم الاجتماع في فصل الخريف الماضي. لا بُدّ أنّ كافة الطلبة في ذلك الصف قد استعادوا في أذهانهم موضوع القنبلة، التي كتبوا عنها وناقشوها، وهم الآن يقرأون عناوين صحف شهر أغسطس وسط عطلتهم الصيفية.

كما تفرّدنا عن غيرنا من الأمريكيين بميزة هامة أخرى. ربّما لم يكن هناك أحد إطلاقاً، باستثناء العاملين في مشروع مانهاتِن، قد أتيحت له الفرصة للتفكير بالقنبلة كما فعلنا نحن قبل 9 شهور. أي قبل الانحياز القوي والارتباط العاطفي الإيجابي بها لدى علمهم بما جرى في شهر أغسطس من عام 1945، وكون تلك القنبلة «سلاحنا» وأداة بيد الديمقراطية الأمريكية التي طورته لدحر القنبلة النازية. وهي سلاح حقق النصر في الحرب وكان ضرورياً، كما أدّعيَ وصدّق العالم هذا الادّعاء، أنّنا أنهينا الحرب بدون غزو مكلف لليابان.

رغم أنّ فرضيات الادعاء أعلاه بدت واقعية، فهي في رأي الباحثين الذين أحترمهم في هذا

الميدان، أنّها مغايرة لذلك، لأنّ نتائج تلك القناعة والاعتقاد لدى الرأي العام كانت قضية مصيرية. وسواء كان ذلك خطأ أم صواب، فإنّنا البلد الوحيد في العالم الذي اعتقد أنّنا انتصرنا باستعمال القنبلة، بمعنى دكّ المدن بأسلحة دمار شامل خليط من قنابل حارقة وقنابل ذرية. وفوق ذلك، نحن بلد اعتقد أنّ ما فعلناه مُبرّر، وهذه حالة ذهنية خطيرة.

ولكن حتى لو فكرنا لبضعة أيام خلال الفترة التي سبقت الإعلان الرئاسي بأنّ الأمر حقيقة قد أنجزت، فليس المطلوب من الفرد أن يكون داعية أخلاقياً ليصل إلى قرار بأنّ ما فعلناه كان نذير شؤم، كما فعلنا نحن طلبة صف المدرس پاترِسُن. كان أمراً واضحاً بالنسبة لصبي في الصف التاسع وله من العمر 13 عاماً، كما كان بالنسبة لبعض العلماء الذي شاركوا في مشروع مانهاتِن ذاته، من الذين تكونت لديهم قناعات ووجهات نظر قبل استعمال القنبلة.

كان أول من خبر ذلك وسجّل انطباعاته عن الموضوع العالم ليو سيلارد، الذي اخترع وسجل باسمه مفهوم «التفاعل التسلسلي» chain reaction لعنصر اليورَنيَوم الثقيل. كان في لندن عام 193 كمهاجر ترك برلين قبل أن يُطلق الرايخ الألماني النار إعلاناً بقيام الدكتاتورية النازية التي برزت واستشرفت الحرب في أوروپا.

بتاريخ 3 مارس من عام 1939 كان سيلارد أول من رأى الوميض على جهاز رسم الذبذبات لتأكيد شكوكه «أنّ النيوترونات تنطلق لدى انشطار ذرات اليورَنيَوم. وهذا يعني انطلاق كمّ هائل من الطاقة، وهي أمر قريب المنال». كتب عن ذلك، «راقبنا تلك الومضات لوقت قصير، ثمّ أطفأنا الجهاز وذهبنا إلى بيوتنا. ما كان هناك شكّ في ذهني تلك الليلة أنّ العالم مقبل صوب وضع حزين».

ومع ذلك وفي أواخر تلك السنة وهو يتوقع قيام الحرب، التي خشي أنّ النازيين ربّما سيستغلونها لتجريب قوة القنبلة الذرية، قام بتشجيع ألبرت آينشتاين ودفعه كي يكتب رسالة شارك هو بإعداد مسودتها إلى الرئيس فرانكلِن روزفلت. استعجله في تلك الرسالة للبدء بما سُمّي مشروع مانهاتِن. كانت الرسالة بتاريخ 2 أغسطس من عام 1939، وبتاريخ 1 سبتمبر غزت جيوش هتلر پولندا.

بعد مرور ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف، قام سيلارد بالمشاركة مع أنريكو فرمي ببناء أول مفاعل ذري. يُعتبر هذا ضرورياً لاستخلاص عنصر الپلوتونيَوم الأساسي لبناء القنبلة. جدير بالذكر أنّ الألمان لم يتوصلوا لبناء مفاعل من هذا النوع. يستعيد سيلارد ذكرياته فيذكر أنّه بتاريخ 2 ديسمبر من عام 1942 تمّ بناء عدد من المفاعلات تمّت السيطرة عليها لفترة قصيرة جدّاً في مختبرات

ستاگ فيلد في حرم جامعة شيكاگو. أحضر أحدهم زجاجة نبيذ من نوع شيانتي النادر في زمن الحرب، للاحتفال بإنجاز فرمي وتهنئته. كتب سيلارد قائلاً، «كان هناك حشد من الناس وحين انفضّوا بقيت أنا وفرمي في القاعة. صافحته وذكرت له سيظلّ هذا اليوم يوماً أسود في تاريخ البشرية».

وعلى الرغم من تشاؤم سيلارد المتطرف، فقد لعب دوراً أساسياً في وضع هذه القوة المشؤومة هائلة التفجير في متناول العالم. كيف استطاع عمل ذلك؟ الجواب هو أنّه آمن قبل غيره من الآخرين، أنّهم في سباق مع هتلر لتحقيق هذا الإنجاز. فالعلماء الألمان هم أول من استطاع شطر نوى العناصر الكيمياوية الثقيلة. ولم يكن هناك سبب للافتراض بأنّهم سوف يتوقفون ولن يحافظوا على موقعهم العلمي المتقدم للتنافس والحصول على تلك الطاقة ووضعها في متناول هتلر وطموحاته اللامحدودة في الغزو وتسجيل الانتصارات. إنّ فكرة استحواذ ألمانيا على مثل هذا السلاح وتفرّدها به، حتى ولو لوقت قصير، هو ما دفع العلماء المشاركين في مشروع مانهاتن، وبخاصة منهم اليهود المهاجرين من أوروپا مثل سيلارد وفرمي للاستعجال والعمل الدؤوب. في الحقيقة أنّ فرمي ترك إيطاليا لأنّ زوجته يهودية، ولم يعد إلى بلده حتى استسلم الألمان وخرجوا منها.

في نفس الوقت تقريباً، أي في شهر يونيو من عام 1942 كان فريق من علماء الفيزياء النظرية يبذلون أقصى الجهود لحلّ مشاكل تصميم القنبلة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها تبيّن أنّ السباق كان من جانب واحد فقط. عارض هتلر فكرة صنع القنبلة الذرية، ليس لسبب أخلاقي بل لأسباب عملية لأنّ مشروعاً كهذا سوف لن يتم إنجازه خلال السنوات القليلة التي توقعها لاستمرار الحرب. ومع ذلك، ولجهلهم بالخيار الألماني، ركّز العلماء في الولايات المتحدة كامل طاقاتهم لإنتاج هذا السلاح بأسرع وقت ممكن.

رأى البعض منهم أنّ القنبلة أداة لردع هتلر حتى لا يستعمل مثل هذا السلاح، في حالة حصوله عليه. بدا تأمين مثل هذا السلاح الرادع وكأنّه ضرورة ملحة ولم يلتفت أحد للجوانب الأخلاقية. من هؤلاء العلماء جوزَف روتبلات، الذي عرف من زميل بريطاني في خريف عام 1944 أنّه لم يوجد لدى ألمانيا برنامج للردع النووي، فاستقال من مشروع مانهاتن. كان العالم الوحيد الذي أقدم على مثل تلك الخطوة، فهدّدوه بالطرد من أمريكا، إن كشف أسباب استقالته، دعك من الإيحاء بإقناع الآخرين لمحاكاته.

أما الآخرون، بما فيهم سيلارد فظلوا على عدم تأكدهم إن كان هتلر سيكشف عن هذا السلاح الضامن للنصر في آخر لحظة، وكانوا مستعدين لاستخدامه ضدّ ألمانيا لو توفر قبل استسلام النازيين. ولكن لم يكن هناك اعتبار أو نقاش داخل الجماعة المشاركة في مشروع مانهاتِن، عمّا يمكن عمله بهذه

القدرة إن لم تكن هناك حاجة لاستخدامها لدحر ألمانيا أو لردعها، إن كانت لا تمتلك قنبلة مشابهة. وبعد أن أصبح الواقع جلياً عند استسلام ألمانيا، قام سيلارد وبعض من رفاقه بجهود عاجلة لإيقاف اختبار تجريب القنبلة الأمريكية أو الامتناع عن إسقاطها على اليابان، على أمل تفويت احتمال حدوث سباق نووي مع السوفيات، غير أنّ الوقت كان متأخراً لفعل ذلك.

* * *

نعود ثانية للنقطة التي بدأت بها هذا الفصل. الأسباب الرئيسية لمشاركتي على مستوى واطئ في تشكيل السياسة النووية رغم مشاعري المبكرة وفزعي من الأسلحة النووية، كانت بشكل ملفت مشابهة لما شعر به جوزَف روتبلات وليو سيلارد. أعطيت في نهاية الخمسينات ما كان يبدو سبباً وجيهاً للاعتقاد المبني على معلومات سرية للغاية، أنّنا مرّة أخرى في صراع يائس مع خصم شمولي مشابه لألمانيا النازية. ونحن في مهمة ردع هجوم نووي مباغت، مثل الذي حصل في بِرِل هاربر، أو تجنّب أيّ شكل من أشكال الابتزاز النووي، الذي يُملى علينا. وكما سنرى فيما بعد أنّ تخوّفنا الجديد كان مبنيّاً على وهم، لكنّ المخاوف بدت حقيقية وكأنها مبنية على أسس معقولة. كيف شعرت بتلك المخاوف وتصرفت في ضوئها، فقصة تتألف من شطرين.

أوّلاً، أصبحت وكحال زملائي الأكبر سنّاً في ذلك الحين وبين أبناء جيلي من الأمريكيين، مقاتلاً في **الحرب الباردة**. دوّنت بعض الملاحظات حين أعلن چَرچِل، أحد أبطالي منذ معركة بريطانيا، التي أعلنها في شهر مارس عام 1946 بأنّ «الستار الحديدي» قد أسدِل وشقّ القارة وفصل ما بين أوروپا الحرة وبين الحكم الطغياني في **الشرق**. بعد مرور أقلّ من نصف عام على دحر النازية وحلفائها اليابانيين، أشار إلى السيطرة الشمولية لموسكو على كافة العواصم في وسط أوروپا وشرقها باستثناء أثِنا. وهذا بالضبط هو ما دفع هَري ترومَن في شهر مارس التالي أن يدعو الكونگرس لتقديم العون إلى اليونان، التي كان النظام الملكي فيها مهدداً من قبل تمرد قادة الحزب الشيوعي في البلاد.

بدأت أعي السياسة الخارجية لفترة ما بعد الحرب إثر إعلان **مبدأ ترومَن** في ربيع عام 1947، وأنا في مرحلة الدراسة المتوسطة. عبّر ترومَن عن استعداد الولايات المتحدة «لتقديم العون لكافة الشعوب الحرة» أينما كانت وحمايتها من فرض «أنظمة شمولية» عليها. وهذه عبارة كرّرها أربع مرات في خطابه. لقد وضعت تلك العبارة الشيوعية والنازية على مستوى واحد، وبالتالي وضعت هتلر وستالِن في منزلة واحدة أيضاً. وبناء عليه، فإنّ، التحدي الذي واجهناه في الحرب العالمية الثانية التي لم توشك على الانتهاء عام 1945، استمر قائماً. ونظراً لكوني طفلاً خلال فترة تلك الحرب ووثقت بقيادة **الغرب**، تقبلت تعريف ذلك التحدي وأنا في سنّ 16 عاماً على تلك الصورة، وكنت

مستعداً للأخذ به.

حين تابعت الأخبار في السنوات التالية حول الانقلاب الشيوعي في چيكوسلوفاكيا عام 1948 والحصار الذي فُرِض على برلين في أواخر ذلك الربيع، فإنّ الأنظمة الستالينية والمحاكمات السياسية التي جرت في روسيا وأوروپا الشرقية ومن بعدها هجوم كوريا الشمالية، عززت قناعتي تدريجياً بكافة مواقف الحرب الباردة وفرضياتها.

وإذا عدت للخلف، فإنّ المعادلة بين ستالِن ومن تبعه من قادة السوفيات وبين هِتلر كانت هي الفرضية التي فعلت فعلها. يعود ذلك إلى البطش الداخلي والسيطرة وقمع المنشقين بقسوة، وهي السمات المتشابهة بين النظامين، خاصة في عهد ستالِن. عززت تلك الممارسات اشمئزازي وغضبي من الطغيان الداخلي للأنظمة التي حاكت الطريقة الستالينية سواء كانت في الاتحاد السوفياتي وأوروپا الشرقية والصين وكوريا الشمالية وفيتنام وكوبا.

في الحقيقة، وأنا أستعيد ذكريات الفترة، فإنّ الأكثر إشكالية أنّني أستطيع القول إنّ مثل تلك الأحكام كانت خاطئة للغاية ومتهورة، والادّعاء أنّ تلك النظم مقابلة للنازية ولديها نزعة وشهية للتوسع إشباعاً لعدوانيتها العسكرية متى كان ضرورياً وممكناً، ليس دقيقاً. كنّا نفترض أنّ النظامين الشيوعيين في الاتحاد السوفياتي وأوروپا الشرقية، واللذين يتسلحان الآن بالسلاح النووي ولديهما قوات عسكرية تشكل تهديداً مباشراً لأوروپا الغربية وأمريكا أعظم ممّا شكله هتلر، غير صحيح. الأكثر من ذلك، أنّ المساواة بين الأنظمة الشيوعية وبين هتلر قد ألغت أيّة محاولة لمفاوضات ذات معنى لحل الخلافات حول الحدّ من التسلح. الخيار الوحيد، الذي خلقناه لأنفسنا ليس إلّا الاستعداد العسكري التام لصدّ هجوم وشيك أو «احتواء» التهديد السوفياتي «للعالم الحرّ».

في الوقت الذي استعددت فيه لدخول الكلية، بدأت أنظر لنفسي كما فعلت خلال السنوات التي تلت ذلك، أنّني ديمقراطي من أنصار ترومَن، أي لِبرالي محارب في الحرب الباردة أساند الحركة العمالية ومعاد للشيوعية، مثل عضوي مجلس الشيوخ هيوبَرت همفري وهَنري جاكسُن، وكمثلي الأعلى في ديترويت والتر روثر زعيم نقابة عمال مصانع السيارات.

أعجِبت بعمل ترومَن في شحن الطائرات بالفحم والأطعمة بدلاً من الأسلحة والقنابل وإرسالها لسكان برلين المحاصرين من قبَل السوفيات. وهو الحصار الذي بدأ في الشهر الذي تخرجت فيه من المرحلة الثانوية. أيدته بعد سنتين ضدّ العدوان الشيوعي الفاضح في كوريا. كما استحسنت بشكل خاص قراره لجعل الصراع هناك محدوداً ورفضه لخطط الجنرال دُگلاس مكارثر لتوسيعها لتشمل

الصين واستخدام الأسلحة الذرية لهذا الغرض. ونتيجة لقوة إيماني بتلك السياسة، كنت مستعداً للذهاب إلى كوريا، رغم كوني غير متحمس لتلك الخطوة.

بعد حصولي على تأجيل للخدمة العسكرية لأغراض الدراسة في هارفرد تلتها سنة إضافية للتمتع بزمالة من كمبرج، قررت أن أقوم بالواجب. تطوعت حين عدت من كمبرج في خريف عام 1953 لأكون ضابطاً مرشحاً في سلك البحرية، على أن ألتحق بالخدمة في فصل الربيع التالي.

حين أكملت سنتين في الخدمة البحرية في مطلع صيف عام 1956 طلبت من رئاسة القوة تمديد خدمتي لسنة أخرى، لأنّ وحدتي وهي الكتيبة الثالثة من الفرقة البحرية الثانية، حيث كانت مهمتي التدريب على استعمال السلاح ومن ثمّ أصبحت قائداً لسرية المدربين، قد أرسلت في مهمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ضمن الأسطول السادس. أقدم الزعيم المصري جمال عبد الناصر لتوّه على تأميم قناة السويس. ومع بروز أزمة عسكرية، تمّ إنذارنا بأنّ وحدتنا قد تشارك في الحرب.

بالمناسبة، حصلت على زمالة أمدها 3 سنوات من جامعة هارفرد، لكنّني ما كنت راغباً أن أرى الجنود الذين دربتهم وقدتهم يذهبون للمعركة بدوني. وحين وافقت قيادة البحرية على تمديد عقدي لسنة، اعتذرت عن قبول زمالة هارفرد وذهبت مع كتيبتي المتوجهة للبحر الأبيض المتوسط.

إن حقبة كاملة من انغماسي في الحرب الباردة كانت جزء ضرورياً لإعدادي للحقبة التالية بأن أعمل مستشاراً للحكومة في قضايا الأمن الوطني. لم يكن ذلك فقط هو ما دعاني لزيارة **مؤسسة راند** والانضمام إليها في مركزها بمدينة سانتا مونِكا في أواخر الخمسينات والبدء في عملي المهني. وكما عرفت، كانت مؤسسة راند تقوم ببحوث سرية لصالح القوة الجوية، وبشكل أوسع استعمالات الأسلحة النووية. لا شيء يمكن أن يكون أكثر اشمئزازاً لنفسي من الانخراط في مهمة كهذه.

في الحقيقة أنّ الثلاث سنوات، التي أمضيتها في البحرية قد ولّدت لديّ انطباعات عن مختلف القوات، خاصة البرية منها وعن الاستعداد لتطبيق مفاهيم فكرية تخصّ المشاكل الستراتيجية العسكرية. العمل مع القوة الجوية؟ ووضع الخطط للقصف النووي؟ لقد اخترت البحرية وفضلتها على القوة الجوية لأنّها لا تقصف المدن وليس لها علاقة بالأسلحة النووية في حينها. وعلى أيّة حال، فإنّه خلال السنوات التي سبقت مجيئي إلى مؤسسة راند، كنت أفكر في اختيار مهنة أكاديمية مثل منظر اقتصادي. لدى تركي الخدمة في البحرية في ربيع عام 1957، قدّمت طلباً للانضمام إلى جمعية الزملاء الخريجين، التي تمنح أفضل زمالات للدراسات العليا في البلد، باعتبارها بديلاً لنيل شهادة الدكتوراه. بعد أن يمضي الطالب مدة ثلاث سنوات يكون بإمكانه متابعة ما يودّ دراسته بشكل مستقل

ويحصل على مكتب وتغطية لنفقات البحث والسفر وراتباً يعادل راتب أستاذ مساعد في جامعة هارفرد. غير أنّه ليس مسموحاً للطلبة أن يلتحقوا بأيّة صفوف دراسية وما كان هناك تشجيع لكتابة أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه.

كنت أعرف ماذا أريد أن أفعل. منذ سنتي الأولى في الكلية أصبحت مأخوذاً بموضوع «نظرية اتخاذ القرارات» أيْ التحليل المجرّد لعملية اتخاذ القرارات في ظروف الشكّ. خلال دراستي لنيل الشهادة الجامعية الأولى كان موضوعي هو كيفية وصف وفهم وربّما تحسين الطريقة التي يتخذها الفرد في اتخاذ القرارات حين يكون غير متأكّد من النتائج التي ستنجم عن قراراته. تضمن ذلك مواقف الصراعات حين يقود الشكّ جزئياً إلى خيارات لها صفة الخصم العقلاني، وهو موضوع يسمى نظرية اللعبة Game Theory.

بدأت في خريف عام 1957 التركيز على الخيارات في مواقف الشكّ المتطرفة، التي أسميتها «التباسات». وهي تقوم على المعلومات المتناثرة والظروف الغريبة أو غير المتوقعة، وغياب الأطر الموثوق بها لفهم العمليات والأدلة، والشهادات المتعارضة وآراء الخبراء المتناقضة. إنّ الكثير من المواقف فيها البعض أو الكثير من هذه المواصفات، وبالذات خلال الأزمات العسكرية - السياسية. شعرت أنّ النظريات القائمة حول السلوك المناسب للاختيار العقلاني، في مثل هذه الظروف ليست كافية، في الحقيقة مضللة، وأنّ مهمتي هي أن أوضح ذلك وأطرح بدائل أفضل. كنت أيضاً مهتماً بدور التهديدات، التي شعرت أنّها إلى جانب الشكّ، ويميل أكثر الاقتصاديين إلى تحليلها ويسمونها «نظرية المساومة» Bargaining Theory، قد أهمِلت لوقت طويل.

نظراً لأنّ لكلّ هذا علاقة بالقرارات العسكرية، فإنّ راند كانت المؤسسة التي أظهرت اهتماماً خاصاً بمثل هكذا مواضيع. كان علماء الرياضيات فيها قد طرحوا مساهمات أساسية جادة. الذي جعلني أفضل راند، ليس لعملها في مجال الدفاع، بل لأنّها أصدرت مطبوعات غير سرية عن نظرية اتخاذ القرارات، التي تستهويني كثيراً.

في شهر أغسطس من عام 1957 وفي نهاية فصل الصيف حين كنت أدرس نظرية الاحتمالات في الرياضيات في جامعة ستانفرد، زرت مؤسسة راند. أدت تلك الزيارة إلى تلقي عرض من قسم الاقتصاد بأن أقضي الصيف التالي معهم كمستشار. قبلت ذلك العرض لأسباب علمية بحتة. وحسب معرفتي، لم يكن هناك أحد بما فيهم أنا نفسي، على علم بأنّه تلوح في الأفق بوادر أزمة نووية أو حرب باردة في ذلك الشهر.

كان ذلك قبل قليل من تغيّر الموقف ليصبح علنياً. لكنّ التغيير قد حصل بالفعل، كما علمت فيما بعد. لاحظ الجماعة في قسم الاقتصاد براند شيئاً لم ينتبه إليه آخرون، باستثناء وزارة الدفاع. خصّ هذا الموضوع ادعاء الاتحاد السوفياتي بتاريخ 26 أغسطس أنّه جرّب بنجاح صواريخ عابرة للقارات لها القدرة على حمل رؤوس نووية ICBM. واستناداً إلى معلومات مخابراتية سرية، لم يطلعوني عليها حين زرتهم، كان الاقتصاديون في راند على علم بأنّ ادعاء السوفيات صحيح ليس فيه شكّ.

بعد مرور شهرين، وبالذات بتاريخ 4 أكتوبر من عام 1957، وحين رجعت إلى هارفرد، سمع العالم بأجمعه عن القمر الاصطناعي الروسي الأول سپوتنِك Sputnik، الذي تمّ إطلاقه بنجاح وأمكن سماع الإشارات الصوتية الصادرة عنه بانتظام. كان ذلك إنجازاً تقنياً لم تكن الولايات المتحدة بقادرة على الإتيان بمثله. شاع افتراض في طول العالم وعرضه، بأنّ التقدم العلمي والتكنولوجي في الولايات المتحدة بات من الدرجة الثانية. ورغم أنّ أيزنهاور شجب القلق من «شيء صغير» يدور في الفضاء، وصرح علناً أنّ وجوده لم يحرك مخاوفه ولا حتى شعرة واحدة، لكنّ حقيقة الأمر عنت أنّ الأمريكيين في الولايات المتحدة قد أصبحوا مكشوفين وعرضة للخطر. وهي حالة لم يشهدها تاريخ البلاد من قبل. بعد أن استطاع السوفيات وضع سپوتنِك في مدار فضائي، تعزّز في ذات الوقت ادعائهم بأنّهم يمتلكون صواريخ عابرة للقارات يمكن أن تحمل رؤوساً نووية.

وكما حدث في السابق، بقيت مشاريع راند في خدمة القوة الجوية منذ تأسيسها بين عامي 194- 1947. كانت راند في البداية جزء من قسم الهندسة في شركة دُگلاس لصناعة الطائرات. وُضِع حينها اقتراح لبناء سفينة فضاء تدور حول العالم بحدود عام 1952. «كان للمشروع تأثير نفسي متوقع. اعتبره البعض موازياً ولكن بشكل أقلّ دراماتيكية من إنجاز القنبلة الذرية. وعنى هذا تهديداً مبطناً بأنّ في استطاعتنا إسقاط قذائف على أيّ هدف وفي أيّ مكان في العالم». غير أنّه في ذلك الوقت كان الجنرال كُرتِس لومَي مسؤولاً عن تطوير القوة الجوية وكان أشدّ ميلاً لتهديد الآخرين بإرسال قاصفات تطير على مستوى عال، من التهديد بالصواريخ. لم يتمّ تمويل المشروع في حينه لذلك السبب وانتهى الأمر.

حين هرعت الولايات المتحدة ببرامجها لوضع شيء ما في المدار الفضائي في خريف عام 1، أطلق السوفيات مركبتهم الثانية الأكبر حجماً والأثقل حمولة لأنّها حملت الكلبة **لايكا** إلى الفضاء. تمّ دفع المركبة باستعمال صاروخ عابر للقارات. أظهر ذلك أنّ الصواريخ السوفياتية قد وصلت إلى درجة من التقدم والدقة بحيث تستطيع حمل رؤوس نووية بإمكانها أن تستهدف الأرض الأمريكية وتصلها خلال نصف ساعة منذ لحظة انطلاقها. في الشهر التالي شاهد الأمريكيون ومعهم العالم

تجربة صاروخ ارتفع لأربعة أقدام ثمّ انقلب وانفجر فأحرق قاعدته التي انطلق منها. أمّا الحمولة الصغيرة وهي قمر اصطناعي كان مقرراً أن يوضع في المدار الفضائي، فقد عُثر عليه في الأحراش المجاورة وهو ما زال يبعث إشارات صوتية خافتة. قال أحدهم، «أطلقوا عليه النار وخلصوه من عذابه!» سخرت الصحف من التجربة وأطلقت عليها اسم فلوپنِك (بمعنى الذي قفز وسقط على مؤخرته» ليتوازن الاسم مع سپوتنِك. لكنّ الولايات المتحدة أطلقت صاروخها العابر للقارات بنجاح في شهر نوفمبر من عام 1958.

بحدود ذلك التاريخ، كان المزاج الوطني العام قد تغير بشكل مفاجئ. خلال صيف عام 1958 وحين كنت في راند، وجدت إدارة أيزنهاور نفسها ملزمة بمجاراة السوفيات في ميدان الفضاء، فأسست وكالة لبحوث مشاريع الدفاع المتقدمة DARPA في وزارة الدفاع، ووكالة الطيران والفضاء الوطنية NASA، وصدر قانون التعليم لأغراض الدفاع الوطني، وخُصّصَت بلايين الدولارات للعناية بتدريس العلوم والرياضيات في كافة مدارس البلاد.

أمّا بالنسبة لي، فإنّني حين وصلت إلى سانتا مونِكا في شهر يونيو لأكون مستشاراً ذلك الصيف وجدت نفسي غير مهتم بنظرية اتخاذ القرارات ولا بنظرية المساومة بشكليهما المجرد، ولكن بالقرارات الملموسة، التي يعتمد عليه مستقبل السلام والوطن والإنسانية جمعاء من أجل البقاء. كيف نردع السوفيات لكي لا يستغلوا تفوقهم الظاهر في القدرات الصاروخية لمهاجمة الولايات المتحدة أو إجبارها وفرض الشروط عليها؟

كان صيف عام 1958 حافلاً بالتنبؤات المخابراتية السرية حول هجوم مباغت وشيك مبني على تقدم السوفيات في تطوير الصواريخ العابرة للقارات والقادرة على حمل الرؤوس النووية، واستغلال هذه «الفجوة في القدرات الصاروخية». وحتى قبل تلك التنبؤات، كانت الدراسات السرية لمؤسسة راند خلال السنوات الأربع الماضية، قد توصلت إلى استنتاجات بأنّ القوة الجوية الستراتيجية للثأر من أيّة هجمات سوفياتية مباغتة ضد قاصفاتنا الستراتيجية، لا يمكن الاعتماد عليها. كما أظهرت تلك الدراسات الضعف حتى بالمقارنة مع قدرات القاصفات السوفياتية. ظهر فيما بعد أنّ تنبؤات المخابرات بصدد «الفجوة بين قاصفات الجانبين» وهي نفس التنبؤات حول «الفجوة بين صواريخ الجانبين» قد بولغ بها لحدّ كبير. افترضت الدراسات المبكرة دوراً صغيراً مشكوكاً فيه لقدرة صواريخ ICBMs السوفياتية وتلك التي تطلقها غواصاتهم. غير أنّ إضافة 20 أو حتى 40 صاروخاً سوفياتياً عابراً للقارات زاد من احتمالات هجمة مباغتة. كان تقدير عدد الصواريخ السوفياتية وفق أحدث دراسات راند بحدود 30 صاروخاً. غير أنّ تقديرات القوة الجوية ووكالة المخابرات المركزية

وضعت العدد بحدود عدة مئات في مطلع عام 1959، ووصل بالتأكيد إلى آلاف الصواريخ بين عامي 1960 -1961.

عزّزت تطمينات أيزنهاور وهدوءه الظاهر الانطباعات عنه بأنّه جدّ متقاعد لا يرى الواقع من حوله وتركيزه منصبّ على لعب كرة الگولف. كانت تلك الفكرة عنه موجودة لدى كافة كلّ من أعرفه في راند. أضف إلى ذلك الانطباع بأنّ القوة الجوية، وهي الجهة التي يعنيها الأمر أصلاً، لم تقلل من مخاطر التفوق السوفياتي وتهديداته بالطريقة الفعالة. بعبارة أخرى، كانت تعارض وتجرجر أقدامها لقبول اقتراحات مؤسسة راند، التي استمرت تقدمها على مدى عدة سنوات وعبرت عنها بشكل عاجل بعد إطلاق سپوتنِك.

أمّا بالنسبة لزملائي الجدد في راند، فقد نظروا إلى المشروع السوفياتي لبناء صواريخ ICBMs بأنّه قد يكون قادراً على شلّ قدرات القوة الجوية الستراتيجية SAC للقيام بهجوم ثأري. لقد قضت هذه القدرة السوفياتية على أسس ثقتنا بالردع النووي. وعلى الأقلّ، بالنسبة لأيّ شخص مطلع على تلك الدراسات والمقتنع بفرضيات الحرب الباردة، فإنّ هدف السوفيات في النهاية هو السيطرة على العالم. كان هذا رأي كلّ شخص عملت معه في راند. وفي ضوء التنبؤات المخابراتية، التي أصبحت أطلع عليها بعد حصولي على التصريح الأمني وأيضاً حسب وجهات نظر زملائي الأذكياء، أصبحت أنا نفسي مقتنعاً بالهدف المشار إليه.

خلال أسابيع قليلة من وصولي عام 1958، وجدت نفسي منغمساً بما بدت وكأنّها مشاكل عاجلة وقوية تتعلق بالشكّ واتخاذ القرارات، التي واجهتها الإنسانية في حينها. وهذه هي تفادي وقوع صدام نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. اعتماداً على دراسات راند، فإنّ التحدي بدا أكثر صعوبة وأشدّ عجالة ممّا يراه أيّ شخص خارج راند ويتخيله. تميّزت آخر سنوات تلك الحقبة بأنّ تحليلات كافة الأقسام والأفراد في راند مأخوذة بحلّ مشكلة واحدة هي ردع هجوم سوفياتي مباغت على قواتنا المعدّة للثأر SAC وعلى مجتمعنا خلال السنوات القليلة القادمة وما يليها، والتأكيد على قدرتنا في الردّ باستعمال السلاح النووي مع ضمان سلامتنا من أيّ هجوم مباغت. كانت تلك مهمة بالغة العجالة، تشبه حال ما كان عليه الفريق العامل في مشروع مانهاتِن.

كان قسم الاقتصاد في وسط هذا التفكير الهوسي. خلال الأسبوع الأول لعملي كمستشار في صيف عام 1958، أنيطت بي مهمة مقرر لمجموعة تناقش الردود على التهديدات الستراتيجية. ضمت المجموعة ألبرت ولِستتر وهَري رَوِن وأندي مارشَل وإلِيَن انثوفِن وفرَد هوفمَن، المحلل الستراتيجي في قسم الاقتصاد. وكذلك بِل كوفمَن من قسم العلوم الاجتماعية وهِرمَن كان من قسم الفيزياء.

تعوّدت خلال حياتي الأكاديمية أن أكون برفقة ناس أذكياء جدّاً، وظهر منذ الاجتماع الأول مع هذه المجموعة أنّهم أذكى زمرة واجهتها في حياتي. لم يتغير انطباعي الأول عنهم، رغم أنّني تعلمت خلال السنوات التالية العيوب الشديدة للاعتماد على القدرات الذهنية فقط. في وسط اللقاء الأول، وكنت أصغرهم سنّاً، بدأت أسجّل ملاحظاتي. ولكوني جديداً في الميدان بينهم، بدأت أطرح آرائي. لا أتذكر ما قلت بالضبط. وبدلاً من تجاهل تعليقاتي أو التذمر منها، نظر إليّ هِرمَن، البادي الذكاء والبدين للغاية، وهو جالس قبالتي على الجانب الآخر من الطاولة وقال، «أنت مخطئ تماماً».

غمرتني موجة من الدفء، فقد كانت هذه هي الطريقة التي تعامل بها زملائي في مجلس تحرير صحيفة الجامعة، هارفرد كرمسُن، وكانوا في غالبيتهم يهوداً مثلي ومثل هِرمَن. لم أمرّ بمثل هذه التجربة منذ ست سنوات. خلال السنة الدراسية، التي قضيتها في كلية كنگ بجامعة كمبرِج وفي لقاءات جماعة الخريجين، كانت المناقشات تجري بشكل حادّ وصريح ومتحمّس. قلت لنفسي، «لقد وجدت ضالتي».

أحببت العمل في راند وقضيت 10 سنوات هناك على مرحلتين. بدأت المرحلة الثانية إثر رجوعي من العمل في فيتنام عام 1967. شعرت أنّني عملت مع مجموعة روحية تضم أشخاصاً يحملون المشاعر الأخوية والود لبعضهم البعض ويعيشون ويعملون معا من أجل قضية سامية.

في الحقيقة أنّ العلماء الذين شاركوا في مشروع مانهاتِن وعملوا على تطوير السلاح النووي والمساعدين لهم ممن عملوا في المختبرات، غالباً ما وُصفوا من قبل الآخرين تهكماً بأنّهم الكهنوت العلماني. كان ذلك بسبب معرفتهم بأسرار الكون، التي يجب عدم كشفها للعلمانيين الآخرين، ولكونهم يعملون في حلقة نخبوية سرية. أخذت تلك السرية بتلابيبهم واستولت على ذواتهم وأغرتهم بالتكتم والسكوت، لأنّهم هم من يقدّم المشورة «للسلطة العليا». أشارت مقالة عن زمرة من «العسكريين الأذكياء» مثل مستشاري راند المرتبطين بواشنطن وبالپنتگون، بأنّهم يتحركون بشكل غير مرئي في أروقة البيروقراطية ويتجاوزونها إلى غيرها من الآخرين، وشبّهتهم باليسوعيين في أوروپا القديمة، وكيف كانوا يتحركون من بلاط ملك إلى بلاط ملك آخر يقدمون المشورة إليهم ويستمعون إلى اعترافاتهم. وفوق ذلك وبالضبط خلال السنوات الأولى من فترة فجوة الصواريخ في راند كمستشار وكما في واشنطن، كان لدي شعور بأداء المهمة وحمل العبء الأثقل لأنّني وزملائي نعرف المخاطر القادمة وما يمكن عمله لإيقافها، أكثر ممّا يعرفه جنرالات الپنتگون أو قيادة القوة الجوية الستراتيجية أو الكونگرس أو الرأي العام وحتى الرئيس نفسه. كان عبئاً يبعث على النشاط ويحثّ على العمل.

من الناحية المادية، عشنا حياة محظوظة. بدأت العمل في راند بعد إكمال دراستي العليا براتب

أعلى من راتب والدي حين عمل رئيساً للمهندسين الإنشائيين في شركة الطيران. كانت ظروف العمل مثالية والطقس في جنوب كاليفورنيا رائعاً، وتقع مكاتبنا في مبنى مطلّ على المحيط ويبعد خطوات قليلة عنه.

كان زملائي رجالاً مندفعين يجمعهم شعور مشترك التقطته بسرعة، وهو أنّ مهمتنا بالمعنى الحرفي هي إنقاذ العالم. إنّ هجوماً نووياً سوفياتياً مباغتاً على الولايات المتحدة سيكون كارثة ليس على رأس أمريكا، بل على العالم بأجمعه. افترضنا أنّ السوفيات لديهم مؤسسة تشبه مؤسسة راند تابعة لوزارة الدفاع السوفياتية أو لقوات الصواريخ الستراتيجية، وأنّ لديهم فريقاً يعمل بإصرار وحماس لاستغلال تفوقهم من ناحية القوة المهاجمة. وإنْ لم يكن ذلك ممكناً عن طريق الهجوم المباغت، فلا شكّ أنّهم سيوظفون تفوقهم لابتزاز الولايات المتحدة وحلفائها في الناتو. إنّنا نعمل لإنقاذ العالم من نظراء السوفيات المتمثلين في البيروقراطية العاطلة، التي تعيش في حالة سبات في أروقة إدارة أيزنهاور ورعاة مؤسستنا في القوة الجوية.

كان العمل في راند جار على قدم وساق. كانت أضوية أبنية راند لا تطفأ ليلاً، لأنّ الباحثين يعملون طيلة ساعات اليوم ويتناوبون جيئة وذهاباً حسب جداول لساعات عمل وضعوها هم لأنفسهم. خلال فترة الغداء كنا نجتمع لتناول وجبتنا في الباحة الداخلية المفتوحة في الطابق الأرضي من البناية. تحدث أفراد كلّ مجموعة عمّا يقومون به. لا شيء غير ذلك. خلال فترات الكوكتيل التي تسبق وجبات العشاء المتكررة، كانت زوجات العاملين يتناوبن على ضيافة الحضور، ووقف الرجال هنا وهناك يتحدثون همساً ويتبادلون الأسرار، لأنّ النساء لم تكن لديهن تصريحات أمن. بعد الانتهاء من العشاء تنسحب النسوة إلى غرفة الاستقبال لأسباب أمنية، ويبقى الرجال جلوساً حول الطاولة كي يدخنوا السيگار ويتحدثوا عن مهامهم السرية.

لم تكن توجد في راند نساء عاملات يحملن تصريحات أمنية. الاستثناء من ذلك، كانت نانسي نِمِتز، المتخصصة في الشؤون السوفياتية، وهي ابنة قائد الأسطول الأدميرال چِستَر نِمِتز. وكذلك أَلِس شُه المحللة في القضايا التي تخصّ الصين. وأيضاً روبَرتا، زوجة ألبرت وولِستتر، وهي متخصصة في التاريخ. أنجزت دراسة عن الكيفية، التي تمكّن فيها اليابانيون من شنّ هجوم تدميري مباغت على القاعدة البحرية في پَرِل هاربر، وأيضاً على قاعدة للقوة الجوية في الفِلِپين في شهر ديسمبر من عام 194. كانت نتائج بحثها، التي أمضينا الصيف في تقييمها واستيعابها، تركت أثراً على انطباعاتنا وقلقنا وعملنا، لكي نمنع إمكانية تعرّض البلاد لغارات من ذلك القبيل.

في الصيف الأول لعملي هناك، كنت أمضي ما يقارب 72 ساعة أسبوعياً وأنا أراجع وأقيّم

الدراسات السرية وتحليلاتها حتى ساعة متأخرة من الليل، كلّ ليلة. حين أصحو في الصباح أسرع للعودة إلى مكتبي والتفكير بالحلول الممكنة للمشكلات التي أطلع عليه. كان همّي البحث عن أدلة وطرق لإحباط ما يفكر به العاملون في المؤسسات السوفياتية، التي تشبه مهامها مهام راند والقوة الجوية عندنا، وخططهم لهجوم نووي مباغت كذلك الذي شنّوه بالطائرات على بَرِل هاربر، أو على الأقل تأخيرها. في رأي تقديرات مخابرات القوة الجوية، فإنّني شديد الحذر ولدي فكرة سوداء عن السوفيات، نقلها زملائي عنّي إلى العديد من المؤسسات الأمنية في البلاد. وفكرتي هذه مفادها أنّ العالم مُقبل لا شكّ على هُلوكوست نووي. كانت وإلِيَن انثوفِن وأنا معها أصغر العاملين سنّاً في قسم الاقتصاد. لم يأتِ كلانا للعمل في راند وفي ذهننا فرصة التقاعد الكريمة جدّاً، التي يحظى بها العاملون في راند. كنا في أواخر العشرينات ولم نفكر بموضوع التقاعد أصلاً.

أتذكّر جيّداً تلك الليلة من ليالي شهر أغسطس حين كنت جالساً في مكتبي المطلّ على المحيط. كان الظلام الدامس خارج شباك مكتبي يجثو عليه. كنت أقرأ دراسة تحليلية عن الظروف المُثلى، من وجهة نظر السوفيات، للقيام بهجوم صاعق. الخطة الأساسية، كما قرأت، ستكون غارة بالصواريخ العابرة للقارات مصحوبة بغارات جوية تقوم بها القاصفات على قواعد قواتنا الجوية في عمق الأراضي الأمريكية، يرافقها إطلاق صواريخ كروز من غواصاتهم على قواعدنا على ساحلي المحيطين الأطلسي والهادي، وعلى مراكز القيادة ومحطات الرادار في شمال البلاد. كلّ ذلك دون إصدار أيّ تحذير، كي تدمّر الصواريخ أهدافها خلال دقائق معدودة.

ونظراً لأنّ ذلك يتطلب من غواصاتهم أن تطفو إلى السطح، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الجوية، فإنّ الوقت الأمثل، كما قرأت، يكون في شهر أغسطس في منتصف ليلة ظلماء غاب فيها القمر. ألقيت نظرة من خلال شباك مكتبي على الظلمة القاتمة التي تغلف المحيط ونظرت إلى ساعتي، فشعرت برجفة تسري في بدني ووقفت الشعيرات كالدبابيس على مؤخرة رقبتي.

الظروف التي وصفتها تلك الدراسات وتقديرات أجهزة المخابرات، خاصة مخابرات القوة الجوية، أظهرت أنّ فكرة الردع تبدو أمراً معقولاً، لكنّه غير ضامن مؤكد. واعتماداً على تلك التقديرات السرية للغاية، فإنّنا نواجه عدواً قويّاً يبذل أقصى جهوده ليستغلّ كافة الإمكانات النووية ليجردنا من السلاح ويتفرد لوحده بفرض السيطرة على العالم. لا قوة أمريكية غير نووية لها القدرة أن تتلقى تلك الضربة ويكون باستطاعتها الردّ الانتقامي على مستوى يمكن الاعتماد عليه لردع عدو قاس ذي تصميم على التدمير. لا شيء يستطيع الوقوف بوجه ذلك دون الاعتماد على قدرة نووية مدمرة توقع بالعدو الهزيمة، بمعنى قوة تضمن لنا البقاء إثر ضربة نووية أولى أحسن العدو التخطيط لها.

أكد وولِستتر في تقريره الموجز لقيادة القوة الجوية بأنّ قدرتنا لردع هجوم سوفياتي مباغت على الولايات المتحدة لا يُقاس بقوتنا الدفاعية المتوفرة قبل الحرب، ولكن على ما يراه السوفيات عن «قدرتنا على الضربة الثانية» من أجل الثأر لضربتهم الأولى. كم يتطلب الأمر من القدرات المدمرة، التي تمتصّ وتنجو من الضربة الأولى، لغرض ردعهم؟ يعتمد ذلك على الظروف والخيارات، التي طرحها وولِستتر. قد يبدو أيّ بديل محتمل للضربة الأولى السوفياتية في لحظة معينة نذير شؤم كبير لهم، ربّما حرباً ساحقة في منطقة محدودة، أو ضربة أولى أمريكية في حالة تصعيد الصراع في أوروبا. إنّ وضعهم مماثل لوضعنا، وليس أمامهم إلا خيار ينطوي على مخاطر جمة شديدة. في ختام دراسة راند السرية للغاية «حول درجة تعرضنا» وفق وثيقة R-290، التي كان هو من وضعها عام 1956، أكّد وولِستتر أنّ برنامجنا للقوة الستراتيجية في حينه،

> لا يضمن مستوى عالياً من التدمير كذلك الذي تحمله الاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية. وهو التدمير الذي امتصه واجتازه وتعافى من آثاره خلال سنوات قلائل. ليس واضحاً وضوح الشمس، ما نحتاجه في بعض الظروف المتوقعة.

لم يتساءل أحد في راند عن ماهية الردع المناسب في متناول الولايات المتحدة لكي تتحمّل الضربة الأولى وتمتصها وتتمكن من تسديد ضربة انتقامية تقتل أكثر من 20 مليون مواطناً سوفياتياً. وهو العدد الذي ضحّوه في الحرب العالمية الثانية. عنى ذلك أنّنا نعمل لتأمين تحمّل الضربة الأولى ولدينا القدرة لإنزال إبادة جماعية انتقامية، رغم أنّه لم يفكّر أحد بالأرقام في ذات اللحظة. في الحقيقة، أنّه في ضوء مشاعري القوية ضدّ القصف العشوائي للمدن من قبَل الجانبين في الحرب العالمية الثانية، هناك مفارقة رهيبة لعملي لصالح القوة الجوية عن طريق دراسات تهدف إلى تهديد الروس بإنزال أقصى حدّ من القصف المرعب لو تجرأوا وهاجمونا. ولكن كان يوجد منطق ثابت لكلّ ذلك. من خلال تحليلات الأشخاص الذين أشرفوا عليّ وأصبحوا أقرب زملائي، بدأت أعتقد وحالي كحال جيل سيلارد وروتبلات، من الذين سبقونا، أنّ ذلك هو أفضل حلّ. في الحقيقة هو الطريق الوحيد لزيادة الفرص بعدم قيام حرب نووية على مجال واسع في المستقبل القريب.

حين سمع أستاذي السابق المشرف عليّ في جامعة هارفرد عام 1959، أنّني عدت إلى راند لأشغل وظيفة دائمية هناك، قال لي بألم ظاهر، «لقد اشتروك براتب مغرٍ». كان ردّي أنّه بعد كل ما تعلمته في راند خلال الصيف السابق، فإنّني مستعد للعمل بدون راتب. كنت صادقاً في قولي، لأنّني لم أستطع أن أتصوّر طريقة أفضل لخدمة الإنسانية ممّا كنت أقوم به.

الفصل الثاني
القيادة والتحكم

إدارة الكوارث

فيما يتعلق بمساهماتي في مؤسسة راند، تركز هدف تخطيطي للمدى البعيد على نظرية اتخاذ القرارات، واخترت التخصص في موضوع بدت أهميته حتى تلك اللحظة، بأنّه ما زال على قيد الدراسة: القيادة والتحكم بالقوة النووية الانتقامية على يد ضباط عسكريين، وخاصة دور الرئيس فيهما.

درس زملائي مسألة مدى ضعفنا حدّ التعرض لهجوم مباغت وكيفية تقليص فرص ذلك، والسلاح النووي الستراتيجي والقواعد والوسائل التي تحمل ذلك السلاح وتطلقه. انضممت إلى المجموعة، التي ركزت على نقاط ضعفنا ومدى الاعتماد على «الجهاز العصبي» للعسكر: مراكز القيادة، المعلومات والقرارات على مستوى مختلف العمليات والمواصلات وأنظمة التحذير والمخابرات.

كان مقبولاً بشكل واسع أنّ القرار لإطلاق سلاح نووي أمريكي ضدّ الاتحاد السوفياتي، وتحت أيّ ظرف، يجب أن يكون بيد الرئيس، أو من ينوب عنه في السلطة، في حالة عجزه التام أو عدم وجوده. كيف يمكن التوصّل إلى ذلك القرار وكيف يتمّ تنفيذه، هما السؤالان اللذان يتطلبان معرفة تطبيقية بالغة السرية. ومع ذلك، كنت ميالاً بالذات لدراسة هذه المشكلة، ليس بسبب أهميتها الواضحة فقط، ولكن أيضاً لأنّها تعطي مثالاً وتعتمد على كلّ موضوع حللته خلال دراستي العليا لمسألة اتخاذ القرارات في ظلّ الشكوك. فهذا هو آخر قرار يمكن اتخاذه في ضوء الشكوك، من قبل قائد الوطن.

وأكثر من ذلك، فإنّه خلال قراءتي الأولية لدراسة راند R-290 حول «حماية القوة الأمريكية الضاربة للردّ بهجمات انتقامية، خلال فترتي الخمسينات والستينات»، قفزت جملة أمام ناظريّ وكانت

موضوع تفكيري في هارفرد ذلك العام: «الالتباس»، Ambiguity. أشارت الدراسة، التي أعدّها ألبرت وولِستتر بمساعدة من هَري رَوِن وفرَد هوفمَن إلى أنّ خططنا اعتمدت على التحذيرات «الستراتيجية» عن أيّ هجوم وشيك من قبل العدو - أي تحذير مخابراتي نحصل عليه قبل أن يُطلق العدو أسلحته علينا.

> لكنّ التخطيط اعتماداً على التهديدات الستراتيجية فيه مخاطر، وهذه مسألة لا يمكن التقليل من شأنها.... إذا كان يتوجب علينا أن نكون واقعيين ودقيقين قبل وقوع الحدث، فإنّ الجواب الأكثر إيجابية، الذي نحصل عليه لو سألنا، «هل ينوي السوفيات الهجوم علينا؟» الجواب هو «ربّما». وهذ يقود إلى طرح سؤالين هما «متى؟» و«أين؟» الإجابة عنهما تكون أكثر شكّاً.... وعلى أيّة حال، فإنّ السؤال الحقيقي هو، كم من الوقت مبكراً ستأتي تلك التحذيرات، وما هي درجة «الالتباس» التي تشوبها؟ باستطاعتنا القول، بشكل لا لِبس فيه، أنّه سيكون هناك شيء مبهم. إنّ الالتباس/الوهم بصدد التحذيرات الستراتيجية يعقد مشكلة اتخاذ القرارات.

لا توجد صيغة ثابتة لمشكلة اتخاذ القرارات، وهذه هنا أكثرها أهمية في تاريخ البشرية! - لقد استولت على تفكيري بتلك الشدة. لم يكن مفهوم «الالتباس» معروفاً حينها في النقاشات الأكاديمية حين يتمّ تناول موضوعي المخاطر والشكوك. في الحقيقة، فوجئت بورود هذا المفهوم في دراسة سريّة، لأنّني كنت بصدد تقديمه للاستعمال الأكاديمي، باعتباره مفهوماً تكتيكياً، يشير إلى عدم اليقين الذاتي حين لا تتوفر للشخص المعني الخبرة الكافية أو أنّ المعلومات متناثرة أو أنّ الأدلة غير واضحة أو أنّ شهادات المراقبين والخبراء متناقضة بشكل كبير أو أنّ آثار الأدلة مختلفة. تكهّنت، وكما اتضح في التجارب المختبرية فيما بعد، أنّ هذا الشكّ لا يمكن وضعه بدقة على هيئة أرقام على سلم الاحتمالات، في ذهن الأفراد، كما يُستدلّ من سلوكهم، خاصة إذا لم ينظروا للأمر باعتباره «مشكوكاً فيه».

يبدو أنّ الشكّ، الذي يشوب التحذيرات الستراتيجية، التي وصفتها أعلاه، يقع ضمن تلك الفئة. لقد ذهب وولِستتر للإشارة إلى أنّه واجه نفس المشكلة حين تفحّص التحذيرات «التكتيكية»: دلالات تلتقطها الرادارات الأرضية للمسافات البعيدة، أو الأشعة تحت الحمراء، التي تكشفها الأقمار الاصطناعية وتوحي بأنّ طائرات العدو وصواريخه قد انطلقت متوجهة للولايات المتحدة، قبل بلوغ هذه إلى أهدافها.

علمت أنّ خط الرادارات لإطلاق التحذيرات المبكرة الموجود في المنطقة القطبية DEW

Line، قد أطلق تحذيرات كاذبة بسبب أسراب من طيور الأوزّ الكندية. كانت هذه تطير على ارتفاعات شاهقة، فظنت أجهزة الرادار أنّها طائرات العدو المتوجهة نحونا عن طريق منطقة القطب الشمالي. خلال الفترة، التي سبقت عصر الصواريخ البالِستية العابرة للقارات ICBMs، كان هناك مجال أمده ساعات للتيقن من صحة الهجوم من عدمه ووضع قاذفاتنا في حالة تأهب. غير أنّه بعد مرور سنة على التحاقي بمؤسسة راند، كان جهاز الرادار المتطور ونظام الكومبيوتر، الذي يتحكم بالتحذير المباشر من الصواريخ البالِستية BMEWs والمصمم للكشف عن الصواريخ العابرة للقارات، قد وضعا قيد العمل قبل أسبوع. أبلغ الجهاز عن هجوم صواريخ قادمة وتطلب الأمر اتخاذ قرار بشأنها خلال 15 دقيقة.

بتاريخ 5 أكتوبر من عام 1960، قام وفد من المسؤولين في الصناعات العسكرية المتقدمة والمرتبطة بالأجهزة الفنية للقوة الجوية، بزيارة مركز قيادة الدفاع الجوي لقارة أمريكا الشمالية NORAD، الموجود داخل جبل شايان في ولاية كولورادو. كان بينهم توم واتسُن، رئيس شركة IBM وپيت پيتَرسُن، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للتجارة في حكومة نِكسُن، وفي ذلك الوقت معاون الرئيس التنفيذي لشرك بل أند هُوِل. جلس پيتَرسُن على مقعد قائد المركز مقابل خارطة كبيرة للعالم، تكريماً للوفد الزائر. في كتابه المعنون (القيادة والتحكم)، أخبرنا أرِك شلوسر بما حدث ذلك اليوم خلال الزيارة. كان ما ذكره قريباً جدّاً لما سمعته وسمعه زملائي العاملون عن تلك القضية في ذلك الحين.

> بعث مركز الرادارات المتقدمة الحديثة BMEWs الموجود في قاعدة ثول في گرينلاند إشارات ذلك الأسبوع عن تهديدات عديدة مختلفة المستوى تمّ عرضها وتوضيحها للوفد الزائر.
>
> إذا ظهرت الإشارة الحمراء في أعلى الخارطة عند مستوى 1، فذلك يعني أنّ شيئاً غير محدّد متجه نحو الولايات المتحدة. إذا وصل المؤشر الأحمر إلى مستوى 3 فذلك يعني أنّ الخطر عال ويجب إشعار قيادة القوة الجوية الستراتيجية SAC وكذلك هيئة الأركان العليا للقوات المسلحة بالأمر. أمّا إذا وصل المؤشر إلى المستوى 5، وهو إشعار يحسبه الكومبيوتر بدرجة دقة مقدارها 99.9-%، فإنّ ذلك يعني أنّ البلاد قد تعرضت بالفعل لهجوم صاروخي. في الوقت الذي شغل فيه پيتَرسُن مقعد القائد بدأت الإشارة الحمراء في أعلى الخارطة بالارتفاع وحين وصلت إلى المستوى 4، دخل ضباط فريق NORD الغرفة والفزع يبدو عليهم. وحين وصل إلى مستوى 5،

اصطحِب پيتَرسُن ورؤساء الشركات الزوار بسرعة إلى خارج غرفة القيادة ووضِعوا في مكتب صغير. حين أغلِق الباب، ظنوا جميعاً أنّ حرباً نووية قد قامت فعلاً.

كان جُك پرسي أحد رجال الأعمال ضمن الوفد في تلك الزيارة. شغل حينها منصب رئيس شركة بَل أند هُوِل، وأصبح فيما بعد عضواً في مجلس الشيوخ ممثلاً لولاية إلنوي لثلاث دورات انتخابية. «تذكّر حالة الهلع التي استبدّت برجال فريق NORD». الطريقة التي سمعت بها القصة ذلك الشهر من عقداء في القوة الجوية، خلافاً لما ذكرته مصادر الپنتگون حين تسربت الأخبار، أنّ التحذير لم يؤخذ على محمل الجدّ. إنّ واحداً من الأمور التي جعلت رجال فريق NORD يعتقدون أنّ التحذير كان «ملتبساً» أكثر من التباس الأمر على تأكيد دقة الكومپيوتر بنسبة 99.9-%، كان راجعاً إلى أنّ خروچيف كان موجوداً في نو يورك لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال ذلك الأسبوع. ظهر أنّ إشارات الرادارات المتقدمة قد انطلقت لدى بزوغ القمر على الأراضي النرويجية وتصاعدت تلك الإشارات تدريجياً بارتفاعه في الأفق. كما سمعت من مصادر الپنتگون، فإنّ المصممين قد توصلوا إلى أنّ طاقة كشف الرادارات تصل إلى القمر، لكنّهم لم يفكروا أنّ رجع الصدى سيكون بتلك القوة، التي جعلت الرادارات تظنها صواريخ بالِستية قادمة. لا بأس في الأمر، فلا أحد معصوم من الخطأ!

ما أعجبني خلال قراءتي لدراسة وولِستتر المشار إليها، ليس أنّه جذب اهتمامنا إلى الالتباس في أجهزة التحذير، لكنّه أشار أيضاً إلى التأثيرات على الإدراك والسلوك، التي يخلقها هذا الالتباس. لا محالة أنّ ذلك يؤخر الردود لدى مختلف مستويات القيادة ولدى الرئيس نفسه. في عصر الصواريخ البالِستية، فإنّ التأخر لمدة دقيقة يعني تدمير القدرات الانتقامية وسحق أعضاء القيادة في قواعدهم. ولكن ماذا بوسع الرئيس وحتى المستوى الأدنى من القيادة أن يفعلوا على أساس أنّه «ربّما» أنّ الصواريخ في طريقها إلينا أو أنّه حتى 99.9-% من دقة برنامج الكومپيوتر ربّما أصابها الجهد أو العطب.

اقترح وولِستتر طريقة ناجحة لزيادة القدرة على امتصاص الضربة النووية الأولى والنجاة منها لشنّ هجمات انتقامية، باستعمال الطائرات القاذفة لإعطاء التحذيرات، لتحاشي التحذيرات الكاذبة والدخول في حرب مدمرة. يعود الفضل إلى ألبرت لطرحه مفهوم «التحكم الإيجابي» باعتباره حلاً لمشكلة التحذيرات الكاذبة والمعلومات الرديئة. قاد هذا المفهوم إلى اقتراح مفهوم آخر سمّي «إطلاق على التحذير» LOW يتعلق بالطائرات القاذفة، التي يمكن فصل عملياتها عن عمليات تنفيذ الخطط

الحربية، أي إرسال القاذفات المتأهبة لضرب أهدافها. تتوجه القاذفات التي تنطلق بموجب «تحذير التحكم الإيجابي» إلى منطقة معينة وتحوم هناك بانتظار أمر «إيجابي» لكي تبدأ «تنفيذ» مهامها، بدكّ أهدافها المرسومة أو العودة إلى قواعدها.

إذا لم يستلم الطيارون أيّة أوامر، فعليهم العودة إلى قواعدهم، بشرط أن يكون لديهم وقود كاف للرجوع بأمان. بطبيعة الحال، لا يتوفر هذا الخيار للصواريخ البالِستية، التي لا يمكن إرجاعها لو انطلقت. صرّح الرئيس رَيگِن مرة وبشكل علني، أنّ الصواريخ التي تطلقها الغواصات، يمكن أن تفعل ذلك. يكشف هذا عن جهل مريع، وهو في نظري ارتباك مرعب.

ولكن، كم يمكن الاعتماد على الضمانات المذكورة أعلاه في الحالات الواقعية؟ ليس هناك سرّ عسكري أكثر تكتماً من المعلومات التفصيلية عن تلك الكيفية، ومن هم المسؤولون وتحت أيّ ظرف تتخذ القرارات لتنفيذ الخطط النووية باستعمال القاذفات والصواريخ البالِستية، التي لا يمكن استدعاءها للعودة، إذا وصلنا إلى اللحظة الحرجة وبدأ التنفيذ. حانت فرصة لدراسة هذه القضايا ميدانياً والوصول إلى أعلى المستويات في السلطة، باستثناء الرئيس طبعاً، بعد عدة أشهر من مباشرتي في البحث. طلب القائد العام لقوات البحرية لمنطقة الپَسَفِك CINCPAC الأدمِرال هَري دي فُلت، دراسة المشاكل المتعلقة بقيادة الأسلحة النووية، على أن تجرى تلك الدراسة من قبل مكتب بحوث القوة البحرية ONR. فرحت جدّاً لأنّ مؤسسة راند رشحتني للقيام بالمهمة.

انتقلت في خريف عام 1959 إلى معسكر سمِث في جزيرة أواهو في هوائي، حيث يوجد مقر قيادة CINCPAC والانضمام إلى فريق البحث في ONR، الذي ترأسه د. جون وِلكس. لم أوافق على البقاء هناك لمدة عام كامل، لأنّ زوجتي ما كانت مستعدة لنقل العائلة إلى هوائي. وعليه ذهبت لأبقى عدة أشهر أولاً، ثمّ قمت برحلات عديدة جيئة وذهاباً خلال عام 1960 للمساهمة مع فريق البحث، خاصة في المراحل الأخيرة. كانت غالبية تركيزنا على مقرّ القيادة المذكورة وكذلك مقر القيادة الجوية لمنطقة الپَسَفِك PACAF في أواهو. قمنا بزيارات ميدانية عديدة لمسرح العمليات العسكرية في المحيط الهادي، وكنت أراقب العمليات وأجري مناقشات مع القادة والمخططين والمنفذين في كافة مراكز العمليات في المحيط المذكور.

المشكلة الرئيسية التي أراد قائد القوات البحرية هناك حلاً لها من فريقنا، هي التركيز على كيفية ضمان وصول أي قرار يتخذه باللجوء إلى السلاح النووي واتباع الخطط «لتنفيذ» ذلك، على أن يصل القرار إلى كافة القوات المعنية في المحيط الهادي في الوقت المطلوب. يجب أن يتمّ ذلك قبل احتمال تدمير كافة مختلف المواقع العسكرية وشبكات الاتصال وقواته المهاجمة، نتيجة ضربة

سوفياتية. المشكلة التي أنيط بي التحقيق فيها، هي اختزال فرص إمكانية القيام «بعمل غير مصرّح به»». كيف نضمن أن أحد الضباط لا يميل إلى إطلاق السلاح الذي يشرف عليه نتيجة حماس وبدون الحصول على إذن من القادة الأعلى منه رتبة، أو من الرئيس ذاته؟

من الناحية الأخرى، فإنّ اتخاذ قرار فردي بإطلاق السلاح النووي دون تفويض مسألة ممنوعة بتاتاً. وفقاً لكافة الخطط السرية للغاية، فإنّ أمر التنفيذ على أيّ مستوى من القيادة لإطلاق الحرب النووية يجب أن يكون وفق أمر واضح من الجهات العليا، وفي النهاية من الرئيس ذاته. وعلى أيّة حال، توجد أحكام في الخطط للقيام باستعدادات أولية على مستوى القيادة المحلية، تصل إلى درجة قيام الطائرات بالتحليق والحوم لأغراض المراقبة والتحذير من أيّ هجوم معاد وشيك لحماية النفس من التدمير. وهذا معناه تطبيق مبدأ ولِستتر حول عملية «التحكم الإيجابي». إنّ انطلاق الطائرات يجب ألّا يعني إطلاقاً اتخاذ القرار بتنفيذ خطة لبدء الهجوم على الأهداف المرسومة.

يُشار إلى هذه الخطوة باصطلاح «الفشل الآمن». إذا لم تأتِ إشارة من القيادة تأمر بالهجوم أو العودة إلى القاعدة، فإنّ الطائرات تعود على اعتبار أنّها استلمت الأمر بذلك. طبعاً ستكون تلك خطوة غير آمنة، إذا كانت هناك حرب فعلاً وهناك تدخل أو إعاقة في وصول الإشارة إلى الطيارين. لكنّ مثل هذا الخطأ يُعتبر خطأ آمناً، أو لنقل أقلّ خطراً من الخطأ بالمضي بضرب الأهداف وليس هناك حالة حرب، وأنّ الاتصالات بالطيارين قد انقطعت لأسباب فنية أو تعود لسوء الأحوال الجوية.

يتطلب مفهوم «التحكم الإيجابي» ومرادفه «الفشل الآمن» تدريب الطيارين لكي يفهموا أنّه يتوجب عليهم عدم المضي نحو الأهداف، تحت أيّ ظرف، بدون أوامر واضحة ومباشرة من الجهات العليا لتطبيق ذلك. الأمر الواجب التنفيذ يجب أن «يوثق» بأنّه صادر من الجهات العليا. وهذا يعني أنّه يجب أن يكون مرفقاً بالشفرة وقادماً من أعلى سلطة بشكل واضح لا لبس فيه.

ولكن كيف يمكن الاعتماد على أنّ سلوك الطيارين يتوافق مع تلك التعليمات؟ في الحقيقة ما هي درجة السلامة في هذه العملية؟ أثرت هذا السؤال في المذكرة الأولى، التي كتبتها برفقة عقدي مع وزارة الدفاع، بعد مرور شهر على التحاقي في مؤسسة راند، باعتباري مستشاراً خلال فصل صيف عام 1958. وضعت عنواناً لتلك المذكرة هو، «التواءات في نظام الفشل الآمن»، وبعثتها إلى ولِستتر باعتباره صاحب فكرة هذا النظام. بعثت أيضاً نسخة إلى فرانك ألدرِج، خبير الاتصالات الأعلى في مؤسسة راند، وهو أحد المحللين الذين تشاورت معهم. عبّرت المذكرة عن تجربتي الشخصية، التي انتهت قبل سنة في منظمة منضبطة للغاية هي القوة البحرية، وكذلك عن قراءاتي للتاريخ العسكري. كنت على علم أنّ سلوك الضباط القائم على ما يمليه الضمير سينعكس على ما

تعلموه وما قيل لهم في السابق حول التصرف بطريقة معينة تحت ظروف معينة فقط. ولكن أيضاً على شعورهم المهني واعتقاداتهم الحقيقية حول ما يجري، وفق خبراتهم وملاحظاتهم.

بغية توضيح مذكرتي أكثر، فإنّ ما توقعته من عدم توفر الأمن الإيجابي بالتنفيذ، أي اتباع أوامر بدء هجوم مرافق أو لاحق مصحوب بإشارات قوية عن هجمات للعدو، لا بُدَّ سيكون مبهماً، بدرجة لا تقل عن التحذيرات التكتيكية، التي دفعت للشروع بالهجوم. إنّ غياب أيّة إشارة قد يعني أنّ عودة الطائرات إلى قواعدها أمر محبذ. كان من المفترض بشكل مؤكّد أنّها استجابة مطلوبة وفق قواعد مكتوبة. ومع ذلك، أنّه قد يعني أنّ أمراً للتنفيذ قد أرسِل لكنّه لم يصل إلى الطيارين بعد، وقد لا يصل في الوقت المطلوب حين يُطلب التنفيذ والطائرات ليس فيها وقود كاف. أو لكانت الأوامر قد صدرت وتمّ استلامها لولا أنّ هجوم العدو النووي قد مسح وأزال من الوجود القيادة بكاملها وأجهزة المواصلات، أو أنّه تدخل أو قطع الطريق على وصول الأوامر والتعليمات. بعبارة أخرى، قد تكون مؤشراً لشؤم قادم اعتماداً على الأدلة المتوفرة الأخرى. مثلاً كم مرّة كان الضباط المعنيون قد خبروا القيام بمثل تلك المحاولات، بالحوم والطيران والعودة إلى القواعد لعدم تلقي الأوامر بالهجوم؟ أو هل أنّهم قد عادوا فوجدوا قاعدتهم وقد دُمِرت وكذلك مراكز اتصالاتهم؟ هل حدث مثل هذا؟

لو كان تمّ التدريب على مثل هذه الإجراءات، فإنّ الطيارين سيتوقعون تحت أيّ ظرف بأنّ عدم توفر الأدلة عن أيّ هجوم يعني أنّهم يقومون بطلعات لأغراض المناورة، وسيتعودون على الرجوع إلى قواعدهم. سوف لن يتعرضوا لأي ضغط لكسر تلك العادات أو يخالفون الأوامر أو ينطلقون نحو الأهداف المرسومة حتى وإن لم تصدر أوامر إليهم بفعل ذلك. سيعودون إلى قواعدهم بشكل روتيني.

ولكن حين تكهنت وأنا في مكتبي في رند، وكما اكتشفت فيما بعد حين أمكنني التحقيق في هذا الأمر في الميدان مع فريق CINCPAC، أنّه ليس واضحاً على الإطلاق بأنّ أكثر الطيارين في منطقة البَسَفِك قد أتيحت لهم الفرصة ليكتسبوا تلك العادة من خلال التدريب على المناورة. في الحقيقة، أنّنا سمعنا آراء متباينة، ومثل تلك الخطوة بدت غير محتملة.

وكما شاهد الفريق ما جرى خلال زيارة لقاعدة كادينا الجوية في منطقة أوكيناوا، أنّ الشطر الأول حول التدريب على الانطلاق لأغراض التحذير قد قام به الطيارون بشكل متكرر، في الحقيقة يومياً وبأوقات مختلفة لاختبار استعداد الطائرات للإقلاع. كان الطيارون في القاعدة المذكورة في حالة إنذار دائم سواء في كابينات طائراتهم أو في قاعات الاستعداد على أرض المطار. كان مسموحاً لهم أن يكونوا في أيّ مكان في القاعدة بما فيه عنابر نومهم، على أن تتوفر لكلّ منهم سيارة جيب وسائق

لنقلهم بسرعة إلى رحبة جثوم الطائرات. وهم يقومون بهذا التدريب على المناورة كلّ يوم.

أخبرنا الضابط المسؤول أنّهم يختارون الساعات المقررة لتلك التدريبات في أوقات مختلفة. حين استعمل مسؤول فريقنا جون وِلِكس فيما بعد مكبرات الصوت وقال، «حسناً، لقد حان الوقت!» انطلقت في الحال سيارات الجيپ مسرعة إلى رحبة الطائرات وقفز الطيارون وتسلقوا نحو كابينات طائراتهم وأحكموا شدّ خوذهم ودوت أصوات هدير محركات عشر طائرات في ذات الوقت. استغرق الأمر كله 10 دقائق فقط!

لقد تأكّد لدينا أنّ الطائرات مستعدة للانطلاق في أيّ وقت تصدر فيه الأوامر وأنّ الطيارين أجادوا مهامهم بشكل متكامل نتيجة التدريب المتواصل. لكنّ القسم الثاني من المهام وهو المتعلق بالتحليق نحو المنطقة المقررة والحوم حولها ومن ثمّ العودة إلى القاعدة، ما لم تصدر إليهم الأوامر بالضرب، فإنّه يستغرق وقتاً أطول وطبعاً يزيد من كلفة حرق الوقود وكذلك الصيانة. كان واضحاً أنّه يجب التقليل من التدريب على القسم الثاني. سألنا إن كان الطيارون قد تدربوا على تنفيذ هذا القسم، كانت الأجوبة غامضة ومتعارضة. أصبح واضحاً أنّ القوة الجوية، التي جاءت بهذه الفكرة، تقوم بالتدريب على ذلك بشكل مستمر وكامل، لكنّه لم يكن واضحاً أنّ القوات الأخرى الموجودة في مسرح العمليات قد قامت بذلك على الإطلاق.

في الحقيقة، فهمنا ونحن في قاعدة كادينا أنّ طائرات التحذير التكتيكي لم تغادر أماكن وقوفها إطلاقاً خلال التدريبات اليومية. ولم يكن ذلك بسبب المحروقات والصيانة. لم تتحرك تلك الطائرات من رحبتها نحو نقطة الإقلاع على المدرج. أخبِرنا أنّ السبب في ذلك يعود إلى الخوف من المخاطر، إذ ربما يحدث انفجار عرضي في أحد الرؤوس النووية.

تحمل كلّ واحدة من طائرات التحذير نوع F100s، التي يقودها طيار واحد صاروخاً نووياً حرارياً من نوع Mark28 مثبت خارج هيكل الطائرة تحت عجلات الهبوط. قيل لنا أنّ تلك الصواريخ قد صُمّمت لتحمل داخل هيكل الطائرة لضمان السلامة، لكنّه لا يوجد مكان لذلك، في هذا النوع من المقاتلات التكتيكية.

والأكثر من ذلك، إنّ كافة القنابل الهايدروجينية ذات الانصهار الحراري، التي تحملها هذه الطائرات مأمونة جدّاً من الانفجار العرضي الذي يحدث نتيجة احتراق عنصر البلوتونيوم، من الصنف الذي أحرق نَكَزاكي ودمّرها. تكون كرة البلوتونيوم محاطة بشبكة من المتفجرات، وحين تنفجر تلك الشبكة مرة واحدة تنهار الكرة المذكورة وترتفع درجة التركيز لحد أعلى من الكتلة ذاتها

فيحدث الانشطار النووي مسبباً الانفجار الذي يقود بدوره إلى احتراق الوقود النووي الحراري.

إنّ تصميم القنبلة يضمن أنّه لو حدث انفجار عرضي، فإنّ ذلك لا يؤدي مباشرة إلى انفجار نووي أو يكون انفجاراً ذا مفعول محدود للغاية. وبشكل دقيق، سيكون الاحتمال أقلّ من واحد في المليون في قنبلة زنتها 4 پاوندات. ولكن إذا انطلق أكثر من حريق واحد خلال الإطلاق والسقوط والاحتراق أو إذا حدث عطب كهربائي، سيكون هناك انفجار نووي جزئي قد يكون في مستوى قنبلة هِروشِما.

نظراً لأنّ هذه الأسلحة ليست مأمونة لدرجة كبيرة، فهناك خطر إن أسقِطت الطائرة التي تحملها أو حدث حريق في تلك الطائرة أو إذا انفجر قسم أو قسمين من مخزن المتفجرات فيها، فذلك لا يعني فقط انتشار التلوث الإشعاعي من عنصر الپلوتونيوم وانتشاره فوق مساحة واسعة، ولكن أيضاً حدوث انفجار نووي كلي أو جزئي. إنّ احتمالات هذا الأمر قليلة، لكنّه ليس من المنطق الإقدام على هذه المخاطرة، خصوصاً وأنّ التدريبات تجري كلّ يوم.

وبناء عليه فإنّ الطيارين يتدربون على الصعود السريع إلى كابينات طائراتهم وتشغيلها فقط، دون التحرك إلى منطقة الإقلاع على مدرج المطار. وعندما لا يكونون في حالة إنذار، فإنّ الطيارين يقلعون بطائراتهم التي لا تحمل الصواريخ والقنابل، ويبدو أيضاً أنّهم يقومون بمهام تدريبية وطائراتهم تحمل الأسلحة ولكنهم ليسوا في حالة إنذار. وجدنا من الصعب أن نحظى بجواب إن كان الطيارون في حالة الإنذار يقلعون خلال عمليات التدريب وطائراتهم بكامل عدّتها من الأسلحة. بالتأكيد كان ذلك أمراً نادراً، كما قيل لنا. ومن المحتمل أنّه لم يحدث أبداً.

أقنعني ذلك أنّه لو صدرت الأوامر بالإقلاع، سيكون ذلك خبرة غير طبيعية، ربّما لا سابقة لها بالنسبة للطيارين، الذين في حالة إنذار. وحتى لو كانت هذه الحقيقة غير المعروفة لديهم، تقتصر على التدريب، فإنّه خلال المرة الأولى والثانية سيقودهم ذلك إلى الاستنتاج بأنّه «هو الأمر المطلوب»، إمّا أن يكون العدو قد بدأ فعلاً هجومه المباغت أو أنّهم يقومون بضربة استباقية. على الأقل، سيتمكنون من الاستنتاج أنّ دلائل هجوم العدو أكثر جديّة ممّا كانت عليه في السابق. وإذا كانوا في تلك الحالة الذهنية، فإنّهم سيمضون إلى فضاء مناوراتهم، حتى وإن لم يستلموا أوامر التنفيذ من الجهات العليا باتباع تعليمات إطلاق النار.

إنّ العواقب الخاصة لقلة التدريب المستمر بالإقلاع بكامل حمولة السلاح وتحت ظروف الإنذار، تبدو أمراً معروفاً لكافة ضباط التحكم النووي والطيارين، الذين سألتهم بنفسي. في الحقيقة،

اعترف الجميع بأنّه لم يحدث لهم ذلك، وبدا وكأنّهم يستمعون إلى مبرراتي بأنّها شيء جديد مثير للاهتمام ومعقول. وهذا شيء مقلق. اتفقوا لأول مرة وحتى خلال المرات الأولى أنّ طياري الإنذار أنفسهم، وهم يحومون خلال دورياتهم وطائراتهم محملة بالصواريخ والقنابل بانتظار صدور الأوامر بالتنفيذ أو بالعودة إلى القواعد، يميلون بشكل قوي بأن يتوقعوا الأسوأ، والأمر ببساطة لأنّ تلك هي المرة الأولى، التي ذهبوا فيها إلى هذا الحدّ. اعتقدوا أنّ الحرب قد بدأت فعلاً أو أنّها على وشك الوقوع، لأنّ القادة، الذين أمروهم بالهجوم دون سابقة، قد اعتقدوا أنّ الأمر قد وقع فعلاً.

ماذا لو كانت لديهم أسباب أخرى للتفكير بنفس طريقة من أمروهم بالهجوم؟ لنتصور أنّ الأمر بالإقلاع قد صدر خلال أزمة عالمية في منطقة معينة، أو في أيّ مكان في العالم. لنفترض أنّه كان هناك تحذير ستراتيجي مبكر عن خطر متزايد بحرب أو هجوم، وماذا لو كانت هناك حرب قائمة في المنطقة بين الصين وتايوان أو في كوريا أو في الهند الصينية؟ أو خلال أزمة حادة كالتي حدثت بين عامي 1954- 1955 ومرة أخرى عام 1958، بعد أن كتبت هذه المذكرة مباشرة، حين قام الشيوعيون الصينيون بقصف الجزر التي تبعد أميالاً قليلة عن الساحل وتحتلها قوات الصين الوطنية؟ في كلتي الحالتين، كان هناك حديث على مستوى الرئاسة حول استعمال الولايات المتحدة للسلاح الذري لمنع الهجوم على تلك الجزر أو الاستمرار بفتح الممرات إليها، خاصة جزيرتي كوموي وماتسو. في عام 1958 كانت الرؤوس النووية محملة على مقدمة صواريخ كروزماتادور، التي وصلت إلى جزيرة تايوان وإلى منطقة أوسان في كوريا الجنوبية.

ماذا لو حدث خلال تدريبات الإقلاع أو التحذير أن وقع انفجار كبير في قاعدة أمريكية، ربّما في هذه القاعدة بالذات؟ للوهلة الأولى، قد يبدو الأمر حادثاً عرضياً ثمّ ذهب بعيداً في ذهني ليكون أسوأ سيناريو؟ وفي اللحظة الثانية، بدا الأمر أقلّ خطورة ممّا اعتقدت. وبقدر ما يمكنني أن أقول اعتماداً على أحاديثي، لا أعرف أحداً في المنطقة فكّر بما خطر في ذهني أولاً، ولا ما فكّرت فيه ثانياً. ولكن بعد محادثة قصيرة لا أحد وجد أنّ الأمر غير قابل للتصديق.

من الضروري أن نتذكّر أنّ طائرات الإنذار F100s، رغم استحواذها على تفكير قادة التدريبات الواقعية، نادراً ما وصلت إلى مرحلة الإقلاع. السبب الرئيسي لذلك هو الخوف من المخاطرة الجادة من تحطمها وهي محملة بالقنابل والصواريخ، والعواقب النووية التي ستنجم عن ذلك. أمّا السبب الآخر للمانعة فهو الشيء الذي تقوم عليه. إنّ تقديرات القادة هي أنّه إذا تحركت تلك الطائرات من رحباتها نحو مدرج المطار لتقلع بسرعة، فإنّ واحدة أو أكثر قد تصطدم بالأخرى أو تنقلب وتحترق وتولد انفجاراً هائلاً ينشر الإشعاعات النووية القاتلة على منطقة واسعة، أو ربّما

انطلاق كرة نارية نووية.

إنّ هذه الإمكانية بحدّ ذاتها ما كانت بعيدة عن أذهان الأشخاص المعنيين، وهذا هو سبب عدم تحرك الطائرات نحو مدرجات الإقلاع. ما لم يفكروا به، هو الشيء الآخر. ما هي العواقب المترتبة على مثل هذا الموقف على أذهان ضباط طيران التحذير، الذين أقلعوا بطائراتهم من تلك القاعدة أو من قاعدة مجاورة أو من قاعدة بعيدة في نفس المنطقة؟

بالطبع أنّهم ربما قد خمّنوا السبب الرئيسي لحادثة لم يسبق لها مثيل وقد وقعت. ولكن حتى لو حدثت لهم بالذات ونجوا منها بشكل ما، فإنّه لا بُدّ أن يكون لها توضيح آخر قد يبدو أنّ له علاقة بالظروف الخاصة. لماذا كانوا في الجو وطائراتهم محملة بالقنابل والصواريخ، هل أنّ الأمر واقعي ليس له مثيل، أو أنّ الأمر لم يكن مناورة من أجل التحذير، بالرغم من المخاطر؟ أو كان لأنّ أحداً في القيادة العليا قد اطلع على أدلة عن هجوم وشيك للعدو، أقوى ممّا فعله في السابق، وربّما بشكل مؤكّد؟ والآن حدث هذا الانفجار! وحتى لو كان انفجاراً نووياً أم لا، فإنّ الأمر لا يكون واضحاً مباشرة في الدقائق الأولى ولم تلاحظه الطائرات، التي انطلقت في الجو، وقد يبدو أنّ هجوماً قد وقع فعلاً.

وفي هذه اللحظات تجري كثير من الاتصالات بين الطيارين أنفسهم وبينهم وبين القاعدة، التي انطلقوا منها. ولكن لو حدث انفجار جزئي في تلك القاعدة، تكون مثل هذه الاتصالات مستحيلة. لربما يكون الانفجار قد دمّر كافة مراكز الاتصالات في تلك القاعدة، ولكن أبعد من ذلك فإنّ التأثيرات الإلكترونية للانفجار قد تكون عطلت كافة الاتصالات البعيدة المدى القائمة على الذبذبات العالية التي تغطي مساحة واسعة.

وقد يعني هذا أنّ تلك الإشارات هي الأخيرة، التي تتلقاها الطائرات من قاعدتها، ولربما يستمر ذلك لبعض الوقت في كافة القواعد الموجودة في المنطقة، وسيكون منظر سحابة بشكل الفطر mushroom قد ارتفعت وغطت المدرج، الذي أقلعوا منه. سوف ينقطع اتصالهم لأنّ الانفجار سيحجب موجات الأثير. إنّ عدم قدرتهم على تلقي الأوامر بالضرب أو ربّما بالعودة إلى القاعدة أو عمل أيّ شيء، تعني فقط ضرب العدو ومهاجمته. كلّ ذلك في ضوء حقيقة أنّهم تلقوا أمراً غير مسبق تقريباً، تحت ظرف يجعلهم على قناعة تقريباً أنّ هجوماً وشيكاً قد وقع.

يعني هذا بالنسبة لي أنّ التحذيرات الكاذبة جدية للغاية لحدّ إطلاق الأوامر للقوات التكتيكية في أيّة قاعدة في حوض اليَسَفِك، وربّما في أيّ مكان آخر في العالم، حيث توجد مثل هذه الأسلحة. سيخلق إجراء التدريبات للإقلاع بشكل متكرر الاعتقاد في أذهان الطيارين المزودة طائراتهم بأسلحة نووية

حرارية، أنّه رغم عدم تلقيهم أوامر بالضرب، فإنّ حرباً نووية قائمة لا محالة، وأنّه لن تكون لديهم القدرة على تلقي الأوامر بالضرب، لأنّ الاتصالات مقطوعة بسبب الحرب.

وبناء عليه، فإنّ الأوامر بالإقلاع، الذي يتبعه انفجار أو حتى تفجير نووي في قاعدة أمريكية ومن ثمّ انقطاع الاتصالات، فإنّه قد يقود إلى إقلاع عدد من الطائرات الحاملة للأسلحة الذرية، التي تعتبر غير آمنة بشكل كبير. في الحقيقة، إنّ مثل هذه الاحتمالات قليلة لكنّها ليست نادرة وربّما تتعاقب بشكل أكثر. كانت التحذيرات الكاذبة، التي تقود إلى إقلاع الطائرات لغرض المناورات الوقائية precautionary، شائعة في المنطقة التي زرناها وغيرها من المناطق حول العالم. يزيد عدد القواعد والطائرات المشاركة من فرص الانفجارات العرضية، التي قد تحدث في مكان ما. ولكن حتى لو كان الإقلاع نتيجة أمر من قائد قاعدة، فإنّ تفجيراً كبيراً من النوع الذي يدمر وسائل الاتصالات، قد يقود إلى إقلاع طائرات أخرى من قواعد مجاورة مصحوباً بانفجارات أخرى، وتؤدي هذه إلى انقطاع الاتصالات في ذات الوقت.

إنّ معرفتي بالتفسيرات العسكرية للأوامر والقرارات القائمة على خبرتي في سلك البحرية، والآن من خلال أحاديثي الكثيرة مع ضباط الأركان في القوة الجوية من ذوي الرتب العالية، اقتنعت أنّه في مواقف كهذه سينظر الطيارون أنّ واجبهم أن ينفذوا المهام الموكلة بهم، مهام الحرب الشاملة. وهذه مخالفة صريحة لأنّهم يجب أن ينتظروا الأوامر النهائية بشكل إيجابي مؤكّد. وإذا لم يستلموا مثل تلك الأوامر فإنّهم سيدركون فجأة إن كان وقع هجوم مباغت للعدو بعد أن أقلعوا بطائراتهم. وعليه وبدون أن يدرك ذلك قائد القاعدة، فإنّ أوامره للقيام بإقلاع وقائي أضحت في أذهان الطيارين تعادل الأوامر لتنفيذ ضرب أهداف العدو.

حين أعدت هذا التبرير على مسامع عدد من ضباط الأركان في عدد من المواقع والقواعد الجوية في منطقة الپَسَفِك، لم أسمع منهم كلاماً يبعث على الثقة. رأوا في ذلك شيئاً غير مألوف لكنّه ممكن. لم يقترح أحدهم أيّة إجراءات عملية من أجل تقليل فرص حدوث هذه الكوارث المتوقعة.

قررت أخيراً أن أختبر تلك الاحتمالات على مستوى القيادات في المستوى الأدنى. نظرت لخارطة لمواقعنا قرب طوكيو، فاخترت قاعدة جوية أمريكية صغيرة في كوريا الجنوبية، وهي قاعدة كُنسان. وهي أقرب قاعدة جوية للحدود مع كوريا الشمالية، وتوجد فيها طائرات للتحذير النووي تعود إلى حكومة كوريا الجنوبية. في الحقيقة، هي طائرات التحذير المزودة بأسلحة نووية والأقرب إلى المناطق الشيوعية أكثر من أيّة قاعدة في حوض الپَسَفِك. باستطاعتنا، نحن أعضاء فريق التحقيق من مؤسسة رند، أن نحصل على مقاعد للسفر على طائرات عسكرية وبإمكاننا «أن نذهب إلى أيّ مكان

وأن نتحدث إلى أيّ شخص أو لنشاهد ما نحب»، شرط الحصول على موافقة قائد الأسطول. حصلت على الموافقة وقررت القيام برحلة إلى كوريا الجنوبية لأتحدث إلى الضابط المسؤول عن قاعدة كُنسان.

حطت الطائرة العسكرية في العاصمة سول وانتقلت من هناك بطائرة صغيرة قطعت منطقة تلال وعرة غير مأهولة، ثمّ هبطت على مدرج ترابي في مدينة تشبه مدن الغرب الأمريكي في الفترة الأولى من تاريخ هذه البلاد. كان قائد القاعدة ضابط طيار برتبة رائد في القوة الجوية لكوريا الجنوبية. توجد تحت إمرته 12 طائرة من نوع F100s، التي تحمل صواريخ من صنف Mark28، وهذه صواريخ نووية حارة بقوة 1.1 مَكَاتن. تعادل قوة المتفجرات في كلّ قنبلة نصف القوة التفجيرية التدميرية، التي أسقطتها الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية على أوروپا وفي منطقة الپَسَفِك. وهذا يعادل مليوني طن من المتفجّرات. كان هذا الضابط المسؤول عن القاعدة وسط تلك التلال الوعرة مسؤولاً عمّا يعادل 6.5 أضعاف مجموع الأسلحة النارية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية.

أفضل ما أتذكره عن قاعدة كادينا أنّ الأسلحة في ذلك الوقت لم تكن مؤمّنة وعليه سريعة الانطلاق بخطوة واحدة one-point safe. لدى الإجابة عن سؤالي، أخبرني الرائد الكوري الجنوبي أنّ الطيارين لا يقومون بتدريبات الإقلاع والعودة والهبوط وهي محملة بالأسلحة، لكنّ جزء من السرب يكون في حالة إنذار دائم. كنّا فقط على مسافة دقائق بالطائرة للوصول إلى أراضي فيتنام الشمالية، لكنّ الطائرات حقيقة موجهة لمهاجمة القسم الشمال الشرقي من روسيا، الذي يبعد مسافة ساعة تقريباً. سألت الرائد كم يستغرق الوقت للوصول إلى الأهداف هناك قبل أن تظهر الطائرات على شاشات الرادار في كوريا الشمالية أو روسيا، وكم يمضي الطيارون بعيداً ويمكنهم الاتصال بقاعدة انطلاقهم. انفعل وقال إنّ تلك معلومات حساسة وأنّه لن يستطيع إعطائي جواباً ما لم «أبرز له التفويض الرسمي الذي أحمله».

بعد أن كرّر ذلك عدة مرات بدأت أنا بدوري أشعر بالانزعاج، فقلت له «لنتصل باليابان ونتحدث إلى أحد هناك». ذهبنا إلى مكتبه وحاول الاتصال عن طريق الراديو بإحدى القواعد في اليابان. أظهر ذلك حقيقة مثيرة للعجب، وهي عدم وجود اتصال له باليابان منذ عدة ساعات مضت. حاول أن يتصل عن طريق القيادة الرئيسية في كوريا الجنوبية في قاعدة أوسان. سألته كم مرة يحدث ذلك في اليوم، فأجاب «مرة واحدة تقريباً». يؤدي سوء الأحوال الجوية إلى انقطاع الاتصالات باليابان.

لم أعتقد بضرورة متابعة النقاش حول الموضوع، حتى يتمكن من الاتصال باليابان ليعرف التفويض الذي ادّعيته لنفسي. انتظرت لمدة ساعة، وأنا أشغل نفسي بمطالعة المجلات في مكتب القائد. كانت لدى قاعدة أوسان أخبار عني، بأنّني تحدثت مع البعض قبل أن طرت إلى كُنسان. حدث في ذهني أنّه لو حدث انفجار عرضي، كما أشرت إليه أعلاه، فإنّ كُنسان ستكون مقطوعة عن الاتصالات ببقية أنحاء العالم.

تمكن الرائد أخيراً أن يتحدث مع اليابان فقالوا له إن بإمكانه أن يخبرني «أيّ شيء». طلب منّي أن أعيد عليه طرح أسئلتي. قمت بذلك، فهزّ رأسه وقال بهدوء إنّه لا يعرف جواباً عنها. كان ذلك الأمر مدعاة للتسلية بشكل ما، خاصّة أنّه قد غيّر من قلقه حول متطلبات الأمن، التي استغرقت ساعة من وقته ليتصل باليابان. فكرت للحظة أنّه يمزح معي، لكنّ الرجل بدا جادّاً. بدأ بإخباري أنّه لم يقابل باحثاً عسكرياً في كُنسان، وأنّه سيفكر في الموضوعات التي أثرتها أمامه.

نظراً لأنّ هذه القاعدة قريبة جدّاً من محطات الرادار الشيوعية، قيل لي في أوسان إنّ قائد القاعدة في كُنسان ليست لديه السلطة لإصدار الأوامر لسرب طائراته بالإقلاع وفق ما يرتأيه أو لأغراض التحكم الإيجابي، حتى في حالات الاحتياط ضدّ هجوم مباغت. ليس لديه أوامر بالإقلاع إطلاقاً، وتحت أيّ ظرف، حتى تلقي أوامر مباشرة من المقرات العليا عن طريق طوكيو، وربّما تقوم قاعدة أوسان بنقلها إليه بعد ذلك. أردت أن أحصل منه على تأكيد، لكي أختبره حول الظروف الفرضية، فلم يُتح لي المجال لفعل ذلك.

سألت إن كانت هناك ظروف معينة أرسل فيها طائراته إلى الجو وهي في حالة إنذار، مثلاً إذا اعتقد بأنّ قاعدته على وشك أن تتعرض لهجوم. قال الرائد، «حسناً، أنت تعرف الوقت الذي يتوجب فيه عليّ فعل ذلك، أليس كذلك؟» بدا وكأنّه يريد اختباري وماذا أعرف.

قلت له، «نعم حين تتلقى أمراً من اليابان أو من أوسان». ردّ، «نعم هذا صحيح». ثمّ مضى يقول، «دعني أخبرك شيئاً آخر. أنا قائد هذه القاعدة، وكلّ قائد قاعدة له الحق الأساسي في الدفاع عن قواته. هذا قانون أساسي في أيّة حرب. إنّه أقدم مبدأ في الحرب. إنّني كقائد عسكري، لي الحق وعندي السلطة لحماية قواتي. وإذا اعتقدت أنّها في خطر مهما كان مصدره، فإنّني أطلقها للدفاع على الفور».

لم أستطع تخمين السبب الذي دعاه ليخبرني بذلك، ولماذا أراد أن يسجّل ذلك بشكل رسمي. لقد اتفقنا أنّني هناك في القاعدة أجري بحثاً حول قيادة الأسلحة النووية والتحكم بها بأمر قيادة أركان حوض الپَسَفِك، الأدميرال فِلت. يخبرني هذا الرائد أنّه يشعر بأنّ لديه القوة بموجب المبادئ الأساسية

للحرب، أن يخالف التعليمات المباشرة والصريحة القادمة من قيادة CINCPAC. لم ينتابني العجب أنّ قائداً ميدانياً يمكن أن يتولد لديه مثل هذا الشعور تحت ظروف معينة. لقد كان ذلك هو الحدس، الذي جاء بي إلى كوريا. لكنّني لم أتوقع أنّ صاحبي هذا قد فكر بالموضوع، أو أنّه على استعداد ليخبرني مباشرة أنّه لا يشعر بضرورة الالتزام بالأوامر التي تصدر من المقرات العليا.

لكنّ هذه الأوامر، على أيّة حال، ليست اعتباطية. إنّها تتعلق بقاعدة كُنسان القريبة من مناطق العدو وراداراته. إنّ طلعة سرب من الطائرات قد يلتقطها الرادار ويفسرها الشيوعيون أنّه تحضير لهجمة قادمة. في الحقيقة أنّه في ضوء ما سيخبرني به ذلك الرائد، أنّ العدو ليس أبلهاً ليفكر بتلك الطريقة. وعليه يوجد سبب أقوى لكي يضع طائراته تحت أوامر صارمة، سواء كان ذلك يخالف القواعد الموضوعة للحرب أم لا.

لم أظهر أي ردّ فعل. كنت أريد استكشاف ما سيقوده لكي يأمر طائراته بالإقلاع. سألته كيف يفسر الانقطاع المفاجئ للاتصالات أثناء الأزمات الحادة، مثل أزمات جزيرة كومري في السنة الماضية. قال، «نعم، إنّ ذلك قد يقوده إلى الاعتقاد بوجوب إطلاق طائراته، قبل انتظار أمر من الجهات العليا».

ومرة أخرى لم يكن ردّه مدعاة للعجب، أو أنّه ليس قائماً على أساس آخر، أو أنّ ذلك لا يشكل تجاوزاً على الأوامر. كان ذلك في وقت انقطعت فيه الاتصالات بسبب سوء الأحوال الجوية، وهذه ظاهرة متكررة بشكل معروف. تتدخل الاضطرابات الجوية في موجات الذبذبة العالية أثناء الاتصالات وتحدث في منطقة الپَسَفِك بشكل يومي تقريباً، وتحدث أيضاً فوق قاعدة كُنسان مرة واحدة في اليوم على الأقل، كما أخبرني القائد. حتى كابلات الاتصالات الممدودة تحت الماء التي توصل باليابان قد تعرضت للقطع بسبب شباك أساطيل صيد الأسماك في المنطقة. في حالة أزمة حقيقية، انقطعت كافة الاتصالات بين NORAD وأجهزة التحذير المبكر للصواريخ البالِستيّة، في ذات الوقت، كما أتذكر. اندلعت النيران في الغابات القريبة من الساحل فأدت إلى احتراق الخطوط الأرضية، وعلى الساحل الآخر من المحيط حدثت هزة أرضية، فدمّرت كافة الخطوط في المنطقة.

ومع ذلك، أخبرني قادة ضباط الأركان أنّهم ينظرون إلى الانقطاع المفاجئ في الاتصالات خلال الأزمات باعتباره إشارة شؤم تتطلب على الأقل تحذيراً عالي المستوى، وربّما انطلاق عدد من طائرات التحذير. وعليه، فإنّ الرائد لم يعطني جواباً مختلفاً عمّا في القواعد الأخرى. إنّه فقط لا يعترف أنّ أوامره، تختلف عن أوامر القيادة، التي تتطلب منه التريث وعدم التهور.

وماذا إذا استلم تقريراً عن انفجار نووي في مكان ما في غرب المحيط الهادي؟ قال، «إنّ ذلك أكثر من دليل كاف. سوف لن أنتظر الأوامر».

وهنا جاء السؤال الأكبر. سألته ماذا يعتقد أن سيحدث لو طلب من سربه أن ينطلق؟ ردّ، «حسناً، أنت تعرف ما هي الأوامر. يذهبون إلى منطقة المناورة ويحومون هناك بانتظار أوامر لاحقة. بإمكانهم أن ينتظروا لفترة نصف ساعة ولديهم وقود كاف للذهاب إلى أهدافهم أو للعودة إلى القاعدة. إذا لم يتلقوا أمراً بتنفيذ ضربة، فمن المفترض أن يعودوا. تلك هي الأوامر المعطاة لهم».

سوف لن يكون لديهم اتصال بقاعدتهم وهم في منطقة المناورة، كما ذكر لي مبكراً. إذا كانوا هناك كجزء من مناورة للتحذير المبكر، ستكون معهم طائرة تُرسَل من قاعدة أخرى تنظم الاتصالات ما بين طائرات السرب، لأنّها مزودة بأجهزة اتصالات أقوى. ولكن لو أرسلهم هو بذاته، فإنّهم سيحومون هناك، وليس لهم القدرة على الاتصال بالخارج.

سألته، «كيف برأيك أنّ هذا الأمر سيتم حسب المطلوب؟».

قال الرائد، «إذا لم يستلموا أمراً بالتنفيذ؟» أعتقد أنّهم سيعودون». ثمّ توقف عن الكلام وأضاف بعده «أغلبهم».

لم أنتبه لكلمته الأخيرة «أغلبهم»، مباشرة لأنّه قبل أن ينطق بها كاد رأسي ينفجر غضباً. حافظت على هدوء معالم وجهي، لكنّ الصوت بداخلي كان يصرخ، «تعتقد أنّهم سيعودون؟».

قلت لنفسي هذا هو قائدهم، الذي أعطاهم الأوامر وهو المسؤول عن تدريبهم والتزامهم بالأوامر. وبينما كنت أغلي غضباً في داخلي، بدأت أدرك ماذا عنى بقوله «أغلبهم».

ثمّ أضاف، «من الطبيعي أنّه إذا انطلق أحدهم نحو الأهداف المقررة، فأعتقد أنّ الآخرين سيحذون حذوه». ثمّ توقف ثانية وقال وكأنّه يتأمل بالأمر، «قد يلحقون به. إذا أغار أحدهم فإنّ البقية سيتبعونه، رغم أنّني أخبرتهم بأن لا يفعلوا ذلك».

حاولت جهدي أن أبدو طبيعياً وهادئاً لأنّه كانت لدي أسئلة أخرى وددت أن أطرحها عليه. «أليس صحيحاً أنّ لصواريخ Mark28 المحمولة في أسفل الطائرة فرصة لبعض الخطورة كحدوث انفجار نووي جزئي إن جرى حادث على مدرج المطار؟» أومأ برأسه دليلاً على الموافقة. «ماذا لو ظنّ الطيارون الخمسة الأوائل الذين أقلعوا ونظروا إلى المدرج فلاحظوا سحابة الفطر تغطي القاعدة بعد أن انقلبت الطائرة السادسة وانفجرت على المدرج؟ بماذا سيفكرون وماذا سيفعلون بعد أن شعروا

بموجة الانفجار؟

بطبيعة الحال، كان ذلك سؤالاً جديداً لم يسمعه من قبل، ووجده سؤالاً جديراً بالاهتمام. كانت إجابته الأولى غير مباشرة. «حسناً، أنت تعرف الموقف هنا لا يشبه أوكيناوا لأنّ الطيارين هناك لهم عوائل تمّ تدميرها نتيجة للانفجار. الذي أقصده أنّ هناك احتمالاً بأنّ أولئك الطيارين سيعصون الأوامر ويتوجهون لضرب أهداف العدو، دون تلقي أوامر صريحة ومباشرة أو معلومات عمّن قتِل في ذلك الانفجار أو فيما إذا فكروا أنّه مجرّد حادث أو هجوم. في أوكيناوا حيث تقيم عائلات الطيارين داخل القاعدة، فإنّهم بطبيعة الحال، سيمضون لضرب أهدافهم»، إن كان التفجير قد محا أسرهم من الوجود. وبطبيعة الحال، لا يمكنهم التأكّد أنّ الأمر ليس إلا حادثة. وهو يعني أنّه ما عاد للحياة معنى بعد الذي حصل لعوائلهم. أمّا في كُنسان، لو أدرك الطيارون الذين في الجو أنّهم خسروا (فقط) الرائد والقاعدة، وليسوا على ثقة أنّ ذلك هجوم للعدو، فقد يتأملون الهبوط في قاعدة مجاورة، إذا لم تصدر لهم الأمور بمهاجمة أهداف العدو.

بعد أن أوضح تلك الفروقات، أخبرته أنّ دلالة السؤال هي حول الطيارين الذين انطلقوا في الجو، وهم في حالة إنذار للمرة الأولى سواء كانوا في طوكيو أو أوسان أو بأمر من الرائد نفسه. لو أخذنا ذلك بنظر الاعتبار وكانت تلك لحظات أزمة، وافق أخيراً على أنّه إنّ كان هناك انفجار نووي جزئي في كُنسان أو كان هناك تقرير من أوسان أو كادينا فهل يجعل ذلك طياريه على ثقة أنّ هجوماً قد وقع. ستكون الاتصالات مقطوعة، وعليه لن يتلقى الطيارون أوامر بالعودة، وسيمضون إلى أهدافهم المرسومة.

* * *

رجعت إلى معسكر سمِث وأنا أشعر أنّني حصلت على إجابة كافية لأحد أسئلتي: فيما إذا كانت توجد ظروف حقيقية يخرج فيها الضباط الملتزمون، وليس المتحايلين أو من أصيبوا بلوثة عقلية، ويتمردون وقد يعصون الأوامر بعدم تنفيذ خطط حربية نووية بدون أوامر واضحة وصريحة من قياداتهم. ولكن من خلال دراستي لقضية القيادة والتحكم وأنا في راند وفي قيادة الپَسَفِك، كنت أيضاً أطرح سؤالاً آخر عمّا إذا لو استلموا هذا الأمر: ما مقدار درجة التأكّد والثقة أنّ الأوامر صدرت حقيقة من الرئيس أو الجهات العليا؟ هل بإمكان شخص في مرتبة أدنى أن يصدر مثل هذه الأوامر «بشكل موثق»؟

من الناحية النظرية، الجواب لا. ولكن من خلال وجودي في راند لمدة شهر كامل في عام

1958، وقع في يدي كتيب من إصدارات قيادة القوة الجوية SAC يصف السبل للتأكّد من صحة الأمر الرئاسي الصادر للقاذفات كي تباشر مهامها بإسقاط حمولتها من السلاح على أهداف العدو. لقد تبين لي وجود نقطة ضعف أخرى تتعلق بنظام الفشل الآمن fail-safe، الذي أتيت على ذكره في بحثي السري.

طرحت في مذكراتي الإمكانية القائمة على الظروف، التي شرحتها أعلاه، أنّ أحد الطيارين الذي كان في حالة إنذار قد قرّر «أنّه ما دام الأمر ليس مؤكداً أنّ الحرب قد قامت فعلاً، فإنّ الفرصة ستكون أفضل للمضي بضرب الأهداف المرسومة». ربّما كان الأمر بالنسبة له معقولاً. اقترحت، «بأنّه قد يغري البعض من زملائه إن استطاع كي يحذو حذوه فيعطيهم إشارة تبدو موثقة بأن يشنوا هجومهم». أضفت القول، «إنّه إن كانت الظروف تبدو ممكنة أو غير ممكنة، أجد أنّه من المثير للعجب أن يبدو ذلك الطيار قادراً على فعل ذلك».

بناء على ما ورد في كتيب قيادة القوة الجوية حول الخطوات اللازمة، فإنّ الطيار، الذي في حالة تأهب وإنذار، لديه مظروف يحتوي على الشفرات، لنقل 4 منها مكتوبة على ظهر المظروف وأربعة أخرى مدونة على كارت داخل المظروف المختوم. بعد أن يستلم إشارة راديو بمجموع 8 أرقام، 4 منها تتفق مع الأرقام المكتوبة على ظهر المظروف، يُفترض بالطيار أن يفتح المظروف المختوم ويدقق الأرقام المكتوبة على بطاقة داخله. إذا كانت الأرقام مطابقة للأرقام التي جاءت بها الإشارة، فذلك يعني أنّه استلم أمراً موثقاً بالتنفيذ، وعليه أن يتوجّه لضرب أهدافه.

في تخميني، أيّدني عدد من الزملاء العاملين في راند، من الذين يعرفون بإجراءات قيادة القوة الجوية، بأنّ أرقام الشفرة متماثلة لكافة الطائرات التابعة للقوة الجوية، التي تقوم بمهام الإنذار المبكر. يحتاج الأمر فقط إشارة واحدة يتوجب إرسالها، وهم على اطلاع بأنّ تلك الشفرة نادراً ما تُستبدَل.

الذي وجدته لدى القوات التكتيكية على الأرض في منطقة اليَسَفِك أنّ إجراءها يقوم على شفرة اسمها «الشرارة» Spark Plug. وهي مماثلة لتلك التي لدى القوة الجوية. وبناء على ملاحظاتي المكتوبة، «إنّ إجراءات **الشرارة** هي الطريقة الوحيدة التي تنطلق بموجبها قوات الردّ السريع المزودة بالسلاح النووي الموجّه نحو الأهداف... وأنّ التفويض الرئاسي لاستخدام السلاح النووي واضح لا شائبة فيه... وهو يعني انطلاق تلك الشرارة.

لدى كافة طائرات التحذير والمواقع الأرضية مظروفات تحتوي على جزئي الشفرة. وحين تصل رسالة الشرارة:

تحتوي المعلومات على ظهر الغلاف رقم التسلسل... وإذا كانت الرسالة تعطي ذات المعلومات فالخطوة التالية هي فتح المظروف. يوجد على الوجه الداخلي للمظروف حرفان للشفرة الصوتية. إذا كان هذان الحرفان يتفقان مع الرسالة، فيجب إطلاق السلاح. إذا كانت الرسالة تحتوي على أربعة حروف وأنّ الاثنين الأولين فيه منهما يتفقان مع الحروف في الوجه الداخلي للمظروف فيجب إخراج البطاقة. إذا كانت الحروف الأربعة متطابقة، فيجب إطلاق السلاح باتجاه الأهداف المقررة.

ولو كان ذلك ممكناً، وتحاشياً لتقليل احتمال السهو أو الأوامر غير الموثقة، يجب أن يُفتح المظروف بحضور شخص آخر متدرب على إجراءات الشرارة. وبطبيعة الحال، هذا لا ينطبق على قادة القاذفات وهم في الجو.

إنّ موضوع حضور شخصين يُطبّق عادة في المواقع الأرضية، لأنّ كافة مقاتلات منطقة الپِسَفِك تختلف عن مقاتلات القوة الجوية، لكونها تقتصر على طيار واحد». لدى استلام الإشارة تقوم الأجهزة المعنية بإرسالها بشكل واضح، وليس عبر الشفرة، وفي وقت واحد يُعاد إرسالها كلّ ساعة إلى أن يصدر الأمر بإيقافها».

يبدو أنّ هذا الإجراء كان يُطبّق من قبل القوة الجوية والقوات في منطقة الپِسَفِك، لأنّ الشفرة واحدة لكافة الطائرات، ويتمّ تغيير هذه الشفرة بشكل متكرّر. وهذا يعني أنّ كافة الطيارين في مهام التحذير المبكر سواء على الأرض أو في الجو يفتحون المظروف. وفي حالة منطقة الپِسَفِك يفتحون المظروفين، لكي يعرفوا حقيقة الشفرة كاملة.

ونظراً لأنّ أيّ طيار في الجو يستلم تلك الإشارة مطلوب منه أن يبلغها إلى الطائرات الأخرى في سربه، والتي يمكن أن يراها، باستخدام إشارات الراديو ذات الذبذبات العالية، فهذا يعني أنّ أيّ طيار انطلق في الجو أو في مهمة للإنذار المبكر ويريد أن يأخذ طائرات التحذير الأخرى ويتوجه بها إلى روسيا، ما عليه إلّا أن يفتح مظروفه. يتصل إثر ذلك عن طريق الراديو بالطائرات الأخرى ليخبرها أنّه تسلم أمراً مؤكداً بواسطة إشارة عن طريق ذبذبة صوتية ضعيفة قادمة من منطقة بعيدة تحمل الشفرة المطلوبة. في مثل الظروف التي أتيت على ذكرها، يبدو أنّ محاولة من هذا القبيل ربّما تكون فعالة.

لو رجعت إلى مذكرتي الأولى حول قضايا الأمن الوطني، لوجدت أنّها اشتملت على أسئلة حققت بشأنها في مختلف القواعد الجوية في قيادة حوض الپِسَفِك في السنة التالية، وتنبأت بالإجابات

المثيرة للحذر، التي سمعتها. لا أحد من الذين تحدثت معهم كان قد أخذ بعين الاعتبار هذه المواضيع. وفي نفس الوقت لا أحد منهم اعتبرها غير واردة حين أثرتها معهم.

فعلى سبيل المثال، وحول موضوع المظروف. حين أثرت إمكانية تعمد طيار يعمل وفق ما يمليه عليه ضميره (أو آخر أصيب بلوثة عقلية) فشعر باندفاع ليتوجه نحو أهداف العدو وحاول إقناع الطيارين الآخرين أن يحذو حذوه بالطريقة التي تكهنتها في مذكرتي، فإنّ الجواب الذي حصلت عليه، «إنّه لا يستطيع فعل ذلك، لأنّه لا يعرف الشفرة بكاملها».

حتى تلك الإشارة لم تساعدني في شيء، وقد انبرى أحدهم فقال، «لكنّ ذلك مخالف للأوامر. لا يستطيع فتح المظروف حتى يتلقى الشفرة بكاملها».

بقي مثل هذا الجواب معلقاً في الجو للحظة. إنّ دلالة السؤال كانت عمّا أحسّ به ذلك الضابط الطيار، بناء على ما قام به الجنرال جاك رِپَر في فلم كوبرِك Strangelove .Dr، الذي ظهر بعد سنوات، فتكون تلك المحاولة إيذاناً بقيام حرب عالمية ثالثة. كان رِپَر في طريقه لإلقاء قنبلة نووية حرارية على روسيا وكان انتحارياً ما توقع أن يعود حيّاً من مهمته. اتفق الجميع معي على هذه النقطة من المناقشة، بأنّ مثل هذه المشكلة حقيقة، وإن كان حدوثها غير متوقع.

* * *

أكثر من ذلك، إنّني اكتشفت بمرور الوقت وجود موقف مماثل لا يقتصر فقط على الضباط الطيارين في حالات الإنذار، ولكن بين الضباط في القواعد العسكرية وعلى ظهر السفن حاملة الطائرات وكافة ضباط القيادة في حوض الپَسَفِك. وهي ظاهرة منتشرة حول عدم الأخذ بتعليمات ضرورة وجود شخصين، لدى تلقي الأمر واستلام الشفرة.

لكي نمنع أيّ عمل فردي غير مصرّح به من قبل ضابط واحد في نوبة عمل ولديه فرصة للاطلاع على الشفرة المطلوبة والتصرف بموجبها في حوض الپَسَفِك. هناك قاعدة راسخة ومشدّدة تتطلب وجود ضابطين على الأقل للدوام ليلاً ونهاراً، وأن يكون بينهما تناسق تام ومتفقين على الموثوقية authenticity لتنفيذ خطط الحرب النووية بأمر الجهات العليا، وقرارها بنقل تلك الأوامر إلى القيادات التابعة.

نظراً لأنّ ظروف المكان تختلف من قاعدة لأخرى، وجدت أنّ كلّ مركز قيادة يتبع إجراءات الالتزام بالأوامر وطاعتها على طريقته الخاصة. الإجراء المتعارف عليه هو كتابة نصف الشفرة

الموثوقة على بطاقة داخل مظروف مختوم والنصف الثاني داخل مظروف آخر مختوم أيضاً، على أن يوضع الظرفان في صندوقين مقفلين ويعرف كلّ ضابط الرقم السري لفتح قفل واحد منهما. فإذا وصلت إشارة إلى المكتب تحمل أرقاماً معينة، يقوم الضابطان بفتح الصندوقين والمظروفين بداخلهما ويدققان إن كانت كلّ بطاقة فيهما تحمل 4 أرقام تتطابق تماماً مع أرقام الرسالة. يتفق الاثنان أو لا يتفقان على إرسال الأوامر ببدء التنفيذ إلى الجهات المعنية.

في مواقع عسكرية أخرى، يوجد صندوق مؤمن واحد، يكون لدى أحد الضابطين نصف الأرقام السرية لفتح قفله، ويكون لدى الضابط الآخر النصف الثاني. وهكذا نرى أنّه بطريقة أو بأخرى، تتبع الإجراءات في المركز بحيث يصعب على ضابط بمفرده التأكد من موثوقية الأمر أو إرسال أمر موثق بإطلاق النار.

ولكن من الناحية العملية، وكما شرح لي الضباط القائمون بالواجب، أنّه في الغالب يوجد ضابط واحد في المركز. إنّ متطلبات وجود ضابطين مؤهلين يجلسان في كلّ موقع ليلاً ونهاراً أمر صارم، إنْ وضع موضع التطبيق. تظهر سجلات الخفارات وجود من يمكن أن ينوب عن الضابط المكلف، لو كان من «الضرورة القصوى» أن يذهب لمكان آخر كي يقضي حاجة أو في حالة طارئ طبّي حدث له أو لزوجته، على سبيل المثال. هل يعني هذا أنّ كافة المراكز التابعة ستصاب بالشلل ولن تكون قادرة على استلام الأوامر الموثقة لأغراض التنفيذ، إذا كان استلم الضابط البديل ما يبدو أنّه أمراً ببدء حرب عالمية؟

هذا أمر يجب عدم السماح به في نظر الضباط المناط بهم مثل هذه الواجبات. لقد تعرّض كلّ منهم إلى مواقف عملية ممكنة عن هذا الموضوع، وأنّ كلّاً منهم قد استعدّ له ذهنياً، وفي العادة بالتنسيق مع زملائه من الضباط الآخرين.

في الواقع، أنّ كلّاً منهما لديه الأرقام السرية لقفلي الصندوقين، أو هناك ترتيبات للحصول عليها. إذا كان هناك صندوق واحد، فإنّ كلّ ضابط من الناحية العملية، يعرف كافة الأرقام السرية لفتح قفله. يكون أحد الضابطين مسؤولاً عن كلي المظروفين حين يغيب الضابط الآخر. وحين توجد إجراءات أمنية تتطلب التوضيح، يمضي الضابطان في العادة بعض ساعات الاستراحة في أواخر الليل وهما يحاولان أن يخمّنا كيفية التحايل على تلك الإجراءات، «إن كانت هناك ضرورة لذلك». وهم عادة ينجحون في هذا الأمر. لقد وجدت هذه الحالة في كلّ موقع عسكري زرته.

قال لي الضبّاط ذلك، شرط عدم النشر، ولكن بكلّ فخر ليؤكدوا لي الأمر جزئياً على أنّهم

بوعي تامّ وأحياناً بطريقة ذكية، بأنّ النظام مؤمّن وأنّ أمر «إطلاق النار» سيُنفذ حتى وإن كان الضابط الثاني غير موجود في اللحظة الحرجة. وهذا يعني أنّ قاعدة وجود شخصين مسألة ظاهرية فقط، في كافة حوض البِسَفِك. إنّ قدرة النظام على منع شخص واحد من إرسال الأوامر بإطلاق الضربة الأولى إلى الوحدات التابعة ليس إلّا وعداً زائفاً. هذا إضافة إلى أنّ قاعدة وجود شخصين، وحتى لو كانت سارية فعلاً، فإنّها تظهر بوضوح الضعف نتيجة التواطؤ بينهما أو الإكراه، كأن يحمل أحدهما سلاحاً يهدد به الآخر. إنّ أحد هذين الاحتمالين أو كلاهما واردان أثناء الأزمات.

بعد مضي 15 عاماً وحين وضعت استنتاجاتي الأولى حول التحكم والسيطرة بخصوص هذا الموقف بالذات، أخبرني الصحفي المرموق بوب وودورد أنّه نفسه كان ضابطاً في أحد المراكز النووية على ظهر سفينة قيادة خلال خدمته في البحرية، وأنّه أيّد ما ذهبت إليه. فهو يتذكر بوضوح «الإجراءات الاحتياطية» التي نفذها هو وزملاؤه الضباط للتأكد من أنّ باستطاعة فرد واحد، «إذا اقتضت الضرورة» أن يبعث رسالة تنفيذ إلى القوات التابعة. لا بُدّ أنّ هناك الآلاف من الضباط السابقين، الذين لهم ذكريات حول الإجراءات وكيفية التحايل على قاعدة وجود شخصين، التي ما زال يُدّعى بها في وصف جهاز السيطرة على النظام النووي في هذه البلاد.

تمتاز الإجراءات الأخيرة حول التحكم بالصواريخ التي تطلق من مخابئها الأرضية silo-based، بأنّها أكثر تعقيداً ويمكن الاعتماد عليها من الناحية الفرضية. ولكن حتى هذه المحطات فيها نقاط ضعف خاصّة بها.

كتب جون روبِل، وهو نائب مدير بحوث الدفاع والهندسة، أنّ العاملين في تشغيل صواريخ مِنِتمان Minuteman Missiles قد تحايلوا على ميّزات التصميم بوجود مركزين منفصلين يعمل بكلّ واحد منهما ضابطان، ويجب أن يتفقوا خلال وقت قصير على أمر تنفيذ إطلاق الصاروخ في أحد المواقع. وإذا تمّ تدمير أحد المركزين، فإنّ النظام يسمح لمركز واحد للمضي في عملية الإطلاق، إذا لم تصدر إشارة من ذلك المركز المدمر، ضمن وقت معيّن. من الناحية العملية، وجد روبِل أنّ ذلك الوقت المعين يعني صفراً، ممّا يجعل إطلاق الصاروخ معتمداً على مركز واحد فقط في أيّ وقت يشاء فيه الضباط العاملون.

ونتيجة لإلحاح روبِل على وزير الدفاع مَكنمارا، جرى إجبار مصممي صواريخ مِنِتمان، بالرغم من معارضتهم القوية، بوضع قفل إلكتروني على الصاروخ يحول دون إطلاقه دون استلام شفرة مرسلة من قبل المراكز الرئيسية. وبعد عدة حقب وإثر تقاعد مَكنمارا، ذكر بروس بلير، وهو ضابط سابق مسؤول عن إطلاق تلك الصواريخ، أنّ القوة الجوية قد جعلت الشفرة في كافة مراكز

التحكم بالإطلاق 8 أصفار. وبناء على ما ذكره بلير، فإنَ مَكنمارا استجاب قائلاً، «أنا مصدوم، مصدوم للغاية وغاضب. مَن بحقّ السماء قد أذِن بذلك؟» استمر بلَير يقول:

> ما عرفه منّي أنّ الأقفال قد وُضِعت ولكنّ الأرقام السرية لفتحها كانت معروفة للجميع بأنّها 8 أصفار. قررت القيادة الجوية الستراتيجية SAC في أوماها بهدوء أن تحدد «مفاتيح الأقفال الإلكترونية» في 8 أصفار، والقصد من ذلك هو التحايل على الحماية. في مطلع السبعينات وحتى منتصفها، وخلال وجودي كضابط مشرف على إطلاق هذه الصواريخ، فإنّ الوضع لم يتغير. تطلبت تعليمات الإطلاق من الفريق التأكّد مرتين من لوحة التهديف في مخبأ الإطلاق بحيث لا يظهر على الشاشة رقم سوى 8 أصفار كإشارة لاستعداد الصاروخ للانطلاق. كانت القيادة الجوية الستراتيجية غير معنية بأمر الإطلاق غير المخول وانصبّ اهتمامها على الأشياء، التي يمكن أن تتدخل في تطبيق أوامر إطلاق النار. وعليه ظلت «الشفرة السرية المفتوحة» في وقت أوج الأزمات النووية خلال الحرب الباردة 8 أصفار.

الحقيقة التي اكتشفتها المرة تلو الأخرى في حوض الپَسَفِك أنّه في ذهن القادة والعاملين على كافة المستويات بما فيهم CINCPAC والأدميرال هَري فلِت، نفسه بأنّ المهمة الأولى التي أوكلت إلى فريق دراستنا هي التأكد من أنّ كافة الوحدات بإمرته ستتسلم بشكل فوري ومضمون أوامره لتنفيذ عمليات أيّة حرب نووية، حين يصدرها. ويُعتبر هذا أمر أكثر أهمية ممّا اخترته ليكون هدفاً موازياً. وهو التأكد من عدم قيام أيّة وحدة بضرب أهداف العدو حين لا يصدر فلِت ولا سلطة أعلى مثل هذه الأوامر، ولا يُحبّذ تنفيذها. وكما سنرى فيما بعد أنّ نفس الأولويات قد تمّ تعميمها على كافة مراكز القيادة الوطنية على المستويين العسكري والمدني خلال فترة الخمسينات، وإلى درجة ما خلال الحقب، التي تلتها.

عكست هذه الأولويات طيلة فترة الحرب الباردة، ظروف القيادة فيما يتعلق بالتالي:

- نُظِر إليها بأنّها تتجاوز بشكل ساحق وأكثر أهمية تأكيد استجابة الردّ في وقت الضرورة أكثر من منع التحذيرات الكاذبة والتصرفات غير المُصرّح بها.

- كان هناك تأكيد كبير على سرعة الردّ والاستجابة المباشرة لأيّة تحذيرات عن هجوم نووي والانطلاق لمواجهته وفق هدفين.

1. تدمير أسلحة العدو قبل انطلاقها.

2. إطلاق الأسلحة الأمريكية قبل أن يتمّ تدمير مراكز القيادة والاتصالات.

يعني ذلك تأمين السلامة، سواء عن طريق التعليمات أو الحماية الملموسة بواسطة الردود المتأنية وليس عن طريق التهور. غير أنّ التأخر يكون دائماً لعنة وخطراً على المهمة في تجريد العدو من سلاحه المصحوب بسلامة سلاحنا ونظام قيادتنا وطبعاً سلامة شعبنا. كان القادة العسكريون أكثر وعياً ممّا أحبوا أن يعترفوا به أمام رؤساءهم المدنيين أو أمام العاملين في مراكز القيادة الأدنى وكذلك في مراكز الاتصالات. إنّ مواجهة عدو يُعتقد أنّه لا يقلّ وحشية عن هِتلر ومزود بقوة وتسلح نووي، اعتُقِد خطأ أنّه يفوق قوتنا وتسلحنا، كلّ هذه المخاوف واعتبارات السلامة والتحكم على أعلى المستويات، جعلتنا ننسى قدراتنا وثقتنا.

وهناك سبب أبعد طرحه عليّ بعض الضباط كي أفهمه. لم يتحمل قادة الأركان العامة أيّ قصور في نظام التحكّم وأبدوا مقاومة طويلة الأمد وشديدة للإجراءات التي تشدّد على التحكم بالسلاح النووي على كافة المستويات. كان ذلك نابعاً من عدم ثقتهم خلال أيّة أزمة، بتحليلات وأحكام القادة المدنيين والعاملين معهم ومستشاريهم، خاصة استعدادهم لشن هجمات نووية حين يرى هؤلاء العسكريون أنّها ضرورة عاجلة. ظهر عدم الثقة هذا خلال حكم الرئيس هَري ترومَن خلال الحرب الكورية، رغم أنّه هو من أمر بإسقاط القنابل الذرية على هِروشِما ونگزاكي. واشتدّ عدم الثقة هذا في فترة أيزنهاور، خاصّة خلال أزمة مضايق تايوان عام 1958، ثمّ أصبح عدم الثقة جليّاً وأكثر شدّة بين الرئيس كنَدي ووزير دفاعه مَكنمارا.

انعكس عدم الثقة هذا بما بدا لي بأنّه حذف غريب ومُذهل، قدر تعلق الأمر بموثوقية الشفرة داخل المظروف والإجراءات التي تخصّها في رأي القوة الجوية في حوض البِسَفِك، التي صادفتها في وقت مبكر حين بدأت بحثي عام 1959. ثبت أنّ الأمر انطبق أيضاً على القيادة الجوية الستراتيجية SAC. توجد شفرة واحدة فقط في مظروف واحد يتم عن طريقها التأكد من موثوقية الأرقام الأربعة الأخيرة من أصل أرقام الشفرة الثمانية، للأمر ببدء تنفيذ خطة الحرب القادمة.

لم تكن هناك شفرة للتوقف أو شفرة بأوامر العودة، في داخل المظروف أو لدى الضباط الطيارين. حين يتم التأكد من الأمر بشأن الهجوم، فليس هناك مجال للأمر بالتوقف أو الرجوع عن القرار، حتى من قبل الرئيس أو أيّ شخص آخر.

كما أنّ هناك حقيقة أخرى. ليست هناك طريقة رسمية تخوّل الرئيس أو قيادة الأركان العامة أو

أيّ شخص لإيقاف الطائرات التي انطلقت بعد أن تسلمت الأمر بالتنفيذ، سواء أكانت انطلقت في الجو لتوّها أو اجتازت خط السيطرة الإيجابية، ومضت قدماً نحو أهدافها لإفراغ حمولتها من القنابل والصواريخ. وابتداء من تلك النقطة، لا يعود من الممكن إعادة الطائرات، سواء كانت تكتيكية أم ستراتيجية، بأمر من الرئيس أو أتباعه لوقف مهاجمة الأهداف المرسومة. يصدق هذا أيضاً على الصواريخ البالِستية. يحدث هذا بالرغم من حقيقة أنّ العديد من طائرات القوة الستراتيجية التي تنطلق من الولايات المتحدة، فإنّ الوقت المطلوب لوصولها لأهدافها المنشودة بعد استلام أوامر الهجوم قد يكون حوالي 12 ساعة. وهذا وقت كاف لتاريخ العالم ومتطلبات الحضارة الإنسانية أن تتغير الأمور منذ صدور الأوامر، سواء كانت حول تفجير نووي أو انقلابات عسكرية في الكتلة السوفياتية الصينية أو عرض مقنِع للسوفيات بالاستسلام، ناهيك عن اكتشاف خطأ رهيب.

ولكن هذا يعني أيضاً أنّه وقت كاف يعقب بدء تنفيذ الأوامر بالهجوم. كما أخبرني العديد من الضباط الكبار أنّ قادتهم يخشون أن يغيّر الرئيس رأيه. الخوف من هكذا حالة طارئة لم يكن التفسير الأول الذي اقترحه ضابط السيطرة، لغياب أوامر التوقف والعودة داخل مظروف التوثق. الأكثر شيوعاً أنّه لو كانت هناك بطاقتان داخل المظروف تحملان شفرتين أحدهما للتوقف والأخرى للمضي. تحت ضغوط الأزمة، فإنّ الطيار، الذي يفتح المظروف ربّما سينظر إلى البطاقة الخطأ. وهذا طبعاً تعليل ضعيف. إذا لم يتمّ استلام شفرة الهجوم على البطاقة، فإنّ بطاقة شفرة التوقف، تصبح غير ضرورية، وليست بذات معنى.

كان أقوى سبب أعطي لي عام 1960 هو، «قد يكتشف السوفيات شفرة التوقف وسيطلبون من كافة الطائرات المغيرة بالعودة». وهذا بالضبط هو التوضيح الذي أعطي للرئيس في فلم Dr. Strangelove لعدم القدرة على إرسال أمر للطائرات للعودة بعد أن أمر قائد السرب المجنون الجنرال جاك رِيَر للمضي في ضرب أهدافها.

شعرت بالعجب حول واقعية هذه النقطة من بين النقاط لدى مشاهدتي للفلم لأول مرّة عام 1964. ذهبت برفقة هَري رَوِن إلى مدينة واشنطن بعد أن قضينا يوم عمل في البِنتگون لنشاهد الفلم «لأسباب مهنية». حين خرجنا تحت غروب شمس ذلك اليوم ونحن نشعر بالدوار من أحداث الفلم، اتفقنا أنّ ما شاهدناه بدأ أصلاً وكأنه فلم وثائقي. لم نعرف ذلك ولا قيادة القوة الستراتيجية عن خطط عملية ستراتيجية قائمة فعلاً، إن كانت لأغراض الضربة الأولى أم للضربة الانتقامية، ستكون كيوم القيامة، كما عرضها الفلم.

تساءلت كيف استطاع واضعو الفلم أن يعرفوا هذا السّرَ المقصور على فئة قليلة، ولا يُصدّق

إطلاقاً بتفصيلاته، والذي يشير إلى عدم وجود شفرة بالتوقف، وما هي أسباب ذلك؟ أو في الحقيقة، غياب أيّة قيود ملموسة على قدرات قائد السرب أو أيّ طيار آخر لتنفيذ هجوم بدون أمر رئاسي؟ ظهر فيما بعد أنّ پيتر جورج، وهو أحد كتاب السيناريو ومؤلف كتاب (حالة الاستعداد القصوى Red Alert، وهي الرواية التي قام عليها الفلم، كان طياراً في القوة الجوية الملكية البريطانية RAF وعمل ضابطاً طياراً لإحدى القاذفات. وهذا يعني أنّ مركز قيادة القاذفات البريطانية حمل نفس معالم وخصوصيات القوة الجوية الستراتيجية للولايات المتحدة، ولربّما لنفس الأسباب.

تمّ إشعاري بشكل خاصّ من قبَل أكثر من ضابط يمكن الاعتماد عليه، أنّ السبب الحقيقي، من بين عدة أسباب، كما أفاد العقيد وفيما بعد اللواء الطيار بوب لِكمَن من مكتب الخطط الحربية التابع للقوة الجوية، أنّ الرئيس المدني، أو في حالة عدم توفر وجود الرئيس أو أنّ واشنطن قد دُمّرت بالكامل، فإنّ النائب المدني، قد تتولد لديه فكرة ثانية عن الهجوم الجاري بعد إصدار أوامر التنفيذ، وحاول أن يغيّر الخطة في منتصف الطريق أو يُلغيها، فمن المرجّح أنّه بذلك يكون قد ضيّع الفرصة لهجوم منسق مباغت. وأسوأ احتمال هو ترك قواتنا في حالة من الفوضى التامة، ومعها البلد بكامله وجعله عرضة لهجمات العدو، التي بدأها فعلاً، أو أنّه سيتحرك بعد علمه بما حصل بين صفوفنا.

هذه هي المناقشة بعينها، التي طرحها بَك تُرجِسُن، والذي أدى دوره جورج سي سكَوت في الفلم المشار إليه، ضدّ محاولة الرئيس للطلب من كافة طائرات السرب الذي قاده الجنرال رِپَر بالعودة بعد انطلاقه متوجهاً إلى روسيا. إنّها تعبّر بشكل معقول عن وجهة النظر المطروحة في مثل هذا الموقف على لسان أيّ عدد من ضباط القوة الجوية الكبار منهم والصغار. وكما وضعها الضابط الكوري في القاعدة المتقدمة، «لو انطلق أحدهم فسيتبعه الآخرون!».

إنّ غياب الثقة بالمدنيين على المستوى الوظيفي العالي واستعدادهم للشروع في حرب نووية، هو ما قابلته المرة تلو الأخرى، من خلال تجربتي في الپنتگون، وهو الدافع الرئيسي لعدم وجود بطاقة شفرة للعودة داخل مظاريف الإنذار، التي توجد لدى كافة القوات. إنّها تعبّر عن حقيقة أنّ الأنظمة المعدّة للعمل من قبل العسكر تؤكد على العجز العملي للرئيس أو أيّ شخص مدني يمكن الاعتماد عليه لوقف أيّة قاذفات من تنفيذ هجمات طالما استلم طياروها أوامر موثقة من أيّ كان. ولن يستطيع الرئيس الآن ولا في الماضي، لمجرّد امتلاكه للشفرة الضرورية من شنّ أو تفجير أيّ سلاح نووي. الأمر الواقع أنّ هذه الشفرات ما وقعت قط في يد أيّ رئيس. وعليه لا يمكنه منع قيادة أركان القوات المسلحة أو أيّ قائد في مسرح العمليات، أو كما بيّنت حتى قادة المواقع العسكرية، من إصدار الأوامر الموثقة. وهذا طبعاً لا يتفق مع الانطباع السائد لدى عامة الناس، والذي يخلقه كلّ رئيس حتى وقتنا

هذا. إنّ هذا الانطباع زائف، كما توصلت إلى اكتشاف ذلك.

الفصل الثالث
التخويل أو التفويض

كم أصبعاً على الزرّ؟

في علم 1959 أخبرني ضابط السيطرة النووية في القيادة العليا لعمليات حوض الپِسَفِك في مكتب الأدميرَل هَري دي فِلت أنّ الرئيس أيزنهاور قد سلمه رسالة سريّة وقعها بنفسه وخوله بموجبها صلاحية تنفيذ خطط الرئيس النووية، حسب مبادراته إذا رأى ضرورة لذلك في أيّ وقت يشاء، حين تنقطع الاتصالات بين واشنطن ومقر الأدميرَل دي فِلت في هوائي.

لقد عنى ذلك أنّ لدى الأدميرَل دي فِلت السلطة لعمل ذلك في أيّ يوم. أيْ طيلة معدّل مرات الانقطاعات بين واشنطن وهوائي بسبب سوء الأحوال الجوية وتأثيراتها على نقل إشارات الراديو عالية الذبذبة.

لم أسأله إنْ كان حقاً رأى الرسالة واطلع على ما في داخلها، لكنّه بدا متأكداً من وجود ذلك التفويض. ما أخبرني به سرّ كبير يتناقض تماماً مع ما يتكرّر بشكل مستمر بتأكيد عقيدة Dogma نظام السيطرة على السلاح النووي: وهو أنّه لا توجد جهة مفوّضة مسبقاً، وأنّ الرئيس وحده هو من يتخذ القرار الشرعي باللجوء أو عدم اللجوء إلى الحرب النووية، وأنّه يقوم بذلك في اللحظة التي يراها مناسبة.

ذلك ما أخبروا به الرأي العام الأمريكي طيلة فترة الحرب الباردة. ردّدوا خلال الحقب العديدة أنّ سيطرة الرئيس حصرية في اتخاذ القرار لخوض الحرب النووية وكيف يجب أن تُدار. أصبحت هذه رموزاً وأكثر من رموز حين جعلوا الحقيبة السوداء الصغيرة، التي يحملها المساعد العسكري «الموجود دائماً بصحبة» الرئيس في المناسبات العامة مركز اهتمام الناس. الفكرة أنّه توجد بداخل تلك الحقيبة شفرة وآلة إلكترونية ليعطي الرئيس الأمر بشن حرب نووية، حين يستلم الإنذار بأنّ حرباً

نووية قد بدأت ضدّنا، وعندها يأمر القيادة العسكرية بتنفيذ «خياره» على الفور. في الحقيقة أنّ كاميرات التلفزيون، تركز على الحقيبة السوداء خلال مراسم التنصيب وأداء اليمين الدستوري. تنتقل الكاميرات أثناء هذه المراسيم إلى المرافق العسكري وهو ينقل بصره من الرئيس السابق إلى الرئيس الجديد. هذا لا يشير فقط إلى أنّ الرئيس قد تسلم السلطة كاملة، ولكن أيضاً يعني وجود شخص مدني كقائد عام للقوات النووية في الولايات المتحدة. وهو يتفرّد فرضياً بالسلطة والتخويل الرّباني تقريباً للقدرة على التدمير، وعدم جواز مقاطعة الإجراءات هذه في لحظة إعلان ذلك بتاتاً.

ولكنّي الآن أسمع أنّ كلّ تلك الضجّة المصحوبة بالبيانات الرسمية كلها زائفة. إنّه ليس فقط من سلطة الرئيس أن يتخذ القرار ويصدر الأوامر، كما يعتقد غالبية الناس أنّه يقوم بذلك دون تدخل من وزير الدفاع أو القيادة العليا للأركان في البنتاگون، ولكنّ التفويض بيد قادة الوحدات في ميادين العمليات العسكرية على بعد آلاف الأميال من واشنطن، إذا اعتقدوا أن قواتهم تتعرض للإبادة. كما أخبرني الأدميرَل نفسه أنّ رسائل مماثلة قد أرسلت إلى كافة قادة الوحدات النووية حول العالم وإلى قادة القوة الجوية الستراتيجية في مدينة أوماها.

لقد حضرت إلى منطقة حوض البَسَفِك ضمن فريق دراسة نظام السيطرة والتحكّم في المنطقة، وأنا أعتقد كبقية الأمريكيين العاملين ضمن أجهزة الحكومة وخارجها، أنّ الرئيس وحده هو من يمتلك السلطة ليقرر متى وأين يجب القيام بهجوم/هجمات نووية. إنّ ذلك هو هدف دراستي التحقيقية لمعرفة كيف يمكن المبادرة بحرب نووية، كما أشرت إليها في الفصل السابق، والتركيز بشكل رئيسي على إمكانية قيام مبادرات غير مرخّصة. أسمع الآن من مصدر موثوق به للغاية بأنّني والآخرين على خطأ. إنّ الرئيس الحالي قد نقل/ خوّل/ أجاز/ أناب/ فوّض سلطته إلى قادة العمليات الميدانية وكذلك القائد العام للقوات الستراتيجية CINCSAC. في بعض الظروف، يمكن لآمر قاعدة برتبة رائد، يحمل أربع نجمات، أن يصدر باسمه تعليمات للمباشرة بهجوم نووي، دون علم الرئيس أو مشاركته المباشرة.

كان أمراً مثيراً للعجب، أن أسمع ذلك، لكنّ المنطق العملي لتلك الإنابة واضح. فبدون ذلك يستطيع السوفيات شلّ أيّة محاولة انتقامية ردّاً على هجوم نووي على الولايات المتحدة يدمر واشنطن، دون أن يعطي الرئيس أمره التنفيذي، أو حتى قبل صدور أيّ تحذير على الإطلاق. وهذا أمر يجب عدم السماح به.

من الممكن أن يقتل رأس نووي واحد يسقط على العاصمة، ليس الرئيس فقط بل كافة من ينوبون عنه بالتعاقب من أعضاء الحكومة ومن ثمّ في الكونگرس، وكذلك يقتل قادة الأركان ووزير

الدفاع، وهو المدني الوحيد إلى جانب الرئيس في المؤسسة العسكرية. يحدث هذا طبعاً إذا تواجدوا جميعاً في العاصمة ساعة ضربها. إذا كانت هناك قيمة للردع النووي فيجب أن تكون مسندة حتى لا تصبح تهديداً فارغاً. صحيح أنّه قد لا يمكن لتفجير نووي واحد أن يحول دون إطلاق ردّ نووي متكامل، ضدّ ذلك التفجير أو ما سيلحقه من هجمات أخرى، لكنّ أيّ عجز أو تلكؤ سيكون بمثابة دعوة للسوفيات المتأزمين، حين تكون لديهم كافة الأسباب، ليخافوا تصعيداً من الجانب الأمريكي لإيقاف الضربة الأولى أو حتى ضربة انتقامية للضربة السوفياتية المباغتة بتوجيه صاروخ نووي واحد إلى واشنطن بهدف «قطع رأس» القيادة السياسية والعسكرية الأمريكية.

في الحقيقة، إذا كان السوفيات واثقين أنّ ضربة أولية صغيرة «ستقطع رأس القيادة» وتشلّ تماماً قواتنا النووية الستراتيجية الموسعة والتكتيكية المحدودة، عن طريق هجوم مباغت متعمد، سيبدو ليس فقط ممكناً بلْ مضموناً. إنّ أفضل نظام أمريكي للإنذار لا يمكن الاعتماد عليه بشكل مطلق، إذا كانت كافة السلطات تعتمد على طريقة واحدة: بشكل خاصّ صاروخ مبرمج يطير على ارتفاع منخفض أو صاروخ قصير أو متوسط المدى يُطلق من غواصة أو سفينة حربية، أو حتى قنبلة في حقيبة يتم تهريبها إلى العاصمة واشنطن قبل فترة.

بدا الأمر واضحاً بالنسبة لي حين أخذت أفكّر به. إنّ الانطباع السائد لدى الرأي العام حول سيطرة الرئيس أو النخبة العسكرية، التي كنت جزء منها حتى تلك اللحظة، ليس انطباعاً صحيحاً. التفكير السائد هو أنّ الرئيس وحده هو مَن «يضغط على الزّرّ». هل أنّ إطلاقة لاغتيال الرئيس أو حتى انفصال مؤقت بينه وبين الوصول إلى حقيبة الشفرة السريّة، الذي حدث عدة مرّات بما فيها أخيراً ما أعقب إطلاق النار على رَيگِن، يفتح النافذة على العجز التام للردّ على أيّ هجوم نووي؟

لا أرى ذلك. إنّ «مسرحية الحقيبة»، التي يعرضها الرئيس ومَن حوله في كلّ دقيقة وفي كلّ يوم ليلاً ونهاراً، ومسألة الشفرة المحمولة، ليست أكثر من ذلك. إنّها عملية مسرحية، وفي الأساس ليست إلّا خدعة. ومهما كان الإعلان العام عن عكس ذلك، فإنّه يوجد تفويض للسلطة والقدرة على شنّ ضربات نووية انتقامية ليس لدى مسؤولين خارج المكتب البيضاوي فقط، بل خارج واشنطن أيضاً. بدون ذلك، سوف لن يكون هناك أساس حقيقي للردع النووي.

لم يكن يوجد في ذلك الوقت **نظام لروابط التشغيل الممكنة** PALS. وهو نظام يسمح بانتقال الشفرات السرية الضرورية بغية القيام بتفجير نووي أو إطلاق صاروخ يحمل رأساً نووياً. يمنع هذا النظام إطلاق أو تفجير أيّ سلاح دون توفر «الشفرة المركّبة» الصادرة من الجهات العليا. لو كان يوجد مثل هذا النظام، كما أطمح أنا شخصياً وآخرين غيري بحماس، فإنّ الرئيس وحده ستكون لديه

«الشفرة المركّبة» ويمكن كذلك أن تتوفر لمجموعة من المسؤولين في واشنطن والپنتگون في منطقة آرلِنگتِن في فرجينيا. لو تمّ إسقاط قنبلة كبيرة أو حدث انفجار ضدّ مجمّع مستهدَف، فإنّه سيؤدي إلى عجز قدرات الردّ الانتقامية لدى الولايات المتحدة.

يجب أن يتوفر التفويض الواضح والضروري لمقر قيادة القوة الستراتيجية في قاعدة أوفئوت في أوماها في ولاية نبراسكا. لكنّ هذه معرضة للاستهداف بقنبلة كبيرة، كما هي الحال بالنسبة إلى واشنطن، رغم وجود الملاجئ الأرضية في كلتي المنطقتين.

تحاشياً لمثل هذا الضعف، توفرت لدى القوة الجوية الستراتيجية طيلة فترة الحرب الباردة قيادة محمولة جوّاً كافة الوقت، يرأسها ضابط طيار برتبة عميد. لدى هذا الضابط، كما أكّد لي الفريق الأول الطيار كِرتِس لومي، السلطة والتخويل ليشرف على تنفيذ الخطط الحربية للقوة الجوية الستراتيجية. علمت الآن أنّ هذا التفويض قد مُنح أيضاً لقائد عمليات القوة التكتيكية.

الحقيقة هي أنّه بدون هذا التفويض لقيادة الأركان في حوض الپَسَفِك، فإنّ حاملات الطائرات والقواعد العسكرية في المنطقة ستكون غير قادرة على تسديد غارات انتقامية، كما لو كان السبب هو سوء الأحوال الجوية التي حالت دون تبادل الاتصالات بين الپنتگون وهوائي، حتى وإن كانت العاصمة واشنطن قد دُمرت. غير أنّ نفس المنطق ينسحب على مشكلة إيصال أوامر التنفيذ من مراكز القيادة في أواهو إلى مواقع القوات النووية. تقع جميع هذه في غرب الپَسَفِك WESTPA، بما فيها حاملات الطائرات التابعة للأسطول السابع والقواعد في كوريا واليابان وأوكيناوا وتايوان وگوام. وهذه تبعد عن أواهو كبعد هوائي عن أرض القارة الأمريكية. تتعرض الاتصالات الصادرة من أواهو للعواصف فوق المحيط الهادي، وتحدث انقطاعات في إشارات الراديو مع واشنطن. وعلى المعدل، وجدت دراستنا حدوث ذلك عدداً من الساعات كلّ يوم. ويحدث نفس الشيء بين القيادة في هوائي وبين قادة المواقع في غرب المحيط الهادي WESTPAC.

وبناء عليه، أخبرني ضابط السيطرة النووية لقيادة الأركان المشتركة لحوض الپَسَفِك، الأدميرَل دي فِلت أنّه فوّض بدوره سلطات الرئيس له إلى القادة الأدنى رتبة منه، بما فيهم قائد الأسطول السابع، وهذا أيضاً أمر مرغوب فيه ومنطقي. ولكن كتصريحه الأول، كان الأمر مذهلاً بالنسبة لي. هل حقاً أنّ كافة ترتيبات القيادة السرية العملية تختلف بشكل جدّي عن السياسة المعلنة للبيت الأبيض ووزير الدفاع؟ اعتقد ضابط السيطرة النووية بما أخبرني به اعتقاداً واثقاً، باعتباره عضواً في الفريق الاستشاري الذي ينقل الأوامر إلى الإدميرَل دي فِلت. ولكن هل هو على حقّ؟

أتيحت لي الفرصة للتأكّد من صحة أمر التفويض فيما بعد حين كنت في زيارة للطرّاد **السينت بول**، وهو مقرّ قيادة الأسطول السابع. وكما وجدت في سجل ملاحظاتي ليوم 26 يناير من عام 1960 وخلال اجتماع مع نائب الأدميرَل فرِدرِك كِفِت قائد الأسطول، ونائب الأدميرَل كليرَنس أكستروم، قائد القوة الجوية التابعة للبحرية في حوض البِسَفِك. أكّد كلاهما أهمية العقيدة الثابتة في سلاح البحرية، وهي أنّ العمليات الحربية الفعلية يجب أن تُترَك للوحدات المشاركة فيها لتعمل بشكل مستقل وتدخّل محدود من قبل القيادة العليا. قال كِفِت إنّه حتى في حالة الحرب المحدودة «لا يهمّ» إذا انقطعت الاتصالات بين أواهو والأسطول السابع أو بين الأسطول ذاته والقيادة المسؤولة عن حاملات الطائرات. «تجري العمليات بأسلوب غير مركزي، ولن أتدخل في عمل أيّة جهة، ما لم تتوفر لدي معلومات استخباراتية لا يعرفون بها».

اعتقد كِفِت أنّ الحرب المحدودة تظل مركزية إذا كانت هناك مناورة سياسية تتحكّم بالأمر وليس هناك إطلاق نار، كما حدث في الفترة المبكرة لأزمتي لبنان ومن ثمّ تايوان عام 1958. كان أكستروم قائداً للأسطول السادس في البحر الأبيض المتوسط خلال أزمة لبنان- العراق. توقع القائدان وأيّدا فكرة اللامركزية إلى أقصى حدّ ممكن «حتى يبدأ إطلاق النيران». وعليه فإنّهما يتوقعان انقطاع الاتصالات بشكل متكرر بسبب فترة الحرب وأيضاً لأسباب طبيعية. لكنّهما لا يشعران بأيّة مخاوف من النتائج العملية المترتبة على ذلك.

يرفض الاثنان فكرة أنّ التخطيط المسبق يحلّ كافة المشاكل. لا يستطيع الإنسان أن يخطط لكلّ شيء، ويجب عليه أن يتوقع المفاجآت. لكنّهما في ذات الوقت لا يران ولا يحبذان التوجيهات المركزية خلال فترات القتال. قالا إنّهما يفضلان الاعتماد على رأي قادة الحاملات، والمطلوب فقط هو تزويدهم بالأهداف. أكّد الاثنان أنّ القائد الواثق من نفسه، يجب أن يُتاح له المجال ليفسر وينفذ أوامره. «يجب أن تولي قادتك الثقة وهم ينجزون مهامهم في عرض البحار». وينطبق هذا أكثر في حالة قيام حرب نووية شاملة. اتفقنا أنّه من «الأفضل أن تعرف» أيّة قاعدة جوية قد ضُربت في مطلع الحرب النووية وأيّة حاملة طائرات قد دُمّرت. ولكن بموجب ظروف تخطيط القائد العام لحوض البِسَفِك لحرب نووية شاملة، «ربّما لا تعود مثل هذه الأمور هامة، على أيّة حال».

وقدر تعلق هذه النقطة بنقاشنا، اتضح أنّ فريقنا قد بنى مستوى معيناً من العلاقة مع الأدميرَلات. لم أظهر لهم عدم الارتياح، الذي بدأت أشعر به بصدد ما يبدو لا مبالاتهم حول عدم الاعتماد على المواصلات في وقت الحرب النووية، أو حتى حرب غير نووية يمكن أن تتحول إلى حرب نووية. ولذلك غامرت بطرح السؤال عن معلومات أخبِرت بها بشكل سرّي.. سألت الأدميرَل

كِفِت إنْ كان سمع برسالة الرئيس أيزنهاور إلى الأدميرَل دي فِلت، التي فوّضه بموجبها السلطة على العمليات النووية في حالة انقطاع المواصلات. قال نعم إنّه علم أنّ الأدميرَل دي فِلِت قد تسلم الرسالة المذكورة.

سألته عن عدد المرات التي تنقطع فيها الاتصالات بين سفينته الرئيسية وبين مركز الأدميرَل دي فِلت في هوائي. قال، «في الحقيقة كلّ يوم، وتستمر بالانقطاع طيلة جزء من اليوم». عدت فسألت مرة أخرى، «ماذا لو كانت الاتصالات مقطوعة مع أواهو وأنّك اعتقدت لسبب أو لآخر بأنّ حرباً نووية قد بدأت؟ أو على وشك أن تبدأ؟ ماذا ستفعل؟».

بالنسبة لأسئلتنا المبكرة، أجاب أحد الأدميرَلين أو كلاهما مباشرة وبالتفصيل. غير أنّه في هذه المرة، توقف الأدميرَل كِفِت وهو يفكّر جدّياً، ثم قال لي، «سأحافظ على سكوتي».

كان ذلك هو السؤال الوحيد الذي لم يُجب عنه بوضوح واعتدل في جلسته على كرسيّه وكأنّه يصرّح بالأمر رسمياً. غير أنّه قال ذلك مبتسماً، وعلى ما بدا لي، فإنّه أكّد بأنّي أعرف الجواب عن سؤالي. لكنّه بسكوته يعمل ما يُفترض فيه أن يعمله، وأنّ سكوته يعني إجابة إيجابية. وبشكل واضح أراد منّا أن نعلم أنّه يعتبر تفويض الأدميرَل دي فِلت له باستعمال الأسلحة النووية لديه مسألة حساسة، أكثر من حساسيّة تخويل أيزنهاور لأدميرَله في هوائي، والذي قلت إنّني على علم به.

بعد فترة صمت أضاف، «على أيّة حال، لا أعتقد أنّنا سنكون مقطوعين من كافة الاتصالات، وباستطاعتنا أن نتصل بأحد ما، يكون على علم بما يجري».

أضاف الأدميرَل أكستروم إلى ذلك قائلاً، «سيعتمد الأمر على الصورة الكاملة. ما حصل حتى تلك اللحظة؟ هل أنّنا على استعداد؟ هل لدينا وقود كاف... إلخ؟

بعد مرور ساعة، طرحت سؤالاً آخر على ضابط السيطرة على السلاح النووي في مقرّ الأدميرَل كِفِت. لقد أخبرني هذا الضابط سابقاً أنّ الأدميرَل دي فِلت قد فوّض نفس الصلاحيات، التي استلمها من الرئيس أيزنهاور إلى الأدميرَل كِفِت. أخبرني أنّ تفويض أيزنهاور كان مكتوباً وقد ترك للأدميرَل دي فِلت قرار المبادرة باستخدام السلاح النووي في حالة انقطاع الاتصالات بين واشنطن ومقرّ الأدميرَل المذكور.

إذا كانوا جميعاً على صواب بصدد رسالة الرئيس، فإنّ هذا التوجيه بنقل التفويض إلى القادة ذوي المناصب الأدنى، مخالف وحلّ محلّ التوجيه السري. كنت اطلعت على هذا التوجيه في خطط

الحرب، بما فيها خطط الضرورات الطارئة العامة الخاصّة بقيادة حوض الپَسَفِك GEOP، عن الحرب النووية الشاملة، وكيف أنّ الهجوم النووي الأمريكي يجب أن يكون بمبادرة تعتمد فقط على قرار الرئيس في وقت الهجوم. لقد اعتقد الرأي العام بذلك أيضاً. وأكثر من ذلك، فإنّ الرئيس لن يفوّض إطلاقاً سلطته على الأسلحة النووية تحت أيّ ظرف. ولمرة واحدة تناسب ما أخبِر به الرأي العام مع التوجيهات الحقيقية السرية المدونة ضمن الخطط الحربية لهيئة الأركان العامة. ولكن إذا كان هؤلاء الضباط صادقين بما أخبروني به، فإنّ التفويض الرئاسي المكتوب يتناقض مع توجيه هيئة الأركان العامة في خططها الحربية. وعليه فإنّ التفويض الثانوي الصادر عن القائد الأعلى لقوات حوض الپَسَفِك CINCPAC يتناقض هو الآخر مع التوجيه المذكور. الأمر ليس حفنة من الجنرالات والأدميرَالات، ممّن يحملون أربع نجوم، قد شعروا أنّ بإمكانهم المبادرة بعمليات نووية. السؤال هو، كم عدد الضباط الآخرين الذين حصلوا على هذا التخويل الثانوي؟

ما زلت غير متأكّد من أنّ الرسالة المزعومة من الرئيس أيزنهاور موجودة فعلاً. لم يعرضها عليّ أحد، ولم أقابل من ادّعى أنّه شاهدها أو اطلع على مضمونها. غير أنّ التأكيدات، التي تلقيتها من ضابط السيطرة النووية في الأسطول السابع، هي أنّ قائد عمليات حوض الپَسَفِك قد سوّغ لنفسه تلك السلطة وأعطاها بدوره إلى قائد الأسطول السابع، وربّما قادة آخرين. كلّ هذه تعني بالنسبة لي اعتقاداً أنّ أيزنهاور نفسه وبشكل رسمي قد خوّل قائد عمليات حوص الپَسَفِك تلك السلطة، وأنّ لذلك عواقب، سواء أكان ذلك الاعتقاد صحيحاً أم لا.

كان الأمر واضحاً من طريقة كلام ضباط السيطرة النووية حول هذا الموضوع وهم يخبرونني بتلك الأسرار الحساسة. أمسكت نفسي عن الاستفسار عمّا إذا كان التفويض قد أعطيَ لضباط في رتبة أدنى في سلم المسؤولية. في ضوء الفهم العسكري الواسع والثابت والمؤكد بشكل جلي في الخطط الحربية السرية، فإنّ السلطة للمبادرة بشنّ حرب نووية محصورة فقط بشخص الرئيس، وأنّ أيّ تفويض لهذه السلطة سيكون مثار تساؤل وحتى كونه غير قانوني بشكل خطير لدى من يستلمونه، إذا لم يطلعوا على الرأي السري بأنّ الرئيس نفسه قد اختار أن يفوّض سلطته للقادة في مسرح العمليات. وحتى في ضوء هذا الاعتقاد، الذي وجدته سائداً في منطقة الپَسَفِك، كان واضحاً أنّ نفس الحوافز التي أثرت على الرئيس، هي التي دفعت إلى منح تفويضات ثانوية للقادة الأدنى رتبة.

لكلّ مستوى من مستويات القيادة أسباب للقلق من أنّه خلال الأزمات المصحوبة بانقطاع الاتصالات، لأسباب جوية أو صعوبات فنية أو هجوم مباغت للعدو على مراكز القيادة، فإنّ ذلك قد يشلّ القدرات النووية للوحدات التابعة، ما لم تكن تلك الوحدات قد استلمت تخويلاً مسبقاً يؤمن لها

العمل بموجبه في مثل تلك الظروف: وكما اتضح من أقوال القادة، الذين قابلتهم، فإنّ قيادة عمليات حوض الپَسَفِك قد تسلمت هذا التفويض الرئاسي. في الحقيقة، أنّ قائد عمليات حوض الپَسَفِك سيستنتج منطقياً أنّه ليس باستطاعته تنفيذ نوايا الرئيس فيما يتعلق بالنشاطات في مسرح العمليات النووية، إذا تعرّضت واشنطن للهجوم وانقطعت الاتصالات معها، ما لم تتوفر له بشكل واضح إمكانية تعرض مركز قيادته للهجوم أو أنّ سبل اتصالاته بالقادة والقواعد التابعة له قد أصبحت مقطوعة.

إنّه يستطيع أن يتحرك فقط بنفس طريقة الرئيس أيزنهاور: بعبارة أخرى أن يسمح للقادة الأدنى رتبة منه أن يعتمدوا على أحكامهم وتقييماتهم للظروف. وعلى أيّة حال، فإنّ أدميرَلين قد رأيا أنّ مثل هذا التفويض ليس فقط متوافقاً بل مطلوباً وفق تقاليد العمل في سلاح البحرية. ولكن في هذا الموقف، فإنّ المنطق الذي ينسحب على سلاح البحرية وقيادة عمليات حوض الپَسَفِك ينطبق أيضاً على القيادة المشتركة والخاصة، التي فوّضها الرئيس سلطته. وهؤلاء هم قادة عديدون في مسرح العمليات في أوروپا وألاسكا والبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي والقيادة الجوية الستراتيجية، إضافة إلى قيادة منظومة الدفاع الجوي.

ما لم يمنع الرئيس مثل هذا التخويل بشكل واضح، وربّما حتى لو فعل ذلك، فإنّ مثل تخويله لقيادة عمليات حوض الپَسَفِك وقيادة مسرح العمليات الأخرى، يبدو محدوداً، ليس في الپَسَفِك ولكن في المواقع الأخرى حول العالم. لقد كان واضحاً وفق ما أخبرني أولئك الضباط أنّ الرئيس لم يمنع بشكل جلي قادة مسرح العمليات أن يخولوا سلطاتهم إلى أيّ مستوى آخر، بنفس الطريقة التي خوّلت بها قيادة عمليات حوض الپَسَفِك بشكل ثانوي قيادة الأسطول السابع.

ومع ذلك، فإنّي أجد من الصعب أنّ الرئيس قد رغب أن ينتقل تفويضه إلى قيادات أدنى، أو أنّه على علم بما جرى بصدد هذا التخويل، على افتراض أنّ تلك الرسائل موجودة ووزّعت السلطة على عدد من الجنرالات والأدميرَلات من ذوي الأربع نجوم. إنّ زيادة التخويل ستضاعف عدد الأشخاص الذين يتمتعون بالسلطة تحت ظروف معينة لكي يبادروا بشنّ حرب نووية، وستتسع الدائرة لتشمل ضباطاً من الرتب الأدنى، ممّن هم أقلّ خبرة وأقلّ نضوجاً وذوي مسؤوليات ضيقة ولهم اطلاع محدود على المعلومات العسكرية.

وفي نقطة ما ونحن نتحرك نزولاً إلى أسفل سلم القيادة، فإنّ المنافع المتأتية من الضربة الانتقامية، ستصبح غير ذات قيمة، كما يبدو لي، بسبب زيادة المجازفة بالردّ الخاطئ. لا تكون هذه المخاطر على درجة أكبر حين تقوم الوحدات الأصغر والقيادة الأدنى في إشراك نفسها، ولكن من وجهة نظر الرئيس تصبح حاجته إلى توسيع تخويله أقلّ مساحة وتعتمد على نسبة صغيرة من القوة

الضاربة المعهود بها القيام بضربات انتقامية.

ولكن بالنسبة إلى قائد برتبة أدنى، فإنّه يرى أنّ مهمته تصبح هامة لو شملت أيّ سلاح نووي. ومن المؤكّد أنّه سيرغب في كون «سلاحه» مساهماً في حرب أكبر تضمن بقاء الأمة وتحقق لها النصر. ولو تُرك الأمر بالتخويل ينتقل إلى الجهاز الأدنى في السلم القيادي، فلديّ شكّ أنّ الأمر سيتجه نحو الهاوية. بدا لي أنّ قائد أيّ سرب، في الحقيقة أيّ طيار قد زوّدت طائرته بسلاح نووي، سيشعر أنّه مخوّل تحت ظروف معينة أن يشعل حرباً نووية مع المعسكر الشيوعي. ولربّما سيكون هذا الشخص قد مُنح تلك السلطة شفوياً أو كتابياً من قِبَلِ من هو أعلى منه مباشرة، بعلم أو بدون علم القيادة العليا.

تقبلت وفق عذر «اللابُدّ منه» فكرة أيزنهاور بتخويل سلطته لتنفيذ الخطط الحربية إلى حفنة من الجنرالات والأدميرَلات من ذوي الأربع نجوم من العاملين خارج واشنطن. لكنّه تولد لدي شعور مزعج حول تخويل السلطة لمستويات أدنى من القيادة حتى تصل إلى دائرة واسعة ممّن يشعرون بهذا التخويل لشن حرب نووية، ناهيك عن إمكانية عمل ذلك بدون تخويل على يد فريق من المشرفين على أجهزة الإنذار النووي المبكر سواء أكانوا في الجو أم في الغوّاصات.

لقد توقعت في خلدي حين قررت القيام برحلة بحثي الاستقصائي إلى كُنسان أن أجد ما يثير في نفسي الانزعاج. وجدت ذلك حين عبّر لي قائد القاعدة المتقدمة عن استعداده لمخالفة الأوامر بشكل واعٍ. وقد بدا ذلك بالنسبة لي مشابهاً لرخاوة السيطرة على السلاح النووي في حوض الپِسَفِك، أكثر ممّا اعتقدت أنّه ممكن. لم أكن على علم بمدى اتساع ممارسات التخويل.

الأكثر من ذلك، ظهر لي أنّ الترتيبات حول منح السلطة للشروع بالهجمات النووية تحت الظروف الطارئة على مستوى القيادات الأدنى من واشنطن، ربّما سيمكن انتهازها من قبل مستوى مماثل غير مصرح له مثل ضابط متمرد أو شاذ أو ربّما أحد أتباعه، في حالة عدم وجود طوارئ. ظهر مثل هذا الاحتمال في قصة فلم Dr. Strangelove، الذي أشرت إليه في الفصل السابق.

لكنّ الذي بدا أكثر احتمالاً هو أنّ شخصاً أو أكثر من شخص قد يُصاب بلوثة عقلية أو أنّ قائداً متحمّساً شديد الإخلاص قد يتولد لديه سبب يجعله يعتقد أنّه مخوّل ويشعل حرباً نووية في ظلّ ظروف ليست متكررة الحدوث: ربّما على أساس إنذارات تكتيكية كاذبة أو مبهمة خلال فترة انقطاع الاتصالات بالقيادة العليا. الأكثر من ذلك، نتيجة دلالات عن هجوم متوقع على قواته، وهو الأمر الذي سيضع على عاتقه عبئاً ثقيلاً يدفعه لاتخاذ الخطوات اللازمة لحماية قواته من التدمير، إضافة إلى

قيامه بهجوم استباقي ضدّ العدو لتقليل حجم الخسائر بين قوات الولايات المتحدة ومواطنيها.

شعرت أنّ هذا التخويل الثانوي وضع يجب أن يطلع عليه رئيس البلاد. تولد لدي شكّ أنّه لا يعرف بالأمر. لم أستطع إدراك أنّه رغب أو سمح أو خوّل سلطته لبدء الحرب العالمية الثالثة بهذا الشكل الموسّع. إذا كان الأمر كذلك، فإنّه لدى إبلاغه بذلك سيعيد النظر بالتخويل الأصلي لقادة مسرح العمليات. ونظراً لأنّ ذلك يبدو غير متناسب مع عملية الردع أو الضربة الحاسمة لمراكز قادة العدو، لا بُدّ له أن يتحمّل عناء مطالبة قادته بعدم التوسع في التخويل، الذي منحهم إيّاه للبدء بشن حرب نووية واتخاذ الخطوات العملية الجادة لمنع أيّ عمل غير مصرّح به.

لم أكن عام 1960 على علم بما يمكنني القيام به حول هذه المشكلة. كيف أثير هذا السؤال وعلى من أطرحه وعبر أيّة قنوات. لن ينفع في شيء إذا كان الردّ على استفساراتي وتوصياتي سيخلق «الذعر» لكلّ من أسرّ لي بتلك المعلومات الحساسة، وربّما يكون ذلك مصحوباً بمحاولات معرفة مَن أخبرني بها وإخضاعهم للعقوبات. نظراً لأنّي كنت أعمل مع قيادة عمليات حوض الپَسَفِك، وبالذات حول التحكم بالعمليات النووية والسيطرة عليها، فإنّ الضباط الذين تحدثوا معي سيقولون دفاعاً عن أنفسهم أنّني طلبت معلومات لأغراض الدراسة الرسمية فزودوني بها «لأنّني كنت بحاجة إليها». لكنّه من الصعب عليّ أن أدافع عن أيّ شخص خارج قيادة حوض الپَسَفِك، ما لم يكن في مركز أعلى. مَن في واشنطن يستطيع أن يحقق في الموضوع وربّما يغير الموقف؟

من الواضح أنّني لا أستطيع إبلاغ رسالتي للرئيس لأنّني ما كنت في تلك الفترة أعمل مع أيّ أحد في البيت الأبيض متخصص في هذه القضايا، ولا حتى في مؤسسة راند. كان من الصعب أن أصل إلى المسؤولين المقربين إلى الرئيس دون الكشف عن هذه القضية، التي تتطلب انتباهاً عاجلاً. هل هو وزير الدفاع؟ نفس المشكلة. ولكن أن أكشف القضية لأيّ شخص لا يعرف عنها أيّ شيء، معناه أن أضع نفسي عرضة لاتهامات قوية بالطيش وخرق قويّ لمتطلبات الأمن. وسيؤدي هذا بسرعة للإطاحة بي وربّما بمؤسسة راند أيضاً. ولن تكون هناك فرصة لمعالجة هذا الموقف أو سواه من المواقف الأخرى.

ما كنت واثقاً بما يجب أن أقوم به، لكنّني كنت مصمّماً على إيجاد طريقة ما لجلب انتباه الرئيس لهذه القضية.

الفصل الرابع
قاعدة إيواكوني

الأسلحة النووية غير المعلن عنها

وجدت خلال عملي في البحث الخاص بقيادة حوض البِسَفِك قضية أخرى، تتعلق بمتطلبات السلامة وحتى الحلفاء وحقوقهم بشأن قواعدنا العسكرية في الخارج. توجب هذه القضية التحرك السريع وتمثل هذه الحالة خلافاً مع القيادة العليا شملت تغطيته والتكتم عليه بدعوى السرية. وصل الأمر حدّ مخالفة نصوص اتفاقاتنا مع أولئك الحلفاء. وهذا نموذج آخر من نماذج المفاجأة الخطيرة والتراخي في السيطرة على السلاح النووي في حوض البِسَفِك.

يوجد لدينا عدد من القواعد المسماة PACOM's Geop في اليابان، مخصصة لإطلاق الأسلحة النووية في حالة قيام حرب شاملة. غير أنّ الاستعمال الأمريكي لهذه القواعد يتضارب مع سياسة اليابان المركزية، التي تشجب وتمنع تطوير أو امتلاك أو استخدام أيّ سلاح نووي على الأرض اليابانية. السبب هو لأنّ مأساة هِروشِما قد خلقت لدى اليابانيين «حساسية» ضدّ الأسلحة النووية، حسب رأي المخططين الأمريكيين. من الشروط الرئيسية التي أفصحت عنها **معاهدة الأمن المشترك** مع الولايات المتحدة عام 1960، هو الاتفاق الواضح على عدم وضع أيّ سلاح نووي في اليابان. سيكلفنا إلغاء هذه المعاهدة خسائر حليف رئيسي في آسيا ويلحق ضرراً بأهميّة قواعدنا الستراتيجية في الشرق.

من الناحية العملية، تتصرف الولايات المتحدة وكأنّه يوجد استثناء في نصوص تلك الاتفاقية. قيل لي إنّ هذا الاستثناء معروف لدى المسؤولين الكبار في اليابان، ولكن لم يُصرّح به من قبل الطرفين. تصل السفن الحربية إلى موانئ اليابان في زيارات متكررة لأغراض الصيانة والاستجمام R&R. وهذه الزيارات هامة للغاية للمحافظة على الروح المعنوية لرجال البحرية في المحيط الهادي

وتشجعهم على تمديد عقودهم للخدمة في سلاح البحرية من جهة، وتضمن المحافظة على إدامة السفن التي يعملون عليها من جهة أخرى. وهذا لا يتوقف على حاملات الطائرات المزودة بالقنابل النووية. حسب شهادة الأدميرَل يوجين لاروك، فإنّ كافة سفن البحرية التي تحمل أنواعاً مختلفة من الأسلحة الذرية، بما فيها المدمرات وسفن الطوربيدات النووية والصواريخ المضادة للغواصات، تدخل تلك الموانئ على الدوام. ولا يُطلب منها أن تفرغ حمولاتها من تلك الأسلحة قبل رسوّها في الموانئ اليابانية.

لوزارة الدفاع الأمريكية سياسة كانت ولا تزال سارية المفعول، وهي تقوم على عدم الاعتراف أو الإنكار بوجود أسلحة نووية على ظهر أيّة سفينة أو غواصة ترسو في أيّة قاعدة حول العالم. الغرض الرئيسي من هذه السياسة هو تحاشي الكذب بشكل واضح أو الاعتراف بوجود أسلحة نووية على ظهر أيّة سفينة أو غواصة ترسو في أحد الموانئ اليابانية. وكلما اشتدت المعارضة السياسية في اليابان أو ارتفع ضجيج أسئلة الناشطين المعارضين للأسلحة النووية، يُطرح مثل هذا السؤال على المسؤولين الكبار في اليابان فيقولون زوراً إنّهم على ثقة بعدم وجود أسلحة نووية على ظهر السفن الأمريكية الزائرة. فهم لم يُبلغوا رسمياً من قبل الولايات المتحدة، أو لم يتلقوا أيّة استشارة سابقة بموجب اتفاقية الأمن المشار إليها.

باستطاعة الولايات المتحدة تبرير فشلها في إشعار الجانب الياباني بحجة أنّ المسؤولين اليابانيين لم يرغبوا بأن يتمّ إشعارهم، وهو الأمر الذي يجعلهم يستمرون في إعطاء هذا الجواب، بدون أن يبدو ذلك كذباً مفضوحاً. ولو ظهرت الحقيقة في يوم من الأيام، فباستطاعة الولايات المتحدة أن تقول أنّ فهمها لنصوص الاتفاقية لا يتطلب منها إشعار اليابانيين عن وجود تلك الأسلحة أو «عدم وجودها» وأنّها ليست موجودة على الأرض اليابانية، وإنّما في طريق المرور إلى أماكن أخرى بعد انتهاء الزيارات المؤقتة لسفنها.

لكنّ ذلك لا ينفي وجود تلك الأسلحة في الموانئ لأيام وأحياناً لأسابيع حسب جدول تحرّك تلك السفن، وأنّه في أيّ وقت معين توجد في العادة سفينة أو أكثر من سفينة راسية في الموانئ اليابانية. وهذا يعني أنّ مدن اليابان الساحلية ستصبح أهدافاً مشروعة أولية لمخططي الحرب النووية السوفيات، كما لو أنّ تلك الأسلحة قد نُصبت فعلاً في قواعد عسكرية في تلك المدن بشكل دائم. ونظراً لأنّ تلك الأسلحة موجودة على ظهر السفن، فهناك فرص تصادم أو حدوث طارئ أو حريق سيؤدي إلى انفجارات عالية شديدة القوة لتلك الأسلحة وما ينجم عنها من إطلاق إشعاعات ومواد نووية في أجواء تلك المدن وحولها، وكأنّ تلك الأسلحة موجودة فعلاً على البرّ الياباني.

كما أنّ هذه الإمكانية محتملة أن تصيب المفاعلات النووية على ظهر السفن والغواصات النووية. في النهاية أمِلت وزارة الدفاع الأمريكية أن تكون قادرة على جلب غواصات پولارِس إلى المياه اليابانية، ولتأتي معها بالمخاطر الإضافية حول الحوادث، التي تشمل الأسلحة النووية. كما يصدق الأمر على القنابل النووية الموجودة على حاملات الطائرات، وغيرها من السفن الحاملة لهذا السلاح. إنّ انفجاراً عادياً عالياً سيقود إلى انفجار نووي جزئي أو كليّ. ولكن حتى وإنْ لم يحصل ذلك، فإنّ انتشار الإشعاعات والمواد النووية في الجو في منطقة مأهولة ستكون طريقة سيئة للغاية لإبلاغ اليابانيين عن وجود أسلحة ذرية في موانئ بلادهم. غير أنّ المخاطرة في مقابل سهولة استخدام موانئ اليابان، تُعتبَر قليلة ولا مانع من المضي فيها.

بغض النظر عن الترتيبات، فإنّه تمّ إبلاغي بشكل مستمرّ أنّنا لم نخالف بنود اتفاقاتنا مع اليابان لحدّ أنّنا نكدّس هذه الأسلحة على السواحل في كافة القواعد الأمريكية الجوية في تلك البلاد. الطائرات في تلك القواعد لديها عدد من الأهداف النووية الكبيرة في منطقة فلادِفُستُك وفي الصين، في حالة قيام حرب شاملة. غير أنّ أسلحة تلك الطائرات يجب أن تجلب من المخازن في أوكيناوا وگوام. يوجد عدد من طائرات KC97 في حالة إنذار في قاعدة أوكيناوا وهي محملة بالأسلحة النووية لنقلها إلى كافة القواعد في اليابان. يُطلق على عملية الإعداد والنقل اسم High Gear. إذا صدر أمر بتنفيذ خطط حربية أو إطلاق أيّ تحذير، ستحلق تلك الطائرات مباشرة متجهة إلى القواعد على الأرض اليابانية.

من حيث المبدأ، يجب علينا أن نحصل على موافقة الحكومة اليابانية قبل أن ننقل تلك الأسلحة إلى البرّ الياباني، أو إطلاقها من القواعد اليابانية. لكنّ خطط التحذير تتطلب طائرات نقل تنطلق من أوكيناوا حين تتلقى التحذير لتهبط في القواعد اليابانية، سواء حصلت الموافقة الرسمية على ذلك أم لا، حتى لحظة الوصول. ليست هناك بنود في اتفاقية الأمن المشترك، تطلب من تلك الطائرات العودة إلى أوكيناوا ومعها قنابلها، إذا كان التحذير كاذباً، أو إذا لم توافق الحكومة اليابانية خلال ساعات السفر التي تتطلبها رحلة الطائرات من أوكيناوا إلى البَرّ الياباني.

وعليه فإنّه إن كان التحذير كاذباً أم صحيحاً، فإنّ النتيجة هي وصول القنابل إلى البَرّ الياباني. وهذا يشكل مخالفة لبنود معاهدة الأمن المشترك. لقد كانت تلك الإمكانية واضحة وتسمح لخططنا السرية بالمضي، رغم عدم إبلاغ اليابانيين بها. إذا أصبحت هذه القضية معروفة لدى الرأي العام الياباني، فلربّما يكون تأثيرها سيئاً، وكأنّنا أقدمنا فعلاً على تنفيذ خططنا. ولكن لا يبدو أنّ اليابانيين سوف يعرفون بتلك الخطط. اعتُبِرت المجازفة أمراً مقبولاً لدينا. وإذا حدث وكان التحذير كاذباً، فإنّ الطائرات ستهبط في القواعد الأمريكية، وسوف لن يكون اليابانيون على علم بتلك المخالفة المؤقتة.

إنّ حساسية هذه الخطط تعود إلى حقيقة أنّ بنود المعاهدة قد أخذت على محمل الجدّ. الجميع يعلم أنّ أيّة مخالفة معروفة لتلك البنود ستقود إلى إلغاء تلك المعاهدة، وربّما إلى سقوط أيّة حكومة يابانية موالية للولايات المتحدة وإحلالها بحكومة قد تغيّر تماماً العلاقة مع الولايات المتحدة والصين. بالتأكيد سيقود ذلك إلى خسارة القواعد الأمريكية في البرّ الياباني وفي جزيرة أوكيناوا.

لو أخذنا بنظر الاعتبار جوانب العلاقة الأخرى، يبدو واضحاً أنّ القوة الجوية لم تتعرض للضغط بسبب تخزين الأسلحة النووية في قواعدها على الأرض اليابانية، والمخاطرة باكتشاف وجودها من قبل الحكومة اليابانية، ممّا يشكل مخالفة لمعاهدة الأمن المشترك. توجد للقوة الجوية أسلحة نووية في أوكيناوا وكوريا. وعليه فإنّ وجود أسلحة قليلة أخرى في اليابان لا يبرر مخاطر خسارة اليابان كحليف.

وعلى أيّة حال، أخبِرت في مطلع عام 1960 بشكل سرّي بالغ للغاية من قبل ضابط مسؤول عن السيطرة النووية في البِسَفِك أنّه توجد قاعدة صغيرة لمشاة البحرية Marine في إيواكوني في اليابان، لها الحق وفق ترتيبات سرية تستطيع بموجبها طائراتها القليلة خلال حرب عامة أن تحصل على الأسلحة النووية بسرعة كي تقوم بمهامها. وفي تناقض مع كافة الطائرات الموجودة في القواعد اليابانية، فإنّ قاعدة مشاة البحرية في إيواكوني الحصول على تلك الأسلحة خلال دقائق، بدلاً من ساعات. وبسبب العلاقة الخاصة بين مشاة البحرية والقوة البحرية، توجد سفينة مسطحة القاع LST مخصصة لنقل الدبابات إلى الساحل. وهي راسية خارج مياه إيواكوني ومحملة بالأسلحة النووية تُنقل إلى الساحل بواسطة عربات برمائية، لتزويد الطائرات القليلة بحمولتها من تلك الأسلحة.

تعمل هذه السفينة LST تحت غطاء باعتبار أنّ مهمتها هي لإدامة الأجهزة الإلكترونية وصيانتها. وهي راسية ليس داخل المياه الإقليمية لليابان، التي تمتد مسافة 3 أميال، بل على بعد مئات الياردات من الساحل وبمستوى مياه المدّ والجزر. وبغض النظر عن المقاييس فإنّها راسية داخل المناطق اليابانية، وبالتالي يصدق نفس الشيء على الأسلحة النووية، التي تحملها.

في حالة الطوارئ النووية، تقوم السفينة بمهمتها البرمائية، سترفع مرساتها وتتحرّك مقتربة من الساحل، وستخفض مقدمتها وكأنّها صدفة بطلينوس Clamshell، فتخرج الجرارات المحملة بالأسلحة النووية وتتحرّك بسرعة نحو اليابسة وتتجه إلى مدرج طائرات مشاة البحرية، التي تكون جاهزة للإقلاع، بعد نقل الأسلحة النووية إليها.

وعليه، فإنّ هذا العدد المحدود من الطائرات سيكون محملاً بالأسلحة النووية ويسبق بفترة ما

بين 6- 10 ساعات بقية مئات الطائرات الأخرى التابعة للقوة الجوية في القواعد اليابانية. لو يتم إعطاء طائرات مشاة البحرية أسبقية في شنّ الهجوم، فإنّ تلك المهمة ستكون ضمن الطائرات الأخرى في العالم، إضافة لتلك التي ستقلع من كوريا كي تلقي حمولتها على الأهداف المطلوبة في روسيا أو الصين. ونظراً لأنّ عددها قليل وأهدافها فرعية، فإنّ تأثيرها سيقتصر على تنبيه القوات الشيوعية حول العالم ببداية حرب شاملة، إذا لم تكن تلك القوات قد شرعت بهجومها فعلاً. ولكن في غالبية الأحوال، فإنّ طائرات مشاة البحرية سيُطلب منها التأني وعدم الانطلاق حتى تنضم إليها طائرات أخرى، كي يكون أثر سلاحها أشد فتكاً وأكثر دقة.

وعلى أيّة حال، فإنّ أثر اكتشاف اليابانيين للوجود الدائم لهذه الأسلحة على أرضهم سيكون ملموساً حقاً. وقد يؤدي إلى إخراج القوات الأمريكية من اليابان. لو عرفت الحكومة اليابانية بالموقف، وبالذات لو عرفت المعارضة به، فإنّ الولايات المتحدة ستخسر كافة قواعدها في اليابان، ولربما يكون هناك تمزّق كامل في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وقد يؤدي ذلك إلى تحرك اليابان باتجاه علاقات ودية مع الصين.

لكلّ هذه الأسباب وكما تمّ إشعاري باعتبار ذلك سرّاً كبيراً يجب ألا يطلع عليه اليابانيون، لكنّه معروف على قدر محدود بين مخططي سلاح الجو وسلاح البحرية للولايات المتحدة. كما أن الترتيبات المشار إليها معروفة بشكل جلي في القاعدة ذاتها وأنّ سفينة LST تجري باستمرار تدريبات حول إيصال الجرارات البرمائية والأسلحة التي تحملها إلى الساحل. وهذا هو الذي كان معروفاً لدى الطيارين والفريق العامل على العربات البرمائية المذكورة وذاك العامل على السفينة ذاتها. كان جزء من تلك النشاطات معروفاً أيضاً لدى الفتيات اليابانيات في المنطقة! في الحقيقة، إنّ المخططين الذين تحدثت معهم حول هذا الأمر، سواء في الأسطول السابع في اليابان والآخرين في هوائي، يميلون إلى الافتراض بأنّ الجواسيس الشيوعيين على علم بحقيقة الأمر وينتظرون الوقت المناسب والفرصة المواتية ليكشفوه علناً.

أثارت دراسات راند حول إمكانيات التخريب انتباهي. ماذا ستكون عليه تلك الطرق؟ لن تكون هناك خدعة لرجال الضفادع الشيوعيين واليابانيين وآخرين غيرهم ليسبحوا باتجاه السفينة سرّاً ويضعوا على جانبها ألغاماً بحرية. إنّ انفجاراً على ظهر السفينة المزعومة بأنّها سفينة لتصليح الأجهزة الإلكترونية وإدامتها، ربّما سيثير سؤالاً لدى عامة الناس حول طبيعة تلك السفينة. وقد يؤدي ذلك إلى إجراء تحقيق رسمي يكشف بسرعة حمولتها من الأسلحة النووية. إذا حالف الحظ المخربين ووضعوا لغماً كبيراً، فقد يؤدي ذلك إلى أكثر من انفجار في واحد أو أكثر من الأسلحة على ظهر

السفينة، وستنتشر الإشعاعات والمواد النووية في منطقة إيواكواني، التي لا تبعد كثيراً عن هِروشِما. لن يكون هناك مجال للقول بأنّ الانفجار قد نُفِذ من قبل عناصر خارجية، على عكس انفجار عرضي لأسلحة أمريكية موجودة داخل السفينة. السبب الحقيقي الذي أدى إلى الانفجار الذي دمّر **السفينة مَين** في مرفأ هَفانا والذي دفع الولايات المتحدة لأن تخوض حرباً منذ أكثر من 100 عام، كان مثار جدل لمدة 75 عاماً.

إنّ وضع هذه الأسلحة في المياه الجرفية لليابان، دون أن تكون لها أيّة فوائد عسكرية ملموسة على الإطلاق، هو واحد من التصرفات غير المسؤولة التي يمكن تصورها. لقد كان هذا هو ما بدا عليه الأمر في نظر المخططين للحرب النووية، ممّن كانوا على اطلاع بتلك الأسرار. لكنّهم لم يدروا ماذا بإمكانهم أن يفعلوا بشأن القضية، لأنّهم افترضوا أنّ ذلك الوضع مقبول لدى قائد عمليات حوض الپَسَفِك، وهو أدميرال في البحرية. هل يعرف أحد من المسؤولين المدنيين والقادة العسكريين الأعلى منصباً من القائد المذكور عن هذا الأمر؟ لم يعرف أولئك الضباط عن الأمر شيئاً، رغم أنّ القضية ذات تأثير على مستقبلهم المهني. هل حاولوا أن يعرفوا أو نبّهوا القيادة العليا دون المرور بالمستوى المتوسط من المسؤولين أو قائد عمليات حوض الپَسَفِك ذاته؟

لربّما ذلك هو السبب، الذي دفع ضابطاً واحداً أن يخبرني بهذا الأمر أصلاً، ولماذا عبّر لي آخرون عن مخاوفهم، باعتباري مستشاراً في مؤسسة راند، أيْ شخصاً غير مرتبط بالمؤسسة بشكل دائم ولست في سلم قيادتها. بإمكاني أن أنبّه أشخاصاً آخرين في وكالات أخرى، دون أن أدفع نفس الثمن المترتب عليهم. باستطاعة هؤلاء أن يبرّروا الأمر لإخباري بسبب وجود تعليمات عامة أنّ بإمكانهم أن يخبروني أيّ شيء لأغراض دراستي.

وكما في حالة موضوع التخويل الثانوي لاستعمال الأسلحة النووية، الذي تعرضت له في الفصل السابق، لم أكن متأكّداً بما يمكنني فعله بالمعلومات، التي حصلت عليها، لأنّه لم تكن لي في ذلك الوقت علاقة بمكتب وزير الدفاع ولا بوزارة الخارجية ولا بالبيت الأبيض. أخبرت فقط المسؤولين الكبار في مؤسسة راند، وأعلِمت حينها أن أبلغ تلك المعلومات إلى جنرال يعمل في خطط القوة الجوية. قال لي رِچَرد گولدِستين، أحد نواب رئيس المؤسسة، إنّ ضباط القوة الجوية اتفقوا معي بشأن خطورة الموقف، ولكن ليس بوسعهم أن يفعلوا شيئاً لأنّ الموضوع يخصّ القوة البحرية. كان هناك وعلى مدى عدة سنوات علاقة تعاون وتحالف بين القوتين بقصد تأكيد الأهمية الستراتيجية للأسلحة النووية. وهذا مبدأ قد أضر بالمخصصات المالية للجيش. كان الموضوع حساساً ويهدّد ذلك التحالف، بأن تثير القوة الجوية أسئلة عن الطريقة التي تتصرف بموجبها القوة البحرية، فيما يتعلق بالأسلحة

النووية، التي بحوزتها.

وكما في حالة التخويل لاستعمال الأسلحة النووية، كان يجب عليّ أن أتحرك بشكل حذر إزاء هذا الموضوع أيضاً.

الفصل الخامس
قيادة عمليات حوض الپَسَفِك

منذ بداية دراستنا في هوائي، حاولت حثّ زملائي الآخرين ليعرفوا أنّنا بحاجة للاطلاع على طبيعة خطط الحرب، التي يبدأ تنفيذها نتيجة للأوامر العليا. جعلوني مسؤولاً عن هذا الجانب من الدراسة. ونتيجة لذلك طلبت وتمت الموافقة على أن يُفتح المجال أمامي للاطلاع على «صندوق» الأسرار الكبرى في كافة مواقع قيادة عمليات حوض الپَسَفِك. وهذا الصندوق موجود في العادة داخل «قفص» تحيط به شبكة من الأسلاك الشائكة ويقوم على إدارته ضابط وشخص آخر، هو في الواقع أمين مكتبة. توجد داخل هذا المبنى المحمي بشبكة الأسلاك الشائكة غرفة صغيرة كغرف المكتبات العامة وبمحاذاة جدرانها رفوف تحتوي على وثائق ونظام متكامل لحفظ الملفات. وبطبيعة الحال، فتح ذلك أمامي شيئاً فريداً بالنسبة لشخص مدني مثلي.

أمضيت الأيام والليالي والأسابيع في ذلك القفص وأنا أتفحص محتويات ذلك الصندوق من الخطط المملة. عرفت بسرعة هيكل خطط الولايات المتحدة للحرب النووية ومشاركة المسؤولين فيها من الأصغر حتى الأكبر رتبة. شملت هذه الخطط ما تفكر به قيادة حوض الپَسَفِك والقواعد في شرق آسيا CINCPAC’s GEOP، التي حدّدت أهدافاً واسعة ومبادئ القدرات النووية للولايات المتحدة في المحيط الهادي. وهي أساس لخطط الجيش والبحرية والقوة الجوية، التي تتشكل بدورها لترسم الخطط لقطعات الأسطول والفرق العسكرية وأسراب الطائرات على ظهور الحاملات، وصولاً إلى الضباط الطيارين في مختلف فروع القيادة.

قرأت بتمعن وتركيز تلك الخطط، وقمت فيما بعد بزيارة مراكز القيادة وحاملات الطائرات ومدارج إقلاع الطائرات وهبوطها في كافة قواعد المحيط الهادي بكامله. ظهر أمامي مباشرة إغفال مذهل. لقد افترضت قبل أن أطرح أيّ سؤال، أنّنا في أوج تخطيطنا للمواجهة النووية واستعدادنا للصدام أن يقتصر ذلك على خصم واحد هو الاتحاد السوفياتي: قد يقوم ذلك مثلاً إذا حاول ذلك الخصم

قطع الاتصال ببرلين الغربية أو شنّ هجوماً في أوروبا أو على الولايات المتحدة. غير أنّني اكتشفت لدى اطلاعي على خططنا من الأسفل حتى القمة، أنّه لا توجد أحكام إطلاقاً لمهاجمة الأهداف الروسية فقط. كافة خطط الحرب مع الاتحاد السوفياتي تشمل ضرب أهداف صينية، بما فيها المدن الرئيسية.

تبلورت لدي فكرة من خلال أحاديثي مع مخططي الحرب النووية في منطقة حوض الپَسَفِك أنّهم يفترضون وجود حوافز لديهم أنّه تحت ظروف أيّ اشتباك مع السوفيات، أنّنا نودّ أيضاً أن نفني شركائهم الشيوعيين في الصين. وبسبب حدود النطاق، فإنّ كافة الأهداف السوفياتية التي تستطيع قيادة حوض الپَسَفِك الوصول إليها تقع في منطقتي فلادِفُستُك وسايبريا. وبناء عليه، فإنّه إذا أعطى الرئيس أمراً لمهاجمة الأهداف السوفياتية، فإنّ قوات المحيط الأطلسي وبعد أن تدمّر مدينة فلادِفُستُك وأهداف أخرى أقلّ أهمية في شرق روسيا، ليس أمامها أيّ خيار سوى أن تجلس على جانب الخط وتراقب ما يجري، كما تصوّرتْ أن تفعل خلال مناوراتها الكبرى.

إنّ مثل هذه الفكرة أعلاه لا يطيقها ولا يستسيغها الضباط في حوض الپَسَفِك على مستوى القيادة العليا، وقد أكّدوا ذلك أمام كافة أعضاء الفريق، الذي يعدّ الدراسة في عصر يوم قرّرنا فيه زيارة الأسطول السابع والطراد سَينت پَول، اللذين كانا يشقان مياه غرب المحيط الهادي. بعد أن حطّت الطائرة المروحية القادمة من حاملة الطائرات عقدنا لقاء مع نائبي الإدميرَل كِنِت، قائد الأسطول السابع وأكستروم، قائد القوة البحرية في المحيط المذكور.

أشرت سابقاً إلى تعليقات هذين القائدين حول قضية التخويل في استعمال الأسلحة النووية. كان أقوى ردّ سمعناه خلال لقائنا معهما، الذي امتدّ على مدى ساعتين، حين أشرت إلى إمكانية تلقي قرار للرئيس للشروع بحرب نووية ضدّ الاتحاد السوفياتي فقط، وليس الصين. أظهر هذا الضابطان صدمة حقيقية، إذ قال الأدميرَل كِفِت، «آمل ألّا يأتي مثل هذا القرار».

أعدت سؤالي بصيغة أخرى قائلاً، «لو افترضنا أنّ أمراً قد جاء من قيادة أركان القوات المشتركة بتنفيذ خطط لحرب نووية ضدّ الاتحاد السوفياتي فقط. قلت، «كيف ستستجيبون لهذا الأمر، وكم هو الوقت المطلوب لتنفيذه؟»».

أطبق صمت طويل بدا فيه الأدميرَل أكستروم، وكأنّه يقاوم نزعة للاستفراغ. ثمّ قال معبّراً عن رأيه في عدة عبارات متلاحقة وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وكأنّه مبهور للغاية. ردّد تلك العبارات وهو يشعر بألم قوي، «يجب أن... نفترض... القليل... من العقلانية... لدى الجهات العليا... إنّهم سوف لن يفعلوا شيئاً... بالغ الجنون... للشروع بالحرب.... ضدّ قوة شيوعية... في حين تُترك القوى الشيوعية

الأخرى... سالمة تسرح وتمرح على هواها».

قرّرت في ضوء هذا الردّ الصادر من «الأحشاء»، وقد سجّلت نصّه في دفتر ملاحظاتي بعد انتهاء اللقاء مباشرة، أن أتوقف عن دفع المناقشة بذلك المسار. أصبح واضحاً من المخابرات، التي توفرت لمؤسسة راند فيما بعد أنّ هناك بوادر انشقاق بين القيادتين السوفياتية والصينية بدأ يظهر علناً. تبيّن فيما بعد أنّ هذا الانشقاق بين القيادتين كان نتيجة رفض السوفيات تزويد الصين بأسلحة نووية خلال أزمة مضائق تايوان عام 1958، وهو الأمر الذي ترتب عليه انسحاب خبراء الأسلحة النووية السوفيات من الصين.

اعتقدت أنّني اكتشفت تحيزاً يدلّ على التفكير المحدود لدى قيادة حوض الپَسَفِك، يجب أن يُذكر لجلب انتباه المخططين ومتخذي القرارات على المستوى الوطني. اكتشفت أنّني كنت على خطأ. عرفت في السنة التالية، حين بدأت العمل في الپنتگون، أنّ الرئيس أيزنهاور ورئيس أركان القوات المشتركة كانت لهما نفس أفكار الإدميرَلين تماماً. لم يكن لديهما أيّ قصد، وتحت أيّ ظرف، أن يصدما الأدميرَل كِنِت بإصدار أمر بعدم التعرض للصين حتى ولو مؤقتاً إذا نشبت حرب نووية مع الاتحاد السوفياتي.

في الوقت الذي علمت فيه بذلك الأمر أصبح جلياً في ذهني أنّ رجال السلطات العليا قد أعطوهما مثل تلك الانطباعات. وحتى إن غيّرا رأيهما خلال الأزمة أو رغبا ألّا تشمل العمليات في مراحلها الأولى الصين، سيكون من المستحيل عملياً تنفيذ تلك الأوامر بسرعة في حوض الپَسَفِك. فالأمر صعب التنفيذ على المستويين التقني والبيروقراطي. كان مخططو CINPAC يعملون بشكل مرهق طوال الوقت في كلّ عام لوضع خطة واحدة للحرب النووية ضد الجبهة السوفياتية الصينية، وأنّه ببساطة ليس لهم القدرة على وضع خطط أخرى للحرب ضدّ الاتحاد السوفياتي فقط.

من بين قائمة آلاف الأهداف التي يجب تدميرها في المناطق السوفياتية والصينية، في ضوء معلومات المخابرات بأهميتها، أمر الپنتكون المستوى الثاني من المخططين بتخفيض تلك الأعداد ووضع خطط لاستهداف ما يقرب من 1000 موقعاً فقط، لو نشبت حرب مع الكتلة الشيوعية. واجه أولئك المخططون عائقاً رئيسياً، وهو أنّ العديد من تلك الأهداف متقاربة وأنّ تفجير أحدها يمكن أن يصيب الطائرة الأخرى المتوجهة نحو الهدف التالي، أو يحجب على الأقل رؤية الطيار.

ولغرض تحاشي هذه المشكلة، التي سمّاها المخططون «التشويش» قاموا بوضع حسابات معقدة، أغلبها باليد، لرسم المسارات نحو الأهداف وتوقيت الهجمات كي لا يشوّش انفجار تحدثه

طائرة على قدرات الطائرة الأخرى. يتم إسقاط الرؤوس النووية في أيّة منطقة مستهدفة بواسطة الطائرات بشكل عام. ولكن في العقود التالية، تمّ وضع نظام إيصالها إلى الأهداف باستعمال الصواريخ الموجهة. اكتشف المخططون وجود نفس المشكلة، وهي أنّ انفجار الصاروخ الأول سيؤدي إلى تدمير الصاروخ الثاني قبل وصوله للهدف المنشود. كان عليهم أن يتعاملوا مع آلاف الأهداف وآلاف الأسلحة الموجهة إليها. ومن هنا يتوجب على الطائرات المغيرة أن تجد طريقها وسط حقل الغام من المتفجرات على الأرض. فإذا كان هناك تفجير إلى يمين الطائرة انحرف الطيار إلى اليسار، واذا كان هناك تفجير إلى يسار الطائرة انحرف إلى اليمين، وهكذا.

مفتاح السرّ في عمليات من هذا النوع هو أن يعرف الطيار متى وأين ينطلق أحد الانفجارات. وعليه يجب توقيت ذلك بشكل تامّ اعتماداً على الوقت المطلوب من قبل ملاحي الطائرة لحظة انطلاقهم بعد تسلم الأوامر بالتنفيذ وكم يستغرق الوقت كي تصل الطائرة إلى الارتفاع المطلوب ومن ثم السرعة لتصل إلى أهدافها وتسقط حمولتها هناك. حدّدت الخطط، على سبيل المثال، أنّ الانفجار الأول سيحدث بعد مرور 117 دقيقة و33 ثانية منذ صدور الأوامر، وسيليه الانفجار الثاني بعد مرور دقيقتين و12 ثانية، وهكذا. إذا سار كلّ شيء حسب الخطة المرسومة، فإنّه لن تسقط طائرة بفعل انفجار قنبلة أسقطتها طائرة أخرى، أي تحاشي ما يُسمّى «قتل الأخ».

حين اطلعت على تلك الخطط وناقشتها مع واضعيها، لاحظت على الفور بروز عدة مشاكل فيما يخصّ هذه المحاولات بكاملها. هناك أسباب واضحة ومعقدة ستجعل تلك المحاولات لا تجري وفق ما خُطط لها.

بدأت أولاً بقراءة التقارير عن المناورات في كافة أرجاء المحيط الهادي، فلاحظت أنّ الاختلافات في التوقيت موجودة بين مختلف القواعد، كانت تصل في الغالب إلى ساعات بين إرسال أوامر التنفيذ وإقلاع الطائرات الفعلي من مختلف القواعد ضمن خطة تكون للثواني فيها دور فعّال كي تتحاشى الطائرات الانفجارات التي يحدثها البعض دون إسقاط البعض الآخر. لم تكن المشكلة تتعلق بالملاحين والطيارين الذي هم في حالة إنذار. لقد تدربوا كثيراً على انطلاق طائراتهم من المدارج خلال 10 دقائق منذ استلام أمر التنفيذ. وبطبيعة الحال اختلف الأمر من قاعدة لأخرى.

من المفترض أن تصل أوامر التنفيذ إلى مئات من الطائرات المختلفة على ظهور السفن الحاملة والقواعد في حوض الَبِسَفِك في ذات الوقت، كما تفترض الخطط الموضوعة لذلك. لكنّني قرأت تقارير أعدّت بعد إجراء التدريبات، منذ لحظة صدور الأوامر والوقت الحقيقي حين تلقتها القواعد، فوجدت أنّه اختلف من ساعة إلى ساعتين وحتى أربع ساعات. لم تستلم بعض القواعد تلك

الأوامر إطلاقاً. كانت هناك مشاكل دائمية تتعلق بسوء الأحوال الجوية وعن رسائل أرسلت إلى جهات غير الجهات التي يجب أن تستلمها، أو أخرى تعطل إرسالها من محطة ما لسبب ما.

الأكثر من ذلك، إنّ القدرة على الالتزام بالتوقيت في هذه الخطط تعتمد جدّاً على سرعة هبوب الرياح. إذا كانت الطائرات جميعاً قادمة من نفس الاتجاه فإنّ تأثير الرياح يكون محدوداً، لأنّ ذلك يعني أنّ الرياح تسهل طيرانها جميعاً أو تعيقها جميع بنفس المعدل. ولكن إذا كانت الطائرات أقلعت من قواعد مختلفة لتضرب أهدافاً في منطقة واحدة، فإنّ ذلك يحدث اختلافاً لا بُدّ منه في توقيت القصف. عادة ما تقترب الطائرات من أهدافها بزاوية قدرها 90 درجة إلى 180 درجة. ولذلك فإنّ ما تفعله الرياح يؤثر على الطائرات المغيرة القادمة من اتجاهات متنوعة، تُسرع بعضها وتبطأ البعض الآخر.

كيف يتعامل واضعو خطط الهجوم مع حقيقة عدم معرفة اتجاه الرياح وسرعتها على المسارات التي تتخذها الطائرات وهي في طريقها لضرب أهدافها في الوقت الحقيقي منذ تلقي أوامر الهجوم؟ من المستحيل تدبير الترتيبات لتتوافق مع التغيّرات في اتجاهات الرياح وسرعة هبوبها وشدّتها. ولذلك فإنّهم ينظرون للأمر وكأن الرياح لا أثر لها. إنّهم ببساطة يفترضون عدم وجود الرياح. وهذا يجعل خططهم غير ذات قيمة في موضوع تحاشي قضية التشويش، التي أشرنا إليها.

أثرت هاتين القضيتين أمام أحد المخططين مرّة فقال:

- «نعم، لقد فكرت بهذه المشاكل من قبل».

- «حسناً! ألا يثير ذلك في ذهنك سؤالاً عن قيمة كافة هذه التقديرات والخطط؟».

- «إنّ هؤلاء الرجال يخاطرون بحياتهم وهم يطيرون نحو الأهداف المرسومة. يجب أن نعمل ما بوسعنا لكي نحميهم».

- «ولكن لا يبدو أنّ لهذه الخطط فرصة لإنقاذ حياة أيّ شخص إطلاقاً. إنّها تنقذ الحياة فقط إذا كان التنفيذ يتبع الخطة لحظة بلحظة، ولا توجد هناك أيّة إمكانية، ولو بعيدة لحدوث ذلك».

- «حسناً! لقد أمرونا أن نجري تلك الحسابات، وهذا ما نقوم به».

إنّ تعقد عملية الحسابات المطلوبة في هذه الجهود الوهمية تعني أنّ المخططين لا يستطيعون وضع خطط بديلة. يتطلب الأمر منهم عاماً كاملاً لينجزوا خطة واحدة معدلة. وفي الوقت الذي يتظاهرون فيه بالحاجة إلى المرونة، فإنّهم في واقع الحال يقاومون فكرة وضع أكثر من خطة، والاكتفاء بخطتهم التي تشمل أهدافاً في الصين وروسيا. إنّ مجرد التفكير بتقليص قائمة أهدافهم ليس أمراً مرغوباً فيه، دعك عن حذف بلد وشعب منها. ترسل مثل هذه الأفكار رجّات كهربائية في الأعمدة الفقرية لهؤلاء، كلما أثرت الموضوع أمامهم!

إنّ العديد من مراكز العمليات والخطط والقيادة الميدانية في أوكيناوا وفرموزا وگوام وطوكيو، إضافة إلى عدد من حاملات الطائرات وطرادات قيادة الأساطيل في حوض الپَسَفِك، التي زرتها، توجد في كلّ منها خارطة كبيرة تظهر المناطق التي يتم استهدافها بالأسلحة النووية. وهي أهم خرائطهم السرية، التي يغطونها في العادة حين يتواجد أشخاص آخرون ممّن لا يمتلكون التفويض السري. لا تظهر تلك الخرائط حدوداً بين الصين وروسيا. تبدو الكتلة السوفياتية الصينية وكأنها قطعة عملاقة من الأرض مغطاة بالسهام والدبابيس، التي تشير إلى مختلف الواقع. لا يمكن للمرء أن يعرف ببساطة إن كانت الدبابيس تشير إلى مناطق في الصين أم في روسيا. في بعض الخرائط يوجد خيط ملون مثبّت بالدبابيس يشير إلى الحدود بين البلدين.

وهذا يعني أنّ مخطِطاً على المستوى العالي في تلك المنطقة قد تلقى أوامر بضرب أهداف في بلد دون البلد الآخر، ولم يستطع التمييز بين الأهداف المطلوب تدميرها. في الحقيقة علمت أنّ عمل ذلك سيتطلب جهداً كبيراً. فمثلاً تشير برامج الكومپيوتر إلى أرقام الطائرات التي رُسمت لها المسارات للتوجّه نحو الأهداف. ولكن لم تفصح تلك البرامج عن اسم البلد الذي ستتّجه إليه تلك الطائرات. ويتطلب الأمر كذلك الإحداثيات coordinates لكلّ طائرة كي تصيب أهدافها، ويستغرق ليس دقائق ولا ساعات، بل أياماً وأسابيع.

الأكثر من ذلك، فإنّ مدارج الإقلاع والهبوط، التي زرتها في گوام وأوكيناوا وكوريا وعلى ظهور الحاملات وجدت الطائرات مصفوفة في حالة إنذار على المدرجات مستعدة للإقلاع خلال 10 دقائق. شاهدت طائرة تحمل قنبلة من نوع 1.1 ميگاتن مثبتة تحت هيكلها ومعدّة للإسقاط على فلادِفُستُك، وكانت تقف إلى جانبها طائرة أخرى مستعدة للإقلاع والتوجه نحو أهدافها في البلدين المذكورين. يتدرّب الطيارون والملاحون على عمليات تتطلب تنسيقاً وتوقيتاً معقدين للحظات الانطلاق حسب التسلسل المرسوم لها، وليست هذه تدريبات روتينية لضرب أهداف في الصين فقط أو في روسيا فقط.

في الحقيقة، إنّ الطيارين أنفسهم لا يعرفون البلد الذي سيتوجهون إليه لتدميره. يعدّ فريق من المتخصصين قوائم الأهداف باستعمال نظام كومبيوتر IBM، ولا تحدد القوائم أهدافاً في الصين أو في روسيا، بل تعطي إحداثيات لكلّ طائرة مغيرة. وعليه لا يمكن بأيّة طريقة معرفة الأمر بسهولة، فتوجّه الطائرات مثلاً رقم 5 و7 و11 لضرب أهداف في روسيا فتنطلق هذه في تسلسل نحو أهدافها.

تتداخل كافة هذه العوامل لتخلق موقفاً، أنّه لو كان فعلاً وتعرضنا لهجوم، يكون من المستحيل أن نردّ بهجوم انتقامي ضدّ روسيا فقط أو الصين فقط، حتى وإن أمر الرئيس قواته لفعل ذلك.

إذا أراد المسؤولون الكبار استهداف روسيا فقط، فإنّه يتوجّب عليهم من الناحية العملية أن لا يشركوا قوّات حوض الپَسَفِك بكاملها، لأنّ عدداً قليلاً من قواعد ذلك الحوض تركز على الصين. ولكنّهم قد يفعلون ذلك فقط لو طرأ ببالهم أنّه ربّما قد تكون هناك مشكلة. لم أجد أحداً في واشنطن ممّن لديه أيّة فكرة أنّه توجد مشاكل من هذا القبيل. وقدر معرفتي، فإنّه لا أحد له علم بما يجري. يوجد القليل من الأشخاص، الذين يمكنهم الاطلاع على المستويات الأدنى من التخطيط النووي. وهؤلاء الذين يعرفون شيئاً معيناً لم يصرفوا الوقت المطلوب لمراجعة الخطط على المستوى الأدنى، أو ملاحظة التطبيقات الحقيقية وأحكامها في الميدان. تركوا تلك المهام للقادة الأقلّ رتبة منهم. وهؤلاء بطبيعة الحال، ليس لديهم علم بمستوى التخطيطات العليا.

ولكن وكما كنت أتعلم، السبب الرئيسي لعدم مواجهة مثل هذه الأمور راجع لاعتبارها مشاكل ممكنة لكنّها لا تحدث، كما تخيّلت أنا نفسي حول خصوصيات قادة حوض الپَسَفِك أو مواقعهم الجغرافية على خارطة العمليات. لقد جاءت تلك الخصوصيات من القادة الأعلى. وكلما ازدادت مشاهدتي لمستوى التخطيط العالي في الپنتگون، وهو أمر لا يوجد في قيادة حوض الپَسَفِك، ولا يجب أن يطلع عليه أيّ مسؤول مدني. ولكن ومن خلال قناعاتي، لا الرئيس ولا قيادة أركان القوات المسلحة أقلّ ميلاً من قيادة حوض الپَسَفِك للتفكير باشتباك نووي مع روسيا فقط، لا يتوسّع ليشمل الصين أيضاً.

الفصل السادس
خطة الحرب

قراءة في خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JCSP

أجريت بحكم مجريات مهمتي في اليَسَفِك عدة نقاشات مع الدكتورة روث دَيفِز، المسؤولة عن تطوير برامج الكومبيوتر الخاصة بقيادة حوض اليَسَفِك. كانت تشغل أعلى وظيفة مدنية وتعمل لصالح القوات المسلحة في كلّ مكان. حين وصفت لها بعض التعقيدات والأمور المذهلة في الخطط، التي اطلعتُ عليها، اقترحتْ بثقة عالية أن أطلع على خطة معينة، إذا كنت أريد فعلاً أن أفهم طبيعة التخطيط الأمريكي للحرب النووية. وهذه هي خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JCSP، التي تقوم عليها خطة قيادة عمليات حوض اليَسَفِك. ذكرتْ أنّ وزير الدفاع والرئيس لم يعرفا طبيعة ولا حقيقة وجود هذه الخطة، التي لم تطلع عليها السلطة المدنية. أكّد لي ذلك أيضاً ضابط يعمل في قسم إعداد خطط القوة الجوية، وهو المقدم بوب لُكمَن، الذي أعطاني نسخة منها للاطلاع، حين بدأت العمل في البِنتگون.

ولغرض معرفة وجود خطة على أعلى المستويات تخصّ الحرب الذرية لا يعرف وزير الدفاع بوجودها، يتعين على المرء أن يعرف شيئاً عن تاريخ العلاقة بين وزير الدفاع والمؤسسة العسكرية خلال السنوات التي سبقت عام 1947. تمّت تسمية المؤسسة العسكرية الوطنية باسم وزارة الدفاع عام 1949، التي دمجت وزارة الحربية (الجيش) مع القوة البحرية والقوة الجوية، التي برزت من الجيش كخدمة مستقلة. ما كان يوجد وقتها وزير للدفاع، ولذلك أخذت مسؤوليات هذا الوزير تتبلور تدريجياً بمرور الوقت خلال العقود التالية. في السنوات التي سبقت عام 1958 كان وزير الدفاع ومعاونوه في المكتب OSD يُنظر إليهم كمجموعة عاملة خارج العمليات العسكرية، وتنصبّ مسؤولياتهم على المشتريات والبحث والنمو والتطوير وقضايا الأفراد والميزانية. وليس لهم دور أو

مسؤولية في قيادة القوات مباشرة أثناء العمليات القتالية أو التخطيط لها.

وعليه فإنّ وزير الدفاع چالز وِلسُن قد يكون أو لا يكون له دور في المناقشات واتخاذ القرارات في الأزمات عالية المستوى، كما حدث في أزمة جزيرة كوموي بين عامي 1954- 1955. تشير التقارير عن تلك الفترة المبكرة أنّ بعض وزراء الدفاع كانوا أحياناً موجودين خلال الأزمات الحرجة أو لم يكن لهم حضور. اعتمد ذلك على شخصية الوزير ذاته وعلاقته بالرئيس. في الفترة التي أعقبت تأسيس وزارة الدفاع كانت لدى هيئة الأركان المشتركة JCS ذريعة للقول أنّ وزير الدفاع ونوابه ليسوا بحاجة لمعرفة الخطط الحربية، لأنّه ليس لهم دور في قيادة العمليات.

وعلى أيّة حال، تمّ عام 1958 إصدار قانون جعل وزير الدفاع ضمن سلسلة القيادة بعد الرئيس مباشرة وكحلقة وصل بينه وبين قادة القوات العسكرية والتابعين لهم. القائد المشترك UC في الأساس هو قائد ميدان العمليات، كما في المحيط الهادي وأوروپا، وتحت إمرته وحدات تؤدي خدمات مختلفة. أمّا القائد الخاصّ SC فهو مثل قائد القوة الجوية الستراتيجية، فتحت إمرته وحدات تؤدي خدمة واحدة فقط. قطع هذا القانون هيئة الأركان المشتركة JCS من تسلسل القيادة، وكان ذلك بناء على رغبة الرئيس أيزنهاور نفسه. لم يكن لديه احترام لهذه الهيئة ككيان، لأنّه خبر العمل معها حين كان قائداً للجيش ومن ثمّ أصبح القائد الأعلى العام للقوات في أوروپا. كان بشكل خاصّ قد أصيب بخيبة أمل جرّاء أداء أعضائها في فترة ما بعد الحرب، ورغب في إلغاء هذه الهيئة بكاملها. لكنّ الكونگرس سارع لإنقاذ الموقف فأدخل على قانون 1958 فقرة تشير إلى أنّه رغم إبعاد هيئة الأركان المشتركة من تسلسل القيادة، ينصبّ عمل الهيئة المذكورة على اعتبارها «هيئة استشارة عسكرية رئيسية» تقدم المشورة للرئيس.

كان نيل ماكلروي وزيراً للدفاع وقت صدور قانون عام 1958. عمل هذا قبل توليه المنصب مديراً تنفيذياً لشركة بروكتر أند گامبل. قيل عنه أنّه رجل ذكي للغاية ولكن تنقصه الخبرة العسكرية تماماً. كان وجوده اليومي في مكتبه قصيراً للغاية، لأنّه كان يعتني بزوجته المريضة. وبناء على ما أخبرني به ضابط في الأركان الجوية، أنّه كان من السهل على أعضاء هيئة الأركان المشتركة أن يتلاعبوا به. فهم الذين دفعوه أن يوقع توجيهاً من وزارة الدفاع لإعادة تفسير قانون 1958. وبموجبه فإنّ تسلسل القيادة يبدأ اعتباراً من الرئيس لكونه قائداً عاماً ويليه وزير الدفاع، ثم القيادة المشتركة والقيادة الخاصة من خلال هيئة الأركان المشتركة. يعني هذا من الناحية العملية أنّ هيئة الأركان المشتركة تكون بشكل ما القناة لتوجيهات الوزير. ثمّ استطاعوا إقناعه أن يفوّضهم كافة مسؤولياته خلال العمليات العسكرية. وهكذا تمّ الالتفاف على القانون وعلى رغبة الرئيس أيزنهاور ونواياه.

ورغم أنّ كافة هذه القرارات مدونة رسمياً، فلم ينتج عنها أيّ تأثير فعلي على المسؤوليات العملياتية بين العامين 1958- 1959.

أعقب وزير الدفاع تومَس گيتز سلفه ماكلروي في إدارة أيزنهاور، وكانت لديه غرائز قوية لممارسة السيطرة. ولكن قدر تعلق الأمر بمكتب وزير الدفاع، الذي يضمّ الوزير وموظفي مكتبه ونائبه والمساعدين الآخرين وموظفيهم، بقيت خطة JSCP سرية تماماً، وسمّاها فيما بعد وزير الدفاع الأسبق دَونلد رامسفيلد «المجهول المجهول»: شيء لا يعرفون أنّهم لا يعرفونه.

في الحقيقة علمت فيما بعد أنّ الخطة المشار إليها قد قُبِلت رسمياً وتمّ إعداد قائمة بالخطوات التي لا تتيح لوزير الدفاع طرح أيّة أسئلة مباشرة عن خطط الحرب الشاملة. الخطوة الأولى هي تسمية المناورات الحربية السنوية لخطة القدرات الستراتيجية المشتركة، بقصد عدم اطلاع الرأي العام على العمليات الجارية أو بالأحرى أهداف الحرب النووية القائمة. يُشار إليها دائماً باسمها المختصر تمويهاً JSCP. لكنّ هيئة الأركان المشتركة JCS قد أعدت تعليمات مكتوبة اطلعت عليها شخصياً وتقول، «خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JSCP، يجب ألّا تظهر في المكاتبات بين هيئة الأركان المشتركة وأيّة وكالة في مكتب وزير الدفاع».

إنّ أيّة مراسلات من قبل أعضاء هيئة الأركان المشتركة تُرسَل إلى وزير الدفاع أو مكتبه، يجب أن تعاد طباعتها لحذف أيّة إشارة إلى خطة JSCP. وإذا كان لا بُدّ من الإشارة إلى تلك الخطة، فيجب ذكر «التخطيط للقدرات» فقط. بمعنى أنّها لا تعترف بوجود الخطة بشكل محدّد أو تقترح أنّها ليست نوعاً من خطط الحرب إطلاقاً. كانت عبارة خطة القدرات الستراتيجية المشتركة كناية لأغراض التغطية، القصد منها خلق حالة من الغموض أمام الوزير، والأكثر أهمية أمام نائبه ومساعديه والموظفين المدنيين العاملين معهم، بأنّه توجد خطة واحدة على مستوى عال، تقوم على أساسها المناورات السنوية استعداداً لحرب شامل أو محدودة، أو أنّه توجد ضوابط وأحكام لكافة خطط عمليات الحرب المحدودة.

كلّ القصد من هذا هو استباق كابوس رأته هيئة الأركان المشتركة قبل غيرها: أي أنّ الوزير والمدنيين العاملين معه قد يرون الاسم المختصر في الوثائق وقد يسألون ما هو المقصود منه، وربّما يطلبون الاطلاع على الخطة. وسيفتح هذا المجال أمام المدنيين العاملين مع الرئيس إمكانية مراجعة الخطة وطلب إضافة التعديلات عليها. وهذه إشارة غامضة إلى «المواضيع المتعلقة بتخطيط الإمكانيات»، التي تصفها تعليمات هيئة الأركان المشتركة، كي لا يُسمح لأيّ مسؤول أن يضع يده على الخطة ويطرح أسئلة، أو يُشار إلى ورقة عليها تعليمات مخالفة، قد يودّ هذا المسؤول المدني أو

ذاك أن يلقي نظرة عليها.

ونتيجة لذلك فإنّه لم يعد بوسع أيّ شخص مدني بما فيهم وزير الدفاع ذاته، أن يكون على علم بوجود حتى ورقة تشير إلى وجود خطة للقدرات النووية الستراتيجية المشتركة. وبطبيعة الحال، امتد الأمر ليشمل ملحقاً هاماً هو «الملحق C». وهو المتعلق بخطط حرب القوة الجوية الستراتيجية SAC، التي شرحت ببعض التفصيل العمليات الحربية (الذرية) العامة. قالت خطة JSCP، أنّه «في حالة قيام حرب شاملة فإنّ تنفيذ الملحق C، يمكّن الشخص أن يُخمّن الأحكام المحددة بشكل تقريبي للحرب الشاملة بأنّها موجودة بصيغة شروط عملية». وهي تعني أنّ الرئيس يمكن أن يأمر قيادة القوة الجوية الستراتيجية بتنفيذ خطط الحرب ضدّ خصمنا الرئيسي، وهو الاتحاد السوفياتي. ولكن متى سيفعل ذلك؟

من الواضح أنّ مثل هذا القرار المصيري سيعتمد على الظروف وحكم الرئيس، الذي قد لا يكون محدوداً. وفي نفس الوقت يبدو طبيعياً أن نفكر بالظروف المختلفة، التي تصاحب ذلك الحكم. من الواضح أنّ قيام هجوم نووي متوقع ومباغت على الولايات المتحدة أو قواتها، يكون هو أحد هذه الظروف. لقد كان هذا هو السيناريو، الذي ركّز عليه محللو مؤسسة راند الستراتيجيين بشكل خاصّ.

أضف إلى ذلك معرفة خطط حلف الناتو والتزام (كافة المخططين في الپنتگون تقريباً). تعني هذه أنّ أيّ هجوم نووي كبير قد يهدّد بسحق قوات الناتو ويهدف احتلال أوروپا الغربية، سيكون مناسبة ملزمة للرئيس أن يضع خطة قيادة القوة الجوية الستراتيجية موضع التنفيذ. أشارت الاستبيانات خلال فترة الحرب الباردة وبشكل مثير للعجب أنّ غالبية الأمريكيين، بخلاف مواطني أوروپا الغربية، لم يكونوا على بيّنة أنّ الولايات المتحدة قد عبّرت عن التزامها رسمياً بالدفاع عن حلفائنا في حلف الناتو. هل توجد ظروف أخرى تبرر استخدام سلاح الجو الستراتيجي أو غيره من قوات التكتيكات النووية؟

في الحقيقة، إنّ تعريفاً واضحاً «للحرب الشاملة» قد ورد في خطة JSCP. وهذه بالتالي فقرة حساسة للغاية من المعلومات في الوثيقة بكاملها، وهي السبب الرئيسي لحمايتها من أعين السلطة المدنية. لا يمكن أن أنسى، والشكر موصول إلى المقدّم بوب لُكمَن من الأركان الجوية، الذي هيّأ لي الفرصة ونحن في غرفة في قبو مبنى الپنتگون أنْ أقرأ «أقدس المقدسات». وبذا تمكنت أخيراً أن أطلع على تعريف الحرب الشاملة، التي تعني الصراع المسلح مع الاتحاد السوفياتي.

وبغية فهم هذا الموضوع، يتحتم على المرء أن يقرأه في ضوء افتراضين رئيسيين في خطة

JSCP: أولاً، «في حالة قيام حرب شاملة، يُنفذ الملحق C». وثانياً، «في الحرب الشاملة، وهي الحرب التي تتقابل فيها القوات السوفياتية والقوات الأمريكية، فإنّ الهدف الرئيسي لقوات الولايات المتحدة هو دحر الكتلة السوفياتية - الصينية».

إنّ معنى هذا أنّ «النزاع المسلح» هو الزناد الرئيسي لإطلاق غضبة سلاح الطيران الستراتيجي في وجه كتلة السوفيات والصين. كان الموضوع مطروحاً للنقاش على نطاق ضيّق في الدوائر العسكرية، وكان مقبولاً أن تشتبك مفرزة أو وحدة من القوات الروسية حول الممرّ إلى برلين، أو على حدود ألمانيا الشرقية، باعتبار هذا الاشتباك لا يمثل قراراً مقصوداً للقادة السوفيات، ويجب ألّا يُنظر لحادث كهذا باعتباره «نزاعاً مسلحاً» وفق تعريف خطة JSCP. ولكن ما العمل إذا كان الاشتباك على مستوى فرقة عسكرية أو فرقتين؟ هل سيزداد الموقف اشتعالاً في أزمة برلين؟ ممّا لا شكّ فيه أنّ موقفاً كهذا يقع ضمن تعريفات النزاع المسلح، وماذا يجب عمله في مثل هذه الظروف.

في الحقيقة أنّ التعريف لا ينحصر على أوروبا فقط، فهو يشمل ضمنا أيّ اشتباك يضع القوات الأمريكية مقابل أيّ حشد عسكري يزيد عن عدة كتائب من القوات السوفياتية في أيّ مكان حول العالم، سواء أكان ذلك في إيران أو كوريا أو الشرق الأوسط أو الهند الصينية. وهذا يقود في الحال إلى انطلاق أسراب الطيران الستراتيجي نحو كلّ مدينة سوفياتية وكلّ مركز قيادة في الاتحاد السوفياتي والصين. إنّ من الصعب على المرء أن يصدّق أنّ بالإمكان تنفيذ مثل هذه الخطة. ومع ذلك واستناداً إلى ما اكتشفته في دراستي لعمليات حوض البِسَفِك، والذي ظهر أنّه ينطبق على العالم بأسره، بأنّه لا توجد خطة بديلة تقتصر فقط على الاشتباك مع القوات السوفياتية على مستوى أكثر من قطاعين، باستثناء خطة حرب شاملة. وهذا النقص موجود في توجيهات الرئيس أيزنهاور، الذي أمر بعدم وضع خطط «لحرب محدودة» مع الاتحاد السوفياتي، سواء كانت نووية أم تقليدية، تحت أيّ ظرف وفي أيّة بقعة من العالم.

يعكس هذا أحكام الرئيس العسكرية واستنتاجاته بأنّه لا مجال لاشتباكات بين الجانبين تشمل عدداً كبيراً من القوات وتظلّ محدودة لفترة قصيرة. وعليه، إذا كانت مثل هذه الاشتباكات قيد الانتظار، فإنّ الولايات المتحدة يجب أن تذهب على الفور بكامل قوّتها النووية لتحقيق الضربة الأولى الساحقة، بدلاً من ترك المبادرات بيد السوفيات.

ولكن حتى لو كانت مثل هذه الأحكام العسكرية قابلة للتحدي، كما هو متوقع دائماً من قبل قائد الأركان العامة الجنرال ماكسوَيل تَيلَر، فإنّ أيزنهاور اعتقد أنّ وجود خطة/محاولة بديلة أمر غير مقبول من وجهة النظر المالية. ونظراً لأنّه كان واقعاً تحت تأثير عدد من المستشارين الاقتصاديين

المحافظين، فقد كان مقتنعاً أنّ الاستعدادات حتى وإن كانت لأجل اشتباكات محدودة مع القطعات السوفياتية على الأرض، كما اقترح تَيلَر، سواء كان باستخدام الأسلحة النووية التكتيكية أو بدونها، ستفرض زيادة في نفقات الدفاع قد تقود إلى خلق حالة تضخم قد تقود إلى كساد مالي، وبالتالي إلى حالة «إفلاس وطني».

تفرض المنافسات المالية بين كافة الخدمات نفسها بشكل غريب على تعريف مفهوم «الحرب الشاملة». تتقبل كافة الخدمات في البلاد أنّ «الحرب الشاملة» في العصر النووي، تعني حرب «كسر الظهر» مع الاتحاد السوفياتي، التي تلعب فيها القوات الجوية الستراتيجية الدور الرئيسي. أمّا البحرية وحاملات الطائرات والغواصات فتأتي بالدرجة الثانية من حيث الأهمية، خاصة وأنّ عمليات الجيش غالباً ما تكون مصحوبة بالمشاكل. ولأغراض التخطيط، فإنّ هيكل القوات واستعداداتها ودفعها إلى ميادين العمليات، وفوق كلّ ذلك تقدير حجم ميزانية الصرف وتوزيعها على الصنوف العسكرية المختلفة، يظلّ السؤال متى سابحاً بين مدى واسع من الظروف الممكنة حول العالم خاصة ممّا يهدّد المصالح الأمريكية. وبناء عليه، فإنّ رداً تدميرياً شاملاً يصبح هو ما يجب التذرع به.

إنّ قادة الجيش من أمثال تَيلَر ومعه بعض قادة البحرية، أرادوا أن يكون تعريف «الحرب الشاملة» بأقصى قدر ممكن من الضيق، تاركين مجالاً من المواقف الملتهبة خارج التخطيط المالي ويُنظر بشأنها فقط إذا برزت للوجود دون إشراك سلاح الجو الستراتيجي ضدّ الاتحاد السوفياتي والصين. لقد ناقشوا، وعلامات الانزعاج بادية على وجوههم، أنّ مثل هذا الهجوم سيأتي بمخاطرة عالية، إن لم تكن بالتأكيد هجوماً انتقامياً مدمراً ضدّ الولايات المتحدة. يجب أن يُترك مثل هذا البديل للطوارئ الأكثر تطرفاً من النوع الذي يوجب اللجوء إلى السلاح الجوي.

من أحد التعريفات التي أطلقوها على «الحرب الشاملة» هو اشتباك تكون فيه القوات السوفياتية والقوات الأمريكية هما الخصمان الرئيسيان، بحيث تكون فيه «ديمومة كلا الجانبين وبقاءهما هما جوهر القضية». اعترضت مخابرات سلاح الطيران، بناء على ما ورد في ملاحظاتي، بأنّ السلاح الجوي للولايات المتحدة «لا يقبل التضمين بأنّ الاشتباك المسلح بين الطرفين لا يكون فيه بقاء الوطن لكلي الجانبين ليس وارداً». انحاز أيزنهاور إلى جانب رأي سلاح الطيران منذ عام 1956. ويكون بهذا قد خالف رأي تَيلَر، الذي قال عبارته المشهورة، التي يجب أن تُحذف من التعريف والاكتفاء ببساطة بذكر «الصراع المسلح مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية USSR».

لم يتخلّ الجيش ولا البحرية عن جهودهما، رغم أنّه استمرت السيطرة عليهما. في ملاحظاتي عن الجيش والبحرية بتاريخ 30 أكتوبر 1959، أنّ الحرب الشاملة يجب أنّ تُعرّف بأنّها «صراع

مفتوح تقوده الحكومة مع الشعوب الأخرى بهدف الإخضاع الكامل أو تدمير الوحدة الوطنية للعدو»، والإبقاء على أشكال الصراع الأخرى، بما فيها الصراع بين أمريكا والقوات السوفياتية، الذي يتصف «بمحدودية رقعته والسلاح المستخدم فيه وحجم القوة المشاركة وكذلك الأهداف».

يبدو هذا الأمر بالنسبة للشخص العادي أنّه معقول بما فيه الكفاية. ولكنّ ما شعر به أيزنهاور والقوة الجوية وقادة الأركان المتعاقبين، أنّ خلف تلك التعريفات، التي تتظاهر بالبراءة، ميثاق للجيش بأن يذهب إلى حلفائه في الكونگرس لتأمين القدرات على القتال مع عدد من الفرق السوفياتية في صدام محدود وليس نوويّاً وغير شامل. كان هذا بالضبط ما فكّر به الرئيس أيزنهاور، المهووس بالميزانية وما خشاه خصوم الخدمات العسكرية وما أرادوا تجنبه. أشار صديقي العقيد آرني كراگ من قسم خطط القوة الجوية إلى المذكرات المتبادلة مع الجيش حتى بحدود يوم 21 يناير من عام 1961، أي بعد يوم واحد من تنصيب الرئيس كَنَدي.

> إنّ تبني «وجهة نظر» أنّ الحرب المحدودة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ممكنة، هي «دعوة» للهجوم. وربما يمكن أن تفتح «صندوق العجائب» Pandora، فيما يتعلق بالوحدات المشاركة في حرب محدودة على حساب قوات الحرب الشاملة... يمكن أن تسمح للجيش والبحرية أن تزيداً من «متطلبات» القوات للحرب المحدودة إلى مستوى غير محدد.

تردّدت هذه النقطة بشكل مستمر على لسان أيزنهاور، فبدت ملزمة قوية لأنّه منذ سنوات كانت المخابرات الأمريكية ومخابرات حلف الأطلسي قد أعطت تقديرات ضخمة بشكل واسع حول قوات السوفيات الأرضية. فمثلاً تجاهلت تلك التقديرات أنّ حجم الفرقة السوفياتية قد بولغ به بشكل غريب. كثيراً ما أشير إلى (175 فرقة سوفياتية.) وهذه وحدات عسكرية موجودة على الورق فقط وخاضعة للتحريك في أوقات الحرب. أو إشارة إلى وحدات تنقصها القيادة والتسليح، والعديد منها ليست أكثر من منتسبي مراكز مختلفة. ومع ذلك فإنّ التصدي لعشرين فرقة دبابات متهالكة منتشرة في ألمانيا الشرقية، يبرّر طلب الجيش للمخصصات المالية العالية. وحين تتمّ الموافقة فإنّ تلك المخصصات من الأموال ستكون على حساب ميزانيتي السلاح الجوي وسلاح البحرية.

السبب الرئيسي الذ ي جعل رئاسة أركان الجيش تخفي الخلافات حول الأرقام عن اهتمام وزير الدفاع گيتس هو الخوف من أن يتخذ قراراً لصالح ميزانيتي الطيران والبحرية على خدمات الصنوف الأخرى. ورغم أنّ وزير الدفاع المذكور قد أصرّ بشكل تدريجي أن تكون له كلمة في

القضايا العملياتية، فقد جعله هذا من الناحية الفعلية يطلع على المشاكل، التي اتفق القادة جميعاً على عرضها عليه. وهذا يعني الوصول إلى حكم محدد لكلّ صنف بشكل يؤمن المزيد من تخصيصات الميزانية، بدلاً من أن يتفاوضوا على ذلك فيما بينهم من أجل حصة كلّ صنف. وفي الوقت الذي لم تُعرض فيه مشاكل هامة على وزير الدفاع، إلّا أنّ قضية واحدة اتفقوا جميعاً عليها تخصّ تعريف «الحرب الشاملة» واستبدالها بما أطلقوا عليه «تخطيط القدرات». وفقاً لملاحظاتي في شهر يونيو 1960، أكّد الوزير گيتس أنّ التعريف يعني «الحرب مع الاتحاد السوفياتي».

ونظراً لأنّه يجب وضع خطة موحدة فقط لمقاتلة السوفيات في أيّة بقعة من العالم وتحت أيّة ظروف، فيجب أن تضمّ إضافة إلى سلاح الطيران الستراتيجي صواريخ پُلارِس، التي تُطلق من الغواصات، وتتطلب اشتراك القوات المساهمة في مسرح العمليات. وكان أيزنهاور قد وقع عام 1959 على خطة قيادة سلاح الطيران الستراتيجي SAC، التي مقرها في أوماها. أمّا الملحق C من خطة JSCP فقد أصبح بحلول شهر ديسمبر 1960 يُسمى خطة العمليات المتكاملة الموحدة SIOP.

بحدود عام 1960، شرع مخططو SIOP بجمع كافة الأهداف المسجلة في خطط القيادات المختلفة، منها سلاح الجو الستراتيجي SAC وحلف شمال الأطلسي NATO وقيادة حوض البِسَفِك PACOM، لوضع خطة متكاملة لضرب تلك الأهداف وقائمة بكافة الأسلحة المخصصة لتدمير كلّ منها حول العالم. دار جدل رئيسي تعلق بجدوى جعل كافة الأهداف ضمن نظام كومبيوتر في مقر قيادة سلاح الطيران الستراتيجي، والادعاء بأنّ لهذا النظام ميزات فريدة. في الواقع، إنّ ذلك النظام كان ولا يزال في مرحلة أولية من التطوير، وأنّ الكثير من الحسابات تجري باليد عن طريق استعمال الآلات الحاسبة.

ولمرة أخرى، كان هناك خوف شديد من تقليل عامل «التشويش» و«القتل الأخوي» للطائرات والصواريخ التي توجّه إلى الأهداف المتقاربة. كما أبدى الرئيس أيزنهاور رغبة في تقليل «تكرار» الجهود من قبل القيادات المختلفة. كانت المخاوف خلال عملية وضع الخطط مبعث مشاعر الإحباط. وسبب الإحباط هذا متأتٍ من أنّ قادة مختلف الصنوف كانوا مصرين على ضرب الأهداف الهامة بواسطة قوات كلّ منهم. لقد حسبت مثلاً أنّ موسكو قد تقرر لها أن تُضرَب بأكثر من 80 سلاحاً نووياً. وهناك إحصائية ذكرت أنّ الرقم الصحيح هو 108 صاروخاً. وعليه، فإنّ منع «التشويش» في عمليات حوض البِسَفِك، ضرب من الخيال.

بالنسبة لخطة قيادة عمليات حوض البِسَفِك، التي اطلعت عليها كما أشرت، لاحظت أنّ التنسيق حول مسألة الأهداف عملية معقدة لا تسمح بوجود مجال لستراتيجية حقيقية واحدة. إنّ ثمن الجمع بين

ميادين العمليات وخطة العمليات المتكاملة الموحدة SIOP بشكل منسجم مع بعضها البعض في خطة واحدة، هو استبعاد أيّة مرونة في التنفيذ. ومع كلّ هذا التخطيط لخلق هذا السيناريو الوحيد، فإنّه لم يتوفر عاملون ولا كومبيوتر لوضع خطة بديلة. أمّا بالمقارنة بمخططي قيادة CINCPAC، الذين قابلتهم من قبل، فإنّ واضعي خطة العمليات المتكاملة الموحدة أنفسهم، فكان يعمّهم الارتباك والفوضى مخافة طرح خطة بديلة. وبموجب تعليمات قيادة CINCPAC، فإنّ مركز SIOP قد أعدّ لتنسيق خزين الولايات المتحدة من الرؤوس النووية لكي تصل في الوقت المناسب تقريباً إلى أهدافها، قبل انطلاق أيّ صاروخ من الجانب السوفياتي.

على مدارج مطاري كَنسان وكَدينا وعلى سطوح الحاملات التي تحيط بالكتلة السوفياتية - الصينية، كما كانت تسمّى في عام 1961، رغم أنّ الصين والسوفيات كانا قد انفصلا حقيقة قبل عدة سنوات، كانت توجد أكثر من 1000 طائرة مقاتلة محملة بالقنابل الهيدروجينة، التي بإمكانها أن تصل إلى الأراضي السوفياتية والصينية. تستطيع كلّ من هذه القنابل أن تدمّر مدينة بكاملها. وإذا كانت المدينة كبيرة واسعة فتكفيها قنبلتان. ولكن حتى تلك اللحظة، اعتقد مخططو سلاح الطيران أنّ وجود تلك القوات التكتيكية الضاربة معرّضة وأنّه لا يمكن الاعتماد عليها وأنّها عامل غير ذي أهمية في حالة اندلاع حرب نووية شاملة، إلى درجة أنّهم لم يدخلوها في حساباتهم ضمن تقديرات نتائج الهجمات في الحرب الشاملة.

في عام 1961 كانت توجد حوالي 1700 طائرة مقاتلة في حيازة سلاح الجو الأمريكي، بما فيها أكثر من 600 طائرة من نوع B-525. يوجد في ركن القنابل على كلّ طائرة من سلاح الجو قنابل حرارية أكبر حجماً من تلك التي شاهدتها في أوكيناوا، تتراوح قوة معظمها من 5- 25 مِگاتن. تلك التي من عيار 25 مِگاتن تكون قوتها التدميرية أكثر من 1250 مرة من قنبلة الانشطار النووي التي ألقيت على نَگزاكي. وهي مساوية لما يقدّر بحوالي 25 مليون طناً من مادة TNT، أو حوالي 12 مرة من مجموع أطنان القنابل، التي أسقطت خلال الحرب العالمية الثانية. يوجد في مخازن السلاح الأمريكية حوالي 500 قنبلة بقوة انفجارية تبلغ 25 مِگاتن. لكلّ من هذه الرؤوس النووية قوة نارية أكثر من كافة القنابل والمتفجرات التي استخدمت في كافة الحروب في تاريخ البشرية.

وُضِعت الطائرات والصواريخ العابرة للقارات في كافة أرجاء الأرض الأمريكية، رغم أنّها غالباً ما تنقل على جناح السرعة إلى القواعد خارج البلاد في أوقات الأزمات. وجدير بالذكر أنّ عدداً قليلاً من طائرات B-525 تحلق في الجو وتقوم بدوريات على مدار الساعة، وتكون الأخرى في حالة إنذار. شاهدت فديو سرّي ظهر فيه سرب من طائرات B-25s، وهي الأصغر حجماً رغم أنّها ثقيلة

وعابرة للقارات، تقوم بمناورة مثيرة للإقلاع جميعاً في ذات الوقت، وليس طائرة إثر أخرى. النقطة هي أنّه في كَدينا وفي غيرها من القواعد، يجري الانطلاق في الجو بعيداً عن القاعدة بأقصى سرعة ممكنة، في حالة إنذار عن هجوم مباغت، وقبل أن تصل صواريخ العدو فتضرب المنطقة. الوقت الاعتيادي الذي تتطلبه طائرة واحدة للإقلاع يصبح وقتاً لإقلاع سرب بكامله ينطلق نحو تدمير أهدافه المرسومة.

أمّا على ظهور الحاملات، فإنّ الطائرات التكتيكية تقلع وكأنّها تطلق بمحجال sling. ونظراً لأنّ خطة الحرب الشاملة، التي أعرفها، تتطلب انطلاق كافة الطائرات والصواريخ حول العالم، من أرض الولايات المتحدة ومن قواعدها وحاملاتها وغواصاتها، فيجب أن تكون مستعدة لتنفيذ مهام الهجوم في وقت واحد تقريباً. إنّ الاستعدادات والتدريبات لشنّ مثل هذا الهجوم تبدو وكأنّها فتح أبواب الجحيم، التي تمتلكها الولايات المتحدة على مصاريعها، وكأنّها منجنيق أعدّ خصيصاً لاستعمال گولايَث العظيم.

تشمل خطة المواقع المستهدفة من قبل القوات المهاجمة بكاملها تدمير كافة المواقع العسكرية وكلّ مدينة في الاتحاد السوفياتي والصين. لقد أعدّت أمريكا رأساً نووياً على الأقل لكلّ 25000 شخصاً في البلدين المذكورين. أمّا الأهداف «العسكرية» التي تقع أكثرها قرب المدن أو صنّف بعضها كذلك بشكل مغرض، فهي كثيرة وستدمر تماماً بفعل الضربات الموجهة إليها أو إلى المدن القريبة منها.

خلال السنتين 1960- 1961 كانت هناك حقيقة محتملة بأنّ سلاح الطيران الأمريكي ووكالة المخابرات المركزية قد قدّرت وبسبب الفجوة في عدد الصواريخ لكلا الكتلتين، أنّه لن يُطلق على الأرض الأمريكية أيّ صاروخ، إذا نفذنا ضربتنا الأولى ضدّ العدو. ولكنّ الإشعاعات والمواد/ الجزيئات النووية العالقة في الجو حول العالم بسبب ضربتنا الأولى، ستؤدي بالتأكيد إلى وفاة بعض الأمريكيين على المدى البعيد بسبب السرطان. ولكن سوف لن تكون لذلك أهمية من الناحية الإحصائية. غير أنّ حلفائنا الأوروبيين الغربيين الأعضاء في حلف الأطلسي فسيتعرضون للفناء مرتين. الأولى بواسطة الصواريخ السوفياتية متوسطة المدى المحمولة على عربات متحركة لم تستطع ضرباتنا الجوية من تحديد مواقعها لتصيبها. ثانياً، بواسطة الإشعاعات والجزيئات النووية التي تحملها الريح من مناطق الكتلة السوفياتية، التي تمّ قصفها نووياً بشكل مكثف.

أعطت مداخلة جون روبل القصيرة صورة واضحة حين قدّم عرضه أمام المسؤولين المدنيين الكبار، الذين حضروا تلك المناسبة عن SIOP-62. اقتبست بشكل موسع وصفه لأنّني لم أطلع على

شيء مكتوب عن هذا الأمر من قبل أو صرح به أحد المطلعين في الدوائر الخاصة. إنّ روبل هو الشخص الوحيد الذي عرف خطة العمليات المتكاملة الموحدة SIOP وسجّل في ملاحظاته في النهاية نفس ردود المشاعر، التي خبرتها أنا بنفسي إثر مباشرتي العمل في البيت الأبيض بعد عدد قليل من الشهور، وشاهدت تقديرات قائد الأركان المشتركة حول أعداد الخسائر البشرية الناجمة عن هجماتنا النووية. كتب يقول:

جرى الاجتماع في منتصف شهر ديسمبر من عام 1960 في مقر قيادة سلاح الطيران الستراتيجي في قاعدة أوفوت الجوية القريبة من أوماها بولاية نبراسكا. وحضره وزير الدفاع گِيتس ونائبه جِم دَوگلَس وأنا ورئيس الأركان المشتركة وعدد من الجنرَلات، الذين يمثلون القوات المشتركة والقوات الخاصة الأمريكية، القادمين من مختلف أنحاء العالم.

استمعنا إلى تقرير SIOP في الطابق الذي يوجد فيه مقرّ القيادة، وجلسنا مقابل جدار عال ظهرت عليه خرائط وتخطيطات غطته بالكامل، وعلى مساحة ما يقارب 1000 قدماً. توجد خلف الجدار شرفة زجاجية مغلقة تصطف فيها مناضد وُضعت عليها أجهزة تلفون مخصصة لقادة القاعدة. يجلس هؤلاء ويراقبون مشاهد الحرب والنشاطات المختلفة في أيّة بقعة، ربّما في كافة أنحاء العالم...

وبإشارة من قائد سلاح الطيران الجنرَل پاور، صعد الشخص، الذي قدّم التقرير الموجز إلى المسرح وواجه الحاضرين الذين جلسوا أمامه في حوالي 15- 20 صفاً....

وبعد عرض بعض المخططات، غيّر حديثه إلى الموجة الأولى من الهجمات، التي تصل إلى الاتحاد السوفياتي. وكما أتذكر، قامت بتلك المهمات طائرات انطلقت من الحاملات الموجودة في محيط قاعدة أوكيناوا. ثمّ تنحّى جانباً بعد أن أنهى تقديمه.

ظهر بعده ضابطان طياران أتى كلّ منهما من جانب الجدار المغطى بالخرائط والتخطيطات وحمل كلّ منهما سلماً قابلاً للطوي. وقفاً عند حافة خارطة كبيرة تظهر الصين والاتحاد السوفياتي والمناطق المجاورة. تسلق الضابطان سلميهما حتى وصلا إلى أعلاهما ومدا نحو بعضهما البعض شريطاً أحمر يمتد إلى موسكو، فبانت علامات صغيرة تشير إلى مناطق الانفجارات في داخل المدينة وحولها. نزل الضابطان وطويا

سلميهما ثم حملاهما وغادرا المسرح.

ظهر الشخص الذي قدّم الموجز ثانية وعرض صوراً متتالية للمَشاهد عقب كلّ موجة هجوم بواسطة طائرات B-52s وهي تنفذ مهامها وكذلك موجات أخرى قادمة من حاملات طائرات في البحر الأبيض المتوسط ومن القواعد الأمريكية في ألمانيا، وأخرى قادمة من حاملات طائرات وقواعد في اليابان بواسطة طائرات من نوعي B-47s وB-52s وهي تنطلق من قواعد في الولايات المتحدة وأخرى من قواعد أوروپية. كما تمّ إطلاق عدة صواريخ بالستية، ازداد عددها بمرور السنوات، لاستهداف مناطق في الاتحاد السوفياتي.

وكلما وصف المتحدث مشهداً عقب موجة قصف، كلما ازدادت رقعة المناطق المدمرّة، إلى حدّ أنّه ذكر أنّ سبب التدمير القوي حول موسكو راجع إلى أنّ حوالي ثلث مراكز الصناعات العسكرية السوفياتية يقع حول المدينة. أتذكّر أنّه قال إنّ الخطة قد وُضعت لإسقاط قنابل على موسكو من عيار 40 مَگاتن، وكلّ من هذه القنابل لها قوة تدميرية تبلغ 4000 ضعفاً لقوة القنبلة التي أسقِطت على هِروشِما، وربما 20- 30 مرّة من مجموع القنابل غير النووية، التي أسقطها الحلفاء على شرق آسيا وأوروپا خلال الحرب العالمية الثانية.

خلال عملية العرض وشرح مسار الطائرات في منطقة شمال شرق البحر الأبيض المتوسط في طريقها لضرب موسكو، رفع الجنرَل پاور يده وقال، «دقيقة، دقيقة!» ثمّ توجه بالحديث إلى الآخرين الجالسين جنبه وأضاف، «أرجو ألّا يكون لأحدكم أقارب في ألبانيا، لأنّهم يمتلكون هناك محطة رادار تقع ضمن مسار الطائرات وسندمّر تلك المحطة». قوبل تعليقه هذا بصمت مطبق قطعه بإشارة من يده للمتحدث أن يستمر في تقديمه.

أظهر تخطيط آخر عرضه المقدّم عدد الضحايا على الخط العمودي وعدد الساعات أفقياً، ويغطي مدة أسابيع. أعلن أنّ عدد القتلى في الجانب السوفياتي سيكون بحدود 175 مليون شخصاً. أظهر التخطيط عدد الضحايا الناجم عن الإشعاعات والجزيئات، التي ترتفع إلى أعالي الجو بسبب الانفجارات فتنقلها الريح لتسقط على الأرض في أماكن أخرى. يشير منحنى التخطيط أنّ العدد يصل إلى 100 مليون شخصاً. وهذا يعني أنّ

نصف سكان الاتحاد السوفياتي قد يموتون نتيجة هذه الإشعاعات والتفجيرات النووية...

انتهى التقديم الأول وأعقبه تقديم آخر مماثل تناول الهجمات على الصين من قبل شخص آخر. عرض هذا مخططاً اقتصر فقط على ضحايا الإشعاعات والجزيئات النووية، التي تنقلها الرياح. قال، «يوجد في الصين حوالي 600 مليون شخصاً». أشار مخططه إلى أنّ نصف هؤلاء قد يموتون بفعل تلك الإشعاعات والجزئيات بمرور الوقت، 300 مليون شخصاً.

ارتفع صوت من الصفوف الخلفية وقال، «هل يمكن أن أسأل سؤالاً؟» استدار الجنرَل پاور لينظر إلى مصدر الصوت، وقال وهو في مقعده في الصفوف الأمامية، «نعم، ما هو؟» قال ذلك بلهجة لا تشجّع على الكلام. قال الصوت، «ماذا لو لم تكن هذه حرب مع الصين؟ ماذا لو اقتصرت الحرب على الاتحاد السوفياتي؟ هل ستغيّرون الخطة؟».

ردّ الجنرَل بصوت المستسلم، «حسناً، بإمكاننا أن نفعل ذلك، لكنّني آمل ألّا يفكّر أحد بذلك، لأنّه يعني إخفاق خطتنا الأصلية».

علق روبل بما يلي:

كان ذلك التبادل في الكلام كافياً بالنسبة لي. لقد تسبب العرض بجزئيه بإثارة الكآبة في نفسي. بدأت أشعر وكأنّي أنكمش من الداخل، وانتابتني حالة رعب. تذكّرت **مؤتمر وانسي** في شهر يناير من عام 1942 حين اتفق تجمع للبيروقراطيين الألمان على برنامج لإبادة اليهود حتى آخرهم أينما وجدوا في أوروپا باستعمال وسائل القتل الجماعي والتكنولوجيا ذات الكفاءة العالية بدلاً من استعمال عوادم سيارات النقل والإعدامات الجماعية بإطلاق النار الكثيف والحرق داخل الإصطبلات وأماكن العبادة. شعرت وكأنّي أغوص في أعماق ظلام دامس في عالم ما تحت الأرض على يد طغمة ناشطة منظمة مجنونة هدفها إبادة نصف مجموع البشر القاطنين على ثلث الكرة الأرضية. لم تخفت تلك المشاعر تماماً، رغم مرور أكثر من 40 عاماً على تلك اللحظة السوداء.

وكما يذكر روبل، فإنّ وزير الدفاع گيتس طلب عقد اجتماع «لمناقشة ما تمّ عرضه مساء اليوم السابق». كان قادة الأركان هناك وكنت أنا معهم وكذلك وزراء الحربية والبحرية والقوة الجوية». بدأ رئيس الأركان، الجنرَل لِمَن لمنِتزِر، وتبعه آخرون فكرّروا نفس الشيء. «قام الرجال بعمل رائع، عمل صعب للغاية، ويجب أن نقدم الشكر والامتنان لهم».

> لحسن الحظ لم يلتفت إليّ گيتس، فليس لدي فكرة عمّا كنت سأقول له. لكنّني خفت أنّه ليس لدي شجاعة لأقول إنّ ما سمعته وصف لعمل بربري لا يخطر ببال إنسان سويّ. ما يُسمّى «خطة» شيء جنوني لم أسمعه من قبل ولم يخطر ببالي.

كان الشخص الوحيد الذي اعترض في نهاية القسم الثاني من العرض، هو قائد قوات مشاة البحرية، دَيفِد شَوپ، الذي حصل على ميدالية شرف من قبل الكونگرس لقيادته قوات الإنزال على سواحل تَرَوا (جزيرة في المحيط الهادي - المترجم). سمعته قبل 5 سنوات من استماعنا لذلك العرض، وهو يخاطب خريجي التدريب الأساسي من دورة لرجال مشاة البحرية في كوانتِكو. ومنذ عام 1961 حتى نهاية الحرب، عارض بقوة تدخلنا في فيتنام.

> «كلّ ما أستطيع قوله»، تكلم شَوپ بصوت منخفض، «إنّ أيّة خطة تستهدف قتل 300 مليون شخصاً من الصينيين، الذين ليست لهم علاقة بالحرب، في رأيي خطة ليست جيدة. ليست هذه هي الطريقة الأمريكية».

على أيّة حال، كانت تلك هي الخطة الأمريكية. ورغم أنّ الرئيس أيزنهاور شعر بالحزن حين أوضح له مستشاره للشؤون العلمية جورج كِستِكوسكي، أنّه توجد مبالغة شديدة في أعداد البشر الذين تنوي الخطة إبادتهم، فإنّ الرئيس قد صادق عليها دون اقتراح أيّ تعديل. سلمها بعد شهر واحد فقط إلى جون كندي. كان شغفي أن أغير تلك الخطة.

الفصل السابع
اطلاع مكجورج بَندي

لم تكن حفنة المدنيين الذين اطلعوا على خطة العمليات المتكاملة الموحدة SIOP، (بالمناسبة لم أعرف منهم وقتها أحداً غير روبل)، هم فقط الذين شعروا بأنّ تلك الخطة يجب أن تُغيّر. من خلال اتصالاتي بمسؤولي سلاح القوة الجوية، أصبحت على علم بأنّ عدداً من ضباط التخطيط كانت لديهم تحفظات على جنون عملية التخطيط والخطط الحالية ذاتها. ولكن ما دامت تلك الخطط مقبولة ومصادق عليها من قِبَل ضباطهم الكبار، فلم تكن لهؤلاء المخططين القدرة للتأثير عليها، بموجب قنوات تسلسل القيادة.

من حيث المبدأ، ينطبق ذلك الأمر عليّ أيضاً في مؤسسة راند. لم تكن المؤسسة في ذلك الوقت تعمل لخدمة وزارة الدفاع، ولكن لخدمة القوة الجوية. وعليه فإنّ الخروج على هذه القنوات الفعلية سيهدد بشكل مباشر ميزانية المؤسسة ووجودها. وهذا ما دفع الباحثين والضباط لأن يحيطوا وزير الدفاع علماً بهذا الموقف.

ومع ذلك، تزايد شعوري بضرورة أن يكون الرئيس ووزير الدفاع على اطلاع بطبيعة نظام التخطيط للحرب الشاملة بكلّ ما فيه من المخاطر، التي تزيد احتمال وقوع الحرب ذاتها، وإمكانية حدوث أيّة حرب كبيرة تشترك فيها القوات السوفياتية، لأنّها ستؤدي إلى آثار إبادة جماعية متعددة الجوانب، وعلى مستوى لا يمكن تصوره في طول العالم وعرضه. بدا لي أنّه من الضروري أن تُعرَض الخطط على الرئيس ليراها بعينيه لأوّل مرة، وأعني خطة القدرات الستراتيجية الموحدة الفعلية، كي يقرأها في ضوء خطة SIOP، وليكون على علم بالبساطة المتناهية، دعك من الجمود والسخف ودموية أفكار من وضعوا تلك الخطط. شعرت أنّ تطرّف تلك الصفات لا يمكن أن يفي بالغرض ويعوّض عن الاطلاع عليها بصيغتها المكتوبة.

كان من أعلى أهدافي وعلى مدى عدة سنوات وبسبب تأثيري الشخصي على الدفاع الوطني، أن أدفع عدداً من الأوراق من مستوى إلى مستوى أعلى من المسؤولية، ومن الجانب العسكري إلى الجانب المدني. رغبت بشكل خاصّ أن أدفع خطة JSCP وملحق C من مكاتب قيادة الأركان وقيادة القوة الجوية إلى مكتب وزير الدفاع ومن ثمّ إلى مكتب الرئيس، كي تصبح القيادة المدنية على اطلاع وتتمكن من العمل لفرض السيطرة والتغيير في طبيعة خططنا للحرب الشاملة. كانت أهدافي بعد مرور حقبة من الزمن متشابهة تماماً، وفي ذهني مستوى مختلف من السلطة المدنية. كنت أريد أن أدفع 7 آلاف صفحة من الأسرار المهمة للغاية، وهي أوراق البنتگون، من مبنى البنتگون ومؤسسة راند إلى يد مجلس الشيوخ والرأي العام الأمريكي. كما رغبت أيضاً أن تكون السلطة المدنية على علم بدرجة الاعتماد الشديد في مسألة التخويل، وغيرها من المخاطرات والممارسات غير الشرعية، التي اطلعت عليها. للأسف لم يكن لديّ طريق مباشر للوصول إلى وزير الدفاع گيتس ذاته.

في عام 1960 وإثر رجوعي من مهمتي في إكمال دراستي حول قيادة حوض البَسَفِك، أتيحت لي الفرصة للاتصال والتعرف على شخصين كانت تدور حولهما إشاعات واسعة بأنّهما سيصبحان مسؤولين كبيرين في إدارة الرئيس كندي. كان الأول هو پول نيتزَ، الذي شارك في مؤتمر رعته مؤسسة راند حول ستراتيجية البدائل العسكرية، عُقد في فندق أسيلمور في مونتَرَي في كاليفورنيا. أمضيت معه وقتاً طويلاً خلال فترات الاستراحة وفي المقعد الخلفي من السيارة التي تقله من وإلى مكان المؤتمر. كان نيتزَ هو من وضع مسودة وثيقة مجلس الأمن القومي NSC-68، التي كانت المصدر الرئيسي لتخطيط بناء قدرتنا على التسلح عام 1950. وهو الآن رئيس لجنة السياسة الخارجية للمجلس الاستشاري الديمقراطي DAC. وهو الشخص الديمقراطي للتخطيط العسكري السياسي. كان من المتوقع أن يتبوأ منصباً عالياً.

أمضيت الوقت معه في السيارة وأنا أشرح أهمية اطلاع الرئيس شخصيّاً ليقرأ بنفسه ويهتم بما يقرأ ويصرّ على الرقابة والإشراف على خطط الحرب الشاملة، رغم أنّني لم أشرح له ذلك بالتفصيل. وهو طبعاً لديه تفويض للاطلاع على الأسرار البالغة، فقد عمل لفترة قصيرة كمساعد لوزير الدفاع لقضايا الأمن العالمي خلال إدارة الرئيس أيزنهاور، وظلّ محافظاً على منصبه كمستشار. ومع ذلك ووفقاً للقواعد في حينها «لم تكن لديه حاجة للاطلاع» على تلك المعلومات الحساسة. وينطبق الأمر عليّ، بطبيعة الحال. إنّ حقيقة كون بعض العقداء الإداريين قد فكّروا عكس ذلك، فإنّ الأمر لم يعنِ أنّني أذهب هنا وهناك لأخبر أولئك الذين ليست لهم صفة رسمية. ولنفس السبب، لم أخبر أحداً من زملائي في مؤسسة راند عن تلك المواضيع. أمّا بالنسبة إلى نيتزَ، فإنّني أكّدت ببساطة وبشكل تفصيلي أنّ المشكلة ملحّة، وإنّه حين يصبح مسؤولاً في الإدارة الجديدة، يتطلب الأمر منه أن يطلع بنفسه

الرئيس مباشرة على تلك القضايا.

أبلغت نفس الرسالة إلى الشخص الثاني وهو والت روستو، الذي كان كصاحبه نيتزَ عضواً في لجنة DAC حول السياسة الخارجية، وكان متوقعاً أن يصبح مسؤولاً للأمن القومي في إدارة كندي، لو فاز في الانتخابات. قابلته خلال الحملة الانتخابية أثناء لقاء للمستشارين حول إعداد الخطب السياسية عُقِد في كلية الحقوق بجامعة هارفرد بمبادرة من الأستاذ آرچيبولد كوكس. تحدثت مع روستو خلال فترة استراحة طويلة في ساحة وقوف السيارات الخاصة في الكلية المذكورة، وأخبرته بكلّ ما اطلعت عليه نيتزَ. قمت بحثه على أنّه لو أتيحت له الفرصة ليكون قرب الرئيس القادم، (من الجدير بالذكر، أنّه أصبح في عام 1961 مساعداً إلى مكجورج بَندي في البيت الأبيض) أن يتأكّد من إقناع الرئيس بوجوب طلب خطة JSCP والملحق C بغية الاطلاع عليهما.

في شهر يناير من عام 1961 ونتيجة لمساعدتي في أن يقوم الباحثون في راند بتقديم المعلومات لمعدّي خطب الرئيس كندي خلال حملته الانتخابية، دُعيت إلى حفلة تنصيب الرئيس الجديد في واشنطن. وفي يوم الاثنين الذي تلا حفل التنصيب، ذهبت لمقابلة نيتزَ، في مكتبه الجديد كمساعد لوزير الدفاع لقضايا الأمن العالمي ISA.

ذكّرته بالحديث، الذي جرى بيننا في فصل الخريف الماضي في مونترَي، وقلت له، «الآن وأنت في هذا المنصب يمكنني أن أطلعك على تفاصيل الخطة». الذي حفزني لذلك هو اعتباره مساعداً للوزير ومسؤولاً عن التخطيط في وزارة الدفاع، وأيضاً باعتباره الشخص الرسمي الذي يجب أن يطلع على كافة الخطط، ولو أنّه من الناحية العملية ما لعبت دائرته دوراً في خطط العمليات العسكرية في السابق.

نتيجة لتلك المقابلة، طلب نيتزَ أن يطلع على نسخة من خطة JSCP ووجّه ذلك الطلب إلى هاري رَوِن، صديقي المقرب في مؤسسة راند، والذي يعمل الآن نائباً مساعداً في مكتب نيتزَ لقضايا السياسة والتخطيط. أحال رَوِن الطلب إليّ باعتباري مستشاراً لمجلس الأمن القومي من قبَل مؤسسة راند.

ذهبت لمقابلة الضابط العسكري المسؤول عن شؤون الخطط في مكتب رَوِن، وهو جنرال كان يشغل هذا المنصب لبعض الوقت خلال إدارة أيزنهاور. طلبت منه نسخة من خطة JSCP ليطلع عليها كلّ من نيتزَ ورَوِن، فرفض طلبي باقتضاب. قال لي بصراحة، «ليس من الضروري أن تعرف ذلك». وعندما أعدت على مسامعه أن طلبي هذا بأمر من رئيسه، مساعد الوزير، قال «إنّه ليس

بحاجة أن يطلع عليها أيضاً». سألته إن كان هو نفسه قد اطلع على الخطة، فرد بالإيجاب وأنّ ذلك قد حدث لأنّه جنرال في الجيش، وليس بسبب مسؤولياته في مجلس الأمن القومي. ذكرت الأمر لرئيسه المباشر هاري. وهكذا لم يحصل نيتزَ على نسخة من خطة JSCP.

في نهاية ذلك الشهر، رتّب لي هاري لقاء مع مكجورج بَندي، مساعد الرئيس في شؤون الأمن القومي، لأقدّم له عرضاً موجزاً عن خطط الحرب ومشاكل التحكّم والسيطرة، التي اكتشفتها في حوض البِسَفِك. قادني مساعده بوب كومر إلى المكتب. لم أقابل بَندي من قبل، إذ كان عميداً لأساتذة جامعة هارفرد حين كنت طالب دراسات عليا هناك وعضواً في جمعية الزملاء الخريجين، التي كان هو عضواً فيها قبل عقد من السنوات. أمّا كومر فكنت قابلته عدة مرات حين حضر لزيارة مؤسسة راند.

كان مقرراً أن أقضي ساعة في مكتب بَندي. انتابتني حين دخلت المكتب مخاوف بأنّه سيكون حذراً معي ولديه شكّ أنّني باعتباري مدنياً أبدو وكأنّني أعرف الكثير عن خطط الحرب. قرّرت أولاً أنْ أعطيه بعض التلميحات عن كيفية حصولي على معلوماتي. تحدثت أولاً عن مساهمتي في إعداد دراسة لتقييم أوضاع قيادة قوات حوض البِسَفِك، وإلى عملي مع هيئة الأركان المشتركة. وبعد مرور حوالي ثلاث دقائق، قاطعني بلهجة جافة باردة قائلاً، «هل هذا عرض موجز أم جلسة على كرسي الاعتراف». أعرف عنه غطرسته وتعاليه ونظرته لمعظم الناس بأنّهم مثبطون فكرياً. كما عُرفت عنه مقاطعته للعاملين معه لأنّهم لم يقدموا له معلومات «طازجة» تتناسب مع مزاجه.

قلت لنفسي «حسناً، يا شاطر! أنت الذي طلب ذلك». ذكرت له أنّه يوجد الكثير ممّا يتعلق بخطط الحرب والعمليات الذرية، التي ربّما لا يعرف عنها. ثمّ مضيت لشرح مواصفات خطة JSCP، بما فيه طبيعتها وخطة الضربة القاصمة الأولى واستهداف مدن الكتلة السوفياتية الصينية وحرقها وتدميرها تحت كافة الظروف، ونقاط الضعف في نظام السيطرة والقيادة. شعرت بالراحة خلال دقائق وأنا ألاحظ فمه يتسع انفتاحاً من شدة العجب. بدأ يدوّن والغضب بادٍ عليه بعض الملاحظات وهو يهزّ رأسه متسائلاً.

خلال وحتى نهاية تقريري الموجز، الذي تطلب حوالي الساعة، تقدمتُ بعدة اقتراحات سجلها الواحد تلو الآخر. أوّلها أنّه يجب أن يؤكّد سلطته بأن تُقدّم له نسخة من خطة JSCP وعليه أن يقرأها ويتعرف بنفسه عليها ويبدأ العمل بشأنها مع مساعديه العسكريين، الذين يمكن أن يوضّحوا له الخلافات والتناقضات والتطبيقات العملية لها.

أخبرته أنّ سفينة الإنزال LST، تنقل للساحل أسلحة نووية من مدمرة راسية في مرفأ إيواكوني. وهذه مخالفة لشروط معاهدة الأمن المشترك مع اليابان. أضفت أنّ هناك مخالفات أخرى لقاعدة وجود شخصين لقراءة الشفرة، وما يبدو غياب السيطرة العامة ومسألة وجود الأقفال على صناديق حفظ الشفرات الخاصة بالأسلحة النووية. وبشكل ملحّ يجب أن يُطلع البيت الأبيض على مجريات الأمور الخطيرة هذه. وصفت له كيف أنّ الرئيس أيزنهاور قد خالف الإعلان العام والافتراضات في الأمور السرية للغاية، حول تفويض وتخويل سلطته كقائد عام للقوات المسلحة لشنّ حرب نووية ووضعها، في حالة بعض الظروف المعينة، بيد قادة الوحدات المختلفة حول العالم. أظهر بَندي، الذي كان قد أمضى فترة أسبوعين فقط في منصبه، إشارات تنمّ عن الدهشة أو الصدمة لسماع تلك الأخبار، لكنّه لم يبدِ أيّة إشارة تنمّ عن عدم تصديقه لما سمع.

أخبرته عن رسائل أيزنهاور المزعومة إلى قادة الوحدات المشتركة والخاصة. قلت له إنّني لم أشاهدها بنفسي، لكنّني عرفت من ضباط حوض اليَسَفِك أنّهم يعتقدون بوجود التخويلات المذكورة وأن لاعتقادهم هذا نتائج خطيرة. إنّ تلك التخويلات قد قادت إلى تخويلات ثانوية أخرى وصلت ربّما إلى قادة أقلّ رتبة وعلى مستوى الوحدات الميدانية، حسب افتراضي. بمعنى تخويلات جانبية أبعد وأكثر اتساعاً ممّا أصبح أيزنهاور على علم به أو قصده أصلاً.

بعد مرور 40 عاماً ورفع السرية عن بعض الوثائق، التي تعود إلى فترة الخمسينات، أدركت أنّني كنت مخطئاً في افتراضي. ولشدة دهشتي، أنّ الرئيس أيزنهاور قد تنبأ فعلاً وصادق على تلك التخويلات الثانوية الجانبية، التي ما زلت أعتقد أنّها خطيرة للغاية. ولكن، لو كنت عرفت بذلك في حينه، لما غيّرت شيئاً من اقتراحاتي التي قدّمتها إلى بَندي. إنّ المجازفة بتفويض القادة التابعين بالقدرات والسلطة للمبادرة بحرب نووية لدى ظهور الأزمات، أمر كبير ومن الملحّ أن يطلع الرئيس كندي على ذلك ليدلي بدلوه ويقوم باتخاذ الخطوات المطلوبة بغية وضع يده وممارسة سلطته على النظام.

* * *

إثر مرور عدة أيام على تقديم تقريري الموجز إلى بَندي، أخبرني هاري رَوِن أنّهما اتفقا على أنّ مسألة التخويل قضية يجب التحقيق فيها. لم يجد بَندي في الملفات شيئاً يؤيد ما أخبرته به، لكنّه أحسّ أنّ المسألة ليست نهائية، لأنّ أيزنهاور قد أخذ معه كافة ملفاته حين غادر البيت الأبيض. أعلن بندي خلال اجتماع لمجلس الأمن القومي أنّ لجنة مشتركة من البيت الأبيض ووزارة الدفاع، برئاسة دانيل إلزبَرگ، ستتولى التحقيق في مشكلة تفويضات الرئيس حول استخدام الأسلحة النووية. أخبرني

رَوِن بأنّه يجب أن أجد إنْ كانت الرسائل التي سمعت عنها موجودة فعلاً. أعطاني كامل الصلاحية، التي ثبّتها البيت الأبيض، «أن أذهب إلى أيّ مكان وأسأل عن أيّ شيء له علاقة بهذا الموضوع».

كانت زيارتي الأولى للقائد تازوَل شَپَرد، مساعد الرئيس لشؤون سلاح البحرية والمسؤول عن الإنذارات النووية والأساليب الواجب اتباعها. وهو الشخص الذي يحمل «الحقيبة» المصاحبة للرئيس أينما ذهب. أخبرته بما سمعت في حوض الپِسَفِك، فقال إنّ تلك الأخبار جديدة بالنسبة إليه، وبدا وكأنّه على قناعة حقيقية أنّ القضية لا أساس لها من الصحة. أكّد ذلك لي باعتباره مبعوث الرئيس إلى القيادة النووية ونظام السيطرة عليها، وأنّه الشخص الذي يجب أن يعرف إنْ كانت رسائل التخويلات موجودة فعلاً. أقسم اليمين، أنّه ما سمع قط بالأمر من قبل إطلاقاً. وأضاف أنّه ليس لديه معرفة بأيّ تفويض للسلطة مهما كان شكله لأيّ من قادة العمليات المشتركة أو العمليات الخاصة لتنفيذ الخطط الحربية بدون الأوامر الصريحة المباشرة من الرئيس ذاته. قال إنّه لو كان يوجد مثل هذا التخويل فلا بُدّ أن يكون على علم به.

لكنّني في ذلك الوقت، كانت لدي الخبرة الكافية لأفهم أنّ ضابطاً في موقعه يستطيع أن يكذب بشكل مقنع حول قضايا من هذا الصنف بهدف المحافظة على السرية. لكنّ أفضل حكم لي في تلك الظروف هو أنّه حاول أن يساعد وأنّه كان أميناً صادقاً معي. لقد عرف أنّني مخوّل بطرح أسئلة مباشرة تتطلب الإجابة الصادقة، وأنّ الأمر بذلك صادر عن بَندي نفسِهِ، وليس من المعقول بالنسبة له أن يخدع مساعد الرئيس.

قام شَپَرد بالاستفسار من بعض الآخرين من شلة الرئيس في البيت الأبيض عن الموضوع، فأنكر الجميع مسألة معرفة أيّ شيء بخصوص التفويض. ثمّ قام بترتيب زيارة لي لمواقع القيادة تحت الأرض، المسؤولة عن توزيع التعليمات الخاصة في حالة قيام حرب نووية. أحد هذه المواقع هو مركز إدارة المواصلات البديلة، الذي يقوم مقام المركز البديل لقيادة الأركان المشتركة JCS في جبل رَيفِن رَوك، الذي يقع على مسافة 40 ميلاً عن واشنطن. كما توجد داخل هذا الجبل ملاجئ لإيواء القادة المدنيين في الحكومة خلال حالات الطوارئ الخاصة بالحرب النووية، وكذلك زرت منتجع الرئيس في كامپ دَيفِد في ولاية مَريلاند.

طلب منّي شَپَرد إشعاره بكلّ ما أتوصل إليه من المعلومات. لكنّ الضباط في كافة المراكز، التي زرتها، ادّعوا أنّهم على جهل تامّ بأيّ شيء يخصّ التخويلات. كما ظهر أنّهم ليسوا على علم بالافتراضات الشائعة في حوض الپِسَفِك أنّها موجودة فعلاً.

بالإضافة إلى ذلك، تحدثت مع الضباط المسؤولين عن غرفة العمليات في البيت الأبيض، فقالوا جميعاً «نعم» يجب أن يعرفوا إنْ كان أيّ شخص عدا الرئيس ممّن لديه السلطة أن يبدأ حرباً نووية. أكّدوا لي أنّه لو كان الأمر كذلك لكانوا عرفوا به، لكنّهم لا يعرفون شيئاً. ومرة أخرى، لا أحد منهم مطلع على ما يُشاع بشكل واسع في حوض البِسَفِك عن رسائل التخويل. وفي نفس الوقت عاد شَيَرد ليخبرني أنّ تحقيقاته اللاحقة عن الموضوع منذ تحدثنا عنه، لم تسفر عن أيّ جديد.

استنتجت بشكل مؤقت أنّ الاعتقاد في حوض البِسَفِك قائم على أسطورة كان واضحاً أنّها يجب أن تُبدّد. وبطبيعة الحال، لم أكن متأكّداً بشكل دقيق عن سلبية النتائج التي تمّ التوصّل إليها. كان الأمر يتعلق بحكمي على أنّ شَيَرد والضباط الآخرين كانوا يحاولون خداعي، وأنّ ذلك التخويل ما كان رسائل فعلية أو ربّما وصلت ووُزّعت قبل وصوله إلى منصبه الحالي. وعليه، لم يستطع أن يضع أصبعه عليها أو على أيّ دليل بشأنها، دون أن يعرف أحد بالأمر.

قدّمت تقريري إلى النائب الجديد لصاحبنا مكجورج بَندي، وهو كارِل كايسِن، الذي عمل أستاذاً للاقتصاد بجامعة هارفرد وزميل سابق في جمعية الخريجين المتفوقين. كان قد قرأ أطروحتي، التي قدمتها لهارفرد وأوصى بقبولي لعضوية الجمعية المذكورة. شرحت له حيرتي إزاء الموقف، وعدم تمكّني من التوصل إلى أيّ شخص في واشنطن، حيث صدرت مثل تلك التخويلات وحيث مقر القيادة العسكرية العليا. لم يُسمع بالأمر أنّ أحداً خارج واشنطن مفوّض أن يشنّ حرباً نووية بمحض إرادته. لكنّه لا يوجد سبب للشكّ بأنّ ضباط حوض البِسَفِك اعتقدوا بصدور تلك التخويلات وأنّ قادة على المستوى الأدنى من الرتب العسكرية قد تسلموها فعلاً.

هناك عدة إمكانيات لشرح هذه الفروقات في القناعات. أخبرت كايسِن أنّ أفضل ما توصلت إليه هو أنّ الضباط في حوض البِسَفِك قد خُدِعوا. ربّما أنّ رسائل التفويض من أيزنهاور قد لا يكون لها أيّ وجود. لكنّني كنت على قناعة تامّة أنّ الرسائل موجودة ولها نتائج فعلية ذات مخاطر، وأنّ الموقف يتطلب الإصلاح. لقد أولدت سابقة زائفة لذوي الرتب الأدنى في قيادة حوض البِسَفِك CINCPAC ولغيرهم، من الذين ما كان لديّ شكّ في قناعاتهم بوجود تلك التخويلات. إذا لم تكن رسائل أيزنهاور موجودة فعلاً فالسابقة ليست زائفة فقط، لكنّها خطيرة مهما كانت نسبة صحتها. ومهما كان الحال، فإنّ الوضع خطير والرئيس كندي يحتاج أن ينظر فيه.

إثر مرور شهر آخر وفي نهاية شهر يونيو ومطلع شهر يوليو، أتيحت لي الفرصة أن أكون في مكتب كايسِن في مبنى المكاتب التنفيذية، حين ذكر لي، «بالمناسبة، لقد عثرنا على دفتر ملاحظاتك السريّ».

- «أيّ دفتر ملاحظات؟» لم أسمع بمثل هذا الدفتر ولم أذكره له من قبل.

- «الدفتر الذي يتناول رسائل أيزنهاور». ثمّ أشار إلى دفتر ملاحظات سائب الأوراق موجود على طاولة قرب شبّاك مكتبه. قال لي إنّه توجد فيه نسخ من رسائل بتوقيع أيزنهاور إلى كلّ من قادة الوحدات الميدانية في سلاح الجو الأمريكي SAC وقاعدة الرادارات الشمالية في ألاسكا NORD، الذين كانوا يتحكمون بالأسلحة النووية، وبالذات خلال الظروف التي خولتهم استعمال تلك الأسلحة دون الرجوع إلى سلطة الرئيس المباشرة.

قال إنّ تلك الظروف تتعلق بالحاجة، حسب تقديرهم، للتحرك السريع حين تكون الاتصالات بواشنطن مقطوعة. كما تضم أيضاً الأوقات التي يكون فيها الرئيس غير متمكّن جسدياً، مثلاً حين أصيب أيزنهاور بسكتة دماغية. يبدو من هذا أنّ تلك السلطة لم تخوّل لوزير الدفاع، الذي يأتي في الترتيب الثاني في تسلسل القيادة حسب قانون الأمن القومي لعام 1958. الحقيقة هي أنّ تلك الرسائل قد أرسلت عام 1957.

كان من الواجب أن أطلب الاطلاع على الرسائل الحقيقية، لكنّني لم أفعل ولم أطلب تفاصيل أكثر ولم أسأل كيف حصلوا عليها. أخبرني أنّه ما كان مقتنعاً تماماً باستنتاجاتي واستمر ينبش في الموضوع حتى ظهرت الرسائل أخيراً.

- سألته، «ماذا قرر الرئيس كندي أن يفعل؟».

- «لا شيء، إنّه لا يفعل شيئاً، وترك الرسائل في مكانها».

ما كان ذلك ما وددت أن أسمع، فسألته «لماذا لا يفعل شيئاً؟».

- قال كايسِن، «هذا ليس بالوقت المناسب أن يقوم الملازم كندي بإلغاء قرار **الجنرَل الكبير**».

«الملازم» كندي كان ضابطاً في البحرية خلال الحرب العالمية الثانية، وأنّ حملته الانتخابية بكاملها قامت على تصويره بطلاً في تلك الحرب. لقد حدث ذلك بعد أن شُطِر زورقه إلى قسمين بفعل قذيفة من مدمرة يابانية. صحيح أنّ كندي هو الآن القائد العام للقوات المسلحة، لكنّه ما كان القائد

الأعلى لقوات الحلفاء في أوروپا. وكما ذكر كايسِن فإنّ الوقت غير مناسب للرئيس أن يظهر عدم اتفاقه مع قرار اتخذه الجنرَل في وقت سابق.

«الوقت ليس مناسباً لذلك». أستطيع أن أتفهّم الدوافع السياسية لهذا العذر من الناحيتين البيروقراطية والسياسية. كان ذلك بعد وقت قليل من فشل غزو خليج الخنازير في كوبا والتقارير عن ضعف أداء كندي في مؤتمر فينا مع خروچَوف. لكنّ الأمر ما زال منفراً بالنسبة لي. لقد عنى ذلك أنّ كندي ومجلس الأمن القومي سوف لن يراجعا أو يعملا أيّ شيء إزاء قضية ذات خطورة عالية، أي منح تفويض ثانوي ورخاوة في السيطرة على مستوى قيادات من جنرَلات وأدميرَلات بمستوى دون 4 نجوم. لو سُئِلت عن الأمر لأخبرت كايسِن وبَندي أنّ رسائل التفويض جميعاً، يجب أن تُلغى، أو على الأقل يوقفُ العمل بها، لحين النظر فيها ومراجعتها.

ولكنّ هذا عنى أنّه ستكون هناك مواجهة مع العسكر حول تفويض السلطة الثانوي، ولربّما تكون له حدّة يجب أن يتوقعها الجميع، وهي أنّه لو كان كندي قد ألغى فعلاً التفويض الممنوح للقيادة المشتركة في حوض الپَسَفِك CINCPAC والقيادة المشتركة لسلاح القوة الجوية CINCSAC، وكذلك قيادة القوات المشتركة الأخرى والقوات الخاصة، فمن المتوقع أن يقوم الجنرَل لورِس نورستاد في حلف الأطلسي وغيره بتسريب الأخبار إلى الأعضاء الجمهوريين في الكونگرس. سيثير هؤلاء الموضوع في اجتماعات مغلقة، وستتسرب الأخبار عن تلك الاجتماعات بأنّ الرئيس كندي لم يعارض فقط متطلبات السلامة الوطنية، بل أنّه تراجع أيضاً عن قرارات **الجنرَل العظيم**.

من أجل التعويض عن الانطباع بقلة الخبرة بعد حوادث الأشهر القليلة الأخيرة، عيّن كَندي جنرَلاً في القوة الجوية هو كُرتِس لومَي، المعروف بسيرته العسكرية الصارمة، رئيساً لأركان القوة الجوية، وذلك بتاريخ 30 يونيو من عام 1961. حدث هذا رغم حقيقة أنّ عدداً من المراقبين، بما فيهم روبرت كَنَدي، قد ذكروا أنّ بعض العسكريين وعلى رأسهم لومَي سيعطون كندي الانطباع بأنّهم في الأساس مجانين ومغامرين لا تربطهم بالواقع أيّة صلة. وهذا ما أظهره لَومَي نفسه في السنة التالية حين ظهر في برامج يوم الأحد عام 1962 وقدّم نصيحة شديدة اللهجة إثر إعلان خروچوف عن تفكيك قواعد الصواريخ السوفياتية في كوبا، واقترح أنّ الرئيس كَنَدي يجب أن يمضي في الخطة لمهاجمة كوبا.

في خريف عام 1961، وكجزء من عملي مع الجنرَل أرِل پاترِج، الذي ترأس مجموعة عمل حول قيادة الرئيس وسيطرته، اتصلت بمكتب رئيس أركان القوة الجوية لأجل إجراء مقابلة. ذكرت شيئاً عن تلك المقابلة القادمة لصاحبنا كايسِن، فسألني إن كان بإمكانه أن يصطحبني، خاصّة وأنّه لم

يقابِل لَومَي الأسطوري من قبل.

من الطبيعي أنّني سألت لَومَي خلال حديثنا عن مدى قلقه، باعتباره رئيساً لأركان القوة الجوية، حول إمكانية هجوم مباغت من قبل الغواصات السوفياتية لتدمير واشنطن. ردّ بهدوء أنّه «يشعر بالقناعة» حول مدى سلطته في القيادة المشتركة لسلاح القوة الجوية CINCSAC وسيُنفذ خططه إذا حدث ذلك. وهو إشارة واضحة وصريحة إلى تفويض أيزِنهاور، الذي تحدثت عنه في مطلع تلك السنة والذي ثبّته كايسِن.

ولكن قبل أن أتابع سؤالي، رجعت بي الذكرى إلى مقابلاتي والإشارة إلى تفويض سلطة شنّ حرب نووية إلى الضباط في حوض اليَسَفِك، نقل لَومَي النقاش إلى مستوى آخر لم أطرقه من قبل. قال، «إذا افترضنا أنّ واشنطن لم تتعرض لضربة، رغم تلقينا معلومات عن هجوم وشيك، هل تعتقد أنّ للرئيس دوراً في عملية اتخاذ القرارات، حتى وإن كان حيّاً وعلى علم بالموضوع؟»».

لم أسمع وكذلك كايسِن مثل هذا السؤال يُطرح بتلك الصراحة. انتظرنا منه أن يُعقب، وكان توقع ذلك. حرّك السِگار نحو زاوية فمه بطريقة لاحظت البعض من زملائه يقلدونها، وعبّر تحرّك السِگار في فمه عن صرامته، التي تتماشى مع شهرته. علمت فيما بعد أنّه استعمل تلك الطريقة ليغطي على ظاهرة شلل في إحدى شفتيه. ثمّ تحدّث بصوت خشن وطرح سؤالاً خطابياً، «بعد كلّ شيء، مَن هو برأيك الأكثر كفاءة لاتخاذ القرار بشنّ الحرب النووية على أساس التحذيرات المسبقة؟ **سياسي** حصل على منصبه قبل شهرين فقط... أم رجل أمضى حياته المهنية وهو يستعدّ لها؟» تكوّرت شفتاه وحشرج صوته وهو يتلفظ كلمة **سياسي** politician، وأعطى لصوت حرف p تأكيداً ملحوظاً، ولا شكّ أنّه قصد ذلك متعمّداً. كانت تلك هي السنة التي أوقف فيها «الملازم كَنَدي» الإسناد الجوي لقواته المحاصرة، التي غزت خليج الخنازير. علمت فيما بعد أنّها السنة، التي امتنع فيها من هدم جدار برلين حين بدأ السوفيات بوضعه، ورفض إرسال قوات مقاتلة إلى فيتنام وقبلها إلى لاوس. ظلّ الجنرَل يكرر هذه التعليقات لسنوات وكان قائد القوات الجوية الستراتيجية هو نفسه، الذي خطط ونفذ إفناء 100 ألف مواطناً مدنياً يابانياً خلال قصف كثيف لطوكيو أثناء غارات دامت يومي 9 و10 مارس من عام 1945، أي بعد 5 أشهر من إسقاط القنبلتين على هِروشِما ونَگزاكي.

لم أعرف لحدّ الآن لماذا لم أتمكن من تأكيد وجود رسائل التخويل بنفسي. حين أثرت الموضوع بعد فترة متأخرة مع تازوِل شَپَرد، الذي أصبح برتبة نقيب في البحرية، بعد أن وجد كايسِن دفتر الملاحظات، فأكّد لي بطريقة مقنعة أنّه ما كان يمزح معي وأنّه حقيقة لم يعرف بوجود الرسائل وقت سألته عنها. ولولا أنّني قد سمعت موضوعها حين أعددت دراستي عن حوض اليَسَفِك وأثرت

الموضوع مع بَندي، فباعتقادي أنّه لا أحد في البيت الأبيض، كان عرف بالموضوع حتى وقت طويل.

* * *

في نفس الوقت، الذي أتيح لي فيه المجال بدخول البيت الأبيض أصبح بإمكاني أن أثير مختلف القضايا وأربط بينها. في شهر أبريل من عام 1961، أبلغت هاري رَوِن عن الوضع في إيواكوني. كان رئيسه نيتزَ هو الملحق العسكري لدى الدول الأجنبية المكلف بمتابعة أوضاع القواعد الأمريكية في الخارج. لديه سلطة مدنية باعتباره يعمل بإمرة الوزير مَكنمارا ويتعامل مع اليابان وبالتالي مسؤول عن إمكانية مخالفة شروط معاهدة الدفاع المشترك في قاعدة إيواكوني. طلب مني هاري أن أصف المشكلة كتابياً في مذكرة لكي يطلع عليها نيتزَ وأن أقوم بطباعة المذكرة بنفسي وختمها، «سري للغاية - لاطلاع پول نيتزَ فقط».

«لاطلاع... فقط» ليس تصنيفاً سرّياً، لكنّه يعني أنّ المذكرة ليست لأغراض التداول داخل المكتب أو خارجه، ويجب عدم استنساخها أو اطلاع أيّ أحد عليها باستثناء الشخص الموجّهة إليه. الحقيقة هي أنّ الوثيقة تصبح «لأغراض اطلاعهم جميعاً». إنّ الحاجة لاتخاذ مثل هذا الإجراء هي أنّ مكتب شؤون الأمن العالمي ISO مليء بالضباط العسكريين، الذين لا زالوا في الخدمة ومنتدبين من مختلف صنوف القوات المسلحة. يقتصر ولاء هؤلاء، من الناحية النظرية، على المكتب المذكور ورئيسه، ولكن من حيث الواقع، فإنّ أوضاعهم المهنية مرتبطة بعلاقاتهم مع رؤسائهم السابقين واللاحقين في مراكزهم الأصلية. وبطبية الحال، يحاول هؤلاء الضباط على إبقاء قنوات التواصل مفتوحة وينقلون بشكل خفي أيّ شيء يتعلق بتلك المراكز ورؤسائها. فعلى سبيل المثال، اعترضت البحرية Navy ومشاة البحرية Marines بقوة على أيّ قرار صادر عن مكتب نيتزَ يتعلق بتغيير تدريباتهم. ولذلك من المهم أن يؤخّر علمهم بما ينوي مساعد الوزير فعله.

كتبت بالتفصيل كافة ما أعرفه عن الأسلحة النووية الموجودة على ظهر المدمرة سان خوان الراسية في القاعدة المذكورة وكيف عرفت تلك المعلومات. كما طرحت تحليلاً شاملاً لكافة العوامل السلبية والإيجابية لرسوها هناك، لأنّ أيّ فرد يطلع على ذلك سيفترض وجود تبرير تقني أو ستراتيجي لرسوها في تلك القاعدة. ليس لوجود الباخرة على الإطلاق أيّة فائدة عسكرية ملموسة تعادل مدى المجازفة الدبلوماسية، التي يمكن أن تحدث جرّاء ذلك الوجود.

السبب في وجود سرب طائرات مشاة البحرية في قاعدة إيواكوني هو سهولة حصولها على الأسلحة الذرية، ولأنّ الأمر كذلك يتعلق بمدرجات الانطلاق والهبوط الموجودة قرب الساحل. ونظراً

لأنّ قوات مشاة البحرية كانت في حينها جزء من سلاح البحرية، قام منتسبوها بالتدريب على المناورات البرمائية، وكان سلاح البحرية قادراً وراغباً في تزويدهم بشكل سريّ بأسلحة نووية بواسطة العربات البرمائية LST. ظهر أنّ سلاح الطيران ما كان راغباً في عمل نشاط من هذا النوع وامتنع عن وضع طائراته هناك، لأنّهم اعتقدوا أنّ الأمر ليس عملياً وما يجدي نفعاً أن يضعوا KC-97 محملة بالأسلحة النووية وتطير في الجو على مدار الساعة فوق قاعدتهم في اليابان. وصدق الأمر على كافة القواعد الخاصة بسلاح الطيران. إنّ هذه المخالفات الصريحة لنصوص المعاهدة تقتصر على عدد من الأسلحة في إحدى القواعد فقط، لكنّ المخاطرة السياسية تجعل الأمر وكأنّه مخالفات في العديد من القواعد.

اهتمّ نيتزَ بمذكرتي وكلف مساعده تِمُثي ستانلي، أن يتابع الموضوع ويحقق في المشكلة. طلب الأخير منّي إعادة كتابة مذكرتي تلك ليوزعها على عدد من أعضاء العاملين معه. اطلعت فيما بعد على عدد من تقاريرهم، التي اعتمدت على مذكرتي وأيّدت كافة الحقائق، التي تناولتها. كما أيّد متخصصو العلاقات الأجنبية داخل مكتب قضايا الأمن العالمي ISA بأنّ الموقف تجاوز واضح لنصوص معاهدة الأمن مع اليابان وروحها.

وردت في التقارير المشار إليها مقارنة الوضع في إيواكوني مع قضايا أقلّ خطورة، مثل زيارات حاملات الطائرات، وحتى طائرات تحذيرات الطوارئ. لكنّ المدمرة سان خوان كانت راسية بشكل دائم. يمكن الادعاء «أنّها موجودة في المياه العالمية، وليس ضمن المياه الإقليمية لليابان». لكنّ وجودها قرب الساحل يجعلها من الناحية القانونية في المناطق اليابانية. كما أشارت التقارير إلى المواقف الدبلوماسية شديدة الصعوبة، واقترحت أنّ الحاجة ملحّة لإصلاح الموقف مباشرة.

ثمّ جاءت معلومة أخرى. ذكر أحد المحققين في القضية أنّه ذهب إلى المساعد الخاص لوزير الدفاع لقضايا الأسلحة النووية والطاقة النووية، جيرالد جونسُن. كان هذا مسؤولاً عن معرفة مكان تواجد كلّ سلاح نووي حول العالم، بما فيه طرق اختبارها والأسلحة، التي ما زالت في طور الإنتاج. امتلك هذا المساعد سجلاً كبيراً عن موقع كلّ سلاح فعّال في العالم. لم يُظهر السجلّ المذكور أيّة إشارة لوجود أسلحة من هذا النوع في اليابان، ولم يرد ذكر لسفينة تحمل أسلحة نووية راسية هناك. في الحقيقة، إنّ ذلك السجل لم يُشِر إلى أيّ موقع أتيت على ذكره بصدد وجود تلك الأسلحة.

حين زاد محقق نيتزَ من ضغطه على جونسُن، الذي أشار عمله إلى أنّه ممثل مباشر لوزير الدفاع، تناول هذا الهاتف وتحدّث مع الشخص الذي له نفس الوظيفة في سلاح البحرية ليتحقق من الأمر. تلقى ردّاً بأنّ الموقف، الذي سأل عنه لا وجود له، وأنّ قصتي لا أساس لها من الصحة.

وعلى أيّة حال ولغرض متابعة الموضوع، ذكرت اسم المدمرة سان خوان، فوجد أحد محققي نيتزَ أنّها مسجّلة في سجلات البحرية وأنّ مكان رسوّها هو في قاعدة أوكيناوا. أظهرت مقابلات متابعة أخرى أنّ المعلومات المذكورة جزء من لجوء سلاح البحرية إلى هذه الطريقة لغرض التغطية أو لخداع المساعد الخاص ورئيسه حول حقيقة كونها راسية بشكل دائم في قاعدة إيواكوني، ما عدا شهور قليلة كلّ 3 سنوات حين تأتي إلى أوكيناوا لأغراض التصليح والإدامة. وبمحض الصدفة، كانت المدمرة وقت إجراء التحقيق راسية في أوكيناوا للأغراض المذكورة.

يُشكّل خداع وزير الدفاع عن أماكن تواجد الأسلحة الذرية مسألة بالغة الأهمية لا يمكن تصورها من الناحية البيروقراطية، لن تغيب عن ذهن أيّ شخص يطلع على مثل هذا التقرير. فالمسألة تتعدى البيروقراطية وشكلياتها. ومع ذلك، كان يوجد لها حلّ بيروقراطي. المطلوب إعادة السفينة البرمائية LST والمدمرة سان خوان إلى مركزهما في قاعدة أوكيناوا. تولى أحد مساعدي نيتزَ الأمر مباشرة ورفعه إلى مكنمارا. وُضِعت تعليمات وقدّمت إلى الوزير كي يطلب عدم عودة تلك المدمرة إلى مياه اليابان. وقّع مكنمارا الأمر وبُعث إلى قائد العمليات البحرية CNO الأدميرَل آلرايت بُرك.

أخبرني هاري رَوِن بما جرى بعد ذلك. وقت أرسِلت تعليمات مَكنمارا، كان نيتزَ مجتمعاً معه حول قضية أخرى وكان معه أيضاً الأدميرَل بُرك. طلب الأخير من نيتزَ أن يرافقه في العودة إلى مكتبه في جناح آخر من مبنى البِنتَگون. وحين وصلا هناك جلس بُرك خلف طاولته فلاحظ نيتزَ نسخة وثيقة من نوع «سرّي للغاية - لاطلاع... فقط» كانت موجودة أصلاً على الطاولة. وما كان يجب أن توجد تلك النسخة لدى أيّ شخص آخر.

كان واضحاً أنّ أحد القادة أو النقباء من الذين يعملون مكتبه قد اطلع على المذكرة واستنسخا وسلمها للأدميرَل. كانت توجد أيضاً على الطاولة نسخة من تقرير تحقيق مكتب شؤون الأمن العالمي ISA وتعليمات مَكنمارا الموجهة إليه.

بدأ بُرك مناقشة مذكرتي وتقرير التحقيق، دون أن يكلف نفسه عناء توضيح كيف استطاع الحصول على نسختين منهما. ذكر نيتزَ أمام هاري أنّ «بُرك كان غاضباً». كان معروفاً عنه سرعة الغضب، لكنّ هذا السلوك بحضور مساعد وزير الدفاع كان أمراً مفاجئاً بالنسبة إلى نيتزَ. لم يحاول بُرك إنكار الحقائق التي وردت في التقرير أو تبريرها. الشيء الوحيد الذي صرح به وسط غضبه أن قال، «ماذا فكّرت وأنت تقوم بهذا العمل؟ أنت شخص مدني تتدخّل في عمليات سفن سلاح البحرية الأمريكية؟».

إنّ حقيقة كون وجود تلك المدمرة مخالفة لإحدى أهم معاهداتنا الأمنية وأنّها شكلت بوجودها في المياه الإقليمية لليابان مخاطر دبلوماسية عالية، وأنّ كونها تحمل أسلحة ذرية، مخالفة لتعليمات انتشار تلك الأسلحة، ومحاولة مقصودة لخداع وزير الدفاع بشأنها. إنّها تكشف أنّ مساعد وزير الدفاع قد تعرّض للكذب من قبل سلاح البحرية. لم يتطرق بُرك إلى تلك القضايا ولم يودّ السماع عنها. استمرّ يقول إنّه ليس من المقبول أن يفترض وزير الدفاع أنّ لديه السلطة لإخبار سلاح البحرية أين يضع سفنه.

تولّد انطباع لدى رَوِن أنّ نيتزَ قد ترك مكتب بُرك وهو يرتجف من مصارحة الأخير له بتلك الطريقة. لكنّه كان مصمّماً على جذب سلاح البحرية وتوجيهه نحو المسار المطلوب. بطبيعة الحال، لم تكن لديه سلطة لفرض الواقع على بُرك، سوى أنّه اختير بشكل مباشر ليكون ممثلاً لوزير الدفاع. وعليه، فإنّ كلّ شيء اعتمد على موقف مَكنمارا والإصرار على تنفيذ تعليماته ومساندة موقف نيتزَ. أخبرني رَوِن أنّ نيتزَ ذهب إلى مَكنمارا وأخبره أنّ الأمر في غاية الضرورة القصوى، وأنّه يجب أن يُصدر الأوامر إلى بُرك لتنفيذ تعليماته والالتزام بنصوص المعاهدة مع اليابان.

- سألت هاري، «وماذا حدث بعد ذلك؟».

- «قرّر مَكنمارا سحب تعليماته الأولى وتراجع عن موقفه. مع كلّ الصدامات التي كان منشغلاً بها مع مختلف فروع الخدمات العسكرية، ما كان راغباً في إضافة خصومة أخرى».

- سألته، «هل عرف مَكنمارا أنّ سلاح البحرية قد كذب عليه؟».

- قال هاري، «نعم، هذا ما جعله غاضباً في الأصل، وذلك ما دفعه لإصدار تعليماته».

ولكن بسبب القصة، التي رواها له نيتزَ عن سورة غضب بُرك، اختار مَكنمارا أن يفتح جبهة خلاف أخرى تدور حول عدد الحاملات المسيّرة بالطاقة النووية. باستطاعتي أن أخمّن أنّ سلاح البحرية سيسرّب الأخبار بطريقة مشوّشة إلى لجنة الكونگرس المؤيدة له، وسيضطر مَكنمارا للدفاع عن نفسه بصدد الاتهامات أنّه يتدخّل بشكل غير مقبول في العمليات وتحريك السفن حسب رغبته.

تعرّضت أنا نفسي لمثل هذا السؤال، الذي طرحه عليّ نائب رئيس مؤسسة راند، رِچَرد گولدستين حين رجعت إلى كاليفورنيا. اشترك الجنرال لَومَي حديثاً في جلسة للمجلس الاستشاري للقوة

الجوية، الذي يقرر ميزانية المؤسسة، فدعاني ڰولدستين إلى مكتبه وقال، «دان، هذا أمر صعب تصديقه ولكنّنا متهمون من قبل الجنرَل لَومَي، اعتماداً على ما نقله الإدميرَل بُرك له، بأنّني أعطيت سلاح البحرية أوامر عن كيفية تحرّك السفن المدمرة، «هل هذا صحيح؟»».

أبديت عجبي من هذا السؤال. صحيح أنّ أغلب الأشياء، التي عملتها في واشنطن ربّما بدت «وقحة» في نظر بعض الضباط العسكريين، لكنّني أخبرته بأنّني لم أفعل شيئاً من ذلك القبيل. تطلب الأمر منّي لحظة أو لحظتين لأدرك ماذا قصد. أخبرت ڰولدستين القصة كاملة، فرفعها بدوره إلى رئيس المؤسسة وأعضاء مجلسها الاستشاري. لم أخضع لأيّة عقوبة، رغم أنّي علمت أنّ بُرك قد طلب من لَومَي أن يسعى لفصلي من المؤسسة.

عادت المدمرة سان خوان إلى إيواكوني وهي محملة بشحنة من الأسلحة النووية. قام نيتزَ بعد مرور سنتين بمحاولة أخرى لكنّها أحبِطَت وظلت المدمرة في مرساها لغاية عام 1966، حين علم أدوِن رِشو، سفيرنا في اليابان بوجودها، إثر تسريب الخبر إلى مكتبه. طلب إعادتها إلى قاعدتها في أوكيناوا، وهدّد بتقديم استقالته إن لم يتمّ ذلك. وأخيراً وفي عام 1967، تحرّكت المدمرة من مياه اليابان الإقليمية عائدة إلى مركزها في تلك القاعدة.

الفصل الثامن
«خطتي» للحرب النووية

عملت طيلة فصل ربيع عام 1961 على مشروع كلفني به هاري رَوِن. لقد طلب منه رئيسه پَول نيتزَ وضع أسس سياسة للأمن القومي BNSP، خاصّة بوزارة الدفاع. كان الرئيس أيزنهاور قد بدأ سلسلة من الوثائق بالغة السرية تضمن وتعبّر عن دور السلطة المدنية في إقرار الأهداف والقواعد لخطط الحرب، التي تضعها وزارة الدفاع.

خلال فترة حكم أيزنهاور، كانت كلّ وثيقة تعود إلى BNSP لا تتجاوز 3- 4 صفحات جسّدت «النظرة الجديدة» و«الانتقام واسع النطاق» حسب مبادئ جون فوستر دَلاس وقائد هيئة الأركان المشتركة الجنرَل آرثر رادفرد. أكّدت تلك الوثائق على «الاعتماد الرئيسي وليس الوحيد» على الأسلحة النووية، على عكس الأسلحة التقليدية غير النووية. في الحقيقة أنّ هذا الاتجاه عبّر عن ميول مسؤولي إدارة أيزنهاور، الذين صنفوا الأسلحة النووية ذاتها باعتبارها أسلحة «تقليدية». خلال عدة سنوات حين كان كندي عضواً في مجلس الشيوخ، كان في صف المعارضين لمبدأ الانتقام واسع النطاق ومؤيداً للمبدأ الذي طرحه رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرَل ماكسوِل تيلَر، الداعي إلى «ستراتيجية الردّ المرن». وبناء على ذلك، فإنّه لدى تنصيب جون كندي مقاليد الحكم رئيساً للبلاد، كان متوقعاً أنّ الپنتگون سيحدث تغييراً مهمّاً في سياسة توجيهات التخطيط للحرب. أفترِض أنّ ذلك عنى مراجعة شاملة جذرية لأسس سياسة الأمن القومي.

في شهر فبراير قدّم بِل كوفمَن من قسم العلوم الاجتماعية في مؤسسة راند تقريراً موجزاً لوزير الدفاع مَكنمارا ضمّنه بعض الاقتراحات تخصّ قيادة الأركان الجوية وهدفها إبعاد سلاح الطيران عمّا وصفه زميلي في راند هِرمَن كان «مفهوم التشنج» الطاغي فيما يتعلق بالحرب. أو كما وصفه وأشار إليه مراراً بأنّ استعمال كلّ ما يتوفر لدينا من الأسلحة واستخدامها بدون أيّ تردد، يصبح أمراً يمكن وصفه بأنّه ضرب من هوس الحرب، التي لا مفرّ منها wargasm. اقترح بدلاً من

ذلك مفهوم تطوير القدرات من أجل حرب مستديمة ومسيطر عليها أو «حرب قتالية» تركّز على الأهداف العسكرية وتستبعد استهداف المدن على الأقلّ خلال مراحل الهجوم الأولى.

في رأي أنصار سلاح الطيران، وهؤلاء لا يشملون لَومي، عنت تلك الستراتيجية استهداف خدمات الخصوم في سلاح البحرية لدى الاتحاد السوفياتي. الصواريخ التي تطلقها غواصات پولارِس أصغر من تلك التي يمتلكها سلاح الجو بقواعدها الأرضية ICBMs وأصغر حجماً من تلك التي تحملها القاذفات. كانت هذه في تلك الأيام وقبل تطوير نظام تحديد الأماكن GPS غير دقيقة، في الوقت الذي كانت فيه صواريخ پولارِس المنيعة نسبياً كافية تماماً لردع سياسات الحرب التي تستهدف المدن. ويجب الاعتراف بأنّها أقلّ فاعلية ضد قواعد الإطلاق الخرسانية مثل صوامع صواريخ ICBMs المبنية تحت الأرض، والتي لم يملك السوفيات شيئاً منها عام 1961. ولكن كان من المتوقع أن يبنوا منها المئات وربّما الآلاف في وقت قريب. كانت تلك الستراتيجية لصالح قاذفات سلاح الجو والصواريخ. في الحقيقة أنّ الدور الوحيد الذي ستكون لها فيه فائدة هو باعتبارها سلاح ردّ لتقليل حجم الخسائر في الجانب الأمريكي، وفي حالة هجوم أولي مباغت يدمّر قواعد الصواريخ السوفياتية الأرضية قبل أن تنطلق من قواعدها. وبطبيعة الحال، كان هذا هو الموقف المفضل في رأي سلاح الطيران. وبعد أن سمع مَكنمارا تقرير كوفمَن عن الموضوع ومناقشاته، بدا أنّه متعاطف معه.

كان من الطبيعي أن يقوم هاري بتعيين كوفمَن، الذي عمل حينها مستشاراً في واشنطن، كما كان حالي. طلب منه أن يضع خطة حرب وقسماً يقوم على أسس سياسة الأمن القومي الجديدة BNSP. ولكن لسبب ما أثار رَوِن دهشتي حين طلب مني أن أتولى إعداد ذلك القسم، وأوكل بصاحبي كوفمَن مهمة الجزء الذي تناول الحرب النووية المحدودة. كنت على علم أنّ وجهات نظري حول ما يجب أن تكون عليه السياسة الجديدة، أقرب إلى وجهات نظر رَوِن، منها إلى وجهات نظر كوفمن حول أهمية القوة المضادة، وافترضت أنّ ذلك هو سبب تكليفي. شجعني الأمر على أن أعيد النظر في مسودة تقريري عدة مرات واعتبرت ذلك عملية تبلور لأفكاري وجعلها محدّدة لأقصى قدر ممكن. توقعت أنّ النتائج في النهاية ستكون موضع رضا رَوِن وقبوله. ربّما كان ذلك هو ما توقعه أيضاً، لأنّ التعليمات التي زودني بها هي أن قال، «اكتب ما تعتقد أن تكون عليه تلك التوجيهات»، وذلك ما نويت أن أفعله حين باشرت في مهمتي.

يقوم مفهوم سلاح الطيران حول «القتال في الحرب» أو «الحدّ من الأضرار» الناجمة عن هجوم القوات النووية السوفياتية، على هجمات طويلة الأمد ومُسيطراً عليها ضدّ أهداف أنظمة الأسلحة السوفياتية والبلدان الأخرى الدائرة في الفلك السوفياتي في أوروپا الشرقية. عنى هذا هجمات

دقيقة ضدّ الصوامع الخرسانية المحصنة للصواريخ ومراكز القيادة والتحكم. إضافة إلى استخدام صواريخنا الأرضية ICBMs، فإنّ هذا المفهوم قد تطلب زيادة أعداد القاذفات ذات القدرة العالية والقابلة على اختراق الدفاعات السوفياتية، إمّا بالطيران المنخفض الذي لا تستطيع رادارات العدو اكتشافه، أو بالطيران الشاهق الذي لا تصله صواريخ أرض - جو، لكي تلقي هذه القاذفات حمولاتها من الذخائر والمواد المتفجّرة الأكثر دقة في إصابة الأهداف من الصواريخ بعيدة المدى. وعنى هذا تأييد مقترحات سلاح الطيران ومساندة برنامجه لإنتاج قاذفات B-70، التي سُمّيت فيما بعد B-1.

أراد الجنرَل كورتِس لَومَي، قائد سلاح الطيران المعروف عنه ميله الفطري للتقليل من شأن مسألة مهاجمة المدن، الحصول على قاذفات كبيرة تطير على ارتفاع عال وسريعة وباستطاعتها حمل المزيد من أسلحة التدمير، وكان مؤيّداً متحمّساً لبرنامج إنتاج قاذفات B-70. أخبرني صديقي المقدم بوب لُكمَن أنّه سمع شخصاً مدنياً في البِنتگون قد تلقى أمراً من ضابط عام أنّ الأولوية بالنسبة لسلاح الطيران عام 1961 هي الحصول على قاذفات B-70. وحين سُئل عن الأولوية الثانية، ردّ بأنّه «لا توجد أولوية ثانية». أبلغني لُكمَن أنّ لسلاح الطيران حينها «أولوية واحدة لا غيرها».

تشير ستراتيجية الردّ المضادّ إلى جهود سريعة لتحسين دقة الصواريخ. كان ذلك هدفاً قيل أنّه مضاد لبرنامج البحرية لتطوير الصواريخ المتحركة، أي صواريخ پولارِس التي تطلق من الغواصات، والتركيز على الصواريخ التي تطلق من قواعد أرضية تتحكّم بها القوّة الجويّة. وفي نفس الوقت، دعت الخطة إلى زيادة أعداد تلك القواعد للتعويض عن عدم دقتها الحالية ضدّ الأهداف العسكرية الصغيرة والمحصنة. وقبل أن تنتهي السنة، طالب لَومَي والجنرال تَومَس پَوَر، الذي حلّ محلّ لَومَي كقائد لسلاح الطيران، بالحصول على 10 آلاف صاروخاً من نوع مِنِتمَن، الذي يُطلق من قواعد ICBMs الأرضية.

من أجل طرح الموضوع على مَكنمارا، أعطاه كوفمَن رأي مستشاري راند وماذا يودون عمله والمنطق المبرر لمساندة برنامج B-70 ولقواعد الصواريخ الأرضية التي تحت إشراف سلاح الطيران. لم أكن على بيّنة من الأمر إن كان كوفمَن يعتقد حقاً بمهمة سلاح الطيران في تأمين الردّ المضاد. أمّا الآخرون في راند فكانوا غير مقتنعين بستراتيجية كَوفمَن حول القوة الجوية USAF. ولكن ذلك لم يعنِ أنّ إدارة راند والمحللين في المؤسسة لم يرحبوا بخطة كَوفمَن ولم يجدوا ضيراً فيها، واستقبلتها قيادة سلاح الطيران بحماس، وكذلك كان موقف وزير الدفاع الجديد إزاءها.

كنت من بين الذين راودتهم الشكوك، وكذلك كان موقف هاري رَوِن، لأنّ مزايا قوة الهجمات المضادة لحصر الخسائر في المناطق المستهدفة أو داخل الولايات المتحدة، لم تعجبني. ولو افترضنا،

كما فعلنا في ربيع عام 1961، أنّ الاتحاد السوفياتي يمتلك عدداً لا بأس به من الصواريخ العابرة للقارات ICBMs أو سيزيد من تحصيناته وعدد صواريخه التي تطلقها غواصاته، فقد كان واضحاً بالنسبة لي، أنّه إذا قامت الحرب فلا يمكن الاعتماد على كلّ هذا تماماً للحدّ من مستويات الأضرار الكارثية. وعليه، كان يوجد قدر واسع من القوة النووية لا يمكن قياسه أو التنبؤ به لردع أو منع أو تجنب حرب نووية شاملة تحت أيّ ظرف.

ولكن ما زال هناك سؤال هو، ماذا نفعل إذا فشل الردع؟ وكما ذكر كوفمَن فإنّي تقبلت فكرة أنّه إذا اشتعلت حرب شاملة، فإنّ الصواريخ التي تنطلق من قواعدها الأرضية، يجب أن توجّه نحو الأهداف العسكرية، سواء منصّات إطلاق الصواريخ والقواعد العسكرية وغيرها، وقبول كلّ ما يمكن أن يحدث من أضرار. ولكن بدا لي أنّ ما يمكن أن يتيح مجالاً للحدّ من الأضرار «هو التحكّم بقوّة الردّ المضاد»، كما شرحه كوفمَن حول الأجزاء الأخرى من سبل الإذعان، أي ستراتيجية «عدم استهداف المدن»، التي قدّمها إلى مَكنمارا والهدف هو إنهاء الحرب بأقصى سرعة ممكنة وقبل انطلاق كلّ ما أعدّ من آلات التدمير ضدّ الأهداف المدنية. مضى وقت طويل قبل أن أدرك التناقضات القاتلة بين هذين المكونين للهدف المفترض الواحد للستراتيجية ذاتها، مع عدم فعالية أيّ من هذين المكونين.

تطلب الهدف الأخير شيئين هما ردع الخصم إن أمكن من شنّ هجمات على المدن الأمريكية أو حلفاء أمريكا، حتى لو قامت حرب نووية من قبل طرف دون الآخر. وفي نفس الوقت حمل قيادة الخصم على عدم استعمال كافة الأسلحة المتوفرة لديها.

فرض الأمر وجود ثلاثة عناصر في خططنا وعملياتنا. أوّلاً، أن نستثني تماماً كافة مدن العدو وتجمعاته السكانية خلال ضرباتنا الأولى. وهو ما أطلقنا عليه «استثناء المدن». يجب أن نعلن عن نوايانا هذه مسبقاً وقبل بدء المناوشات. وهذا يعني ابتعاداً مباشراً عن السياسة الرامية إلى تنفيذ أيّة أهداف لتدمير المدن تحت كافة الظروف، ثم نعود فنفعل ذلك. وهي سياسة كانت ستجعل العدو يرفع كافة القيود لاستهداف مدننا وتدميرها.

ثانياً، تتطلب الخطة أيضاً استمرار وجود قوة عسكرية احتياطية تحت كافة الظروف، للمحافظة على القدرة التهديدية من أجل إنهاء الحرب. قد يعمل ذلك على ردع تحضيرات العدو لتدمير مدننا، باعتبار ذلك خطوة أوتوماتيكية لا يمكن تجاوزها في ستراتيجية الحروب.

ثالثاً، تحتاج الخطة المحافظة من قبل الجانبين على نظام للقيادة والتحكم بالقدرات من أجل السيطرة على قوات الاحتياط وإنهاء كافة العمليات. يحتاج كلا الطرفين إلى نظام قيادي قادر على

البقاء وله القدرة على اتخاذ قرارات لا تقتصر فقط على إصدار الأوامر بالهجوم فقط. وليس بوسعنا أن نحرم السوفيات من هذه القدرة أيضاً.

كان الشرطان الأخيران جزء من خطة كوفمَن الموجزة للوزير مَكنمارا في مطلع عام 1961، ويعودان في أصولهما إلى مناقشات راند ودراساتها إلى سنين سبقت عملي في المؤسسة، وبدأت مع بِرنارد بوردي وأندرو مارشَل وجِم دِگبي وچارلي رهچ وغيرهم، كما ذكر فرَد كپلان. أعجِبت بالشرطين الأولين منذ اطلعت عليهما بسبب خلفيتي لدى بدء عملي في راند. كان «استثناء المدن» من ضمن نفوري من عمليات قصف المدنيين واستهواء السوفيات الممكن كي يلتزموا بذلك وينهوا الحرب حين تصبح مدنهم أسيرة قواتنا الاحتياطية. كانت كافة هذه العوامل جزء من تحليلاتي الأخرى في إكراه الخصم. قادني هذا التركيز إلى تأكيدي، أكثر ممّا فعله الآخرون، على الأهمية الرئيسية للإبقاء على قيادات السيطرة والتحكم لكلا الجانبين، وليس في جانبنا فقط. بدا هذا الاقتراح أمراً مستعصياً في أعين المخططين العسكريين لدى الجانبين.

لم يكن لدي أو لدى هاري رَوِن في ذلك الوقت أيّ وهم أنّ الإجراءات المقترحة سيكون لها أيّ نصيب لخلق التأثير على مخططي العدو ولا على مجريات الأعمال العدائية. ومع ذلك كانت هناك إمكانية محدودة لإحداث تغيير ربّما قد ينقذ العديد من المدن لدى الجانبين وينهي الحرب، حتى وإن بدأت قبل أن يحدث الفناء المتبادل. سيكون هذا واسع النطاق ضمن ستراتيجية سلاح الطيران، التي ركّزت بشكل تام على تكتيكات القوة المضادة، وفشلت في توفير الوسائل لإنهاء الحرب أو الحدّ من مدى أضرارها بشكل كبير.

إنّ الدمج بين هذين الهدفين، أي تحديد الأضرار وإنهاء الحرب، سيخلقان خيارات أخرى أمام السلطة الأمريكية، التي ما زالت قائمة حتى بعد قيام الحرب الشاملة. ولو أخذنا بنظر الاعتبار ضرورة اتخاذ مثل تلك القرارات، التي تعني الموت أو الحياة للمجتمع بكامله، كان مقبولاً بشكل واضح أنّ الرئيس نفسه، أو على الأقل، شخصاً يحظى بثقته، قادر على اتخاذ مثل هذه القرارات حتى بعد بدء الحرب الشاملة. تجدر الإشارة إلى أنّ خطة أيزنهاور «الفردية» بعملياتها المتكاملة، لم تتطلب ذلك حقيقة. يعني هذا وجوب المحافظة على بقاء الرئيس أو مَن يمثله، حيّاً وقادراً، إلى جانب الإبقاء على وسائط الاتصالات مفتوحة وبشكل يُعتمَد عليه.

رأيت في نفس الوقت منفعة هامة وذلك بطلب أنّ السلطة المدنية العليا تكون قادرة على اختيار البدائل، حتى وإن كان ذلك خلال مجريات الحرب.

يعني هذا توفير أساس منطقي سميته «الحاجة للمعرفة». بمعنى أنّ الرئيس يجب أن يُبلغ نفسه ويبلغ مستشاريه المدنيين قبل قيام الحرب بالطبيعة التفصيلية للخطة الموضوعة للحرب.

كما تشمل خطتي ميزة أخرى. حين يتمّ الاعتراف بقدرات القيادة الأعلى بشطريها المدني والعسكري، يجب الإبقاء عليها خلال الحرب، حتى تبدأ اتخاذ الخطوات لتحقيق ذلك بشكل يُعتمد عليه، لأنّه لن تكون هناك حاجة لأيّة اعتراضات عسكرية من أجل تفويض القيادات على المستوى الأدنى للسيطرة على استخدام الأسلحة الذرية، أو ما سُمّي «ارتباط النشاطات المسموح بها» PALs. وهذا يجعل من المستحيل على القادة الصغار أن يبادروا عن طريق الخطأ أو التمرد لاستعمال الأسلحة الذرية حسب مشيئتهم.

أخيراً، أنّ تركيز الانتباه الناقد على الخطط الموجودة الحالية، التي تهدف إلى تدمير الأهداف السكانية في الاتحاد السوفياتي والصين تحت كافة الظروف في حالة حرب شاملة، يفتح الأبواب أمام إمكانية نقد هذه الخطط على المستويين الستراتيجي والأخلاقي. نُظِر لغاية هذه اللحظة، إلى هذه الخطط باعتبارها لا يرقى إليها الشكّ، خاصّة من قبل المدنيين، لأنّه لا يوجد لها بديل لأغراض عمليات الردع في أوقات الحروب.

إنّني آمل أنّ المدنيين في المناصب العليا، حين يتفحّصون جيّداً هذه الخطط، سيكون بإمكانهم حذف، أو على الأقلّ، تخفيض الاحتمالات الجنونية، التي تركّز على الصين في كافة ظروف الحرب مع الاتحاد السوفياتي، والاستهداف الأوتوماتيكي للمدن الكبيرة والتجمعات السكانية في كلّ من الصين والاتحاد السوفياتي معاً. إنّ التأكيد على أهمية بقاء القوة الاحتياطية، التي تعني صواريخ پولارِس المدمّرة للمدن، واستبعاد الهجمات الأولية على المدن، فإنّي آمل تجنب أو تخفيض الهجمات على المدن بكاملها، سواء إن كنّا نقوم بذلك ضمن هجوم استباقي أو هجوم انتقامي.

يتطلب العمل بموجب هذا المبدأ إجراء تغييرات قوية في الخطط والتحضيرات المختلفة عمّا كانت عليه الحال منذ عام 1953 وبلغت ذروتها عام 1960. ولهذا السبب، بدا واضحاً أنّ خطة BNSP الجديدة يجب أن تُعدّ بشكل يقوم على التفصيلات الكثيرة، وليس على مجرد تقارير موجزة ووثائق غامضة، يتوقع الجيش استلامها خلال السنوات، حين كانت تؤكّد ببساطة وجود نظرة جديدة تؤكّد على الاعتماد على السلاح النووي بنوعيه التكتيكي الصغير والستراتيجي الكبير لأسباب تخصّ الميزانية المالية. الأكثر من ذلك، فإنّ توجيهات خطة BNSP تحدّد رسمياً السياسة الوطنية، بدلاً من عرضها ومناقشتها. كانت بعض تلك المفاهيم غير معروفة في النقاشات الستراتيجية السرية المرغوب بها، لغرض دسّ مثل تلك المبررات بهدف إضعاف أيّة مقاومة ودفع المخططين نحو اعتبارات لم

يظهر لها وجود في الوثائق العسكرية.

فمثلاً، حتى المخططين من ذوي المكانة العالية من المدنيين في وزارة الدفاع، ما كانوا على علم بتفاصيل تلك الخطط والاستعدادات لها بواسطة البيروقراطية العسكرية السريّة، الأمر الذي يجعل الإنسان أن يتوقع لماذا كان من الضروري تحديد الأمر على مستوى السياسة العليا، أن تشمل الوثيقة شيئاً واضحاً تماماً يتمثل بالحاجة للمحافظة على بقاء قوات الاحتياط. الجواب على ذلك، أنّ المخططين للحروب على المستوى العالي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت طالبوا بتأمين الأموال والموارد مباشرة لكافة أنواع الأسلحة بأسرع وقت ممكن لتكون جاهزة للاستخدام تحت كافة الظروف للبدء بحرب شاملة، أي صراع مسلح مع الاتحاد السوفياتي. بعبارة أخرى، إنّ تلك الخطط والتدريبات والاستعدادات، التي تجري بموجبها، لم تتطرق إلى أيّة التزامات أخرى لقوات الاحتياط التكتيكية والستراتيجية. وهي التزامات في جوهر التخطيط العسكري الكلاسيكي، لكنّ تلك الخطط رأت أنّه ليس لقوات الاحتياط أيّة قيمة ذات معنى.

الأكثر من ذلك، ولغرض تحاشي الغموض المشار إليه حول معنى «الحرب الشاملة»، فإنّي اتفقت مع كوفمَن، عند وضعنا المسودة للإشارة إلى «الحرب المركزية»، وهو مفهوم خاص بمؤسسة راند، للتفريق بينه وبين مفهوم «الحرب المحلية» بدلاً من «الحرب المحدودة». إنّ تعريف «الحرب المركزية»، كما ورد في خطتي، التي صدّق عليها مَكنمارا فيما بعد، عنت «الحرب التي تستخدم بشكل مقصود الهجمات النووية، التي تصادق عليها السلطات الحكومية، وتشمل أراضي القوتين الكبرَيَتين أو كليهما، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي». كان هذا التعريف في روح التعريف الضيق «للحرب الشاملة» المقترحة من قبل الجيش والبحرية في بداية الصراعات، والتي رفضها سلاح الطيران ووزير الدفاع گيتس والرئيس أيزنهاور. لم يعد ضمن إرشاداتنا ذكر لمفهوم «الحرب الشاملة»، التي أصبحت تعني «الصراع العسكري مع الاتحاد السوفياتي».

عرّفنا «الحرب المحلية» في المسودة، التي وضعناها بأنّها «أيّ صراع عسكري آخر». إنّ مفهوم «الحرب المحدودة» ضمن خطة JSCP السابقة، يختلف عن حرب مع الاتحاد السوفياتي، قد أهمِل. السبب هو لأنّنا اقترحنا التأكيد على محدودية الحرب، إن أمكن مع الاتحاد السوفياتي، حتى لو أنّ القتال مع السوفيات أصبح حرباً مركزية.

في أواخر عصر يوم 7 أبريل من عام 1961 وكنت حينها مليئاً بمشاعر القناعة، كتبت آخر سطر من مسودتي الأولى عن قسم الحرب الشاملة كما وردت في خطة سياسة الأمن الوطني الأساسية BNSB (التوجيهات المدنية لوضع خطط الحرب). أتذكّر أنّني نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار

وأنا في مكتب شؤون الأمن العالمي ISA، حين كنت أطبع، فأشارت إلى الساعة الخامسة. أدركت لأول مرّة أن ذلك اليوم هو عيد ميلادي، وكنت في سن 30 عاماً. أتذكّر أنّني لبقية حياتي ما عملت شيئاً أكثر أهمية ممّا أنجزته اليوم. أخبرت هاري أنّ اليوم هو عيد ميلادي، وأنّني أكملت المسودة الأولى، فاقترح أن نغادر المكتب في وقت مبكر لنحتفل بالمناسبة، ودعاني للعشاء في مطعم قريب.

أنهيت بعد أيام قليلة المشروع كاملاً، وتضمّن هذا 12 صفحة لمناقشة الأهداف والطوارئ والمتطلبات، لغرض إحداث التغييرات المطلوبة والأسباب الداعية لها، بكل وضوح. وضعتها أمام المخططين العسكريين العاملين في إعداد خطة القدرات الستراتيجية المشتركة JSCP، والخطط الفرعية المتعلقة بها.

بالنسبة للقارئ، أودّ أن أضيف أنّ كلّ شخص خارج دائرة التخطيط للحرب النووية، بما فيهم وزير الدفاع والرئيس، فإنّ هذه السياسات المقترحة ربّما قد تبدو بديهية. وهي كذلك، سوى أنّ حقيقة كلّ جملة عبّرت عن تغيير أصلي وابتعاد عن الصفات الأساسية في الخطط والتحضيرات الموجودة في حينها. فمثلاً،

- إنّ اقتراحي بالإبقاء على الاحتياطي الستراتيجي، خاصة صواريخ پولارِس المدمرة للمدن، يتعارض تماماً مع الخطة السابقة، التي تكون فيها كافة أدوات الحرب متوفرة، بما فيها الصواريخ المذكورة المستعدة لضرب الأهداف المعدّة سلفاً بأقصى سرعة ممكنة.

- إنّ تأكيدي على أهمية الإبقاء على جهاز القيادة والسيطرة، الذي يمكن الاعتماد عليه، يتعارض مع فكرة «المبادرات» غير المصرح بها، التي تكون ضرورية، إمّا على مستوى القيادات العليا أو الواطئة. وهو موقف زاد من إمكانية اتخاذ «المبادرات» غير المصرّح بها في أوقات الأزمات، وحين يكون هناك ضغط بسبب المؤشرات الغامضة أو انقطاع الاتصالات بالقيادة العليا.

- في الوقت الذي توجد فيه ضمانات مادية ضدّ الحوادث، فإنّه لا توجد ضمانات ضدّ الأعمال غير المصرّح بها، فيما يتعلق بأسلحة معينة واستعمالاتها في ميادين العمليات. اقترحت إيجاد تلك الضمانات عن طريق وضع أقفال مركبة على الأسلحة، تتطلب وصول شفرات تبعثها السلطة العليا، كي يمكن أن تصبح تلك الأسلحة قابلة للاستعمال، ورمزت لذلك PALs.

- إنّ خطة العمليات المتكاملة الموحدة SIOP لا تفرق بين الاتحاد السوفياتي والصين. وهي لا تمنح بديلاً لتجنب أو تأجيل الهجمات على المدن، ولا تسمح ببديل لتقليل الخسائر بين صفوف غير العسكريين، ولا تتيح المجال للإبقاء على قيادة للعدو. وفي عكس ذلك اقترحت خطة مرنة تفسح المجال أمام كافة البدائل المذكورة أعلاه.

- لم تسمح خطط الحرب القائمة بأوامر لوقفها، طالما صدر أمر رئاسي/تنفيذي تلقاه سلاح الطيران. نظراً لأنّ الغارات الجوية قد أطلِق لها العنان لمهاجمة كافة المناطق السكانية والصناعية ومراكز الحكومة والقيادات العسكرية، فإنّ مثل هذه السياسة لم تقم على أسس معقولة لإغواء أيّ قادة سوفيات أو الوحدات التابعة لهم من أجل إلغاء/ إيقاف عملياتهم قبل توسع نطاق الهجمات واستخدام كافة أسلحتهم ضدّ الولايات المتحدة وحلفائها. اقترحت أنّ الإبقاء على نظام للسيطرة والتحكم ضروري لفسح المجال أمام خيار للحدّ من الصراع أو إيقافه قبل أن تشترك فيه كافة القوات، بحيث يصعب إصدار الأوامر «بالتوقف» أو «الانسحاب».

شرحت كلّ ذلك في مذكّرة قدّمتها إلى كلّ من هاري رَوِن وپول نيتزَ ووزير الدفاع مَكنمارا، وبيّنت فيها أيضاً نواقص الخطط الحالية، التي استهدفت إصلاحها.

- إلغاء خطة SIOP، التي تقوم على ردّ أوتوماتيكي نووي في حالة قيام حرب شاملة.

- استبعاد الصين والدول الدائرة في فلك السوفيات من ذلك الردّ النووي.

- التخطيط لإبقاء بعض القوات والاستثناء المبدئي لمدن العدو ومراكزه الحكومية وحتى بعض مراكز سيطرته العسكرية.

- تأمين متطلبات الإبقاء على الأنظمة المرنة للسيطرة والتحكم، التي تكون برئاسة الرئيس ذاته أو إن أمكن من قبل شخص له سلطة عليا.

- محاولة إغواء/حثّ العدو لوقف الحرب، عن طريق الامتناع عن تدمير مدنه الكبرى ومناطق تصنيعه، على الأقلّ في بداية الحرب.

- التخطيط والاستعدادات لاستخدام الأسلحة التقليدية في الصراعات المحددة قبل

الاندفاع نحو الصراعات على المستوى الأوسع، إضافة إلى خطط استعمال الأسلحة النووية.

- رفض أيّة خطوة منفردة غير مرنة للاستخدام تحت مدى واسع من الظروف لحرب مركزية، دعك من خطط SIOP بأنّ مجموعة من الأهداف يجب أن تؤشر لأجل تدميرها باستعمال الأسلحة النووية تحت كافة الظروف في الحرب المركزية.

- رفض حتمية الحرب المركزية في أيّة حرب مع الاتحاد السوفياتي.

اعتماداً على سلسلة المذكّرات، إضافة إلى مذكرة إضافية أخرى، وضعت فيها الخطوات التي يمكن اتباعها على المدى القصير، تلقيت إشعاراً من مكتب مَكنمارا أن أعدّ مسودّة للوزير. الهدف هو كي يرسلها إلى هيئة الأركان المشتركة لتوجيه القيادة العامة في حوض اليِسَفِك CINCSAC باعتبارها توجيهاً لتخطيط الأهداف الستراتيجية، واتخاذ الخطوات الثابتة لإظهار القيادة المرنة والخيارات البديلة للمدى القصير. أمضيت عصر أحد الأيام مع إلَيَن إنتوفِن في مكتبه الخاص بأنظمة التحليل، ونحن نحاول وضع «البدائل الممكنة» التي تتطابق مع توجيهاتي المشار إليها، والتي قام المستشاران، فرانك ترِنكِل ودَيف مكگارفي بمراجعتها. جدير بالذكر أنّ الأخيرين كانا موضع ثقة وعمِلا مع إلِيَن وكوفمَن لفترة طويلة بسبب حساباتهما الحاسمة.

حين عرضت مسودّتي الأولى على العقيد لُكمَن، العضو في هيئة الأركان المشتركة، حذرني بأنّها سوف لن تلقى ترحيباً لدى الجنرَل پاور، وبشكل خاص سيشعر هذا الجنرَل بالإهانة من الجوانب التطبيقية للخطة، بقدر ما يتعلق بالتأكيد على أنّه لم توجد بدائل في الخطة الحالية. يوجد لديهم ما يسمّونه «بدائل»، رغم أنّها تقوم جميعاً على شنّ هجمات باستخدام كافة القوات والأسلحة المتوفرة، حقيقة عدم وجود قوات احتياطية لاستعمالها لضرب نفس الأهداف. قام لُكمَن بمراجعة خطتي وتحويرها كي تكون أقلّ استفزازية لسلاح الطيران، عن طريق طرح «أسئلة» على أن يعقب كلّ سؤال جملة تقول، «مع الاعتراف بأنّ الخطط الحالية تسمح باستخدام بدائل متنوعة أساسية طيلة دوام فترة الإنذار والاعتبارات الجغرافية وأحوال الجو ومدى الرؤية أمام الطيارين... إلخ».

أرسِلت النسخة النهائية إلى نائب وزير الدفاع روزوَل گِلپاترِك ليوقع عليها، ثمّ أرسِلت إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة بتاريخ 5 مايو من عام 1961، وكان عنوان الخطة «توجيه سياسي لخطط الحرب المركزية». كما بُعثت أيضاً مرفقة بمسودة خطة BNSP المقترحة. (يمكن الرجوع للاطلاع على كافة نسخ مسودات تلك المذكرات على موقع Ellsberg.net/BNSP).

أصبحت «خطتي» لمراجعة التوجيهات أساساً لخطط الحرب العملية في إدارة كنَدي، وقمت بمراجعتها مرتين بطلب من نائب وزير الدفاع كِلپاترِك في عامي 1962 و1963 ومرة أخرى خلال إدارة جونسُن عام 1964. ذكر الباحثون والعارفون ببواطن الأمور أنّه كان لها تأثير فعّال على خطط الولايات المتحدة الستراتيجية منذ ذلك الحين.

بعد سنوات، وحين ذكرت لصديق لي أنّني أكملت مسودتي الأولى للتوجهات بالغة السرية المتعلقة بالتخطيط للحرب النووية الشاملة في يوم عيد ميلادي الثلاثين. كان ردّه، «هذا شيء مخيف». قلت له، «نعم هو كذلك، ولكن يجب أن تطلع على الخطة التي أحاول أن أطرح بديلاً لها». لم تجلب لي السنوات التالية ذكرى القناعة التي أحسست بها لهذا الإنجاز حين كنت في الثلاثين.

الفصل التاسع
أسئلة موجّهة لمجلس قيادة الأركان المشتركة

كم سيموت من البشر؟

أخبرني هاري رَوِن في ربيع عام 1961 بعد أن التقى مع مكجورج بُندي في شهر يناير، فذكر أنّ الأخير اتصل بمدير مجلس قيادة الأركان المشتركة وطلب أن يبعثوا له نسخة من خطة JSCP.

أخبره المدير، «آسف لا يمكننا أن نفصح عن هذه المعلومات».

قال بُندي، «يودّ الرئيس أن يطلع عليها».

ردّ المدير، «لكنّنا لم نفرج عنها في السابق، ولا نستطيع عمل ذلك الآن».

أخبره بُندي، «يبدو أنّك لم تسمع كلامي جيّداً. إنّ الرئيس، هو الذي يريد ذلك».

«سنقدّم له تقريراً موجزاً بذلك».

أضاف بُندي، «الرئيس قارئ جيّد. وهو يريد أن يقرأ الخطة».

أخبرني هاري أنّه تمّ الاتفاق أخيراً على أنّ الرئيس سيحصل على نسخة من خطة مجلس الأركان المشتركة JSCP، وأيضاً تقريراً موجزاً من قبل أحد أعضاء المجلس المذكور.

حين فرغت من إعداد مسودة مبادئ الأمن القومي الأساسية، كنت ورَوِن نتحدث إلى نائب وزير الدفاع روزوِل گِلپاترِك في مكتبه بمبنى البنتگون، حين ذكّرني قائلاً، «بالمناسبة، حصلنا أخيراً على نسخة من خطة JSCP». قال ذلك بدلاً من إرسالها إلى البيت الأبيض، وأنّ مجلس قيادة الأركان قد تفاوض أخيراً وأنّهم سيقدمون تقريراً موجزاً في مكتبه عن الموضوع. حضر مَكنمارا ذلك التقديم، كما جاء بُندي من البيت الأبيض لنفس الغرض.

سألته إن كانوا حقاً قد شاهدوا نسخة من تلك الخطة، فأجاب بالإيجاب، وأنّ الأشخاص الذين قدّموا التقرير الموجز قد تركوا نسخة الخطة عنده. سألت إن كان بالإمكان أن أطلع عليها، فأخذنا إلى المكان الذي تحفظ فيه الوثائق الهامة. وبدلاً من أن يكون ذلك على شكل إدراج، كان مكاناً لحفظ الملابس عميقاً داخل الجدار وله باب حديدي ثقيل. كانت توجد على جوانبه رفوف ملأى بوثائق مختومة «سري للغاية». سحب من على أحد الرفوف القريبة من الباب وثيقة وسلمني إيّاها.

حين ألقيت نظرة على ما وضع في يدي، ما كانت تبدو خطة JSCP، لأنّها مطبوعة على ورق عادي بأبعاد 8 إنجات و10 إنجات، وليس الورق السميك بأبعاد 11 إنجا و14 إنجا. وهذه هي الشروط القانونية لنسخة وثيقة مجلس قيادة الأركان المشتركة. قلت لنفسي حسناً، ربّما أعادوا طبعها على ورق عادي كي يقدموها لنائب وزير الدفاع. نظرت مباشرة لأبحث عن المقطع الذي لم يكن له وجود إلّا في خطة JSCP، أي المقطع الذي حرص مجلس قيادة الأركان على عدم اطلاع المدنيين عليه، وهو تعريف «الحرب الشاملة».

لم يكن ذلك التعريف موجوداً. لم يوجد مقطع لتعريف «الحرب الشاملة» أو «الحرب المحدودة». نظرت ثانية للصفحة الأولى لأقرأ العنوان، الذي اختفى ولم يكن له وجود، «خطة القدرات الستراتيجية المشتركة». كان العنوان الموجود هو «موجز خطة JSCP». لقد ذهب ذلك التحريف إلى أبعد من التوجيهات الصادرة عن قيادة مجلس الأركان المشتركة، التي اطلعت عليها في السابق، والتي «توصي بعدم ذكر عنوان خطة القدرات الستراتيجية المشتركة ولا ذكر JSCP، حين تتمّ المراسلات مع مكتب وزير الدفاع». لقد خالفت الوثيقة التي بيدي ما كان متعارفاً عليه وذكرت JSCP في العنوان. السبب الواضح أنّ بُندي قد اتصل بمدير المجلس فانكشفت اللعبة. لقد قرّر أحدهم أن يذكر JSCP عمداً. لم يكن واضحاً حتى تلك اللحظة بالنسبة لقيادة الأركان المشتركة أنّ البيت الأبيض ومكتب وزير الدفاع يعرفان أكثر من رمز JSCP، وأنّ العاملين فيهما يعرفون محتويات الخطة والتطبيقات الخاصة بها، وأنّ ذكر رمز JSCP لم يفصح تماماً عن حقيقة كلّ شيء.

أخبرت گِلپاترِك، «هذه ليست خطة JSCP، هل هذا كلّ ما أعطوك إيّاه؟».

بدا عليه الإحراج وكأنّه فوجئ فقال بارتباك، «نعم، هذا كلّ ما أعطوني. لكنّني متأكّد أنّهم أخبروني أنّ هذه هي الخطة، وأنّهم تركوا عندي نسخة من خطة JSCP. هل أنت متأكّد ممّا تقول؟».

أشرت إلى العنوان وقلت، «إنّها ليست خطة JSCP». إنّها نسخة من التقرير الذي قدموه

إليك». علقت على نوع الورق وإبعاد كلّ ورقة وجلبت انتباهه إلى الأشياء التي لم تأتِ عليها «النسخة». من الواضح أنّهم تجنّبوا الإشارة إلى تلك الأشياء أثناء تقديم تقريرهم. رُبّما هناك المزيد من الأمور التي لم يأتوا عليها.

بدا الإحراج على كِلِپاترِك أكثر من مشاعر الغضب. قال، «أخبروني أنّهم سعداء بالإجابة عن أيّة أسئلة تخصّ التقرير الموجز ونوعية الورق، هل يمكنك أن تأخذ هذه (الخطة) وتكتب لي بعض الأسئلة كي أبعثها إليهم».

أخذت التقرير الموجز ورجعت إلى الغرفة التي أعمل فيها ضمن جناح مكاتب رَوِن ووضعتها في مكان آمن. مشيت إلى مكتب سلاح الطيران في الپنتگون وسألت عن المقدم بوب لُكمَن، الذي أطلعني أصلاً على نسخة خطة JSCP لأسأل إن كان بإمكاني أن أستعيرها ثانية. لم أشرح له سبب طلبي فأعطاني إيّاها دون أن يطرح أيّ سؤال.

عدت خلال دقائق إلى مكتبي وأنا أحمل الوثيقة التي طلبها بُندي باسم الرئيس وطلبها وزير الدفاع ولم يحصلا عليها. كانت هناك بعض المنافع نتيجة عملي في راند. اعتقد ضابط أركان سلاح الطيران أنّنا جزء منهم. هذا هو السبب أصلاً، الذي حداهم ليطلعوني على خطة JSCP قبل عام تقريباً. ولكن الآن ونحن في عام 1961 عرف المقدّم لُكمَن أنّني أعمل مستشاراً لوزير الدفاع. وعنى هذا بالنسبة لقائد سلاح الطيران، أنّني أعمل لصالح «العدو»، الذي لا يقلّ خطورة عن عداء البحرية والكونگرس.

لا بُدّ أنّه حصل على موافقة رئيسه المباشر الزعيم الطيّار گلِن كِنت لكي يطلعني على أيّ شيء. خمّنت أنّ نفس الأمر الذي انطبق على صديقي المقدم لُكمَن انطبق أيضاً على رئيسه. إنّهما يختلفان مع السياسة، التي تؤمن بها القيادة العليا لسلاح الطيران، وأنّهما كانا يودّان تغيير تلك السياسة وأنّهما نظرا صوبي باعتباري قناة تربطهم بالسلطات المدنية، كي يلتفا على مواقف الذين أعلى رتبة منهما.

وضعت على الطاولة نسخة JSCP إلى جانب نسخة التقرير الموجز، التي حصلت عليها من كِلِپاترِك وبدأت بمقارنة الاثنتين سطراً سطراً. وضعت قائمة بكافة الاختلافات، ثمّ بدأت بكتابة بعض الأسئلة، التي يمكن أن تطرح على مجلس قيادة الأركان المشتركة. تطلب الأمر منّي أسبوعاً بكامله لأنجز المهمة.

كان بعضها يبحث عن مبرّر لمهاجمة المدن والتجمعات الحضرية، وكافة الظروف الداعية

لذلك، بما فيها إشعال فتيل الحرب ذاتها. كان هذا الأمر هو مفهوم المزيج الأمثل الذي تقوم عليه SIOP، خطة العمليات المشتركة الموحدة. سألت:

- ما هي الأسباب الداعية لمهاجمة المناطق الحضرية الرئيسية ومراكز التصنيع في ذات الوقت باستعمال القدرات النووية؟

- ما هي الأهداف الوطنية التي تتطلب وضع المراكز الحضرية والصناعية على «قائمة الحدّ الأدنى الأساسية» للهجمات الأولى؟ وما هي المعايير التي جعلتها «أساسية»؟ ما هي التكلفة المترتبة على ذلك، قدر تعلق الأمر بأهداف الولايات المتحدة، أو استثناء تلك الأهداف بالاعتماد على القوة المتبقية لتحقيق الأهداف المشار إليها أعلاه؟

- كيف يتم توزيع الأهداف حسب أنواعها في دول المنظومة الدائرة في الفلك السوفياتي؟ ما هي مردودات ذلك على القدرات الهجومية للكتلة الصينية السوفياتية؟

- ما هو المجموع الكلي للقوة الانفجارية محسوبة بالميگاتن (الميگاتن يعادل مليون طن من مادة ثالث نترَيت التولين)، التي يجب إلقاءها على العدو في حالة التأهب؟ في حالة التحذير الستراتيجي (بكامل القوة)، وما هو المجموع الكامل للمنتجات الانشطارية؟ كم منها يأتي عن طريق سلاح الجو وكم عن طريق الصواريخ الأرضية؟ ما هي التداعيات في جميع أنحاء العالم؟ ما مجموع الخسائر البشرية في كافة أنحاء العالم؟

- إلى أيّ حدّ وما هي الطرق بالضبط التي تجعل الهجمات على المراكز الحضرية والصناعية والأهداف التي تُدمّر عرضاً كمكافأة، تختلف عن الهجمات التي تستهدف إلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية في الاتحاد السوفياتي؟ وفي الصين الشيوعية؟ بأيّ طريقة يختلف تنفيذ هذه الهجمات، تحت كافة الظروف الداعية لإشعال فتيل الحرب، لتحقيق أهداف الولايات المتحدة لما قبل الحرب وما بعدها؟

- هل أنّ الخطة تتقدم على افتراض أنّ السياسة الوطنية تحمّل المواطنين في الاتحاد السوفياتي والصين مسؤولية تصرفات حكومتيهما؟ هل أنّ شيوعيي الصين مسؤولون

عن أعمال الحكومة السوفياتية؟

أثارت مجموعة أخرى من الأسئلة موضوع عدم توفر المرونة في تخطيط الجوانب الأخرى من SIOP. فمثلاً، أنّ الملحق C لخطة مجلس قيادة الأركان المشتركة وتوجيهات الخطط العملية لسلاح الطيران وصواريخ پولارِس، لم يأتي ذكر لها في التقرير الموجز.

- تدعو الخطة إلى «العمل الأمثل... تحت عدة ظروف، يمكن وفقها أن تبدأ المناوشات». ما هي الأمثلة عن الظروف العديدة، باستثناء هجوم (نووي) سوفياتي مباغت؟ كيف تختلف الخطة الموضوعة باختلاف الظروف؟ هل توجد استجابة موحدة أمثل لكافة الظروف؟

- لماذا تتطلب كافة الخيارات توظيف ميزانية القوات بكاملها؟ لماذا لا توجد تخصيصات مالية لقوات الاحتياط الستراتيجية؟

- ما هي قدرات مجلس قيادة الأركان المشتركة لقبول استسلام قوات العدو بموجب تنفيذ خطة SIOP؟ ما هي الاستعدادات التي أعِدت لهذا الغرض؟ هل تمّ وضع مسودة لشروط الاستسلام المقبولة؟ ما هي مصداقية القدرات على وقف الهجمات المتبقية بعد صدور الأوامر التنفيذية؟ هل تمّ إعداد جهاز مراقبة لمتابعة الالتزام بشروط الاستسلام.

لا يمكن أن تخطر بعض أسئلتي ببال أحد ما لم يكن قد اطلع على التقرير الموجز. طرحت هذه الأسئلة بدافع تحذير من يقرأها بأنّ شخصاً يعمل لصالح كِلپاترِك على علم بكافة مشاكل عمليات التخطيط.

هل يفترض التعاون المخطط له أنّ مراكز كافة وسائل الهجوم ستتلقى الأوامر التنفيذية العليا في نفس الوقت؟ وإذا كان الأمر كذلك، ما هي نسبة الدقة المحسوبة لهذا الافتراض؟ ما هي تأثيراته على التعاون في حالة تأخر وصول تلك الأوامر؟ ما العمل إذا حدث تغيّر في مسارات الرياح وقوتها المؤثرة على مختلف القوات المهاجمة في التخطيط لإفشال أيّ تدخّل؟

نظراً لأنّ مثل هذه الأسئلة يُفترَض فيها أنّها مطروحة من قبل كِلپاترِك، الذي لم يُعطَ خطة مجلس الأركان المشتركة الأصلية، كان مطلوباً منّي أن أجد طريقة لأجعلها تبدو قائمة على الموجز الذي قدموه له. غير أنّ أيّ شخص يعرف حقيقة تلك الخطط، سيعلم أنّ تلك الأسئلة ليست من إعداد

ﮔِلپاترِك نفسه. لا بُدّ أن تكون من إعداد شخص له دراية حميمة بالخطة ذاتها ويعرف جيداً الخلافات والجدل بشأنها، وربّما لديه نسخة منها ينظر إليها في تلك اللحظة. بعبارة أخرى، إنّ ضباط الأركان ورؤسائهم أعضاء مجلس قيادة الأركان المشتركة يعرفون جيداً أنّ نسخة أصلية من الخطة قد وجدت طريقها لمكتب وزير الدفاع. وأكثر من ذلك، يعرفون أنّ شخصاً قد يكون هو أحد المخططين العسكريين، أو قد تمّ اطلاعه من قبل أحد هؤلاء، وهو الذي يقدم المشورة لنائب وزير الدفاع.

كانت الأسئلة هي الرسالة التي وصلت إلى هؤلاء، والقصد منها هو تسريب الخبر إلى مجلس قيادة الأركان المشتركة بأنّ عملياتهم وخلافاتهم وتنازلاتهم ومناوراتهم، قد أضحت جلية أمام مكتب وزير الدفاع. كنت آمل أنّهم سيدركون أنّ لعبتهم قد قاربت على النهاية، وأنّه من واجبهم أن يعطوا أجوبة صادقة صريحة. يجب أن يخافوا أنّ أيّة محاولات للكذب أو التهرب ستكشَف سريعاً من قبل الشخص الذي أعدّ تلك الأسئلة. لربما هو يعرف عن طريق قنوات مباشرة المناقشات الداخلية الدائرة بينهم عن كيفية التعامل مع هذه المشكلة وإعطاء الأجوبة عن الأسئلة التي جاءت من مكتب ﮔِلپاترِك.

كان كلّ سؤال من بين مجموع الأسئلة قد وُضِع كإشارة إلى أنّ شخصاً يعمل لصالح ﮔِلپاترِك يعرف الأمر جيداً. وكما تعود العسكر أن يقولوا، «إنّنا جميعاً هو من يُدفِن سوية»، فمن الواضح أنّه «يعرف خطة JSCP ولديه نسخة منها». وهو يعرف أيضاً بطريقة ما لماذا كُتِبَت بتلك الطريقة وكيف تمت تغطية الخلافات فيها وكيف تستّرت على الجوانب الأخرى، التي جعلت من المستحيل فيها على مجلس قيادة الأركان أن يوضّح أو يُبرّر.

ليس لدي النسخة النهائية من المذكرة التي قدمتها إلى ﮔِلپاترِك وأوردت فيها أسئلتي، التي صيغت بعناية فائقة، أفضل ممّا ذكرت أعلاه. ولغرض متابعة التظاهر بأنّ الأسئلة نابعة من التقرير الموجز الذي قدّموه إلى ﮔِلپاترِك، وليس على الخطة، فإنّ كافة الأسئلة الثلاثين قد بدأت بالإشارة إلى ما ورد في التقرير الموجز ثمّ تشعبت إلى طرح أسئلة فرعية زُعِم أنّها متعلقة بنفس التقرير. أتذكر تماماً واحداً منها:

> ورد في الصفحة رقم 1 أنّ كلّ خطة للعمليات قد طُرِحت للمراجعة والمصادقة من قبل الشخص الأعلى رتبة في تسلسل القيادة.
>
> أ- هل قدّم مجلس قيادة الأركان المشتركة تلك الخطة إلى وزير الدفاع ﮔيتس للمراجعة والتصديق؟

ب. خلال دورة التخطيط السنوي، هل كان من العادة أن تقدّم خطة مجلس قيادة الأركان المشتركة إلى وزير الدفاع للنظر فيها والمصادقة عليه؟

الجواب الفعلي لشطري السؤال أعلاه هو «لا» إطلاقاً. كان واضحاً أنّ الشخص الذي أعدّ الأسئلة المذكورة يعرف ذلك. لكنّه ما كان واضحاً وجود أجوبة مقنعة لتلك الأسئلة، أو الأسئلة الأخرى، التي تميل إلى زيادة الصعوبة عند الإجابة عنها.

حين سلمت القائمة إلى كِلپاترِك، نظر إليها وأحنى رأسه عدة مرات، وقال معبّراً عن شكره، «هذه أسئلة تخترق الغموض». أعاد قراءتها بتمعّن وهزّ رأسه عدة مرات، وشكرني بحرارة، وقام بإرسالها دون تعديل، إلى مجلس قيادة الأركان المشتركة بعد أن وضع برفقتها رسالة تحمل توقيعه.

لم يكن أمام المجلس والجهاز العامل معه طريقة للردّ على هذه الأسئلة. فإذا اختاروا الكذب أو التهرّب، فإنّهم أدركوا أنّ ذلك سيؤدي إلى فضحهم. ولكن إذا اختاروا الإجابة بصراحة وأمانة، فسيكون من المناسب لهم أن يرفقوها بتقديم استقالاتهم. عبّر بوب كومر، نائب مكجورج بُندي في مجلس الأمن القومي بشكل قويّ بعد أن قرأ مسودة الأسئلة، التي أطلعته عليها وهو في مكتبه في المبنى المجاور للبيت الأبيض. قال لي، «لو كان هؤلاء جنرَلات يابانيون، لانتحروا جميعاً بعد قراءة هذه الأسئلة».

ما كان الجنرَلات والأدميرَلات، الذين تلقوا الرسالة يابانيين ولم يُقدِموا على الانتحار، لكنّهم فهموا فحوى الموضوع. وخلال ساعات قليلة من إرسال الأسئلة، اتّصل مدير مكتب مجلس قيادة الأركان المشتركة بصاحبي هاري رَوِن عن طرق الهاتف. وكما ذكر هاري، فإنّ المدير كان متوتراً وسأل، «هل تعرف أيّ شيء عن الأسئلة التي بعثها إلينا كِلپاترِك؟».

قال هاري، «ربّما».

مرّت فترة صمت طويلة ثمّ جاء سؤال بطريقة فظة، «من كتب هذه الأسئلة؟».

رفض هاري أن يجيب عن السؤال، فانتهت المكالمة.

في وقت كان فيه المسؤولون العسكريون يعملون ليل نهار لينفذوا أوامر الوزير دون تقاعس أو تأخير وفق المواعيد المحددة لإجراء مختلف الدراسات، لكن تلك المجموعة من الأسئلة ظلت دون إجابة إطلاقاً. حين حلّ الموعد المحدد للردّ طلب مدير مكتب قيادة الأركان المشتركة تمديداً، وحين

انتهت فترة التمديد طلب فترة أخرى ثم ثالثة. حين استفسرت من كِلپاترِك عن الأمر خلال آخر اجتماع لنا، أخبرني أنّه لم يتلقَّ ردّاً بعد. في الحقيقة لم يردّوا أبداً.

قال كِلپاترِك، «حسناً هذا ما نريد. سنترك الأمر على حاله، حتى يقدّموا طلباً لتخصيص ميزانية للخطط الجديدة. سنقول لهم حينها، دعونا نناقش أوّلاً خططكم السابقة، ثمّ سنطرح عليهم أسئلتنا التي ما أجابوا عنها».

قمت في نفس الوقت بمراجعة التوجيهات لسياسة متطلبات الأمن القومي، وقام وزير الدفاع بإقرارها والتوقيع عليها، قبل إرسالِها إلى مجلس قيادة الأركان المشتركة، باعتبارها توجيهات صادرة من وزير الدفاع بصدد التخطيط للحرب. أصبحت بالتالي السياسة المعتمدة الجديدة، بعد أن قرّر الرئيس كنَدي الاكتفاء بذلك وعدم إصدار التوجيهات المدنية للتخطيط للحرب BNSP باسمه.

* * *

وكما اتضح فيما بعد، لقي أحد الأسئلة التي وضعتها في يد كِلپاترِك اهتماماً خاصاً، رغم أنّه لم يتلقَّ ردّاً مباشراً على أيّ من الأسئلة الأخرى. قام بوب كوفر، وهو في البيت الأبيض، باختيار سؤال واحد فقط وبعثه إلى قيادة الأركان باسم الرئيس. ولشدة دهشتي أجابوا عنه بطريقة سريعة محدودة ودقيقة ظاهرياً.

وكما تذكّر كوفر كان السؤال هو، «إذا تمّ تنفيذ الخطط الحربية القائمة، فكم عدد البشر الذين سيقتلون في الاتحاد السوفياتي والصين لوحدهما؟».

حين وضعت السؤال أصلاً، كان فهمي المؤقت وحسب ما علمت من لُكمَن وزملائه في القوة الجوية، أنّ قيادة الأركان المشتركة JCS لم تخمّن إجابة لهذا السؤال الخاص بالعمليات العسكرية الجارية، التي تدعو إلى تدمير سريع يُعتمَد عليه لنظام الأهداف الذي شمل كافة المدن الرئيسية في الاتحاد السوفياتي والصين. قد يبدو ذلك افتراض غريب من جانبي، ولكن لديّ أساس له. رغم علمي بعمليات التخطيط للحرب ذاتها، والتي أعلم أنّها تستهدف المدنيين، لكنّه لم تتوفر لدي تقديرات للخسائر البشرية. لقد أخبرني العقيد لُكمَن والعقيد كراگ وآخرون غيرهم بأنّهم لم يشاهدوا أرقاماً بأعداد الضحايا. ومن السهل على الفرد الذي يعرف بيروقراطية العسكر، أن يفهم لماذا لا تظهر مثل هذه الأرقام ولماذا لم يجرِ تحقيق بشأنها. السبب هو التخوّف من تسرّبها للرأي العام. أضف إلى ذلك، إنّ أيّ نقد عسكري داخلي لتلك الخطط، سيظهر الأرقام المخيفة لعدد الضحايا.

خطر في ذهني أنّ قيادة الأركان المشتركة ستعترف بأنّه ليس لديها جواب عن السؤال المطروح أو أنّهم سيطلبون وقتاً أكثر لتقدير عدد الخسائر. ومهما كان الأمر، فإنّ الإجابة ستفقدهم التوازن للدفاع عن خططهم مقابل خططنا البديلة. «ما هذا؟ أنتم لا تعرفون النتائج المترتبة على خططكم قدر تعلق الأمر بالخسائر البشرية؟ لقد كتبت السؤال وفي ذهني وضعهم في أقصى موقف محرج، وتعمدت الإشارة إلى الاتحاد السوفياتي والصين فقط، لكي يكون بإمكانهم التظاهر بأنّهم يحتاجون وقتاً إضافياً لتقدير الخسائر في ألبانيا.

كما اعتقدت أنّه من الممكن أنّهم سيعطون جواباً سريعاً قد يظهر سخف تقديراتهم المنخفضة. كانت تلك صفة التقديرات التي شاهدتها من قبل. كانت تعود إلى فترة الخمسينات من القرن الماضي وتراوحت بين مليون قتيلاً في الاتحاد السوفياتي في مطلع الحقبة إلى 10 أو 15 مليون ضحية، وفق خطط ظهرت فيما بعد. كانت الأرقام منخفضة في عصر القنبلة الذرية، التي أصبحت أكبر حجماً وأكثر تدميراً من قنبلتي هِروشِما ونَگزاكي. وعلى أيّة حال، لو ردّوا بتقدير، فإنّي توقعت أنّه سيكون غير واقعي في زمن القنابل النووية الحرارية، أي القنابل الهيدروجينية. ستخدم التقديرات المنخفضة أغراضاً للمزايدات البيروقراطية الداخلية أكثر من خدمتها للخطط بعدم وضع تقديرات إطلاقاً. إنّ إمكانية أن تعطي قيادة الأركان المشتركة تقديرات سريعة واقعية، فأمر لم يكن في الحسبان وما دار في خاطري.

كنت على خطأ، وكذا كانت معرفة العقداء الذين استشرتهم. يبدو أنّ لدى قيادة الأركان المشتركة نموذجاً لبرنامج كومپيوتر لتقدير تلك الحسابات، إلى درجة أنّهم أعطوا البيت الأبيض ردّاً خلال يوم أو يومين. وكما ذكرت مبكّراً كان «سري للغاية - لاطلاع الرئيس فقط». ولكن نظراً لأنّني هو من كان وضع السؤال، هاتفني كومر ودعاني للحضور إلى مكتب مجلس الأمن القومي للاطلاع على الردّ، الذي تلقاه.

كان الجواب على شكل مخطط وُضِع على الصفحة رقم 2 وأظهر أنّ 275 مليون شخصاً سيقتلون خلال الساعات الأولى من هجماتنا وأنّ 325 مليون شخصاً آخر سيكونون في عداد الموتى خلال 6 أشهر. في الحقيقة كان سؤالي عن الوفيات وليس الخسائر، التي تضم الجرحى والمرضى. نظراً لأنّ الأرقام أعلاه تخص الاتحاد السوفياتي والصين، فإنّ سرعتهم للإجابة كشفت أنّ لديهم نموذج برنامج كومپيوتر، وربّما كان بالإمكان تقدير الخسائر في المناطق الأخرى. لقد ثبت ذلك. كتبت سؤالاً آخر للمتابعة سلمته لصاحبي كومر حول الخسائر التي ستصيب المناطق المجاورة للكتلة الصينية السوفياتية، ردّت قيادة الأركان المشتركة وزوّدت البيت الأبيض بأرقام على شكل جدول.

سيموت حوالي 100 مليون شخصاً آخر في بلدان أوروپا الشرقية الدائرة في فلك السوفيات وفق خططنا الحربية الموضوعة، أغلبهم في مناطق الدفاعات الجوية والمراكز العسكرية في تلك المدن، وأغلبها قرب المدن، رغم أنّ تلك المدن لم تكن أهدافاً. الغرض من ذلك هو «فتح ممرات جوية» لهجمات قاذفاتنا وهي في طريقها لضرب الاتحاد السوفياتي مروراً بمناطق حلف وارسو. ستقوم القاذفات «بالقصف وهي في طريقها» وتلقي حمولاتها الهائلة بالمگاتن من المتفجرات على محطات الرادار وتحصينات المدافع المضادة للطائرات ومنصات إطلاق صواريخ أرض- جو، واحدة إثر أخرى وهي تطير فوقها في مناطق أوروپا الشرقية. تتذكرون طبعاً تعليقات الجنرَل پاور خلال التقديم الموجز لخطة SIOP، الذي حضره جون روبِل عن حظّ ألبانيا العاثر أثناء تدمير قواعد الصواريخ على أرضها. رغم إيقاع الخسائر بالمدنيين هناك لا يُعتبر «نصراً للشعوب الأسيرة» لإرادة موسكو وبكين، حين يشتدّ القصف لتلك القواعد وما حولها من المنشآت.

إنّ التفجيرات المترتبة على القصف النووي، التي ستحدث في الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه وفي الصين ستهلك القسم الأعظم من السكان في الكتلة السوفياتية- الصينية، وكذلك الشعوب المحايدة التي تجاورهما، مثل فنلندا والسويد والنمسا وأفغانستان وكذلك في اليابان وپاكستان. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار هبوب تيارات الرياح، فإنّ الفنلنديين سيُمحَون عن بكرة أبيهم بفعل الانفجارات التي ستحدث في قواعد الغواصات السوفياتية قرب حدودهم. وسيزيد هذا من عدد الخسائر البشرية بمقدار 100 مليون شخصاً آخرين، بدون إسقاط ولو رأس نووي أمريكي واحد على أراضي تلك البلدان الخارجة عن مناطق حلف الأطلسي وحلف وارسو.

إنّ وقوع الخسائر البشرية في دول أوروپا الغربية الأعضاء في حلف الأطلسي بسبب هجمات الولايات المتحدة ضدّ دول حلف وارسو، سيعتمد على الطقس وحركة الرياح. وكما أدلى أحد الجنرَلات بشهادته أمام الكونگرس، فإنّ العدد قد يصل إلى 100 مليون مواطناً أوروپياً من دول حلفاء أمريكا بسبب غاراتنا «وسيتوقف ذلك على المناطق التي ستهبّ عليها الرياح».

لقد تعمّدت إثارة الموضوع حين طرحت أسئلتي الموجهة إلى قيادة الأركان المشتركة، «لو تمّ تنفيذ خططكم المعدّة»، كي أعني «الضربات الستراتيجية الأمريكية الأولى وتنفيذ المهام المقررة قبل أن يُقدِم السوفيات على القيام بضربة استباقية». افترضتْ تلك الأرقام انطلاق كافة القاذفات من مطاراتها والصواريخ من قواعدها وهي محملة بخزينها من المتفجّرات لتضرب ضربتها الأولى. وهذا يعني بوضوح أنّ تلك التقديرات للخسائر البشرية باعتبارها جزء من خططنا هو أنّ الولايات المتحدة هي التي تبادر بحرب نووية شاملة، نتيجة تصعيد لصراع إقليمي مباشر مع القوات

السوفياتية، أو كهجوم استباقي ضدّ الاتحاد السوفياتي نتيجة تلقينا إنذارات تكتيكية، علماً بأنّ الإنذارات قد تكون كاذبة، كما أوضحت سابقاً، بالنسبة لنا أو بالنسبة لهم.

تقوم عبارة «تنفيذ ما خُطط له» على الافتراض، الذي تقوم عليه كافة خططنا تقريباً. وهو يعني سلسلة من الظروف، التي قد تؤدي إلى قيام حرب نووية، «نأخذ فيها زمام المبادرة»، قبل أن تصلنا رؤوس صواريخ العدو النووية، أو حتى أنّها أعدّت للإطلاق. يجب أن نكون نحن من يضرب أوّلاً.

وعليه، فإنّ تقديرات قيادة الأركان المشتركة، التي تسلمها البيت الأبيض تقوم على افتراض نتائج ضربتنا الأولى. يصل مجموع خسائر العدو نتيجة هجماتنا حسب تقدير القيادة المذكورة، إلى حوالي 600 مليون ضحية، أغلبهم تقريباً من السكان المدنيين، خلال اليومين الأول والثاني، وما سيلحق بذلك خلال 6 أشهر القادمة.

تقتصر هذه الخسائر على استخدام الرؤوس النووية الأمريكية، ولا تشمل أيّ ضحايا بسبب هجمات انتقامية من قبل الجانب السوفياتي ضدّ الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا أو في أمكنة أخرى. قدّرت وكالة المخابرات المركزية في شهر يونيو من عام 1961، أنّ الاتحاد السوفياتي يمتلك أكثر من 100 صاروخاً عابراً للقارات في حينه. كما أضافت الوكالة أنّها قادرة على تعيين بعض أماكن قواعد إطلاقها، وبالتالي يجب أن تُستهدف في أيّة غارة قادمة. تصل تقديرات الخسائر الأمريكية نتيجة ضربات انتقامية من قبل السوفيات إلى بعض الملايين من الضحايا، حتى لو بادرنا بضربتنا الأولى ضدّهم بشكل جيد جدّاً.

قدّرت البحرية الأمريكية وسلاح الطيران أنّ صواريخ السوفيات العابرة للقارات، التي تهدد أمريكا «قليلة»، لكن كافة التقديرات تشير أنّ لديهم عدة مئات من الصواريخ متوسطة الحجم والمدى موجّهة نحو أوروبا الغربية، خاصة ألمانيا. كما قدّر أنّ لديهم عدة مئات من القاذفات متوسطة المدى. وحتى بعد ضربة أولية ناجحة من قبل الولايات المتحدة وقوات حلف الأطلسي، فإنّ الهجمات الانتقامية السوفياتية ضدّ أوروبا، يمكن أن تضيف 100 مليون ضحية أخرى من سكان أوروبا الغربية نتيجة للقصف والحرائق والتعرض المباشر للإشعاعات النووية، قبل أن تصلهم إشعاعات قنابلنا التي ستحملها الريح نحوهم من الشرق.

أمسكت مخطط الخسائر بيدي، وكان الردّ على سؤالي الأصلي ويغطي الخسائر الخاصة بالاتحاد السوفياتي والصين ونحن ننظر إليه في مكتب ملحق بالبيت الأبيض في يوم ربيعي جميل من

عام 1961، أدركت «أنّهم يعرفون». وكما ذكرت فإنّ المخطط بدا لي أنّه أعطى صررة شريرة واضحة، ما كان يجب أن يكون لها وجود. يجب ألّا يكون لها وجود حقيقي على الأرض يمكن أن يشير إليها.

ولكن ما تعرّض إليه الشكل/الجدول كان واقعياً للغاية. لقد شاهدت بنفسي بعض القنابل الهيدروجينية الصغيرة، التي تبلغ قوتها الانفجارية 1.1 مَگاتن، وهو ما يعني 1.1 مليون طن من المواد شديدة الانفجار. تعادل كلّ قنبلة نصف مجموع المواد المتفجرة التي استخدِمت خلال الحرب العالمية الثانية بكاملها. شاهدتها وهي معلقة تحت أجنحة طائرات F100 ذات الطيار الواحد، وهي في حالة إنذار في قاعدة كَدينا الجوية في أوكيناوا، ومستعدة للإقلاع خلال 10 دقائق من تسلم الأوامر بالهجوم. وضعت في إحدى المرات يدي على أحدها قبل أن تُثبّت تحت جناح الطائرة، فكان ملمسها المعدني ناعماً ودافئاً بفعل الإشعاعات بداخلها، ولها حرارة مقاربة لدرجة حرارة جسم الإنسان.

يوجد لدينا حوالي 3000 رأساً نووياً من هذا الصنف بعضها أكبر حجماً يصل إلى 20 مرة، مقرراً لها أن تضرب الأهداف في الاتحاد السوفياتي والصين حين تنطلق بموجب خطة حرب SIOP. أعلم جيداً أنّ أغلبها ستهزّ الأرض وتدمّر ما عليها وستفني السكان ليس في الكتلة السوفياتية الصينية فقط، بل أيضاً سكان جيرانهما، من الدول المحايدة والدول الحليفة لنا.

إنّه ليس فقط مقدار التقديرات الرقمية للضحايا، هو الذي سبّب لي صدمة، رغمّ أنّي لم أتعود على الإطلاق الاطلاع على تقديرات كهذه، ضمن الدراسات السرية في مؤسسة راند. لقد اطلعت على معلومات تتعلق بمدى الأضرار البشرية في الجانب الأمريكي، الذي هدّد بضرورة توجيه ضربة انتقامية ثانية، دافعها الأساسي ردع الضربة السوفياتية الأولى. في معرض مخاوف ألبرت ولستتر في راند أنّ ضربة سوفياتية ناجحة التخطيط، كما حدث في پِرِل هاربر تقضي على سلاح الطيران الأمريكي، الذي يُعدّ لهم ضربات انتقامية. كان التركيز في تلك الدراسات على كيفية إلحاق الخسائر البشرية الباهظة بالسوفيات على مستوى ما خسروه في الحرب العالمية الثانية، أي ما يقارب 20 مليوناً. ناقش ولستتر وقبله المساعدون من أمثالي، كيف نقف بصمود وثبات بوجه القادة البُلشَفِك من ذوي الدم البارد في أوقات الأزمات. لست متأكداً أنّني اطلعت على دراسة فيها تقدير للخسائر البشرية إثر قيام قواتنا بضربتها الأولى وقبل أن يمسّها سوء. وهذه إمكانية لم يتطرق إليها أحد في راند سوى هِرمَن كان.

ولكن نظراً لأنّني اطلعت على خطط حربية خلال إجراء دراستي في حوض الپَسَفِك، أصبحت على دراية أنّها ركّزت على نقطة واحدة، هي القيام بضربة أولى سواء كانت استباقية أم لأغراض

التصعيد ردّاً على صراع محلي. لم يتطرق محللو راند في كلتي الحالتين إلى ضربة أولى حسنة التخطيط تركز على الأهداف السوفياتية، بل خطة تشير بوضوح إلى مهاجمة مدن السوفيات (والصينيين أيضاً) خلال موجة الهجمات الأولى. وعليه فإنّني على اطلاع ولوقت طويل أنّ التدميرات الناجمة عن تنفيذ خطط كهذه، ولم يكن لمنتسبي راند أن يتصوروها، خسائر ستكون «بالغة» و«فظيعة» تفوق ما تصورته وقدرته مؤسسة راند. لكنّني حقيقة لم أتوصل لقياس ذلك في ذهني، ولم أشاهدها من قبل. غير أنّ الأرقام في هذا الجدول بدت متوقعة وواقعية.

حين رأيت الأرقام مطبوعة، بدت مذهلة، رغم أنّني فكرت لوقت طويل بهذا الموضوع وأنا أقرأ خطط الحرب خلال السنتين الماضيتين. كنت أنظر للطريقة التي سينتهي بها عالمنا المتحضّر هذا. هذه خطط لتدمير مدن العالم، خطط قد ينفذها أحد ما. لكنّني اعتقدت أنّه ما من أحد قرأ أو وضع تلك الخطط، قد فكّر جدّياً بالموضوع مثلي.

الصدمة، بالنسبة لي، كانت إدراك أنّ قيادة الأركان المشتركة لم تكن طائشة ولم تأخذ بالحسبان النتائج المترتبة على ذلك، والتي افترضتها في ذهني. كان الأمر أسوأ ممّا تصورته. إنّ الذي تجاوز حدود الدهشة كان شيئاً لا يمكن سبر غوره. هل أنّهم شعروا أنّ باستطاعتهم أن يكونوا صريحين فأعطوا مثل هذا الجواب بسرعة وواقعية؟ في حين لم يكلفوا أنفسهم إعطاء أجوبة عن الأسئلة الأخرى.

لم يظهروا أيّ دليل على الرغبة في تقديم استقالاتهم، ولم يكن هناك دليل أنّهم شعروا بالإحراج أو الخجل أو الاعتذار أو التملص. لم يكن هناك وعي بأيّة حاجة لتوضيح إجاباتهم، التي قُدّمت للرئيس الجديد. فكّرت أنّ ذلك هو ما توصلت إليه الولايات المتحدة بعد مرور 16 عاماً على إلقاء قنبلة هِروشِما. خطط وتحضيرات تنتظر أوامر الرئيس لتنفيذها. اكتشفت أنّ ذلك هو ما يتطلبه الأمر في بعض الظروف، ولكن كنتائج متوقعة لما يمكن أن يُسمّى «الإبادة البشرية» ليس كافياً.

أنا نفسي في ذلك الوقت، لم أكن ضمن معسكر الناقدين لمنطق الردع أو شرعيته. فعلى العكس من ذلك، كنت ضمن العاملين المتحمسين مع زملائي في راند وفي البنتگون لضمان سلامة الولايات المتحدة وبقائها بواسطة قدراتها لتهدد بوضوح إحداث ضرر لا يمكن قبوله في الجانب السوفياتي ضمن ردّ على أيّ هجوم سوفيتي ناجح على الولايات المتحدة. ولكنّ التخطيط لإبادة مئات الملايين من السوفيات (والصينيين) بما يعادل عشرين ضعفاً من الخسائر البشرية التي عاناها المواطنون السوفيات خلال الحرب العالمية الثانية، مصحوباً بعدد مماثل من الخسائر بين صفوف حلفائنا ومواطني الدول المحايدة، فأمر فيه نظر. تفصح النتائج المتوقعة عن لا عقلانية مذهلة وجنون في قلوب وعقول من

يخططون للحرب النووية وآلاتها المدمّرة.

الحقيقة أنّ تقديرات الخسائر البشرية، في ضوء ما حُسِب في حينها، كان قبل اكتشاف الشتاء النووي، وفيها اختزال غريب في العدد. وبعد مرور أكثر من 40 عاماً، أماطت الدكتورة لِن إيدِن، الباحثة في معهد جامعة ستانفرد لدراسات الأمن العالمي، اللثام عن ذلك في دراستها المعنونة «العالم بكامله يحترق». الحقيقة الغريبة هي أنّ سلاح القوة الجوية وقيادة الأركان المشتركة خلال الفترة النووية إلى اليوم الحالي، تعمّدوا وبشكل مقصود أن يحذفوا كلياً من تقديراتهم آثار التدمير النووي الناري الذي ستسبّبه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من خلال هجماتهما الذرية.

قاموا بذلك وفق أسس مثيرة للأسئلة، بأنّ تلك التأثيرات أكثر صعوبة في تقدير آثار التفجيرات والإشعاعات، التي قامت عليها تقديراتهم لحساب الخسائر البشرية، رغم أنّ إيدِن وجدت أنّ خبراء من قبيل هالي برَود قد اختلفوا مع تلك الاستنتاجات لعقود مضت. إنّ أفضل نظرية حول عدم الاهتمام العنيد بأخذ الحرائق بالحسبان هي أنّها ستخفض عدد الرؤوس النووية لدى القوة الجوية الأمريكية، وبالتالي السبل المطلوبة لتحقيق مستوى التدمير المطلوب في المناطق المعينة. وهذه وُضِعَت أصلاً لتكون عالية لدرجة أنّهم منعوا تغطية ضرر الصواريخ، التي تطلقها البحرية باستعمال غواصاتها العديدة.

ومع ذلك كان معروفاً في الستينات أنّ العواصف النارية الناتجة ستكون أكبر مسبب للخسائر البشرية خلال الحرب النووية. بالنسبة لكافة الأسلحة النووية الستراتيجية، فإنّ قطر الدائرة النارية لكلّ انفجار سيكون بحدود 2 - 5 مرات أكبر من الدائرة التي يصيبها الانفجار نفسه. وعليه فإنّ التقديرات الأكثر واقعية عن الخسائر المباشرة، التي خططت لها الهجمات الأمريكية ضدّ الكتلة السوفياتية الصينية حتى عام 1961، كان لا شكّ ضعف خلاصة الجدول الذي أمسكته بيدي، لأنّ عدد الخسائر سيكون بليون شخصاً أو أكثر، أي ثلث مجموع سكان الكرة الأرضية، الذي كان يُقدر حينها أنّه 3 بلايين شخصاً.

وأكثر من ذلك، فإنّ لا أحد يود أن يعترف وحتى بعد مرور 22 عاماً بالتأثيرات غير المباشرة لخطتنا حول الضربة الأولى، التي تهدد بشكل خطير الثلثين الباقيين من سكان المعمورة. تنجم تلك التأثيرات نتيجة تركيز هجماتنا على المدن وما ينجم عنها من حرائق ودخان. غير أنّ المخاطر التي تهدد وجودنا ليس الدخان الناجم عن الحرائق العادية، وحتى الكبير منها، وهو الدخان الذي يبقى في طبقات الجو السفلي وغالباً ما تزيله الأمطار. غير أنّ الدخان المتصاعد نحو طبقات الجو العليا سيكون نتيجة الحرائق المنبثقة من المدن المستهدفة والتي تحدثها أسلحتنا النووية. سنأتي على تفاصيل ذلك في

الفصل السادس عشر.

ستحمل التيارات العاتية مئات الأطنان من الدخان والسخام الناجمين عن حرائق التفجيرات النووية نحو طبقات الجو العليا، التي لا تسقطها الأمطار، فتلف الكرة الرضية بغطاء يحجب نور الشمس وحرارتها فتزداد البرودة وينعدم نضوج المحاصيل الزراعية. سينجم عن ذلك مجاعات كبرى تقضي على معظم البشر والحيوانات التي تتغذى على النباتات والحشائش، التي ينقص نموّها أو يتلاشى. حتى سكان النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، الذين لا تصيبيهم الانفجارات النووية وإشعاعاتها، سيتعرضون للهلاك. وكذا الحال بالنسبة لشعوب أوراسيا، التي تنبأ لها قادة الأركان بذات المصير، وأيضاً سكان قارتي أفريقيا وأمريكا الشمالية.

من جهة أخرى، لا يمكن توجيه اللوم كاملاً للقيادة المشتركة لفشلها بالتنبؤ أنّ العواصف النارية المترتبة على الهجمات النووية المخطط لها، تقود حقيقة إلى فناء البشرية بسبب مجاعات كبرى، سواء كان العدد 3 بلايين في عام 1960 أو 7 بلايين في يومنا هذا. الحقيقة أنّ ظاهرة الشتاء النووي لم تكن معروفة عند علماء البيئة، حتى بعد مرور حقب على أزمة الصواريخ الكوبية.

ومع ذلك فباستطاعة الفرد أن يسأل لماذا لم يحاولوا العمل أكثر لمعرفة الأضرار التي ستلحق بالبيئة إلى ذلك الحدّ، وهم يعدّون العدة لحرب نووية حرارية. السؤال الآخر هو لماذا وبعد مرور 30 عاماً على تنبيه العلماء حول المخاطر التي ستلحق بالبيئة، خاصّة بعد مرور 10 أعوام منذ أن تمّ الكشف عن تقديرات الخسائر استمرت خططنا الحربية باحتوائها على «البدائل» لتفجير مئات من الأسلحة الذرية حول المدن، والكافية لإحداث حرائق تسبب الدخان والسماخ كي ترفعهما تيارات الرياح إلى أعالي الجو، لتتسبّب في الموت والمجاعات، التي ستقضي على الجميع، بما فيه نحن أنفسنا.

مع أنّي عرفت كلّ ذلك عام 1961، فهو ما أثر على ردّ فعلي بشأن جدول الخسائر، الذي أمسكته بيدي في صباح ذلك اليوم الربيعي. وأكثر من ذلك التقديرات التي تنمّ عن قلة الحياء لدى قيادة الأركان المشتركة، قد أظهرت لي حينها أنّ أيّة ثقة أو أمل واقعي بأنّ أجهزة الإنذار لدى الطرفين قد لا تستعمل، أمر يقوم على أساس غير سليم. لقد بنى الأمريكان هذه الآلية وهم يعرفون جيداً أنّها ستقتل أكثر من نصف بليون شخصاً إذا ما أطلقوا لها العنان، وهم لم يترددوا في تقديم تقرير بهذا الشأن إلى الرئيس. إنّ أشخاصاً كهؤلاء لن يترددوا وأنّ أصابعهم على الزناد وسيطلقون النار إذا أمرهم الرئيس بذلك، أو كما أوضحت، إذا أمرهم شخص برتبة عالية، غير الرئيس.

وماذا عن الرؤساء أنفسهم؟ قبل عدة أشهر قليلة سبقت، وافق الرئيس أيزنهاور بطريقة سرّية على تفصيلات هذه الخطة متعددة الأوجه للإبادة الجماعية. وأكثر من ذلك، أنّه طلب ولأسباب مالية محضة، عدم إعداد خطة أخرى بديلة لمحاربة السوفيات. لقد وافق على هذه الخطة العملية الستراتيجية بالرغم من، أسباب أعرفها الآن، أنّه قد عبّر بطريقة سرّية أيضاً عن فزعه من تطبيقاتها. حين ردّت قيادة أركان القوات المشتركة على سؤال الرئيس الجديد حول الجوانب الإنسانية لآثار هجماتنا، افترضت بوضوح أنّ الرئيس كندي سوف لن يطلب منهم الاستقالة أو يفصلهم من الخدمة أو أنّه سيأمر بتفكيك آلاتهم، وكنت في ذلك على صواب.

بالتأكيد أنّ كلا الرئيسين ما كانا راغبين فعلاً بإصدار أوامرهما لتنفيذ تلك الخطة. ويصدق الأمر على من تبعهما من ساكني البيت الأبيض. لكنّهم جميعاً كانوا على يقين بكافة المخاطر المتأتية من وجود هذه الخطط. لا بُدّ أنّهم جميعاً فكّروا بالأمر واهتزت مشاعرهم من مجموع الحالات الطارئة والحوادث العرضية والإنذارات الكاذبة وانقطاع الاتصالات. إنّ سوء تفسير لسلوك السوفيات من قبل قادة من ذوي الرتب المنخفضة أو الأعمال غير المصرح بها أو أيّة محاولات سوفياتية طائشة، والفشل في الامتثال إلى التهديدات الأمريكية وتصعيد المواقف بسبب الانتفاضات الشعبية في برلين الشرقية أو غيرها من بلدان أوروبا الشرقية، كان يمكن أن يقود إلى انفلات القوات وخروجها عن الطاعة والسيطرة بطريقة لم يكن لها مثيل. وقد يقود أولئك القادة إلى التصعيد أو المبادرة بهجمات استباقية.

لقد اختار أيزنهاور المجازفة بتلك المخاطر وفرضها على البشرية وأشكال الحياة الأخرى. أمّا كندي ومن بعده جونسُن وحتى نِكسُن، حسب معرفتي المباشرة، فقد سلكوا نفس الطريق. هناك المزيد من الأدلة على أنّ «الكوارث الناجمة عن خيارات الهجمات الرئيسية»، كانت من بين الخيارات التي طُرحت أمام الرؤساء كارتر ورَيگِن وجورج بُش الأب، حتى نهاية الحرب الباردة. هناك معرفة محدودة حول مدى الخيارات، التي طُرحت بعد تلك الفترة، بالرغم من أنّ 400 صاروخاً من نوع مِنِتمَن بقيت تحت الإنذار العالي ومعها عدد من صواريخ ترايدِنت التي تطلقها الغواصات. إنّ إطلاق هذه القوة أكثر من كاف لإحداث الشتاء النووي.

وأكثر من ذلك، أنّني شعرت بمزيد من الثقة عام 1961 أنّ الإمكانات الموجودة للكوارث الأخلاقية والبدنية، التي تعني استعداد حكومتنا والتزامها لارتكاب جرائم إبادة عديدة على امتداد رقعة نصف الكرة الأرضية الغربي عن طريق تفجيرات نووية وما يتبعها من انتشار للإشعاعات، سوف لن يكون فقط نتيجة لعمل أمريكيين شواذ وليس ظاهرة أمريكية غريبة، وكنت على حق. فبعد سنوات

الإذلال بسبب أزمة الصواريخ الكوبية وإسقاط خروچوف، انطلق السوفيات لمحاكاة قدراتنا التدميرية بكلّ تفاصيلها، بل تجاوزونا، متى كان ذلك ممكناً بالنسبة لهم. وفي نهاية الحقبة، تجاوزونا تماماً. ومنذ ذلك التاريخ وُجِدت ماكنتان لإفناء البشرية، وكلّ منهما على أهبة الاستعداد وقد تخضعان لإشارات إنذارات كاذبة وإغراءات للقيام بهجمات استباقية. وهو موقف يُضاعف مقدار التدميرات وأبعادها، الذي كان سائداً في مطلع ستينات القرن الماضي.

من المؤكّد أنّ الأمريكيين ومخططي القوة الجوية الأمريكية خاصة، كانوا البشر الوحيدين في العالم ممّن اعتقدوا أنّهم انتصروا في الحرب باستخدام السلاح النووي، خاصة في اليابان، عن طريق استهداف المدنيين بالذات. ولكنّ الفترة النووية وضعت في نهاية المطاف ذلك الإغراء الشيطاني جانباً، لردع أو قهر أو معاقبة الخصم عن طريق القدرات النووية لإبادة أغلبية السكان المدنيين في عدد من الشعوب والبلدان. في ربيع عام 1961، كانت 4 دول فقط تمتلك السلاح النووي، ثم لحقت بهما دولة خامسة. أمّا الآن فيبلغ مجموع هذه الدول 9. لا شكّ أنّ أناساً آخرين كالأمريكيين ورؤساء آخرين عملوا ويعملون على وضع خطط لشن هجمات نووية على المدن.

أنا شخصياً أعرف العديد من المخططين الأمريكيين، رغم ما يبدو من جدول الخسائر، الذي في يدي أنّني لا أعرفهم جيداً. ليسوا أشراراً، بكل ما تحمله هذه الكلمة من الأحاسيس. إنّهم ناس عاديون يحبّون وطنهم. أنا متأكّد أنّهم لا يختلفون عن أمثالهم من البشر في روسيا، الذين يقومون بنفس العمل، وليسوا أسوأ من هؤلاء أو الناس الآخرين الذين تولوا الإدارة في الولايات المتحدة أو غيرهم من رؤساء الدول، التي تمتلك الأسلحة النووية.

أعجبت بأكثر المخططين والمحللين الذين عرفتهم، ممّن تخصصوا بالفيزياء في مؤسسة راند، وهم الذين صمّموا تلك القنابل، وليس الاقتصاديون الذين تكهّنوا بالستراتيجية من أمثالي. ولكن أيضاً أعجبت بالعقداء الذين عملوا على إعداد تلك الخطط، والذين طلبت مشورتهم خلال النهار وشربنا معاً الجعّة في المساء. ما كنت أنظر للموضوع ببساطة أنّه مشاكل تخصّ الأمريكيين فقط أو مشاكل الدول الكبرى. في عصر تطاحن الشعوب مع وجود القنابل النووية الحرارية، يصبح الأمر مسألة تخصّ حياة الكون وكائناته.

بعد مرور عدة سنوات من انتهاء عمله في البيت الأبيض، كتب مكجورج بُندي لمجلة فورِن أفَيرز، «في العالم الحقيقي، عالم القادة السياسيين، سواء كانوا هنا أم في الاتحاد السوفياتي، فإنّ قراراً لإلقاء قنبلة هيدروجينية واحدة على أيّة مدينة من مدن البلاد، سيُعتبر خطأً فادحاً، وأنّ 10 قنابل على 10 مدن ستكون كارثة ما لها مثيل في تاريخ البشرية، وإسقاط 100 قنبلة على 100 مدينة، فمسألة غير

واردة».

خلال السنة الأخيرة من الحرب الباردة، اقتبس هِربَرت يورك تصريح بُندي المشار إليه خلال كلمة ألقاها في مكتبة لورَنس ليفرمور الوطنية، التي كان أول أمين لها، والتي وضع فيها **فريق لوس ألموس** تصميم كافة الأسلحة النووية الأمريكية. طرح يورك سؤالاً عن عدد الأسلحة المطلوب لردع العدو وإقناعه منطقياً ليرتدع؟ واتفاقاً مع ما صرّح به بُندي من رأي فإنّ «العدد يتراوح بين 1 أو 10 أو 100، في الحقيقة أنّه أقرب إلى 1 منه إلى 100».

في عام 1986 كان لدى الولايات المتحدة 23317 رأساً نووياً، وكان لدى الاتحاد السوفياتي 40159. وعليه فإنّ مجموع ما تملك القوتان هو 63476 رأساً نووياً.

الفصل العاشر
برلين وفجوة الصواريخ

في مطلع شهر يونيو من عام 1961، وبعد شهر من إرسال كِلِپاترِك اقتراحه بإجراء تغييرات على خطة قيادة الأركان- سلاح الطيران، كانت هناك حاجة للحيلولة دون إمكانية تفعيل تلك الخطة المريعة، التي طغت على الموقف فجأة. في مؤتمر فيَنا بين خروچوف وكَنَدي، الذي انعقد على مدار يومي، 3- 4 من شهر يونيو في ذلك العام، جدّد خروچوف إنذاراً سبق أن وجّهه للرئيس أيزِنهاور في عام 1958، إثر إطلاق **سپوتنِك** وسُحِب فيما بعد بسبب عناد أيزِنهاور. عاد خروچوف فهدّد ثانية بأنّه سيسلم السيطرة على الممرات المؤدية إلى برلين الغربية، إلى الألمان الشرقيين في نهاية ذلك العام، بمناسبة توقيع معاهدة سلام مع حكومة ألمانيا الشرقية.

من المفترض أن تجعل تلك الخطوة بمقدور الألمان الشرقيين أن يقطعوا الطريق علينا للوصول إلى برلين الغربية، دون إجراء مفاوضات تتضمن حقوقهم لتفتيش كافة الحمولات المتوجهة إلى الشطر الغربي من المدينة المحاصرة. يعني ذلك الاعتراف بجمهورية ألمانيا الديمقراطية ككيان مستقل ذي سيادة، وليس اعتبارها كياناً تابعاً للسوفيات. كان مثل هذا الاعتراف أمراً غير مقبول لحليفنا كونراد أديناور في ألمانيا الغربية، ومستشار ألمانيا الفدرالية، الذي ادّعى الشرعية التامة لتمثيل الشعب الألماني بأكمله.

فإذا توجّهت قافلة عسكرية أمريكية إلى الشطر الغربي من المدينة فيتوجب عليها إمّا الإذعان لطلبات الألمان الشرقيين وقبول التفتيش أو العودة إلى ألمانيا الغربية، إن لم تشقّ القافلة طريقها عنوة وتحدث مواجهة مع قوات ألمانيا الشرقية، التي ستحظى بدعم فرق سوفياتية كاملة. ستفتح مواجهة من هذا القبيل الطريق نحو حرب شاملة، وهي حالة أعدّت لها الولايات المتحدة خطة واحدة فقط. كان خروچوف على ثقة أنّ الرئيس كَنَدي سوف لن يدع الأمور تصل إلى ذلك الحدّ.

جاء تهديد برلين في نهاية مؤتمر فيَنا، بعد أن أكّد كَنَدي لنظيره خروچوف بأنّ العديد من ضباطه في الپنتگون يرون المواجهة كارثية وغير مناسبة. قال كَنَدي، ولغرض الاستمرار في الحوار، إنّ القوة النووية لكلا الشعبين يمكن أن تُعتبر «متكافئة». في الحقيقة اغتنم خروچوف ذلك الاعتراف فعلق أنّ جنرَلاته في الكرملِن قد أخبروه أنّ روسيا هي الأقوى.

كان سلاح الطيران لا زال في ربيع عام 1961 يخمّن القدرات السوفياتية بطريقة تبدو أنّها تؤيّد ما ذهب إليه خروچوف في ادعائه أكثر من تأييده لما صرّح به كَنَدي. ومع ذلك، فإنّ منتسبيه انزعجوا للغاية أنّ الرئيس اعترف أمام خروچوف بأنّ القدرات الستراتيجية الأمريكية، التي قدّروها بأنّها أقلّ كثيراً في أعدادها، «متكافئة» مع الروس، بدلاً من القول إنّنا متفوقون في قدراتنا. إنّ «اعترافاً» كهذا قوّى بوضوح يد خروچوف خلال المفاوضات، وشعروا أنّ كندي قد أظهر سذاجة وضعفاً في الشخصية خلال مجريات المفاوضات. وكبقية العسكر، فضّل أولئك الضباط أن يكون موقف الرئيس صلباً عنيداً خلال أزمات الحرب الباردة.

ومع ذلك لم يجرؤوا على ممارسة الضغط على الرئيس إلى الدرجة التي اعتقدوا أنّها ضرورية بافتراضاتهم أنّ فهمه للتوازن الستراتيجي يشوبه الخطأ وأنّنا الأفضل تسليحاً. لم تتخذ بعد القرارات الرئيسية حول حجم قوة الصواريخ الأمريكية، الذي تمّ تقديره على أساس أبعاد التهديد السوفياتي المفترض. في الحقيقة سرّبت القوة الجوية معلومات تفيد بتفوّق السوفيات في مجال الصواريخ العابرة للقارات، وهو الذي شجّع كندي خلال حملته الانتخابية أن يقطع الوعود بردم «فجوة الصواريخ» وزيادة تخصيصات برنامجنا وتقويته لإنتاج المزيد منها. لم يأخذ سلاح الطيران بمعلومات المخابرات الخاصة بالجيش أو بسلاح البحرية التي أفادت بشكل سري ولعدة سنوات بأنّ السوفيات حقيقة متخلفون بشكل كبير مقارنة بالقدرات الستراتيجية الأمريكية من حيث النوعية والأعداد، وأنّه ليس لديهم القدرة على تغيير ذلك الموقف. ربّما يكون السبب هو أنّ ضباط سلاح الطيران ما أرادوا لمثل هذه المعلومات أن تخرّب خططهم لإنتاج المزيد من قوة الصواريخ، وأنّهم تعمّدوا تخفيض أرقامهم لكي تجاريهم إدارة كنَدي فتخصص الأموال لزيادة الإنتاج والأعداد حسب طلبهم.

اشتدت معضلة سلاح الطيران حين تعمّقت الأزمة أكثر خلال ذلك الصيف. كان من ضمن الإدارة وزير خارجية سابق اسمه دين آچسُن الذي عمل بمثابة مستشار عال وقاد مجموعة للتخطيط بخصوص برلين. حثّ هذا الإدارة على اتخاذ مواقف متصلبة اتجاه وضع برلين وأصرّ على عدم التنازل في شيء يخصّ حقوقنا في دخول المدينة متى شئنا. أكّد على ضرورة الدفاع عن هذه الحقوق

عسكرياً، إذا اقتضت الضرورة، على أن لا نلجأ إلى استخدام السلاح النووي مبدئياً. وعلى أيّة حال، أكّد بشكل قوي أنّه في وجه القوة التقليدية السوفياتية الأقوى حول المدينة المقسمة المحاصرة وقربها، فإنّ بإمكان الرئيس أن يهدّد فقط باستعمال ذلك السلاح. وعلى أيّة حال، فإنّه ليس لمثل تلك التهديدات أيّة مصداقية، حسب رأي آچسُن، ما لم يكن الرئيس في ذهنه قد قرّر استخدامه متى كان ذلك ضروريّاً.

حين سأل جون كَنَدي المستشار آچسُن وهما لوحدهما خلال ذلك الصيف، ردّ الأخير عليه بأنّه يتوجّب على الرئيس أن يتأمل هذا الخيار بشكل شخصي والتزام جانب الحذر قبل أن تحين اللحظة ذاتها. يجب أن يتوصّل إلى استنتاجات مسبقاً حول ماذا يجب القيام به، «وأنّه يجب ألّا يُطلِع أحداً على قراره هذا». من الواضح أنّ آچسُن خشي من تسرّب قرار الرئيس كَنَدي، لأنّه سوف لن تكون لذلك أيّة قيمة في ردع خروچوف. اعتقد بُندي فيما بعد، أنّ جواب آچسُن عن سؤال الرئيس، «إنّ الخيار النهائي الأخير هو قبول الهزيمة وخسارة برلين الغربية، إذا كان البديل الآخر هو إشعال حرب نووية».

اتفقت مع كلّ ذلك بصدق تامّ. شعرت، كما حال آچسُن، أنّه من المهم جدّاً أن نبقي على موقفنا في برلين قدر الإمكان، لكنّني ما اعتقدت إطلاقاً أنّ حرباً نووية في أوروپا أو في أيّ مكان في العالم، مبرّرة لهذا السبب وحده. تراجعت وأنا بكامل وعيي عن الموقف باعتماد التهديد، الذي اعتقدت أنّنا يجب ألّا نلجأ إلى تنفيذه. اعتقدت ومعي عدد من الزملاء في راند، بما فيهم هاري رَوِن ومورتِن هالپِرِن، الذي كان مستشاراً شاباً في قضايا نزع السلاح، أنّ الولايات المتحدة يجب أن تتحاشى إشعال حرب نووية محدّدة أو شاملة، تحت أي ظرف، لأنّها ستكون كارثية. لقد شعرنا بقوة إزاء هذه المسألة، رغم أنّه موقف يتعارض مع سياسة الدفاع للولايات المتحدة وستراتيجيتها في حلف الناتو القائمة على الاستعداد لتنفيذ وعودها وتهديداتها بحرب نووية ضدّ القوات السوفياتية التقليدية الكبيرة العدد. أعطيت سبب للاعتقاد بأنّ روبَرت مَكنمارا كان متفقاً معنا في هذا الرأي.

في مطلع شهر يونيو رتّبت لي إلَين إنتوفِن أن ألتقي مع مكنَمارا لفترة نصف ساعة فقط لتناول غداء سريع معه في مكتبه. الغرض هو شرح عملي في إعداد التوجيهات لقيادة الأركان المشتركة حول خطط الحرب، التي وافق عليه وبعثها لتلك القيادة. غير أنّ اللقاء القصير استمرّ لأكثر من ساعة. أخبرته عن الإجابة المدهشة التي أعطتها القيادة المذكورة عن الخسائر ردّاً على سؤالي الذي طرحته باسم الرئيس، خاصّة الآثار المتوقعة في صفوف حلفائنا الأوروپيين نتيجة خططنا المعدة لمهاجمة معسكر السوفيات والصينيين. ما كان عندي تفكير مسبق أن أعبّر عن وجهات نظري بخصوص

الموضوع، لولا أنّه سألني عن ذلك ونحن في منتصف الفترة المقررة للقاء/الغداء.

لم يكن هناك وجود لما يُسمّى حرب نووية محدودة في الساحة الأوروپية، حسب رأيه القائل، «ستكون حرباً شاملة تؤدي لإبادة جميع سكان القارة!» ذكر ذلك وهو يُظهر مشاعر قوية، وهو أمر يناقض ما كان معروفاً عنه من ناحية برود الأعصاب، وكأنّه خبير بأمور الكومپيوتر يتعامل مع الأرقام والرموز فقط. وأكثر من ذلك أنّه اعتبر من السخف بأنّ ما يُفترض قوله «الاستعمال المحدود» سيظل محدوداً في أوروپا، وبأنّه سرعان ما سيفجّر حرباً نووية شاملة بين الولايات المتحدة والسوفيات، وما يترتب على ذلك من آثار كارثية.

لم أعرف شخصاً آخر بمثل هذه الأحاسيس والوعي بالموقف وشدته وأهميته البالغة وبالعمل لتغييره. أثار مَكنَمارا بعد 30 عاماً في مذكراته بعنوان «في وقت لاحق»، أنّه نصح الرئيس كَنَدي ومن بعده جونسُن ألّا يفكّرا، تحت أيّ ظرف من الظروف، بإشعال فتيل حرب نووية. لم يخبرني بذلك حين تناولنا الغداء في مكتبه، لكنّ الأمر كان واضحاً خلال تلك المناسبة. لم يكن في ذهني شكّ أنّه قدّم تلك النصيحة للرئيس، وأنّها كانت نصيحة في محلها. ومع ذلك فإنّها نصيحة تعارضت مع «التأكيدات» الجنونية حول استعداد الولايات المتحدة والتزامها باستعمال الأسلحة النووية في المناسبات، التي تحدّث فيها مع مسؤولي حلف الناتو، بما فيها الخطب، التي أعددتها له أنا نفسي، خلال فترة إشغاله لمنصبه، على أنّ ذلك الالتزام جزء من قيادتنا للحلفاء.

انضم إلينا آدم يارمُلنسكي وهو مساعد الوزير مَكنمارا، في الدقائق الأخيرة من مناسبة تناولنا الغداء معاً، دون أن يقول شيئاً. وحين غادرنا سوية مكتب الوزير أخذني آدم إلى غرفة مجاورة صغيرة وقال إنّه لم يصادف أنّ مَكنَمارا قد مدّد فترة غدائه، كما فعل اليوم. لقد تحدّث معي بصراحة أكثر ممّا كان يفعل مع يارمُلنسكي، الذي لم يسمعه يتحدّث مع أيّ شخص آخر. النقطة، التي أراد آدم أن يخبرني بها، وأنا أعيدها هنا، هي التأكيد على ما سرني به مَكنَمارا، «يجب ألّا تخبر أحداً خارج جناح مكتب الوزير بما ذكره لك».

سألته إن كان الوزير يخشى من ردود فعل الكونگرس وقيادة الأركان المشتركة أو حتى دول الناتو. قال، «بالضبط، لأنّ ذلك يعني إثارة الاتهامات ضدّه». أخبرته أن يطمئن لأنّني أعرف الموقف جيداً، لكنهّ استمر يشرح بوضوح أكثر، «لا تخبر حتى هاري رَوِن، لا أحد إطلاقاً»، خاصة وأنا أعرف ذلك الآن. يبدو أنّه على علم بأنّ هاري هو أقرب أصدقائي الذين أثق بهم وزميل لديه تصريح أمني خاص، ممّا يجعلني أطلعه على معلومات سرية كهذه، رغم أنّه قيل لي ألّا أخبر أحداً، وقد ذُكِر اسمه بالذات. وبناء عليه، فإنّني لم أخبِر أحداً، بما فيهم هاري حين ورد اسم مَكنَمارا. غير أنّني سألت

آدم سؤالاً واحداً، «بقدر علمك، هل يفكّر الرئيس كَنَدي بطريقة تختلف عمّا يفكّر به وزير دفاعه؟».

رفع آدم إبهامه وقال مؤكداً، «ولا حتى ذرة!».

تركت جناح الوزير وأنا على اعتقاد أنّ روبرت مَكنَمارا شخص يجب أن أثق بأحكامه. لديه، وكما رأيت، منظور صحيح للمخاطر الكبرى التي تهدّد العالم، ولديه القوة والتصميم لتخفيف حدّة تلك المخاطر. أضِف إلى ذلك أنّه ومساعده لديهما دهاء وخبرة تمكنهما من تحقيق ذلك. يجب أن يحتفظ بأسراره لنفسه.

* * *

بتاريخ 25 يوليو من عام 1961، ألقى كَنَدي خطاباً قوياً تعلق بأزمة برلين، استفتحه بعبارته المشهورة باللغة الألمانية، «أنا برليني...» دعا فيه قوات الاحتياط إلى الاستعداد لمواجهة في المدينة المذكورة وحذر الرأي العام بأنّ الحرب النووية قد تصبح إمكانية حقيقية. كما دعا إلى تهيئة الملاجئ للمواطنين. اقترح هِرمَن كان أنّه من أجل تهديد ذي مصداقية بالضربة الأولى، فإنّنا يجب أن نكون مستعدين لنظهر أنّنا سننجو من أيّة هجمات انتقامية بواسطة تهيئة الملاجئ، أو على الأقل بأنّنا سنجتاز المحنة. ولكي تحقق ذلك يجب أن تعمل لتظهر أنّك مؤمن بما يُطرح، حسب اعتقاده، وأنّ الملاجئ ستحدث فرقاً كبيراً ويجب على المواطنين أن يشجعوا على بنائها. أتذكر في حينها أنّ مكجورج بُندي قد ذكر، «إنّنا سنقوم بذلك ليس بسبب ما قاله هِرمَن كان. لقد عنى بأنّنا لن نقوم بالضربة الأولى أو نعتمد على الملاجئ لتلعب دورها في حماية المواطنين ونجاتهم... لقد كنّا نقوم بجهود حصينة لربما ستساعد في حالة قيام حرب نووية، حسب ما افترضت.

ولكن في الحقيقة ما كان هناك سبب غير ما ذكره كان، وأنّ الرئيس تحدّث عن ملاجئ الحماية من الإشعاعات النووية. لو حدثت حرب نووية في تلك السنة، فلربما بسبب جهودنا للمحافظة على حقنا في الدخول إلى برلين، وهي التي كانت قادتنا هنا في الولايات المتحدة إلى إمكانية إشعال فتيل حرب نووية، ستتحول إلى حرب شاملة. في الحقيقة، إنّ إدارة كنَدي لم توضح للشعب الأمريكي بجلاء أنّ سياسة البلد حول الحرب النووية تقوم على مبادرة الولايات المتحدة بالضربة الأولى، كما كان سيفعل كان، لو أنّه أعدّ خطاب الرئيس بتلك المناسبة.

ومع ذلك، فإنّ الخطاب لم يطلق موجة من جنون الخوف من الإشعاعات النووية والإسراع إلى الملاجئ، وزيادة الاهتمام التجاري لبناء تلك الملاجئ وبيعها للمواطنين. قام چارلي هِچ، رئيس قسم الاقتصاد في مؤسسة راند، وهو الذي وظفني في تلك المؤسسة، ببناء ملجأ ضدّ الغارات النووية

في حديقة بيته. وكما أتذكّر أنّ الملجأ استعمِل فيما بعد كمخزن لحفظ قناني النبيذ المعتق. وفعل وِلارد لِبي، مسؤول الطاقة النووية هو الآخر فبنى ملجأ في بيته. غير أنّ الملجأ التهمه حريق دمّره ونحن وسط أزمة الصواريخ الكوبية في العام التالي. وهذا ما دفع لِيو زِلَرد أن يعلق ساخراً، أنّ ذلك لا يدل فقط على وجود الرّب، لكنّه فعلاً ربّ يتمتع بحسّ فكاهي. دار نقاش في مجلة لايف حول أخلاقية حماية الملجأ بتأمين استعمال بندقية رشاشة لإبعاد الجيران الذين لم يأخذوا الأمر جدّياً ويبنوا ملاجئ لأنفسهم، وجاءوا في نهاية الأمر ليزاحموا العائلة كي يستولوا على ملجأها. وصل الأمر إلى أنّ رجال الدين الكاثوليك والپروتِستانت على السواء أفتوا أنّه مقبول من الناحية الدينية أن تدافع لحماية أسرتك بتلك الطريقة.

كان ردّ خروچوف على خطاب كَنَدي وموقفه المتصلب هو الأمر ببناء جدار برلين الفاصل بين شطري المدينة مساء يوم 13 أغسطس. لقد كان ذلك وسيلة لوقف نزيف هروب العمال المهرة وعوائلهم من شرق برلين إلى غربها. كان ذلك هو الضغط الطارئ على النظام السوفياتي لتغيير الوضع السائد في برلين وقتها. لكنّ خروچوف لم يقم كما هدّد بتسليم الطرق المؤدية إلى غرب المدينة المحاصرة لقوات ألمانيا الديمقراطية. وهي خطوة اعتقدنا حينها أنّها ستؤدي إلى إشعال فتيل حرب نووية.

* * *

زرت أواخر شهر يوليو من عام 1961 مراكز قيادة القوة الجوية الستراتيجية في أوماها لأعرف ردود فعل سلاح الطيران على البرقية التي كتبت مسودّتها بمساعدة العقيد لُكمَن، والتي بعثها الوزير مَكنَمارا إلى الجنرَل تومَس پَوَر، قائد سلاح الطيران. لقد حثت تلك البرقية پَوَر أن يجد طرقاً لتكييف خططه الحالية وعملياته بأسرع وقت ممكن بما يتوافق مع توجيهات خطة حرب قيادة الأركان المشتركة التي كتبت مسودتها، والتي من المفروض بدأ العمل بموجبها كاملة في السنة القادمة.

تحدثت مع العقيد دَيفِد ليبمَن، وهو رئيس قسم الخطط الحربية في سلاح الطيران وكنت عرفته مسبقاً وقت حضر لزيارة قسم التخطيط للقوة الجوية في الپنتگون حين كان لُكمَن مسؤولاً عنه. قال ليبمَن إنّه إثر التحفظات الأولية، فقد وافق المعنيون على التوجيهات التي وضعتها. قال إنّ الموقف السلوكي في أوماها، انبعث من قول الجنرَل پَوَر، «إنّ باستطاعتنا التعامل مع هذه التوجيهات». سعدت كثيراً لسماع تلك الأخبار، التي لم أتوقعها على هذا الحال حين جئت في هذه الزيارة. وأنا أستعيد الآن ذكريات تلك الأيام، كان يجب أن أكون أكثر حذراً من موقف پَوَر حول توجيهاتي وترحيبه الظاهر بها.

علق ليبمَن خلال مجريات الحديث أنّه وزملائه في سلاح الطيران ما كانوا سعداء بموقف الرئيس كَنَدي، الذي تميّز بضعف التصميم والإرادة خلال أزمة برلين. ذكر أنّ الرئيس قد نُظِر إليه بأنّه كان خائفاً من عواقب أيّة حرب نووية رغم أنّ ليبمَن علق بدفع من رئيسه الجنرَل پَوَر أنّ قيادة الأركان المشتركة قد أكّدت للرئيس أنّه «إذا ساءت الأمور» فإنّ ضربة استباقية ضدّ الاتحاد السوفياتي ستؤدي إلى مقتل «أقل من 10 ملايين مواطناً أمريكياً».

جاءت عبارة «أقلّ من 10 ملايين مواطناً أمريكياً»، وكأنّها تأكيد رُسم بسرعة على شفاه ضباط القوة الجوية من دون كافة البشر باستثناء هِرمَن كان. ومع ذلك، فإنّني شعرت برجفة سرت في بدني بسبب ذلك التقدير المنخفض. سألتهم، «10 ملايين؟ ذلك هو مجموع سكان نو يورك بكاملها. إنّ رأساً نووياً واحداً أو اثنين على نو يورك أو لوس أنجلِس سيسببان تلك الخسائر. كيف يستطيع پَوَر أن يعطي تلك التقديرات المنخفضة؟».

«حسناً هذا ما يعتقده وهذا هو ما ذكرته قيادة الأركان المشتركة للرئيس»، كما قال ليبمَن. «لقد طلبوا من الرئيس أن يتفهم ذلك، وهو ذاهب للمفاوضات مع الروس، وأنّه يجب أن يتسلح بالقدرة على تنفيذ تهديداته إلى ذلك الحدّ، إن ساءت الأمور أكثر».

من الواضح أنّهم لم يتحدثوا عن خسائر الحلفاء في أوروپا الغربية، رغم أنّ السوفيات يمتلكون المئات من الصواريخ المتوسطة، التي تستطيع أن تصل إلى كافة أنحاء القارة المذكورة. كما أنّ لديهم قاذفات متوسطة المدى، في الحقيقة بأعداد أكثر ممّا تنبأنا بها. ظهر فيما بعد أنّ المخابرات الأمريكية قد تعمّدت التقليل من قوة السوفيات النووية، التي استهدفت أوروپا وإنگلترا، وفي نفس الوقت بالغت بقدرات السوفيات حين المقارنة مع الولايات المتحدة، وبشكل خاص أنّ لدى السوفيات قدرات ستجعل برلين الغربية حفرة عميقة سوداء يملأها الدخان. وهو الحل النهائي لمشكلتهم في ألمانيا. وأكثر من ذلك أنّهم أنتجوا وطوروا ونشروا صواريخ وقاذفات بإمكانها ضرب كافة قواعدنا المنتشرة في أوروپا الغربية وشمال أفريقيا والمملكة المتحدة واليابان. الهجمات السوفياتية على تلك الأهداف لا يمكن اعتراضها بضربات استباقية، وستعني بالضرورة إبادة سكان تلك المناطق.

وأكثر من ذلك، فإنّ قيادة الأركان المشتركة قد أطلعت الرئيس مسبقاً أنّ الإشعاعات النووية الناجمة عن هجماتنا على المعسكر السوفياتي ستؤدي إلى فناء 100 مليون شخصاً في غرب أوروپا و100 مليون شخصاً آخرين من سكان البلدان المجاورة للاتحاد السوفياتي والصين. يبدو أنّ قيادة الأركان المشتركة قد افترضت أنّ الرئيس ما كان معنيّاً بخسائر المدنيين في البلدان الحليفة لنا والمحايدة، نتيجة ضرباتنا الاستبقاقية ضدّ الاتحاد السوفياتي وضرباتهم الانتقامية. ولذلك لم تأتِ القيادة

على ذكر تلك الخسائر.

يبدو من الوثائق المسجلة أنّهم على صواب بشأن ذلك الأمر. كان شيئاً معروفاً لدى المخططين الستراتيجيين في ذلك الوقت وحتى أيامنا الحاضرة، أن يطرحوا جانباً الخسائر في صفوف السكان الأوروبيين وشمال أفريقيا وبلدان آسيا، حين يجرون حساباتهم، التي تخص توازن الرّدع. ولا أتذكر أيّة مناسبة أثار فيها الرئيس أو الموظفون المدنيون الكبار هذه المسألة. وحين أفكر في هذا الأمر الآن، أجد أنّه مسألة مخيفة حقاً.

خلال محدثات جرت لي فيما بعد في مكتب ليبمَن حين كنّا نستعرض تقديرات وكالة المخابرات المركزية لعدد صواريخ السوفيات، التي صدرت في شهر مايو السابق، والتي ذكرت أنّ عدد الصواريخ العابرة للقارات لديهم كان بحدود 50- 100 صاروخاً في وسط عام 1961. ذكر مساعد رئيس مخابرات القوة الجوية الأمريكية أنّه لم يتفق مع تلك التقديرات وذكر أنّ العدد هو 120 صاروخاً أو أكثر من ذلك، وأنّه سيكون 300 صاروخاً في منتصف عام 1962. ذهب مدير المخابرات في وزارة الخارجية إلى تقدير العدد بأنّه يتراوح بين 75 - 125 صاروخاً في حينه «ومن الممكن» أن يكون 200 صاروخاً، وسيصل العدد إلى ما بين 150 - 300 صاروخاً خلال عام واحد.

كما كانت هناك بيانات مختلفة من فرعي المخابرات في الجيش والبحرية، مفادها أنّ السوفيات استطاعوا نصب «عدد قليل» من الصواريخ ما بين منتصف عامي 1960 - 1961. وحين اطلعت بتاريخ 7 يونيو على تقديرات المخابرات الوطنية NIE في البنتگون، شاهدت بأمّ عيني تلك الأكاذيب المفضوحة المدونة على ورقة بصحبة تعليقات قصيرة تبرّر تلك الأرقام. بناء على تعليمات من إدارة أيزنهاور نفسها، فإنّ مؤسسة راند قد حُرِمت في عام 1958 من الاطلاع على أيّ شيء يصدر عن المخابرات الوطنية. ومنذ ذلك الحين، اقتصرت معلومات منتسبي راند على تقديرات مخابرات سلاح الطيران حول القوة الهجومية السوفياتية. كنّا نعرف أنّ تلك التقديرات أعلى في العادة من تقديرات وكالة المخابرات المركزية. سمعت إشاعات مريرة حول ادعاءات الجيش والبحرية في قضية فجوة الصواريخ، نقلها إليّ ضباط الطيران ووصفوها بأنّها تقديرات تنمّ عن الخيانة. لقد رأوا أنّ الجيش والبحرية يعملان بشكل مقصود لتخريب الأمن الوطني لأنّهم يرددون قصصاً خيالية لا موجب لها سوى اقتطاع ميزانية القوة الجوية الخاصة بالصواريخ. وكانت تلك في الحقيقة هي المرة الأولى التي ذكروها لي شفاهاً وشاهدتها مدونة بشكل رسمي.

إذا وضعنا جانباً التحيّزات المهنية بين خدمات الجيش والبحرية، فإنّ مخابراتهما قد وضعت أقلّ تقديرات لصواريخ السوفيات العابرة للقارات في شهر يونيو، وبأنّها أكثر بقليل من صواريخ

الولايات المتحدة البالغ عددها 40 صاروخاً من نوع أطلس وتِتان الجاهزة للاستعمال في ذلك الوقت، وأنّها ربمّا ضعف ذلك أو أكثر بثلاث أو خمس مرات لدى خصومنا. كانت التوقعات، أنّه ربّما لدى السوفيات 300 صاروخاً أو أكثر. هذا هو الرقم الذي اتفِق عليه، والذي ستتمكن قاذفات سلاح الطيران المحملة بالصواريخ لوحدها من القضاء عليه إثر انطلاقها من قواعدها في الولايات المتحدة أو الخارج إضافة إلى قواعد صواريخنا العابرة للقارات. أدلى الجنرَل تومَس پَوَر بشهادته أمام الكونگرس عام 1960، فأفاد بأنّ السوفيات قد يمتلكون ترسانة خطيرة، كما تنبأ هِرمَن كان. كما أنّ وكالة المخابرات الأمريكية قد ذكرت في شهر يونيو تقديرات رفعت العدد إلى المستوى الأعلى عام 1963، وسبقتها وزارة الخارجية بوضع عدد الصواريخ السوفياتية في المستوى الأعلى عام 1962، وأنّ القوة الجوية قد قدرت العدد بأنّه 300 صاروخاً في منتصف عام 1962 وحوالي 550 صاروخاً في منتصف 1963 وأكثر من 1000 صاروخاً في عام 1965.

تظهر تلك التقديرات ضغط سلاح الطيران المتوالي لزيادة حجم قوة صواريخه برفع عددها. كان مَكنَمارا في حينها يواجه السؤال المتعلق بمستوى قوة صواريخ مِنِتمَن العابرة للقارات وزيادة تحصينات قواعد الصواريخ ذات الوقود الصلب السريعة الانطلاق من مخابئها تحت الأرض والقواعد الجوية «الناعمة». كما نظر في مدى الانتشار الذي لم يتحقق بعد لدى الطرفين. لم يستطع مَكنَمارا أن يعترف حتى داخل الپنتگون بأنّه يفكّر بتحديد عدد الصواريخ وجعله 1000 صاروخاً، وهو ما كان هدفه غير المعلن. أمّا الجنرَل پَوَر وبمساندة من الجنرَل لومَي، فطلب 10000 صاروخاً. أخبر وزير الدفاع الرئيس بأنّنا في الحقيقة لم نحتج أكثر من 400 صاروخاً، لكنّه مال إلى 1000 صاروخاً ليستطيع أن يحصل على موافقة الكونگرس وينفد بريشه.

السنة الأخيرة، التي فكّرت فيها الولايات المتحدة بتسديد ضربات انتقامية ضدّ السوفيات إن هم قاموا بالضربة الأولى، اعتمد تماماً على القواعد «الناعمة» وقواعد إطلاق الصواريخ المعرضة للتدمير بواسطة 200- 300 صاروخاً بعيدة المدى يمتلكها السوفيات عام 1962. وسيحتاج السوفيات إلى آلاف الصواريخ بعيدة المدى للتأكد من نجاح ضربتهم الأولى للعدد الكبير من قواعد صواريخنا بعيدة المدى، التي برمجتها الولايات المتحدة للانطلاق إضافة إلى ما ستطلقه الغواصات من صواريخ پولارِس. بعبارة أخرى، كان عام 1962 هو العام الأخير لأيّ طموح سوفياتي لتحقيق كسر قدراتنا على إنزال الضربة الأولى بهم بمستوى معقول من الثقة العالية.

وعلى أيّة حال، حين سألت ليبمَن عن الأسباب التي دعت سلاح الطيران أن يناقض التقديرات المنخفضة لوكالة المخابرات المركزية، أعطاني سبباً أكثر قوة. «ببساطة، نحن لا نؤمن بتلك

التقديرات. هناك المزيد من الأدلة بأنّ السوفيات يمتلكون أكثر من تلك التقديرات». ثم أضاف، «هل تعرف ماذا يعتقد شيخنا، إشارة إلى الجنرَل پَوَر، أنّهم يمتلكون؟».

انتظرت منه جواباً.

«1000 صاروخاً. أنا متأكّد أنّهم يمتلكون الآن 1000 صاروخاً.

فكّرت للحظة ثمّ سألته، «كم عدد الصواريخ التي تعرف أماكن تواجدها؟» ما قصدته هو عدد الصواريخ بعيدة المدى التي يستهدف سلاح الطيران تدميرها من بين ذلك الألف الذي تحدث عنه پَوَر.

«حوالي 200 صاروخاً».

قلت، «200 صاروخاً فقط». أتذكّر أنّني توقفت للحظة قبل أن أضيف، «هذا يعني أنّنا لا نعرف مواقع 800 صاروخاً سوفياتياً بعيدة المدى، كي ندمّرها؟».

أحنى رأسه عدة مرات دليلاً على الموافقة.

سألته، كيف يمكن لذلك أن يتوافق مع تقديراتنا بأنّنا سننزل بهم خسائر أقلّ من 10 ملايين شخصاً نتيجة ميادرنا باستخدام الضربة الأولى؟

ساد صمت طويل، لاحظت خلاله أنّ ليبمَن ضيّق عينيه ومطّ شفتيه وشدّهما قبل أن يقول، «أنت تعرف أنّ هذا سؤال جيد ولا أعتقد أنّني سمعت أحداً قد طرحه من قبل». ثمّ فكّر لبعض الوقت واستأنف القول، «هنالك شخص بودي أن تطرح عليه سؤالك هذا».

أخذني إلى قبو مبنى مركز القيادة الجوية وقدّمني إلى رئيس قسم التقديرات في مخابرات سلاح الطيران، العقيد جورج كيگِن الابن. وصفه ليبمَن من قبل أنّه مثقف حقيقي وأنّني سمعت عنه في الپنتگون بأنّه «أبو قضية فجوة الصواريخ». إنّه واحد من الخصوم الكثيرين، الذين يدّعون أبوة هذه المسألة. في أواخر السبعينات، كان من المتحمسين لموضوع «الفجوة في الأشعة القاتلة». وهو سباق في ميدان استخدام توجيه الطاقة باستعمال الجسيمات المشحونة CPB، وادّعى أنّ السوفيات قد سبقونا في تطويره.

قدّمني ليبمَن له وهو في مكتبه المنخفض الإضاءة ويحيط به عقيدان آخران، قائلاً إنّني طرحت عليه سؤالاً مهماً، ثم طلب منّي إعادته. طرحت السؤال ثانية، فلم يُجب كيگِن وفعل ما فعله ليبمَن. ألقى عليّ نظرة خالية من التعبير وردّد، «هذا فعلاً سؤال مثير للإعجاب...».

قلت بعد وقت قصير، «أنت تعرف أنّه إنْ كنت تحاول تشجيع الرئيس لكي يتخذ موقفاً صارماً بوجه السوفيات في برلين، فلربّما ليس من صالحك أن تخبره أن يواجه 1000 صاروخاً سوفياتياً».

استعدل كيگِن في جلسته على عجل وبدا أنّه صُدِم بشكل مريب، فقال، «أنت لا تقترح أنّه يتوجّب علينا أن نجعل تقديراتنا «أكثر حلاوة»».

ألقى عليّ نظرة ثاقبة قابلته بمثلها وأنا أحاول قراءة تعابير وجهه بحثاً عن مفارقة لم أجد لها أثراً. بدا وكأنّه غير واع لذاته ولا للإشاعات المنتشرة حول تقديرات سلاح الطيران، وأنّه بالغ في أرقامه. لم تكن تلك مناسبة لتبادل الابتسامات حول الموضوع.

قلت، «لا طبعاً، بالتأكيد لا. أريد زيادة حلاوتها؟ لا بحقّ السماء! ولكن...» مضيت للقول بحذر، «إذا كان هناك مجال من عدم اليقين، فليس من الأفضل لأيّة وجهة نظر، أن تؤكد على المدى الأقصى».

قادني بعدها ليبمَن إلى خارج المكتب.

* * *

جرت في شهر سبتمبر مناورات وهمية simulating games سياسية عسكرية حول برلين، وضعها توم شَلِنگ وأشرف عليها. وهو الذي أشرف على أطروحتي حين كنت طالباً في هارفرد حول **نظرية المساومة**. هو الآن مشرف على عدد من تلك المناورات الوهمية التي يقوم بها الپنتگون. شملت إحداها مشاركين من المستوى العالي، بعضهم مسؤولين رسميين وآخرين متقاعدين عسكريين ومدنيين. شارك فيها مسؤولون برتب عسكرية مثل الجنرَل مَكسوَيل تَيلَر، الذي أصبح بعد فترة قصيرة قائداً لمجلس أركان القوات المسلحة، ومن بعدها سفيراً في فيتنام. كان في حينها أعلى مستشار عسكري في البيت الأبيض للرئيس كَنَدي.

كانت المناورات الوهمية تجري على الشكل التالي. نجلس حول الطاولة ونتبادل برقيات يعدّها شَلِنگ وكأنّنا نجلس في غرف إدارة الحرب في مناطق عسكرية مختلفة في برلين وغيرها. كانت إحدى البرقيات، كما أتذكّر، من طالب يدرس في جامعة برلين الحرّة ضدّ تحركات قواتنا هناك. (بعد مرور عام، كنت ووِلت روستَو نقرأ برقية حقيقية تحمل نفس المحتوى في الأزمة الحقيقية لصواريخ كوبا، كما سنرى في الفصل الثاني عشر).

جرت مناورات على عدة مراحل عام 1961 حول برلين كنّا فيها نجسّ نبض السوفيات وكانوا

يجسّون نبضنا. أتذكّر القليل عنها باستثناء أنّ الفريق الأزرق، الذي مثل الولايات المتحدة والذي كنت عضواً فيه، وجد صعوبة لاتخاذ قرار بشأن استخدام الأسلحة النووية، رغم أنّ ذلك هو الأساس في خططنا الحقيقية. كان واضحاً أنّه قرار يقود إلى كارثة جماعية، لحدّ أنّ لا أحد من أعضاء فريقنا قد تصوّر أن نتعجّل باتخاذ مثل هذا القرار. اتضح لي أنّ الأمر لم يكن مقصوراً على أنّنا نقوم «بمناورات وهمية». في مواقف أخرى، من التي أعدّها شَلِنگ، كان هناك شعور بحالة طوارئ وما يترتب عليها من التوترات.

صحيح أنّني لم أكن راغباً لأكتشف أنّني أعمل مع العديد من المسؤولين، الذين لا يفكّرون بإشعال فتيل الحرب. الأمر المتميز في خطط طوارئنا الحقيقية بأن نشقّ طريقنا إلى برلين بالقوة، مسألة فيها العديد من العناصر غير الواقعية. أو بعبارة أخرى، إنّنا سنكون مخادعين. أو أنّ الجانب الآخر هو المخادع، لأنّ تردّد الجانبين المشتركين في اللعبة بإشعال فتيل الحرب النووية، كما تتطلب خططنا الموضوعة إذا لجأ السوفيات لمثل هذا السلوك واستعمال قواتهم المتواجدة في مسرح العمليات كاملة في ألمانيا الشرقية لقطع الطريق علينا، بدا أمراً جنونيّاً، أكثر جنوناً من إقدامِنا على تنفيذ خططنا. ولكن مع ذلك توجد إمكانية ذات احتمال عال، أنّهم لم يحاولوا المخادعة، لأنّ أعداد القوات الأمريكية ضئيلة بالمقارنة وأنّها ستلجأ إلى استخدام السلاح النووي، قبل استلام أوامر عليا، دفاعاً عن أنفسهم أو للانتقام، خلافاً لرغبات القيادة العليا الأمريكية وقيادة حلف الناتو. جدير بالذكر أنّه لا توجد أقفال على الأسلحة التكتيكية والقليل منها للتحكّم بالأسلحة الستراتيجية النووية المتوفرة لدى سلاح الطيران.

ما ظلّ ماثلاً في ذهني، أنّ المناورة الوهمية حين انتهت، تركتُ البناية وكان يمشي إلى جانبي أيب چَيز، وهو أستاذ سابق للقانون في جامعة هارفرد، والذي كان يعمل مستشاراً قانونياً في وزارة الخارجية. التفت إليّ قائلاً، «يجب أن نخرج من برلين».

نظرت إليه ولم أقل شيئاً، الأمر الذي جعله يستمر قائلاً، «كما تعرف، إنّ مواقعنا هناك لا يمكن الدفاع عنها إطلاقاً. لقد أظهرت المناورة الوهمية هذه الحقيقة. ليس باستطاعتنا الدفاع عن تلك المواقع». كان مثل هذا القول شيء لا يمكن تخيله في دوائر الأمن الوطني. لم أسمع ذلك من أيّ شخص أبَداً قبل ذلك أو بعده. غير أنّه بموجب منطق العسكر، فإنّ الأمر واضح لا يثير التساؤل. لا يمكن لقوات الناتو أن تدافع عن غرب برلين. إنّها في وسط ألمانيا الشرقية ومحاطة بالقوات السوفياتية، وأنّ تلك القوات هي الأفضل في عداد الجيش السوفياتي. توجد 22 فرقة سوفياتية، أكثرها فرق دبابات مسلحة بأحدث الأنواع تفوق أيّ شيء يمكن أن نضعه في طريقها وستسحقه بسهولة. وإذا

أخذنا بنظر الاعتبار استخدام أسلحتنا التكتيكية النووية، فإنّ لديهم المزيد منها. ما كانت هناك إمكانية واقعية لأيّة مواجهة عسكرية فعّالة.

إذا كانت لدينا خطة للاستجابة لفعل السوفيات، فيجب أن نبعث فرقة إلى برلين الغربية تلقي القبض على أفراد حاميتنا هناك، واعتقال كلّ من يظهر نزعة للقتال. لم أسمع بمثل هذا من قبل. وإذا تأملنا تلك الحالة الطارئة، فأعتقد أنّنا لم نكن راغبين حتى بمجرد التفكير بها. كلّ الذي تصورناه أنّ السوفيات سيعملون ما عملوه عام 1948 بقطع الطرق باستخدام قوات ألمانيا الديمقراطية أوّلاً وعزل المدينة بإغلاق مجالها الجويّ. الطريقة الوحيدة لمنعهم من تنفيذ ذلك بطريقة عسكرية فعالة، هي الاعتماد على التهديد بإشعال حرب نووية.

من الطبيعي هناك سلسلة من الخطوات التي ستقود لذلك. كان پول نيتزا هو مسؤول الپنتگون للتخطيط لحالات الطوارئ. كانت الخطط تقوم على إرسال وحدة أمريكية صغيرة لاختبار فاعلية الحواجز الموضوعة. يجب أن تكون القوة صغيرة لا تتعدى فصيل أو فصيلين، وإذا تمّ إيقافهم سنبعث كتيبة. وإذا تمت محاصرة هؤلاء من قبل قوة الحواجز، فسنبعث فوجاً أو فرقة. لكنّ كافة المقترحات التي اطلعت عليها، تقف عند هذا الحدّ من التصعيد.

وإذا وصل الأمر إلى ذلك، فإنّنا سنواجه تعريف أيزنهاور للحرب الشاملة في منتصف عام ، حين كانت لدى الپنتگون خطة واحدة تقوم على صدام كبير مع القوات السوفياتية. وما تُرِك من حقبة أيزنهاور هو هجوم نووي واسع النطاق ضدّ الاتحاد السوفياتي. أخبرني روزوِل كِلپاترِك أنّ ذلك هو قصد مَكنَمارا وقصده هو أيضاً إذا وصل الوضع إلى أزمة مثل هذه. يجب أن نرمي الخطط الموضوعة جانباً ونضع خططاً جديدة. ولكن حقيقة، ماذا يمكن عمله؟ ببساطة، إنّ خطط الناتو وفق طبيعة التحالف ذاته، وحتى لو أخذنا بنظر الاعتبار حقائق الوضع الراهن في حينه، لم تكن تدعو إلى عمليات هجومية داخل مناطق حلف وارسو.

وبمرور الوقت قدّم كَنَدي ومعه مَكنَمارا إلى الناتو مفهوم «الردّ المرن»، الذي يبدأ باستخدام القوات الدفاعية الاعتيادية ضدّ أيّ اختراق سوفياتي واسع النطاق داخل برلين الغربية. وقد يشمل ذلك «استعراضاً» لإطلاق رأس نووي واحد أو اثنين نحو الأهداف المختارة باعتناء والقصد هو تحذير السوفيات من تهديد الطوفان القادم نحوهم كي يتراجعوا عن موقفهم. أخبرني مَكنَمارا خلال تناول الغداء معه في مكتبه، أنّه لم ينصح بذلك إطلاقاً. وكما ذكرت، أنّه كشف في فترة متأخرة أنّه نصح فعلاً الرئيسين كَنَدي وجونسُن ألّا يفكرا بهذا الخيار بتاتاً وتحت أيّ ظرف لإشعال فتيل حرب نووية. قال إنّهما اتفقا معه في هذا الرأي. وعليه فإنّ ما ورد كان خداعاً بطريقة ودّية، لكنّ التهور بفكرة

جنون «الاستعراض» فإنّها ببساطة كانت ستقود إلى تبادل هجمات ذرية كثيفة من قبل كلا الطرفين، كما كان واضحاً بالنسبة لي. لقد أمِلت أنّ حلفائنا يشاركونني في هذا الرأي.

وعليه لم تكن أمامي طريقة لأردّ على ملاحظات أيب چَيز حول العجز في الدفاع عن برلين الغربية ما لم أكرر لنفسي القول بأنّ ذلك جنون ومخاطرة من جانب ستراتيجيتنا الحقيقية، كما بدت لي. كانت هناك طريقة واحدة للحفاظ على مواقعنا في برلين الغربية، بدون التفاوض مع السوفيات والألمان الشرقيين. إنّها نفس الطريقة، التي اعتمدنا عليها منذ التحذير الأول، الذي أطلقه خروچوف عام 1958، واستمر طيلة الحقبة التي تلت ذلك. الطريقة هى التهديد بتنفيذ خططنا الفعلية بشأن برلين. وصف أحد الزملاء المرتابين في الپنتگون، «أن نبعث بسلسلة من الدوريات، التي تزداد كبراً في حجمها. فإذا تمّ اعتراض كافة تلك الدوريات، فإنّنا سنطلق قذائف (نووية) للتحذير. وإذا لم تحقق هذه نجاحاً، فإنّنا نقوم بتفجير العالم».

ذلك ما كنّا سنعمله. في الحقيقة أنّ چَيز كان يقول إنّ تلك ليست خطة جيدة على الإطلاق، حتى لو كانت لأغراض الخداع. إنّها ليست تهديداً يُعتمَد على مصداقيته وواقعيته، وإنّه ستكون له نتائج كارثية إن أقدمنا على تنفيذه. إنّ الإبقاء على برلين الغربية لا يستحقّ منّا تلك المخاطرة. ما كنت راغباً في معارضة رأيه، لكنّني في ذات الوقت ما كنت مستعداً للقول بأنّني متفق مع ما ذكر، حتى مع نفسي. إنّ ذكرياتي عن حصار برلين حين كنت في سنّ 17 عاماً قد ازدادت قوة خلال سنوات خدمتي في مشاة البحرية وأنا في سنّ 20 عاماً، وأفكاري عن الحرب الباردة كانت حيّة في ذهني لأقبل ما طُرح أمامي.

ولكن في نفس الوقت، فإنّ التنفيذ الفعلي للتهديدات، الذي اعتمدنا عليه، كان لعنة بالنسبة لي. الشيء الذي لا يمكن تصديقه، إنّه في شهر أغسطس من عام 1961 أنّنا كنّا نطلق تلك التهديدات جزافاً، في الوقت الذي كنّا فيه أقلّ قوة من السوفيات في مجال الأسلحة الذرية الستراتيجية، وفق تقديراتنا الرسمية. لم أعتقد أنّ أحداً في الپنتگون أو في الإدارة تقبّل فكرة أنّنا نقوم فعلاً بتسديد الضربة الأولى، في ضوء الحقيقة التي تواجهنا.

ومع ذلك، فإنّ أندي مارشَل أخبرني في العام الماضي، وبدون أن يكلف نفسه عناء التوضيح أنّه «توجد فجوة في الصواريخ»، وأنّ مَكنَمارا قد صرّح في شهر فبراير بعدم وجود مثل هذه الفجوة خلال خلفية مؤتمر صحفي. اعتقد أنّ القول سوف لن يُنسب إليه، وحين نُشِر ما صرح به في اليوم التالي، عرض أن يستقيل من منصبه تحاشياً لوضع الرئيس كَنَدي في موقف محرج، وهو كان صرح في حملته الانتخابية أنّه سيردم تلك الفجوة. لكنّ الرئيس نحّى تلك الحماقة جانباً. لكنّ مَكنَمارا قد كان

على خطأ. (تمّ إقناعه بتلك الفكرة من قبل تومَس گيتز، وزير الدفاع في حكومة أيزنهاور).

صحيح أنّ التقديرات المنخفضة، إذا وضعنا جانباً المزاعم الشاذة للجيش والبحرية بأنّ لدى السوفيات 50 صاروخاً من نوع ICBMs مقابل عدد ما عندنا وهو 40 صاروخاً، فإنّ الرأي السائد لدى المخابرات قد قدّر الفجوة لصالح السوفيات، كما ورد في تقرير مخابرات الأمن الوطني NIE بتاريخ 7 يونيو، أي بعد مضي أيام قليلة على انفضاض مؤتمر قمّة فيَنا.

* * *

في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر عام 1961، أخبرتني إلَين إنتوفِن، التي أصبحت الآن مساعدة لوزير الدفاع في شؤون تحليل الأنظمة، وكذلك هاري رَوِن من مجلس شؤون الأمن العالمي ISA، بوجود تقديرات مخابراتية جديدة، وكانت تلك التقديرات مدهشة بحدّ ذاتها. لقد أكّدت تقارير الجيش والبحرية، التي كانت متوفرة خلال السنتين السابقتين والتي اختلفا فيها مع تقديرات المخابرات الوطنية. مفاد القضية أنّ السوفيات لديهم «عدد قليل» من صواريخ ICBMs. العدد الملاحظ هو 4 صواريخ.

كانت كلمة «الملاحظ» هي السرّ الكبير. لم تخبرني إلَين ولا هاري مبدئياً بطبيعة المعلومات الموجودة في التقرير الجديد. غير أنّ المناقشات الجارية في وزارة الدفاع قد كشفت لي الموضوع دون قصد. لم يكن ذلك العدد «تخميناً» اعتمد على استدلالات حول القدرات الإنتاجية أو «طلبات» الحكومة السوفياتية أو معلومات مخابراتية إلكترونية غامضة. لقد تمت فعلاً مشاهدة ورصد 4 صواريخ في موقع واحد فقط في منطقة پلِستسك. تمّ التقاط الصور بواسطة نظام مخابرات سري في حينها، هو برنامج كورونا للأقمار الاصطناعية واسمه السري «المكتشِف» Discovery. لقد حلّ هذا القمر الاصطناعي محل برنامج طائرات U2 للتجسس، والذي كان هو الآخر سرّياً حتى أسقط السوفيات طائرة U2 وأسروا طيارها گري پوَرز عام 1960. لم يُشاهَد أيّ موقع لإطلاق الصواريخ في الاتحاد السوفياتي، باستثناء بعض مواقع التجريب في منطقة تيوراتام. كان هذا يُعدّ إجراء مسح سري شامل للمواقع المحتملة لإطلاق الصواريخ.

نظراً لأنّ هذا البرنامج قد وفّر معلومات لا يرقاها الشكّ تقوم على التقاط صور، فقد أطلق عليه اسم **برنامج المعلومات الحساسة المصنفة** SCI. وهو أعلى من برنامج «سرّي للغاية». يتطلب الحصول على معلومات هذا البرنامج تصريحاً من صنف K. وهو أعلى من التصريح الأمني المعروف. لم أكن في حينها حاصلاً على تصريح من هذا الصنف. إنّ وجود مثل هذه التصريحات

البالغة الأهمية في تلك السنوات كان محدوداً وتناسب مع طبيعة المعلومات التي يوفرها هذا البرنامج. ومن الصعب للغاية أنّ شخصاً يحمل هذا الصنف من التصريحات الأمنية، يمكن أن يعطي أيّ تلميح عن تلك الأسرار لشخص لا يحمل نفس صنف ذلك التصريح.

العقوبة المترتبة على مثل هذا التجاوز هي سحب ذلك التصريح خلال دقائق وحذف اسم الشخص المعني من قائمة الكومپيوتر، التي تسهّل له/لها الحصول على معلومات من برنامج SCI. وهي تعني أيضاً الحرمان من المشاركة في أيّة نقاشات حكومية حول قضايا الأمن الوطني. وبالمقابل فإنّ من لديهم تصريح K فيمكنهم أن يتحدثوا ويناقشوا ويتبادلوا المعلومات بحرية مع زملائهم ممّن يحملون نفس صنف التصريح. إنّ إجراءات من هذا القبيل هي التي حافظت على سريّة المعلومات لأقصى حدّ ممكن. ما كانت هناك تسريبات للصحف عن تلك التصريحات الأمنية ولا عن سبل جمع المعلومات ولا طبيعتها. إنّ مخالفة تلك الشروط سواء بقصد أو بدون قصد، ما كان لها وجود حتى بين أولئك الذين لم يحصلوا على ذلك الصنف من التصريحات الأمنية، باستثناء القليل.

لقد انتفعت أنا شخصياً من ذلك الاستثناء. خلال حديثي مع العقيد أرني كرَگ، من قسم التخطيط في سلاح الطيران، في أواخر إحدى الليالي في كافتريا الپنتگون، سألته عن أساس التقديرات الجديدة لعدد الصواريخ. بدأ يشرح ثمّ توقف مباشرة ونظر إليّ يسألني، «هل تحمل تصريحاً أمنياً من صنف T أو K؟».

أجبته «لا»، فأدرك أنّه قال أكثر ممّا يجب، فسكت.

كان سؤاله خروجاً عن المبادئ الأولية. حين حصلت على التصريحين المذكورين فيما بعد، قيل لي أنّه كان مفروضاً عليه عدم تسمية التصريحين T أو K، أمام شخص لا يعرف عنهما. ذكرُهما إفشاء لسرّ وجودِهما. لو كان فعلاً رغب أن يناقش الأمر معي، فالمطلوب منه أن يعتذر لحظة ويذهب إلى هاتف الپنتگون ويتصل برقم معين ويعطي رمز التعريف بنفسه، ثمّ يسأل الضابط المناوب «إن كان دانيل إلزبرگ يحمل تصريحاً من صنف T أو K؟» إذا كان الجواب القائم على بحث بواسطة الكومپيوتر من مكتب السيطرة سلباً، كان عليه أن يعود إلى مقعده ويغيّر موضوع الحديث.

إذا كان الجواب إيجابياً، كان عليه أن يعود ويخبرني أنّه سأل عني، ويطلب منّي أن أذهب إلى التلفون لأتأكّد من نوع التصريح الأمني، الذي يحمله هو. بالنسبة لعقيد في قسم التخطيط في سلاح الطيران يعرفني شخصياً، ما كان أمر التحقق عنه مسألة ضرورية. ولكن من الناحية النظرية، أنّه قد يكون مخادعاً سمع بالتصريحين T أو K، أو ربّما اطلع على طبيعتهما وحاول أن يجرّني لمناقشة

موضوع ليس من حقه أن يطلع عليه.

إنّ إمكانية من هذا القبيل هي سبب هذا الهراء. فالحرف T يشير إلى الصور التي تلتقطها طائرات U2 وترمز إلى كلمة Talent. أمّا الحرف K فيشير إلى كلمة Keyhole، ويعني الصور التي يلتقطها القمر الاصطناعي. ما كان يجب ذكر هذين الرمزين في مكان عام خشية أن يسمع ذلك شخص ما. وتوضيحاً للأمر فإنّي لجأت إلى تلك المكالمات عدة مرات في السنوات التالية قبل أن أتحدث مع أيّ شخص عن أيّ موضوع حساس لأتأكّد من صنف التصريح الذي ي-/تحمله. إنّ إجراءات من هذا القبيل تحمي من الوقوع في خطأ ينجم عنه حجب الثقة والحرمان من الاطلاع على المعلومات، وهي السبب الذي مكّن الحكومة أن تبقي على كميات هائلة من المعلومات وقضية اتخاذ القرارات خافية لأوقات طويلة، عن الرأي العام والكونگرس وأعضاء الحكومة الآخرين ومعهم الأجانب، بما فيهم الأعداء. كانت تلك الإجراءات هي الواقي ضدّ التسريبات لحقب طويلة وأجيال عديدة، رغم أنّ تلك المعلومات معروفة لدى المئات وربّما الآلاف من الأشخاص الذين يحملون صنفي التصريحين T أو K.

إنّ القول الشائع cliché «لا شيء يبقى خفيّاً» كما تبجّحت صحيفة نو يورك تايمز، ليس صحيحاً بالتأكيد فيما يتعلق بالمعلومات السرية المصنفة SCI. إنّها قصة الصفحة الأولى المصممة لكي تخفي وتحافظ على فاعلية نظام السرية بكامله. كان إدورد سنودِن هو أول من كشف عدداً كبيراً من معلومات SCI، بما فيها حالات التجسس الإجرامية وغير الدستورية، التي نُفِذت ضدّ المواطنين الأمريكيين وآخرين حول العالم، دون أن يكون هناك داع لإثارة الشكوك حولهم. إنّ الآلاف من منتسبي وكالة الأمن القومي NSA يعرفون وعلى مدى حقب طويلة برامج الرصد والمراقبة المخالفة للقوانين. لم يكشفها أحد منهم باستثناء سنودِن، الذي يعيش الآن في المنفى، ولربّما لما تبقى من حياته.

من الطريف أنّني اطلعت على مخالفة أخرى من قبل شخص غير متوقع يعمل في راند، وعُرف عنه حرصه القوي وحذره الشديد. فبعد زلة لسان كرَگ، سألت زميلي هذا، الذي كان يعمل مستشاراً في واشنطن أن يوضح لي معنى الرمزين «T وK» فقام بذلك دون تردّد.

الآن وأنا أستعيد ذكرى تلك القضية، أجد من المدهش، بل من المحيّر، أنّه قام بذلك التوضيح، الذي كان مخالفة صريحة للقواعد التي يجب عدم تجاوزها بتاتاً، ولكن أيضاً لأنّ ذلك يخالف ما عُرف عنه من حرص وحذر. الأكثر من ذلك، أنّه اقترح أن أحصل على هذين التصريحين الأمنيين، إضافة إلى تصريح آخر اسمه SI المتعلق بالمخابرات الخاصة، التي تأتي عن طريق اعتراض الإشارات الإلكترونية للجهات الأخرى وجمعها. إنّ الحصول على هذه التصريحات يعطي الشخص المجال

للاطلاع على «كافة مصادر المعلومات». وهذا يعني كافة الاتصالات ومخابرات المراقبة والرصد.

قيل إنّ أولئك الذين يحملون تصريحات T وK وSI، إضافة لتصريح الاطلاع على الأسرار بالغة الأهمية Top Secrets، يُتاح لهم المجال للاطلاع على «كافة المصادر المتوفرة». وهذه مسألة تصلح أن تكون «قصة الصفحة الأولى للجريدة». في الحقيقة توجد تصريحات أمنية عديدة أعلى من التصريحات المذكورة في أعلاه.

وُجِدت أيضاً برامج للاطلاع الخاص SAPs، معروفة باسم «التصريحات الأمنية العملية» بما فيها العمليات الفعلية وعمليات اتخاذ القرارات التي تتعلق بطائرات التجسس U2، وما تلاها من عمليات الرصد والمراقبة عن طريق الأقمار الاصطناعية أو العمليات السرية. فهذه غير معروفة لدى أولئك الذين يحملون فقط تصريحات الاطلاع على كافة مصادر المخابرات. لقد حصلت على مجموعة من هذه التصريحات الأمنية حين كنت مساعداً خاصاً لنائب الوزير بين عامي 1964- 1965. فمثلاً تصريح Ideal1 هو لغرض الاطلاع على برنامج عمليات طائرات U2 وكيفية اتخاذ القرارات حول استخدام تلك الطائرات والأولوية في هذا الاستخدام. إنّ وجود هذه التصريحات وماذا تغطي غير معروف لدى عدد كبير من الناس الذين لديهم تصريح T الذي يمكنهم من الاطلاع على الصور التي يوفرها برنامج هذه الطائرات.

الملاحظة الأخرى الجديرة بالذكر هنا تتعلق بمدى الثقة بالتقديرات الجديدة عن القدرات السوفياتية في مجال الصواريخ. يحمل هاري رَوِن الآن وكذلك إلَين إنتوفِن على تصريحي الاطلاع على كافة مصادر الاستخبارات، وتصريحات أمنية أخرى عديدة حصل عليها بحكم مركزه في البنتگون، كما علمت ذلك فيما بعد. وصف هاري لي لقاء جرى بينه وبين كارِل لَيسِن في مكتب الأخير في البيت الأبيض بحضور إلَين وبعض من مسؤولي وكالة المخابرات المركزية. جاء هؤلاء بصور ووزعوها، وذكر هاري أنّها التقِطت بواسطة القمر الاصطناعي كورونا. كانت صور 4 صواريخ سوفياتية ICBMs فقط، وأنّه لا وجود لصواريخ من هذا الصنف في أيّ موقع آخر يُشكّ فيه. ذكر هاري أنّ أحد مسؤولي الوكالة أخبره وهو يضحك، «تبلغ قيمة هذه الصور بليون دولارا!» فعلق المسؤول الآخر قائلاً، «تلك كانت كلفتها تقريباً».

أخبرني هاري عن وجود صور الآن لكافة المواقع المشكوك بها، وكان هذا بحدّ ذاته مخالفة أخرى ثالثة. هذا سرّ ما كان يجب أن أطلع عليه، فليس لدي التصريح الأمني الخاصّ به. هذا إضافة للسؤال الذي طرحه عليّ كرَگ حول تصريحي T وK وثانياً، توضيحات صديقي حول أصناف التصريحات الأمنية. إنّ صيغة التقرير الصادر عن تقديرات المخابرات الوطنية NIE، الذي اطلعت

عليه يقع ضمن فئة «المعلومات السرية للغاية» Top Secrets. لم أخبر أحداً عنه ولم أعطِ أيّ تلميح حول طبيعة الأدلة التي قادت إلى تلك التأكيدات الجديدة والإعلان المدهش حول قوة الصواريخ السوفياتية ICBM، أو حقيقة عدم وجود هذه القوة أصلاً. سوف لن تتوفر تقديرات المخابرات الوطنية NIE لزملائي في مركز راند في سانتا مونِكا. ولكن حتى لو اطلعوا عليها، كما حصل لي، فليس لهم علم بكافة الأدلة، التي قامت عليها تلك التقديرات إلى حدّ أنّهم سيصدقونها. أما أنا فصدّقت ذلك.

لقد أطلت الشرح حول هذه النقطة وقصدي أن أؤكّد مصداقية تلك التقديرات الجديدة الرائعة، التي لا يمكن تصديقها من قبل شخص اعتمد في الحصول على مثل هذه المعلومات بناء على تقديرات سلاح الطيران أو حتى وكالة المخابرات المركزية. الاستثناء هو تقديرات الجيش والبحرية، التي اعتمدت على معلومات يعرفها الغالبية من العاملين في المخابرات الوطنية، داخل الحكومة وخارجها، ممّن لهم معرفة محدودة بوجودها. لقد صدّقتها اعتماداً على التسريبات «الكشف غير المصرح به» التي حصلت عليها من داخل الجهاز البيروقراطي، رغم أنّها تتناقض تماماً مع القواعد الأساسية لاهتماماتي وعملي في السنوات الماضية.

لم تكن القضية مسألة أرقام أو أعداد، رغم أنّ هذه وحدها كافية لإبطال كافة التحليلات والدراسات التي اطلعت عليها أو ساهمت فيها لسنوات. طار بنا الخيال فافترضنا أنّه أصبح من الواضح أنّ السوفيات قد استطاعوا إنتاج الكثير من الصواريخ خلال السنوات الثلاث الأولى بعد نجاح تجربتهم لصاروخ من نوع ICBM. أثارت القضية سؤالاً، في الحقيقة ألغت الافتراض القائل أنّ السوفيات يدفعون برنامجاً لدحر العالم كما فعل هِتلر.

وصف رئيس مخابرات سلاح الطيران، حين رفض التقديرات المنخفضة في شهر يونيو، قائلاً إنّها لا تتماشى مع خططهم للسيطرة على العالم وتوفر لديهم الدوافع الفائقة ليحققوا قدراتهم الممكنة بأسرع وقت ممكن، حتى تحين لحظة نزع سلاح خصمهم اللدود الواقف في طريق تحقيق هدفهم المنشود، وهو الولايات المتحدة وسلاح الطيران. كان افتراضه عن هدف السوفيات قد وُزّع حسب علمي على كافة زملائي في راند وعلى كلّ شخص قابلته في البِنتگون.

> إنّ مساعد قائد الأركان المشتركة والمخابرات وسلاح الجو للولايات المتحدة يعتقدون جميعاً أنّ تصميم السوفيات لتحقيق سيطرتهم على العالم، قد عزّز إدراك حقيقة التدمير الكامل للولايات المتحدة باعتبارها العقبة في طريق تحقيق هدفهم المنشود. وهذا لا يتمّ بدون رجحان كفة قدراتهم العسكرية.

إذا كانت تلك فعلاً نوايا السوفيات، لكان الأولى بهم تحقيق تلك القدرات قبل حلول عام 1963. كانت الفترة الممتدة بين الأعوام 1959- 1962 فرصتهم الوحيدة لتحقيق قدراتهم الصاروخية وإجبارنا على نزع السلاح، إمّا عن طريق الابتزاز أو بالهجوم الفعلي. وبعد ذلك، كانت لدينا برامجنا المعدة لزيادة عدد صواريخ **أطلس ومِنِتمَن** المحصنة في مخابئها الإسمنتية الصلدة تحت الأرض، وكذلك صواريخ **پولارِس** التي تُطلق من الغواصات. كانت ثقتنا معتدلة بعدم إجبارنا على نزع السلاح بالكامل وتحاشي ضرر كارثي جرّاء ردّنا وتفادي ذلك بشكل غير محدود.

إنّ وجود 4 صواريخ في حوزة السوفيات خلال فترة 1960- 1961 لم تكن له أيّة قيمة ستراتيجية، فيما يتعلق بتحقيق ذلك الهدف. كان بإمكانهم أن يضربوا واشنطن ومقرات سلاح الطيران، لكن ذلك ما كان يحقق لهم نزع سلاحنا أو شلّ قدرة سلاح طيراننا لإفنائهم ردّاً على ما فعلوا. كان باستطاعة السوفيات ضرب مدينة أو مدينتين، لكنّ ذلك عمل انتحاري لأنّه ليس لديهم القدرة لإطلاق موجة أخرى من الصواريخ باتجاه القارة الأمريكية.

ثمّ أنّ وجود 4 صواريخ في موقع ثابت مكشوف وهي محمّلة بوقودها السائل، الذي لا يمكن خزنه والذي يتطلب ساعات لتحميله، ما كان خطراً داهما علينا. إنّ صاروخاً نووياً أمريكياً واحداً ينفجر على مبعدة أميال من ذلك الموقع، كان كافياً بشكل مؤكّد لتدمير صواريخ السوفيات الأربعة. في عام 1961 ونحن في أوج أزمة برلين، وفي ضوء إمكانية بقاء قدراتهم الصاروخية ضدّ الولايات المتحدة، فإنّ السوفيات لم تكن تتوفر لهم أيّة قدرة للردع إطلاقاً.

كان خروچوف مخادعاً بشكل متميز حين تحدّث عن معدل إنتاجهم للصواريخ وذلك أنّهم يصنعونها بسرعة كما يُعمَل «السجقُ». ربّما كان ذلك صحيحاً فيما يتعلق بالصواريخ متوسطة المدى، القادرة على ضرب أوروپا وكافة قواعدنا الخارجية. غير أن ما ذكره بصدد الصواريخ بعيدة المدى العابرة للقارات، فقد كان كذبة مفضوحة. الأكثر من ذلك، أنّه أقدم بشكل واع على تدمير الجهود، التي يحتاجها لتحقيق قدراته لشن الضربة الأولى بشكل معقول خلال الفرصة الوحيدة، التي كان ممكناً له فيها تحقيق ذلك الهدف.

أصبحت افتراضاتنا حول أهدافه وأحاسيسه ومتطلبات تحقيقها، موضع تساؤل، وهكذا كان يجب أن تكون.

كان ردّ فعلي الأول على هذا الاكتشاف المذهل، 4 صواريخ فقط، أنّني اعتبرته قضية يجب عرضها على زملائي في راند بأسرع وقت ممكن، رغم أنّهم لم يكونوا مصرحاً لهم الاطلاع على

أسرار التقديرات الجديدة لقوة الصواريخ السوفياتية. طرت عائداً إلى سانتا مونِكا وطلبت جدولة لقاء للمناقشة، وكان ذلك أمراً غير طبيعي في المؤسسة، وهو طلب لم أتقدم بمثله في السابق لإجراء عرض سريع بالغ السرية. في الحقيقة أنّ كافة الأعمال في مؤسسة راند تجري بطريقة سرية، باستثناء بعض التقارير الرئيسية. ومن المعروف أنّ كافة العاملين في هذه المؤسسة، بما فيهم السكرتيرات وحتى عمال الصيانة، يجب أن يكونوا حاصلين على تصريحات أمنية، رغم أنّ العديد منهم لم يلجأ إلى استعمالها.

التزمت مؤسسة راند بكافة التعليمات الخاصة بالإجراءات السرية التزاماً تاماً. لم يكن ذلك الالتزام بنفس الدرجة في الدوائر، التي عملت فيها في واشنطن، حيث تُحمَل الوثائق بالغة السرية في حقيبة وتُنقَل من البِنتگون إلى وزارة الخارجية أو البيت الأبيض. كما أنّ الاجتماعات السرية في راند اقتصرت فقط على من يُدعى لحضورها وعُقدت في قاعة وقف على بابها حرس يدققون هوية المشاركين وأسمائهم في أيّ اجتماع. هذا إجراء لم أجد له مثيلاً في واشنطن.

كانت «التوجيهات» هي الشكل الرئيسي للاتصالات الشفوية حول الدراسات ونتائجها بين الزملاء في راند أو مع منتسبي سلاح الطيران. كانت هذه في العادة مصحوبة برسوم بيانية أو شرائح إلكترونية يتم عرضها ويُشار فيها إلى النقاط الهامة. لقد قدّمت العديد من هذه «التوجيهات» في راند، ولم أعرض رسوماً بيانية، لأنّي ما كنت ميّالاً لها. كما أنّني لم أستعمل السبورات الموجودة في كافة المكاتب والقاعات.

في تلك اللحظة، وحين تمّ تدقيق هويات الحاضرين وبعد أن جلسوا في مقاعدهم، بدأت حديثي بالقول، «ذكر هِرمَن كان أنّه يجب استخدام الرسوم البيانية والأشكال التصويرية، ولذلك فإنّي سأعمل اليوم بوصيته وأعرض بعض ما أعددت». كتبتها بالحبر الأحمر وأشرت عليها «سري للغاية» في أعلى كلّ رسم بياني وفي أسفله.

كتبت على الرسم البياني الأول، «نعم فرجينيا، توجد فجوة صواريخ».

انتقلت إلى الرسم الثاني ومكتوب عليه، «إنّها الآن 10 مقابل 1».

ثم إلى الرسم البياني الثالث الذي كتبت عليه، «هي فجوة لصالحنا».

لم تكن هناك استجابة من قبل الحضور، الذي ضمّ رؤساء 50 فرعاً وأعضاء الإدارة العليا والباحثين الرئيسيين في قاعة الاجتماعات في أحد أطراف البناية. رمقوني بعيون تحمل نظرات حائرة

تنتظر المزيد. مضيت شارحاً، «إنّ المخابرات تقدّر أنّ لدى السوفيات 4 صواريخ من نوع ICBMs المسيّرة بالوقود السائل والموجودة في موقع واحد معين اسمه پلِستسك. يوجد لدينا الآن ما يقارب من 40 صاروخاً قابلاً للتشغيل من نوع **أطلس ومِنتِمَن**. ولا يشمل هذا العدد الصواريخ البالستية متوسطة المدى IRBMs، التي كان الاتحاد السوفياتي في مرماها. كان مبرمجاً أن يكون عددها 120 صاروخاً خلال سنة واحدة. أضف إلى ذلك صواريخ **پولارِس**، التي تطلق من الغواصات، والتي يمكن أن تصيب الاتحاد السوفياتي وتصل إلى مداه. كان عددها في ذلك العام 60 صاروخاً. وعليه فإنّ عدد صواريخ ICBMs، هو بنسبة 10- 1 في صالحنا».

خلاصة ذلك أنّ النقاش الحامي، الذي أعقب حديثي لم يصدقني أحد. لا أحد إطلاقاً. كانوا يرددون، «كيف عرفوا ذلك؟» وبطبيعة الحال، لم أستطع أن أكشف لهم «كيف عرفوا ذلك». عرفوا في وقت متأخّر في السنة الماضية عن برنامج طائرات 2U بعد أن عرض خروچوف طيارنا الأسير گاري پَوَرز. قبل أن يقع الأخير أسيراً لدى السوفيات، كان عدد محدود من منتسبي راند على علم ببرنامج T القائم على استعمال طائرات التجسس المذكورة. كان هؤلاء يعملون بموجب التعليمات ولم يبوحوا بشيء عن البرنامج لأيّ من زملائهم الآخرين في راند.

اتبع نفس السلوك عدد من مهندسي راند، الذين لديهم تصريح أمني من صنف K. علمت بذلك الأمر حين حصلت أنا نفسي على هذا الصريح. لقد لعبوا دوراً هاماً في تحفيز برامج الاستطلاع جوية باستعمال الطائرات والمناطيد ثم طائرات 2U وأخيراً الأقمار الاصطناعية. وحتى لو كانوا على علم بآخر النتائج التي عكست حقيقة ما كشفه القمر الاصطناعي كورونا بعد أن قام بتغطية كاملة لمسح مواقع الصواريخ البالستية للاتحاد السوفياتي، فلا بُد أن يكونوا عرفوا على ماذا قامت التقديرات الجديدة. وإذا كان أيّ من هؤلاء حاضراً لدى تقديمي ذلك العرض، فإنّه لم يبُح بشيء.

«لماذا تعتقد وكالة المخابرات المركزية أنّنا سنصدّق هذا المعلومات؟» ما كان مفترضاً فيّ أن أعرف الجواب عن هذا السؤال. وبطبيعة الحال، ما كنت راغباً في فسح المجال لأعرض فرصتي في الحصول على التصريح الأمني للضياع، كما حدث في نهاية تلك السنة حين كشفت أساس التقديرات الجديدة للمخابرات. على الأقل، كان بين الحضور آمرُن كاتز وهو خبير الاستطلاعات، العارف ببرنامج 2U وعلى علم أنّه لم يكشف عن وجود صواريخ بالِستية. لكنّ كاتز كتب عدداً من المذكرات في راند ضمّن فيها إمكانات السوفيات لإرباك نشاطاتنا الاستطلاعية وقدراتهم على التمويه والتغطية والإخفاء والإلهاء. ما كان كاتز ميالاً أن يصدّق نتائج التقديرات الأخيرة بدون أن يدرس الأدلة بالتفصيل، رغم عدم معرفتي ومعرفة الباقين ممّن هم في موقع القيادة في راند، بأنّه لعب دوراً هاماً

في برنامج كورونا للأقمار الاصطناعية. أمّا البقية منّا فقد أمضينا السنوات الأخيرة ونحن في قلق عن إمكانية السوفيات الوشيكة بالتهديد للهجوم باستعمال القاذفات وعدد كبير من الصواريخ العابرة للقارات.

نظر القليل إلى تقديرات سلاح الطيران نظرة جدّية. ما توفر منها لدى راند أنّ العدد تفاوت بين مئات إلى آلاف الصواريخ السوفياتية في المستقبل القريب، ولكن إلى الحدّ الذي سمعوا فيه عن التقديرات الواطئة لوكالة المخابرات المركزية. قال مسؤولو سلاح الطيران إنّها منخفضة للغاية. أمّا «تقديرات» الجيش والبحرية فقد كانت موضع ازدراء في رأي هؤلاء المسؤولين. لقد قرأنا جميعاً عن تأكيدات مَكنَمارا حول «عدم وجود فجوة صواريخ»، ولكن لا أحد في راند التفت إلى ذلك التأكيد. وعلى الأكثر، فإنّه من الناحية التطبيقية، فإنّه ربّما ليس لدى السوفيات أكثر من 40 صاروخاً بالِستياً ICBMs، التي نمتلكها نحن عام 1961. أضف إلى هذا هجمات قاذفاتنا وغواصاتنا، التي كانت وفق تحليلاتنا، كافية لشلّ طلبات سلاح الطيران وتقديراته.

إنّ القليل من الذين اطلعوا على تقديرات المخابرات الوطنية، التي لم تعد راند تحصل عليها، كانوا على اطلاع تقديرات الجيش والبحرية حول «العدد المحدود» من صواريخ ICBMs السوفياتية في الأعوام 1959 و1960 و1961. ولو كان الجميع قد اطلعوا على تلك التقديرات، لكان ردّهم بالتأكيد مماثلاً لردّ زملائي في سلاح الطيران في البنتاگون، بأنّ الجيش وسلاح البحرية متحيّزان ضدهم بشكل وحشي يكاد يصل إلى حدّ الخيانة.

> كان آرنولد هورلِك ومَيرون رُش هما أعلى خبيرين في الشؤون السوفياتية في مؤسسة راند. أصبح هورلِك فيما بعد رئيساً لقسم التقديرات السوفياتية في وكالة المخابرات المركزية. أمّا رُش فهو الذي حصل على الشهرة لأنّه تنبأ بصعود خروچوف إلى قمّة القيادة السوفياتية من خلال دراسة الصور الصادرة عن الكرِملِن عن حضور أعضاء القيادة للتظاهرات في الساحة الحمراء بموسكو، وغيرها من صور بعض المناسبات الرسمية. كانت تلك الدراسة بادرة لظهور فئة معينة من الدارسين الجُدد سُمّيت «المتخصصون بشؤون الكرِملِن». قام الاثنان عام 1959 بكتابة مذكّرة بالغة السرية، غير معروفة حتى في دوائر راند، حذرا فيها من قيام حالة طارئة غير طبيعية لأنّ السوفيات يقومون بإجراء اختبارات على الصواريخ عابرة القارات ستحقق لهم القدرة على تسديد الضربة الأولى في مطلع ذلك العام. كان رأيهما مستنداً على التحليل المباشر لكافة تصريحات خروچوف حول الموضوع، وكانت فرضيتهما تقول إنّ

البِلْشَفِك لا يخادعون. وبناء على ذلك الافتراض، فإنّ سلسلة تلميحاته عن الصواريخ وعمل السجق قد أقنعتهما بأنّه قد تمكّن من تحقيق ما تنبّأ به.

كانا على خطأ لأنّ خروچوف كان يخادع، وهذا ما أكّدته التقديرات الجديدة. كان ذلك صحيحاً باعتراف هورلِك ورُش بعد ذلك بوقت قصير من نشر تقرير سرّي للغاية. غير أنّ العديد من منتسبي راند قد صدّقوا ما ذكر الاثنان في مذكرتهما الأولى، وأنّ عرضي الموجز ما كان كافياً لإقناعهم أو تغيير قناعاتهم.

الأكثر أهميّة من ذلك، فإنّ التقديرات الجديدة تعارضت مع كافة الدراسات الرئيسية في راند حول سلاح الطيران ونقاط ضعفه منذ عام 1958. افترضت تلك الدراسات بوضوح مستوى من عدم اليقين حول حجم قوة صواريخ ICBMs السوفياتية، وإنّ هذا الشكّ قد لعب دوراً أساسياً بدمجه مع هجمات القذفات. ومنذ الوقت الذي ظهر فيه مفهوم «فجوة الصواريخ» بعد عام 1957، استبعد ألبرت ولستتر الإشارة إلى هذا المفهوم من نتائج دراساته. لقد أكّد أنّ تلك فرضيات قامت على إمكانية شنّ هجوم ذكي باستعمال القاذفات والصواريخ التي تطلقها الغواصات المصحوب بإطلاق صواريخ أرضية تطلق أوّلاً أو بدونها. لقد فضّل استعمال مفهوم «فجوة الردع». غير أنّه ما كانت توجد فجوة من هذا الصنف لا من قبل ولا من بعد.

إنّ الاعتراف بذلك عنى مواجهة الاستنتاجات التي توصلت إليها مؤسسة راند، التي عملت بحسن نية وتحت إلحاح محموم لمعالجة عدد من القضايا الخطأ، ومعالجة سعي لا صلة له بأمن البلاد. ليس هذا اعترافاً يُقدِم عليه الكثير من الناس العاملين في مختلف المؤسسات ويتقبلونه بسرعة. وتطلب الأمر من راند شهوراً بل سنوات لكي تتقبل المؤسسة ذلك الواقع. وإلى درجة ما، فإنّ المؤسسة لم تستعِد هيبتها السابقة أو شعورها إزاء مهامها، رغم زيادة ميزانيتها وتوسيع حجم بناياتها. استمر البعض من زملائي السابقين بالتركيز على نقاط ضعف سلاح الطيران، كما عملوا في الماضي. وفي نفس الوقت أثاروا الأسئلة حول مسألة الاعتماد على التقديرات الجديدة وعلاقتها بالسنوات التالية.

استمرّ سلاح الطيران في ممانعة تلك التقديرات، لكنّه تقبّلها أخيراً بشكل بطيء، رغم أنّ حقيقة تلك التقديرات بدت وكأنّها تؤيد سلاح الطيران وقيادة الأركان المشتركة فيما ذهبا إليه من وجوب وقوف الولايات المتحدة بحزم إزاء أزمة برلين. لقد توقعت مؤسسة راند ومعها سلاح الطيران بأنّ السوفيات سيستمرون في بناء قوتهم الصاروخية. غير أنّ هذا البناء، الذي بدأ بين عامي 1963-1964، خاصّة بعد أن حلّ برِجينيف محلّ خروچوف، لم يعد السوفيات بمكاسب ستراتيجية، مثل التي حصلوا عليها بين الأعوام 1958- 1962.

حافظت أزمة برلين على حدّتها رغم التغير الكبير في قيادة الكرمِلِن. حاول الرئيس تحريك الرأي العام الأمريكي لغرض المواجهة عن طريق رفع جديّة إمكان حدوث نتائج عكسية لأيّة حرب نووية. انصبّ رأيه على تشجيع القطاع الخاص لبناء الملاجئ، فكان رأياً في غير محلّه وتسبب في بروز جدل واسع. وفي ذات الوقت استمرّ السوفيات في ثبات تصميمهم على توقيع معاهدة سلام تضمن لحكومة ألمانيا الشرقية فرض السيطرة على الممرات المؤدية إلى برلين الغربية.

لدى عودتي بالطائرة إلى واشنطن في أواخر شهر سبتمبر إثر فشل محاولتي لتغيير توجه مؤسسة راند، في الوقت الذي ما زالت فيه مناورة برلين واستنتاجات أيب چَيز، ماثلة في ذهني، تولد لديّ قلق مباشر. وهذا القلق هو كيف يمكن استخدام هذه التقديرات الجديدة لتغيير آفاق تفكيرنا حول برلين؟

ما زالت برلين الغربية في قبضة القوات السوفياتية المنتشرة حول المدينة. بدأ بناء جدار برلين بقبول من كندي، وربّما ارتياحه. إلاّ أنّه من وجهة نظر خروچوف، كان ذلك حلاًّ لمشاكله المباشرة المتمثلة بهروب المواطنين من ألمانيا الشرقية إلى الشطر الغربي من برلين. في الحقيقة انقلب ذلك ليكون حلاًّ مناسباً لمشكلته الطويلة في الحفاظ على استقرار النظام في ألمانيا الشرقية، وما ترتب عن ذلك من زيادة قوة موقف السوفيات في أوروپا الشرقية. لكنّ تلك النتائج لم تظهر أمام ناظري خروچوف أو أنّها حظيت بقبوله أو بقبول الغرب. ما زال تهديد خروچوف، بتسليم مقاليد الأمور بشأن برلين الغربية إلى حكومة ألمانيا الشرقية في نهاية ذلك العام، قائماً. وكذا الحال بالنسبة إلى تحذيراته ضدّ محاولة تعزيز سبلنا نحو برلين الغربية بالوسائل العسكرية.

وفجأة بدا ذلكما التهديدان أنّهما قائمان على الخداع الكبير الذي استمر عاماً بكامله حول «تكافؤ» قدراته الستراتيجية مع تلك التي تمتلكها الولايات المتحدة. أشارت وثائق تمّ الكشف عنها حديثاً من الأرشيف السوفياتي، أنّ خروچوف كان يخادع حلفائه في حلف وارسو وكذلك حلفائنا في الناتو، ليؤكد للجميع كيف أدار الأزمة والمخاطر، التي كان يمكن أن تجلبها سياسته الاستفزازية.

وعليه لماذا لم ندعه يعرف، بشكل خاص، أنّنا اكتشفنا خداعه، وأنّ عليه أن يسحب تهديداته وإنذاراته؟ شرعت في إعداد مسودة اقتراح يقوم على هاتين النقطتين.

الفصل الحادي عشر
قصة خطابين

استمر شبح «فجوة الصواريخ» يطارد زملائي في مؤسسة راند وفي وزارة الدفاع. كان كشف حقيقة هذا الوهم قد فرض النظر إلى الأمور نظرة مختلفة، وصل إلى حدّ إعادة النظر بشكل كامل في كافة خططنا للتراكم الهائل في أسلحتنا الستراتيجية، ممّا يؤدي إلى تجنب سباق نووي للتسلح، ذي مخاطر جمة. لكنّ مراجعة من هذا القبيل لم تحدث، ولم أسمع ذلك من أحد حولي، حتى ولو للحظة. لكنّ الأمر على المدى القصير، قد طرح فرصاً أخرى، خاصة فيما يتعلق بمشكلة برلين.

كانت فكرتي الأولى للرئيس كَنَدي أن ينقل فهم هذا الموضوع إلى غريمه خروچوف مباشرة. كان بإمكانه فعل ذلك عن طريق القنوات السرية لتحاشي إذلال ذلك الغريم العنيد، الذي يرفض التراجع عن مواقفه. أعددت مسودتين لمذكرتين ليطلع عليهما الرئيس لوحده. قمت بتسليمهما إلى كارل كَيسِن، الذي عمل في مكتب مكجورج بُندي، في قضايا الأسلحة الذرية، والذي تعاملت معه في مطلع فصل الربيع حول مشكلة التفويض الرئاسي.

المذكرة الأولى التي سلمتها له بتاريخ 9 أكتوبر، اقترحت فيها بعض النقاط الرئيسية أمام الرئيس بقصد إثارتها مع خروچوف أو أحد ممثليه. المذكرة الثانية «اقتراح لتثقيف خروچوف»، كانت تهدف توضيح القضية للرئيس، كي يوضحها بصراحة أمام غريمه.

كانت الفكرة أن نوضح أنّنا نعرف بالضبط ما لديه. اقترحت أن نذكر له العدد، 4 صواريخ بالستية ICBMs، وكذلك الإحداثيات الدقيقة لمكان تواجدها في قاعدة پلِستِسك. ولغرض إكمال المهمة اقترحت أن نذكر له أيضاً إحداثيات منطقة تايراتام، حيث يجري اختبار الصواريخ، والتي وُجد فيها حينه صاروخان لغرض الاختبار. خلاصة القضية أن نقول له، «توقف عن هذا الهراء، الذي تتحدث به عن التكافؤ في القدرات الستراتيجية، بل أكثر الادعاء بالتفوق. نحن نعرف ماذا عندك من

الصواريخ ومكان وجودها. إنّ ما تمتلكه ليس إلاّ النذر اليسير، وهو ليس حصيناً. وعليه يجب أن تتوقف عن إثارة المشاكل في برلين. أنت تعرف ونحن أيضاً، أنت لست في موقف لفعل ما تهدد به». لم تكن تلك نفس الكلمات بالدقة، لكنّها خلاصة معنى ما حوته المذكرة عن كلّ ما أحببت أن يقوله الرئيس كَنَدي.

قرأ كَيسِن المذكرتين واقترح أن نناقشهما. كان في طريقة بالسيارة لحضور أحد الاجتماعات في واشنطن، فدعاني لمصاحبته. قال، «اسمع يا دان، يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار طبيعة القناة، التي سيستخدمها الرئيس في هذه الحالة». قال ذلك وهو يشير إلى أصول نظرية نقل المعلومات إلى الرئيس. «ببساطة، إنّ الرئيس كَنَدي يستحيل أن... وليس من الممكن أن يتحدث بهذا الأسلوب». ما كان واضحاً في ذهني أنّه انتقد الرئيس أو أنّه اتفق مع سلوكيته. ثمّ أعاد القول، «هذا أمر غير وارد إطلاقاً. لن يتحدّث كَنَدي إلى خروچوف بهذا الأسلوب».

غير أنّه بدا لي أنّ من المهم أن ننقل للسوفيات آرائنا بأنّهم يجب ألاّ يصرّوا على ادعاءاتهم بالتفوق الستراتيجي ولا حتى التكافؤ. «نحن على علم بأنّ ادعاءاتكم ليست حقيقية، وعليه يجب ألاّ تغرقوا أنفسكم وتنجرفوا نحو تهديدات لستم على استعداد لتنفيذها». كان ذلك موجز الرسالة، التي وددت أن يسمعها خروچوف. «إنّ الالتزام بمثل هذه التهديدات سيجلب مخاطر حقيقية، ولربما تفلت الأمور عن نصابها». لكنّني عرفت من كَيسِن أنّ كَنَدي لن يقول ذلك مباشرة إلى خروچوف وجهاً لوجه أو لممثله، ولا حتى في رسالة خاصة.

وبعد يوم أو يومين كنت في مبنى الپنتگون في مكتب آدم يارمولِنسكي، مساعد وزير الدفاع. كنت لا أزال مستشاراً في راند، وهي التي تدفع راتبي بموجب عقد مفتوح مع القوة الجوية. لكنّني كنت أقضي أكثر من نصف العام في واشنطن موزعاً عملي بين الپنتگون ووزارة الخارجية. أخبرني آدم أنّه يعدّ مسودة خطاب سيلقيه الرئيس في الكلية الحربية. طُلِب من عدد من الوكالات أن ترسل اقتراحاتها إلى البيت الأبيض بما يمكن أن يُضاف إلى خطاب الرئيس. كما أنّه أخبرني عن إعداد خطاب آخر للوزير مَكنَمارا. طلب منّي أن أراجع الخطاب وأضيف إليه ما أعتقد أنّه مهم. وهنا أتيحت لي الفرصة ثانية لأبعث رسالة إلى الرئيس، ولكن هذه المرة بشكل علني.

أضفت عدداً من نفس المواضيع، التي أتيت عليها في مذكّرتيّ المشار إليهما أعلاه. غير أنّي عدّلت اللهجة كي تتناسب مع الخطاب العام، ولم أجعلها موجهة بشكل شخصي إلى خروچوف. كتبت تلك الملاحظات على ورقة أعطيتها إلى آدم، الذي كان ردّ فعله، «هذه ملاحظات جيّدة»، وضمّنها جميعاً في مسودة خطاب مَكنَمارا. أخبرني بعد فترة قصيرة أنّ، «مَكنَمارا قد أعجِب بتلك الملاحظات

وأرسلها إلى البيت الأبيض».

إثر مرور عدة أيام، قرأت الخطاب الذي ألقاه الرئيس كَنَدي، والذي ثبّت ما سبق أن أخبرني به آدم عن أسلوب الرئيس التصالحي. لم يُشِر إلى أيّ شيء ذكرته، وعليه فقدت الأمل أن يكون كَنَدي قناة لإخبار السوفيات برسائلي إليهم.

ذهبت فيما بعد لزيارة صديقي تِمولي ستانلي المساعد الخاص لمدير الأمن الوطني، پول نيتزا. كنت أتردد على مكتبه خلال وجودي في واشنطن، وعملت على مساعدته في وقت مبكر لوضع خطط الحرب. وهو الذي اطلع على مذكرتي حول السفينة الأمريكية LST الراسية في جزيرة إوكواني. كان مكتبه الصغير مقابل مدخل مكتب مساعد وزير الدفاع. (شغلت بعد 3 سنوات ذلك المكتب حين أصبحت مساعداً خاصاً للمدير الذي حلّ محلّ نيتزا، جون مكنوفتِن) أخبرني ستانلي أنّه يعدّ مسودة خطاب سيلقيه روزوِل گِلپاترِك.

أعطيت تِم نسخة من ملاحظاتي المكتوبة وقلت له، «لقد أعددت هذا الملاحظات للرئيس كَنَدي ولم يستعملها. بإمكانك أن تستعين بها إن أحببت في إعداد الخطاب المذكور». قرأ ما كنت دونته. لم يكن خطاباً كاملاً ولكن عدة صفحات احتوت على نقاط رئيسية ورد فيها، «إنّ قواتنا مستعدة ومتأهبة، ولن يستطيع هجوم مفاجئ أن يجبرنا على إلقاء السلاح». وبعد أن قرأ تِم تلك الجملة، نظر إليّ وقرأ المقطع التالي بصوت عال:

> إنّ القوة المدمرة التي يمكن أن تضطر الولايات المتحدة إلى استخدامها إثر هجوم مفاجئ من قبل السوفيات على قواتنا، سيكون أكبر، ربّما أكبر من القوة التي يهدد العدو باستخدامها ضدّ الولايات المتحدة عن طريق الضربة الأولى. باختصار، لدينا قدرة كافية لتسديد ضربة واسعة، ستكون على الأقلّ متكافئة مع ضربة السوفيات الأولى. وعليه فإنّنا على ثقة بأنّ السوفيات لن يجرأوا على استفزازنا بإثارة صراع نووي كبير.

سألني باندهاش، «هل هذا ممكن حقيقة؟» قلت له، «ثقْ بي يا تِم. هذه هي الحقيقة». كانت تلك الحسابات بسيطة تقوم على أساس ما أعرفه عن ترسانة السوفيات، وهي 4 صواريخ بالستية ICBMs و150 طائرة قاصفة ستراتيجية قديمة!

رغم أنّ تقديرات المخابرات الوطنية الجديدة لم تعطِ مقارنة بين ترسانتي البلدين قبل أو بعد الهجوم من قبل أحد الجانبين. كان من السهل عليّ أن أكون واثقاً من تقديراتي الخالصة حول «التبادل

النووي»، كما نقول في الپنتگون. وهي تقديرات مرعبة لأيّ شخص أمضى السنوات وهو يستمع إلى «فجوة الصواريخ» وقراءة تقارير راند السريّة للغاية حول نقاط ضعف سلاح الطيران الأمريكي. ليس عندي شكّ أنّ تلك التقديرات قد برزت خلال المراجعات البيروقراطية لمحتوى ذلك الخطاب.

كان السؤال يدور في ذهني حول قدرة روزوِل گِلپاترِك على قول ذلك وكشف تلك المعلومات، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الإدارة الأمريكية لم تقرر حتى ذلك الوقت إماطة اللثام عمّا تعرف. لم يحصل تِم على ترخيص بفعل ذلك، وكانت مسودة الخطاب، الذي أعدّه لا تختلف عن محتويات أيّ خطاب يلقيه أحد منتسبي وزارة الدفاع، والذي يشير في العادة إلى بناء قواتنا وكم أضفنا إلى قوات الاحتياط وقواتنا المهاجمة، ثمّ بعض الكلام عن برلين. إضافة إلى أنّه تجاهل تقريباً كافة النقاط التي أثرتها، وغيّر تماماً من لهجة ما تبقى منها، لكنّني ما زلت لا أعرف كيف تسلل المقطعان التاليان من إعدادي إلى مسودة الخطاب.

> إنّ ثقتنا بقدرتنا على ردع الحركات الشيوعية ومقاومة الابتزاز الشيوعي تقوم على التقدير الرصين للقوة النسبية لكلي الطرفين. إنّنا نشكّ أنّ القيادة السوفياتية حقيقة لديها شكّ أقلّ واقعية، رغم أنّهم لا يظهرون ذلك ويواصلون التبجّح بالادعاءات المفرطة. رغم أنّ السوفيات يفرضون سبل أمنية صارمة للحفاظ على أسرار أسلحتهم العسكرية، وأنّ ستارهم الحديدي غير قابل للاختراق، كما يتصورون، فإنّنا تقبلنا الواقع، الذي فُرض علينا أن نسكت عن تبجّحات الكرمِلِن.

الحقيقة هي أنّ لهذا الشعب قوة انتقامية نووية قاتلة، تجعل من أيّ تحرّك من جانب العدو خطوة لتدمير الذات يجلبها على نفسه.

تلك كانت النقطة الرئيسية. إنّ هدف رسالتي المقصود هو أن تسمعني آذان المسؤولين في الكرمِلِن والناتو. «لقد اكتشفنا خداعهم!» وبالنسبة للرأي العام في أمريكا وأوروپا، «أنّنا باقون في برلين، وأنّه لن تقوم حرب بسبب ذلك». اعتقدت أنّ ذلك ردّ فاحم لخداع خروچوف. ثمّ مضيت للقول:

> إنّ تبجّح السوفيات وتهديداتهم بهجمات صاروخية ضدّ العالم الحر، تستهدف أوروپا وبالذات دول أعضاء حلف الأطلسي، يجب أن يُنظر إليها وتُقيّم في ضوء الحقائق الثابتة حول التفوق النووي للولايات المتحدة، الذي أتيت على ذكره سابقاً.

وبفضل تزايد ثقتي، فإنّ الدوريات الأمريكية في الممرات المؤدية إلى برلين الغربية ستقوم

بواجباتها دون أيّ اعتراض. شعرت بالحرية لأؤكّد التزاماتنا في المقطع الأخير:

> إنّ الولايات المتحدة لا تريد حلّ الخلافات بوسائل العنف، لكنّنا لو حدث وأجبِرنا على التدخل لحماية حقوقنا والتزاماتنا، التي قد تقود إلى صراع عنيف كما هو متوقع، فإنّ الولايات المتحدة ليست لها نيّة في قبول الهزيمة.

ألقى روزوِل گِلپاترِك خطابه بتاريخ 21 أكتوبر من عام 1961، ضمّنه مقاطع من مذكرتي وأشياء أخرى أضفتها أيضاً. نشرت صحيفة نو يورك تايمز تقريراً عن ذلك الخطاب. في الحقيقة، كافة المقاطع التي اقتُبِست وتناقلتها تلك الصحيفة والصحف الأخرى والمجلات الأكاديمية، كانت ممّا اقترحته وكتبته.

واتفاقاً مع العنوان الثانوي للكتاب، فإنّني سأورد فيما يلي اعترافاً. مضت حقب على عملي في الستينات لوضع خطط الحرب النووية. يجب أن أذكر مبدئياً أنّني لم أقترح إطلاقاً ولم أكن ضمن فريق هدّد باستعمال الأسلحة النووية في الضربة الأولى، أو اللجوء إليها أوّلاً عند بدء أيّة أزمة. باستطاعتي أن أجتاز امتحان لكشف الأكاذيب، بصدد هذا الموضوع. ولكنّ ذلك سيكون أمراً زائفاً. ماذا ذكرت أيضاً في المقاطع، التي تضمّنها خطاب گِلپاترِك؟ إنّه إذا أغلق السوفيات الطريق أمام مرور قواتنا إلى برلين الغربية باللجوء إلى استخدام فرق دباباتهم المتواجدة في المنطقة، فإنّهم بذلك يقومون بمغامرة لا تقبلها الولايات المتحدة، التي قد تلجأ إلى استخدام الأسلحة النووية ضدّ تلك الفرق. أكثر من ذلك، كنت أعني أنّنا قد نقوم بذلك ونحن على كامل الثقة بأنّ السوفيات لن يُقدِموا على استعمال أسلحتهم النووية ذات المدى القصير، لأنّنا سنلجأ عندئذ إلى الاعتماد على «تفوقنا النووي» باستعمال الأسلحة الستراتيجية لنزع سلاح القوات السوفياتية وتدميرها.

كيف أنّني أغفلت ذلك ولم أتذكّره طيلة تلك السنوات، وهذا ما عنته مسودة خطابي في خريف عام 1961؟ يجب أن أستنتج كما يفعل البشر الآخرون حين لا يتذكّرون بعض تصرفاتهم المتناقضة وغير السارة. حالي كحال كافة من عملت معهم، باستثناء أيب چَيز، وددت أن نتمسك بموقفنا بخصوص برلين الغربية. وفي نفس الوقت، وكحال أصدقائي المقربين، كنت سأكون مرعوباً، بتحقيق هذا الهدف عن طريق المبادرة بإشعال حرب نووية، مهما كان مستواها. نعم وحتى بدون التوصل إلى اتفاق مع خروچوف والاعتراف بألمانيا الشرقية، وهي أمور خارجة عن إرادتي، لا توجد إطلاقاً أيّة طريقة للحفاظ على برلين من خطر القوات الاعتيادية والنووية السوفياتية المتواجدة في ألمانيا الشرقية، باستثناء لجوئنا إلى التهديد بحرب نووية واستعدادنا لتصعيد الموقف والمبادرة بضربة نووية

أولى.

بقدر ما كنت أعنيه، فإنّ ذلك كان يجب أن يكون خداعاً. ولكن في ضوء نشوة التوهج الناجمة عن المعلومات المخابراتية الجديدة بفعل القمر الاصطناعي كورونا، بدا الأمر لي وكأنّ الخداع سيفعل فعله. وهذا هو ما سهّل على أن ألاحظ أو أنسى أنّ ذلك سيكون الاستعمال الأول والضربة الأولى الناجمة عن التهديد.

لكنّ ذلك لم يغِب عن أذهان السوفيات. فبعد يوم من إلقاء گِلپاترِك خطابه أعلن وزير الدفاع السوفياتي روديون مالينوفِسكي أمام المجتمعين في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في موسكو:

> لقد أخبر (گِلپاترِك) رجال الأعمال في فرجينيا، مع احتمال أنّ ذلك قد تمّ دون علم الرئيس كَنَدي، فلوّح بجبروت الولايات المتحدة وهدّدنا باستعمال القوة. ماذا يمكننا أن نقول ردّاً على هذا التهديد وهذا الخطاب التافه؟ نقول شيئاً واحداً: تهديداتكم لا تخيفنا!
>
> إنّهم يهدّدون بأنّهم سيستعملون القوة ردّاً على اقتراحنا بعقد معاهدة سلام مع ألمانيا، وإنهاء الوضع غير الطبيعي لبرلين الغربية... إنّ تقديراً واقعياً للصورة يقود الشخص للاعتقاد بأنّ ما يخطط له المستعمرون هو هجوم مفاجئ على الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية.

شعرت بالامتنان لأنّ وزير الدفاع السوفياتي قد استجاب في الحال وبشكل مباشر ردّاً على كلماتي، وبدا أنّه في موقف دفاعي. إنّ ادعاءه بتفسير ما كتبت لم يكن إلاّ مقارنة سوفياتية مبالغ فيها. أنا أعرف وأعتقد أنّه يعرف بأنّه ليس لدينا نوايا أو خطط «لهجوم نووي مفاجئ». لم يتحدث الخطاب بجلاء عن قدراتنا للمبادرة بضربة نووية أولى وليست ضمن النوايا التي يمكن تصورها. إنّني باعتباري من كتب مسودة التعليقات، التي أزعجت وزير الدفاع السوفياتي، ما كانت عندي رغبة لإشعال فتيل أيّة حرب نووية مهما كانت الظروف.

إذن، ما هو «التهديد» الذي اشتكى منه مالينوفِسكي؟ وفقاً لكلماته، كان الأمر تهديداً باستعمال القوة، وليس هجوماً نووياً من أيّ صنف. أكثر دقة، كان تحذيراً بأنّنا سنشقّ طريقنا بالقوة العسكرية التقليدية في وجه أيّة محاولة للعرقلة يضعها الألمان الشرقيون لقطع طريقنا نحو برلين الغربية. وكلما ازداد تفكيري بالموضوع بعد ذلك، أدركت أنّنا ببساطة نعطّب ادعاءاتهم الفارغة بصدد تفوقهم النووي

وتهديداتهم بقطع طريقنا إلى برلين، القائم على تفوّق قواتهم التقليدية المتواجدة في المنطقة. ومع ذلك، وكما اعترف الآن أنّ في ذهنه أكثر ممّا ادعى عمّا كتبته، والذي تجاوز ما اعترفت به أنا نفسي.

ما علاقة الرئيس كَنَدي ذاته بتلك التهديدات؟ غالبية أسس ذلك الخطاب كانت من المقاطع، التي كتبتها للرئيس أصلاً. ذكر المؤرخ مايكل بَشلوس ما يلي:

> لقد تعاون كَنَدي وبُندي وراسك ومَكنَمارا مع كِلپاترِك، بصدد خطاب الأخير أمام رجال الأعمال... أمّا مسودة إعداد الخطاب فقد كُلِف بها دانيَل إلزبَرگ.

هذا غير صحيح. لا شكّ أنّ كافة المسؤولين المذكورين قد صادقوا على النسخة النهائية للخطاب قبل إلقائه، وأنّ البعض منهم قد اطلعوا قبلها على تصريحات قوية حول بناء قدراتنا العسكرية وتفوّقها النسبي. وهذا ما أشار إليه تِم ستانلي في المسودة التي كان يعدّها وقت جئت إلى مكتبه. لربّما لا أحد من أولئك الأشخاص المذكورين، بِدءاً من السيد كِلپاترِك، قد عرف عن دوري في إعداد الخطاب. لم يتصل أحد منهم بي قبل الخطاب ولا بعده. ولم يكلفني أحد. لقد بيّنت في أعلاه تسلسل الأحداث الواقعي. لقد ذهب بَشلوس للإشارة الحقيقية حول الحديث المتبادل بيني وبين كَيسِن مسبقاً، بما فيه اقتراحي أن نعطي خروچوف الإحداثيات الفعلية لموقع صواريخه ICBMs، التي يبلغ عددها 4. لكنّ بَشلوس أخطأ في الإشارة إليها بعد أن كُلِفت بإعداد مسودة الخطاب. وهذا شيء لم يحدث أبداً. وكما ذكرت صحيفة نو يورك تايمز، فإنّ كلّ واحد من المقاطع الخمسة من الخطاب، التي اقتبسها بَشلوس، كانت فعلاً ممّا كتبت ونُقِلت من مذكرتي التي أعددتها أصلاً للرئيس، وأعطيتها إلى ستانلي بمبادرة منّي.

لا أقول ذلك بدوافع الفخر والاعتزاز بما كتبت. كما ذكرت أعلاه، شعرت بالانزعاج حين أدركت أنّه أسيء تفسير ما قلت أو كتبت لمدة نصف قرن تقريباً، حول ما كنت أودّ تعزيزه فعلاً. لقد فكرت بذلك في حينه أنّني ببساطة حذّرت بأن نتصرف بثقة عن طريق اللجوء إلى استعمال قواتنا التقليدية لتأكيد «حقوقنا والتزاماتنا» قدر تعلق الأمر بالوصول إلى برلين الغربية. لا يستطيع أحد أن يردعنا عن فعل ذلك، حتى بالتهديدات النووية السوفياتية المخادعة، كما شرحت بوضوح. لكنّهم والحق يُقال ما هددوا إطلاقاً بالضربة النووية الأولى، فيما يتعلق بالوضع في برلين أو أيّ مكان آخر. كنا نحن من فعل ذلك. لم يكن واضحاً في ذهني أنّ خداع خروچوف كان بالضبط لمواجهة تهديداتنا بالضربة الأولى، التي اعتمدنا عليها في وجه تفوّق قواتهم التقليدية في ألمانيا. كنت مساهماً بإطلاق تلك التهديدات النووية، بدون أن أعترف بذلك، حتى لنفسي.

لا بأس، لقد انضممت إلى حشد الصارخين، ولكنّي الآن وأنا أستعيد الموقف، كان الأمر أسوأ من ذلك. ما أتذكّره بعد سنة من ذلك، كانت مبادراتي وكلماتي الاستفزازية قد أوشكت أن تتسبّب بوقوع كارثة تقريباً. لم يكن ذلك واضحاً في ذهني حينها، بل على العكس. بدت تهديدات ذلك الوقت وكأنّها تمضي سراعاً. حين علمت لأوّل مرة بإنذار خروچوف بأنّه سيعقد معاهدة سلام مع ألمانيا الشرقية ويخوّلها الحق في السيطرة على الممرات المؤدية إلى برلين الغربية، اعتقدت أنّ الخطة قد وُضعت خلال مؤتمر الحزب الشيوعي. افترضت ومعي البعض في الپنتگون أنّ خطاب گِلپاترِكهو الذي أدّى إلى اتخاذ ذلك القرار. كان ذلك ممتعاً للغاية بالنسبة لي، إذ شعرت لوقت طويل بعد ذلك أنّني ساهمت في وضع نهاية لأزمة برلين عام 1961.

كنت مرتبكاً حتى بعد مرور 40 عاماً، حتى نبهني صديقي سيمور هِرش إلى، «أنّ خروچوف كان قد سحب إنذاره العلني إلى أمريكا بأن تتفاوض للتوصّل إلى معاهدة سلام مع ألمانيا بحدود نهاية عام 1961»، أي قبل 4 أيام من إلقاء خطاب گِلپاترِك، وأنّ خروچوف قد فعل ذلك في خطاب افتتاح مؤتمر الحزب الشيوعي. وعليه، فإنّ «خطاب گِلپاترِك بدا وكأنّه ردّ كَنَدي على التهديد السوفياتي». لقد أشار مايكِل بَشلوس إلى ذلك في وقت مبكّر.

> إنّ تكليف گِلپاترِك بإلقاء الخطاب ربّما عزّز قوة كَنَدي وموقفه السياسي الداخلي، وأكّد لحلفاء أمريكا. لكنّه في ذات الوقت قوّض بشكل استفزازي مكانة خروچوف في الكرمِلِن وحول العالم.

> قامت سياسة خروچوف الداخلية وستراتيجيته الخارجية على خلق وهم التفوّق النووي السوفياتي وقوته الجبّارة. الآن وقد أدرك العالم الثالث، وربّما حتى حلفاء السوفيات، الذين فُتِنوا في السابق بالقوة السوفياتية، الحقيقة، فقد يبدأون بالابتعاد عن موسكو... ابتكر خروچوف وهْم القوة السوفياتية أصلاً لكي تعامله الولايات المتحدة معاملة النّدّ. يبدو الآن أنّ كَنَدي قد تعمّد الخيار لإذلاله.

استجاب خروچوف بردّ فعل قويّ باختبار نووي قوّته 30 مگاتن. وبعد يومين فقط من إلقاء الخطاب أتبعه بتفجير آخر أقوى بحدود 50 مگاتن.

> لربّما كان تفجير قنبلة نووية بقوة 30 مگاتن ولغة مالينوفِسكي الحادة قد عبّرا عن مواساة مؤقتة لوفود مؤتمر الحزب. لكنّ المشاكل العميقة والجذرية التي برزت أمام خروچوف إثر خطاب گِلپاترِك، بقيت على حالها. لقد وضعت عليه ضغطاً لكي يقوم

بعمل مذهل لكي يغيّر مفاهيم العالم حول التوازن النووي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

مضى بَشلوس للاستنتاج:

عارض الخطاب قاعدة الرئيس بعدم حصر العدو في زاوية خطيرة. لم يفكّر كَنَدي عميقاً كيف سيتلقى خروچوف ذلك الخطاب.

إذا كان ذلك صحيحاً أم لا بالنسبة لكافة المسؤولين الذين سمّاهم بَشلوس، من الذين وافقوا على محتوى الخطاب، فإنّه جاء على مذاقي وتوافق مع مزاجي.

بالتأكيد أنّ خروچوف قد تساءل لماذا قرّر الرئيس الأمريكي أن يذله ويُذكّره أنّ السوفيات هم دون الأمريكان ومؤتمر الحزب الشيوعي الحاسم قيد الانعقاد؟ هل كان نذير ضربة نووية أولى ضدّ الاتحاد السوفياتي؟

عرف خروچوف أنّ منتقديه العسكريين وفي الكرمِلِن سيطالبون الآن بأن يخفف من معارضته لبناء قوة عسكرية جبّارة. لقد بدأت التحركات إثر خطاب گِلپاترِك وأنّ جهود كَنَدي الأخرى لإظهار التفوق الأمريكي قد أجبر خروچوف أن يجد طريقة سريعة غير مكلفة ليعيد التوازن في القوة النووية بين البلدين... لربّما ذكر خروچوف بأنّ موافقة كَنَدي على خطاب گِلپاترِك هو ضرب من اللعب بالنار، من جانب رئيس الولايات المتحدة.

فكّر خروچوف بعد أشهر قليلة بطريقة سريعة غير مكلفة ليردّ على الإذلال، الذي أصابه، ويعيد التوازن. لم يكن ذلك هو الهدف الرئيسي الذي دفعه لنشر أسلحته النووية في كوبا عام 1962.

ومع ذلك، فإنّني في شهر أكتوبر من عام 1961 قد قمت بدوري في وضع الزيت لتسهيل الانزلاق نحو أزمة الصواريخ الكوبية.

* * *

حين زرت آدم يارمولِنسكي في مكتبه المجاور لمكتب مَكنَمارا في مطلع شهر يونيو من عام 1962، بعد أن أمضيت نصف عام وأنا أعدّ أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه من هارفرد، ذكر أنّه قد تمّ تكليفه بإعداد مسودة خطاب سيلقيه مَكنَمارا في حفل تخرج طلبة جامعة مِشِگَن في آن آربر في الشهر

التالي. جدير بالذكر أنّ الوزير هو خريّج تلك الجامعة. لقد قرر مَكنَمارا أنّه سيلقي خطاباً أراده أن يكون نسخة غير سرية من خطاب القاه في مؤتمر حلف الناتو في أثِنا بتاريخ 5 مايو. كان ذلك الخطاب من إعداد بِل كوفمَن، حسب ما أفادني به آدم.

لقد أعاد آدم كتابة خطاب بِل وأجرى عليه تغييرات كثيرة. أعطاني مسودّة ما كتب وطلب منّي أن أقرأها بتمعّن وأبدي ملاحظاتي بصددها. طلبت منه وحصلت على النسخة الأصلية من خطاب أثِنا، باعتباره خطاباً بالغ السرية ومن وثائق حلف الناتو. لقد طرح الوزير لأوّل مرة على مسامع حلفائنا ستراتيجية القوة المضادة والقسرية، التي تبنتها مؤسسة راند متمثلة بصاحبنا كوفمَن نفسه، وعلى أسس التعليمات، التي أعددتها واعتمدها مَكنَمارا في السنة السابقة. قال بأنّ الولايات المتحدة قد توصلت إلى أنّ الحرب النووية، التي تقوم بسبب هجوم كبير على الدول الحليفة، «بأنّ هدفنا العسكري سيكون تحطيم قوات العدو العسكرية وسحقها». وهذا لم يعنِ ضرب السكان المدنيين، على أن نحتفظ في ذات الوقت بقوة احتياطية لها القدرة على تهديد مراكز تصنيعه في المناطق الحضرية. أعطى هذا السوفيات «حوافز قوية... لاتباع ذات الستراتيجية»، واستثناء الأهداف المدنية في بلدان الحلف، ممّا يثير الآمال في المحافظة على نسيج المجتمعات والإبقاء عليه خلال قيام الحرب وفترة سريان.

حين قارنت بين مسودة يارمولِنسكي لخطاب آن آربر مع خطاب أثِنا، تولدت لدي بعض ردود الفعل السلبية. على الأقل، لأنّني اعتقدت أنّ المنطق، الذي قام عليه الخطابان، كان أكثر وضوحاً في نسخة خطاب كوفمَن، مقارنة بخطاب آدم. أضف إلى ذلك أنّ نسخة خطاب آدم لم تهمل بالضرورة الأرقام السرية لأعداد قوات الحلفاء والقوات السوفياتية وقدرات الجانبين. ولكن في محاولة للوصول لجذب انتباه الرأي العام، قام آدم بتشويش منطق الاتجاه الجديد، الذي كان إثر ذلك مبتعداً بشكل ملفت للنظر عن سياسة التخطيط الستراتيجية للولايات المتحدة حتى الآن.

ثانياً، برز في ذهني سؤال عن دبلوماسية الخطاب بموجب شروط التحالف، وانطبق هذا على خطاب أثِنا ذاته. نظراً لأنّ كوفمَن قد أعطي تعليمات قليلة أصلاً حول خطاب سري موجّه لأعضاء حلف الناتو حول الستراتيجية الجديدة، فقد اختار أن يقدم ذلك بطريقة ضمنية وهاجم القوة النووية الفرنسية المستقلة، التي كان الجنرَل ديگول بصدد تأسيسها. أكّد الخطاب على أهمية السيطرة المركزية على ستراتيجية تهدف إلى تحاشي قتل المدنيين في المناطق الحضرية لدى كلي الجانبين وترك تلك المناطق سالمة من الأذى، على الأقلّ في بداية الهجمات، ولكن جعلها عرضة للتهديد بذلك المصير على يد قوات الاحتياط الأمريكية فيما بعد. وبدون الإشارة الواضحة إلى القوة النووية الفرنسية، التي ما كان ديگول على نية أن تنسّق مع القوة النووية الأمريكية، والتي عُرف عنها أنّها

استهدفت بشكل منفصل عدداً من المدن السوفياتية، وبشكل رئيس موسكو، لفت كوفمّن الانتباه إلى التناقض بأنّ تلك القوة قد وُضعت ضدّ إمكانية الستراتيجية الأمريكية، التي زعم أنّها أفضل فرصة، وربّما هي الفرصة الوحيدة «للإبقاء على نسيج المجتمعات» في الدول الحليفة في حالة قيام أيّة حرب نووية. إنّ هجوماً فرنسياً غير منسّق لتدمير موسكو وبعض المدن الأخرى في بداية اندلاع الحرب يعني «تدمير الرهائن لدينا من المدن السوفياتية» ممّا سيجلب بالتأكيد هجمات سوفياتية انتقامية كارثية على مدن دول التحالف.

أضاف كوفمَن لتلك النقطة وصفاً لقوات الحلفاء المتوقعة وبدت وكأنّها تغيض الفرنسيين، إن لم يكن البريطانيين أيضاً. ذكر، «باختصار، إنّ القدرات النووية المحددة، التي تعمل بشكل مستقل، ستكون خطيرة وباهظة الكلفة وعرضة لحياة قصيرة وتفتقر إلى المصداقية باعتبارها قوة ردع».

لم أجد أيّة جدوى من إهانة حليفين، حتى لو كان ذلك ضمن خطاب سري في مؤتمر للأعضاء الحلفاء، دعك من قول ذلك علناً في احتفال جامعي. لكنّ انتقاد دور القوات المستقلة واستعمال لغة استفزازية كانتا طاغيتين حتى على نسخة الخطاب، التي أعدّها يارمولِنسكي.

حين أثرت سؤالاً حول هذه النقطة، أخبرني آدم أنّ ذلك متوافق مع توصيات مَكنَمارا الجلية لإعداد مسودة خطابه المزمع في آن آربر. لقد أعجِب بالإطار، الذي صاغ فيه كوفمَن خطابه الأصلي وكذلك بلغته. يبدو أنّ مَكنَمارا كان مقتنعاً بجدوى انتقاد الفرنسيين في اجتماع مؤتمر أثِنا، وأعتقد أنّه عرف أنّ الفرنسيين ما كانوا مسرورين بذلك، وأنّه أحب أن يعيد ذات الانتقاد في خطابه في آن آربر. لم تتهيأ لي الفرصة لمعرفة نواياه من استفزاز الفرنسيين، ويبدو أنّه، كما حال كوفمَن، كان غاضباً من الجنرَل ديگول.

شعرت بقوة أن طرح الموضوع للنقاش بهذا الشكل العلني غير مناسب. الحقيقة هي أنّه حتى قادة التحالف العسكري ما سمعوا إطلاقاً وبشيء من التفصيل كيف تقترح الولايات المتحدة طريقة خوض الحرب النووية. وبعد كلّ شيء، فإنّ الجنرَل كورتِس لَومَي قد أمضى أكثر من حقبة وهو يحتفظ لنفسه بتفصيلات تلك الأسرار، ولم تطلع عليها حتى قيادة الأركان المشتركة، وبطبيعة الحال، ناهيك عن المسؤولين المدنيين.

أخبرت آدم بأنّني أتوقع أنّ الرأي العام الأمريكي، بعد أن يستمع لهذه القضايا تظهر علناً لأوّل مرة، سيشعر بالفزع.

لربما يحتاج موقفي هذا قدراً من التوضيح. صحيح أنّني شديد الفخر بما أنجزته في السنة

الماضية برسم ملامح هذه الستراتيجية. (قمت في وقت مبكّر من هذا الأسبوع بمراجعة خطة كِلپاترِك الجديدة JSCP-63 التي قدّمت له للتصديق عليها من قبل قيادة الأركان المشتركة، ووجدت أنّ الخطة اشتملت على الأقلّ لغوياً كافة التغييرات التي اقترحتها ووقع عليها عام 1961). ذلك كان سبب رفضي وعملي المتواصل على استبدال خطة فترة أيزنهاور، التي كانت كما بدا لي، أسوأ كثيراً، بشكل لا لبس فيه.

وأكثر من ذلك أنّني عملت خلال ربيع عام 1961 على وضع التعليمات لما ذكرته خطة القدرات الستراتيجية المشتركة، التي يجب العمل بموجبها في حالة هجوم نووي سوفياتي في أوروپا. وعلى أيّة حال، افترضت أنّ تلك التعليمات لغرض خطة انتقامية لضربة ثانية، لأنّني كنت ما زلت أعتقد حينها أنّه تتوفر للسوفيات قوة صاروخية ستراتيجية فعالة أو لها القدرات المساوية لضربة ثانية. وهذان احتمالان استبعدا عملياً تصعيداً أمريكياً يصل إلى حدّ الضربة الأولى، بغضّ النظر عن التزاماتنا وفق حلف الناتو. وعليه فإنّه في حالة موقف يائس، كانت خطتي وفق تصوري، أقلّ طريقة فظاعة للرد على أيّ هجوم سوفياتي مباغت.

وبموجب هذا التصور، لم يكن هناك نصيب وما بدت الحالة جيدة أو «مقبولة» حتى في نظري. بدت وكأنّها كارثية. وكما اقترحت فإنّ قبول أيّة فكرة لأغراض التخطيط، يجب أن تكون أقلّ فظاعة، في ضوء البدائل المتوفرة، بما فيها الخطة القائمة في السابق. بدت الستراتيجية وكأنّها تطرح إمكانيات تحاشي الكوارث الأسوأ والأكثر تأكيداً.

لم تكن تلك رسالة مطمئنة يمكن طرحها أمام الرأي العام. ولعل هذا هو سبب عدم اطلاع المواطنين عليها. ولكن في عام 1962 اكتسبت نغمة أسوأ. في ضوء الاجتماع السري لأعضاء حلف الناتو في أثِنا وفي ضوء غياب التوازن بين القوات، الذي أصبحنا على معرفة به في سبتمبر عام 19، بدأ مَكنَمارا يتحدث عن هذا التخطيط باعتباره ستراتيجية أمريكية للضربة الأولى تنفيذاً لالتزاماتنا الطويلة الأمد نحو أعضاء الحلف، كردّ على أيّ هجوم سوفياتي على غرب أوروپا.

تعودت وفود الناتو عالية المستوى على سماع، ويمكنك القول على الطلب، بإعادة تأكيداتنا حول نوايانا لمهاجمة الاتحاد السوفياتي إنْ هو هاجم أوروپا، رغم أنّهم لم يسمعوا إطلاقاً تفصيلات كيفية التخطيط لذلك. ولكن لم يشعر الأمريكان إطلاقاً أن يجلبوا الموضوع لانتباه الرأي العام الأمريكي، بأنّ هجوماً سوفياتياً كبيراً غير نووي ضدّ أوروپا، وليس طبعاً على الأرض الأمريكية، لأنّ ذلك لو حدث فإنه سيقود أوتوماتيكياً إلى هجوم أمريكي ذري واسع النطاق ضدّ الاتحاد السوفياتي. ومن المؤكّد أنّ السوفيات سيقومون باتخاذ إجراءات انتقامية ضدّ الولايات المتحدة يُسخّرون فيها كافة

قدراتهم المتاحة.

الأكثر من ذلك، إنّ الرأي العام الأمريكي ما أعطيَ أبداً تلميحاً حقيقياً عن محدودية القدرات السوفياتية خلال العامين 1961- 1962، فيما يتعلق بوصولها إلى الأراضي الأمريكية، رغم أنّ إدارة كَنَدي قد اعترفت عام 1961 أنّه «لا توجد فجوة صواريخ»، وأنّ خطاب گِلپاترِك وما احتواه من مداخلاتي، قد أشار ضمناً أنّنا متفوقون بشكل كبير على السوفيات في قوتنا النووية الستراتيجية. لكنّ الشعب لم يُخبَر بشكل رسمي أو غير رسمي عن صغر حجم قوة الصواريخ البالستية السوفياتية خلال تلك السنوات. في الحقيقة أنّ الفروق الفعلية في تفاوت المستويين لم تدخل في مخيلة مواطني هذه البلاد حتى يومنا هذا، لدرجة أنّ مثقفاً متمكّناً بمستوى رِچَرد رودْس ما زال يكتب في عام 1995 أنّه كان لدى السوفيات عام 1961 ما يقارب من 40 صاروخاً بالِستياً ICBMs. يعادل هذا 10 أضعاف ما كان عندهم حقيقة في حينها.

قصد مَكنَمارا في أثِنا أن يؤكّد لحلفائنا العسكريين واعتماداً على معلومات سريّة للغاية أنّ لدينا طريقة للردّ على غزو سوفياتي لبلدانهم، ولدينا تأكيدات كافية بأنّنا سنكسب تلك الحرب. في الحقيقة، أنّنا كحالنا دائماً، ملتزمون بإنزال الضربة النووية الأولى في مثل هذه الحالة. وأكثر من ذلك، على الحلف أن يعتمد على الطرق التي ستسلكها الولايات المتحدة، بدلاً من تشجيع محاولات الاستقلال، كما في واقع القوة النووية الفرنسية، التي ستفسِد ستراتيجيتنا وتجعلها غير ممكنة، لأنّها تنوي ضرب المدن السوفياتية ومراكز القيادة والسيطرة في بداية الحرب.

ومهما كانت درجة احتمال نجاح الخطة، كما بدت لحلفائنا، فإنّ لهجة مَكنَمارا المطمئنة وكما وصفها بأنَ الولايات المتحدة تستثمر بلايين الدولارات من أجل تطبيقها. ربّما اقتنع بعض أولئك الحلفاء، وأنّ مَكنَمارا اعتقد حقيقة بجدوى الخطة وإمكانية تنفيذها إذا اقتضت الحال. أو على الأقل، سيكون ذلك الانطباع قد تولد لدى السوفيات وأثار فيهم المخاوف من مغبة التحرّش بأوروپا الغربية. (اعتقدت أنّ مَكنَمارا وكوفمَن كانا بالتأكيد على خطأ إذا اعتقدا أنّ منطق الخطة سيكون ملزماً لإقناع الفرنسيين بالتخلي عن فكرة الضربة النووية المستقلة، التي لم تلقَ قبولاً لديهما.)

لكنّ تلك المنافع المحتملة، مهما كانت درجة تأملنا فيها، لم تعطِ المسؤولين الثقة لكشف الستراتيجية بشكل علني، خاصّة ما يتعلق بالمبادرة بالضربة الأولى. اقترحت لغة خطاب أثِنا ومسودة خطاب يارمولِنسكي بقوة أنّ الحكومة الأمريكية قد وضعت ثقتها في نتائج ستراتيجية السياسة القسرية في حرب نووية، تتحاشى ضرب المدن السوفياتية وتهددها باستخدام قوات الاحتياط، ونحن نهاجم قوات السوفيات العسكرية. إنّ ثقة من هذا القبيل محكوم عليها بأنّها ليست غريبة فقط، بل سخيفة

أيضاً.

علمت فيما بعد أنّ بِل كوفمَن كانت لديه ردود فعل مشابهة لردود فعلي إزاء طرح محتوى خطابه السري في أثِنا بشكل علني أمام الرأي العام الأمريكي في خطاب يُلقى في حفل جامعي. طلب منه يارمولِنسكي أن يفعل نفس الشيء ويرفع السرية عن خطابه في تلك المناسبة، لكنّ كوفمَن رفض ذلك. لقد اعتقد أنّ ذلك غير مناسب لنفس الأسباب، التي اقتنعت بها أنا نفسي. ولذلك فإنّ يارمولِنسكي قد أخذ المهمة على عاتقه.

بعد أن قرأت مسودة الخطاب الذي كتبه يارمولِنسكي، أعدتها إليه وأخبرته بحزم، قدر ما أستطيع، أنّني اعتقدت أنّ ذلك الخطاب لا يصلح أن يُلقى في محفل عام. يستطيع مَكنَمارا أن يجد موضوعاً آخر ليجعله محور خطاب التخرج الذي يزمع أن يلقيه. كنت في مكتب آدم حين تلقى مكالمة على الخط المباشر مع وزير الدفاع. ذكر، «نعم يا بوب. يوجد الآن دان إلزبَرگ في مكتبي وكان قرأ مسودة الخطاب فلم تعجبه. وعليه فهو يشعر بقوة أنّه يجب عدم إلقاء هذا الخطاب وهو على هذه الحال».

كنت أستطيع سماع صوت مَكنَمارا يأتي من التلفون، لكنّني لم أستطع أن أتبيّن كلماته بالضبط. أتذكر أنّني شعرت بتوهج قليل أنّ آدم ذكر اسمي في حديثه مع الوزير، باعتباري مرجعاً يمكن الاعتماد عليه، دون أن يعطي تفصيلات، وأنّني موجود في واشنطن منذ 6 شهور. لقد قابلت الوزير مرّة واحدة قبل نصف عام تقريباً. قال آدم في ختام حديثه مع الوزير، «حسناً يا بوب!» وأقفل الخط. نظر إليّ وقال، «طلب بوب أن تقوم أنت بإعداد الخطاب».

يا إلهي، ما كان ذلك هو ما أردت عمله، خاصّة وأنّني أمضيت ليلة كاملة وأنا أراجع خطة قيادة الأركان المشتركة وأعلق عليها. ولكن بطبيعة الحال، ما كان هناك مجال لرفض طلب الوزير. كانت تلك هي أول مرة تلقيت فيها تكليفاً مباشراً من مَكنَمارا. المشكلة أنّني ما كنت أفكر إطلاقاً بإعداد هذا الخطاب، الذي سيُلقى في محفل عام، خاصّة وأنّ آدم قد أخبرني بوضوح أنّ الوزير يريد شيئاً يساير ما ورد في خطاب أثِنا، بما فيه الإشارة إلى القوة النووية الفرنسية، التي ما كنت أريد ذكرها.

وجد آدم لي طاولة فارغة في جناح مكتبه، وكان عليّ أن أجلس هناك وأشرع في كتابة مسودة الخطاب. حين قارنت ثانية بين خطاب بِل كوفمَن ومسودة الخطاب، التي أعدّها آدم، اتضح لي أنّ نسخة بِل قد كُتِبَت بلغة أفضل وأنّ منطقها وتسلسل الأفكار الواردة فيها كانا معقولين أيضاً. بدأت بنقل مقاطع من خطاب بِل ووضعها محلّ مقاطع من خطاب آدم. جرى ذلك في وقت لم تكن الكومپيوترات

فيه موجودة في المكاتب، ويوجد القليل فقط من آلات الطابعة الكهربائية، التي يسهل فيها إجراء التصحيحات والقيام بالحذف. استعملت السكرتيرات في العادة حبراً أبيض اللون وأعدن طبع الكلمات. تطلب الأمر منّي استخدام المقصّ، لقطع مقاطع من خطاب بِل ولصقها محلّ مقاطع من مسودة خطاب آدم. أعدت ترتيب الأجزاء من خطاب آدم وكتبت جملاً ومقاطع جديدة اعتقدت بضرورة وضعها وإضافتها وفق الحاجة إليها.

ما دار في ذهني أبداً أنّني كنت أجري نوعاً من المتابعة كي أطرح للنقاش فكرة أرادها مَكنَمارا أفضل من الصورة التي وضعها آدم. إذا وافق الوزير على الفكرة المبدئية، فإنّه يوجد أمامي شهر بكامله قبل موعد حفل التخرج، وسيتوفر لديّ الوقت الكافي لإعداد خطاب جيّد. هذا إذا استطعت إقناعهم بالتخلي عن الفكرة السابقة، لأنّها فكرة غير سليمة.

أخبرت يارمولِنسكي بشكل موجز عن طبيعة تحفظاتي بصدد كشف ما جاء بخطاب أثِنا، وبطبيعة الحال ما كان مَكنمارا على علم بذلك، لأنّ ذلك يتعارض مع ما كلفني به. لم أعتقد أنّه كان لدي الوقت الكافي أن أكتب إليه تلك التحفظات وأشرع بكتابة مسودة خطابه المزمع المختلف تماماً، والذي اعتقدت أنّه يجب أن يكون أكثر ملاءمة. وعليه اخترت أن أراجع ما أعدّ آدم مستعيناً بنسخة خطاب بِل الأصلية.

في النهاية، كان خطاباً اعتقدت أنّه أفضل من خطاب آدم من الناحية اللغوية وأقرب إلى نصّ خطاب بِل من ناحية المحتوى. وهو الخطاب الذي ألقيَ في أثِنا. لم يعالج الخطاب الجديد أكثر تحفظاتي الأساسية من حيث اللهجة والمحتوى. (ربّما كان سبب حرماني من النوم وحالة الإعياء التي كنت عليها قد أثرت على رغبتي ومشاعري للانتقاد.) حذفت بعض المقاطع، التي اعتقدت أنّها لا تفي بالغرض.

كما أنّني حذفت ما قدّمه مَكنمارا من نتائج الدراسات حول خسائر الحرب النووية الافتراضية، التي ظهرت عام 1966 أي بعد مرور 4 أعوام، حين قارن المسارين اللذين يمكن أن تأخذهما تلك الحرب الوهمية. إذا التزم الجانبان بمهاجمة الأهداف العسكرية فقط فستبلغ خسائر الولايات المتحدة 2 مليون مواطناً، وسيعاني السوفيات نفس عدد الضحايا أيضاً. ويخسر الأوروپيون أعداداً أقلّ من ذلك. ولكن إذا شرع الجانبان في ضرب المناطق الحضرية - الصناعية فإنّ الولايات المتحدة ستخسر 75 مليون مواطناً يقابلهم 100 مليون مواطناً في الجانب السوفياتي. وستخسر أوروپا 115 مليون مواطناً. أضاف قائلاً، «رغم أنّ أرقام الخسائر فظيعة في كلي الخيارين، تظل الحالة الأولى أفضل من الحالة الثانية».

كانت مداخلته أنّ ستراتيجية الولايات المتحدة تحت قيادة مركزية، لها الفرصة الأفضل والوحيدة لتحقيق نتائج الخيار الأول بدلاً من الخيار الثاني في حرب نووية مستقبلية. «أفضل حكم لتحطيم قوات العدو والمحافظة على بقاء مجتمعاتنا هو... هدف يصعب تحقيقه كاملاً».

إنّ الجملة الأخيرة إضافة للأرقام التي تخصّ الخيارين المذكورين لا تبدو مقبولة بخصوص المحافظة على المجتمعات وفق السياسة الجديدة، رغم أنّها في الحقيقة باطلة في أساسها، كما سنرى. إنّ قراءة هذه التقديرات في الخسائر بعد أن رُفِعت عنها السرية بعد مرور 55 عاماً، أجد أنّه من الصعب أن أتصوّر عرضاً كهذا كان سيوفر تأكيداً مطمئناً لمجموعة العسكر المحترفين المجتمعين في أثِنا. وبالتأكيد، فإنّ مثل هذا العرض ليس مناسباً أمام خريجي جامعة مِشِگَن، أو أيّ جمهور باستثناء منتسبي مؤسسة راند وقيادة الأركان المشتركة، الذين تعوّدوا الاطلاع على مثل أرقام الخسائر هذه في الدراسات السريّة. كما حذفت أيضاً إشارته إلى المدن السوفياتية باعتبارها «رهينة» لدينا في مثل تلك الظروف.

أعطيت في صباح اليوم التالي مسودة خطاب القصّ واللصق الموشّح ببعض المقاطع التوضيحية، التي أضفتها من عندي إلى إحدى سكرتيرات المكتب اللواتي من يطبعن بسرعة البرق. أعدّت نسخة سلمتها إلى آدم فقال، «هذا ممتاز». ورفعها إلى مَكنَمارا. وبعد وقت قصير ولم أكن غادرت المكتب بعد لأذهب للفندق كي أنام، قال لي آدم منتشياً، «أعجِب الوزير بالخطاب وسيقوم بإلقائه».

قلت له وقد اعترتني موجة من القلق الحقيقي، «انتظر دقيقة! هذه نسخة مبدئية أعددتها بين عشية وضحاها! أمامنا 4 أسابيع أخرى لإجراء تحسينات كافية عليها».

ردّ آدم، «دعك من هذا، إنّه مقتنع بها، وكما تعرف أنّه لا يحبّ أن يغيّر رأيه حول الأمور. هذه ستكون نسخة الخطاب». ما كنت سعيداً بذلك الردّ ولكن لم يكن باستطاعتي فعل شيء، فتجاهلت القضية برمتها وتوجهت إلى الفندق لأحصل على قسط من النوم.

حدثت الكارثة في شهر يوليو. استشاط الفرنسيون غضباً لأنّ مَكنَمارا قد انتقد خططهم النووية بشكل علني ومُهين، كما توقعت أن يكون. أمّا ردّ فعل خروچوف فقد عرفت عنه بعد مضي نصف قرن من خلال كتاب ألفه الگزندر نورسِنكو وتِموثي نَفتالي بعنوان **حرب خروچوف الباردة**. قرر خروچوف أن ينشر سرّاً صواريخه البالِستية متوسطة المدى في كوبا، كجزء من ردّ فعله على الخطاب الذي ألقاه مَكنَمارا، وكان من إعدادي. وفقاً لما ورد على لسان كلّ من نورسِنكو ونَفتالي أنّ

المخابرات السوفياتية ما كان لها علم بخطاب مَكنَمارا في اجتماع الناتو في أثِنا. كان ذلك مفاجأة لاعتقادنا بأنّهم قد اخترقوا تنظيمات الحلف وعرفوا كلّ ما يدور في الخفاء، ومنها خطاب أثِنا، الذي اعتقدنا أن نسخة منه قد وصلت إلى موسكو حال فرغ الوزير من كلامه.

غير أنّه نُقِل عن خروچوف قوله أنّه بعد اطلاعه على خطاب مَكنَمارا في آن آربر حسب قول المؤلفين المذكورين:

> إنّ ما ذكره مَكنَمارا قد أزعج القائد السوفياتي، لأنّ وزير الدفاع أوضح بأنّ على الناتو في المستقبل أن يستهدف المنشآت العسكرية السوفياتية بدلاً من المدن. عملت الحكومة الأمريكية ذلك وطرحت الموضوع للمناقشة لأنّها أرادت أن تثبط عزم الفرنسيين والبريطانيين والألمان الغربيين لبناء قوة نووية خاصة بكلّ منها، والتي كانت غير فعالة ويصعب التحكم بها وزادت من قلق السوفيات. إنّ الولايات المتحدة قادرة لوحدها من الناحية التكنولوجية على ضرب صوامع صواريخ السوفيات البالستية. لكنّ ما سمعه خروچوف هو أنّ مَكنَمارا حاول أن يجعل الحرب النووية تبدو أقلّ دموية، وعليه أكثر قبولاً. وبعد دقائق من تحديد هجوم جديد على برلين، شن خروچوف نقداً لاذعاً ضدّ مَكنَمارا بتاريخ 1 يوليو. «عدم استهداف المدن! إلى أيّ حدّ وصلت العدوانية! ما هو هدفهم؟» ثمّ أجاب عن سؤاله، كما أحبّ أن يفعل كعادته. «إنّهم يقولون ذلك لكي يتعوّد الشعب على قبول فكرة أنّ الحرب النووية قادمة لا محالة».

بعد 10 أيام هاجم خروچوف خطاب آن آربر علناً باعتباره محاولة «لنيل الشرعية لشنّ حرب نووية تقضي على حياة الملايين والملايين من البشر». قال إنّها محاولة لخداع الشعب الأمريكي لأنّ القواعد العسكرية في الولايات المتحدة تقع ضمن حدود أو قرب المدن الكبرى. «ستجعل أولاً وقبل كلّ شيء السكان المدنيين ضحايا لأسلحة الدمار الشامل».

كان خروچوف على حق. ولغرض توضيح هذه النقطة بالذات، فإنّه بعد مرور 3 شهور فقط وُضِعت طائرات سلاح الجو في حالة تأهّب قصوى، وتمّ نشر تلك الطائرات المحملة بالأسلحة النووية في المطارات المدنية قرب المدن الكبرى. وهو الأمر الذي جعل تلك المدن أهدافاً ذات أولوية عالية. حدث نفس الشيء تحت إدارة نِكسُن خلال شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1969. وفي نفس الوقت استمرت الخطط النووية الفرنسية بجعل موسكو هدفها الأساسي والمباشر في أيّ صدام نووي. وعليه ألغت تلك الخطط الفرنسية سياسة عدم ضرب المدن واللجوء إلى الستراتيجية المركزية «القسرية».

في الواقع، صدق الأمر كذلك على خطط سلاح الطيران العملياتية.

وبالرغم من ذلك كان خروچوف هو المستهدف لسماع خطاب مَكنَمارا في آن آربر وقبله خطاب گِلپاترِك في فرجينيا، باعتبارهما تهديداً بضربة نووية أولى. وهذا هو الجانب الآخر لتأكيد مَكنَمارا على الضربة الأولى في خطابه السري أمام قادة العسكر في حلف الناتو المجتمعين في أثِنا. كان الخطاب الجديد، الذي ساعدت في إعداده قد أكّد له، وهو المعروف بذكائه، ليتصرف بتهوّر، كما حال الخطاب الخاص ببرلين. في الوقت الذي انتهى فيه مَكنَمارا من إلقاء خطابه في آن آربر في شهر يوليو، كان السوفيات قد نشروا صواريخهم البالِستية متوسطة المدى، والتي استهدفت فرض حالة التوازن الستراتيجي ضدّ التفوّق الأمريكي، والتحذير من إقدام الولايات المتحدة على الضربة النووية الأولى في أزمة برلين، كانت الصواريخ السوفياتية في طريقها إلى منطقة الكاريبي.

الفصل الثاني عشر
أنا وأزمة الصواريخ الكوبية

في يوم الاثنين المصادف 22 أكتوبر من عام 1962، راقبت وراقب مثلي أغلب الأمريكيين الرئيس كَنَدي وهو يُعلن أنّ السوفيات وضعوا صواريخ بالِستية «هجومية» في كوبا، ويعدّون العدة لهجوم ضدّ الولايات المتحدة. قال إنّنا سنحاصر كوبا، واستعمل كلمة فرض «الحجر» quarantine اعتباراً من صباح يوم الأربعاء. إنّ إطلاق أيّة قذيفة صاروخية من كوبا «ضدّ أيّ شعب في نصف الكرة الأرضية الغربي» سيقود إلى «ردّ انتقامي شامل ضدّ الاتحاد السوفياتي».

استرعت عبارة «ردّ شامل» على انتباهي. عنى ذلك تطبيق خطة العمليات المشتركة الموحدة SIOP، وهي خطة تعلن قيام حرب نووية شاملة. استرعى الأمر اهتمامي لأنّني أنا الذي كتب توجيهات تلك الخطة قبل 18 شهراً. وهي تفيد في الأساس الشروع بضربة نووية أولى ضدّ الاتحاد السوفياتي، في حالة أنّ شخصاً كوبياً قد أطلق صاروخاً واحداً ضدّ أيّ شخص! تساءلت إن كان من أعدّ الخطاب المذكور للرئيس لديه فكرة عمّا كان يقول؟

كنت في بيتي في ماليبو في كاليفورنيا، فسارعت إلى التلفون واتصلت بصديقي هاري رَوِن في البِنتگون، وسألته إن كان يحتاج إلى مساعدة؟

قال، «لماذا لا تأتي غداً». اتصلت بمكتب شركة الطيران وحجزت لي مقعداً على أول طائرة تغادر مبكراً صباح اليوم التالي، ثم حزمت حقيبتي. حين وصلت إلى مكتبه في وقت متأخّر من عصر يوم الثلاثاء، أطلعني هاري على الصورة بسرعة ونسبني للعمل مع مجموعة سُمّيت «اللجنة التنفيذية» التابعة لمجلس الأمن الوطني. عقدت اللجنة اجتماعاتها بحضور الرئيس وأحياناً بدونه عدة مرات في اليوم خلال الأسبوع السابق لتقرر ماذا يجب عمله. كانت توجد 3 أو 4 فرق من المساعدين لتلك اللجنة. كانت الفرقة الموجودة في البِنتگون تنسق بين الخطط لتنفيذ الهجمات الجوية والقيام بغزو

للجزيرة، ربّما كان مقرّراً بعد أسبوع من وصولي إلى واشنطن.

طلب هاري منّي «أن أعدّ مذكرة حول ما يستطيع 38 صاروخاً أن يؤثر على قدرتنا لضربة انتقامية». أعطاني خارطة توضح قدرة وصول الصواريخ متوسطة المدى من صنف MRBM الموضوعة على قواعد متحركة وصواريخ IRBM متوسطة المدى أيضاً وتطلق من قواعد ثابتة، وكلّ منها مؤشر عليه بدائرة. كانت العاصمة واشنطن والقاعدة الجوية في أفوت في أوماها ومراكز قيادة سلاح الجو ضمن مرمى تلك الصواريخ، التي ستصل إليها بعد وقت قصير من إشارات التحذير لا يتجاوز دقائق. كان ذلك حقيقة هو التأثير المباشر. عنى هذا أيضاً أنّ السوفيات واثقون من قطع رؤوسنا! لكنّني أعرف أكثر ممّا يعرفه أيّ شخص في البنتگون. إنّ تلك الصواريخ لن تحميهم من ضربات انتقامية قوية مدمرة شاملة على يد القوات التي تنجو من هجومهم. ولحسن الحظ، فإنّ قادة تلك القوات مفوضون باللجوء إلى استعمال الأسلحة النووية.

إنّ القدرة على تنفيذ هجوم أرضي بدون تحذير مسبق على مراكز قيادتنا ليس له تأثير غير فعّال، ولم يكن ذلك شيئاً جديداً. بإمكانهم إنجاز ذلك باستعمال صواريخ كروز التي تطلقها الغواصات. وعليه، إنّنا لم نعتمد إطلاقاً على حماية واشنطن أو أفوت، على أيّة حال. إنّ ذلك هو السبب الذي جعل البنتگون يخطط لنظام دفاعي لمواقع قيادة بديلة، في المناطق البحرية أو المحمولة جوّاً أو الموجودة تحت سطح الأرض. وهذا هو السبب الذي حدا بالرئيسين أيزنهاور ومن بعده كَنَدي لتفويض سلطاتهما لأولئك القادة في تلك المواقع البديلة.

أمّا بالنسبة إلى التهديد الموجّه لسلاح الطيران وقدراته لتنفيذ ضربة ثانية، أخبرني هاري أنّ قاصفاتنا قد توزّعت بشكل واسع على مطارات عديدة، بما فيها أكثر من 30 مطاراً مدنياً. دعك من الخطط التي أعلِن عنها في آن آربر قبل 4 أشهر، بإعطاء السوفيات أقصى حدّ من الحوافز كي لا يستهدفوا مدننا.

عنى وجود 38 صاروخاً في كوبا توسعاً كبيراً، بالمقارنة مع صغر حجم قوتهم الستراتيجية. بدأوا في روسيا بوضع صواريخهم العابرة للقارات ICBMs في صوامعها، كما كانت المواقع لنصب صواريخ SS-7 البالغ عددها 60 قيد الإنشاء. لكنّ 10 مواقع فقط قادرة على الاشتغال، كما ذكر لي هاري.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار صواريخهم من نوع SS-6، والتي يبلغ عددها 4 في منطقة پلِسِتسك، والتي ليست لها قيمة تذكر، فإنّ ما عمله السوفيات بين ليلة وضحاها قد ضاعف على الأقل قدرتهم

لتنفيذ الضربة الأولى. ومع ذلك فإنّ تلك الخطوة ما عنت أنّهم سيفلتون من تدمير شامل لو تجرأوا على ضربنا أولاً. إنّ سلامة قاعدة جوية واحدة فقط سيضمن لهم ذلك الدمار، فما رأيك إذا سلمت أكثر من قاعدة جويّة؟ إلى جانب قواتنا المتواجدة في مسرح العمليات، فإنّ السوفيات سيتلقون ضربات صواريخ پولارِس من غواصاتنا وحاملات طائراتنا في عرض البحار وما تمت نجاته من صواريخ أطلس وتيتان. لكنّ إطلاق 50- 100 صاروخاً لن يُجبر العدو على الاستسلام نتيجة ضربتنا الأولى.

كما أنّ صواريخ IRBMs، التي لم تصل بعد إلى قواعدها الثابتة في الأرض الكوبية نتيجة الحجر الذي وُضع على الجزيرة، كان سيحرم السوفيات من تسديد ضربة ثانية. أمّا صواريخ MRBMs المنصوبة على قواعد متحركة، وحتى لو لم نستطع أن نجدها، فإنّها ستزيد من قدراتهم لتسديد ضربات انتقامية. وبطبيعة الحال، لو سُمح للسوفيات وضع مزيد من الصواريخ في كوبا لكان باستطاعتهم نشر عدد كبير منها وزيادة قوة ترسانتهم. إنّ 100 صاروخاً من نوع IRBMs، ستزيد من قدراتهم ويخلق اختلافاً كبيراً في ضربتهم الأولى لقواعدنا العسكرية. بدا واضحاً أنّ كلي الجانبين «سيتقبلان» خسائر تعدّ بعشرات الملايين من البشر بدلاً من مئات الملايين.

لدينا سجلّ غير اعتيادي عن فترة أزمة الصواريخ الكوبية. وهو نتيجة للتسجيل الصوتي لاجتماعات اللجنة التنفيذية مع الرئيس. لم أفاجأ بعد عدة سنوات حين قرأت محاضر تلك اللقاءات وهي مدونة على الورق. لقد أخبر مَكنَمارا تلك اللجنة خلال الاجتماع الثاني لها قبل أسبوع، وكان نفس ما ذكرته أنا لتلك اللجنة، بأنّ صواريخ السوفيات في كوبا لن تؤثر على أمننا بشكل حاسم، ولا حتى بشكل هام. قال الوزير للرئيس، «بصراحة، لا أعتقد أنّه توجد مشكلة عسكرية... هذه مشكلة داخلية تخصّ الوضع السياسي».

لم تتفق قيادة الأركان المشتركة على هذا التقييم، وكانت متحفزة لمهاجمة كوبا. لكنّ وجهة نظر مَكنَمارا ووجهة نظري أيضاً، بأنّ وجود الصواريخ في كوبا لم يؤثر على قدراتنا، سوى مسألة فترة إرسال إشارات الإنذار، التي جعلت منها القيادة المشتركة موضع تركيز، أكثر من توفر 40 صاروخاً عابراً للقارات لدى السوفيات، وهو ما تنبأنا بحدوثه خلال الأشهر القليلة التالية. قبل سنة تقريباً، ادّعى القائد العام لقوات محيط اليَسَفِك أنّ لدى السوفيات 1000 صاروخاً من نوع ICBMs موجهة ضدّنا. لم يكن وجود 40 أو 50 أو حتى 100 صاروخاً، من هذا النوع يشكل تهديداً لنا.

طلب مني والت روستو من وزارة الخارجية قبل أسبوعين من ذلك أن أنضمّ إلى مجموعة عمل أخرى اسمها «مجموعة الخطط طويلة الأمد». إنّ المقارنة بين أسبوعين و«طويلة الأمد» قد تبدو مضحكة، لكنّ هذا المنظور هو الذي خلق من القضية أزمة. كما ضمّني هاري إلى لجنته القصيرة

المدى لوضع خطط الغزو. وحسب علمي، كنت الشخص الوحيد الذي شغل عضوية اللجنتين معاً، والوحيد الذي كان مستشاراً خارجياً. كان رئيس هاري هو السيد نيتزا، الذي قاد مجموعة أخرى لتخطيط ردّنا على السوفيات إذا حاصروا برلين وقطعوا الطرق المؤدية إليها، في حالة هجومنا على كوبا.

كنت نزيلاً في فندق ساحة دوپونت في واشنطن، حيث يقيم منتسبو راند هناك خلال تلك الأيام. لكنّنا نعمل على مدار الساعة، واستطعت في ليلتي الأربعاء والخميس أن أنال قسطاً من النوم على أريكة جلدية في مكتب نيتزا.

خلال لقاء مجموعة روستو صباح يوم الخميس، جلس أكثر من 12 شخصاً حول طاولة كبيرة في وزارة الخارجية، وهم يقرأون التقارير اليومية الصادرة عن وكالة المخابرات المركزية حول التقدم الحاصل في بناء منشآت قواعد الصواريخ ووحدات الدفاع الجوي الكوبي. كما قرأوا تقارير البِنتَگون حول ما يجري قرب خطوط الحصار البحري، وطلبات لمعلومات من اللجنة التنفيذية وبرقيات من سفاراتنا وبعثاتنا الدبلوماسية حول العالم لمعرفة ردود الفعل في كافة البلدان إزاء أزمة صواريخ كوبا.

قرأت برقيتين كانتا تقريباً متماثلتين كلمة بكلمة مع البرقيتين المزعومتين في مناورة برلين، التي شاركت فيها قبل سنة. وكما ورد في تلك المناورة، فإنّ الطلبة في جامعة برلين الحرة لم يحتجوا. أما البرقية الأخرى، فكانت عن تجمع جماهيري كبير تظاهر حول السفارة الأمريكية في دلهي. حين مرّ روستو خلفي وأنا جالس على مقعدي، التفت إليه وسلمته نصّ البرقيتين. قرأهما بسرعة وقال، «يظهر هذا واقعية المناورة، التي جرت في برلين». أعاد لي البرقيتين وأضاف، «وعن عدم واقعية ما نقوم به».

من النادر ما رأينا خلال اجتماعاتنا في كلتي اللجنتين حضور الوزراء الأعضاء في اللجنة التنفيذية، التي كانت تعقد جلساتها بشكل دائم في البيت الأبيض أو وزارة الخارجية. في مرة صباح يوم السبت، حضر وزير الخزانة دوگلَس دِلون إلى اجتماع فريق روستو خلال فترة استراحة لاجتماع اللجنة التنفيذية. ما كان يعرفني، لكنّه في لحظة معينة نظر صوبي وسأل، «ما الذي أعطيناه له؟ يجب أن نعطيه شيئاً مقابل خروجه».

انفجرت قائلاً، «أليس كافياً أنّنا منحناه فرصة عدم تدمير صواريخه اللعينة؟» ألقى عليّ نظرة شكّ ثمّ أشاح بوجهه عني.

كان سلوكي وقحاً، رغم أنّه لم يظهر أحد من أعضاء فرقة العمل أو أعضاء اللجنة التنفيذية إشارة استياء ممّا فعلت، رغم أنّي شعرت أنّ ذلك ليس أسلوبي المعروف. حقيقة لا أشعر بالفخر وأنا أتذكّر مجريات تلك الدقائق. والأسوأ من ذلك، يجب الاعتراف أنّ ذلك السلوك كان انعكاساً لتوقعاتي حول كيفية إنهاء الأزمة وبأيّة سبل.

أمضيت الأسبوع وأنا غارق في التفكير اعتباراً من يوم الأربعاء، وهو اليوم الذي اختار السوفيات فيه عدم التصعيد في قضية فرض الحصار البحري، وأنّ على خروچوف أن يعترف بالهزيمة ويتراجع دون الحصول على أيّة تنازلات من جانبنا. كان ينظر إلى فوهات الأسلحة الموجهة إليه من خلال قوات الغزو الجاهزة والمتحفزة للانقضاض على الجزيرة في يوم الاثنين أو الثلاثاء، إن لم يكن في وقت مبكّر. إنّنا متفوقون عليه في كافة المستويات في منطقة الكاريبي جوّاً وبحراً وبرّاً باستعمال أسلحتنا التقليدية. وبحسب علمي، فإنّه ما شكّ أحد في قدرتنا هذه وأنّ خروچوف لن يقدم على استعمال أيّ سلاح نووي.

لكنّ هذا التفوق بالأسلحة التقليدية حول كوبا لا يتماشى مع الوضع في برلين أو تركيا أو حتى دول الناتو بكاملها. غير أنّ قدراتنا النووية الستراتيجية كانت من القوة بحيث أنّني لم أكن أتصور أنّه سيتحداها في الساحة الأوروپية. شككت أنّ الوزير دِلون قد استوعب المسألة كاملة، وكم كان حجم سراب الوهم السوفياتي بالتفوق علينا، والذي صدّقناه في الخمسينات، وما كان حقيقة إلاّ سراباً.

كانت مهمتي بالضبط، أن أصلح العيوب القصوى والنواقص لسياسة عدم التوازن الستراتيجي، الذي افترضت أنّه هو الذي دفع خروچوف، كما بدا لي، للقيام بتلك الخطوة اليائسة. لكنّه تطاول هذه المرة وتجاوز الحدود. لربّما كان الهدف هو التفاوض حول برلين للتوصّل إلى امتيازات متكافئة، أو ربّما أطلق تهديدات جديدة تتطلب إسقاطها، رغم أنّني ما فكّرت أنّ من الضروري عمل ذلك. وحتى لو تقبلنا الأمر، فإنّ ذلك سيزيد وبشكل كبير مخاطر مواجهته لنا في برلين.

ذلك حقاً هو ما فكّر به نيتزا وهاري ومعهما قيادة الأركان المشتركة. الفرق هو أنّ قيادة الأركان المشتركة قد رغبت في مهاجمة كوبا، رغم أنّني ما فكرت أنّ ذلك أساسياً لسحب الصواريخ من الجزيرة. في الحقيقة، أنّني فكرت أنّه ما كانت هناك ضرورة لسحبها. لكنّني على إدراك تام بتصميم الرئيس على سحبها على الفور، حتى في ضوء بعض المخاطر، التي اعتقدت بشكل أحمق، أنّها مخاطر محدودة.

لا شكّ أنّ نشر الصواريخ في كوبا قد خلق للرئيس كَنَدي مواجهة مشكلة سياسية داخلية، بعد

أن رفض علناً ادعاءات الحزب الجمهوري بأنّ المزيد من الصواريخ ستصل إلى كوبا، أو أنّها وصلت فعلاً، رغم تحذيراته الرسمية الواضحة للقيادة السوفياتية، وبأنّها ستؤدي إلى «أخطر القضايا» وبأنّ الموقف سيزداد تصعيداً إذا استمروا في مناقضة تأكيداتهم للرئيس نفسه. إذا فشل الرئيس في متابعة إنذاره فإنّ الجمهوريين سيهاجمونه، والحق معهم، بأنّه أحمق وضعيف.

ما تعرّفت في ذلك الوقت بعد كيف تدخل بعض السياسات الداخلية الحاسمة في حسابات رؤساء البلد وهم يعالجون القضايا الخارجية. غير أنّ مردود هذا الأمر على السياسة الخارجية كان كافياً ليوضح كيف تعامل كَنَدي مع تلك الأزمة.

لو أنّه تراجع عن تحذيره في وجه الاستفزاز الروسي، رغم أنّه شرعياً من الناحية القانونية، فإنّني كنت ضمن من ساند وجهة نظر حلفائنا في أوروپا، الذين تأثروا بجرأة خروچوف وتردّد كَنَدي. لقد خافوا أنّ خروچوف سوف لن يصدّق في المستقبل تحذيرات كَنَدي أو يعيرها انتباهاً، رغم أنّ رئيسنا كان على حقّ في موقفه. كان حلفاؤنا أقلّ ميلاً أن يلزموا أنفسهم بتلك التهديدات، خاصّة ما تعلق منها ببرلين، وأنّ كَنَدي سيميل إلى التراجع عن موقفه، في حين يظلّ خروچوف عنيداً متمسكا بموقفه.

اعتقدت أنّ فرض الحجر على كوبا عمل عسكري، لا شرعي في زمن السلام. لقد اختار كَنَدي، كما أسلفت كلمة «حجر» لكي يفرّق بينه وبين ذلك الذي فرضه السوفيات على برلين الغربية عام 1948، الذي وصفناه دائماً بأنّه حصار غير قانوني. باستطاعتي الاتفاق أنّه كان مهمّاً بالنسبة للرئيس أن يظهر جرأة، ليس لأسباب داخلية، ولكن من أجل دعم حقيقي لموقف الحلفاء أيضاً. لقد أخذت مسألة الدفاع عن برلين مسألة جادة، لكنّني لم أفضّل غزو كوبا أو مهاجمة مواقع الصواريخ. في الحقيقة، أنّني ما اعتقدت أنّ الأمر قد يصل إلى ذلك الحدّ. لم أعتقد أنّ بإمكان خروچوف أن يوسع رقعة الصراع.

عصر يوم الثلاثاء من ذلك الأسبوع أخذني روستو برفقته من وزارة الخارجية إلى مبنى الپنتگون، حيث كان مقرراً له أن يجتمع مع أحد المتخصصين في شؤون كوبا من منتسبي وكالة المخابرات المركزية. كان هذا ميالاً إلى توسيع الحصار ليشمل النفط وكافة المحروقات والمنتجات الپترولية. كم تستطيع كوبا أن تستمر اعتماداً على ما يتوفر لديها من الخزين النفطي، قبل أن يتوقف اقتصادها توقفاً تاماً؟ قُدّرت الفترة بأنّه لن تتجاوز 6 أسابيع.

شعر بالفرح لدى سماع هذا التقدير وبدا له أنّ مثل ذلك الفرح مبرّر. قال إنّ ذلك يعني أنّ

الساعة تدق مستمرّة بالنسبة إلى كوبا. أمّا بالنسبة إلى روستو وجماعته للتخطيط على المدى البعيد، أسبوعان فقط، فقد كتبت له مذكرة هامة، قلت فيها بأنّ جرس إنذار قد يدقّ بعد 6 أسابيع، وله علاقة بالجدول الزمني الذي نواجهه. ستكون كافة الصواريخ جاهزة للعمل خلال أيام، وأنّ المجموعة الأخرى، التي أعمل معها، وهي مجموعة رَوِن في مجلس قضايا الأمن العالمي، فكانت تتوقع أنّ يتمّ غزو الجزيرة يوم الثلاثاء القادم.

وأكثر من ذلك، ذكرت في مذكرتي إلى روستو، بأنّنا سمعنا عن اجتماع للجنة التنفيذية ذلك الصباح، التي نجم عن اجتماعها إرسال رسالة إلى خروچوف من الرئيس كَنَدي، أشارت إلى أنّه رغم أنّنا نطلب إيقاف نصب الصواريخ في الحال وبالتالي إخلاءها من الجزيرة، فإنّنا لم نضع تاريخاً محدداً لذلك. كان رأيي أن نضع تاريخاً محدداً وواضحاً لإكمال تلك العملية، إذا كنّا راغبين في خروج السوفيات من الجزيرة، ليس خلال فترة 6 أسابيع، بل خلال أيام معدودة.

أشارت نصوص وثائق المخابرات المركزية فيما بعد أنّ جون مَكْكون، مدير الوكالة والصقر الجمهوري في اللجنة التنفيذية، قد قدّم نفس الاقتراحات صباح اليوم التالي. كما أنّ بوبي كَنَدي قد قدّم بالفعل ذلك المساء إنذاراً أمده 48 ساعة، إلى السفير السوفياتي في واشنطن، أنتوني دِبرِنِن. وخلافاً لما أراده مَكْكون، ما رغبت في تقديم ذلك الإنذار، ولو أنّني لم أتوقع أن تعقبه خطوة تحدّ.

يجب أن أعترف أنّني لا أتذكر تمضية أيّ وقت أفكّر بما يجب عمله لو تحدّى السوفيات مهلة ذلك الإنذار. كنت وأنا في سنّ 31 عاماً، بالغ الثقة بأنّ القائد الذي يشعر أنّه لا يملك اليد العليا في النزاع سينسحب تحت التهديد. دلّل خروچوف على صحة هذا التوقع بعد مرور 3 أيام. لم أكن الشخص الوحيد الذي أخطأ في هذا التوقع، كما سنرى الأسباب لردّ فعل خروچوف. كرّر روستو وعدد آخر من أعضاء اللجنة التنفيذية، من قبيل مَكنَمارا وبُندي وجونسُن وتَيلر، وغيرهم نفس التوقع الخاطئ بعد 3 سنوات في تعاملهم مع هو چي مِنه في فيتنام.

قرأت مساء يوم الأربعاء برقية مطولة من 6 فقرات بعثها خروچوف وعبّر فيها عن تقدير رصين لعدم قبول حرب نووية بين أقوى بلدين، وأنّه عرض سحب صواريخه من كوبا على أساس تعهد بالالتزام بعدم غزو الجزيرة، يوقعه الرئيس كَنَدي نفسه. كان ذلك ما توقعت تقريباً. ذهبت مساء ذلك اليوم إلى الفندق لأنال قسطاً من النوم لأوّل مرّة خلال 3 أيام. اعتقدت كالآخرين أنّ الأزمة قد انفرجت وعلى وشك الانتهاء. لم أتوقع أيّة مشكلة في أنّ كَنَدي سيقبل ذلك العرض.

وحسب علمي فإنّ الوعد بعدم غزو كوبا ما كان تنازلاً من جانب الولايات المتحدة على

الإطلاق، لأنّنا كما افترضت، ما نوينا غزو كوبا أصلاً، إلاّ بسبب وجود صواريخ السوفيات. افترضت أنّ القضية مسألة «طلب» لحفظ ماء الوجه، تقدّم به خروچوف لتغطية حقيقة تراجعه دون أن يحصل على أيّ شيء نتيجة مغامرته في الكاريبي.

غير أنّه وصلت صباح اليوم التالي برقية أخرى مغايرة تماماً للأولى، تطالب بشكل لا لبس فيه أن تسحب الولايات المتحدة صواريخها من نوع IRBMs، التي كنا نسميها صواريخ الناتو من تركيا. هذا طبعاً إضافة إلى الالتزام بعدم غزو الجزيرة.

ومع ذلك، وجدت أنّ الطلب الجديد ليس أكثر من محاولة يائسة من قبل خروچوف في آخر دقيقة للمساومة. لقد أظهرت برقية الأمس فهمه الواقعي للموقف الصعب الذي هو فيه، والذي لا يُحسد عليه. لم أرَ حاجة لخرق التحالف وتبادل رفع الصواريخ، وكان ذلك رأي كافة أعضاء اللجنة التنفيذية تقريباً. تسرّبت الكلمات إلينا، واتضح صدقها من خلال الوثائق التي كُشِف عنها خلال مناقشات حرة بعد سنوات، أنّ كافة أعضاء اللجنة قد حثوا الرئيس ضدّ تلك الخطوة. كما لم تكن هناك أيّة دلالات من جانب الپنتگون بأنّ الاقتراح المذكور قد أخّر من الاستعدادات لهجوم الولايات المتحدة على كوبا خلال يومين، بل على العكس زاد منها.

شعر الرئيس كَنَدي بشكل مؤكّد منذ بداية الأزمة أنّه إذا تمت مهاجمة صواريخ السوفيات في كوبا، فإنّ السوفيات بالتأكيد سيشنون هجمات انتقامية على مواقع صواريخنا في تركيا. عارض الجنرَل لَومَي، وكانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي اتفقت فيها معه. ومع اقتراب موعد الهجوم المتوقع على كوبا في يوم السبت الموافق 27 من أكتوبر، سأل وزير الدفاع مَكنَمارا نائبه هاري رَوِن أن يطرح أمام اللجنة التنفيذية بدائل للردّ الأمريكي على الهجوم السوفياتي غير النووي على مواقع صواريخنا المسماة صواريخ حلف الناتو في تركيا.

اتصل هاري بي، وطلب أن نعمل سوية في تلك المهمة. جلسنا سوية متقابلين حول طاولة في مكتبه وبدأنا ندون الخيارات على أوراق صفراء بأسرع ما يمكن. كان خيارنا الأول هو «عدم الردّ من الجانب الأمريكي»، أي التعادل والاكتفاء بتدمير صواريخ السوفيات في كوبا مقابل تدمير الصواريخ الأمريكية في تركيا، وإنهاء النزاع على تلك الشاكلة. أشعر أنّنا قد انتابتنا موجة من الكبرياء، حسب ما أتذكّر، لأنّ قلة من المستشارين في تلك الفترة كانت لديهم الجرأة لإضافة هذا المنحى باعتباره بديلاً سياسيّاً. فمثلاً أنّ دين أيچسُن لم يجرؤ على مثل هذا الطرح.

البديل الآخر هو أن نُسقط الطائرة التي تقوم بقصف مواقع صواريخ الناتو، أو ندمّر الموقع

الذي انطلقت منه صواريخ السوفيات لتدمير صواريخنا في تركيا. اعتقدنا أنّ هذين البديلين هما في الحقيقة الأفضل، رغم أنّه كانت لدينا شكوك بقبول البديل الأول، علماً أنّ الاثنين لا يشجّعان على التصعيد. لكنّ القضية أنّه لم يُطلب منّا أن نقدم اقتراحات، بل سلسلة من الخيارات.

أمّا البقية فكانت مفضلة لدى قيادة الأركان المشتركة بشكل واضح للغاية، وهي كالتالي: تدمير موقع واحد لصواريخ IRBM السوفياتية، أو ربّما أكثر من موقع. إذا هاجم السوفيات قواعد قاصفاتنا في تركيا، فإنّنا نقوم بتدمير عدد من القواعد الجوية السوفياتية القريبة من تركيا. إذا تمّ اللجوء إلى استخدام الطائرات في تلك المهام بدلاً من الصواريخ البالِستية أو صواريخ كروز، فإنّ قيادة الأركان المشتركة ستطلب أيضاً استخدام صواريخ أرض - جو والدفاعات الجوية في المنطقة.

إذا ردّ الاتحاد السوفياتي على ذلك، أو كما أوصت قيادة الأركان المشتركة، حتى بدون ردّ، فإنّ الولايات المتحدة ستهاجم كافة القواعد ومواقع الصواريخ والمواقع الدفاعية في المنطقة. أو كما أوصى الجنرَل پَوَر والجنرَل لَومَي باللجوء إلى هجوم شامل على الاتحاد السوفياتي.

في الحقيقة، كان ذلك ما أوصت به خطة أيزنهاور لشنّ حرب شاملة SIOP-62 العملية حتى وقت قريب، وما تطلبته في تلك الظروف، أي صدام بين القوات المسلحة السوفياتية مع القوات المسلحة الأمريكية. وللتأكيد فإنّ تعليمات كَنَدي، التي قمت بوضع مسودتها، قد غيّرت ذلك. لكنّ هذا هو ما كانت تظهره دائماً وثائق سياسة الناتو، بأنّ الهجوم على تركيا يعني الهجوم على كافة بلدان الحلف، ويجب الردّ عليه باعتباره هجوماً مباشراً على الولايات المتحدة.

ما زال مخططو الناتو ورؤساء الدول المشاركة في الحلف يعارضون أيّ اتجاه لإشعال فتيل الحرب في أوروپا، ومع ذلك نظروا إلى أنّ الدول الكبرى المالكة للقوة النووية ستكون هي الملجأ. كما أنّهم ما زالوا ينظرون إلى مسألة الردع بأنّها تقع على عاتق الولايات المتحدة مباشرة، ومسؤوليتها هي مهاجمة الاتحاد السوفياتي في ردّ على هجومه على أيّ من البلدان الأعضاء، علماً بأنّ الرئيس الأمريكي قد وعد قبل أيام قليلة «بالانتقام الشامل من الاتحاد السوفياتي» ردّاً على إطلاق صاروخ واحد من نوع IRBM من الأراضي الكوبية نحو الأراضي الأمريكية.

من جهة أخرى، فإنّ مخططي حلف الناتو وواضعي سياسته العامة لم يفكّروا إطلاقاً بظروف معينة مثل الأسس التي قامت عليها مسودة بدائلنا. وهي نشاطات عسكرية مسلحة تقوم بها الولايات المتحدة ضدّ القوات السوفياتية خلف الستار الحديدي وداخل مناطق الدول المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي. وُضِعتْ بعض التقييدات في الردّ على الهجمات الانتقامية السوفياتية، لكنّ مثل هذه

التقييدات لم تنطبق على سلاح الجو ولا قيادة الأركان المشتركة.

في الحقيقة كان الجنرَل لَومَي بالغ التأكيد في الإشارة إلى أنّه إن كانت هناك أيّة فرصة لتجريد السوفيات من سلاحهم قبل أن يبدأوا بناء ترسانة من القوة الصاروخية إلى المستوى الذي تنبأ به سلاح الطيران، فإنّ أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 هي الفرصة المواتية لذلك، ولربّما تكون الفرصة الأخيرة. إنّ هجوماً سوفياتياً ضدّ حلفاء الناتو، مهما كانت أسباب الاستفزاز، أو حتى وجهة نظر حلفائنا الأوروپيين، ستكون فرصة لا يمكن مقاومتها لإنجاز تجريد السوفيات من السلاح، من وجهة نظر سلاح الطيران والجنرَل المذكور، وربّما قيادة الأركان المشتركة.

لم يَدر في خلدي أنّ السوفيات سيغامرون بتدمير صواريخنا في تركيا، حتى لو دمّرنا صواريخهم في كوبا. لم نفهم السبب الذي جعل كَنَدي يفكّر بطريقة مغايرة. لماذا كان متأكّداً أنّ السوفيات سيردّون على أيّ هجوم ضدّ صواريخهم في كوبا، والقيام بتحركات عسكرية ضدّ تركيا وبرلين؟ تساءلنا إن كانت حملته الانتخابية عام 1960 ضدّ «فجوة الصواريخ» المفترضة هي السبب. لم يستوعب كَنَدي حقيقة كيف كانت عليه ستراتيجية التوازن، وما هي القضايا التي ترتبت عليها.

كان من وجهة نظري، وافترضت وجهة نظره أيضاً، أنّ خروچوف ما كان متفوقاً في قوته النووية الستراتيجية، كما ادّعى خلال محادثات الفريقين خلال أزمة الكاريبي. عنى ذلك بالنسبة لي أنّه يجب أن يتراجع. أقنعتني برقيته المطولة إلى كَنَدي، والتي قرأتها في الليلة السابقة، بأنّه عرف مناطق ضعفه. رأى الآخرون من أعضاء اللجنة التنفيذية أنّه كان مذعوراً. فمثلاً وصف دين أچسُن كتابة، «أنّه أقرب إلى البكاء». لكنّني وجدت ما كتبه خروچوف رصيناً وواقعيّاً. كانت أقدامه ثابتة على الأرض وعرف متى فشلت مغامرته.

منذ صباح يوم الأربعاء، الموافق 24 أكتوبر وفي مناقضة تامة لتهديداته يوم الثلاثاء، اختار خروچوف عدم تحدّي خطّ الحصار. لا بُدّ من ذكر أنّني ما آمنت إطلاقاً بضرورة تسديد ضربات جويّة للتخلص من الصواريخ السوفياتية في كوبا. شاركني هاري هذا الرأي. كان ذلك موقفي أيضاً حين عملنا يوم السبت، للأخذ بنظر الحسبان تداعيات تلك الإمكانية.

كما أنّني لم أتفق أيضاً مع اقتراح الصحفي وُلتر لِيمَن صباح يوم الثلاثاء بضرورة أن نتبادل سحب صواريخنا من تركيا مقابل سحب صواريخ السوفيات من كوبا. وهذا اقتراح رفضته ورفضه معي غالبية أعضاء اللجنة التنفيذية بشدة لأسباب تعود إلى مسألة التضامن مع أعضاء حلف الناتو.

تلك كانت وجهة نظري طيلة الوقت رغم برقية صباح يوم السبت من خروچوف، التي بدا فيها

وكأنّه عمل باقتراح لِيِمَن بانسحاب الجانبين. نقل إلينا نيتزا وجهة نظر أعضاء اللجنة التنفيذية، التي مثلت مساومة الخندق الأخير، التي فرضها موقف أعضاء الكرمِلِن المتصلب في الليلة السابقة بعد أن بعث خروچوف برقيته الأولى، التي رأوا فيها تنازلاً. ربّما كان الرئيس السوفياتي قادراً على تجاوز تلك النزعة، لو أنّه استمر في موقع القيادة. بدا أنّ كَنَدي قد راهن على ذلك، وقرر بهدوء أن يتجاهل الفكرة الصعبة بتبادل سحب صواريخ الطرفين، لصالح برقية مساء يوم الجمعة، دون الإشارة إلى صواريخنا في تركيا، باعتبارها الاقتراح القائم.

كلّ هذه الأمور قد وُضعت جانباً عن طريق التأكيد التدريجي خلال عصر ذلك اليوم حين حامت طائرة استطلاع من نوع 2U تابعة لسلاح الطيران، والتي كانت في الأجواء منذ صباح ذلك اليوم، وتمّ إسقاطها باستعمال صاروخ SAM السوفياتي. سقطت الطائرة في الجانب الأمريكي، وقرّر الرئيس كَنَدي عدم الردّ على الحادثة. وخلال تأكيداته السابقة لسلاح الطيران أنّ إسقاط أيّة طائرة استطلاع سيؤدي إلى هجمات أمريكية مباشرة على منظومة الدفاع الجوي المسؤولة عن إسقاط تلك الطائرة. وربّما أكثر من ذلك، أنّ تحفظ الرئيس، أو كما رآه بعض العسكريين المتابعين للموضوع، ضعفاً ناجماً عن الخوف. قيل توضيحاً أنّه رغبة في عدم تعطيل قبول السوفيات لاقتراحه الأخير، الذي أرسِل قبل حادثة إسقاط طائرة الاستطلاع وتأكيد ذلك.

ولكن حين كانت اللجنة التنفيذية تنتظر ردّاً من الكرمِلِن واستمرت مجموعات العمل في عملها وخططها للمضي في ضربات جوية يعقبها غزو كان مقرّراً له أن يبدأ بعد يومين، جاءت إشارة شؤم إلى مكاتب سلاح الطيران. تمّ تكليف هاري بمهمة جديدة أحالها بدوره إليّ. جاءت هذه المهمة من مَكنَمارا نفسه.

طُلِب منّي إعداد مسودة برقية إلى سفيرنا في تركيا رَيموند هَير وسفيرنا إلى حلف الناتو تومَس فاينلتر، أنقل فيها إليهما قرار الرئيس بنقل صواريخ IRBMs من تركيا وإحلال صواريخ پولارِس محلّها، عن طريق إرسال غواصاتنا إلى مناطق الناتو في شرق البحر الأبيض المتوسط. وكما فهمت من تعليمات صيغة إعداد مسودة البرقية، فإنّ الغرض هو تنبيه السفيرين إلى إمكانية أو احتمال بأنّ قراراً رئاسياً بصدد الموضوع سيُعلن في القريب العاجل.

التعليمات الموجزة التي أبلغني هاري بها هي أنّ نُخبِر الأتراك بأنّ مثل هذا الإجراء في صالحهم ولغرض حمايتهم كي لا يكونوا هدفاً للغارات السوفياتية إذا تفاقمت الأزمة. كما أنّ صواريخ پولارِس المحمولة في غواصاتنا، ستكون ردعاً أفضل من صواريخ IRBMs في حالة هجوم على تركيا أو أعضاء الناتو الآخرين، لأنّ الصواريخ الأخيرة حقيقة ليست إلاّ قضبان برق!

شعرت بالفزع حين اطلعت على البرقيات المتبادلة مع سفراء تركيا ودول الناتو، حول مسألة تبادل سحب الصواريخ من كوبا مقابل مثيلاتها من تركيا. كنت على يقين من أنّ فهم أولئك السفراء لحقيقة الموضوع سيقود إلى تضعضع علاقتنا مع تركيا وحكومات الدول الأعضاء في حلف الناتو.

ذكر السفير هَير في أكثر من برقية أنّ الأتراك يفتخرون بوجود صواريخ IRBMs ولا يرون ضيراً في وجودها على أرضهم، بل اعتبروها إشارة إلى وقوفهم في «مقدمة الصف الأول» لجبهة الناتو العسكرية. «إنّها الآن صواريخ تركية»، حسب ما ذكر سفيرنا من القول. في الحقيقة أنّ ملكية تلك الصواريخ، وليس الرؤوس النووية المحملة عليها، والتي لأمريكا فقط الحق المطلق في السيطرة عليها، قد انتقلت ملكيتها إلى تركيا، وأنّ القرار الأحادي من جانب الولايات المتحدة بشأن نقلها قد أثار مشكلة قانونية. لم تكن لدى الأتراك أيّة نوايا أو رغبة للتخلي عن تلك الصواريخ تحت التهديد السوفياتي.

أضف إلى ذلك، إذا نُظِر إلى الولايات المتحدة باعتبارها تقوم بتجريد دول حلف الناتو «من أسلحتها» تحت ضغط التهديد السوفياتي، سيبدو للجميع أنّ الولايات المتحدة قد ضحّت «بالدفاع» عن أوروپا ضماناً لمصالحها وأمنها. سيفهم الجميع أنّ نقل صواريخ الناتو من تركيا مقابل صواريخ السوفيات من كوبا، هو لأنّ تلك الصواريخ قد هددت القارة الأمريكية، رغم أنّ البيت الأبيض ومَكنَمارا لم يلمّحا لذلك التهديد أبداً. إنّ الإجراءات «الاحتياطية» التي أقدما عليها لحماية الصواريخ من التدمير، وبشكل سرّي، عدم تركها للأتراك خوفاً من أن يطلقوها، كانت أكثر من تلميح.

بطبيعة الحال، أصبح الموضوع مادة ممتازة في يد الرئيس الفرنسي ديگول وغيره، بأنّ الأمر تأكيد لما كان يكرره لبعض الوقت، وهو أنّ الولايات المتحدة لا يمكن الوثوق بها، وأنّها لن تضع مصالح أوروپا، فيما يتعلق بالأمن، فوق مصالحها وتصوّرها لتحقيق أمنها الذاتي. إنّ قيادة التحالف، التي خضعت دائماً للسيطرة الأمريكية، ستُترَك إلى ديگول أو إلى خليط من القيادة الفرنسية الألمانية، ولربّما سيبدأ الحلف نفسه بالتفكك. سيتيح هذا الانخفاض في المعنويات الفرصة أمام خروچوف ليضغط أكثر في مسألة برلين.

بدا كلّ ذلك منطقيّاً في نظري، رغم أنّي لم أعرف حينها بأنّ تلك المناقشات قد عُرِضت على كَنَدي في صباح نفس اليوم من قبل مكجورج وبُندي وآخرين غيرهما، لإقناعه بأن يتخلى، على الأقل في تلك اللحظة، عن ميوله لقبول اقتراح خروچوف صباح يوم السبت حول مسألة التبادل المتقابل لسحب الصواريخ النووية. ومع ذلك حاولت أن أصوغ مسودة البرقية بلغة تتوافق مع تعليمات مَكنَمارا، والدفاع عن صفقة المساومة بأفضل طريقة ممكنة والتظاهر بأنّها في صالح الأتراك أنفسهم،

وليس في صالح الولايات المتحدة فقط. كلّ ذلك في ضوء تقارير السفير هَير، من أنّ أيّة مساومة من هذا القبيل ستنسف ثقة الأتراك بالولايات المتحدة وبحلف الناتو.

أعددت مسودة البرقية على عجل، باعتبارها جزء من عملي كمستشار مُنتدب من قبل مؤسسة راند للعمل في واشنطن، لكنّني وجدت المهمة صعبة بطيئة. طبعت عدداً من السطور والمقاطع، لكنّني سحبت الأوراق من الآلة ومزقتها ورميتها في سلة المهملات. عاودت المحاولة مرّة وأخرى ففشلت لأنّني لم أؤمن بكلمة واحدة ممّا كنت اطبع وكرهت ما كنت أقوم به. إنّه عمل بيروقراطي القصد منه تلميع صورة الموقف بإملاء من مناصب عليا، حتى وإن كنت أختلف معها اختلافاً شخصيّاً. لكنّني كنت مستشار راند، ولست موظفاً رسمياً في الحكومة ولا مستخدماً لديها.

فكّرت أن أقول ببساطة أنّني لا أقدر على فعل ذلك وأترك المبنى إذا اقتضى الأمر وأعود إلى كاليفورنيا. لكنّي استبعدت تلك الفكرة عن ذهني. ستخلق لصديقي هاري رَوِن إحراجاً كبيراً أمام نيتزا وكذلك مَكنَمارا. إنّ هاري هو الذي أتى بي إلى واشنطن وساندني، وأنا أحاول أن أردّ له الجميل، وليس من أجل أيّ شخص آخر.

لكنّني عجزت عن كتابة البرقية.

فكّرت وأنا في غمرة كربي بكلّ من كَنَدي ومَكنَمارا. «إنّهما يهبان القضية». سينقل الرئيس صواريخ تركيا ويدخل في عقد صفقة مع خروچوف، وما طلب منه ذلك الصباح. سينتزع هزيمة تفكك الناتو والتنازل في برلين وأيضاً في كوبا، من بين فكّي الانتصار. شعرت بشيء من التأكّد أنّ خروچوف كان على وشك التنازل، لكنّ كَنَدي تراجع بشكل كارثي، حين ما كان عليه أن يتراجع.

في لحظة معينة جاء نيتزا إلى الطاولة حيث أجلس، وسأل «كيف تسير الأمور؟» أجبته بصراحة غير معهودة، «ليس على ما يرام». أتذكّر أنّني شعرت بالإرهاق والإحباط. كان ذهني في حالة إعياء وبطء. شعرت أنّ الجميع من حولي متعبون أيضاً. قلت له، «إنّني لا أجد نفسي منطقياً أن أتحجج بالأتراك. لست فخوراً بما أقوله الآن». ثمّ أضفت بلهجة تغلبت عليها الشوفينية، «نتحجج بالأتراك!».

رد بهدوء، «داوم على ما تقوم به»، ثمّ غادر الغرفة.

بعد نصف ساعة تقريباً جاء هاري فأنقذني من العذاب. قال إنّ مَكنَمارا قد كتب نصّ البرقية بنفسه. كان أمراً محرجاً. لا بُدّ أن نيتزا قد أخبره أنّه لم يحصل على مسودة البرقية منّي. شعرت

بالارتياح، وقال هاري من الأفضل أن تذهب إلى البيت، فعدت مباشرة إلى الفندق.

لم أستطع نسيان حالتي وأنا أتطلع إلى صورة وجهي في المرآة في غرفتي في الفندق، وأنا أمسك بكلتي يديّ حافة المغسل في الحمّام. كان الحمام مضاء بمصباح غرفة النوم. شعرت بالرعب لمشاركتي في عمل مخجل، صفقة جلبت العار على بلدي. كانت تلك الكلمات تدوّي في ذهني وأنا أنظر في المرآة. «سوف لن أعود إلى هنا ثانية، ولن أضع نفسي في موقف كهذا بعد اليوم. يجب أن أفعل ذلك، أحاول أن أفعل ذلك من أجل هاري، الذي كان يتلقى الأوامر ويقوم بواجبه. لكنّني سوف لن أعمل معه بعد اليوم. لقد انتهى الأمر ولن أعود إلى هذه المدينة ثانية».

خلعت ملابسي واستلقيت على السرير. استيقظت صباح يوم الأحد متأخراً. تناولت فطوري في الفندق وتوجهت إلى مكاتب الأمن الوطني في مبنى الپنتگون في حوالي الساعة العاشرة.

بدا أن الجميع كانوا في فرح ممزوج بالارتباك. صدر إعلان من موسكو نقله الراديو في ساعة مبكرة فحواه أنّ خروچوف قد أصدر أوامره بسحب الصواريخ من كوبا. لقد قبل اقتراح كَنَدي عصر اليوم السابق. ولم تكن هناك إشارة إلى الصواريخ في تركيا.

لقد كان ذلك هو ما توقعته قبل الليلة الماضية. كنت سعيداً لسماع ذلك، لكنّني فوجئت كما فوجئ الآخرون، وعليه لم تغمرني موجة فرح. شعرت بالارتياح كأيّ شخص آخر، ولكن لسبب يختلف عن أسباب الآخرين. إنّ مسودّة برقية مَكنَمارا لم يؤخذ بها. دققت إن كانت قد أرسلت، فوجدت أنّ ذلك لم يحصل.

كان وزراء حلف الناتو مجتمعين في تلك اللحظة، وأشارت التقارير الأولية إلى أنّهم قد هنأوا بفرح الولايات المتحدة لموقفها الصارم المنتصر. كان الأتراك، بشكل خاص، بالغي السعادة.

الفصل الثالث عشر
كوبـــــــا

القصة الحقيقية

لقد تراجع خروچوف حين قبِل عدم تحدي الطوق البحري المفروض على كوبا، وأيضاً سحب صواريخه منها تحت التهديد بالهجوم عليها وتدميرها وهي في قواعد إطلاقها، دون الحصول على تنازلات من الرئيس كَنَدي، ما عدا ما افترضته ومعي غالبية الأمريكيين بالالتزام، الذي لا معنى له، بعدم غزو كوبا. اتفق هاري رَوِن معي أنّ فرصة اشتعال حرب نووية بسبب تلك المواجهة، كانت ضئيلة جداً. افترضت من جهتي أنّ الرئيس كندي والمحيطين به من أعضاء اللجنة التنفيذية كانوا واثقين من ذلك الاحتمال الضئيل. في الحقيقة، أنّ ملاحظاتي قد أظهرت أنّه خلال الأسبوع الثاني من الأزمة، أشار هاري إليّ قائلاً، «أعتقد أنّ أعضاء اللجنة التنفيذية يعطون احتمال نشوب حرب نووية، تقديراً منخفضاً. هذا، رغم أنّهم يبالغون بالأمر 10 مرّات، فهم يعتقدون أنّ نسبة اشتعالها 1/ 100». أمّا هو فاعتقد أنّ تلك النسبة 1/ 1000، كما أخبرني.

في اليوم الذي تلى انفراج الأزمة، أي يوم الاثنين الموافق 29 أكتوبر، أشعرني أنّ رئيسه پول نيتزا قد أخبره بأنّ فرصة قيام حرب نووية لو دمّرنا صواريخ السوفيات في كوبا قد «كانت عالية إلى حدّ ما». أعتقد أنّ المجازفة كانت أقلّ لدى أعضاء اللجنة التنفيذية. أمّا الآخرون، فقد اعتقد أنّهم قد أعطوها احتمالاً عالياً.

سأله هاري ما تقدير ذلك الاحتمال؟ ردّ نيتزا أنّه 1/ 10.

أتذكر بوضوح ردود فعلي في ذلك اليوم على ما أخبرني به هاري. انقسمت إلى فئتين. الفئة الأولى طغت عليها الحيرة. لماذا وضعوا نسبة المخاطرة بتلك الدرجة العالية؟ كان نيتزا من بين جميع المسؤولين، عارفاً بتقديرات المخابرات الجديدة. هل كان من الممكن أنّه والآخرين وغالبية الرأي العام

الأمريكي لم يستوعبوا تأثير تلك المعلومات المخابراتية؟ أم أنّهم لم يصدّقوها أو يؤمنوا بها؟

ثمّ ظهر ردّ فعل ثانٍ جاء متأخراً. 1/ 10 لاحتمال قيام حرب نووية... وكنّا نفعل ما كنّا نفعله؟ الذي كنّا نفعله، قدر تعلق الأمر باللجنة التنفيذية قد أخذ أشكال ما يلي:

- الحصار نفسه، واحتمال مخاطرة الصراع مع السفن الحربية السوفياتية.
- إجبار الغواصات السوفياتية على الطفو إلى سطح البحر.
- مهام استطلاع جوية في الأجواء العليا والمنخفضة لكوبا.
- إنذار عال لطائرات القوة الجوية، مع احتمال عال لوقوع حادث معين له علاقة بالأسلحة الذرية التي تحملها.
- استمرار طيران الاستطلاع الجوي رغم تعرّض بعض الطائرات لإطلاق قذائف مضادة، وإسقاط إحداها يوم السبت.
- الاستعدادات الكاملة للقيام بضربات جوية، ومتابعة ذلك بغزو واسع النطاق للانقضاض على الجزيرة. (إذا كان القصد من ذلك هو الخداع، فقد كنّا في مقدمة المخدوعين).

باستثناء الإنذار الجوي الخطير، فإنّ كلّ واحد من تلك الإجراءات يُعتبر مخالفاً للقانون الدولي ولمبادئ ميثاق الأمم المتحدة (ما لم يكن قيام الحرب بأمر من مجلس الأمن الدولي). الأهمّ من ذلك، أنّ كلّ واحد من تلك الإجراءات قد هدّد على الأقل بصراع تُستعمل فيه الأسلحة التقليدية مع الاتحاد السوفياتي. لقد قبلت أنا شخصياً الحكمة من تلك المواجهة باعتبارها وفق التعريفات السياسية العالمية، مغامرة عالية تبرّر القيام ببعض الإجراءات. كنت مستعداً لمساندة التهديدات غير النووية، إلى حدّ القيام بحرب تقليدية. بعبارة أخرى، كنت مناصراً للحرب الباردة، أعمل لصالح وزارة الدفاع الأمريكية. كانت مشاعري مساء يوم السبت بعدم ضرورة الانسحاب المتبادل واضحة كلّ الوضوح، خاصّة في ذاتي.

لكنّ الرغبة بقبول المخاطرة بنسبة 10% لقيام حرب نووية؟... لغرض تحاشي سحب الصواريخ من تركيا؟

من هؤلاء الأشخاص الذين كنت أعمل معهم؟ هل كانوا جميعاً مجانين؟

كشف وزير الدفاع مَكنَمارا فيما بعد شيئاً يتعلق بحالته الذهنية يوم 27 أكتوبر. قال، «في يوم السبت وقبل حلول اليوم التالي، الذي أعلن فيه خروچوف عن سحب صواريخه... وإسقاط طائرة الاستطلاع U2...، أتذكّر أنّني تركت البيت الأبيض في نهاية اليوم المذكور، وكان يوماً خريفياً جميلاً. فكّرت أنّ ذلك سيكون آخر يوم لمغيب الشمس أراه في حياتي. ليس باستطاعة المرء أن يتصوّر ما الذي سيحدث».

هل ذهب بي الشطط فاعتقدت أنّ الحرب النووية غير متوقعة إطلاقاً؟ هل يمكن أن يكونوا على صواب؟

الجواب عن هذين السؤالين هو «نعم»، بالرغم من أنّه لأسباب تختلف عمّا اعتقد به الآخرون. الحقيقة هي أنّه في يوم السبت الموافق 27 أكتوبر من عام 1962، تلاحقت الأحداث بشكل متسارع ربما كان قد أدى إلى فناء الحضارات. كم اقترب العالم من ذلك؟ مسافة شِبر!

هذا بالرغم من الحقيقة التي كنت أؤمن بها، وهي أنّ كلي الرئيسين خروچوف وكَنَدي كانا مصمّمين على تحاشي وقوع صراع مسلح، وأنّ كليهما حقيقة كان مستعداً أن يلبي طلبات الطرف الآخر، إذا اقتضت الضرورة، بدلاً من خوض الحرب. ومع ذلك فقد أمِل كلاهما أنّ التهديد بالحرب هو للحصول على صفقة أفضل. ولغرض الحصول على ذلك، فإنّ الاثنين كانا مستعدين لتأجيل التسوية لساعات أو لأيام. وخلال ذلك وطيلة تلك الساعات فإنّ مساعديهما، ما كانوا على علم بأنّهم يساندون لعبة مزيفة من أجل المساومة على صفقة. كان هؤلاء يقومون بالإجراءات العسكرية، التي كان يمكن أن تطلق مسلسلاً من الحوادث كقطار لا يمكن إيقافه، وربّما في النهاية كان أحد سيضغط على زرّ آلة الفناء.

* * *

ملاحظة: حاولت لمدة تزيد عن نصف قرن أن أتعلم ما بوسعي عن تلك الأزمة وأسبر غورها. فرضت البحوث التي قام بها المتخصصون ضرورة لفهمي الحالي لمجرياتها، هذا طبعاً إضافة إلى رفع السرية عن الملفات الرسمية في كلّ من الولايات المتحدة وروسيا، بعد مرور حقب عديدة على تلك الحوادث حتى هذه اللحظة. وهذا واضح من مصادر ملاحظاتي عن هذا الفصل وما ورد في مقدمتي للكتاب. لقد قرأت تلك الدراسات بتمعن في ضوء وجهة نظر اطلاعي على المعلومات السرية خلال دراستي للأزمات النووية، التي استغرقت 9 أشهر، وخاصة هذه الأزمة لأنّني كنت مساهماً فيها

وعشت التحدي لمعرفة كيف أنّ مخاطرها كان يمكن أن تكون أكبر ممّا تصورت واعتقدت في حينها.

سأنشر على موقعي ellsberg.net/Doomsday/cubianmisslecrisis كافة ملفاتي عن الأزمة، قدر ما أستطيع. بودي ولكن ربّما لا أقدر على ذلك في هذا الوقت، أن أكتب كتاباً آخر عمّا تعلمته من دراستي لأزمة الصواريخ الكوبية، وما هي الدلائل التي استطعت بموجبها التوصل إلى استنتاجاتي. لكنّني لن أتعرض هنا لمزيد من الأدلة أو شرح الأسباب أو مناقشتها. التالي هو استنباطاتي، والكثير منها، بودي تحذير القارئ، ليست معهودة وربّما مدعاة ومثيرة للجدل، حتى بين العلماء المتخصصين. ولكن لغرض هذا الكتاب، فإنّي سأركّز بشكل رئيسي على القضايا، التي لها علاقة بالمخاطرة في الحرب الذرية.

سأتجاوز في ضوء هذا السبب الأيام التسعة الأولى للأزمة رسمياً، ولكن سأتناول أسبابها الحقيقية وكيف أنّ فهمي، ليس في عام 1962 بل في عام 1964 ولحقبة أو حقبتين تاليتين، كان فهماً معيباً أو مخطئاً في كلّ جانب هامّ تقريباً من جوانب القضية، وبالذات ما تعلق منها بحوافز خروچوف وخطواته السرية في نشر صواريخه في كوبا. إنّ معالجة النقص في ميزان تعادل القوى، الذي كشفه گِلپاترِك في خطابه أمام رجال الأعمال في فرجينيا، ما كان السبب الأوّل أو الوحيد لسياسة الرئيس السوفياتي السرية. وهي السياسة التي افترضت أنا وغيري من المتخصصين والصحفيين صحتها لأكثر من حقبة، ولربّما في بعض الجوانب لحقب أخرى.

لم يتضح الأمر حتى فترة السنتين 1975- 1976 حين صدر قرار **لجنة چرچِل** في مجلس الشيوخ عن العمليات السرية، بما فيها الجهود الحثيثة المركزة لوكالة المخابرات المركزية عام 1962 ومشروعها المسمى مُنگوس Mongoose ضد كوبا ونظامها، وبعد ذلك لسنوات عدة التحقيقات والدراسات التي تناولت خطط الولايات المتحدة ومناوراتها لغزو الجزيرة والانقضاض على نظام كاسترو عام 1962. في طليعة ذلك دراسة المؤرخ جَيمس هِرشبَرگ، التي عرفت منها السبب الرئيسي لادعاءات خروچوف، خاصة ما ورد في مذكراته عام 1970 وكيف أنّه صارع لسبب جيد اعتقاده بأنّه على وشك «أن يخسر كوبا» بسبب عدوانية أمريكا، التي لا تملّ ولا تتكفأ! يغطي الاستحواذ الواقعي لذلك الصراع جزءاً كبيراً من الجواب. لم يرد هذا، ولو لمرة واحدة، في تسجيلات كَنَدي لوقائع اجتماعات اللجنة التنفيذية. بالمناسبة، فإنّ العديد من أعضاء اللجنة كانوا على علم بمشروع مُنگوس وبخطط شهر أكتوبر الطارئة لغزو الجزيرة. هذا طبعاً في ضوء السؤال الماكر، الذي أثاره كَنَدي أمام مجموعة مستشاريه، «لماذا فعل خروچوف ذلك؟» لغرض معرفة ردود فعلي على هذه المسألة والجوانب المبكرة لهذه الأزمة، التي بدأت حقاً قبل ذلك بمدة عام على الأقل، يرجى

الرجوع إلى موقعي، وبالذات ما حصل يوم 16 أكتوبر من عام 1962.

* * *

في يوم الخميس الموافق 25 أكتوبر، بعد مرور يوم واحد على فرض الحصار البحري، قرر خروچوف أنّ جهوده قد باءت بالفشل وأنّه يتوجب عليه سحب صواريخه من كوبا. ورغم تهديداته بتحدي ما أسماه «القرصنة» فإنّه ما كان راغباً في تحدي الحصار بسبب خوفه أنّ كَنَدي سيكون مستعداً لخوض مغامرة للصراع المسلح مع الاتحاد السوفياتي في عرض البحار. وهو الأمر الذي يزيد من مصداقية أنّ الولايات المتحدة ستدمّر الصواريخ، إن لم يتمّ سحبها. ونتيجة لذلك تطلب الأمر الاستعداد للاستجابة ضدّ أيّة محاولة لتوسيع نفوذ السوفيات إلى أبعد من منطقة الكاريبي، ممّا يزيد من نسبة المخاطر لقيام حرب شاملة. لم يدخل خروچوف في مشروع من هذا القبيل ولم يرغب في مواجهة مثل هذه المخاطر.

كان أمله في موسكو ولحدّ صباح يوم الخميس هو الانسحاب، بالقليل من فقدان ماء الوجه، ومن الأفضل مع وجود شيء يظهره للآخرين كنتيجة لجهوده، مثل توفر ضمان بعدم غزو الجزيرة، وربّما أيضاً مبادلة عامة بسحب صواريخنا من تركيا، وربّما أكثر من ذلك. قد يكون تمنى سحب صواريخ IRBMs من إيطاليا وبريطانيا وسحب كافة القوات الأمريكية المتواجدة في تركيا، وحتى أيضاً بعض التنازلات في برلين. وفي نفس الوقت استمر في دفع قواته في كوبا للاستمرار في بناء التحصينات لصواريخه هناك. كان الافتراض أنّه فعل ذلك لتحسين موقعه في أيّة مفاوضات ومساومات تجري فيما بعد، وزيادة مخاطر مهاجمة الولايات لتلك الصواريخ، وبالتالي زيادة دوافع كَنَدي لعقد صفقة.

تمثلت خطورة مثل تلك الستراتيجية في زيادة الضغط العسكري الأمريكي لمهاجمة قواعد الصواريخ قبل اكتمالها. ونظراً لأنّ ذلك الهجوم سيكون متبوعاً بغزو واسع للجزيرة، فإنّ خروچوف كان يمكن أن يشعل فتيل صراع، كان السبب وراء جلب تلك الصواريخ والمعدات للجزيرة أصلاً. ومن جهة أخرى، كلما ازدادت يده قوة كلما نزع كَنَدي إلى حلّ دبلوماسي. وهناك دلائل تشير إلى أنّه يميل لمثل هذا الخيار.

في صباح اليوم التالي لخطاب الرئيس مساء يوم 22 أكتوبر، بعث روبرت كَنَدي رسالة عن طريق مصدرين. الأول هو جورجي بُلشاكون، وهو وكيل مخابرات سوفياتي عمل بصفة صحفي في واشنطن، عرض فيها أنّ أخاه مستعدّ لسحب صواريخ الناتو من تركيا مقابل سحب صواريخ

السوفيات من كوبا. ما كان واضحاً أنّ تلك الرسالة قد وصلت إلى خروچوف. كما أنّ السفير السوفياتي أناتولي دوبرِنِن قد كشف في عام 1990، أنّ جون كَنَدي قد بعث رسالة بنفس المحتوى خلال مقابلة خاصة له مع الرئيس مساء يوم الخميس. وهو نفس اليوم، الذي نشر فيه والتر لِپمَن عموده الصحفي، الذي اقترح فيه ذلك التبادل. ومع مرور ربع قرن على تصوير الصحفي المذكور أنّه تدخّل فيما لا يعنيه، لا بُدّ أنّ السوفيات كانت لديهم كافة الأسباب للاعتقاد بأنّه قد كتب ذلك المقال بتفويض من كَنَدي. وهذا في رأيي هو ما حصل.

وعلى ذلك الأساس بعث خروچوف رسالة إلى كَنَدي أملاها بحضور أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وبموجب اقتراحات اللجنة المذكورة بأنّ الأزمة يجب أن تُحلّ بالتزام الولايات المتحدة بعدم غزو الجزيرة وسحب «الأسلحة التي وصفتموها بأنّها هجومية» من كلّ من كوبا وتركيا. لكنّ هذه الرسالة لم تُرسل يوم الجمعة. وردت قبل إرسالها دلائل إنذارات من عدة مصادر، خاصّة من كاسترو ذاته، بأنّ هجوماً على وشك الوقوع، ربّما خلال الساعات 24 القادمة أو في اليوم التالي. وبسبب ذلك أملى خروچوف بحضور أعضاء اللجنة المركزية رسالة أطول أكّد فيها على أنّ الالتزام بعدم غزو الجزيرة سيكون كافياً. لم تكن هناك إشارة إلى صواريخ تركيا. وبعد التأجيل في ترميز الرسالة وبعثها وفكّ رموزها، فإنّ الرسالة وصلت البيت الأبيض والپنتگون على عدة دفعات مساء يوم الجمعة، رغم أنّها قد أرسِلت صباح ذلك اليوم.

كان الفرح غامراً حين قرأ الرئيس وأخوه وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية، الذين ذهبوا جميعاً إلى فراشهم ذلك المساء وهم يشعرون بالارتياح. كان ذلك عكس ما شعرت به قيادة الأركان المشتركة، التي كان أعضاؤها يتوثبون للغزو. كان التعهد بعدم غزو الجزيرة وإسقاط نظامها لعنة بالنسبة لهم، مهما كانت الأعذار. وأسوأها في رأيهم حلّ الأزمة ذاته، التي ظنوا أنّ استمرارها يبرر الغزو ويمنح فرصة لا تعوّض. بحلول يوم السبت بتوقيت موسكو، بدأ خروچوف يشكّ في احتمال وقوع الغزو فقرّر أن يعرض صفقة أفضل، وبموافقة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أعاد النظر في رسالته المعدة الأولى، واقترح فكرة تبادل الانسحاب من كوبا وتركيا، وبعثها إلى واشنطن.

خلّق وصول الرسالة الثانية بلبلة وذعراً لدى أعضاء اللجنة التنفيذية صباح يوم السبت. هل تمّت تنحية خروچوف جانباً من قبَل مجموعة أكثر تطرفاً؟ تقرّر بعد كثير من النقاش أن يتجاهل الرئيس كَنَدي الرسالة الثانية، وأن يردّ فقط على الرسالة الأولى، بمعنى الموافقة على إنهاء الأزمة على أساس التعهد بعدم غزو كوبا. لم يأمل أحد من الحاضرين أنّ ذلك سيكون كافياً لسحب الصواريخ السوفياتية، لا رئيس هيئة أركان القيادة المشتركة ولا مَكنَمارا ولا كَنَدي، الذي اعتقد الآن بعدم إمكانية

قبول السوفيات عرضه الأخير، وفكّر أنّه لم يستطع قبول ما طرحه خروچوف في الليلة الماضية.

حين وصل التأكيد عصر يوم السبت بأنّ طائرة استطلاع أمريكية من نوع 2U قد أسقِطت فوق كوبا باستعمال صاروخ سوفياتي أرض - جو من نوع SAM، افترض أعضاء اللجنة التنفيذية أنّ ذلك تصعيد متعمّد من قبل خروچوف. وهو إشارة أخرى على تصلب موقف السوفيات واستعدادهم للمغامرة وعدم ميلهم لقبول اقتراحات بدت ممكنة في الليلة السابقة.

ومع ذلك، فإنّه في وقت مبكّر من صباح يوم الأحد الموافق 28 أكتوبر من عام 1962، أذاع راديو موسكو موافقة خروچوف الكاملة على اقتراح كَنَدي بسحب الصواريخ مقابل التعهد بعدم غزو الجزيرة. كان هذا الحلّ السريع غير المتوقع بمثابة مفاجأة تبعث على النشوة. كان تفسيرنا الأول أنّ خروچوف قد أدرك ببساطة أنّه لن يحصل على امتيازات أفضل «وفقد أعصابه»، كما ذكر دين أيكسُن فيما بعد. بدا الأمر وكأنّه انتصار للرئيس وثباته طيلة ذلك الأسبوع، والذي تجلى من خلال تصريحاته العامة والخاصة، وكذلك عن تأثير الحصار والاستعدادات العسكرية العاجلة للقيام بالانقضاض على الجزيرة. كان الدرس، الذي تعلمناه هو «اتخاذ موقف صلب واستعداد لمساندته بصرامة، وسيتراجع السوفيات».

شعّ ضوء جديد على الموضوع بعد 7 سنوات، من خلال مذكرات روبرت كَنَدي، التي نُشِرت بعد مصرعه والمعنونة ثلاثة عشر يوماً. كشف فيها أنّه اجتمع مساء يوم السبت بالسفير دوبرِنِن ونقل إليه ما يمكن أن يُعتبر إنذاراً، بأنّه يجب سحب الصواريخ خلال 48 ساعة القادمة، أو أنّ الولايات المتحدة ستزيلها بالقوة. كان ذلك مشفوعاً بما يرقى إلى صفقة خاصة. إذا سُحِبَت الصواريخ من كوبا، فإنّ الصواريخ في تركيا ستُسحَب أيضاً خلال 4- 5 أشهر، شرط ألاّ يَكشف السوفيات هذا الاتفاق السري الواضح.

بالنسبة للقادة العسكريين الأمريكيين، رأوا أنّ فشل إيجاد حلّ للأزمة سيقود إلى الغزو، وأنّ حلها هو خيبة مريرة بالنسبة لهم، كان ذلك دليلاً آخر وبرهاناً لهم على ضعف كَنَدي و«تودّده للأعداء». اعتبر آخرون أنّ الدرس المستخلص هو فعالية التفاوض ومتطلبات مرونتها. قام عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية بكتابة مقال نشرته مجلة تايم عام 1962. قالوا فيه إنّ التنازلات السرية للزعيم السوفياتي، هي التي قادت إلى الحلّ السريع للأزمة. ومنذ ذلك الوقت انتشر افتراض واسع بأنّ ذلك العرض السري كان أساسيّاً لإنهاء المواجهة.

لكنّ ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق. إنّ الصفقة السرية، ولحدّ أنّ جون كَنَدي قد رفض حتى

اقتراحاً قدمه دوبرِنِن في اليوم التالي بأنّ الاتفاق الشفوي يجب أن يكون موثقاً بالكتابة. لقد عنى أنّ خروچوف لم يُعطَ عملياً أيّ شيء لتخفيف وقع الإهانة التي لحقت به ودفعته للتراجع. إنّه لم يستطع أن يبلغ أعضاء لجنة الحزب المركزي بتلك الصفقة، دعك من موقف الصينيين، الذين سخروا منه ومن استسلامه الجبان. ظهر اعتباراً من تلك اللحظة أنّ خروچوف قد أخفى قراره بالتنازل عن اللجنة المركزية، حتى قبل أن يتلقى مكالمة خلال تلك الجلسة تقريراً عن تهديد جون كَنَدي وعرضِهِ. وعلى أيّة حال، اعتقِدُ أنّ ذلك الوعد الذي نفذه الأمريكيون بحذافيره، ما كان له أيّ تأثير إطلاقاً على قرار خروچوف.

ومع ذلك، فإنّ إنذار جون كَنَدي لا يوضّح بشكل تام تنازل خروچوف المفاجئ أكثر من الوعد الفارغ بالصفقة السرية. لقد أتاح ذلك الإنذار يوماً آخر وربّما يومين لتمديد فترة المساومة. وحتى أنّ مهلة 24 ساعة «التي طلبها» كَنَدي كي يفكّر خروچوف باتخاذ القرار، رغم أنّ المهلة أصلاً كانت 4 ساعة، قد أعطت خروچوف الوقت لكي يثبت أو يتراجع عن طلبه الأخير لسحب الصواريخ المتبادل علناً. لماذا لم يتمهل بعض الوقت لتجديد اقتراحه، أو على الأقلّ يطلب ردّاً مباشراً؟

لقد عقدت دهشة سرعة الحل يوم الأحد الألسنة حتى في موسكو. تذكّر فيودور بُلاتسكي، كاتب خطابات خروچوف بحضوري بعض تفاصيل ذلك اليوم. أخبرني بأنّهم، «كانوا متوتري الأعصاب للغاية في ذلك الوقت». قال ذلك عن الأشخاص الذين أعدوا مسودة البرقية يوم 28 أكتوبر، وهم الذين كان على اتصال وثيق بهم. ذكر، «لم تُعدّ تلك البرقية في الكرملِن ولا في مقرّ اللجنة المركزية. لقد أعدّت داخل بيت خروچوف الصيفي من قبَل مجموعة صغيرة. وحين فرغوا من إعدادها بعثوها إلى محطة الإذاعة. حملها شخص بالسيارة، التي انطلقت بسرعة. في الحقيقة، أنّ السيارة تعرضت لمشكلة وهي في الطريق فأدى ذلك إلى تأخرها بعض الوقت. وحين وصلت إلى مبنى محطة الإذاعة، نزل المدير مدرجات المدخل بسرعة واختطف البرقية من يد حاملها وركض إلى الأعلى صوب المدخل لإذاعة البرقية مباشرة». ذكر بُلاتسكي أنّه لم يعرف السبب الذي حدا بهم لتلك العجلة.

في الحقيقة كانت هناك أسباب جيدة لتلك العجلة في موسكو. واحد من تلك الأسباب، كما جاء على لسان روبَرت كَنَدي عام 1964، خلال دراسة سرية للغاية كنت أعدّها حول الاتصالات بين دوائر الحكومة المعنية خلال الأزمات النووية. أخبرني بشيء من التفصيل، أكثر ممّا ورد في مذكراته، أنّه بتوجيه من أخيه مساء يوم السبت الموافق 27 أكتوبر من عام 1962، التقى بمكتبه في وزارة العدل بالسفير دوبرِنِن ليعرض عليه العواقب الجدية المترتبة عن إسقاط طائرة الاستطلاع الأمريكية صباح ذلك اليوم.

«قلت له أنّكم أول من سفك الدّم. وهذه قضية جادة». قال لي إنّه أخبر دوبرِنِن، «إنّ الرئيس لم يوافق على النصيحة القوية التي قدّمها العسكر، وليس العسكر فقط، على عدم الردّ عسكرياً على تلك الحادثة. ولكن على (دوبرِنِن) أن يعرف أنّه إذا تمّ التعرض لطائرة أخرى، فإنّنا سنرد على إطلاق النار... قلت له إنّنا سنستمر في مهام طيراننا الاستطلاعية على كوبا. إنّنا يجب أن نفعل ذلك، وعليكم ألاّ تطلقوا النار على طائرات استطلاعنا. إذا تعرضت طائرة أخرى لإطلاق نار، فإنّنا لن نكتفي بتدمير موقع مصدر النيران التي أطلِقت، بل سندمّر كافة مواقع إطلاق صواريخ سام وغيرها من وحدات الدفاع الجوي وربّما كافة الصواريخ على الأرض الكوبية. إنّ ذلك سيكون حتماً متبوعاً بعملية غزو واسعة النطاق للجزيرة».

سألت كندي، «هل وضعتم وقتاً محدّداً؟».

قال، «نعم، 48 ساعة».

أردت أن أتأكد أنّني فهمت ما قاله، «أعطيتهم مهلة 48 ساعة...».

قاطعني مصححاً، «ما لم يطلقوا النار على إحدى طائراتنا في وقت مبكر، فعند ذلك سنفتح عليهم أبواب جهنم مباشرة وفي الحال».

قلت، «إذن هناك تهديدان منفصلان. أمامهم يومان لتفكيك قواعد صواريخهم ونقلها، أو أنّنا سنزيلها بالقوة. والآخر، إذا تعرضت إحدى طائراتنا لإطلاق نار أو أسقِطت وخسرناها، فستبدأ الهجمات مباشرة بعد ذلك».

قال، «ذلك ما أعنيه».

لا شكّ أنّ إسقاط طائرة استطلاع أمريكية فوق كوبا صباح يوم السبت قد شكّل تصعيداً مشؤوماً للأزمة. وكما تبين فإنّ نتيجة ذلك كان الاعتراف بخسارة الضابط الأمريكي الأول والوحيد على يد القوات السوفياتية خلال الحرب الباردة. ولكن إلى جانب طائرات 2U الاستطلاعية، كنّا نبعث أيضاً طائرات استطلاع صغيرة تجتاز الجزيرة على ارتفاعات منخفضة جيئة وذهاباً كلّ ساعتين. كانت أيضاً تلقي قنابل صوتية لإرعاب السكان الكوبيين. ليس باستطاعة الدفاعات الكوبية أن تسقط طائرات 2U وهي على ارتفاع 7 آلاف قدم. كان باستطاعة تلك الدفاعات إسقاط الطائرات الصغيرة، التي تطير على ارتفاعات منخفضة. ومع ذلك، وبناء على تدخّل خروچوف، امتنع الكوبيون عن استخدام دفاعاتهم الجوية حتى صباح يوم السبت.

تغير الأمر من وجهة نظر كاسترو ذلك الصباح. لقد اقتنع أنّ هدف طائرات الاستطلاع هو الإعداد لهجوم مرتقب. رفض كاسترو تدخّل خروچوف وأمر دفاعاته الجوية أن تلاحق طائرات الاستطلاع الصغيرة فأسقطت إحداها. وبسبب الافتراض لدى أعضاء اللجنة التنفيذية أنّ كاسترو ليس إلاّ دمية تحت السيطرة الحديدية للرئيس خروچوف، لم تخطر على بال أحد منهم أنّ الكوبيين قد أقدموا على تلك الخطوة بدون موافقة السوفيات. ولكنّ ذلك هو ما حدث. وفي نفس الوقت قامت بطارية لإطلاق صواريخ سام، التي يقوم بتشغيلها العسكر السوفيات، باستهداف طائرة 2U فأسقطتها أيضاً. وكما تشير محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية ليوم السبت 27 أكتوبر بوضوح، لم يسأل أحد من أعضاء اللجنة إن كان إسقاط الطائرتين يمثل تصعيداً مقصوداً، أو تغييراً في أوامر خروچوف نفسه.

في الحقيقة، واعتماداً على ما ذكره بُرلاتسكي، «أعطى خروچوف أوامر صارمة ودقيقة للضباط السوفيات أن يمتنعوا عن إثارة أيّ شيء يتسبب في وقوع هجوم على كوبا». وخاصة، فإنّ إطلاق صاروخ سام الذي دمّر الطائرة الأمريكية وتسبب في مقتل قائدها الرائد الطيار أندِرسُن، كما ذكر مؤكّداً، «قد جرى دون تعليمات من خروچوف ولا القيادة السوفياتية العليا. في الحقيقة أنّ ما جرى كان مخالفاً للتعليمات، وأنّ خروچوف كان قلقاً جدّاً بصدود ردود الفعل الأمريكية». لقد تمّ تأكيد ذلك بعد تجلي الأمور عن ظروف الأزمة بعد حقب عديدة على انتهائها، عن طريق أشخاص كانوا مساهمين في القضية، وكذلك كشف الملفات السوفياتية.

لم يتوصّل أحد من مستشاري الرئيس الأمريكي لإدراك تلك الإمكانية. وعليه فإنّ مهمة روبرت كَنَدي مساء يوم السبت كانت جزء من حثّ خروچوف على إدراك مخاطر ما افترِض قراره بالتصعيد، وأن يمتنع عن التصدي لطائرات استطلاعنا، بما فيها تلك التي تطير على ارتفاعات منخفضة، اعتباراً من مطلع صباح اليوم التالي.

لم يكن ذلك التحذير خداعاً. تشير النصوص المكتوبة عن يوم 27 أكتوبر، بأنّه تمّ نقل رسالة واضحة دقيقة إلى السوفيات عن الإجماع في البيت الأبيض نتيجة للمناقشات، التي دارت عصر ذلك اليوم. كان أعضاء قيادة الأركان المشتركة غاضبين جدّاً، لأنّ الرئيس كَنَدي قد قرر عدم القيام بهجمات انتقامية مباشرة ردّاً على الهجوم الذي تعرضت له طائراتنا. حين عاد روبرت كَنَدي إلى البيت الأبيض مساء ذلك اليوم، كتب ما يلي: «ما كان الرئيس متفائلاً وشاركته بتلك المشاعر. طلب تأمين واستعداد سرب من 24 طائرة من طائرات الهليوكوپتر الكبيرة الحاملة للجنود الاحتياط من القوة الجوية. كانت مهمة هذه القوة هي غزو الجزيرة، إذا تطلب الأمر ذلك. لم يتخلّ عن الأمل، ولكن أيّ أمل تبقى سوى أن يعيد خروچوف النظر في حساباته خلال الساعات القلائل التالية. كان ذلك أملاً

وليس توقعاً. المتوقع هو حصول مواجهة عسكرية يوم الثلاثاء أو ربّما (الأحد)...».

غير أنّه كان لتحذير روبرت كَنَدي إثر تجاوز ما كان متوقعاً، لسبب لم يدركه الرئيس الأمريكي ولا كافة مستشاريه، وربّما لم يتصوروه. ببساطة، كان التحذير الرادع قد أرسِل إلى الشخص الخطأ. حتى لو كان قادراً على التحكم بإطلاق صواريخ سام، الذي كان مثار شكّ في ذلك الوقت، فقد عرف خروچوف أنّه ليس له أيّ تأثير إطلاقاً على رجال وحدات الدفاع الجوي الكوبي، الذين استمروا في تهديداتهم لطائرات استطلاعنا منخفضة الطيران. لقد بدأوا إطلاق النار على تلك الطائرات يوم السبت بأوامر مباشرة من فيدل كاسترو، الذي كان مصمّماً على الدفاع عن سيادة كوبا وفضاءها الجوي، ولم تهمّه رغبات السوفيات بعدم تأجيج الصراع وتحاشي الهجمات الانتقامية الأمريكية.

وكما أوضح ذلك كاسترو نفسه إلى تاد شُلتس في عام 1984. «كنّا نحن الذين أصدرنا الأوامر بالتصدي لطائرات الاستطلاع المنخفض... لقد عرضنا ببساطة وجهة نظرنا (على السوفيات). كان اعتراضنا على مسار تلك الطائرات، ونحن الذين أمرنا قوات دفاعنا الجوي باعتراضها». في الحقيقة أنّ الكوبيين لم يقوموا بمثل تلك المهام في السابق ولم يتصدوا للطائرات الأمريكية، لكنّهم قاموا بتلك المهمة خلال يوم السبت. قال كاسترو فيما بعد أنّه كان على ثقة بأنّه سيسقط طائرة واحدة على الأقل قبل حلول يوم الأحد.

أمّا بالنسبة إلى إسقاط طائرة 2U، لم يكن واضحاً أمام خروچوف مباشرة كيف حدث ذلك. كلّ الذي عرفه أنّه لم يأمر بذلك، وأنّ الأمر جرى بخلاف أرادته. اعتقد خطأ أنّ الأمر حدث عن طريق الخطأ لأنّ موقع الإطلاق أصبح تحت تأثير كاسترو الذي وبّخه في اليوم التالي. في الحقيقة أنّ الأمر بإسقاط الطائرة المذكورة قد صدر عن قائد وحدة صواريخ سام في كوبا، وهو ضابط برتبة جَنَرَل. رغم أنّه كان تحت الأوامر بعدم إطلاق النار دون تعليمات مباشرة من الجَنَرَل إيسى پلاييف، قائد القوات السوفياتية في كوبا، فإنّ الأمر قد تمّ تنفيذه من قبل وحدات الدفاع الجوي الكوبية، التي أطلقت نيرانها بشكل جنوني على طائرات الاستطلاع المنخفض. ظنوا أنّ غزوا قد وقع على جزيرتهم، ولم يستطيعوا أن يتصلوا بالجَنَرَل پلاييف، في تلك الظروف وأنّ قائد البطارية السوفياتية قد أخذ الأمر على عاتقه وأصدر التعليمات بإطلاق صاروخ سام وأسقط الطائرة الأمريكية.

وكما كشف لي ابن خروچوف نفسه واسمه سَرجي، أنّ تلك كانت نقطة التغيير بالنسبة لوالده. بدأ يدرك أنّ الأمور قد خرجت عن يديه. لم يعد قادراً على السيطرة على كاسترو وأنّه أخذ يتساءل إنْ كانت وحدات صواريخ سام في كوبا تخضع لأوامره. وحتى قبل أن يسمع بلقاء دوبرِنِن مع روبرت

كَنَدي، الذي عزّز مخاوفه ودفعه أن يتحرّك بسرعة مخافة أن يخسر صواريخه ووحدات سام وخسائر بشرية عالية بين جنوده وضباطه في كوبا. لربّما سيزداد الموقف تصعيداً، إذا دخلت طائرات الاستطلاع المنخفض الأجواء الكوبية صباح يوم الأحد، ربّما بحلول فجر ذلك اليوم، الذي كان سيحلّ على منطقة الكاريبي بعد مرور 12 ساعة فقط حسب توقيت موسكو. إذا كانت هناك طريقة لإيقاف ذلك، فما عليه إلاّ الإعلان عن قبوله اقتراح كَنَدي مساء يوم السبت، بأنّ يفكّك قواعد الصواريخ، قبل أن تسقط طائرة استطلاع أخرى، ويحصل ما لا تُحمَد عُقباه.

ذلك ما عرفته من خلال دراستي السرية عام 1964. بدا واضحاً أنّ السبب الذي حدا بالرئيس خروچوف لطوي يديه قبل انتهاء مهلة 24 ساعة أو 48 ساعة، وهي التي حدّدها كَنَدي حين بعث أخاه لينقل التحذير. ولكن كان هناك الكثير الذي عرفه خروچوف ولم يعرفه كَنَدي. وهي أسرار اختار خروچوف عدم البوح بها في ذلك الوقت وظلت مجهولة من قبل كافة الأمريكيين، بما فيهم أنا ذاتي لمدة 25 عاماً أو أكثر. أوّلاً لم يكن عدد العسكر السوفيات في كوبا 7 آلاف جندياً وضابطاً، كما افترضنا مسبقاً، أو 17 ألف ضابطاً وجندياً، حسب تقديرات وكالة المخابرات المركزية عند انتهاء الأزمة. كان العدد الفعلي 42 ألفاً. ثانياً، بالإضافة إلى صواريخ سام والصواريخ البالِستية، جلب السوفيات إلى الجزيرة أكثر من 100 رأساً نووياً تكتيكياً صغيراً.

وحسب علمنا، لم يبعث خروچوف إطلاقاً أسلحة تكتيكية مزودة برؤوس نووية إلى خارج الاتحاد السوفياتي. لم يكن ذلك وحده فقط، لأنّ اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب قد وافقت على تفويض قادة الوحدات الميدانية السلطة لاستعمال تلك الأسلحة ضدّ أسطول الغزو، دون الرجوع إلى موسكو لطلب مزيد من التعليمات.

إنّ مثل هذا التفويض، لم يتوافق مع تصورنا للقيادة السوفياتية وحصرها للسلطة العسكرية بيدها. وهذا أمر لم يتخيل حصوله أيّ من محللي المخابرات والمسؤولين الآخرين. ومع ذلك فقد حصل ذلك التفويض بأمر اللجنة التنفيذية للحزب، خلال الفترة التي سبقت خطاب كَنَدي يوم 22 أكتوبر. كان ذلك التفويض وفق النظرية التي افترضت أنّ المدى المحدود لتلك الأسلحة لا يصل إلى فلوريدا ولم يهدد أيّ جزء من الولايات المتحدة، فإنّ استخدامها بأمر القيادة السوفياتية الميدانيين يكون ضدّ القوات الغازية فقط. ومن المؤكد أنّ مثل هذا الاستعمال لن يقود إلى تصعيد الصراع إلى حرب، كما اعتقدوا. كان ذلك رأي الجَنَرَل سِرجي بيروزوف، الذي طرحه على خروچوف وأقنعه بأنّ صواريخ IRBMs ستبدو لطائرات الاستطلاع الأمريكية وكأنّها أشجار نخيل. رغم أنّه قد تمّ سحب ذلك التفويض إثر خطاب كَنَدي مساء يوم 22 أكتوبر، كان معروفاً لدى القادة الميدانيين السوفيات أنّه خلال سعير

المعارك وانقطاع الاتصالات بموسكو، فإنّ التعليمات الجديدة بعدم إطلاق النار بدون أوامر من موسكو، ما كان مضموناً أن يتمّ الالتزام بها. وهذا ما حصل فعلاً، حين أطلق صاروخ سام صباح يوم السبت واستهدف طائرة الاستطلاع 2U وأسقطها.

حين بانت تلك الحقيقة أمام روبرت مَكنَمارا عام 1992، أي بعد مرور 30 عاماً على الأزمة، قال، «لا نحتاج أن نخمّن ماذا كان سيحصل. كان يمكن أن يكون كارثة متكاملة للعالم بأجمعه... لم يعتقد أحد أنّ القوات الأمريكية ستُضرَب بأسلحة تكتيكية نووية صغيرة، دون الردّ باستخدام الرؤوس النووية لدينا. وكيف كانت القضية ستنتهي؟ على شكل كارثة كاملة».

عرف خروچوف أنّ تلك الأسلحة موجودة، وليس لديه سبب للشكّ بأنّ جون كَنَدي لم يعرف ذلك. ما كانت تلك الأسلحة تستعمَل كعامل ردع، بل هي أسلحة دفاع ضدّ أسطول غازٍ. في الحقيقة أنّ استطلاعاتنا قد أشارت إلى وجود موقع صواريخ واحد فقط خلال الأزمة وما أعقب انتهاءها. لقد نُظِر إليه أنّه ذو «قدرة ثنائية»، وربّما لم تُركّب على الصواريخ رؤوس نووية. ومع ذلك فإنّ خروچوف قد عرف أنّه بحلول فجر يوم الأحد، ستباشر طائرات الاستطلاع المنخفض مهامها فوق كوبا من جديد، وأنّ كاسترو لم يعد ممكناً السيطرة عليه ومنعه من الإقدام على اتخاذ خطوات دفاعية، لأنّه إذا تمّ إسقاط إحدى تلك الطائرات فإنّ الولايات ستشنّ هجوماً على مواقع صواريخ سام والصواريخ البالِستية، وهناك احتمال كبير بأنّ ذلك سيعقبه غزو لا أحد يعرف ماذا سيترتب عليه. لا شكّ أنّ مثل هذا الغزو سيشعل فتيل حرب بين الجانبين، وستتصاعد الهجمات النووية الواسعة النطاق ضدّ الاتحاد السوفياتي.

أمر خروچوف بتفكيك قواعد صواريخه، التي وصلت إلى كوبا قبل 36 ساعة من انتهاء فترة إنذار كندي. بدأ التفكيك في الساعة 5 صباحاً وتمّ الإسراع لإعلان ذلك على الملأ عن طريق الراديو وتجاوز القنوات الدبلوماسية، التي جرى الركون إليها بعد ذلك بساعات.

وكما توقع خروچوف، فإنّه دفع ثمناً سياسياً عالياً بسبب انسحابه المفاجئ. ربّما اكتشف أنّه يمارس في كوبا لعبة روليه خطيرة. وممّا لا شكّ فيه أنّه كان متعقلاً في اتخاذ قرار الانسحاب دون انتظار يوم آخر، حين أعلن قراره المفاجئ بسحب قواته وصواريخه من مناطق الخطر، التي ما كان يجب أصلاً زجّها فيه. ذكر فيما بعد عن أمسية يوم السبت، «لقد شممت رائحة حريق كبير في الجو».

الحقيقة هي أنّ جون كَنَدي وأخاه روبرت، لم يعيشا ليعرفا ماذا فعل خروچوف في قضية التحدّي في كوبا، أو تمرّد قائد بطارية صواريخ سام ولا الأسلحة التكتيكية الصغيرة، التي جيء بها

إلى الجزيرة. لقد حدث الكثير ممّا لم يعرف عنه القائدان عصر يوم السبت، وقت كانا يؤجلان التوصل إلى تسوية وهما يساومان للحصول على مكاسب أفضل.

في اليوم الذي أسقط فيه صاروخ سام طائرة الاستطلاع الأمريكية 2U، اعتقد قائد غواصة سوفياتية مزوّدة بأسلحة نووية في منطقة الكاريبي، أنّ غواصته قد استهدِفت بهجوم من قبل مدمرة أمريكية. كان الوقت حوالي 4:59 عصر يوم 27 أكتوبر، شاهد ضابط مراقبة على ظهر المدمرة الأمريكية USS Beale وجود غواصة سوفياتية من طراز B-59 فوجّه نحوها إشعاعات إنذار. بدأت في ذات الوقت حاملة طائرات وخمس مدمرات وعدد من طائرات الهليوكوبتر المضادة للغواصات بمحاصرة تلك الغواصة في ذلك القطاع من البحر الكاريبي وبعثت إليها الإشارات، كما هو مفترض، بأن تطفو وتفصح عن هويتها، وهو رمز للاستسلام. كان بإمكانهم أن ينتظروا حتى يصبح لزاماً عليها أن تطفو بسبب نقص الأوكسجين وضعف التيار الكهربائي، كي تعيد شحن بطارياتها.

شعر ملاحو السفن الأمريكية بالغبطة لمواجهة بحرية مع غواصة سوفياتية لأوّل مرة تحت مثل تلك الظروف. لم يكن أحد من قادة السفن الأمريكية المشاركة في الملاحقة، التي لم يعرف أعضاء اللجنة التنفيذية عنها أيّ شيء ولا خولوها بالأمر، على علم أنّ الغواصة، التي كانت من الصنف البطيء وتعمل بقوة الديزل، مزودة بطوربيدات نووية قوّة كلّ منها تبلغ 10- 15 كيلوطن، بنفس قوة قنبلة هِروشِما، وكانت قادرة على تدمير عدد من تلك السفن الأمريكية التي تلاحقها بضربة واحدة. شعر قائد الغواصة وضباطها أنّ غواصتهم تتعرض لهجوم، لكنّهم حافظوا على هدوء أعصابهم.

بدأ الحصار على كوبا قبل 3 أيام في حينها، وكان من أكبر مخاوف الرئيس كَنَدي حصول احتكاك من النوع المشار إليه في أعلاه. تمخّض عن اجتماع اللجنة التنفيذية في الساعة 11:00 صباحاً يوم الأربعاء 24 أكتوبر قرار وصفه روبرت كَنَدي فيما بعد بأنّه صدر في أشدّ اللحظات توتراً خلال الأزمة، وتناول موضوع الإجراءات، التي يجب القيام بها فيما يتعلق بالغواصات السوفياتية.

وفي نفس الوقت، الذي اشتدت فيه فاعلية الحصار، فإنّ القيادة الجوية الستراتيجية غيّرت مستوى إنذارها من DEFCON3 إلى DEFCON2، وهو أقلّ بدرجة واحدة فقط من مستوى الإنذار لشن حرب نووية شاملة، لأوّل مرّة في تاريخ الحرب الباردة. أصدر القائد العام لسلاح الطيران الجَنَرَل جَيمس پَوَر تعليماته الواضحة لتخويف السوفيات. وُضعت حوالي 1500 طائرة قاصفة مزوّدة بالأسلحة النووية على أهبة الاستعداد حول العالم، ولأولّ مرّة كان 1/ 8 من مجموع طائرات سلاح الطيران تحوم في الجو وهي في حالة إنذار متواصل. وكانت كلما هبطت طائرة محملة بالسلاح النووي على مدرج المطار، انطلقت أخرى إلى الجو لتحلّ محلها.

أخبر مَكنَمارا المجتمعين بأنّ باخرتين ربما تحملان أسلحة هجومية اقتربتا من خط الحصار وأنّه كانت توجد بالقرب من كلّ منهما غواصات مرافقة. كانت الخطة أن تعترض إحدى المدمرات إحدى تلك الغواصات حين تقترب من خط الحصار. شرح مَكنَمارا والجنرَل تَيلَر أنّ السوفيات قد أبلغوا بنظام الإشارات الجديد في الليلة السابقة. تطلق أوّلاً إشعاعات تحذير، وهي في الحقيقة قنابل يدوية لا تحدث ضرراً حتى لو أصابت الغواصة. يعقب ذلك إرسال إشارة للغواصة كي تطفو إلى سطح الماء. افتُرِض أنّ السوفيات قد تلقوا المعلومات حول نظام الإشارات الجديد وأبلغوا بها قادة الغواصات السوفياتية في منطقة الكاريبي. لكنّ ذلك ما كان أمراً مؤكّداً. في الحقيقة صرّح أربعة من قادة الغواصات السوفياتية في المنطقة المذكورة، الذين أجريت معهم مقابلات فيما بعد وقالوا إنّهم لم يُبلغوا بنظام الإشارات الجديد.

ذكر روبرت كندي في ملاحظاته عن صباح ذلك اليوم ما يلي:

> كانت تلك اللحظات القصيرة هذا الصباح مثار قلق كبير بالنسبة للرئيس. غطى أوّلاً وجهه وفمه بكلتي يديه، وشدّ قبضته. كانت عيناه تنمّان عن التوتر واكتسب وجهه لوناً رمادياً، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض ونحن جلوس حول الطاولة.

> نقل فيما بعد المحاورة التي دارت بين الرئيس ووزير دفاعه:

> «هل توجد طريقة ما لتحاشي وقوع صدام أوّلي مع الغواصة السوفياتية؟ لا أريد ذلك أن يحدث».

> ردّ مَكنَمارا، «لا، هناك خطر كبير يحيق بسفننا. لا يوجد بديل».

أمّا روبرت كَنَدي، فقد كان تعليقه كالتالي:

> لقد توصلنا أخيراً إلى نفس القرار النهائي... شعرت أنّنا على حافة الهاوية ولا مجال للفكاك من ذلك... على بعد ما يقرب من 1000 ميلاً تقريباً من وسط المحيط الأطلسي الواسع، ستتخذ القرار خلال الدقائق القليلة التالية. لقد بدأ الرئيس كَنَدي دورة الأحداث، لكنّه لم تعد لديه سيطرة عل المسار الذي ستتخذه.

وفي تلك اللحظة دخل غرفة العمليات جون مككون، رئيس وكالة المخابرات المركزية، ليؤكّد أن 6 سفن سوفياتية اقتربت من خط الحصار ثمّ توقفت أو عادت أدراجها. مضى روبرت كَنَدي للقول

بأنّ المجتمعين بدوا وكأنهم أشخاص مختلفون. بدا العالم للحظة وكأنّه توقف تماماً ثمّ استأنف دورانه ثانية.

الذي لم يعرفه كَنَدي في حياته، ولا أعضاء اللجنة التنفيذية الآخرين لحقب تالية، هو أنّ لحظة الحقيقة قد تمّ إرجاؤها.

لم تحدث اعتراضات أو إرسال إشارات إنذار للغواصات يوم الأربعاء الموافق 24 من شهر أكتوبر. أعطى الرئيس أوامره بالاستراحة ذلك اليوم، كي لا نهاجم سفينة أمرها خروچوف بالعودة فعلاً. غير أنّ قوات البحرية واصلت نشاطاتها في تعقب الغواصات السوفياتية في المنطقة طيلة الأيام التالية، بقصد مضايقتها، حسب ما ورد على لسان مَكنَمارا في حديثه مع الرئيس، كي تصل إلى نقطة قناعة توجب عليها الانسحاب من المنطقة ومغادرتها.

طيلة الأسبوع التالي، كانت المدمرات البحرية والحاملات وطائرات الهليوكوپتر تتابع أماكن تواجد وتحركات 3 أو 4 غواصات من نوع فوكستروت تمّ إرسالها إلى منطقة البحر الكاريبي. لم تستجب أيّ من تلك الغواصات لإشارات الإنذار كي تطفو إلى السطح وتكشف عن هويتها. وكما تبيّن لاحقاً أنّ أيّاً منها لم تفهم تلك الإشارات وما المقصود بها، لأنّها لم تستلم أيّة تعليمات من موسكو بخصوصها، في وقت كانت فيه تلك الاتصالات متقطعة. أضف إلى ذلك أنّ تلك الإشارات ألحقت أضراراً، بخلاف ما ادّعاه الأمريكيون.

في الحقيقة، كانت كافة الغواصات خلال فترة معينة عرضة للهجوم. أمر قائدا اثنين من تلك الغواصات تهيئة «الأسلحة الخاصة»، والمقصود بها الطوربيدات الحاملة للرؤوس النووية، التي تبلغ قوة كلّ منها قوة قنبلة هِروشِما، لردّ انتقامي. نظراً لأنّ بحارة الغواصات لم يبلّغوا بطبيعة الأسلحة الذرية، التي تحملها غواصاتهم، فقد كان يشار إليها باسم «الأسلحة الخاصة». الحادثة الأخرى جرت بتاريخ 30 أكتوبر، أي بعد يومين من إبلاغ العالم أنّ الأزمة قد انفرجت. بسبب جهود المراقبة الأمريكية لإجبار الغواصات السوفياتية للطفو إلى سطح البحر، حتى انتهاء فترة الحصار بتاريخ 20 نوفمبر، كانت الغواصات تناور لتجنب الكشف عن أماكن وجودها، وبدا أنّها لم تستلم تعليمات عمّا إذا كانت الحرب قد بدأت أم لم تبدأ.

غطست الغواصة السوفياتية B-130 بشكل مفاجئ وإلى عمق أبعد بتاريخ 30 أكتوبر بعد أن تمّ رصدها من قبل إحدى المدمرات. كانت بقيادة الكابتن نِكولاي شوموكوف، وهي نفس الغواصة التي كُشِف عن وجودها مؤقتاً قبل 6 أيام وجعلت كندي يضع يده فوق فمه لإخفاء عجبه. غطست ببطء لأنّ

أحد محرّكيها قد أصيب بعطب. مرّت المدمرة فوقها بحيث كان المسافة بين قعر المدمرة وبرج الغواصة أمتاراً قليلة. تساءل قائد الغواصة إن كانت المدمرة تنوي سحق غواصته، والادعاء بأنّ ذلك قد حدث عفوياً، ما لم يكن الجانبان يخوضان حرباً فعلية.

وكما ذكر شوموكوف فإنّ إحدى قنابل إشارات الإنذار قد أصابت هيكل غواصته وتسببت في تعطيل جهاز عجلة القيادة في المياه العميقة. وتسلم في نفس الوقت تقريراً عن حدوث شقّ صغير في جانب الغواصة تمّ إصلاحه بشكل سريع. أضاف شوموكوف في نهاية المقابلة، «حين قاموا بتلك التفجيرات، اعتقدت أنّهم كانوا يطلقون النار صوبنا».

وحسب ما ورد في تقرير بيتر هُشهاوزن فإنّ شوموكوف أمر برفع الأغطية عن 4 طوربيدات وتركيب الرؤوس النووية عليها استعداداً لإطلاقها. تلقى بسرعة مكالمة من ضابط الأسلحة الخاصة في القسم الأمامي من الغواصة المخصص للطوربيدات، وحذره قائلاً، «سيّدي، لا نستطيع وضع الرؤوس النووية على تلك الطوربيدات، ما لم نستلم التعليمات من إدارة الأسلحة الخاصة في مركز قيادة البحرية السوفياتية».

صرخ شوموكوف مقاطعاً، «لماذا بحق الجحيم لم تتصل بمركز القيادة البحرية مستعملاً هاتفك الصغير وتسألهم؟ أم أنّ هاتفك هذا لا يعمل على عمق مئات الأمتار تحت سطح البحر!» ثمّ أمر الضابط الشاب، «اسمع يا هذا، يجب أن تعمل وفق ما يُطلب منك، وسأتولى أنا بنفسي الحصول على الإذن». حين انتهت المكالمة، سحب شوموكوف نائبه فرولوف من ذراعه جانباً وهمس في أذنه قائلاً، «ليس في نيتي وضع الرؤوس النووية على الطوربيدات ولا إطلاقها. يجب ألاّ نفعل ذلك، وهذا الكلام سرّ بيننا». أحنى رأسه تحية حين اقترب الضابط السياسي الممثل للحزب الشيوعي ضمن العاملين في جهاز الغواصة، الذي تظاهر بأنّه ينظر إلى جهاز مؤشر العمق. «بغض النظر عمّا يحدث، فأنا أعرف أنّه سيعد تقريراً عمّا فعلت أو لم أفعله».

نظر فرولوف إلى قائده لحظة ثمّ هزّ رأسه عدة مرّات دليلاً على تفهّمه للموقف. لقد تظاهر قائد الغواصة بأنّه مستعدّ لاستعمال الطوربيدات الخاصة، إذا اقتضت الضرورة، لكنّه حقيقة ليست لديه النية في إطلاق أيّ شيء. سيقوم الضابط السياسي برفع تقريره عن كلّ ما جرى، هذا إذا بقوا على قيد الحياة.

ما يبدو مهمّاً في هذه القصة هو أنّ شوموكوف اعتقد أنّ الأمر سيكون في صالحه لو رفع

الضابط السياسي تقريره إلى القيادة وأظهر أنّه كان مستعداً لاستخدام السلاح الخاصّ ضدّ من كانوا يلاحقون غواصته، حتى في حالة عدم وجود تفويض من موسكو.

يبدو ذلك الحكم جيّداً لو أخذنا بنظر الاعتبار الاستقبال الذي كان أبرد ممّا توقعه قادة الغواصات الأربعة لدى عودتهم إلى قاعدتهم البحرية. لقد تمّ اكتشاف ثلاث من الغواصات من قبل القوات الأمريكية المضادة لها، واضطرت للطفو تحت تهديد نيران تلك القوات بدلاً من الاختناق أو الغوص عميقاً أو استخدام السلاح الخاص. تمّ استجوابهم من قبل هيئة «استهدفت بشكل عام الكشف عن أية مخالفات للأوامر أو تزوير للسجلات أو لبس في التعليمات من قبل القادة أو مساعديهم». تمّ توجيه النقد للقادة «لمخالفة ظروف السرية بالطفو إلى سطح البحر». أو كما قال بعض أعضاء هيئة التحقيق بأنّه ما كان عليهم أن يطفو. في ضوء تلك الظروف، كان يجب عليهم مخالفة التعليمات المكتوبة. ورغم وجود تفويض من موسكو، كان يجب عليهم استعمال أسلحتهم، بدأ باستعمال السلاح الخاص.

لقد مرّت فترة 40 عاماً قبل أن يعرف الباحثون الأمريكيون والمسؤولون السابقون بإمكانية اختيار استعمال السلاح النووي. لقد رأوا في ذلك استجابة لم تخطر ببال أحد وقت وضع شروط مَكنَمارا وممارسات البحرية الأمريكية، التي فرِضت على الغواصات السوفياتية، التي لم تكن المخابرات المركزية ولا متخذو القرارات على علم بوجودها، خاصة وجود طوربيدات مزودة برؤوس نووية في داخلها.

لم تكن الظروف داخل تلك الغواصات تشجع عل اتخاذ القرارات السليمة. فغواصات فوكستروت السوفياتية مخصصة للعمل في دائرة القطب الشمالي، ولم تعمل إطلاقاً في المياه الدافئة من قبل. كانت أغلب المراوح عاطلة عن العمل وبلغت الحرارة 140 درجة فهرنهايت في المقصورة الرئيسية. أبرد منطقة داخل الغواصة كانت 113 درجة فهرنهايت حيث توجد الطوربيدات. كان البحارة يتناوبون في الذهاب هناك لتمضية بعض الدقائق والانتعاش. كانت نسبة غاز ثاني أكسيد الكاربون تتصاعد داخل الغواصة، لأنّها لم تطفو للسطح جزئياً للحصول على مزيد من الأوكسجين والهواء البارد المنعش. حصلت نتيجة لذلك حالات إغماء بين البحارة.

في مؤتمر هَفانا عام 2002، الذي انعقد بمناسبة مرور 40 عاماً على ذكرى الأزمة وأمام حشد كبير من المجتمعين، بما فيهم مَكنَمارا وبُندي وبعض ضباط البحرية الروسية من الوحدة المتخصصة في تعقب الغواصات وتدميرها، وصف فادِم أورلوف، رئيس قسم الإشارات السرية الخاصة بغواصة B-59، ظروف عمل غواصته تحت سطح البحر عصر يوم ذلك السبت. قال إنّ

حال الرجال العاملين كان يُشبه حال الأرانب في الأقفاص.

تمكّنا لبعض الوقت من تحاشيهم بنجاح، لكنّهم واظبوا على تعقبنا. بدأوا منذ الساعة 4:59 من عصر يوم السبت الموافق 27 أكتوبر محاصرتنا وأخذوا يضيقون الدائرة حولنا وأطلقوا قنابل لمعرفة عمق أماكن تحركنا. انفجرت إحدى تلك القنابل بعد أن اصطدمت بهيكل غواصتنا. شعرت وكأنّني أجلس في برميل وأنّ شخصاً يحمل مطرقة ثقيلة ويضرب على جوانب ذلك البرميل...

كانت درجة الحرارة في مقصورة الغواصة الرئيسية 40- 50 درجة مئوية وأحياناً تصل إلى 60 درجة مئوية. (وهذه تعادل 113- 122 درجة فهرنهايت وتصل أحياناً إلى 140 درجة فهرنهايت). في داخل غرفة المحركات، كما وصلت نسبة غاز ثاني أكسيد الكاربون إلى درجة خطيرة، يمكن أن تؤدي بحياة البشر. وقع أحد البحارة مغشياً عليه، وتبعه ثان وثالث... كانوا يتساقطون كثمار الليمون الناضجة. لكنّنا حافظنا على رباطة جأشنا ونحن نحاول كسر الطوق الذي ضُرب حولنا. عشنا تلك المعاناة لفترة ما يقرب 4 ساعات. ثمّ ضربنا الأمريكيون بقذيفة أقوى من الأولى مخصصة للمناطق العميقة، فاعتقدنا أنّ النهاية اقتربت.

بعد ذلك الهجوم، شعر سافِتسكي بالإعياء، خاصة بعد أن فشل في الاتصال بمركز القيادة العليا، انتابته موجة غضب، فصاح بالضابط المسؤول عن الطوربيدات الذرية وأمره أن يعدّها للإطلاق. «ربّما كانت الحرب قد بدأت ونحن هنا نقوم بحركات بهلوانية!» صرخ فالِنتين گريگورفِچ وهو يبرّر أوامره، «يجب أن ندمّرهم الآن! إنّنا سنموت ولكنّنا سنأخذهم جميعاً معنا إلى قاع البحر. إنّنا لن نلحق العار بالبحرية السوفياتية!».

استمرّ أورلوف في وصف الحال:

لكنّنا لم نطلق طوربيداتنا النووية. تمكّن سافِتسكي من السيطرة على حالة الغضب، التي اعترته. وبعد أن تحدّث مع نائبه فاسِلي الگزندروفچ آرخيپوف، والضابط السياسي إيفان سَمنوفچ ماسسيناكوف، قرّر أن تطفو الغواصة إلى سطح البحر.

ولكن كان هناك شيء آخر يمكن إضافته لتلك القصة. تطلب إطلاق الطوربيدات النووية

موافقة اثنين من الضباط، وهما في هذه الحالة قائد الغواصة، سافِتسكي والضابط السياسي، إيفان مسلِناكوف. في غواصة أخرى كان مثل هذا الأمر كافياً لإنجاز المهمة. يوجد لدى كلّ واحد منهما نصف الشفرة المطلوبة لإطلاق الطوربيدات النووية. الذي أنقذ الأمريكيين من الكارثة، هو وجود ضابط آخر في تلك الغواصة ولا بُدّ من الحصول على موافقته أيضاً. هو رئيس أركان تشكيلة الغواصات في المنطقة، فاسِلي آربيخوف. بالنسبة لقيادة الغواصة، كان آربيخوف الذي هو برتبة سافِتسكي يُعتبر ثانياً بعد قائد الغواصة. وعليه قد تعلق الأمر باتخاذ قرار استعمال الطوربيدات الذرية ولدوره في قيادة تشكيلة الغواصات، أصبحت موافقة آربيخوف شرطاً مطلوباً. لقد كان ذلك وفق الأسس، التي عرفها سافِتسكي ومسلِناكوف أيضاً، وهذا ما جعلهما يختاران، تحت تلك الظروف تجاهل الأمر بأنّ موسكو لم تفوّض استخدام تلك الطوربيدات، إن أحبّا ذلك.

لو كان آربيخوف موجوداً في إحدى الغواصات الأخرى مثل B-4، التي لم يستطِع الأمريكيون تعقب مسارها، لكان هناك احتمال كبير بأنّ المدمرة USS Randolph وغيرها، حقيقة كافة السفن الأخرى المرافقة لها، قد دُمرت خلال ثوان على اتفاق سافِتسكي ومسلِناكوف على ضغط الزرّ. وحتى لو أنّ تلك السفن لم تُدمّر في الحال، فإنّها كانت ستغطى بإشعاعات نووية غمرت مياه المنطقة وشلّت حركة البحارة الأمريكيين وقتلتهم بعد ذلك بوقت قصير.

لو كان حدث الانفجار لكان مصدره مجهولاً بالنسبة لقادة البحرية وأعضاء اللجنة التنفيذية، لأنّه حسب علمهم لم توجد غواصة في المنطقة، ناهيك أنّها مسلحة بطوربيدات ذات رؤوس نووية. وعليه فإنّ ما كان سيترتب عن مثل هذا السرّ في تدمير السفن الأمريكية هو الاعتقاد بأنّها تعرّضت لضربة صاروخ نووي متوسط المدى أطلِق من الأرض الكوبية، رغم أنّه لم يكن ممكناً الكشف عن مصدر إطلاقه. كان يمكن أن تكون تلك الحادثة هي ما تطرّق إليها كَنَدي في خطابه للأمّة بتاريخ 22 أكتوبر، وكان يمكن أن يكون عقب أمره بشنّ هجوم نووي واسع النطاق ضدّ الاتحاد السوفياتي.

لقد فارق سافِتسكي وزميله آرخيپوف الحياة منذ بعض الوقت، ولا يمكن طلب شهادتهما حول تلك اللحظات. غير أنّ أرملة آرخيپوف، أولگا آرخيپوف، ذكرت أنّ زوجها قد أخبرها أنّهم كانوا على وشك إطلاق الطوربيدات النووية. ولو كان حدث ذلك لربّما ما كان باستطاعتنا أن نقرأ اليوم عن هذا الموضوع. إنّ مخاوف مَكنَمارا بتاريخ 27 أكتوبر من عام 1962، بأنّه ربّما ما كان له أن يراقب غروب شمس يوم آخر، لها ما يبرّرها. كانت أولگا آرخيپوف عام 2012 فخورة بزوجها فاسِلي الگسندروفچ، كما جاء في محاضر مؤتمر هَفانا قبل 10 سنوات، حين تمّت تسميته «الرجل الذي أنقذ العالم».

ولكن كان هناك أكثر ممّا نعرفه عمّا جرى يوم ذلك السبت.

خلال الصباح وحين كان مَكنَمارا مجتمعاً مع قادة الأركان المشتركة في وزارة الدفاع، وردت الأخبار أنّ طائرة 2U تحت إمرة الجَنَرَل پِوَر قد دخلت الأجواء السوفياتية. ذكرت القصة أنّها كانت طائرة لمتابعة الأحوال الجوية، وخرجت عن مسارها. شكّ أكثرنا بالرواية، وأعتقدُ أنّ الرئيس أيضاً، قد افترض أنّ پِوَر يلعب لعبة، وأنّه بالاشتراك مع رئيسه لومي يريدان إشعال فتيل الحرب.

حين سمع مَكنَمارا بتلك الأخبار، وفق مقابلة له جرت عام 1975 لتوثيق التاريخ شفوياً مع جَنرَل القوة الجوية دَيفِد بورشنَل، غادر قاعة الاجتماع في الپنتگون «وهو يصرخ بشكل هِستيري، إنّ ذلك يعني حرباً مع الاتحاد السوفياتي». في ضوء اشتداد الأزمة، ربّما كان السوفيات افترضوا أنّ طائرة الاستطلاع تلك تمهّد لشن حرب شاملة. في رسالته إلى كَنَدي بتاريخ 28 أكتوبر، وافق خروچوف على تفكيك مواقع صواريخه النووية في كوبا، وعبّر عن مخاوفه بأنّ الطائرة، التي دخلت الأجواء السوفياتية، كان يمكن أن تعتبَر بسهولة «قاصفة نووية، ربّما دفعتنا إلى اتخاذ خطوة مصيرية».

ادّعى قائد الطائرة أنّه ارتبك بفعل الأضواء القادمة من القطب الشمالي، وهو ما جعله يوجّه طائرته في الاتجاه المعاكس. وفي الوقت الذي أدرك فيه خطأه، كانت الطائرة تحوم فوق جزيرة چوكوت السوفياتية. وعندما نفذ وقوده استدار وهيأ الطائرة لتنساب مع الريح لعدة أميال، دون علمه أنّ طائرات مَگ الروسية قد انطلقت لتعترض مسيره وإسقاط طائرته. وفي نفس الوقت، أقلع عدد من مقاتلات F-120A من القاعدة الجوية الأمريكية في ألاسكا لحماية طائرة 2U. كانت تلك المقاتلات مصممة لمواجهة القاذفات الروسية القادمة من منطقة القطب وهي محملة بصواريخ جو - جو النووية، وليس لمواجهة طائرات مَگ. ولحسن الحظ لم تدخل في مواجهة مع تلك الطائرات، واستطاعت طائرة 2U أن تهبط بسلام في القاعدة الجوية المذكورة.

حدث أن كان روجر هِلزمَن، رئيس مكتب المخابرات والبحوث في وزارة الخارجية، موجوداً في البيت الأبيض حين وصلت الأخبار عن الطائرة. اندفع مذعوراً ليخبر الرئيس أنّ طائرة 2U قد دخلت الأجواء السوفياتية وأنّ طائرات مَگ تطاردها. وبكلّ هدوء قال الرئيس وهو يجلس على كرسيه الهزّاز، كما ذكر هِلزمَن، مردداً نكتة جارية على ألسنة رجال سلاح البحرية، «يوجد دائماً ابن عاهرة، ليس على علم بالأوامر التي صدرت!».

لو كان لدى خروچوف يوم السبت سبب للاعتقاد بأنّه فقد السيطرة على قواته المتواجدة في

كوبا، فلربّما كانت لديه أسباب للشكّ بأنّ ذلك حدث لخصمه كَنَدي. في الليلة التي تقابل فيها روبرت كَنَدي مع السفير دوبرِنِن، ورد في مجريات الحديث بينهما، «إنّ أولئك الذين يفضلون الدبلوماسية قد فقدوا قوة الدّفع... سيكون من الصعب الوقوف بوجه التيار. الجنرَلات متحفزون للقتال. إنّهم يريدون بدأ الهجوم». فحوى الرسالة التي تلقاها خروچوف من سفيره دوبرِنِن، هي أنّ استمرار الأزمة وتصاعدها قد يعرّض كَنَدي لمحاولة انقلاب عسكري.

* * *

نعم، اقترب الجنس البشري من نهايته في شهر أكتوبر من عام 1962، أقرب ممّا تصوره أيّ مسؤول في مركز عال في حكومة الولايات المتحدة في تلك اللحظات، أو في الأعوام الأربعين التي تلتها. بالتأكيد، كانت النهاية أقرب ممّا كنت أدركه، ليس لأنّ الرئيسين مدفوعان أو لم يُدركا الأخطار المحتملة الشديدة. في الحقيقة كان كلاهما حذراً إلى درجة لم يعياها، أكثر ممّا يعرفه العالم أو أغلب الأفراد المحيطين بهما. وأكثر من ذلك، أنّ لديهما اشمئزاز مشترك لفكرة الحرب النووية، وقد عرفا بأنّ مثل هذه الحرب ستقضي على الحضارة، بل على البشرية أجمع.

خلال الأمسية المرعبة لذلك السبت الموافق 27 أكتوبر، حين كان مصير العالم معلقاً بين الشكّ واليقين، وصف روبرت كَنَدي مشاعر أخيه وهو يجلس وحيداً في المكتب البيضاوي.

> الفكرة أزعجته أكثر وجعلت احتمالات الحرب مفجعة أبلغ ممّا ستكون عليه. كان منظر موت أطفال هذا البلد وفي كافة أنحاء العالم، والشباب الذين ليس لهم دور ولا كلمة من الذين لا يعرفون شيئاً عن هذه المواجهة، هم أولئك الذين يمكن أن تخبو جذوة حياتهم وحياة الآخرين من حولهم. سوف لن تكون أمامهم فرصة لاتخاذ القرارات أو التصويت في الانتخابات ولا يرشحون أنفسهم لأيّ منصب أو يقودون ثورة للتغيير، ويقررون بأنفسهم مصيرهم.

كما نظر خروچوف للمسألة نظرة متطابقة تقريباً. ذكر في رسالته للرئيس كندي بتاريخ 26 أكتوبر ما يلي:

> السيد الرئيس
>
> يجب علينا نحن الاثنين اللذين نمسك بنهايتي الحبل ألاّ نشدّ بقوة بعد أن وضعنا في الوسط عقدة الحرب، لأنّه كلّما سحبنا بقوة كلّما ازدادت العقدة اشتداداً وتعقيداً، ولربّما

ستأتي لحظة لا يمكن لنا نحن الاثنان اللذان وضعناها فكّ تلك العقدة أو القدرة على حلّها. وهنا يصبح أن لا مفرّ من قطعها والتخلص منها. ومعنى ذلك أنّني لست من يستطيع أن يشرح لكّ ذلك، لأنّك تعرف تماماً مقدار القوة الهائلة المدمرة المتوفرة لبلدينا معاً.

ونتيجة لذلك، فإنّه إذا لم تكن هناك نيّة لشدّ تلك العقدة ونحكم عل مصير العالم بالدمار ونوقِع النكبة به بواسطة حرب نووية لا تبقي ولا تذر، فيجب علينا أن نرخي الحبل. دعنا نتعاون لفكّ تلك العقدة. إنّنا من جانبنا مستعدون لفعل ذلك.

لم يرَ أيّ من الزعيمين أنّ الاحتكاكات حول كوبا تبرّر قيام حتى حرب نووية محدودة، وكان كلاهما مصمّماً أن يجد حلاً سلمياً للأزمة. في الحقيقة، وكما ذكرت سالفاً، أنّ كليهما وخلافاً لكلّ ما أعلِن، وفي حالة كَنَدي بالذات، وفق ما ذكره كافة مستشاريه تقريباً، أنّه كان مصمّماً، إلى الحدّ الذي سيطر فيه على الأمور، ألاّ يندفع إلى الحرب ولم يسمح بقيام صراع مسلح بين قوات الولايات المتحدة والقوات السوفياتية، تحت أيّ ظرف. أعتقدُ أنّ كليهما منذ المراحل الأولى للمواجهة العلنية، وكانت مبكرة بالنسبة إلى كَنَدي، كانا مصممّين على إنهاء الأزمة وفق طلبات الجانب الآخر، إذا اقتضت الضرورة، بدلاً من ترك الحوادث تتصاعد لتصبح حرباً فعلية. ومع ذلك، فقد اقترب العالم جداً من الحرب النووية.

وجّه كلّ منهما قواته العسكرية كي تقوم بنشاطات استفزازية. فمثلاً في الجانب السوفياتي أعِدّت الصواريخ البالِستية في كوبا للإطلاق وتمّ إرسال غواصات بطوربيدات نووية لمنطقة البحر الكاريبي. أمّا في الجانب الأمريكي، فكانت مواصلة الاستعداد لغزو كوبا وإرسال طائرات الاستطلاع المنخفض صوبها كلّ ساعتين، إضافة إلى مطاردة الغواصات السوفياتية ومضايقتها. لعب كلّ منهما دوراً في إطالة أمد الأزمة يوماً بعد آخر، في حين كانا يتساومان على إيجاد حلّ للصراع، وكلّ منهما يطمح أن يحصل على مكاسب أفضل ممّا فكّر بها أصلاً. ولو أنّ خروچوف لم يعلن فجأة وبشكل مثير للدهشة سحب صواريخه صباح الأحد، والذي وصفه كَنَدي أمام مستشاريه بأنّه «عرض معقول جدّاً، لكان هناك احتمال باشتعال فتيل حرب شاملة عصر ذلك اليوم».

كم اقتربنا من ذلك الاحتمال؟ قريب جدّاً لولا ذلك القرار غير المتوقع من رجل واحد ضد قرار شخصين في داخل تلك الغواصة السوفياتية. كما يعود الفضل أيضاً إلى عدم دقة أجهزة الدفاع الجوية الكوبية منذ اليوم الذي بدأت تطلق فيه ذخيرة حية على الأهداف الأمريكية بنسبة 0.1% مقارنة

بالنازيين الذين كانت دقتهم 1%. كان ذلك لأسباب لم أفهمها، ولم يعرف بها أيّ أمريكي آخر لمدة 30 عاماً وفي بعض الحالات 40 عاماً. أصبح على العالم أن يستوعب الدرس التاريخي من تلك الأزمة، وكيف أنّ الوجود الإنساني قد تعرّض بشكل غير مبرّر لخطر داهم من قبل رجلين ما كانت لهما نية في الإقدام على ذلك الخطر وتراجعا في اللحظة المناسبة لتحاشي وضع نهاية للبشرية، أو القيام بما رأياه عملاً له أهمية وفيه مخاطر جمة.

الدرس الأساسي الذي استخلصته من تلك القصة هو الخطر المحيق بالإنسانية بسبب وجود الأسلحة النووية. ولا يتوقف ذلك فقط على إمكانية انتشارها أكثر فأكثر، بل أيضاً وقوعها في أيدي حكومات وشعوب غير ملتزمة أو غير مستقرة تقوم بالتهديد باستعمالها بشكل أقلّ مسؤولية من الدول الكبرى الأعضاء في مجلس الأمن الدولي. تقع هذه المسؤولية الآن على عاتق دول صغيرة أو حديثة مثل إسرائيل وپاكستان والهند وكوريا الشمالية، لأنّ هذه جميعاً قد زادت من مخاطر اندلاع حروب نووية.

ما كشف لنا التاريخ الحقيقي لأزمة الصواريخ الكوبية هو أنّ وجود أكداس من الأسلحة النووية في أيدي قادة الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة وروسيا، حتى لو حاول هؤلاء التصرف بشكل مسؤول وإنساني وحذر، كما رأينا، فإنّ هذه الأسلحة كانت ولا تزال تمثل أخطاراً لا تطاق تهدّد ديمومة الحضارة.

في الوقت الذي توفرت فيه لكلي رئيسي البلدين قوة نووية أصغر كثيراً من القوة المتوفرة في الوقت الحالي، ورغم التقليص الذي جرى خلال الحقبتين الماضيتين، فإنّ مجرد الفكرة المرعبة، التي اقترب تنفيذها، ما كانت في ذهن أحد حين بدأت الأزمة. اعتقد كَنَدي وخروچوف أنّهما كانا على استعداد للانسحاب، ولكن «ليس بعد»، وهما يتساومان وقوات الأسلحة النووية خلفهما. لو أنّ المساومة بينهما استمرت يوماً واحداً آخر، فإنّ كافة البشر تقريباً كان يمكن أن يفنوا عن بكرة أبيهم. وهذا يثير سؤالاً، هل كان لدينا رئيس منذ الحرب العالمية الثانية، قد تصرّف بشكل أكثر مسؤولية وحكمة؟ هل لدينا رئيس من هذا النوع الآن؟ هل لدى روسيا؟

دعوني أقتبس ممّا قاله واحد انسحب أخيراً في الوقت المناسب، وقد عرف ما لم يعرفه الرئيس الآخر. أخبر خروچوف نورمَن كَزِنز بعد أشهر على انتهاء الأزمة، عن ردود فعله في ذلك الوقت.

> حين سألت المستشارين العسكريين إن كانوا قادرين على التأكيد لي أنّ ثباتي على موقفي لن يؤدي إلى فناء 500 مليون شخصاً، نظروا إليّ وكأنّي فقدت عقلي، أو الأسوأ

إنّني خائن. المأساة الكبرى التي رأوها هي أنّنا سنجلب الدمار الكامل على بلدنا ونفقد كلّ شيء، مقابل ألاّ يتهمنا الصينيون والألبانيون بالضعف ومغازلة الأعداء.

ولذلك قلت لنفسي، «ليذهب هؤلاء المخبولون إلى الجحيم! إذا استطعت الحصول على التزام من الولايات المتحدة بعدم قلب نظام الحكومة الكوبية، فإنّني سأسحب الصواريخ». ذلك هو ما حدث، وأنا الآن عرضة لانتقادهم وسخريتهم.

يقولون إنّني خفت من مواجهة النمر الورقي، وكلّ هذا سخف. ما الذي سأكون جنيته وأنا في ساعات عمري الأخيرة لأعرف أنّه بالرغم من عظمة شعبنا والشعب الأمريكي، فقد أفنينا بعضنا البعض؟ هل سيعني ذلك أنّ شرف الاتحاد السوفياتي الوطني، لم يمسّه الأذى؟

في رأيي أنّ السطر الأخير، في الحقيقة كافة المقاطع المقتبسة أعلاه، يجب أن تُدرس من قبل أولئك، الذين يضعون أصابعهم على الأزرار لإطلاق آلات الفناء.

القسم الثاني

الطريق إلى الفناء

الفصل الرابع عشر
قصف المدن

أين ابتدأ الطريق إلى إفناء البشرية؟

جاءت فكرة شطر الذرة عن طريق الفيزياء النظرية، وتمّ اختبارها في صحراء الأمَكّوردو في ولاية نو مكسيكو، ثمّ كُشِفت قدراتها أخيراً للعالم ليشهدها في هِروشِما ونَكّزاكي. ولكن قبل ذلك، متى وكيف أصبح إحراق المدن بسكانها المدنيين بإسقاط قنبلة من الجو مشروعاً؟ لم يصبح الأمر مقبولاً فقط، بل ضرورة لشنّ الحرب. ما هو التغيير الذي حصل في الوعي لأمرٍ كان في السابق يُعتبر جريمة حرب، ليتحول إلى سياسة رسمية للبلد الذي يعتبر نفسه قائداً للديمقراطية؟

لا بُدّ أنّ هذا التغيير قد سبق بزوغ فجر العصر النووي وقام على تغييرين أساسيين حدثاً وتلاقياً خلال الحرب العالمية الثانية. أولاً، اعتقاد بعض العسكر أنّ القوة الجوية أساسية لتحقيق الانتصار، والآخر هو الرغبة المتزايدة لدى القيادات المدنية وقادة السلاح الجوي، باعتبار المدن، أي السكان المدنيين، أهدافاً عسكرية مشروعة. كان لكلّ من هذين التطورين تاريخه الخاص به.

طرحت بداية الحرب العالمية الثانية معيار ضمير الإنسانية، حتى تلك اللحظة، باعتباره طبيعياً ومعقولاً حين أتاح المجال لشن الحرب بتاريخ 1 سبتمبر من عام 1939 وقت اجتاحت جيوش هِتلر پولندا. كان ذلك هو البداية الرسمية لنشوب الحرب العالمية الثانية. وجّه الرئيس فرانكلِن روزفلت نداء لكافة الدول المتحاربة جاء فيه:

> إنّ القصف الجوي بلا هوادة للمدنيين في مراكز تجمعهم غير المحصنة خلال مجريات العمليات العسكرية، التي شُنّت في مختلف بقاع الأرض خلال السنوات الماضية، والتي نجم عنها موت وإعاقة آلاف المدنيين المغلوبين على أمرهم من الرجال والنساء والأطفال، هو الأمر الذي أثار الاشمئزاز والهلع في قلوب الرجال والنساء

المتحضرين، وسبب صدمة قوية لضمير البشرية.

إذا تمّ اللجوء إلى هذه البربرية من قبل البشر خلال فترات المحارق المأساوية، التي يواجهها العالم الآن، فإنّ مئات الآلاف من الناس الأبرياء، الذين ليست لهم مسؤولية وغير مساهمين من قريب أو بعيد في تلك الصدامات العدوانية التي نشبت، سيخسرون حيواتهم.

وعليه فإنّني أوجّه هذا النداء لكافة الحكومات، التي لها ضلع بتلك الأعمال العدوانية علناً، أن تعبّر عن التزامها بأنّ قواتها المسلحة، تحت أيّ ظرف وفي أيّ موقع، لن تلجأ إلى القصف الجوي للتجمعات السكانية والمدن غير المحصنة، وأن تعمل بموجب قواعد الحرب المعروفة، التي يجب العمل بها من قبَل كافة الأطراف، وأطلب من الجميع الاستجابة المباشرة لهذا النداء.

في اليوم التالي قامت بريطانيا، قبل أن تعلن حربها رسمياً ضدّ ألمانيا، بتأكيد التزامها بذلك المبدأ والتزمت هي وفرنسا بالقول، «سنمارس عملياتنا برغبة ثابتة لتحاشي إيقاع الأذى بالسكان المدنيين»، وأنهما أبلغتا تعليماتهما الواضحة للقادة الميدانيين بأنّه يُمنَعُ على القوات المسلحة أن تقصف المدن، «ويقتصر هذا القصف على الأهداف العسكرية بشكل محدّد، بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة».

تبع ذلك بوقت قصير تعليمات مماثلة من الجانب الألماني. في الحقيقة أنّ تلك الحكومات، على الأقل أثناء اشتداد وطيس المعارك، كانت لها نوايا أو خطط لاتباع سياسة استهداف المدن وقصفها، بما فيها حكومة أدولف هِتلر.

لم يكن نداء روزفلت دعوة لمستوى جديد من السلوك خلال أوقات الحرب. بل على العكس من ذلك، أكّد أهمية ما كان يُعتبر معياراً عالمياً، كجزء من القانون العام الذي يحكم العلاقات الدولية، برغم المخالفات الأخيرة على يد القوات الفاشية، التي جرت إدانتها بقوة وعلى شكل واسع.

شملت التعليمات البريطانية، استناداً إلى مناشدة روزفلت ثلاثة مبادئ أفصح عنها رئيس الوزراء خلال جلسة البرلمان في شهر يونيو عام 1938، ما يلي:

1. «إنّه مخالف للقانون الدولي، أن يتعرض السكان المدنيون إلى هجمات مقصودة».

2. «الأهداف التي تخطط/تنوي القوة الجوية ضربها، يجب أن تكون أهدافاً عسكرية

مشروعة، ويجب أن تكون الطائرات قادرة على تحديدها بتلك الصورة».

3. «يجب أخذ الحيطة والحذر عند مهاجمة الأهداف العسكرية، كي لا يلحق الأذى بالمدنيين ولا بمناطقهم السكنية».

طرحت بريطانيا هذه المبادئ على عصبة الأمم المتحدة، التي تبنتها وصدرت باسمها على وثيقة تمت المصادقة عليها بتاريخ 30 سبتمبر عام 1938.

ومع ذلك فإنّ أقلية مهمة في القوة الجوية البريطانية (قيادة القاصفات) وقوات الجيش الأمريكي الجوية USAAF كانتا تستعدان لأجيال عديدة وتأملان في توسيع نطاق الستراتيجية لقصف الأهداف الصناعية والسكانية، مخالفة لتلك القيود العالمية. وجدوا نداء روزفلت، الذي تمت الموافقة عليه، يحدّ من نشاطاتهم ومدعاة للأسف. ولكن لا أحد بما فيهم بريطانيا ولا هِتلر أراد أن يظهر بمظهر مَن يبادر إلى قصف المدن، الذي استنكره نداء الرئيس الأمريكي.

إنّ تطرّق روزفلت إلى «القصف الذي لا يرحم.... خلال السنوات الماضية»، كان إشارة لقصف اليابان للمدن الصينية، الذي بدأ بمهاجمة مدينة شنگهاي عام 1937، وقصف المدن الإسپانية مثل برشلونه وگرانولَر وگرنيكا من قبَل قوات إيطاليا وألمانيا الفاشية بين العامين 1937- 1938. في الحقيقة، أنّه قبلها بخمس سنوات وفي شهر يناير من عام 1932، اقتربت حاملة طائرات يابانية وأقلعت منها أسراب الطائرات لقصف القسم الصيني من الحي الدولي في شنگهاي، ممّا تسبب في قتل ما يقرب من 1000 شخصاً، وهو ما وصفته باربرا تُكمَن بأنّه «أوّل قصف مرعب للسكان المدنيين في فترة تعوّدوا فيها على مثل هذا القصف».

جرى قصف گرنيكا من قبَل فيلق الطيران الألماني بتاريخ 26 أبريل من عام 1937. كان دورهم سرّياً وأنكرته الحكومة النازية المحايدة، لكنّه استمر بكونه رمزاً للمعاناة الإنسانية نتيجة تلك الهجمات، خاصة بعد أن خلدها الفنان پكاسو بلوحته الشهيرة. كتب عنها»، شاهدت خلال 15 شهراً قتلاً متعمّداً للمواطنين الإسپان على يد الغزاة الفاشست. القتل يختلف عن الحرب». كما وصف هَمِنگوَي قصف الفاشست لبيوت العمال في برشلونه وقصف المدنيين من رواد السينمات في مدريد.

> ترى أشلاء الأطفال القتلى وقد تشابكت سيقانهم والتوت أذرعهم في الاتجاهات المتعاكسة وغطت وجوههم أتربة الانفجارات. ترى النسوة اللواتي لم يمكن التعرف عليهن أحياناً بسبب الارتجاج، وجوههنّ رمادية ويخرج سائل أخضر من أفواههنّ، قد

يكون ناجماً عن انفجار المرارة. تراهنّ أحياناً وكأنّهنّ خرق أسمال دامية. تراهنّ أحياناً وكأنّ أجسامهنّ قد قطعها ساطور قصاب مجنون. ترى ذلك ويتولد لديك حقد وكره لهؤلاء القتلة الإيطاليين والألمان، لا مثيل لهما لأيّ نوع آخر من البشر.

... حين استهدفوا مداخل دور السينمات والساحات أمامها وقت يخرج الروّاد منها في تمام الساعة 6 مساء، فذلك قتل متعمّد.

... ترى قنبلة وقد انفجرت وسط طابور من النساء وقفن لشراء الصابون. قُتِلت 4 نساء فقط لكنّ جثة إحداهنّ التصقت على الجدار وهي تسيل دماً، لم يمكن إزالته أو غسله بعد ذلك باستعمال خرطوم ماء قوي. استلقت الأخريات وكأنّهن حِزم سوداء وسط صراخ الجرحى وأنين المصابين.

كان ردّ فعل هَمِنگوَي الأخلاقي والعاطفي على ما شاهده، في رأيه جرائم قتل في زمن الحرب. كانت قيمه انعكاساً للقيم العامة في تلك الفترة، التي عبّر عنها الرئيس روزفلت بندائه بعد سنة. وكان ذلك في الحقيقة ما شجبته الحكومتان الأمريكية والبريطانية بشكل مخادع كاذب بسبب ما فعلتاه هما بالذات خلال الحرب، التي جرت بعد ذلك.

وعلى أيّة حال، لم يُكتب للاتفاقية، التي وُقعت في شهر سبتمبر من عام 1939، النجاح. إنّ قصف هِتلر لمدينة لندن عام 1940، وما أطلق عليه بلِتز Blitz، كان مخالفة صريحة لتلك الاتفاقية. ولكن بعد مرور سنة من قصف بلِتز ولأغراض عسكرية بحتة، فإنّ قادة بريطانيا المدنيين والعسكريين اعتمدوا رسمياً وبشكل متعمّد، رغم أنّ الرأي العام لم يكن عارفاً بذلك، ووسّعوا تكتيكاتهم لمواجهة هجمات هِتلر على لندن، وجعلوها السبب الرئيسي للهجمات في عمق ألمانيا منذ مطلع عام 19. وفي نفس الوقت ولأسباب عملياتية، وليس بسبب اكتشاف جديد لفاعلية تلك التكتيكات، انضمّ إليهم قادة سلاح طيران الجيش الأمريكي، الذين عبّروا عن كراهيتهم المبدئية لتلك الهجمات «المرعبة» ولأنّهم لم يجدوا صعوبة لعمل ما يحبونه في حالات الجو السيئ وخلال ساعات الليل للتغطية. كما انضمّ الطيران الأمريكي أيضاً للمشاركة في الهجمات على المدن في اليابان. ومنذ مطلع عام 1945، فإنّ استهداف المدن بقصد إنزال أكبر عدد من الخسائر البشرية، والذي أطلق عليه روزفلت «إنّها صنف من البربرية البشرية»، أصبح النوع الوحيد من الهجمات التي تقوم بها الطائرات القاصفة بإمرة الجَنَرَل كِرتِس لومي.

ظلت هذه السياسة خافية طيلة الحرب على الشعبين البريطاني والأمريكي لأنّ مواقف چَرچِل

وروزفلت ومن بعده ترومَن العلنية، أخذت بنظر الاعتبار وإلى أقصى قدر ممكن في ضوء الظروف الجارية، المبادئ القديمة الداعية لسلامة غير المحاربين من المدنيين وحمايتهم من الهجمات المتعمّدة. كان كلّ هذا الكلام كذباً وتضليلاً.

وبدلاً من ذلك وفي منتصف الحرب العالمية الثانية فإنّ الحكومتين اللبراليتين الديمقراطيتين سلكتا بشكل سرّي تكتيكات هِتلر لإرعاب المواطنين عن طريق قصفهم ومحو الفروق بين المحاربين وغير المحاربين، خلال عمليات القصف المذكورة. وعليه فقد نكثت كلتا الحكومتين بمبادئ «الحرب العادلة»، التي ادعيتاها هما ومن لحق بهما فيما بعد، رغم الادعاء الفارغ بالالتزام. كيف حدث هذا ولماذا، فأمران يجب إدراكهما لفهم التخطيط للحرب النووية اليوم.

* * *

جاء هوگو گروتيوس في القرن السابع عشر بمبادئ الحرب العادلة، التي عكست الرد «المتحضر» لعدوانية الحروب الدينية والدمار الذي أتت به في الماضي، خاصة الحرب، التي دامت 30 عاماً في ألمانيا. وُضِعت التقييدات على الحرب مبدئياً لوقف القتل المتعمّد لغير المحاربين وجرت المقارنة بين ذلك وبين حروب البرابرة. فمثلاً، استباح جِنگيز خان وبعده تيمورلنگ وآخرين غيرهما المدن وقتلوا كافة الذكور وقتلوا وسبوا النساء والأطفال، ووصل الحدّ بهم إلى جمع أكداس من جماجم ضحاياهم.

شهدت الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر تبنّي اتجاهات عبّر عنها أوّلاً أوگستين من جانب الكنيسة الكاثوليكية، استكمالاً لآراء توما الإكويني في القرون الوسطى. وضع ما يُدعى مبدأ «الحرب العادلة» الشروط للنظر إلى الحرب على أنّها مشروعة (jus ad bellum). وتطلب هذا سبباً عادلاً، في العادة الدفاع عن الوطن أو إعلان الحرب من قبل سلطة كفوءة. ولكن كانت توجد أيضاً ظروف تطلبت وجوب وضع شروط للسبل العادلة لتلك الحرب (jus in bello) ووضع تقييدات على أصناف العنف، إلى الحدّ الذي جعل الملوك المسيحيين أن يلتزموا بها وعلى الجنود المسيحيين طاعتها. تمّ العمل بهذه العقيدة الكاثوليكية في أغلب الكنائس الإصلاحية وتبعتها القوانين العلمانية الدولية.

حتى السلطة الشرعية لا يمكنها، بحجة الدفاع عن النفس، أن تسخّر قوّتها وتعمل ما تحبّ بإنزال العنف بالعدو. إنّ مثل هذه القوات ملزمة أن تحترم الفرق بين المقاتلين وغير المقاتلين، على أن يكون الأخيرون، وهم في العادة مدنيون، في مأمن من الغارات المُتعمّدَة.

استمرّ الأخذ بتلك المبادئ إلى حدّ كبير، حتى قيام الحرب العالمية الثانية. النداء الذي وجّهه روزفلت عام 1939، كان في الحقيقة تذكير كافة الأطراف المتحاربة بوجود فرق بين مبادئ السلوك المتحضّر خلال أوقات الحرب. وهي المعايير، التي جاء بها القانون الدولي. وعليه ما كان من المفاجئ أنّ مختلف المتحاربين، بما فيهم النازيين في ألمانيا، أظهروا قبولاً رسمياً لذلك النداء، رغم أنّ اليابانيين في الصين والألمان في إسپانيا كانوا يخالفون تلك المبادئ.

ولكن قبل حلول الحرب العالمية الثانية بوقت طويل، حدث شيء في طبيعة الحروب لتقليص التزام النخبة بتلك المعايير. قامت الثورة الفرنسية بعد مرور قرن على عهد گروتيوس، واستقطبت الجماهير الشعبية. في الحروب المبكرة منذ العصور الوسطى، باستثناء الحروب الدينية، التي كانت بربرية بشكل خاصّ، كان يشترك في الحرب عادة قليل من المرتزقة، في الغالب أجانب يعملون لصالح أمير من أمراء الحرب أو لصالح ولاية صغيرة. جاءت الثورة الفرنسية بفكرة الروح الوطنية وقصدت الشعور الحماسي المتزايد لقضية ما، بحيث أمكن تحريك عامة الشعب بطريقة لم تكن ممكنة خلال مئات السنين الماضية.

تزامن ظهور تلك الروح مع بروز فجر الفترة الصناعية، التي مكّنت من توفير السلاح لتلك الجماهير ونقلها من مكان لآخر وتزويدها بالمدافع وفيما بعد ببنادق گاتلِنگ والرّشاشات سريعة الإطلاق. كان استعمال سكك الحديد، بشكل خاصّ خلال الحرب الأهلية الأمريكية، قد مكّن من زيادة حدّة التدمير ومداه. عملت هذه التطوّرات سويّة لجعل كافة الشعب مساهماً في الحرب بين الولايات.

ساعد كلّ هذا في زرع البذور القاتلة، التي تفتحت فيما بعد وأطلق عليها اسم ستراتيجية القصف، وبروز مفهوم أنّ كلّ مواطن في البلد/الولاية الخصم أصبح هدفاً مشروعاً، لأنّ العديد من هؤلاء المواطنين قد ساهموا بطريقة أو بأخرى في المجهود الحربي. بدأ ذلك بشكل واضح في الصناعات الحربية وصناعات الذخيرة، لكن الأمر توسّع فيما بعد ليشمل الصناعات الأساسية، التي ساهمت في الحرب مثل صناعة الفولاذ والطاقة والفحم والبترول ووسائط النقل ووسائل الاتصالات. لقد ساهم كلّ ذلك في تلاشي التمييز بين المحاربين وغير المحاربين. غير أنّ ما ترتب على ذلك التشويش لم يظهر مباشرة.

كانت التطبيقات الأولى للتغير الذي حصل في مفهوم التمييز قد ظهرت واضحة خلال الحرب الأهلية الأمريكية، فكان ما قام به جنود شِرمَن لدى اكتساحهم لولاية جورجا وما صاحبه من إحراق للمزارع والمخازن وتدمير البنى التحتية. غالباً ما تُذكر عبارة شِرمَن الشهيرة «الحرب جحيم». لم تكن تلك العبارة قولاً مُتداولاً. نظريته في الحرب هي أن تجعلها أقرب ما تكون إلى الجحيم لكي تخور

عزيمة الخصم وتنتهي الحرب بأسرع وقت. الأفكار والاكتشافات التي جاء بها كانت معروفة في أوروپا وتمثلت في أعمال بربرية يتذكّرها سكان الجنوب الأمريكي إلى يومنا هذا. لقد سمح لقواته أن تستبيح مدينة أطلانطا وتدمير مخازنها وإحراق المدينة بكاملها. وحين تحرّك صوب المناطق الساحلية أحرق المخازن والمزارع والإمدادات اللوجستية ودمّر كافة التجهيزات العسكرية للعدو، والأهم أرعب السكان وجعلهم يدركون أنّه يجب عليهم دفع ثمن مساعدتهم للانفصال والسماح لقادتهم بأخذ ذلك السبيل والاستمرار في الحرب.

بالرغم من نذير فترة لحرب شاملة واسعة للقوات العسكرية ضدّ الاقتصاد والنظام الاجتماعي للعدو، وهي ستراتيجية لم يتمّ العمل بموجبها خلال الحرب العالمية الأولى، التي أبقت على المواجهات الميدانية بين الجيوش في ساحات الوغى، كانت أغلبية الخسائر محصورة بين صفوف جنود القوات المتحاربة وضباطها. لقد فقد ما يقرب من 9- 13 مليون عسكرياً حياتهم من أصل 65 مليون عسكرياً ساهموا في الحرب على المستوى العالمي.

دارت في أذهان الكثير من الجنود وضباطهم ممّن عاشوا تلك التجربة فكرة وجود انحراف في الأخلاقية العسكرية للتمييز بين المحاربين وغير المحاربين. وهو ما قيّد السلوكيات أثناء الحرب. ثمّ لاحظ العسكر في الحرب العالمية الأولى انتشار جثث القتلى في ساحات المعارك بين فرنسا وبَلجِكا وأماكن أخرى، فرأوا أنّها لم تكن معارك بل مذابح، رغم أنّ الجميع كانوا يرتدون بزّات عسكرية.

في اليوم الثاني لمعركة سومي في مطلع شهر يوليو عام 1916 قتِل ما يقرب من 20 ألف محارباً بريطانياً وجُرح ما يقرب من 40 ألفاً، إضافة للمفقودين. وخلال بضعة أشهر قليلة وصل العدد إلى أكثر من مليون قتيل بين الجانبين في المعركة، حيث كانت خطوط التماس تنتقل جيئة وذهاباً لعدة أميال فقط. خلال السنة التالية في معركة پاشِنديل أرسل الجنرَل السر دَوگلَس هَيگ جنوده للحقول في فلاندرز في منطقة دمّر القصف فيها التحصينات والسدود. وحين هطلت أمطار غزيرة تحوّلت تلك الحقول إلى مستنقعات وحل عميق لعدة أقدام. كانت كلّ قذيفة مدفعية تقع على الأرض تخلق بركة للماء وأصبح من المستحيل على الجانبين المتحاربين أن يتحرّكا فظلا في مواقعهما، التي تفصل بينها مئات الياردات من الأسلاك الشائكة ومخابئ المدافع الرشاشة ومرابضها. استمر الوضع على تلك الحال يوماً إثر يوم وشهراً إثر شهر. ذكر رئيس هيئة الأركان العامة أنّ الجنَرَل هَيگ، الذي ظل قابعاً في مركز قيادته في الصفوف الخلفية لم يشهد إطلاقاً ظروف الجبهة الأمامية وخنادقها وأسلاكها ورشاشاتها. ومع ذلك استمرّ يبعث الجنود ليلقوا حتفهم، حيث كانت الرشاشات تحصد الأرواح، لدرجة أنّه بلغ عدد الخسائر في صباح أحد الأيام حوالي 10 آلاف جندياً.

كان رجال الطيران يقومون بطلعاتهم الجوية فوق أرض المعركة للقيام بمهام استطلاعية أو تحديد مواقع المدفعية أو لإلقاء بعض القنابل أحياناً. حين نظروا إلى جثث الجنود القتلى وسط الأوحال، والأحياء منهم الذين تلاصقوا في الخنادق لتحاشي ضربات قنابل المدفعية المعادية، لم يشاهد الطيارون إلاّ حركة قليلة في تلك الخنادق من شهر لآخر. دفعتهم تلك المناظر البشعة إلى أن يعيدوا النظر في تفكيرهم لإيجاد طرق أخرى ووسائل جديدة لخوض الحروب بشكل أفضل ممّا كان يجري.

بالنسبة لأولئك الطيارين ومصممي الطائرات الكبيرة ومنتجيها، فإنّ الجواب كان واضحاً. إنّه الطائرات ذاتها، التي يجب أن تطير لمسافات أبعد وتحمل حمولة أثقل من القنابل، ممّا كان يُستعمَل في نهاية الحرب الكبرى. إنّ طائرات من هذا النوع ستمكّن من الحركة وتتجاوز الأسلاك الشائكة، وحتى عبر المعارك على الأرض التي وصلت إلى طريق مسدود، كي تهاجم الاقتصاد المدني الذي يساند قوّات العدو. لقد كانت تلك النظرة لما يُسمّى «القصف الستراتيجي»، أي الطيران فوق ساحات المعارك باستعمال طائرات بعيدة المدى لمهاجمة أهداف بعيدة في عمق المنطقة، التي تقاتل فيها قوات العدو.

كان من أوائل الداعين لهذا المفهوم جنرال إيطالي اسمه گوليو دَوهَت، الذي أصبح فيما بعد ولوقت قصير أوّل قائد لسلاح الطيران الإيطالي في عهد موسليني، وارتبط لوقت طويل في تصنيع الطائرة القاصفة جوفاني كاپروني. وضع دَوهَت عدداً من المبادئ التي سُمّيت بشكل مناسب «المعتقدات» لأنّها أصبحت عقيدة لمجموعة من الطيارين العسكريين المتمسكين بها بإصرار وحماس، كما لو أنّها مذاهب دينية. لقد أصبحت تلك «المعتقدات» من المتطلبات وإشارة للعضوية فيما يمكن أن نسمّيه «طائفة القوة الجوية».

من مبادئ مواصفات القاصفة، التي أعطتها امتيازاً، هي الضرب أولاً بقوة تدميرية كاسحة. أثيرت أسئلة حول ماذا يجب أن يُقصف أوّلاً، فأكّد دَوهَت على قصف المدن لسحق ما سماه «عامل المعنويات» لشلّ إرادة الخصم وكسر قدرته على مواصلة الحرب.

من الواضح أنّ توصيات دَوهَت خروج على مبادئ الحرب العادلة التي تجسدت بفقرات القانون الدولي، وبشكل محدّد الالتزام غير المشروط ضدّ قتل غير المحاربين. ومع ذلك فإنّ بين مسؤولي الطيران من أمثال دَوهَت في إيطاليا واللورد ترَنچَرد في بريطانيا والجنرَل بَلي مِچِل قائد العمليات الجوية الأمريكية في فرنسا، هم من رحّب بفكرة «الاستخدام الستراتيجي للقوة الجوية»، باعتبارها أفضل السبل لخوض الحروب.

بالنسبة للقوى العسكرية في القارة الأوروبية، حيث كانت السيطرة على القوات المسلحة في يد الجيش، ما كانت تلك الستراتيجية الجواب لتحاشي المأزق والطرق المسدودة في ساحات القتال، التي أصبحت سمة للحروب في ميادين القتال. غير أنّ ألمانيا أظهرت من خلال غارات الطيران المرعبة على لندن وهجماتها في فرنسا وتعاونها الميداني مع الدبابات أسلوباً فعّالاً ومشتركاً بينها وبين القوات على الأرض. لكنّ النظرية، التي فرضت نفسها والتي تبنّاها رجال الطيران، هي أنّ القوّة الجوية، إذا استُحسِن استخدامها يمكنها أن تحقق لوحدها النصر في الحرب، أو على الأقلّ ستكون العنصر الحاسم في تحقيق ذلك النصر.

إنّ منظور دَوهَت وبتشجيع من كاپروني، الذي استهدف بيع الطائرات الكبيرة لكافة الأطراف، بما فيها الولايات المتحدة، ركّز على صنع طائرات تستطيع حمل وزن ثقيل من المتفجّرات، حمولة طنّ أو أكثر، إلى عمق أرض العدو وإسقاطها على عاصمته ومدنه الرئيسية الأخرى. كان قصد دَوهَت والآخرين من أنصاره أنّ استعمال عدد من القاصفات يتراوح حملها بين المئات إلى الآلاف من أطنان المتفجّرات سيثير الهلع والفوضى في مراكز العدو، وسيخلق ضغوطاً سياسية على القادة والحكام للاستسلام ووضع نهاية للحرب. إنّ زيادة وزن المتفجرات بالأطنان سيزيل في الواقع مدنه من الوجود.

إنّ رجال الطيران، الذين جاءوا بتلك الستراتيجية في نظر كلّ شخص تقريباً برابرة لا ضمائر لهم، فهم سعوا لخلق قوة جوية تخرج عن سيطرة عمليات الجيش عليها. شعر رجال الطيران أنّ رجال المشاة والمدفعية لم يستوعبوا بعد الإمكانات الهائلة للقوة الجوية. إنّهم لا يدركون شيئاً عن محركات الطائرات وليس لديهم التصور بما يمكن تحقيقه باستعمال القاصفات بعيدة المدى. وأكثر من ذلك، فإنّ نوعية القاصفات التي أرادها أولئك الطيارون ستكون بالغة الأثر رغم كلفتها العالية. لقد عنى ذلك أنّ الشعوب الغنية فقط ستكون من يستطيع الحصول على هكذا طائرات وتشكيل أساطيل جوية، وأنّها حتماً ستزاحم الصنوف العسكرية الأخرى فيما يتعلق بأمور المخصصات المالية المرصودة لها، مثل إنتاج الدبابات والمدفعية والسفن الحربية. وعليه فمنذ البداية، كان الطيارون مأخوذين بفكرة استقلال القوة الجوية، التي سيكون لها جهاز بيروقراطي خاصّ بها، كي يحصل لها على نصيب من الميزانية المخصصة للأغراض العسكرية.

ثانياً، ولغرض تبرير وجود خدمة منفصلة للقوة الجوية، فإنّهم أرادوا أن يكون لهذه القوة مستوى عال من القيادة وسلطة خاصّة للتحكّم بميزانيتها تعكس اعتقادها الخاص بضرورة تحقيق النصر العسكري في مهامها الستراتيجية بشكل مستقل عن سلوكيات قادة المعارك الميدانية والبحرية.

وهذا هو ما دفعهم للاعتقاد والتعلق بحماس يشبه العقيدة الدينية، التي يجب عدم اختبارها رغم قلة الأدلة التي تساندها. تمثلت تلك العقيدة بما يلي: الاعتقاد بأنّ العدد الكافي من الطائرات التي تحمل حمولة ثقيلة من القنابل لمسافات بعيدة، يمكن أن يُنهي الحرب بشكل فعّال وسريع وتحقيق النصر المرجو. لقد حظيت نظرية دَوهَت باهتمام الطيارين في كافة بلدان العالم. ولكن في النهاية، فإنّ القيادة السياسية وحدها في بريطانيا وأمريكا هي التي تبنت فكرة بناء قوة لهذا الغرض.

تشير كلمة «ستراتيجية» المستعملة هنا إلى دور مستقل للقوة الجوية، يذهب إلى أبعد ممّا يوصف بالأهداف في ساحات المعارك، وسُمّي هذا الاتجاه بالقصف التكتيكي وتمّ استخدامه بتعاون وثيق مع الجيش. إنّ هذا الاستعمال الجديد لكلمة «ستراتيجي» قد تمت الإشارة إليه خلال تعرّضنا إلى ستراتيجية الأسلحة النووية ووصولها إلى المدى البعيد، في الغالب على شكل رؤوس نووية ثقيلة مقارنة بالأسلحة التكتيكية، أو الأسلحة النووية الصغيرة المخصصة «للمعارك الميدانية» أو تلك التي تكون قصيرة المدى ويكون وزنها أقلّ بكثير. لقد تمت الإشارة إلى هذين النوعين في «عقيدة» سلاح الطيران. تستهدف مثل هذه الستراتيجية الاقتصاد والمجتمع والسكان في حواضر العدو ومدنه.

وُجدت هذه الفكرة باعتبارها فكرة عسكرية لها ميزتان. منذ البدايات الأولى لظهورها، أكّد دَوهَت وترنچَرد «والد القوة الجوية الملكية» عل فكرة كسر الروح المعنوية لمواطني العدو والحيلولة دون مساعدتهم لمجهوده الحربي، بالرغم من أنّ ترنچَرد قد حثّ على تدمير القدرات الإنتاجية لدى العدو. أمّا في الولايات المتحدة، فقد ظهرت فكرة بين صفوف منتسبي القوة الجوية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها، تتمثل في الاستهداف الدقيق للأهداف الصناعية ذات الطابع المدني، ولكن قدراتها قد وُجّهت لصالح خدمة القدرات الحربية. من هذه على سبيل المثال مصانع بناء الطائرات.

كما اعتقد الأمريكيون أنّ جهاز نوردِن يمكّن قاصفاتهم من ضرب الأهداف بدقة متناهية، إلى الحد الذي يمكن الطيار من إلقاء حمولته من القنابل على «برميل للمخللات». في الحقيقة أنّ تدريباتهم كانت على ضرب مصنع بكامله أو جناح واحد فقط منه. اعتقدوا أنّ بالإمكان إسقاط قنابلهم ضمن ما سُمّي «نطاق الخطأ المحتمل» CEP، وهذا في أسوأ الأحوال يقصد إصابة الهدف ضمن 100 ياردة. عنى ذلك أنّ نصف القنابل الموجهة إلى نقطة معينة ستقع على مسافة 100 ياردة والنصف الآخر يقع خارج الطوق. في الحقيقة، أنّ كافة هذه التقديرات بعيدة كلّ البعد عمّا كان يجري من إسقاط للقنابل من الطائرات في تلك الأيام، حتى لو كانت تطير على ارتفاعات منخفضة. إنّ إسقاط قنبلة زنتها 500 پاوند على بعد 100 ياردة عن هدفها المقصود قد لا يسبب أضراراً لذلك الهدف. لكن تقديرات CEP لحوالي 100 ياردة يعني أنّه إذا تمّ إسقاط عدد كبير من القنابل، فهناك إمكانية عالية لتدميره.

كما اعتمدوا على افتراض آخر لنظرية دَوهَت، ومفاده بأنّه لا يوجد حقيقة شيء ضدّ هذه القاصفات يمكن إرساله لاعتراضها. وكما ذكر رئيس الوزراء البريطاني ستانلي بولدوِن عام 1932، «بأنّ القاصفات ستجد دائماً طريقها». اعتقد الأمريكيون أنّ دقة جهاز نوردِن لتوجيه القنابل، يمكّنهم أن يقصفوا من مسافات عالية للغاية وبشكل فعال لا تطاله دفاعات العدو. وعلى أيّة حال، فإنّهم اعتقدوا بأنّ عدداً صغيراً فقط يمكنه اختراق دفاعات العدو ويحقق ضربات مباشرة ماحقة ضدّ مصانعه وكسر معنويات مواطنيه.

بطبيعة الحال، سيقع ضحايا مدنيون، حتى ولو أنّهم لم يُستهدفوا في ذلك القصف. ستخطئ الطائرات المغيرة على المصانع أهدافها وتضرب المساكن والأحياء الشعبية. كما أنّ العمال المدنيين العاملين في تلك المصانع سيفقدون حياتهم نتيجة للحرب الاقتصادية، التي يُعتبرون بموجبها أهدافاً مشروعة. ولكنّ أيّ هجوم يستهدف المدنيين، سواء كان لتحقيق العجز في اقتصاد العدو أو لإضعاف الروح المعنوية لدى مواطنيه، هو مخالفة لمبادئ الحرب وأخلاقياتها الأساسية.

وعلى أيّة حال، فإنّ تبرير إضعاف الروح المعنوية أمر واضح في أذهان واضعي تلك الستراتيجية. من الأفضل أن تقتل بعض المواطنين لتنهي الحرب بسرعة، بدلاً من أخذ الحيطة والحذر والتفريق بين المقاتلين وغير المقاتلين، وبين ما هو مدني وما هو عسكري. وهذا ما دفع البلدان لإعادة مأساة الحرب العالمية الأولى. بعبارة أخرى، إنّ القناعات الأخلاقية بأنّ التسريع بإنهاء الحرب هو أمر أكثر إنسانية، في الحقيقة هو الطريقة الأخلاقية الوحيدة لخوض الحروب الحديثة. ونتيجة لذلك فإنّه في النهاية سيكون عدد القتلى لدى الجانبين أقلّ ممّا لو استمرت الحرب لفترة أطول، حسبما يدّعون.

يقوم هذا التبرير على الافتراض بأنّ القصف الدقيق يُنجَز باستعمال عدد قليل من القنابل. وهذا الافتراض مستند إلى عدة افتراضات أخرى في أذهان مخططي الحروب البريطانيين والأمريكيين.

- يمكن للقاصفات البريطانية والأمريكية أن تحافظ على معدلات منخفضة من الخسائر إذا قامت بغاراتها خلال ساعات النهار.

- إنّ بالإمكان تحقيق القصف الدقيق خلال ساعات النهار لتدمير قواعد العدو ومصانعه.

- بإمكان الطيارين أن يهتدوا إلى مواقع المدن والمناطق الصناعية واستهدافها بدقة

خلال ساعات الليل، إذا كان ذلك ضرورياً، وتدمير مصانع العدو.

- بالنسبة للأمريكيين، فإنّ طائرات B17s، التي تطير بتشكيلات مكثفة وعلى ارتفاعات عالية في الجو، لتحاشي مدفعية العدو المضادة للطائرات، تحمل من السلاح الكافي للتصدي إلى أيّة طائرات تعترض طريقها وتقليل الخسائر، وقت ساعات النهار دون الحاجة إلى طائرات مقاتلة بعيدة المدى لتقوم بحمايتها.

- في الوقت الذي يتمّ فيه تحاشي الدفاعات خلال الطقس الرديء فوق القارة الأوروپية، باستطاعة القاصفات الأمريكية اللجوء إلى استعمال أجهزة توجيه القنابل الدقيقة، التي تمّ تجريبها في صحراء أريزونا وأجواءها الصافية.

- مع توفر الدقة في توجيه القصف، فإنّ باستطاعة القاصفات الأمريكية تدمير شبكة المناطق الصناعة الأساسية في ألمانيا وشلّ إنتاجها الحربي.

- يتولى الطيران البريطاني بواسطة استخدام القنابل شديدة الانفجار والقنابل الحارقة، القيام بهجمات ليلية لاستهداف المدن وتشريد عدد كبير من المواطنين الألمان وكسر معنوياتهم لمواصلة الحرب.

- ستكون معنويات الشعب الألماني ومن بعده الشعب الياباني أكثر ضعفاً في وجه الغارات الكثيفة مقارنة بالصينيين والإسپان والبريطانيين أنفسهم.

إنّ كافة هذه الافتراضات، كلّ واحد منها، جزء من «العقيدة» التي يؤمن بها مخططو القصف الستراتيجي. لقد أثبتت هذه الافتراضات عدم صحتها بشكل لا جدال فيه خلال تجارب السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وهو الأمر الذي زاد من استمرار القصف بمعدلات أعلى وأشدّ كثافة.

* * *

خلال السنتين الأوليتين من الحرب العالمية الثانية، حين لم تشارك القوات الأمريكية في مسرح العمليات الأوروپية حتى عام 1943، تحمّل سلاح الطيران البريطاني العبء لوحده وشكّل جزءاً كبيراً من مجهود بريطانيا الحربي. في الحقيقة، أنّه بعد أن أبعِدت قواتهم من القارة الأوروپية إثر معركة دنكرك عام 1940، مثّل الطيران جهدهم الدفاعي الوحيد، الذي قدروا عليه. اعتمد جعل تلك الجهود فعالة أم لا، على الدوافع السياسية القوية. كان على البريطانيين مواجهة القناعة العامة التي

تولدت لدى العالم بأنّ هِتلر سيكسب الحرب، خاصّة بعد نجاحاته الأولى في ساحات المعارك في روسيا عام 1941. كانت فترة عامي 1940- 1941 في غاية الأهمية بالنسبة لهم لكي يظهروا إمكاناتهم أمام حلفائهم الأمريكيين بأنّهم منغمسون تماماً في الحرب وأنّهم حليف يجدر مساعدته. وفي نفس الوقت وبعد منتصف عام 1941 أرادوا أن يظهِروا للسوفيات بأنّهم يتحملون الخسائر وفي ذات الوقت ينزلونها في العدو الألماني، رغم أنّ جهودهم لم توازِ إطلاقاً الجهود على الجبهة الشرقية. اعتبر سلاح الطيران الملكي نفسه بأنّه الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الوطن. حين تمت مهاجمة الولايات المتحدة في نهاية عام 1941، كان لم يزل من المهم أن تظهر بأنّ مساعدة بريطانيا مسألة مهمة بالنسبة لأمريكا، وإعادة تسليحها يوازي رغبة أمريكا ذاتها.

اتفق اللورد ترنچَرد، الذي تمكن من تحقيق وضع مستقل للقوة الجوية البريطانية خلال الحرب العالمية، وهو أمر أخفقت في تحقيقه القوة الجوية للجيش الأمريكي لتصبح مستقلة باسم القوة الجوية للولايات المتحدة حتى عام 1947، مع دَوهَرت، بأنّ القصف الستراتيجي لا يستهدف فقط المؤسسات الإنتاجية للعدو، بل أيضاً الروح المعنوية لمواطنيه. كانا يشيران إلى ذلك باسم «عامل المعنويات» كما ورد في أدبياتهم. «العامل المعنوي أكثر قوة من العامل المادي بحوالي 20 مرة». ترك هذا انطباعاً خاصاً لدى القارئ الأمريكي بأنّ «العامل المعنوي» يشير إلى القتل المتعمد للمدنيين. وعليه فإنّ الاتفاقية التي وقعت عليها بريطانيا بتاريخ 2 سبتمبر من عام 1939، بعد يوم واحد فقط من نداء روزفلت، بأنّها ستمتنع عن قصف المدنيين، قد خلق صعوبة لقيادة الطائرات القاصفة وكيف تعدّ المملكة نفسها لبناء قاصفات قادرة على حمل أثقال كبيرة من المتفجّرات، مثل الطائرة لانكستر ذات الأربع محركات، التي بدأ العمل بإنتاجها في مطلع عام 1942.

لم يمِل هِتلر إلى العمل بموجب مبدأ القصف الستراتيجي ولم يستعدّ له. في الحقيقة لم تمتلك ألمانيا طائرة ذات أربع محركات. الحقيقة الأخرى، هي أنّ بريطانيا والولايات المتحدة كانتا تخططان لإنتاج هذا النوع من القاصفات منذ فترة الثلاثينات. أمّا في ألمانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا، فقد اعتبرت القيادتان العسكرية والمدنية تلك التوجّهات «كلاماً فارغاً، لأنّ المواطنين لا ينهارون بتلك السهولة. أضف إلى ذلك أنّ بناء مثل تلك الطائرات مكلف جدّاً، ولن يكون لها تأثير كبير. الطريقة الأفضل لاستعمال الطائرات هي مساندة القطعات المقاتلة والدبابات».

من وجهة نظر القوتين الجويتين لبريطانيا والولايات المتحدة، اعتُبِر مثل هذا التفكير المشار إليه أعلاه منقوصاً وضدّ صنف من القوات المقاتلة، خفياً ومفارقة تاريخية. ولكن عند إعادة النظر في الموضوع نجد أنّ القرار أعلاه كان صائباً. من ناحية الكلفة والفاعلية، فإنّ منطق القوة الجوية ببساطة

على خطأ. وعلى أيّة حال فإنّ بريطانيا وأمريكا وحدهما قد أعدتا نفسيهما لطرق تصميم القاذفات الثقيلة، التي تحمل لمسافات بعيدة المدى متفجرات ثقيلة الوزن. لم تكن تلك الجهود استجابة لعدوانية هِتلر. لقد بدأت الفكرة قبل وقت طويل سبق وصوله إلى السلطة.

أمّا هِتلر، فمن جانبه لم يكن راغباً في الخوض في هجمات مبكرة من هذا النوع عند بداية الحرب. ومع ذلك فإنّه خلال الشهر الأول للحرب قامت طائراته القصيرة والمتوسطة المدى بمهاجمة مركز مدينة وارسو، التي حاصرتها قواته. كان صحيحاً من الناحية التقنية أنّ المنع القانوني الذي سرى لفترة مئتي عام حول عدم استهداف المدنيين بشكل متعمد، قد أصبح له استثناء عملي. وهو أنّ المدن المحاصرة التي ترفض الاستسلام، المدن التي تدافع عن نفسها، يمكن أن تُقصَف باستعمال المدفعية بهدف إجبارها على الرضوخ. كان من الواضح أنّ هِتلر قد اعتبر غارات طائراته جزء من عملية الحصار، رغم أنّ القصف من الجو وليس بواسطة المدفعية الأرضية. لقد دافع النازيون عن تلك الغارات، ربما بصدق، ولم يعتبروها خروجاً عن التزامهم بنداء روزفلت في مطلع الشهر السابق. ومع ذلك ولغرض تحقيق تأثير سياسي مرعب وإظهار الضراوة، عرض الألمان أشرطة أفلام حول غارات طائراتهم على وارسو وهروب المدنيين على الطرقات خروجاً منها للنجاة بحياتهم. دفع هِتلر ومعه الشعب الألماني بكامله ثمناً باهظاً لأفلام الدعاية، التي كانت ناجحة في حينها.

وعلى أيّة حال، ما رغب هِتلر في بدء «ستراتيجية» لقصف المدن خارج مناطق الاشتباكات العسكرية. كان يعرف أنّ البريطانيين يستعدون لذلك، كما أنّه عرف أنّ مدنه ستكون عرضة لمثل تلك الغارات، ولم يكن راغباً أن تمُسّ الروح المعنوية والتأييد الشعبي الألماني لسياسته، نتيجة التعرض للغارات. في الحقيقة، إنّه وقع في السنة التالية أوامر لقادة المعارك في فرنسا وفيما بعد، قبل بدء حملة الغارات على لندن استعداداً لمهاجمة بريطانيا، أنّه يجب عدم استهداف المدن، دون موافقته شخصياً على فعل ذلك.

في الحقيقة أنّه خلال الثمانية أشهر الأولى على بدء الحرب، شعر كلا الجانبين فوائد تحاشي قصف المدن لأغراض انتقامية. وحتى بعد قصف وارسو وخلال فصل الربيع من عام 1940، ما كان البريطانيون مستعدين «لنزع القفازات». استعملت تلك العبارة في عملية اتخاذ القرارات من قبَل قيادة سلاح الطيران الملكي لكي تبدأ عملياتها بموجب ما رغب به ترَنچَرد والطريقة التي أرادها صديقه وِنستُن چَرچِل ووزير دفاعه لشؤون الحرب والطيران عام 1919، وقت كان ترَنچَرد رئيس أركان القوة الجوية.

لقد أراد هِتلر بهجومه على وارسو أن يكون ذلك درساً لمصير المدن التي «تعلن وقوفها في

وجهه». حدث نفس الشيء لمركز مدينة روتِردام بتاريخ 14 مايو عام 1940 حين حوصرت المدينة من قبَل الألمان. رفضت هولندا الاستسلام، وكانت المفاوضات جارية بهذا الصدد. طلب قائد القوات الميدانية الجنرَل رودولف شمِت إنزال ضربة جوية بالمدينة. وبعد وقت قصير من انطلاق الطائرات في طريقها لتنفيذ المهمة، أرسل شمِت طلباً عاجلاً لوقف الغارة لأنّ الأخبار وصلته بأنّ الحامية العسكرية في المدينة على وشك الاستسلام، لكنّ طلب الجنرَل جاء متأخّراً. لم يستلم نصف طياري الطائرات المغيرة الأوامر بالعودة إلى قواعدهم، ومضوا في تنفيذ مهمتهم فدمّروا مركز مدينة روتِردام. وهو الأمر الذي جعل القيادة العسكرية الألمانية تصدر اعتذارها للشعب الهولندي.

أشارت التقارير الأولية للصحافة الهولندية أنّ حوالي 30000 شخصاً قد لقوا حتفهم في تلك الغارات. الحقيقة أنّ العدد لم يتجاوز 1000ضحية. ومع ذلك فقد خلقت الأرقام العالية شعوراً قوياً لدى البريطانيين ودعتهم للإعلان بأنّهم ما عادوا ملتزمين بنداء روزفلت، ولا السياسة التي اتبعوها حتى ذلك الوقت. في اليوم التالي للغارة على روتردام، وبتاريخ 15 مايو قرّر مجلس الوزراء البريطاني إرسال قاصفاته للإغارة على ألمانيا لأوّل مرّة، ومهاجمة أهداف ستراتيجية في مناطق آهلة بالسكان. لقد نُزِعَت القفازاتُ.

* * *

لقد تابعت لوقت طويل ظاهرة القصف النازي المرعب للندن، وأدركت أبعادها من خلال اطلاعي على الدراسات السرية التي قامت بها مؤسسة راند لصالح القوة الجوية. من الدراسات الهامة، التي تركت أثراً واضحاً عليّ بشأن تبني سياسة القصف الجوي، هي الدراسة المعنونة، «الطريق إلى الحرب الشاملة: زيادة حدّة الحرب العالمية الثانية». أجرى الدراسة فرَد سَلاگر عام 1969، وهي دراسة غير سريّة مسجلة في راند برقم Report R-465-PR. الحقيقة أنّني اطلعت عليها باعتبارها وثيقة داخلية قبل ذلك بعشر سنوات.

تحدثت بشأنها عدداً من المرات مع فرِتز سَلاگر، كما كنّا نسميه. كان يبحث عن دروس يمكن للفرد أن يستخلصها من الحرب العالمية الثانية، لكي يعرف كيف يمكن أن يتصاعد الصراع النووي ويتطور من حرب تقليدية قد تتحول إلى حرب نووية. كان مهتماً بشكل خاص بقضية إمكانية جعل تلك الحرب محدودة وتحت السيطرة. من الأفكار التي وردت في ذهنه هي، كم من المرات تصاعد الصراع نتيجة لسوء الفهم أو سوء التفسير أو فشل القيادة في السيطرة، كما رأينا في مسألة الغارة على نوتِردام. وهي الغارة التي جعلت وِنستُن چَرچِل يبرّر قراره بعد تسلمه لمنصبة لمدة 4 أيام فقط ليصدر أمراً لسلاح الجو الملكي بالإغارة على المناطق السكنية في ألمانيا. وهو شيء أراده وآمن به لوقت

طويل. ذكر للوزير المسؤول عن إنتاج الطائرات الحربية بتاريخ 8 يوليو من عام 1940، «الشيء الوحيد الذي سَيُجبر هِتلر على الانسحاب والسقوط هو الهجوم المدمّر تماماً والفاني بواسطة القاصفات الثقيلة، التي ستنطلق من هذا البلد متجهة إلى وطن النازية. يجب أن نكون قادرين على أن نطغي عليهم بهذه السبل».

ومع ذلك، فقد كان ضرورياً في أذهان الرأي العام البريطاني والعديد من المسؤولين، أنّ تلك السياسة البريطانية كانت في إطار المعاملة بالمثل. صرّح چَرچِل، «هذه هي الطريقة التي نردّ فيها عليهم، وهي من حقنا الشرعي. في الحقيقة إنّها التزام أخلاقي مطلوب منّا القيام به. إذا كان بدأ هذا النوع من الحرب، فإنّه يتعيّن علينا أن نقابله بالمثل».

في اليوم الذي هاجمت فيه ألمانيا فرنسا ومنطقة البلدان المنخفضة، قصفت الطائرات مدينة فرايبَرگ الجامعية الألمانية. استنكر الألمان ذلك القصف باعتباره مخالفة لتأكيدات الحلفاء بعدم المبادرة لقصف المدن غير المحصّنة. كان القصف حقيقة قد وقع عن طريق الخطأ بواسطة طائرات لوفتواف الألمانية، التي ارتكب طياروها خطأً ملاحياً وظنوا أنّهم يقصفون أهدافاً في فرنسا. تطلب الأمر 40 عاماً، أي حتى سنة 1980، لكي يعترف قائد السرب بذلك الخطأ وبأنّه زوّر تقريره عن ذلك الهجوم.

إنّ النزعة لارتكاب مثل هذه الأخطاء ظهرت ثانية مساء يوم 24 أغسطس من عام 1940، حين خرجت القاصفات الألمانية عن مسارها وفق خطة لتدمير مصافي النفط على نهر التايمز، ودمّرت بدلاً من ذلك ضاحية سكنية في لندن. كان هِتلر حتى تلك اللحظة يحاول تجنّب شنّ غارات انتقامية، وأصدر أوامره الصريحة بعدم إسقاط القنابل على لندن، مع الاحتفاظ بذلك الحق في أيّ وقت قادم. لكنّ ذلك لم يوقف بريطانيا من إرسال قاصفاتها إلى برلين لأوّل مرّة في اليوم التالي، أي بتاريخ 25 أغسطس. شنّت بريطانيا 6 غارات من هذا القبيل خلال 10 أيام.

بعد الغارة رقم 5، صرّح هِتلر، «إنّنا سنردّ الصاع 100 صاعاً إذا اخترتم الاستمرار بشنّ مثل هذه الغارات. سنضرب لندن بشدة وبدون رحمة». لكنّ چَرچِل استمر بغاراته الجوية على برلين. وبعد أسبوعين من الغارة الأولى بتاريخ 7 سبتمبر حدثت الغارة الجوية الشهيرة، التي سُمّيت «حريق لندن» Blitz، فكانت هجمة الألمان الجوية الأولى المتعمدة على المدينة وذُكِر أنّها ردّ انتقامي للغارات البريطانية على برلين، في حين ادّعى البريطانيون أنّ غاراتهم كانت ردّاً على غارات ألمانيا المتعمّدة على لندن.

جرى في بداية القصف الستراتيجي البريطاني نقاش بين بعض الفئات، التي اعتقدت باستهداف معنويات السكان، وأنّ جزء كبيراً من قادة الطيران، وحتى قيادة القاصفات نفسها، رأوا أنّ بريطانيا ما زالت ملتزمة بالمبادئ الأمريكية. كان ذلك إشارة إلى ما كان يُطالب به الجنرَل الأمريكي بِلي مِچِل بضرورة ضرب المصانع وتدميرها، وليس الناس في حدّ ذاتهم. كانت المشكلة هي أنّه في مطلع عام ، اكتشف البريطانيون بشكل قاطع أنّ فرضية دَوهَت بأنّ في استطاعة القاصفات دائماً تحاشي دفاعات العدو الجوية، والنفاذ إلى المناطق في عمق أراضيه، لم تكن فرضية سليمة. لقد خسروا العديد من طائراتهم المغيرة خلال ساعات النهار، ولذلك لجأوا إلى الغارات الليلية.

كان لدى الألمان في البداية قدرات محدودة لاعتراض الطائرات المغيرة تحت جنح الظلام، إذ لم تكن تتوفر لديهم رادارات ليلية. وعليه كانت الطائرات البريطانية تقوم بغاراتها بشكل آمن. المشكلة التي اكتشفوها هي أنّ القيام بتلك الغارات الليلية لم يمكّنهم من تحديد مواقع المصانع ولا المدن الصغيرة أو متوسطة الحجم. كما وجدوا أنّ الأمر صعب للغاية حتى في الليالي المقمرة.

رغم أنّ طرق الملاحة الليلية قد تطورت بمرور الوقت، لكنّها كانت مشكلة إضافية. فحتى لو اهتدوا إلى المدينة المطلوبة، فإنّ قصف موقع معين فيها ليس سهلاً، وتطلب من الطيارين المناورة لتحاشي نيران المدفعية المضادة للطائرات. وفي النهاية أظهرت الصور الفوتوغرافية الاستطلاعية أنّ حوالي ثلث القنابل، التي أسقطوها «بنجاح» قد وقعت على بعد 5 أميال من الأهداف المطلوبة.

كان فِرمَن دايسُن فيزيائياً عمل فيما بعد في تصميم القنابل الذرية. عمل خلال الحرب العالمية الثانية كعالم رياضيات وأجرى بحوثاً حول عمليات القصف البريطاني. وصف نتائج مهام القصف من خلال تحليل الصور الفوتوغرافية الاستطلاعية وأين وقعت القنابل نسبة للمناطق التي استهدفتها. قام أحد طياري الاستطلاع بمسح منطقة قطرها 3 أميال «فلم يجد هدفاً مدمّراً فاضطر أن يوسع دائرة المسح إلى 5 أميال».

بالنسبة للمتفجّرات، فإنّ إلقاء قنبلة زنتها 500- 750 پاوند على بعد 100 ياردة من الهدف المطلوب، لن يكون لها أساساً أيّ ضرر. وعليه، إذا كانت القنابل الملقاة تسقط على مبعدة 1- 5 أميال، فإنّ الناس في المنطقة سوف لن يشعروا بأنّهم تعرضوا للهجوم. كانت نتائج التحليل قائمة على تقارير الملاحين المسؤولين عن إسقاط القنابل حول تدميرهم لهذا المصنع أو ذاك أو أنّهم دمّروا جناحاً معيناً من مصنع ما. بقي الأمر خفيّاً حتى كشفت طائرات الاستطلاع سپتفاير في وقت متأخر أنّ القنابل، التي أسقِطت لم تدمّر شيئاً، ما لم يكن ذلك عن طريق الصدفة.

لم تكن الولايات المتحدة خلال صيف عام 1941 قد دخلت الحرب بعد، غير أنّ الرّوس تعرضوا في ذلك الوقت للهجوم النازي الكبير. أراد البريطانيون حقاً مواصلة قصف ألمانيا. وحين اعترفوا باستحالة تدمير المصانع خلال الغارات الليلية، تحركوا لضرب نوع آخر من الأهداف. بدلاً من القلق حول تدمير مصنع لتكرير البترول أو مصنع لكريّات العجلات، حوّل سلاح الطيران الملكي تركيزه على وسائط النقل.

كان استهداف هذه الوسائط جزء من ستراتيجية القصف في وقت مبكّر. لكنّ السبب الذي جعلها أهدافاً أولية في ذلك الوقت بالذات هو أنّ محطات الشحن الرئيسية وساحات الخزن ونقاط تقاطع خطوط سير القطارات، تقع في مدن متوسطة الحجم. فإذا جُعلت هذه أهدافاً، فإنّ تدميرها يعني تدمير أشياء أخرى. القنابل لا تسقط عادة في الحقول، ولكن حين تستهدف المصانع، التي تقع على أطراف المدن، فإنّ الكثير منها يقع هناك. وستكون هناك «مكافأة» أخرى، هي مقتل بعض المدنيين. نعم مدنيون لكنّهم أعداء، ربّما شغيلة حرب، على الأقل البعض منهم.

كان من بين متخذي القرارات والمخططين، البعض الذي اعتقد بضرورة استهداف المواطنين. لكنّ هذا الرأي في عام 1941، كان موقف الأقلية في سلاح الطيران الملكي RAF.

قدّم سَلاگر تقييماً لهذا الأمر حين تحدث عن تاريخ هجمات سلاح الجو البريطاني استناداً إلى الوثائق الرسمية.

> إذا كانت هناك أيّة ستراتيجية للقصف على الإطلاق، فإنّ المدنيين سيقعون ضحايا وستتعرض لذلك المستشفيات والكنائس والمراكز الثقافية. إنّ قيادة الأركان الجوية، ويمثلها نائب الرئيس السّر رِچَرد پيرس، الذي اعتقد أنّ ذلك أمر محتّم ومرغوب به، على أن يظلّ جانبياً ونتيجة لتدمير الأهداف العسكرية، مثل محطات توليد الكهرباء وساحات الخزن في محطات سكك الحديد والمنشآت النفطية.

بعبارة أخرى، فإنّ الأمر مسموح لقتل المدنيين، إذا لم يكن ذلك عن طريق «القصد»، لأنّ الهدف هو تدمير محطة توليد الكهرباء.

> إنّ قيادة القاصفات وممثلها القائد العام السّر چالز پورتَل، اعتقدت في شهر سبتمبر عام 1940 أنّ الخسائر الثانوية في صفوف المدنيين يجب أن تكون مستهدفة. تمّ تبرير ذلك ردّاً على أعمال الألمان، كما في حريق لندن، ويجب أن تُبرّر أكثر باعتبارها ستراتيجية مطلوبة.

في الحقيقة، إنّ هذا التبرير لم تثبت صحته بدليل أنّ حريق لندن لم يحقق الغرض المطلوب منه فيما يتعلق بكسر معنويات الشعب البريطاني.

أشار سَلاگر لتعليمات بريطانية صدرت عام 1941 حول الأهداف الرئيسية في المدن الكبرى من أجل تحقيق تدمير كبير لها. وُجّهت التعليمات لقيادة القاصفات «لاستعمال نسبة عالية من المواد الحارقة وأن تركّز غاراتِها إلى أقصى درجة ممكنة على وحدات إطفاء الحرائق لمنعها من أداء مهامها لكي تظل الحرائق مستعرة لفترة أطول. علق سَلاگر بالقول، «إذا امتنع قائد أركان الطيران وأظهر علناً معارضة لضرب المدنيين، فيجب تذكيره على الأقل باتباع تكتيكات الألمان، التي أثبتت نجاحها في قتل المدنيين في المدن البريطانية».

في نفس الوقت، كان جوزَف گوبلِز، وزير الدعاية النازي يعلِن التفاصيل الدقيقة لتأثير ما دعاه النازيون «غارات الرعب». كان من السهل تجاوز ادّعاءاته باعتبارها دعاية عدائية، لكنّه كانت هناك شهادات لا يرقى إليها الشّكّ من قبل القساوسة في المناطق المحتلة وداخل ألمانيا ذاتها، عن الضحايا المدنيين الذين فقدوا حياتهم بسبب الحرائق والقنابل. واستناداً إلى تلك الشهادات الدقيقة فعلاً، فإنّ القسّ الأمريكي جون فورد وداعية السلام البريطانية فيرا برتين قد أدانا بقوة ما كان يجري. غير أنّ تفسيراتهما ونقدهما لسياسة القصف التي اتبعها الحلفاء، لم تلقَ آذاناً صاغية لدى المواطنين الأمريكيين والبريطانيين، لأنّ حكومتي البلدين قد أنكرتا تلك الاتهامات جملة وتفصيلاً.

في نهاية الحرب، ولدى إثارة الأسئلة حول تلك السياسات في البرلمان البريطاني والكونگرس الأمريكي ردّ ممثلو الحكومتين على الشكل التالي. «صحيح أنّه قُتِل بعض الناس الأبرياء خلال العمليات الحربية. ولكن هذه هي طبيعة الحروب في مختلف العصور والأزمنة. في الحقيقة إنّ قتل أولئك الناس الأبرياء أمر محزن ومؤسف، لكنّ الألمان هم من ابتدأ بتلك العمليات. إنّهم يشنّون حرباً عدوانية. لقد شرعوا بذلك ونحن نكيل لهم الكيل المطلوب».

في الحقيقة، إنّ المدنيين الذين فقدوا حياتهم ليسوا هم من بادر بالعدوان «واعتدى علينا». الحقيقة أيضاً أنّ المواطنين لم تكن لهم سيطرة ديمقراطية على سياسات بلدهم و«صُبغوا» بتلك التهمة. طبعاً، إنّهم شوهدوا وهم يساندون سياسة هِتلر حين كان يحرز الانتصارات. وعليه فإنّهم استحقوا إنزال العقاب بهم. ولكنْ، «إنّنا نعمل ما بوسعنا، في ضوء قيمنا الأساسية لكي نقلل الخسائر في صفوف المدنيين، وقت كنّا ندمّر المعامل وخزانات النفط ومُنشآت الموانئ، بأقصى قدر ممكن من الحذر في وجه نيران المدفعية المضادة للطائرات».

كان كلّ ذلك ادعاءً فارغاً وحزمة أكاذيب. غالط الكثير من المسؤولين في المناصب العليا في بريطانيا أنفسهم خلال عام 1941 حول ما كانوا يفعلون ولماذا فعلوه. ولكن جاء وقت توقفوا فيه عن خداع أنفسهم، رغم أنّهم استمروا يكذبون على الرأي العام طيلة الفترة المتبقية من الحرب. إنّ فترة الحرب الحديثة ونذيرها الأساسي، حسب اعتقادي، قد تمخّض عنها الخطر النووي، الذي ما زال يسكننا منذ مطلع يوم 14 فبراير من عام 1942.

لم يحدث في ذلك اليوم قصف للمدن، كما جرى لمدينتي شنگهاي وگرنيكا، أو أيّ مكان آخر. غير أنّ قصف المناطق المدنية الآهلة بالسكان كطريقة لخوض الحروب من قبل قوة صناعية كبيرة، يُمكن أن يُقال أنّه بدأ بتاريخ 14 فبراير عام 1942، وفق تعليمات بريطانية اطلعت عليها لأوّل مرة في مسودة بحث سَلاگر، التي قرأتها وأنا في مكتبي في راند عام 1959.

كانت الوثيقة تعليمات لقائد أركان الطيران الملكي وصودق عليها من قبل رئيس الأركان ولجنة الدفاع المدني:

إلى قيادة القاصفات

> يجب أن يركّز الهدف الأساسي لعملياتكم الآن على معنويات المدنيين في أرض العدو، خاصة الشغيلة في المعامل. يجب أخذ هذا الهدف بنظر الاعتبار، ونرفق بطيه قائمة بالأهداف، التي تمّ اختيارها لأغراض التدمير.

الأهداف الرئيسية في القائمة تشمل أربع مدن في منطقة حوض الراين Ruhr-Rhineland. كانت تلك هي البداية لتسمية المدن باعتبارها أهدافاً، وليست مصانع ولا أحياء، بل مدناً بكاملها. في طبيعة الحال، لم تكن المتفجّرات في تلك الأيام كافية لتدمير مدينة من قبل طائرة في غارة واحدة. تطلب الأمر اشتراك مئات الطائرات في عدد متلاحق من الغارات لإكمال المهمة. الأسلحة الذرية وحدها هي التي جعلت من الممكن تدمير مدينة كاملة باستعمال قنبلة واحدة تلقيها طائرة واحدة. وعندما تمّ وضع الخطط لاستعمال الأسلحة النووية، أشارت فقط إلى مدن كاملة باعتبارها أهدافاً. غير أنّ هذا الممارسة قد بدأت بصدور التعليمات المشار إليها، وما لحق بها من تعديلات كُتبت بخط اليد من قبل قائد الأركان الجوية، الذي «رغب في عدم وجود سوء فهم فيما إذا كانت الغارات الجوية يجب أن توجّه ضدّ مدن بحدّ ذاتها أو ضدّ أهداف معينة». كُتِبت ملاحظة توضيحية بالقلم الرصاص لتوجيه القائد الجديد لوحدة القاصفات الجنرَل آرثر هَرِس، الذي كان سيباشر مهامه في الأسبوع التالي:

> إشارة إلى التعليمات الجديدة بشأن القصف، اعتقد أنّه من الواضح أنّ الأهداف المطلوبة هي المناطق العامرة، وليست مثلاً موانئ رسو السفن ولا مصانع الطائرات... يجب توضيح ذلك، إن لم يكن مفهوماً.

لاحظ سَلاكَر أنّه، «يوجد خطر قليل لو لم يفهم قائد القاصفات هَرِس القصد من التعليمات، لأنّها تطابقت مع ما فضّله. فالرجل الذي أطلق عليه فيما بعد اسم (المغير هَرِس) قد اعتقد ولعدة سنوات، خاصة بعد أن درس غارات الألمان ضدّ مدينة كوفنتري، بأنّ تدمير مصنع معيّن ليس عملياً ولا يحدث التغيير المطلوب. اعتقد أنّ قاصفاته يجب أن تضرب مناطق أكبر، لأنّ ذلك سيترك أثراً أكبر على إنتاجية البلد، وليس تدمير مصنع بذاته، وأنّ تلك هي الطريقة الوحيدة لخوض الحرب - تدمير أكبر جزء ممكن من العديد من المدن الألمانية.

> أشار مؤرخا الحرب الجوية وَبستَر وفرانكلِن، إلى يوم 14 فبراير من عام 1942، حين صدرت مثل تلك التعليمات أنّه، «يوم مثقل في تاريخ الحرب الجوية». إنّه كذلك لكونه قد فتح الطريق للانقضاض على المدن الألمانية، وهو الأمر الذي جعل غارات طائرات لوفتواف الألمانية على المدن البريطانية تبدو وكأنّها ضئيلة بالمقارنة.

لكلّ طنّ من القنابل، التي ألقيت على إنكلترا خلال فترة 9 أشهر، أسقطت طائرات إنكلترا والولايات المتحدة، خاصة إنكلترا، ما يعادل 100 طناً من القنابل على المدن الألمانية. ونجم عن تلك الغارات مقتل أكثر من نصف مليون مواطن ألماني من المدنيين.

> لأوّل مرة في التاريخ، تشير تعليمات القصف إلى استهداف الأحياء السكنية في المدن، خاصة المكتظة جدّاً منها لتكون أهدافاً لحملة الغارات الجوية. باستثناء بعض التغييرات مثل إسناد غزو منطقة نورمندي، ظلت المدن الهدف الرئيسي لغارات سلاح الجو خلال السنوات المتبقية من الحرب.

استهدفت أكبر كمية من المتفجرات، التي أسقطها الطيران البريطاني خلال ما تبقى من فترة الحرب، مراكز المدن والمناطق المكتظة فيها، وليس المصانع ولا المنشآت العسكرية، التي تكون في العادة خارج المدن. وفي نفس الوقت دأب المسؤولون الكبار على الكذب والإنكار بشأن هذا الأمر في البرلمان وأمام الرأي العام في كلّ سنة من سنوات الحرب.

حين تعلق الأمر بقتل المدنيين، فإنّ الإقدام على ذلك سبق النوايا. غير أنّ التغيير في تلك النوايا

حقق اختلافاً كبيراً بحيث أصبح من الممكن قتل عدد أكبر من الناس باستعمال الطائرات، أكثر ممّا نجح فيه الألمان خلال فعلتهم في إحراق لندن، أو ما اقترفه البريطانيون في أواخر عام 1941. كان قرار يوم 14 فبراير من عام 1942 هو التفويض البريطاني وتعليماته لإنجاز المهمة.

الفصل الخامس عشر
إحراق المدن

خلال الفترة الأولى لمحاولة قصف المدن ليلاً، اكتشف سلاح الطيران البريطاني أنّ القنابل ذات الانفجارات العالية الشديدة لم تحقق الغرض المطلوب، حتى وإن استهدفت المناطق السكنية. بدأوا أوّلاً بضرب بيوت العمال المبنية بشكل متلاصق، لأنّ الحرائق تنتشر بشكل أسرع. فإذا أخطأت القنبلة بيتاً أصابت بيتاً آخر، لأنّ البيوت لا تقع في فناءات مفتوحة، كما في بيوت الطبقة الوسطى والغنية في المجتمع، حيث تُبنى بيوتهم متباعدة عن بعضها البعض، كما نجد في ضواحي سكن هؤلاء.

بدأوا يكتشفون أنّ النار وليس قوة المتفجرات هي التي تدمر المدن. في الحقيقة، إنّ القنابل ذات الانفجارات العالية المتأخرة بدأت تلعب دوراً لتحقيق الأهداف لأنّها عطلت وصول فرق إطفاء الحرائق ومنعت أفرادها من الاقتراب بعد أن فعلت القنابل الحارقة فعلها حين سقطت على البيوت. استعمل سلاح الطيران الملكي قنابل ثرمات المگنيسيوم، التي لا يمكن إطفاء الحريق الذي تحدثه باستعمال المياه. يجب بدلاً من ذلك استخدام الرمل. فاستعمال المياه يزيد من اشتعال الحرائق ويؤججها، لكنّ مثل تلك الحرائق يمكن إطفاؤها إذا وصل رجال المطافئ بسرعة إلى الموقع واستعملوا الرمال.

اختبر سلاح الطيران الملكي بنجاح نظرية طرحت منذ بعض الوقت، بأنّ أفضل طريقة لتدمير أجزاء كبيرة من المدن يمكن تحقيقه بالدمج بين قوى الطبيعة والتكتيكات التكنولوجية. ببساطة، يمكن اختلاق «عاصفة نارية» عن طريق الاستعانة بمسرى الرياح في المنطقة وتغيير اتجاهات هبوبها. لو تمّ إرسال عدد كاف من الطائرات لتلقي قنابل حارقة في منطقة ما، فإنّ عدداً من الحرائق ستبدأ بالاشتعال في نفس الوقت. يعقب ذلك إسقاط قنابل شديدة الانفجار المباشر أو المتأخّر لأنّها ستهدم هياكل البيوت كي تلتهمها النيران. وفي نفس الوقت، تقطع الطريق على سيارات فرق الإطفاء وتمنعها من الوصول إلى مناطق الحرائق، التي تظل مستعرة وتكوّن كتل لهُب تلتهم قسماً كبيراً من المدينة

المنكوبة.

وحين يحدث ذلك، فإنّه يتسبب في زيادة حرارة الهواء في المنطقة فيرتفع إلى الأعلى محدثاً منطقة ضغط منخفض، فتبدأ تيارات الرياح الباردة من المناطق المجاورة بالهبوب صوب منطقة الضغط المنخفض. في الحقيقة أنّ النار الموقدة تخلق تيارات هوائية تغيّر مجرى هبوب الرياح. تأتي التيارات الهوائية بالأوكسجين فيزداد سعير النار وتصبح المدينة تنوراً أو كتلة من النار. وهذا ما تقوم عليه النظرية. وبعد عدة محاولات، حققت التجربة نجاحاً في إحراق مدينة هامبُرگ ليلة يوم 27 يوليو عام 1943، ضمن عملية گُمورَه. لقد تبيّن أنّه باتباع هذه الخطة سترتفع درجات الحرارة إلى 1500 درجة فهرنهايت وسيموت كافة الناس الموجودين في دائرة النار، التي تغذيها الرياح التي ستهب بسرعة 150 ميلاً في الساعة.

أمّا أولئك الذين هرعوا إلى الملاجئ فسيموتون اختناقاً، إن لم يكن بفعل ارتفاع درجات الحرارة التي ستذيب كاربونات الكالسيوم في مكونات الإسمنت والكونكريت بفعل هذه الحرارة العالية فتتهاوى البنايات على من في داخلها. سيذوب إسفلت الشوارع وستجد فرق إطفاء الحرائق نفسها في حالات عجز تام لأنّ سياراتها لا تستطيع الحركة. وحين يهرع الناس هرباً من اللهُب، ولكنّ أين يهربون؟ فدائرة اللهُب شديدة للغاية وتمددت لكافة جوانب منطقة الموت. فقد ما يقرب من 44000 مواطناً من ساكني مدينة هامبُرگ حياتهم في تلك الليلة المرعبة.

ذكر أحد الأطباء الذين أشرفوا على معالجة الضحايا في أحد الملاجئ بعد الهجوم، فقال:

> وُجِدت جثث الضحايا على شكل كتل بشرية سوداء احترقت بفعل ذوبان الشحوم. تقلصت أحجام الجثث فبدت وكأنّ الضحايا ارتدوا ملابس كبيرة واسعة تفوق أحجامهم. كانت الجثث المنكمشة ضحايا للقنابل الحارقة... احتوى العديد من أقبية البيوت على بقايا رماد، وعليه تمّ تقدير عدد الخسائر.

شرح فِرمَن دايسُن كيف تمّ وضع تلك التكتيكات المقصودة:

> وصلت إلى مقر قاصفات القوة الجوية الملكية في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه للغارات على مدينة هامبُرگ مساء يوم 24 يوليو من عام 1943. لقد قتلنا 40000 مواطناً ألمانياً وخسرنا 12 قاصفة من قاصفاتنا. هذه أفضل نتيجة حققناها لحدّ الآن. لقد استطعنا لأوّل مرة في التاريخ أن نخلق عاصفة نارية قضت على الناس، حتى الذين

كانوا في الملاجئ. أصبح عدد الخسائر يعادل عشرة أضعاف العدد المتوقع من الخسائر في هجوم لا يخلق عاصفة نارية.

لم يفهم أحد حتى اليوم كيف ولماذا بدأت تلك العاصفة النارية. حاولنا في كلّ غارة جديدة أن نزيد من شدة عاصفة النار لكنّنا نجحنا مرتين فقط. مرة في هامبُرگ وأخرى في درِسدن. ربّما حدث ذلك لأنّ طائراتنا أطلقت قذائف لتغيير حالة الطقس السائدة فوق تلكما المدينتين.

كما ذكر في مكان آخر.

كانت عاصفة النار في درسدن هي الأسوأ. ولكن من وجهة نظرنا، كانت ضربة حظّ. لقد أغرنا على برلين 16 مرّة بنفس القوة التي أغرنا فيها على درسدن. حاولنا في كلّ مرّة أن نخلق عاصفة نارية. لم يتميز الوضع في درسدن بشيء سوى أنّ كافة ما خططنا له جرى حسب الأمر المطلوب. كان الأمر يشبه محاولة ضرب كرة لعبة الگولف لإدخالها في الحفرة. من المؤسف أنّه كانت لدرسدن أهمية عسكرية قليلة وأنّ المذبحة جاءت في وقت متأخر جدّاً، ولم يكن لها تأثير على مجريات الحرب وأوضاعها.

هاجمت طائرات سلاح الجو البريطاني مدينة درسدن مستعملة قنابل المگنيسيوم مساء يوم أربعاء الرماد الموافق 13 فبراير من عام 1945. قامت القاصفات الأمريكية في اليوم التالي بالإغارة على المدينة مستعملة قنابل شديد الانفجار والقنابل الحارقة في وضح النهار، يوم عيد فالنتاين. في اليوم الذي تلاه استعملت قنابل دخانية كوّنت طبقة كثيفة من الغيوم فوق المدينة.

قدّم الكاتب كُرت فونگون وصفاً سريالياً للغارات على درسدن في كتابه «المسلخ رقم 5»، حين كان هو نفسه أسير حرب في مسلخ ضمّ معه عدداً آخر من السجناء أثناء الليل. حضر في اليوم التالي لينقل جثث القتلى، الذين خوت أجسادهم إلى ما يشبه أصابع الكعك. لقد جفّت أجسادهم بفعل الحرارة المنبعثة من عاصفة النار، التي وصل سعيرها إلى ما يقرب من 1500 درجة فهرنهايت.

درسدن هي سابعة أكبر المدن في ألمانيا، ولم تتعرض للقصف من قبل خلال سنوات الحرب. فيها جامعة ذات تاريخ عريق، وفي وقت الغارة كانت ملأى باللاجئين الذي فرّوا من قراهم ومدنهم الصغيرة أمام زحف الجيش الروسي وهو يتقدم صوب ألمانيا. ونتيجة لذلك احتلت أعداد غفيرة لم

يُعرف عديدها من أولئك اللاجئين البنايات والحدائق العامة. لم يزل عدد ضحايا مجزرة حرق المدينة مجهولاً لحدّ الآن. كانت هناك تقديرات تفاوتت ما بين 100000 ونصف مليون شخصاً. حين زرت عام 2016 النصب التذكاري لضحايا القصف الناري للمدينة، قيل لي إنّ الباحثين الآن يعتقدون أنّ تقديرات الشرطة الأولية كانت صحيحة بحدود 25000. لكنّ گوبلِز ولأغراض الدعاية أضاف صفرين للرقم المذكور، فصدم العالم فعلاً بالرقم 250000 ضحية. في الحقيقة، كانت أعداد الضحايا أكثر في المدن الألمانية الأخرى وتفاوتت بين 40000 و50000 في عاصفة النار، التي التهمت هامبُرگ.

كان الجدل الكبير، الذي أحاط بالغارات على درسدن في وقتها واستمرّ فيما بعد، جزئياً بسبب الأرقام المبالغ فيها للمذبحة التي لم يُسبق لها مثيل في تاريخ أوروبا، خاصّة وأنّ شعور المواطنين في القارة بأنّ الحرب أوشكت على الانتهاء، وأنّ تلك الغارة ما كان لها أيّ مبرّر. ولكن كان هناك شيئاً ما تعلق خاصّة بتقرير وكالة الأسيوشيتد پرس في يوم 18 فبراير من عام 1945. نقلت الوكالة عن ضابط في سلاح الطيران البريطاني، بأنّ قادة السلاح الجوي للحلفاء، قد اتخذوا «القرار الذي كنا ننتظره لوقت طويل لاعتماد قصف مُرعب لمراكز السكان الألمان وضربها بطريقة عديمة الرحمة بغية الإسراع بإحلال المصير المشؤوم لزعيمهم هِتلر».

إنّ عبارة «القصف المرعب» قد وردت في تقرير رسمي، وأنّ الضابط المعني لم يستعمل تلك العبارة بالضبط، رغم تأكيده على كسر الروح المعنوية في مناطق القصف المستهدفة. أثارت تلك العبارة نوعاً من الإحراج لدى القادة الكبار للعسكر في بريطانيا وأمريكا، خصوصاً بين ضباط العلاقات العامة. لقد تحاشوا استعمال مثل تلك العبارة في تقاريرهم لمواطني البلدين، لأنّ تلك العبارة قد استعملتها الدعاية النازية لوصف أفعال البريطانيين والأمريكيين. كما استعملتها بعض المصادر الكنسية وتردّدت في أروقة البرلمان عند الحديث عن «مناطق القصف». لقد أنكروا أيّة نوايا لإرهاب المدنيين أو إرعابهم، أو أنّه حدث تغيير في تكتيكاتهم لضرب الأهداف. بطبيعة الحال، كان إنكار التغيير صحيحاً. بتاريخ 3 فبراير من عام 1945، أرسل الجنرَل سپاتز، قائد القوات الجوية الأمريكية في أوروپا 900 قاصفة لضرب برلين بعد تعطيل أجهزة الرادار والرصد الألمانية، وقُدّر أنّ حوالي 25000 مدنياً راحوا ضحايا تلك الغارات، التي لم تخلق عاصفة نارية.

بتاريخ 21 فبراير وقبل يوم من **عملية كلاريون** تمّ إرسال آلاف الطائرات الأمريكية إلى جانب طائرات سلاح الجو البريطاني لضرب الأهداف عبر ألمانيا والنمسا وإيطاليا، بما فيها مدن صغيرة مثل هايدِلبُرگ وگوتنِگن وبادِن بادِن. أخبر سپاتز جنرَلاته، «يجب أخذ الحيطة والحذر كي لا

نعطي أيّ انطباع بأنّ هذه الحملة تستهدف، أعيد تستهدف، السكان المدنيين، أو يُقصَد منها تروعيهم». في اليوم التالي، أخبر وزير الحربية ستِمسُن الصحفيين قائلاً»، سياستنا لم تكن إطلاقاً أن نوقع قصفاً مرعباً بالمدنيين».

أثار ذلك الضجيج رئيس الوزراء چَرچِل، الذي صادق قبل سنوات على فكرة هجمات «الإبادة» وساند تكتيكات قيادة القاصفات منذ ذلك الحين، فجعله يكتب مذكّرة سريّة إلى رئيس أركان الجيش البريطاني بتاريخ 28 مارس عام 1945، عبّر فيها عن اختلافه مع قائد القاصفات هَرِس:

> يبدو لي أنّ اللحظة قد حانت لطرح السؤال المتعلق بقصف المدن الألمانية، وإن كان ذلك لغرض زيادة الرعب، بموجب عدة أعذار، يجب أن يُعاد النظر فيه.... إنّ تدمير درسدن يظل سؤالاً هاماً يتعلق بسلوكية قصف الحلفاء... أشعر بالحاجة إلى التركيز الدقيق على الأهداف العسكرية، مثل خزانات النفط وطرق الاتصالات، التي تقع خلف خطوط التماس في منطقة المعارك، بدلاً من إثارة الرعب والتدمير غير المبرر، مهما كانت فاعليته ونجاحه.

لم يأخذ قائد الأركان ولا هَرِس بتغير موقف چَرچِل. في اليوم التالي وبتاريخ 29 مارس، ردّ هَرِس على وزارة القوة الجوية:

> 1. ... افترض أنّ وجهة النظر المطروحة هي كالتالي: لا شكّ أنّنا في الماضي كان عندنا ما يبرر مهاجمة المدن الألمانية. كان فعل ذلك أمراً مثيراً للاشمئزاز. والآن والألمان يتذوقون طعم الهزيمة، فباستطاعتنا التوقف عن المضي في تنفيذ تلك الغارات. هذا أمر لا يمكنني قبوله. الهجمات على المدن كغيرها من العمليات الحربية أمر غير مقبول، ما لم تكن لها مبرراتها الستراتيجية. هذه الغارات لها مبرراتها الستراتيجية، لأنّها ستقصّر أمد الحرب، وتحمي بذلك أرواح جنود الحلفاء. في ذهني أنّه يجب قطعاً ألاّ نتخلى عن هذه الغارات ما لم نتأكّد من زوال الخطر ضدّ قواتنا. أنا شخصيّاً أنظر لكافة المدن الألمانية المتبقية ولا أعتبرها تساوي واحدة فقط من روائع العمارة البريطانية.

في ضوء وجهات النظر هذه وبفعل الضغوط التي قوبل بها من رئاسة الأركان، سحب چَرچِل مذكرته الداخلية تلك، والتي وجهها للقيادة الجوية واستبدلها بعد 4 أيام بأخرى أعاد فيها صياغة الأولى بحيث حذف منها أيّة إشارة إلى «الرعب والتدمير غير المبرر».

* * *

في مؤتمر الدار البيضاء، الذي عُقد في عام 1943، وحضره الرئيسان روزفلت وچَرچِل، تمّ الاتفاق على أن تستمرّ بريطانيا في غاراتها الليلية، في حين يركّز الطيران الأمريكي على الغارات النهارية والتصويب الدقيق، على أن يكون هناك تعاون مشترك في تلك العمليات. حاول چَرچِل في هذا المؤتمر أنّ يجرّ الأمريكيين للمشاركة في الغارات الليلية على مختلف المناطق، غير أنّ رئاسة الأركان رفضت ذلك الطلب. اعتقد العديد من الضباط الطيارين الأمريكيين أنّ حلفائهم البريطانيين كانوا يمارسون عمليات قتل جماعية.

الأكثر من ذلك، استمر الأمريكيون باعتقادهم أنّ جهاز نوردِن لتوجيه القنابل في طائراتهم، التي تطير على ارتفاعات شاهقة، كان قادراً على العمل بأكمل وجه خلال ساعات النهار. وهو أمر عجز الطيران البريطاني عن تحقيقه في الفترات الأولى من الحرب بقصد ضرب الأهداف وإلحاق الأضرار بالمصانع الألمانية. شكّكَ البريطانيون بتلك الادعاءات وبعد وقت طويل، حين تمكّن الأمريكيون من الحصول على صور فوتوغرافية لمناطق القصف، اكتشفوا أنّ حلفائهم كانوا على صواب. فجهاز نوردِن، الذي طوروه وصرفوا عليه المبالغ الطائلة، التي قاربت كلفة مشروع مانهاتِن لتطوير القنبلة الذرية، تطلب رؤية الهدف بوضوح. وعليه يكون غير فعال حين تكون السماء ملبدة بالغيوم. إنّ الظروف الفعلية بوجود النيران المضادة للطائرات والطائرات الاعتراضية والسماء الملبدة بالغيوم، أمور لم يتعود عليها الطيارون وقت كانوا يتدربون في أجواء أريزونا الصافية. كما أنّ القاصفات الأمريكية، التي كانت تطير على ارتفاعات شاهقة لم تصب أهدافها المطلوبة. إنّ نماذج القصف الأمريكية على الأرض وتأثيرها على السكان المدنيين لم يختلف في شيء مقارنة بمناطق القصف البريطانية.

وأكثر من ذلك، فإنّ الغارات خلال النهار في عمق ألمانيا، دون وجود أسراب من طائرات الحماية، قد أدى إلى خسائر باهظة في القاصفات. وكما ذُكِر في شوَينفورت ورَگنزبُرگ، فإنّه بتاريخ 17 أغسطس من عام 1943 أسقِطت 60 قاصفة أمريكية بفعل النيران الأرضية من أصل 346 قاذفة شاركت في الغارات. كما أصيبت 60 قاصفة أخرى بأضرار بالغة جعلتها غير قادرة على الطيران مرة أخرى. كانوا يخسرون أعداداً من الطائرات لم يقدروا تعويضها. في غارة أخرى على مصنع لمحمّل كريات العجلات في شوَينفورت أيضاً في شهر أكتوبر تمّ إسقاط 60 قاصفة أخرى شكلت [illegible]% من مجموع القاصفات المغيرة المشاركة في ذلك الهجوم. صدرت الأوامر بعدها بإيقاف القيام بمثل تلك الغارات لمدة أربعة أشهر.

وبناء على ذلك، بدأ الأمريكيون يشنون غارات ليلية، فاكتشفوا ما كان يعمله البريطانيون خلال السنوات الثلاثة أو الأربعة الأولى الماضية. إنّهم لم يستطيعوا ضرب أيّ شيء خلال الليل سوى المناطق الكبيرة. بحلول فصل الربيع من عام 1945، لم تتحوّل القوة الجوية الأمريكية تماماً إلى ضرب المناطق، وهو ما كان يفعله سلاح الطيران البريطاني البريطاني منذ عام 1942. ولكن كان هناك المزيد من «الغارات العمياء» من خلال الغيوم الكثيفة وساعات الطقس السيئ، التي نادراً ما تظاهروا بأنّها غارات استهدفت مصانع معينة أو أجزاء محددة من مدينة سيئة الحظ.

التقنيات الذكية، التي لجأ إليها الأمريكيون والبريطانيون لإبادة السكان المدنيين عن طريق إحراق المدن، برزت من خلال قلب معادلة السلام رأساً على عقب. اقتل المدنيين كي تنهي الحرب وتحقق السلام! حاول رؤساء شركات التأمين، الذين استهدفوا إيقاف انتشار النار والحرائق، أن يقللوا من كلفة التعويضات التي يدفعونها، فأثبتوا قدراتهم الإبداعية بتقديم النصح حول التراجع عن تلك الخطط وايقافها. حضر عالما الاقتصاد ولت روستو وكارل كيسُن إلى مقرّ القوة الجوية في لندن، باعتبارهما خبيرين في قضايا الاقتصاد وكيف تعمل عناصره وعلى ماذا تدلّ مؤشراته المتداخلة، وكيف يمكن لعمليات القصف والإحراق أن تفككه وتفضى إلى انهياره. برز ذلك تدريجياً من خلال السعي غير المعلن من قبل قيادة القاصفات، عن كيفية تحطيم المجتمع. واجه محللو العمليات أسئلة من قبيل الخلط المطلوب من المتفجّرات ومختلف أنواع المواد الحارقة لتحقيق أفضل النتائج المطلوبة بكلفة أقلّ من أجل إحراق العمال الألمان وعوائلهم وهم أحياء.

وبطريقة ما أصبح إحراق المدن شيئاً يشبه علماً من العلوم. المواد الحارقة من صنف M-50 ثرمايت، التي استخدِمت بكثرة في أوروپا، لها قوة كبيرة على النفاذ. في اليابان مثلاً، استعمِلت لتنفذ من خلال الجدران وهياكل المباني وتنفجر في طبقات الأرض تحتها. كان أقوى سلاح من هذا النوع قد استعملته اليابان M-69، وهو عبارة عن قنبلة صغيرة يوضع عدد منها داخل أسطوانة يتم إلقاءها على المكان المطلوب. ضمّت كلّ أسطوانة 38 قنبلة إحراق تتطاير إلى كلّ صوب ومكان. يُضاف إلى ذلك إطلاق قنابل متأخرة الانفجار، قد تنفجر بعد دقائق أو ساعات. والغرض منها تأخير وصول وحدات إطفاء الحرائق وتعطيل خدماتها. تعوّد الناس أن يبتعدوا عن قنابل الثرمايت والناپالم الصغيرة حين تقع على الأرض، رغمّ أنّه يمكن إبطال مفعولها بتغطيتها بالرمل.

* * *

لا بُدّ لنا أن نتحدّث عن كُرتِس لومَي ودوره التاريخي. في الوقت الذي تمّ فيه قصف مدينة درسدِن من قبل الطيران الأمريكي والبريطاني، كان رئيس أركان سلاح الطيران الأمريكي هاپ

آرنولد ونائبه لورِس نورستاد يراجعان ستراتيجية قصف اليابان. اعتقدا أنّ لَومَي سيوافق على ذلك الرأي ويسانده.

لم تكن تلك فكرة جديدة لدى سلاح الطيران الأمريكي كي يستخدمها في اليابان. كانت تأثيرات **زلزال كانتو الكبير**، الذي ضرب مدينتي طوكيو ويوكوهاما عام 1923 وخلف حرائق مدمرة في المدينتين المذكورتين، قد حظي باهتمام المخططين لعمليات القوة الجوية حول أنجع السبل للاستخدام في اليابان. وبعد سنة من ذلك، أي في عام 1924، وبعد تجريب تلك الطرق، أشار الجنرَل بِلي مِچِل في تقرير له أنّ أيّ هجوم جوي سيكون «ماحقاً» لأنّ مدن اليابان «مكتظة» بالسكان وأنّها مبنية من الورق والأخشاب وغيرهما من المدن القابلة للاشتعال». في ثلاثينات القرن الماضي، قال مِچِل، «إنّ هذه المدن... تشكّل أهدافاً جوية مثالية لم يشهد لها العالم من قبلُ مثيلاً... ستقضي القنابل الحارقة على المباني وتحيلها إلى أكوام من الرماد خلال وقت قصير».

كانت الدراسات، التي أجريت في الثلاثينات في **معهد التكتيكات الجوية للحروب**، حول إمكانية شنّ غارات على اليابان، تختلف عن الستراتيجيات المحتملة «للقصف الدقيق» في أوروپا. ما كانت اليابان في حينها على قائمة الأعداء. ولكن تمّ الرجوع إلى تلك الدراسات بعد 15 نوفمبر من عام ، أي قبل 3 أسابيع من الهجوم على پِرل هاربر. عقد الجنرَل جورج مارشَل اجتماعاً «غير معلن» قدّم خلاله تقريراً لسبعة من الصحفيين الكبار في العاصمة واشنطن، بما فيهم روبَرت شِرَود وأرنست لِندلي. أشارت سجلاتهما عن ذلك الاجتماع ونقلاً عن مارشَل وعده بأنّه لو قامت حرب مع اليابانيين «فإنّنا سنقاتل بضراوة ودون رحمة. إنّ قِلاعنا الطائرة، والمقصود بها طائرات B-17s، ستُقلع مباشرة لتحرق مدن اليابان الورقية. ليس هناك أيّ تردّد لقصف المدنيين، سيكون تدميراً شاملاً.

يستعيد المؤرخ جون دَوَر القضية فيذكر، «في يوم 19 نوفمبر، وبعد 4 أيام من صدور تعليمات مارشَل للعاملين في جهازه، وأيضاً بلغة مفصّلة، أن يتمعّنوا في دراسة الخطط «لشنّ هجمات حارقة شاملة تلتهم هياكل الأخشاب والورق في المناطق السكنية في المدن اليابانية المكتظة»».

بالرغم من وجهة النظر طويلة الأمد لإحداث زلزال يماثل زلزال عام 1923، الذي تبعته حرائق شاسعة في اليابان، فإنّه بالنسبة لقيادة الوحدة الجوية رقم 21 للقاصفات المتواجدة في القاعدة الأمريكية في جزر ماريناس القريبة من جزيرة گوام في المحيط الهادي، كانت اليابان ببيوتها المبنية من الخشب والورق في شهر أكتوبر عام 1944 ضمن مدى تلك القاصفات، التي لديها تعليمات بالهجمات الدقيقة ضدّ الأهداف الصناعية في اليابان، خاصة مصانع الطائرات. كان قائد القاعدة العميد الطيار هيورد هانسِل، وهو أحد واضعي مبادئ القوة الجوية للقصف الدقيق من ارتفاعات شاهقة

خلال ساعات النهار. غير أنّ هذا القائد اعترض على القصف الناري باعتباره منافياً للأخلاق وليس له ضرورة عسكرية. وبسبب موقفه هذا، نُحّي عن منصبه وعُيّن محله رئيس الأركان الجوية في واشنطن اللواء الطيار نورستاد، الذي فضّل التدمير الكامل للمدن اليابانية باستعمال القنابل الحارقة والدقيقة التصويب. بتاريخ 6 يناير من عام 1945 زار نورستاد مقرّ هانسِل في گوام وأبلغه بتنحيته عن منصبه، وتعيين الجنَرَل لَومَي بدلاً عنه.

لَومَي هذا رجل شجاع للغاية وذو قامة طويلة. كان ضابطاً متميزاً قادراً على فرض تعليماته ويطلب ممّن يعملون معه الولاء الكامل. من بين الصفات الأخرى، التي تميز بها، هي مبادرته بوضع تكتيكات تفرض على الطيارين التابعين لإمرته أن يحافظوا على تشكيلات معينة وعدم القيام بمناورات لتحاشي استهداف نيران المدفعية المضادة لطائراتهم. كما أنّ أيّ طيار تُسقَط طائرته ويعود للقاعدة سليماً يخضع لمحاكمة عسكرية. كان يقود أحياناً بنفسه سرب القاصفات المهاجم، كما فعل في الغارة على ريجنبُرگ، حين أسقِطت 24 قاصفة من نوع B-17s من أصل 146 طائرة. كان مطلوباً من الطيارين أن يلقوا حمولة طائراتهم من القنابل ضمن تشكيل معين حين يُلقي هو حمولة طائرته. كانت الفكرة هي الإجهاز على العدو بتوجه الطائرات مباشرة عبر النيران المضادة بدون مناورة لتحاشيها وإكمال المهمة بتدمير الأهداف المطلوبة، دون التراجع والعودة للمخاطرة ثانية. أصبح معروفاً باسم «ذي النهج الحديدي» وفي أماكن أخرى «الحمار الحديدي»، بسبب رغبته وقدرته على المضي في مساره غير مكترث بنيران المدفعية المضادة الكثيفة. تكررت هجمات من هذا القبيل مرات قليلة ولأسباب الضرورة فقط، فكانت الخسائر أقلّ ولكن ألغيت عبارة «المناورة لتحاشي النيران المضادة» من قاموس وحدة القوة الجوية رقم 8 في سلاح الطيران الأمريكي.

بعد فترة قصيرة من تولي قيادة الوحدة الجوية رقم 21 للقاصفات، اكتشف لَومَي بنفسه، وكما شكّ رئيسه قبل ذلك بأنّ خطة هجمات هانسِل دقيقة التصويب على معامل الفولاذ والجسور باستعمال القاصفات B-29s، التي واصل لَومَي العمل بموجبها أسابيع أخرى، لم تكن نافعة. بدأ الأخير بغارات لإلقاء القنابل الحارقة، التي دعا إليها قادته من قبل واستطاع تأجيج حرائق واسعة. وبدون أن يتلقى أيّة أوامر، مضى في هجماته الجديدة وقرّر أن يحرق طوكيو عن بكرة أبيها.

في الوقت الذي استعدّ فيه لغارة نارية على طوكيو ليلة 9-10 مارس من عام 1945، رغب جدّاً أن يقود بنفسه السرب المهاجم، لكنّه اضطر صاغراً أن يكلف بالمهمة نائبه الجنرَل تومَس پَوَر، لأنّه ما أراد أن يعرّض نفسه لإمكانية إسقاط طائرته والقبض عليه، وهو الوحيد في مسرح العمليات مَن كان على علم بالعملية التالية وشفرتها «الألعاب النارية» Firecrackers، أي إلقاء القنابل الذرية.

في مطلع شهر يوليو رُفعت أسماء 4 مدن من قائمة المدن التي ستجري الغارات عليها. السبب هو العرض الكامل للتدمير الشامل لمدينة أو أكثر لم تُهاجم من قبل، لإظهار فاعلية القوة التدميرية للسلاح النووي الجديد.

كتب لَومَي مذكراته بعنوان «المهمة مع لَومَي» بمساعدة الروائي مككِنالي كَنتور اعتماداً على الأشرطة الصوتية البالغة العدد التي سجّلها لَومَي بنفسه. تألف الكتاب من 600 صفحة وكان هو الراوي للقصة بصوت مدرِك واعٍ. لا شيء أفضل توضيحاً لما وصلت إليه الحال مقارنة بتنديد روزفلِت بقصف المدن واعتباره عملاً قاسياً لاإنسانيّاً بربرياً متوحّشاً، قبل 6 سنوات فقط.

تحدّث لَومَي بشكل تفصيلي عن الاعتبارات التكتيكية التي صوّرت سمعته بكونه «شجاعاً»، لكنّها حقيقة مقامرة جريئة لقائد أمريكي طيار خلال الحرب. اختتم مذكراته بالقول إنّ اليابانيين لم تكن لديهم قدرات للدفاعات الجوية المضادة لتتصدى للطيران المنخفض، كما كان لدى الألمان. وعليه كان بإمكانه أن ينجح في تدمير كافة الأهداف التي ابتغاها، وربّما بخسارة أقلّ عدد ممكن من طائراته. لو كان على خطأ، أي كانت لدى اليابانيين قدرات عالية للمدفعية المضادة للطائرات، لكان خسر العديد الكثير من طائراته ولكان نعت التاريخ ما قام به كنموذج لحماقة لَومَي الكبرى.

التعليمات التي زوّد بها أطقم القاصفات قبل أن تبدأ الغارات فريدة في تاريخ القصف الجوي حتى ذلك الوقت. طائرات B-29s الضخمة مصمّمة أن تطير بسرعة عالية جدّاً وعلى ارتفاعات شاهقة بصحبة طائرات أخرى مرافقة تتعاون فيما بينها حول استخدام رشاشاتها. التكتيكات، التي عرضها على الأطقم في تلك الليلة، كانت شيئاً لم يسمع به الطيارون من قبل. ما كان عليهم أن يطيروا كسرب واحد ولا على ارتفاعات شاهقة، وما كان عليهم أن يدوروا حول المدينة لاستهلاك الوقود حتى تصل الطائرات الأخرى فتنقضّ على المدينة دفعة واحدة. بدلاً من ذلك، كان عليهم أن يتجهوا مباشرة من قاعدتهم إلى المدينة. وعليه فإنّهم لم يحتاجوا إلى وقود أكثر. وفرق الوزن هذا أتاح المجال لحمولة أثقل من المتفجرات. وحسب ذلك، مكّن قاذفاته، التي بلغ عددها 334 قاذفة، من زيادة حمولة كلّ منها بحوالي 50%. وعليه انطلقت الطائرات وكلّ منها يحمل ما يقارب من 6- 8 أطنان من القنابل، أكثرها من النوع الحارق.

كان لَومَي مصمّماً على عدم إشعار الجنَرَل آرنولد بخطته تلك، والقصد هو حماية رؤسائه من اللوم لو فشلت الخطة. كان تطوير طائرة B-29s هو المشروع المحبّب لدى هاپ آرنولد. اعتبر هذا الصنف من القاصفات مفتاح النجاح لمستقبل خلق قوة جوية مستقلة عن الجيش. غير أنّ كلفة تطوير هذه الطائرات وإنتاجها قد فاقت كلفة **مشروع مانهاتِن**، وأنّها كانت منذ البداية تشوبها بعض المشاكل

التقنية، التي حدّدت استعمالها في مسرح العميات في أوروبا. إضافة لذلك، كانت هناك مشكلتان حول مسرح العمليات في اليابان. أوّلاً، إنّ السماء مغطاة بالغيوم بشكل دائم تقريباً. وثانياً، إنّ تيارات الهواء في طبقات الجو العليا تتجاوز 200 ميلاً في الساعة. وهذان أمران جعلا مسألة القصف الدقيق مستحيلة تقريباً ذهاباً وإياباً.

كان رؤساء لَومَي في واشنطن يأملون جميعاً بأن تبرهن قاصفات B-29s على أداء المهمات المطلوبة للمحافظة على القصف الستراتيجي أثناء الحرب في منطقة حوض البَسَفِك. وهو ما سيؤدي إلى طرح قضية استقلال القوة الجوية والاستمرار باتباع ستراتيجية القصف حتى بعد انتهاء أمد الحرب. الذي كان لومَي يريد إخفاءه عن علم رؤسائه ليس القصف المتعمد للمدنيين. لقد عرف أنّ ذلك هو ما يريدونه. في الحقيقة، هو السبب لإرساله إلى هناك لأداء تلك المهمة، الذي اختار أن يخفيه عنهم حتى آخر لحظة هي التكتيكات المتطرفة، التي نوى استخدامها. فهي ذات خطورة محتملة ومكلفة بصدد الطائرات وأطقمها، رغم أنّ هذه أساسية لتحقيق «النتائج» التي أراد الرؤساء أن تتحقق في النهاية. لقد خطط بأن يأخذ المسؤولية الشخصية عن تلك التكتيكات ومستقبلها على عاتقه.

لقد ورد في سرد كَنتور أقوال لَومَي وهو يستذكر:

> إنّ العديد من الأهداف الستراتيجية في المنطقة المبدئية التي تأملتها أوّلاً، هي أنّ كافة المدنيين، الذين يسكنون المناطق المحيطة بمعمل هاتوري، يصنعون صواعق القنابل. كانت الطريقة التي اتبعها اليابانيون في نشر مصانعهم في المناطق السكنية، حيث عمل الأولاد وساعدوا طيلة النهار. أولاد صغار. تساءلت إن كانت الفتيات لا زلن يلبسن الكيمونا، كما شاهدت ذلك في دور عرض السينما في مدينة كُلومبُس، حين كنّ يتظاهرن بأنّهن من فتيات الگيشا ويحملن أدوات الحياكة، وكانت جداتهنّ الكبيرات السّن يمشطن شعورهن المسترسلة السوداء.
>
> ... إنّ حوالي 90% من هياكل البيوت مبنية من الخشب. أعتقدُ أنّ أحد تقارير المخابرات قد أشار إلى أنّ النسبة كانت 95%. ماذا يدعون ذلك النوع من الكرتون المستعمل في البناء؟ شوجي. نعم ذلك هو الاسم.
>
> ... لكلّ نوع من السلاح حسناته ونواقصه. ولكن لو تُرِك لي الخيار، فإنّي أودّ توفر كميات كبيرة من القنابل الحارقة. سأستعمل نوعاً معيّناً منها بالذات. لا، طبعاً احتراق المگنيسيوم يولد حرارة عالية وتؤدي قنابله الواجب إذا لم تتوفر قنابل الناپالم.

لكنّ النابالم تنشطر إلى مناطق أبعد وتغطي مساحة أكبر. يجب أن نستعمل كلي النوعين، لأنّنا يجب أن ندمّر ليس فقط المباني الخشبية القابلة للاحتراق بل أيضاً مباني الطابوق. وهنا تظهر فائدة استعمال قنابل المگنيسيوم.

... مهما نظرت في الأمر، فلا بُدّ أن تدرك أنّك ستقتل عدداً كبيراً من المدنيين، الآلاف والآلاف. ولكن إذا لم ندمّر صناعة اليابان، فإنّه يتوجب علينا أن نغزو البلاد. وكم من الأمريكيين سيُقتل إذا غزونا اليابان؟ لربما 500 ألفاً على الأقل، وتشير بعض التقديرات إلى مليون عسكري.

... إنّنا نخوض حرباً ضدّ اليابان. لقد كانوا هم من بادر بمهاجمتنا. هل تريدون أن نقتل اليابانيين، أم هل تريدونهم أنْ يقتلوا الأمريكيين؟

شغّلوا طائراتِكم، ودعونا نُقلِع.

في مذكراته، التي ظهرت عام 1965، عبّر لَومَي عن أسفه للخسائر في صفوف المدنيين، لكنّه وصفها بأنّها أمر لم يمكن تحاشيه، كان الهدف هو تدمير المصانع الكبيرة والمصانع المنزلية، في وقت خادع فيه البريطانيون بتلطيف كلامهم حول تدمير المصانع والبيوت الألمانية وقصف المدن بالقنابل الحارقة. تجدر الإشارة إلى أنّ نظام المصانع المنزلية قد توقف العمل به في اليابان منذ أواخر عام 1944. وبعد مرور عدة سنوات ذكر روبَرت فِشَر، أستاذ القانون المخضرم في جامعة هارفرد، والذي عمل مستشاراً في مكتب جون مكنوفتُن، حين كنت أعمل في قسم فيتنام في الپنتگون، أنّه عمل «مستشاراً لشؤون الطقس» في گوام مع الجنرَل لَومَي، في الوقت الذي شُنّت فيه الغارة على طوكيو. أثار ذلك انتباهي فسألته عمّ يتذكّر عن تلك الليلة. قال لي، «قدّمت تقريري له عن الطقس ذلك اليوم كالعادة، فسألني لَومَي سؤالاً لم أسمعه من قبل في حياتي، مستفسراً عن سرعة الريح على مستوى الأرض. أخبرته عن التوقعات في طبقات الجو العليا، حيث تطير طائرات المراقبة والتجسس، وكذلك عن سرعتها في المستويات المتوسطة في الجو، إذا أردنا أن نطلق عدداً من المناطيد. لكنّنا لا نعرف سرعتها على المستوى الأرضي. ثمّ سألني سؤالاً آخر عن مدى سرعة الريح، التي لا يستطيع الناس فيها من الهروب من لهُب النيران؟ وهل أنّها من القوة لتعيقهم من ذلك الهرب»».

- وماذا قلت له؟

- لم أعرف ماذا أمكنني أن أقول. تأتأت شيئاً عن عدم معرفتي بذلك وتركت المقرّ

وذهبت إلى خيمتي. لم أقترب منه طيلة ما تبقى من تلك الليلة وطلبت من مساعدي أن يعاونه إنْ أراد شيئاً. لقد كانت تلك هي اللحظة، التي أدركت فيها لأوّل مرة أنّ الغرض من عملياتنا كان قتل أكبر عدد ممكن من المدنيين.

كانت تعليمات لَومَي مرعبة جدّاً بالنسبة إلى طياري القاصفات، حين استمعوا إليها قبل الإقلاع بطائراتهم. شيء لا يمكن تصديقه أن تطير على ارتفاعات منخفضة في مستوى القذائف المضادة للطائرات. قال إنّه سيكون في طليعتهم، لأنّه يكره أن يدعهم يذهبون لوحدهم. لكنّهم في النهاية ذهبوا على تلك الحال.

أتى لومَي في مذكراته للقول:

ارتفعت ألسنة لهب نيران طوكيو المشتعلة إلى الأعلى باتجاه طائراتنا التي بدت تنطّ وكأنّها كرات لعب المنضدة. ظهرت طائرات B-29s وهي تطير على ارتفاعات منخفضة كأنّها تسلك مسارات بين اللهب العالية على ارتفاع 5-9 آلاف قدماً. غير أنّ المنخفض الجوي بفعل النيران تسبب في قدوم الرياح من منطقة الضغط العالي المجاورة فرفع تلك الطائرات نحو ارتفاعات وصلت ما بين 12- 15 ألف قدماً.

إلى تصريح رئيس فرق الإطفاء في العاصمة طوكيو، فإنّ الأمر خرج عن السيطرة بعد 30 دقيقة فقط. كان الأمر وكأنّه قد ألقيت قنبلة من قنابل حرق الغابات وسط منطقة مغطاة بأشجار الصنوبر الميتة الجافة. التهمت النيران السريعة 95 عربة من عربات إطفاء الحرائق وقتلت 125 رجلاً من فريق رجال الإطفاء.

رأى الطيارون أنّ لهُب النيران المشتعلة قد أضاءت سماء المنطقة، وأضافوا أنّ الغيوم وعلى مسافة 150 ميلاً بدت وكأنها كريات قطن طبيّ قد غُمِسَت بالدّم. كان فجراً زائفاً أطلّ على اليابان.

لم يكن الذي حدث في طوكيو عاصفة نارية، بالمعنى الكلاسيكي، إذ جلبت الريح نحوها من كافة الاتجاهات في منطقة محدّدة. كانت هناك رياح أرضية شديدة الهبوب. لو كان فِشَر قد تنبأ بها، لكان لَومَي قد وجد جواباً مؤكّداً لسؤاله. لقد ذهب أثر الريح إلى أبعد ممّا تصوّره. أطلق اليابانيون عليها اسم الريح الحمراء، أكاكازي. كانت ذات سرعة عالية نسبياً، حوالي 28 كيلومتراً في الساعة. وعنى هذا أنّ اللهُب الجبارة سبقت الريح وكوّنت كتلاً نارية، أو بالأحرى موجات من اللهب، بفعل الرياح التي جاءت على مزاج من خطط لتلك الغارات، خاصّة في تلك الليلة.

ارتفع الجدار الناري لمسافة مئات الأقدام في الجو ونجمت عنه حرارة عالية قتلت الناس قبل وصول النار إليهم لتأتي عليهم تماماً. فعلت تلك الغارة فعلها كما حدث للمواطنين الألمان في هامبُرگ ودرسدِن. غير أنّ درجة الحرارة في طوكيو بلغت 1800 درجة فهرنهايت. الناس الذين كانوا في الملاجئ بدأوا يشعرون بالاختناق فخرجوا للشوارع ليصبحوا جثثاً مشتعلة تتحرك على الإسفلت المُذاب. طوكيو كثيرة الشبه بمدينة فِنِس الإيطالية من حيث كثرة تعدد وجود قنوات المياه فيها. أسرعت الأمهات وهنّ يحملن أو يجرجرن أطفالهن نحوها هرباً من الحرارة فوجدن مياه القنوات تغلي، فمات الآلاف وهم على تلك الحال.

قُتِل خلال تلك الليلة ما يقرب ما بين 80 ألفاً إلى 120 ألفاً من المدنيين، واضطرّ حتى طياري القاصفات وملاحيها لاستخدام أقنعة الأوكسجين وهم على ارتفاع 5 آلاف قدماً في الجو، أي بمقدار ميل فوق اللهُب المستعرة، كي لا يتقيأوا نتيجة شمّ روائح اللحم البشري المحترق.

مضى لَومَي للقول:

> خلافاً لافتراضات محرري صحف العدو، فإنّني لم أشعر بالابتهاج أو التباهي بصدد الخسائر البشرية.
>
> بودي أن أقتبس ممّا ورد في تقرير قيادة القوة الجوية للجيش خلال الحرب العالمية الثانية، الجزء رقم 5 صفحة 627، الذي جاء فيه، «إنّ الخراب والخسائر البشرية للحياة في طوكيو، قد فاقت ما أصاب روما... أو أية حرائق عصفت بالعالم الغربي، بما فيها حريق لندن عام 1666... وموسكو عام 1812... وشيكاگو عام 1872... وسان فرانسسكو عام 1906. لها شبه بما حدث في اليابان بسبب زلزال عام 1923، الذي ضرب طوكيو ويوكوهاما، وسبب لهما كوارث فظيعة».
>
> لم يكن هناك مثيل لغارة جوية خلال وقت الحرب في اليابان أو أوروپا، من تلك الغارة التي ألحقت دماراً بالحياة وبالممتلكات.
>
> أبرق لي الجنرَل آرنولد، «مهنئاً، وأنّ المهمة قد أثبتت أنّ طيارينا وملاحينا لهم من القوة والشجاعة لعمل أيّ شيء». كانت برقية لطيفة، لكنّني لم أستطع الجلوس لأدّعي السبق لنفسي لما حصل. كنت أريد المضي في أداء مهمتي بأقصى قدر ممكن من السرعة.

لربما اعتقد أنّه من الممكن له، «أن أدمّر المدن الصناعية الكبرى في اليابان خلال الليالي العشرة القادمة». ثمّ أصدر أوامره لإحراق 17 مدينة أخرى من المدن المكتظة بالسكان، وتلاها بإحراق 50 مدينة أخرى.

* * *

ما كانت تلك الحملة خافية على الرأي العام الأمريكي. أصدرت مجلة تايم عددها المقرر ليوم 19 مارس 1945 قبل تاريخه المحدّد، وذلك في يوم 12 مارس، أي بعد يومين من إحراق طوكيو. عرضت تقريراً دقيقاً للتكتيكات والقاصفات المحملة بالقنابل الحارقة وسمّت الأهداف من وراء تلك العمليات، ووضعت للتقرير عنوان «مسار الطيور النارية»:

> أصبح الحلم حقيقة بالنسبة لطياري الجيش الأمريكي. لقد واتتهم الفرصة لدفع أكوام من القنابل الحارقة، التي انهارت على طوكيو ونَگويا، فأثبتوا أنّ بإمكانهم أن يشعلوا النار في المدن اليابانية لتحترق كأوراق الخريف الجافة.

أشار التقرير إلى تقديرات لومَي بأنّ مساحة 15 ميلاً مربعاً من المدينة قد دُمّرت تماماً.

> لم يحدث من قبلُ هجوم حارق بهذا المستوى. الحريق الذي أحدثته طائرات لوفتواف الألمانية في لندن بتاريخ 29 ديسمبر من عام 1942 قد استُعمِل فيه 200 طناً من المتفجرات الحارقة، التي غطّت ميلاً مربعاً واحداً فقط. الطيور النارية للواء الطيار كِرتِس لومَي، والتي أقلعت من جزر مِرِيناس، كانت من صنف آخر.

لم تَرِد تقديرات للخسائر اليابانية في تقرير التايم، ولكن ليس بسبب حساسية الأمريكيين إزاء خسائر العدو الباهظة. ظهرت قصة أخرى تحدّثت عن نجاح القوات الأمريكية في اجتثاث المقاتلين اليابانيين في ساحات عمليات حوض الپَسَفِك من مخابئهم وتحصيناتهم باستعمال راجمات قنابل الناپالم الحارقة، التي أطلقوا عليها اسم «عملية إبادة القوارض».

بعد غارات أخرى على طوكيو في شهر مايو، نشرت صحيفة نو يورك تايمز تقريراً عن خسائر المدنيين في طوكيو، التي قيل حقيقة أنّها بولغ فيها. نشرت مقالة مستقلة تحت عنوان في ثلاثة أسطر، ادّعى أنّ طوكيو قد مُحيت من الوجود، حسب تصريح لَومَي.

> احترق ما يقرب من 51 ميلاً مربّعاً بفعل 6 غارات لقاصفات B-29 على

طوكيو

وثّق لَومَي الأرقام بصور الدمار

يُعتقد أنّ 1000000 قد هلكوا في تلك النيران

لاحظ جون دوَر في مقالة مصاحبة:

> في المقطع رقم 11 في صفحة داخلية فقط، بدأ الحديث عن تقديرات الخسائر الفاحشة واقترح أنّ العنوان الفرعي قد يكون أخفى حقيقة أنّ التايمز قد ذكرت، «من الممكن» أنّ «مليون شخصاً أو ربّما ضعف ذلك الرقم من مواطني الإمبراطور قد لقوا حتفهم». ركّزت المقالة على تواريخ تلك الغارات الستة وعدد طائرات B-29، التي فقِدَت خلالها.
>
> ربّما يكون عدد الخسائر في طوكيو قد بولغ به 10 أو 20 مرة، ولكنّ الطريقة، التي تمّ فيها نقل تلك الأرقام عن خسائر المدنيين، تلاشت عن الأنظار حتى يومنا هذا. لم يحظَ الموضوع أن يكون خبراً رئيسياً على الصفحات الأولى للجرائد.

حين أعلن ترومّن أنّ الاحتمالات المتوقعة للخسائر الفعلية نتيجة إسقاط القنبلة الذرية لم تولد لديه لحظة تردّد ولم تحرمه لذة النوم، اعتبِر الكثير من المواطنين الأمريكيين مثل هذا الاعتراف شيئاً غريباً، بما فيهم أنا نفسي، حين قرأت الخبر. لربّما كان بإمكانه أن يقول أنّه كان قراراً شاقّاً، في الحقيقة مثيراً للكرب، وكان مشكلة أخلاقية وقراراً خطيراً. لا مجال للفكاك من ذلك. كيف أنّ مثل هذا الأمر لم يكن تحدّياً أخلاقياً؟

غير أن ترومَن قد مضى ليذكر شيئاً ما كان واضحاً في أذهان العديد من الأمريكيين في حينه ولحدّ الآن. لقد قتلنا وعلى مدى وقت طويل العديد من الناس باستعمال القنابل الحارقة قبل بزوغ العصر النووي. وهذا أمر لا جدال فيه، ليس بالنسبة إلى ترومَن ولكن أيضاً بالنسبة إلى روزفِلت قبله. طيلة 5 شهور كاملة قبل حلول شهر أغسطس من عام 1945، قتلت القوة الجوية للجيش الأمريكي المواطنين اليابانيين بشكل متعمّد، بأقصى قدر ممكن.

أنجزت القنبلة الذرية المهمة بكفاءة عالية، قنبلة واحدة مقابل ما ألقته 300 قاصفة من حمولتها من القنابل في شهر مارس. ولكن كان لدينا أكثر من 300 طائرة قاصفة كانت تقوم بمهامها المرسومة

ليلة بعد أخرى وتدمير مدينة بعد أخرى، حوالي 67 مدينة منها قبل هِروشِما. أشار تقرير مسح القصف وفق ستراتيجية الولايات المتحدة، بعد نهاية الحرب بقليل، «إنّ من الممكن أنّه جرى قتل مزيد من الناس خلال فترة 6 ساعات... أكثر ممّا سُجّل من ضحايا الغارات مجتمعة».

وخلافاً لما جاء به ستِمسُن في تقريره المؤثر والمضلل في ذات الوقت، نشرت مجلة هارپر في شهر فبراير من عام 1947 رسالة معنونة «القرار باستعمال القنبلة الذرية» وجّهها مكجورج بُندلي له، حين كان لا يزال عضواً في جمعية خريجي هارفرد. كانت مادة دعائية ناجحة لمواجهة مقالة جون هَرِس في مجلة نو يوركر بعنوان «هِروشِما»، التي نُشرت عام 1946، وجاء فيها أنّه لم يكن هناك وخز ضمير أخلاقي إطلاقاً بين المستشارين المدنيين والعسكريين للرئيس ترومَن حول تبعات استخدام القنبلة الذرية لتدمير المدينة. لقد تمّ تجاوز عتبة المقبول وغير المقبول منذ وقت طويل قبل ذلك. في الحقيقة لم يجرِ أيّ نقاش ولا حتى جدل مهما كان نوعه في الدوائر السياسية فيما إذا كان يجب أو لا يجب استخدام القنبلة، إن كانت جاهزة للاستخدام قبل أن تنتهي الحرب لأسباب أخرى.

من الأسباب المنظورة والمتوقعة لاستسلام اليابان قبل إسقاط القنبلة، هو الإعلان في مؤتمر پوتسدام في شهر يوليو عن دخول القوات السوفياتية الحرب ضدّها بتاريخ 8 أغسطس. لقد أيّد السوفيات توقيع إعلان المؤتمر، والذي كان سينهي حيادهم إزاء اليابان، وعدم توفرهم كي يكونوا وسطاء بين الفريقين الأمريكي والياباني. الذي علمناه بواسطة اعتراضنا للاتصالات والمراسلات، هو أنّ اليابانيين كانوا يعتمدون على ذلك التوسط لغرض الوصول إلى اتفاق للاستسلام يضمن بعض مصالحهم. من الأسباب الأخرى لإنهاء العمليات العسكرية، والذي اقترحه قائد الأركان المشتركة وأيده كافة المستشارين المدنيين، باستثناء بايرنز، بعدم إبلاغ اليابانيين، قبل دخول السوفيات الحرب ضدّهم، بأنّه في إمكانهم الإبقاء على مؤسساتهم الإمبراطورية وإمبراطورهم هيروهيتو، كما كانت الولايات المتحدة ترمي إليه. لم يرد ذكر في مقالة ستِمسُن لهاتين الإمكانيتين المعروفتين لدى المطلعين على المستويات العليا.

بعد مرور 70 عاماً على النقاشات العامة «حول القرار بإسقاط القنبلة الذرية»، فإنّ تلك النقاشات قد تمّ توجيهها جميعاً نحو الوجهة الخاطئة. لقد قامت على افتراضات كاذبة بأنّه لم يكن هناك قرار مسبق، ولم يصدر قرار جديد في ربيع عام 1945 لحرق مدينة بكامل سكانها من البشر.

لم تبدأ القنبلة الذرية مرحلة جديدة لاستهداف المدنيين أو وضع ستراتيجية جديدة أو الشروع في حرب في أية بقعة في العالم. إنّ إفناء السكان المدنيين عن طريق إحراقهم، قد أصبح وسيلة أمريكية للحرب الجوية، كما كانت بالنسبة للبريطانيين منذ أواخر عام 1940.

وبناء عليه كان يوجد صوت خافت ساخر للأدميرَل وِليم لَيهي، فيما يتعلق باستخدام القنبلة الذرية. كان هذا رئيساً لمكاتب فرانكلِن روزفلت وهاري ترومَن. أورد في مذكراته التي نُشِرت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

> في رأيي أنّ استخدام هذا السلاح البربري ضدّ هِروشِما ونَكَزاكي ما كان له الأثر المادي لمساعدتنا في الحرب ضدّ اليابان. كان اليابانيون قد هُزِموا أصلاً وكانوا مستعدّين للاستسلام بسبب الحصار البحري الذي ضربناه حولهم والقصف الناجح باستعمال الأسلحة التقليدية.
>
> إنّ الإمكانات القاتلة والخطيرة للحرب النووية في المستقبل مرعبة حقاً. مشاعري الخاصة هي مسؤوليتنا لأنّنا أوّل من استعمل هذا السلاح، ونكون بذلك قد تبنينا مستوى أخلاقياً عاماً لبربرية القرون المظلمة. لم أتدرّب على خوض حرب على هذه الشاكلة، وأنّ النصر في الحرب لا يتحقق بقتل النساء والأطفال.

لا يوجد أيّ دليل على أنّ الأدميرَل لَيهي، ولا أيّ أحد آخر في الحكومة الأمريكية قد عبّر عن مثل هذا الرأي أمام رئيسه روزفلت في الأشهر الأربعة الأخيرة من حياته ولا أمام الرئيس ترومَن في الأشهر الأربعة الأولى من تسلمه لمنصبه. بدأت تلك الهجمات المباشرة على المدنيين اليابانيين تحت أنظار روزفلت وستِمسُن ولَيهي، كما ذكر الجنرَل لومَي حين قال، «لقد أحرقنا وسلقنا وشوينا الكثير من الشعب في طوكيو في ليلة 9- 10 مارس، ثمّ حوّلنا الآخرين إلى بخار في هِروشِما ونَكَزاكي معاً».

كان لَومَي بحدّ ذاته مقتنعاً أنّ القنابل الحارقة هي التي ألحقت الهزيمة باليابانيين إلى حدّ الاستسلام، وأنّ إسقاط القنبلتين الذريتين ما كانت له أيّة ضرورة. لم يكن هذا الرأي مقبولاً من قبل قادة السلاح الجوي، في حين أنّ قادة سلاح البحرية قد أكّدوا الأثر الرئيسي للحصار الذي ضربته الغواصات حول الجزيرة. إنّ الحكم عن إسقاط القنبلة الذرية ما كان ضرورياً لتحقيق النصر بدون غزو، قد جاء على لسان الجنرَلات أيزنهاور ومكارثر وآرنولد إضافة إلى لَيهي وكِنگ ونِمِتز وهَلسي. بالمناسبة، اتفق أيزنهاور وهَلسي مع وجهة نظر لَيهي بأنّ استعمال القنبلة الذرية كان أمراً شنيعاً من الناحية الأخلاقية. بعبارة أخرى، اتفق7 جنرَلات من ذوي 5 نجوم من أصل 8، أنّ القوات المسلحة الأمريكية عام 1945 ما كانت بحاجة لاستخدام القنبلة المذكورة تحاشياً لغزو اليابان. كان الجنرَل مارشَل، رئيس أركان الجيش هو الوحيد الذي ما زال يعتقد في شهر يوليو أنّ الغزو ضروري. توصل

مسح للقصف الجوي الستراتيجي لحرب حوض الپَسَفِك إلى استنتاج في شهر يوليو من عام 1946، كتب پول نيتزَ مسودته كالتالي:

> استناداً إلى التحقيقات التفصيلية المتعلقة بكافة الحقائق والموثقة بشهادات القادة اليابانيين، الذين ما زالوا على قيد الحياة، أنّ الرأي الذي كشفه المسح، بأنّه من المؤكّد في الوقت، الذي سبق يوم 31 ديسمبر عام 1945 مع كافة الاحتمالات، التي سبقت 1 نوفمبر 1945، بأنّ اليابان كانت ستستسلم حتى قبل إسقاط القنبلتين النوويتين، وحتى قبل أن تدخل روسيا الحرب ضدّهم، حتى لو لم يكن هناك تخطيط أو تفكير بغزو أمريكي للجزيرة.

لا نعرف صحة ذلك الادعاء من عدمِها، لكنّ القوة الجوية للجيش الأمريكي خرجت من الحرب وهي مقتنعة بأنّها حققت النصر في حوض الپَسَفِك بإحراق جماهير المدنيين حتى الموت. بالتأكيد، كان ذلك هو استنتاج كُرتِس لومَي. أمّا رؤساؤه المدنيون مثل ترومَن وستِمسُن، فقد أصرّوا حتى نهاية حياتهما بأنّ القادة والقوات التي بإمرتهم لم يخالفوا إطلاقاً مبدأ الحرب العادلة jus in bello بشكل مُتعمَد باستهداف غير المقاتلين. ولكن من وجهة نظر لومَي، فإنّ القضية كانت اللعب على الكلمات. في مقابلة مطولة له مع المؤرخ مايكل شَري، قال «لا يوجد مدنيون أبرياء. إنّها حكومتهم وأنت تقاتل الشعب، الذي تمثله. أنت لم تعد تحاول مقاتلة القوات المسلحة فقط. وعليه فلن يزعجني كثيراً أن يُقتل ناس أبرياء».

في مطلع الستينات، أخبرني زميلي في راند وصديقي سام كَوِن أنّه حضر مرة اجتماعاً لقادة أنظمة القوة الجوية، سأل الجنرَل بَرني شرايفر الذي كان وراء تطوير الصواريخ حاملة الرؤوس النووية العابرة للقارات ICBMs، الجنرَل لَومَي، «ما أكبر حجم للرأس النووي الذي تريده؟ ما الحجم الأكبر في نظرك؟» أجاب لَومَي، «صاروخ يحمل قنبلة ذريّة كافية لتدمير روسيا».

في المناقشات التي تلت ذلك، أخبرني سام أنّه عرض فكرة تطوير قنابل صغيرة يمكن استعمالها في حروب محددة، كما في كوريا، من النوع الذي يترك عدداً قليلاً من الضحايا الأبرياء. كان عالماً فيزيائياً ومصمّماً للقنابل، والذي أحب أن يُسمّى «أبو القنبلة النيوترونية». لَومَي الذي كان لديه شعور أبويّ ودّيّ اتجاه سام كَوِن، أخذه إلى غرفة جانبية بعد نهاية الاجتماع، ووضع ذراعيه جول كتفي سام وقال، «الحرب تعني قتل الناس، وحين نقتل عدداً كافياً منهم، فإنّ الجانب الآخر يتوقف عن القتال».

لا أحد يعرف إنْ كان الرؤساء ترومَن وأيزنهاور وكَنَدي وجونسُن قد اتفقوا مع وجهة نظر

لومَي عن وعي وبشكل جازم. لقد جعلوه مسؤولاً عن خطط الحرب النووية وتهيئة القوات، التي جسّدت ذلك المنظور لمدة 15 عاماً، شغل خلالها منصب قائد السلاح الجوي الستراتيجي، ومن ثمّ رئيساً لأركان القوة الجوية الأمريكية.

الفصل السادس عشر
قتل الشعب

تناسب إسقاط القنبلة الذرية مع النموذج المتبع لجعل الحرب مذبحة للمدنيين. بدا الهجومان النوويان وكأنّهما تبرئة للادّعاء بإنهاء الحرب مباشرة ضدّ اليابان، وتبع ذلك ما هو معروف لدى القوات المسلحة والشعب الأمريكي، الذي لم يكن على علم باعتراضنا للاتصالات والبرقيات اليابانية. لم يشعر الفريقان العسكريان، اللذان أسقطا القنبلتين بأيّ وخز ضمير، خاصّة وأنّ ذلك ضمن للقوة الجوية استقلالاً من القوات المسلحة الأخرى. لم يكن هناك أيّ اعتراض على ذلك الاستقلال، الذي ضمن لهذه القوة أن تسيطر على قيادة العمليات الستراتيجية، التي تولى الإشراف عليها الجنرَلان كُرتِس لَومَي وتومَس پَوَر. أصبحت هذه كأنّها المنظومة، التي التزمت باستخدام تكتيكات إبادة الأعداء خلال الأشهر الستة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، دون تمييز بين العسكريين والمدنيين.

السؤال هو، من الخصم الآن الذي يجب التركيز عليه؟ حينما شارفت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء، كان يوجد بلد واحد يتوفر له العدد السكاني والقوات المسلحة والقوة الصناعية والعلمية، القادر على مواجهة الولايات المتحدة عسكرياً، ألا وهو الاتحاد السوفياتي. بالرغم من أنّ هذا البلد قد تكبّد خراباً وتدميراً وخسائر بشرية لا مثيل لها في تاريخ الحروب، فإنّ الأكثر من ذلك أنّه كان يحكمه شخص لا يقل ضراوة عن هِتلر ويسانده حزب موحّد متكاتف وأكثر كفاءة من الحزب النازي. ظهرت بشكل متزايد ولأغراض متنوعة، مجموعة من كِبار أعضاء إدارة ترومَن ممّن أظهروا ميولاً لتبني سياسة التخويف بأنّ الاتحاد السوفياتي لا يوثق به وأنّه ينوي الشّرّ للعالم الغربي ويعمل على تحقيق أهدافه تدريجياً.

لم تكن تلك الميول غريبة على الجنرَل لزلي گروفز، الذي كان مسؤولاً عن كافة جوانب **مشروع مانهاتِن**. في مطلع عام 1944، تناول الفيزيائي البولندي الأصل جوزَف رُمبَلات العشاء مع الجنرَل گروفز في مجمّع لاس ألموس، وصُدِم حين سمع كلام الجنرَل المعادي جدّاً للشيوعية الموجّه

له، ورأى في عينيه نظرة توحي بأنّ المشروع النووي كان دائماً يهدف إلى مواجهة السوفيات. كانت لدى القوة الجوية التابعة للجيش نفس المخاوف والآراء، وكان المسؤولون فيها يبحثون عن هدف آخر لتبرير وجود قوة ستراتيجية للقاصفات في فترة ما بعد الحرب واستقلال سلاح الجو، فاستدارت الأنظار صوب الاتحاد السوفياتي.

بتاريخ 20 أغسطس من عام 1945، وبعد مرور أسبوعين فقط على استسلام اليابان، بعث اللواء لورِس نورستاد، مساعد رئيس الأركان لأغراض التخطيط إلى الجنرَل گروفز قائمة بالمناطق، الممكن استهدافها بالقنابل الذرية في المستقبل، وضمت «المدن السوفياتية الرئيسية»، وفي مقدّمتها موسكو وغيرها من حوالي 25 «مدينة سوفياتية رئيسية»، بما فيها لِنِنگراد. كما اقترحت القائمة العدد المطلوب من القنابل النووية لتدمير كلّ من تلك المدن. كان الاقتراح أنّ كلاً من المدينتين، موسكو ولِنِنگراد، تتطلب 6 قنابل ذرية.

غير أنّ الولايات المتحدة لم تكن تمتلك 6 قنابل ذرية في عام 1945. كان يتوفر لديها في نهاية ذلك العام قنبلتان فقط. في شهر يونيو من عام 1946، بالضبط نهاية السنة المالية، أصبح لديها في مخزونها 9 قنابل. الخطة الحربية الأولى ضدّ الاتحاد السوفياتي في شهر نوفمبر 1947، اشتملت ضرب 24 مدينة سوفياتية باستخدام 34 قنبلة ذرية. غير أنّه كان لدى الولايات المتحدة في حينها 13 قنبلة ذرية فقط، وربّما 7 منها جاهزة للاستعمال. لم يعرف مخططو الحرب تلك الحقيقة، لأنّ كلّ شيء كان سرّياً للغاية. لم يعرف الرئيس ترومَن هذه المعلومات عن عدد القنابل، حتّى قدّمت له خلاصة بالموضوع بتاريخ 3 أبريل عام 1947، فسبّب له ذلك العدد القليل صدمة.

وقبل شهرين من التاريخ أعلاه، أخبر رئيس هيئة الأركان وزيري الدفاع والبحرية بأنّ توفر القنابل الذرية ليس كافياً ليفي بمتطلبات أمن الولايات المتحدة. في أواخر عام 1948، كانت كافة القنابل، التي تمّ تصنيعها حسب نموذج قنبلة نَگزاكي مبنية على انفجار عنصر البلوتونيُم. وهي قنبلة تُجمّع يدوياً وتُعتبَر من وجوه عديدة «قنبلة مختبر». استنتج تقييم قيادة الأركان المشتركة لاختبارات «بكيني أتول» في صيف عام 1946، والتي استخدمت فيها قنبلتان من أصل 9 قنابل متوفرة في ذلك الحين، «أنّه بسبب عدم توفر المواد الانشطارية، فإنّ القنابل يجب أن تُستعمل باعتبارها «أسلحة ستراتيجية ضدّ الأهداف المدنية الصناعية». غير أنّ الجنرَل لومَي، الذي كان في حينها مسؤولاً عن التطوير والبحوث الخاصة بالقوة الجوية، وهو الذي ساعد في ضوء ذلك على إنشاء مؤسسة راند، لخّص الاستنتاجات الأساسية على الوجه التالي:

1. إنّ أعداد القنابل الذرية، التي يُقرّ بوجودها في المستقبل، يمكن أن يبطَل أيّة جهود

عسكرية ويُلغي هياكلها الاجتماعية والاقتصادية.

2. بالتعاون المتزامن مع أسلحة الدمار الشامل الأخرى، يكون من الممكن إخلاء مناطق كبيرة من سطح الأرض من السكان، وترك بقايا قليلة لغرض أداء أعمال التجهيزات والأدوات.

في شهر أكتوبر من عام 1947، ذكر تقرير حول متطلبات مدى انتشار القنبلة الذرية، أرسِل إلى مفوضية الطاقة الذرية AEC، التي أصبحت الآن مسؤولة عن كافة جوانب إنتاج القنابل الذرية، من هيئة رئاسة الأركان، التي ترأسها فعلياً الأدميرَل وِليَم لَيهي. قبل سنتين وحين كان رئيساً لمكتب ترومَن، وكما ورد في مذكراته، أنّه احتجّ بشكل غير علني على إسقاط القنبلتين الذريتين على هِروشِما ونَكَزاكي لاعتقاده، «أنّنا ولكوننا أوّل من استخدم هذا السلاح، فإنّنا تقبّلنا المستوى الأخلاقي الذي كان سائداً بين البرابرة في العصور المظلمة. لم أتدرب على خوض حرب على هذه الشاكلة، ولا يمكن كسب الحرب عن طريق قتل النساء والأطفال». أمّا الآن فإنّه أشعر مفوضية الطاقة الذرية، «بأنّه توجد متطلبات عسكرية لإنتاج 400 قنبلة لها قوة تدميرية تعادل قوة قنبلة نَكَزاكي». يجب إسقاطها على 100 هدف مدني. أمّا التاريخ المحدّد لتحقيق تلك القدرات و«قتل الشعب»، وهذا مفهوم برز لدى قيادة أركان القوة الجوية، التي أعدّت هذا المقترح، بأن تكتمل الفكرة بتاريخ 1 يناير من عام 1953.

كانت خطط القوة الجوية في منتصف عام 1948 متطابقة مع خطط إنتاج القنابل، رغم أن ذلك الإنتاج أقلّ بكثير ممّا اعتقدته قيادة الأركان واعتبرته ليس كافياً. كانت الخطة حينها تقوم على ضرب 20 مدينة بمقدار 50 قنبلة ذرية. كان هذا العدد متوفراً في ترسانة الأسلحة بتاريخ 30 يونيو من عام 1948. ستضرب 8 قنابل موسكو ويكون نصيب لِننگراد 7 قنابل.

أصبح الجنرَل لَومَي قائداً لسلاح الطيران في شهر أكتوبر من عام 1948. وضع خطة الطوارئ الحربية EWP، التي أوكلت لسلاح الطيران مهمة «زيادة قدراته إلى الحدّ الذي يصبح ممكناً فيه إسقاط مخزون الأسلحة الذرية المتوفر بغارة واحدة ضخمة». الأهداف الرئيسية لها هي المجمعات الصناعية المدنية ومراكز الإدارة الحكومية. أمّا الأهداف الثانوية فتشمل منشآت إنتاج البترول وتصفيته، حيث يتوزع ثلثي هذه الصناعة في 16 مدينة سوفياتية. تضمنت الخطة أيضاً ضرب 70 منطقة من المناطق السكنية باستخدام 133 قنبلة ذرية. ذكرت التقديرات أنّ الخطة ستقتل 2.7 مليون مواطناً في 70 مدينة مستهدفة، إضافة إلى 4 ملايين شخصاً ضمن الخسائر.

بعد مرور سنة، وبالذات في شهر أكتوبر من عام 1949، أضيف ملحق لخطة الحرب

الطارئة، شمل هجوماً باستخدام 220 قنبلة ذرية لضرب 104 مركزاً من المراكز المدنية، على أن يُتبع بهجوم ثان واستخدام 72 قنبلة أخرى. كان عدد القنابل 292 متوفراً في ترسانة الولايات المتحدة بتاريخ 30 يونيو من عام 1950. كان لخطة الطوارئ هذه 3 ميزانيات منفصلة، وهو الأمر الذي زاد في إنتاج تلك القنابل بأمر من ترومَن بعد حصار برلين بين عامي 1948- 1949، واختبار السوفيات لقنبلتهم الذرية الأولى في شهر أغسطس من عام 1949. بدت الخطة الأمريكية لإنتاج قنابل على غرار قنبلة نَگزاكي، متسارعة جدّاً. إنّ الفترة، التي كان فيها «السلاح الذري نادراً»، حسب قول البنتگون، قد حلت محلها فترة تميّزت «بوفرة إنتاج هذا السلاح» المطلوب لإبادة شعب بكامله. اكتملت الترسانة بتاريخ 1 يناير من عام 1951، أي سنتين قبل التاريخ المحدّد لها. لكنّه في ذلك الوقت، أصبحت قائمة الأماكن المستهدفة بالسلاح النووي أطول عدة مرّات من القائمة الأصلية، حسب وجهة نظر مخططي السلاح الجوي.

خلال السنوات الأربع الأولى من بزوغ العصر الذري، كانت قيادة الأركان الجوية الستراتيجية مشغولة بوضع خطط لمهاجمة شعب لم يُشكّل تهديداً عسكرياً، سواء أكان تقليدياً أم ذرّياً ضدّ الأرض الأمريكية. كانت تلك فقط خطط للضربة الأولى، كما سُميّت أخيراً، في وقت لم يكن لنا فيه خصم يمكن أن يردّ على ضربتنا الأولى هذه.

احتكرت أمريكا السلاح النووي، الذي توقعه الرئيس ترومَن والجنرَل گروفر، وليس طبعاً علماء الذرة، لو سئلوا، أن يستمر هذا الاحتكار لجيل أو أكثر. لقد اعتقدا بشكل سخيف أنّ المحافظة السرية على شراء المواد المطلوبة والطرق الدبلوماسية لتحديد مناطق مصادر اليورَنيُم العالي النوعية، التي أشار إليها گروفر في مذكراته فيما بعد وقال إنّها كانت موجودة في أراضي ألمانيا الشرقية. المشكلة أنّ منطقة اليورَنيُم هذه واقعة الآن تحت نفوذ الاتحاد السوفياتي. كان ذلك البرنامج في رأيهما «ضرورياً يجب المحافظة على سرّيته». وبموجب هذا الاعتقاد الخاطئ، استطاع ترومَن أن يحصل على موافقة مجلس الشيوخ كي يطرح التزام الولايات المتحدة، ولأوّل مرة، بالدفاع عن دول غرب أوروپا وإنشاء حلف الناتو.

حثّ العلماء أن تكون إمدادات اليورَنيُم تحت السيطرة الدولية، سواء كان ذلك لأغراض البحوث أو عمليات التخصيب أو امتلاك المواد الانشطارية لأغراض الطاقة، وتوقعوا في عام 1945 أنّه بدون ذلك سيحصل السوفيات على قنبلتهم ويطورونها خلال 4 سنوات. صحّت تلك التوقعات لأنّه بعد 4 سنوات وفي شهر سبتمبر كشفت تقارير المخابرات، التي حصلت على معلوماتها عن طريق طائرات التجسس، عن وجود أدلة بأنّ السوفيات اختبروا قنبلتهم الأولى من نوع قنبلة نَگزاكي، التي

تعتمد على انشطارات البِلوتونيُم. في الحقيقة، كانت نسخة مطابقة تماماً لقنبلة نَكزاكي. حصل السوفيات على مخطط تصميمها عن طريق كلاوس فوكُس، أحد جواسيسهم، الذي كان أحد المشاركين في المشروع الذري في مجمّع لوس ألموس. سبّب ذلك الاختبار صدمة كبيرة للرئيس تروِمّن والجنرَل گروفر والكونگرس والرأي العام الأمريكي والحلفاء الأوروپيين في الناتو.

غير أنّ قيادة الأركان المشتركة لم تفقد أعصابها. لقد قدّروا بشكل صحيح أنّ الأمر سيتطلب من السوفيات عدداً من السنوات كي يستطيعوا تطوير الوسائل، التي ستمكّنهم من إلقاء هذا السلاح على أيّ مكان أو تهديد أرض الولايات المتحدة ذاتها. لكنّ خطط سلاح القوة الجوية لتدمير المناطق المدنية الصناعية، ركّزت على أنّ الأولوية الآن تتطلب تدمير كافة الإمكانات السوفياتية، التي تستهدف الولايات المتحدة وحلفائها. وعنى هذا توسيع قائمة أهداف الهجمات الذرية الأمريكية بضرب كافة المطارات، التي يمكن أن تقلع منها طائرات تحمل أسلحة ذرية. كان العدد هو 1100 مطاراً في الاتحاد السوفياتي وأغلبها داخل المدن أو قربها. في عام 1953، حدّد الجنرَل لَومَي 409 مطاراً يمكن استهدافها بغارات ذرية، إلى جانب ضرب كافة المؤسسات الذرية المنتشرة في طول أراضي الاتحاد السوفياتي وعرضها.

ازداد إنتاج المواد الانشطارية مرة أخرى في خريف عام 1949 لإعداد رؤوس نووية كافية لتغطية قائمة الأهداف، التي ما زالت تتوسع، وما يتوجب توفيره من الأسلحة لضربها. حين انتهت رئاسة تروِمَن في مطلع عام 1953، بلغ عدد الأسلحة النووية 1000 قنبلة، من ضمنها قسم على وشك الإعداد ليكون ضمن الترسانة النووية للبلاد. بعد انتهاء فترة رئاسته لدورتين، سلّم الرئيس أيزنهاور مقاليد الحكم للرئيس المنتخب الجديد كَنَدي، وسلمه معها ترسانة تحتوي على 18000 سلاحاً ذرياً.

مع أنّ الهدف المطلوب بقي أصلاً على حاله كما كان في مطلع الخمسينات فإنّ زيادة الإنتاج، التي تضاعفت 18 مرّة، فإنّ بعض الأسلحة كانت ذات مدى قصير و«تكتيكية»، لكنّها جميعاً على غرار قنبلة نَكزاكي، وأيضاً لم تأخذ بنظر الاعتبار حياة البشر مع تغيّر طبيعة تلك الأسلحة الستراتيجية. كان يوجد منها 1000 قنبلة حملها سلاح الطيران والبحرية على الدوام. لقد تغيّر معنى «السلاح الذري» بطريقة لم يُكشف عنها وبشكل مقصود لكي لا يعرف الشعب الأمريكي ولا العالم ذلك. إنّ جزءاً كبيراً من الترسانة النووية، التي ورثها كَنَدي، لم تكن أسلحة «ذريّة» من النوع الذي ألقيَ على اليابان عام 1945، لكنّها من النوع الذي تمت تجربته في منطقتي بكيني ونيفادا. وهي مبنية على انشطارات نظائر العناصر الثقيلة من اليورَنيُم والبلاتينيُم. حتى مطلع الخمسينات، كانت هذه القنابل الذرية هي النوع الوحيد من السلاح الذري في الوجود. بحلول عام 1961 أصبحت كافة

الأسلحة، التي بحوزة سلاح الطيران، من النوع الحراري الذري Thermonuclear أو ما يُسمى القنابل الهيدروجينية H-Bombs، التي تقوم على انشطار نظائر الهيدروجين، التي تمّ اختبارها لأوّل مرة في شهر نوفمبر من عام 1952.

لقد كان ذلك هو التغيير، الذي اكتشفته عام 1961، والذي أوضح اللغز الضارب بالنسبة لي في مطلع تلك السنة. لدى مراجعة الوثائق بالغة السرية، التي لها علاقة بخطة القدرات الستراتيجية المشتركة لفترة الخمسينات، كان القصد من تلك المراجعة وضع تعليمات جديدة بخصوص تلك الخطة من قبل إدارة كَنَدي. لقد اطلعت على تقديرات متتابعة لخسائر السوفيات في أيّة حرب شاملة في السنوات الأولى لحقبة الخمسينات، وكانت مدهشة «لقلتها» في ضوء بزوغ المرحلة الذرية. كانت في البداية بضعة ملايين ثمّ وصلت 10 ملايين وارتفعت إلى 13 مليون شخصاً بحلول عام 1955. ولكن من تلك السنة حتى السنة التالية 1956، تضاعف عدد الضحايا حسب التقديرات إلى 10 أضعاف ما كان عليه قبل عام. وصف محللو راند تلك الزيادة بأنّها جسيمة، كونها وصلت إلى 150 مليون مواطناً سوفياتياً. بحلول عام 1961، وكما علمت لتوّي، فإنّ قيادة الأركان المشتركة قد وضعت رقم الخسائر بما يُقدّر بأكثر من 200 مليون مواطناً في الكتلة السوفياتية. لماذا حدثت تلك الزيادة؟ ولماذا في ذلك الوقت؟

إنّ صدمتي التي عبّرت عنها في تمهيدي لهذا الكتاب والفصل التاسع منه، صاحبها أكثر من سؤال في ذهني. كيف ولأيّ سبب اقترح المخططون أو متخذو القرارات تلك الزيادة الباهظة؟ هل استنتج أحدهم أنّ «قتل الشعب» باستعمال 400 قنبلة نووية ستقضي على حياة عشرات الملايين من الروس ليس كافياً للردع؟ أم أنّ الأمر تحقيق لالتزامنا لأعضاء حلف الناتو للردّ على أو إحباط هجوم سوفياتي أرضي، تطلب تلك الزيادة في «الأضرار الجانبية»؟ أو ما هي الأسس، التي توصلوا بموجبها إلى أيّ من تلك التقديرات والأحكام؟

السبب في تلك الزيادة الهائلة في أعداد ضحايا الحرب، التي نستعد لشنّها على السوفيات بين سنة وأخرى، فإنّ أرقام الخسائر الجديدة ستكون أقلّ من خسائرهم في الحرب العالمية الثانية، علماً بأنّ الخسائر الجديدة ستكون خلال أيام معدودة، في حين أنّ خسائرهم في الحرب المذكورة كانت على مدى شهور وسنين. ومع ذلك، فإنّ سقوط تلك الخسائر بهذه السرعة مسألة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية. ظهر أنّ التقديرات المشار إليها كانت لسبب بسيط.

لم تصدر أحكام أو تعليمات بضرورة الزيادة الكبيرة في الخسائر نتيجة خططنا للهجوم. كان المخططون ببساطة قد افترضوا بشكل صحيح أنّ سلاح الطيران كان ينوي تجديد سلاحه النووي

للحقبة الأولى وإحلال القنابل الهيدروجينية الحرارية ضدّ نفس الأهداف التي يزداد عددها. لقد عنى ذلك استعداد سلاح الطيران لإنزال التقتيل بمقدار 10 أضعاف أو أكثر ممّا كان عليه الأمر في خططهم السابقة، ليس عشرات الملايين بل مئات الملايين من الخسائر، وقد تصل إلى بليون شخص، بسبب الإشعاعات الناجمة عن انفجارات القنابل الهيدروجينية، التي يتوفر منها في ترسانة السلاح الجوي ما مجموعه أكثر من 1000 مرّة من القنابل الذرية للحرب العالمية الثانية.

حدثت تلك التغييرات ليس نتيجة لقرار أحد ما حول ضرورتها. ولكن ببساطة فإنّ القنابل الذرية الجديدة أصبحت أشدّ فتكاً وأرخص كلفة وأكثر انتشاراً عند الانفجار وباستطاعتها أن توقع أشدّ الخسائر حين تضرب نفس الأهداف. من العوامل في زيادة عدد الخسائر هو حقيقة أنّ الأهداف النووية في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات، قد خططوا لها لتحدث انفجارات أرضية نتيجة الأسلحة النووية الحرارية، التي تزيد من انتشار غبار الإشعاعات، وتزيد من خسائر الكتلة السوفياتية الصينية. وللأسف ستصل تلك الإشعاعات إلى جيرانهما، الذين بعضهم محايد وبعضهم من حلفائنا.

كانت تقديرات الخسائر، التي ستوقِعها الولايات المتحدة في الكتلة السوفياتية الصينية سرية للغاية، لحدّ أنّ سلاح الجو والبنتگون وأمريكيين قلائل خارج الحكومة وداخلها، كانوا على علم بالتغيير المتعمد لمفهوم «الحرب النووية»، الذي أطلّ على الساحة في أواخر الخمسينات، وكيف صار كذلك. ولغرض السماح لإجراء اختبارات في الجو على الأسلحة الذرية الحرارية على الأرض الأمريكية، رغم تأثيراتها المتوقعة نتيجة هبوب الرياح في ولايتي يوتا ونيفادا، حاول الرئيس أيزنهاور كلّ جهده ليظل الأمر مكتوماً عن الرأي العام الأمريكي بصدد الأسلحة الذرية وآثارها. أخبر الرئيس گوردِن دِين، مدير مفوضية الطاقة الذرية، بألاّ يتطرق إلى مسميات من قبيل «القنبلة الذرية الحرارية» و«الانشطار الذري» و«القنبلة الهايدروجينية» حين يتحدّث إلى أجهزة الإعلام أو يلقي خطاباً في مكان ما. كما عليه أن «يترك المواطنين في حالة ارتباك، قدر تعلق الأمر بالانشطارات والالتحامات». ولكن حين اكتشفتُ لدهشتي في خريف عام 1961، فإنّ قيادة الأركان المشتركة ورئيس أركان الجيش والرئيس أيزنهاور نفسه، كانوا على علم بالنتائج الفظيعة المتوقعة لاستعداداتهم في مسرح العمليات في قارتي آسيا وأوروپا.

صُعِق أيزنهاور في أواخر الخمسينات بصدد مسألة «الإفراط في القتل»، والتي نقلها إليه مستشاره للشؤون العلمية، جورج كِسنياكُسكي، وهو يبين له خطة العمليات المتداخلة الموحدة SIOP-62، خاصة ما يتعلق بكلفة القصف المتكرر اللاضروري للأهداف مرات ومرات. بالتأكيد ما كان سبب تلك الصعقة، الإسراف وحده. أخبر الرئيس مساعده لشؤون البحرية أنّ العرض الذي قدم إليه

«أرعبني للغاية». ومع ذلك، فإنّه وافق على الخطة وأورثها لخلفه كَنَدي. قدمت تلك الخطة في عرض موجز للرئيس الجديد في شهر يوليو من عام 1961 والنتائج المتوقعة عام 1963. علق الرئيس وقد بدا مصدوماً وهو يغادر المكتب قائلاً، «ونسمّي أنفسنا بشراً!» أعاد ذكر هذا التعليق أمام وزير خارجيته دِين راسك، ولكن بالتأكيد ليس أمام أعضاء قيادة الأركان المشتركة، ولا الرأي العام الأمريكي. ظلّ الخيار، الذي طرحته خطة الحرب الشاملة على الرّفّ طيلة فترة رئاسته القصيرة الأمد وأيضاً طيلة فترة حكم خلفه لِندِن جونسُن.

عبّر الرئيس نِكسُن عن امتعاضه من الخطة SIOP حين اطلع عليها في شهر يناير من عام ، ضمن العرض الموجز الذي قدّم له، والبديل الوحيد الذي تطرحه بشن هجمات نووية كثيفة باستعمال آلاف الأسلحة النووية، التي ستقضي على حياة 90 مليون مواطناً روسياً خلال ساعات. ذكر مستشاره لشؤون الأمن القومي، هَنري كِسِنجر، بأنّ تلك الخطط ليست «أساساً معقولاً سياسيّاً» لخطر موثوق به لدرجة كافية. سأل فيما بعد في فصل الربيع خلال أحد الاجتماعات، «كيف يستطيع الإنسان أن يبرّر عقلياً... ويتخذ قراره بقتل 80 مليون شخصاً؟» لكنّ جهوده خلال السنوات الثمانية التالية، قد أضافت القليل لبدائل ذلك القتل في تلك الخطط،، مثلها مثل جهود روبِرت مكنَمارا، بمساعدتي والتي نجم عنها لا شيء.

في عام 1973، وخلال بحثه عن بدائل محدود حَريّة بالتصديق، أعاد كِسِنجر التأكيد في اجتماع آخر بالقول، «أن يكون الخيار الوحيد هو قتل 80 مليون شخصاً، فذلك قمة اللاأخلاقية!» في الحقيقة، لم يكن ذلك هو الخيار الوحيد في الخطة، فهناك خيارات أخرى تشير إلى نفس الدرجة من القتل. غير أنّ وجهة نظر كِسِنجر حول الأخلاقية وعدمها بقيت سرّاً مكتوماً لم يعرفه الرأي العام، حتى رُفِعت السرية عن بعض الوثائق بعد عدة عقود.

كانت للرؤساء فورد وكارتر ورَيگِن، خيارات عديدة «لبدائل نووية محدودة» تكون آثارها أقلّ بكثير من آثار الخطط الجهنمية المروعة apocalyptic. غير أنّ الجنرَل لي بَتلَر، وهو قائد سلاح الطيران السابق، قد كشف أنّ واضعي الخطط في أوماها والپنتگون، لم يعيروا حقيقة مقترحات هؤلاء الرؤساء اهتماماً، سواء في تخطيطهم وفي العمليات التدريبية والمناورات، التي أجراها سلاح الطيران، وظلوا ملتزمين بأنّ الحرب، التي يخططون لها ستكون «حرباً شاملة».

وبطبيعة الحال، لم يتوقع أحد من هؤلاء المسؤولين، المدنيين والعسكريين، أن تأتي الظروف التي تجبرهم على تنفيذ أيّ من تلك الخطط. لكنّهم عرفوا في ذات الوقت بأنّ احتمالات تلك الظروف كانت أكثر من صفر. لقد كانت دائماً ممكنة وخليطاً من المجازفة الممزوجة بالأمل البعيد تماماً. وفي

نفس الوقت لم ينظروا لأنفسهم أنّهم يتحكّمون بآلات الفناء، التي ستقضي تقريباً على كلّ كائن. ومع ذلك فإنّ المخاطرة، التي واجهها الرؤساء وقادة الأركان أنّهم تقبلوا بوعي النتائج، مهما كانت درجة الاحتمال لتنفيذ خطط SIOP، التي كانت ستؤول إلى وضع نهاية للمجتمعات المنظمة والوجود الحقيقي للمدن، في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وما ستجلبه من الموت البربري على ساكنيه من البشر.

أمّا بالنسبة إلى المؤرخ البريطاني إدورد تومپسُن،فقد لخّص القضية بشكل كئيب لأنّ الحصيلة «ربّما تعني إبادة كافة أنواع الحياة». إنّها «تعني إفناء حضارتنا. لو يجري جرد للألفي سنة الماضية لكلّ إنجاز حضاري، فستكون هناك عملية سلبية أمام كلّ فئة من فئات هذه الإنجازات. لكنّها في هذا الصدد ليست سلبية، إنّما قاتلة مدمرة».

منذ عام 1961 وما تلاه، اعتقدت أنّ عملية اتخاذ القرارات من قبل الجهات المسؤولة في الولايات المتحدة وحلفائها في الناتو، وأيضاً في الاتحاد السوفياتي، تجري بنفس الطريقة، التي اعتقدتها بصدد حرب فيتنام بعد مرور 8 سنوات. هنالك أمر يجب مقاومته، ويجب فهمه في نفس الوقت. فكما درست في الحقب التالية، تاريخ الحقبة النووية، تعلمت أنّ احتمال التهديد للوجود الحضاري، وحتى لكافة الكائنات، لا يقتصر على النصف الشمالي من الكرة الأرضية فقط. وهو أمر مُنتظر ومتوقّع، أحيط بالسريّة التامّة، منذ اللحظة، التي بدأ بها **مشروع مانهاتِن**.

وعلى وجه التحديد، فإنّ إمكانات السلاح الذري الحراري الأقوى بمقدار 1000 مرة من السلاح الذري الانشطاري، والذي أصبح أقلّ كلفة وأكثر عدداً، قد لاح في أذهان العلماء العاملين في مشروع مانهاتن منذ البداية. رأى البعض منهم أنّ ذلك في نهاية المطاف مشروع له دلالات تشكّل تحدّياً، وفي نفس الوقت مثير. بمعنى لا بُدّ منه ومرغوب فيه. بينما رأى البعض الآخر من هؤلاء العلماء، وهم في حالة كرب، أنّه مشروع خطير، فتحرّكوا مباشرة لإيقافه، لكنّهم فشلوا في تلك المحاولة.

وعلى أيّة حال فإنّه في نفس الوقت، في الحقيقة عصر نفس اليوم من شهر يوليو عام 1942، الذي اطلع فيه أصحاب أفضل العقليات من المتخصصين في علوم الرياضيات الفرضية في **مشروع مانهاتِن**، على احتمالات تطوير القنبلة الهايدروجينية نتيجة لجهودهم، فإنّهم رأوا إمكانية وشيكة، وتقريباً لا يمكن تصوّرها وأشدّ خطراً على الحياة على سطح هذا الكوكب، فتقبّلوا تلك المخاطرة بشكل سرّي.

القصة القصيرة، التي لا يعرفها إلاّ القليل، والتي سآتي عليها في الفصل التالي، تكشف شيئاً عن عملية اتخاذ القرارات فعلاً على المستويات العليا من المسؤولية في ظلّ ظروف غير مؤكّدة، خاصة حين تكون تلك القرارات محاطة بالسرية التامة. إنّنا كبشر نعارض بشكل لا يستعصي على الفهم أن نتعرف على ذلك في قياداتنا. إنّه الاستعداد الأصلي للمقامرة بالإقدام على كارثة نووية. وهي الرغبة في الدخول في مجازفات صغيرة وأحياناً ليست صغيرة، تكون لها كوارث لا يمكن تصوّرها. إنّ القادة الرسميين للبلدان الكبرى وغيرهم، من تلك التي تمتلك الأسلحة الذرية يدركون تلك المقامرة وتبعاتها منذ زمن. وهذه أخبار ليست سارة على الإطلاق.

الفصل السابع عشر
المجازفة باستخدام آلات الفناء 1

إشعال الغلاف الجوي

كما رأينا، فإنّ ابتداع آلات الفناء وبنائها اعتمد على الرغبة في اعتبار المدن أهدافاً مشروعة بقصد التدمير التامّ. وهذ مسألة تقبّلها حلفاؤنا في بريطانيا منذ عام 1942، وتقبّلها قادتنا وسلاحنا الجوي عام 1945. لكنّ بناء هذه الآلات وإدامتها قد قاما على استعداد، بعض الكائنات البشرية للقيام بمجازفات كبرى لا يمكن تقدير تبعاتها، والتي ذهبت إلى أبعد من قضية «قتل شعب». لقد ظهرت هذه الميول قبل اختبار مفعول السلاح الذري على الأهداف الحية.

في أواخر عام 1941 اطلع أنريكو فَرمي زميله إدوَرد تَلَر على آرائه بأنّ إمكانية قنبلة الانصهار النووي Fusion Bomb تفوق قدرتها بمقدار 1000 مرة قنبلة الانشطار النووي Fusion Bomb، التي يرومون العمل لصنعها. تسبّب ذرات عنصر الهايدروجِن الخفيفة حين تندمج لتكوّن فتيلاً، إطلاق كمية هائلة من الطاقة ذات حرارة شديدة استثنائية. في مركز الشمس، يكون انصهار الهايدروجِن عملية ذاتية بسبب الحرارة العالية والضغط الشديد للشمس ذاتها. ولكن على الأرض، إذا افترضنا أنّ انصهار الهايدروجِن ممكن، فهو يتطلب قدراً هائلاً من الحرارة والضغط كي تبدأ العملية. ولكنّ في القنبلة الذرية، التي تعتمد في طاقتها على الانقسام والانشطار، تستطيع ذرات عنصر اليورَنيُم الثقيل أن تقوم بالمهمة.

أشعل ذلك النقاش فتيل نار في ذهن تَلَر، لم تنطفئ أبداً. لقد استولت الفكرة على جوارحه وأصبح مأخوذاً بها طيلة فترة العمل في **مشروع مانهاتِن**، الذي دُفِع فيه جانباً من قبَلِ روبَرت أوپنهايمر، كي يعمل في مشروع جانبي حول «أسلحة المستقبل الفائقة». وعليه، لم يساهم تَلَر في المشروع الحقيقي لتطوير القنبلة الذرية واكتمالها قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

في اليوم التالي للقاء الأول لمناقشة نموذج **مشروع مانهاتِن** بتاريخ 7 يوليو من عام 1942، وفي قاعة مقفلة الأبواب في جامعة كاليفورنيا، فرع بركلي، غُطيّت شبابيكها بالأسلاك خوفاً من الدخلاء، ملأ تَلَر سبورة القاعة السوداء بمعادلاته وحساباته، التي تقود لصنع فتيل لسلاح الانصهار الذري الحراري Thermonuclear Fusion Weapon.

بدأ أولاً بشرح العملية المعروفة للحضور حول انشطار النيوترون المنفرد للذرة الواحدة ورمزه U-255 والذي يخلق عند انقسامه ويُطلق 2 نيوترون. وهكذا تبدأ سلسلة من الانقسامات والانبعاثات المتتالية، التي ستتسبب، خلال جزء قصير جداً من اللحظة الزمنية، في قيام انفجار يفوق بمقدار 1000 مرة انفجار طنّ من مادة TNT. كان من المفترض في النهاية أن يكون ذلك هو ما يهدف المشروع إلى تحقيقه.

لكنّ النقطة، التي كانت في ذهن تَلَر خلال تقديمه هذا تعود إلى حديثه مع زميله فَرمي، وتقوم على حساب الحرارة الناجمة عن العملية. ستكون هذه الحرارة كافية، كما أحبّ أن يقترح، بأنّ مقاومة انصهار قنبلتين هايدروجِنيتين أو أكثر ستكون طاغية وتقود إلى انبعاث طاقة أكثر بمقدار 1000 مرة (أي بحوالي مليون مرة أكثر من طاقة مادة TNT الانفجارية). أوضحت معادلاته التي كتبها على السبورة كلّ ذلك وعزّزتها بالأرقام.

ولكن بالنسبة لهذا الخليط النادر من الأدمغة الحادة التفكير، استهدف تقديم تَلَر طرح شيء آخر، سارع بالإفصاح عنه. نظر العلماء إلى ما كتبَ على السبورة وقد أخذ بهم حدس جنوني. إنّ حرارة بتلك الشدّة، تفوق تلك الموجودة في مركز الشمس، ستكون قادرة ليس على صهر ذرات الهايدروجِن، بل أنّها ستتجاوز **عارض كولومب**، الذي يفصل ما بين ذرات الهايدروجِن في الماء وذرات النَيتروجِن في الهواء. إنّها ستشعل في الحال كافة الهايدروجِن في مياه المحيطات كما ستشعل هواء الغلاف الجوي. ستحترق الأرض بأقلّ من لحظة، وتصبح بين الكواكب الأخرى مجرد صخرة جرداء تدور في الفلك إلى الأبد.

لا أحد من أولئك العلماء الذين اجتمعوا في بركلي، قد شكّ في إمكانية الفرضية للانفجار الذري. المشكلة، التي لم يكن التغلب عليها، على الأقلّ لأغراض الوقت والاستخدامات العملية في وقت الحرب العالمية الثانية، كانت ذات طبيعة تقنية. فمثلاً، هل يمكن أن تحافظ الكتلة على تماسكها حتى يمكن لمسلسل الانشطار أن يكتمل ويحدث الانفجار الكامل؟ بدا واضحاً الآن أنّ التحدي العملي ليس القنبلة وليست هي الموضوع الوحيد، ولكن جعلها تؤدي غرضها قد لا تكون فكرة جيدة.

بدأ العلماء يراجعون معادلات تَلَر واحدة تلو الأخرى. لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفوا وجود خطأ فيها. لقد أهمل اعتبار أحد أقسام العملية، الذي يتحكم بشكل حاسم بسرعة التبريد، أي انتشار الحرارة إلى الغلاف الجوي. ومع ذلك فإنّ تصحيح ذلك لا يلغي إمكانية ردّ الفعل، الذي نخشاه أن يحدث.

كان بين الحضور هانز بَث، عالم الفيزياء النظرية، الذي حصل فيما بعد على جائزة نوبل عن أبحاثه حول ردود الفعل النووية الحرارية داخل الشمس. كان ميالاً مبدئياً إلى أنّ النتيجة المخيفة «مستحيلة الحدوث».

وعلى أيّة حال، لم يأتِ أحد من الحاضرين بمثل رأي بَث. كتب نويل فار دَيفز معبراً عن وجهة نظره حول الموقف في حينه، فقال «إنّها حالة عقلية تقوم على عدم الأخذ بحسابات شخص آخر ومعادلاته». أمّا فَرمي وهو الفيزيائي التجريبي العظيم، فكان بشكل خاص غير متفق مع بَث وتأكيداته حول الاستحالة. وفي النهاية استنتج أوپنهايمر أنّ آرثر كومپتُن، المسؤول عن المشروع بكامله، يجب أن يُشعَر في الحال بهذا الخطر. وفي الأثناء يجب التوقف عن العمل حتى يتبيّن الأمر. غير أنّ كومپتُن كان يقضي إجازة مع أسرته على شواطئ بحيرة في ولاية مِشِگن. تمكّن أوپنهايمر من الاتصال به عن طريق الهاتف وأخبره بصوت مشوب بالقلق بأنّ عليه أن يعود في الحال ويقابله. لم يستطع طبعاً أن يذكر له سبب طلبه أن يقطع إجازته والعودة فوراً. استقر الأمر أن يستقل أوپنهايمر بنفسه القطار ويذهب لمقابلة كومپتُن. منعت الحكومة علماء مشروع مانهاتن من السفر بالطائرات لأغراض السلامة. كتب كومپتُن خلاصة ما جرى في مذكراته:

> لن أنسى إطلاقاً ذلك الصباح، حين استقبلت أوپنهايمر في محطة القطار وأخذته بسيارتي إلى كوخنا المطلّ على البحيرة الهادئة. استمعت إلى القصة وهو يرويها لي هناك، بأنّ فريقه قد توصل إلى إمكانية أحداث انصهار ذري Fusion، وهو الأساس لصنع قنبلة هايدروجِنيّة. اعتُبِر ذلك في حينه خطر هائل لم يُعرف من قبل. المعروف أنّ نوى الهايدروجِن وپروتوناته ليست مستقرة، وأنّه من الممكن أن تختلط مكونة نوى هلامية ذات حرارة عالية جدّاً. لكنّها لا تصل إلى الدرجة الضخمة لحرارة القنبلة الذرية. وهو ما نحتاجه لتفجير الهايدروجِن؟ إذا كان الأمر يتعلق بالهايدروجِن، فماذا عنه في مياه البحار؟ هل يمكن أن يقود انفجار قنبلة ذرية إلى إطلاق العنان لانفجار في مياه البحار والمحيطات ذاتها؟

ليس ذلك كلّ ما في الأمر، فالنايتروجِن في الهواء ليس مستقراً هو الآخر، ولكن على درجة أقلّ من الهايدروجِن. هل يمكن أن ينفجر أيضاً إذا انفجرت قنبلة ذرية في الغلاف الجوّي؟

هذه أسئلة لا يمكن تجاوزها بسهولة. هل يوجد حقاً أيّ تغيير في تركيب القنبلة الذرية يمكن أن يحدث انفجاراً في نايتروجِن الغلاف الجوي وهايدروجِن مياه المحيطات؟ ستكون تلك هي الطامّة الكبرى. من الأفضل أن نتقبّل عبودية النازية بدلاً من المجازفة بإسدال الستار النهائي على البشرية!

دعونا نتأمّل للحظة الجملة الأخيرة من مذكرات كومپتُن. تبدو أنّها معقولة للغاية ويمكن للمرء القول بأنّها واضحة لا لبس فيها. ومع ذلك فإنّ العدد الذي لا يُحصى من الكتب التي نُشرت عن النازية والحرب العالمية الثانية، لم أجد فيه أيّة فقرة تقرّ بذلك، سواء في الوثائق الحكومية أو المذكّرات أو الكتب التاريخية. لم أجد لها صدى حتى في المقالات الافتتاحية للصحف، ولا حتى الرسائل الموجهة للمحررين. لا شيء أسوأ من الاحتلال النازي!

إنّ الوقوع تحت عبودية النازية ما كان أصلاً أمر يمثّل خطراً كبيراً على الأمريكيين، لكنّه كان كذلك بالنسبة لحلفائهم وقت الحرب من البريطانيين والروس. في شهر يونيو من عام 1942، قبل بدء معركة ستالِنگراد، التي استمرت 6 شهور، كان الانتصار النازي في روسيا مسألة أكثر من ممكنة، هذا إضافة إلى نجاحهم في احتلال كافة أوروپا. في الوقت الذي عبّر فيه كومپتُن عن رأيه هذا، بدأ النازيون عملية تصفية البولنديين و6 ملايين مدنياً يهودياً، في الأراضي التي احتلوها، إضافة إلى 27 مليون جندياً ومدنياً روسياً. هل يمكن حقاً أن نجد شيئاً أسوأ من ذلك، لحدّ إمكانية تفضيل العبودية النازية عليه؟

الجواب نعم، حسب حكم كومپتُن. إنّه المحاولة لخلق إمكانية لإنهاء الحياة على هذا الكوكب. أليست هذه مخاطرة يجب تحاشيها بأيّ ثمن؟

من المدهش أنّ ردّ فعل هِتلر على تلك الإمكانية ما كان مختلفاً مع الرأي في أعلاه. قبل أسابيع من إثارة هذا الموضوع، وفي شهر يونيو من عام 1942، نُقِلَ عن وزير التسليح ألبرت سپير تأكيده نقلاً عن وجهة نظر هِتلَر أنّه لا فائدة تُرجى من المضي في الطريق لإنتاج قنبلة ذريّة خلال الحرب لأنّها لن تكون جاهزة ضمن فترة السنتين، التي حدّدها هِتلَر لتحقيق النصر. لكنّه كانت هناك أيضاً أسباب أخرى.

في الحقيقة أنّ الأستاذ هايزِنبَرگ لم يُعطِ جواباً نهائياً عن سؤالي فيما إذا كان نجاح عملية الانشطار الذري، يمكن السيطرة عليه بشكل مؤكّد تماماً، أو أنّها قد تستمر في خلق ردود فعل متتالية. بصراحة، لم يكن هِتلَر في منتهى السعادة بأنّ العالم تحت حكمه سيتحول إلى كوكب لامع.

مضى سپير إثر تلك المناقشة للقول، «فيما يتعلق باقتراح علماء الذرة، فقد أحبطنا مشروع تطوير القنبلة الذرية... بعد أن سألتهم ثانية حول التاريخ المحدد لذلك، فأخبروني أنّه لا يمكن الاعتماد على أيّ شيء قبل مرور 3 أو 4 سنوات».

وبسبب الجهل بهذا القرار الألماني في ذلك الشهر ضدّ مشروع تطوير القنبلة الذرية، وبعد مواجهة الاحتمال بإمكانية أن تصبح الأرض كتلة صخرية جرداء بعد اشتعال قصير، «فقد اتفق أوپنهايمر وكومپتُن على أنّه يوجد جواب واحد فقط. يجب أن يمضي فريق أوپنهايمر في حساباتهم. ما لم يأتوا باستنتاج ثابت يُعتمَد عليه بأنّ قنابلنا الذرية سوف لن تفجّر الغلاف الجوي أو مياه البحار والمحيطات، فإنّ مثل هذه القنابل يجب ألاّ تُصنع على الإطلاق».

في الحقيقة أنّ مواجهة الإمكانيات، التي لم يواجهها أحد من البشر من قبل، لا بُد للفرد أن يعتقد أنّ الرأي أعلاه كان حكماً لا مفرّ منه. ولكن ظهر أنّه أبعد ما يكون عن ذلك. في الحقيقة، أنّ كومپتُن لم يلتزم بالأمر تمام الالتزام.

لم يستمر **مشروع مانهاتِن** بكامل طاقته، ولكن ليس بسبب حسابات أبعد أو اختبارات جزئية أثبتت بدون شكّ عدم وجود إمكانية لما أصبح يُعرف «اشتعال الغلاف الجوي». أظهر بعض العلماء ثقتهم بمعادلات بَث وحساباته، أو في الواقع مشاعره الغريزية بأنّ تلك النتيجة «مستحيلة». لكنّ العديد من العلماء الآخرين لم يشاركوه بهذا الرأي.

ومع مرور الوقت، وحين أخذ العمل يتسارع، لم يتمكن أحد، بما فيهم بَث نفسه أن يُقنع أكثر الآخرين أنّ الكارثة الكبرى «ما كانت مستحيلة». وهذ رأي طرحه كومپتُن باعتباره مسؤولاً عن المشروع، وكما بدا معقولاً أنّه الشرط المحدد لاستمرار المشروع. نعم الكارثة غير مرجحة جدّاً ولكنْ «ليست مستحيلة».

دار السؤال حول مفهوم «غير مرجحة»؟ هل أنّ المجازفة بأيّ شكل من الأشكال «ضئيلة»؟ وما مدى المجازفة المطلوب، قتل كلّ إنسان، كلّ كائن حيّ؟ لكي تصبح مقبولة؟ في مقابلة جرت في وقت متأخّر مع الروائي پَرل بُك، أعاد كومپتُن القصة بحذافيرها، كلمة كلمة تقريباً. وأضاف، حسب

قول بُك أنّه خلال استمرار العمل طيلة الأشهر الثلاثة التالية،

> ناقش العلماء مخاطر الانصهار الذري دون التوصّل إلى اتفاق بشأن الأمر. ومرة أخرى تولى كومپتُن ريادة القرار النهائي. قال إنّه لو ثبت بعد إجراء الحسابات والمعادلات أنّ الفرص لو كانت أكثر من 3 بالمليون بأنّ الكرة الأرضية ستتبخّر بسبب التفجير الذري، فإنّه لن يستمر بمثل هذا المشروع. إذا أثبتت الحسابات والمعادلات أنّ الأرقام أقلّ من ذلك ولو بقليل فإنّ المشروع سيستمر.

ماذا يقول؟ كيف يستطيع الإنسان أن يتوصّل إلى الحدّ الدقيق «3 بالمليون»؟ على أيّة معادلة تقوم تلك الحسابات، وماذا تعني؟ في هذه الحالة لا بُد عنت «قليلاً، قليلاً جدّاً. لا نعرف ذلك بالضبط». اعتقد أغلب المنظّرين الكبار أنّ الاحتمال قليل للغاية، لكنّه ليس صفراً. وحين تمّ اقتناع كومپتُن بأنّ المجازفة لن تكون أكثر من «3 بالمليون»، فهذا رقم جاء به هو كي يكون رقماً مقبولاً بغية استمرار العمل. لقد قرّر، خلافاً لردود فعله الأولى، بأنّه على الرغم من «عدم وجود فرصة»، فإنّ احتمالها قليل بما فيه الكفاية كي يتواصل العمل بالمشروع، واتفق الآخرون مع ذلك الرأي. وكما ذكر پيتر گدچايلد، فإنّه «حين توصلت معادلات بَث وحساباته إلى أنّ اشتعال الغلاف الجوي» احتمال بعيد، على الأقلّ في الوقت الحالي بذاته، عادت المجموعة للتركيز على العمل [لتصميم القنبلة الانشطارية].

«في الوقت الحالي» عبارة تعني يجب الانتظار حتى يمكن التوّصل إلى معادلات وحسابات أخرى، على أمل إثبات أنّ ذلك الاحتمال سيكون صفراً، كما طلب كومپتُن مبدئياً من أوپنهايمر، قبل إجراء تفجير فعلي. غير أنّ الحسابات التي سبقت الاختبار، لم تظهر ذلك.

لم يتعرّض أيّ من التقارير إلى وصف مشكلة «إحراق الغلاف الجوي» باعتبار أنّها ثبتت كمسألة محدودة لا تثير مشكلة، بل أمر مستحيل، حين تمّ التطرّق إلى القضية لأوّل مرّة في النقاش المبدئي بين جماعة المنظّرين، قبل أنّ يجري تفجير الجهاز فعلاً.

أعرف أنّ ذلك ليس صحيحاً لأنّني سمعت به بنفسي على لسان المؤرخ الرسمي ل**مشروع مانهاتِن**، دَيفِد هوكِنز، الذي تمّ تعيينه ليسجّل ما يجري يوماً بيوم، على شكل تقارير بالغة السريّة منذ بداية المشروع. حين سألته ونحن في جامعة كُلورادو عام 1982 أن يوضح عبارة تمّ اقتباسها من تقاريره التي رُفِعت عنها السرّية عام 1945، والتي ورد فيها، «تفترض استحالة إشعال الغلاف الجوي، التي وردت على لسان العلم والحس المشترك common sense، أنّ الاستحالة في ذلك المقطع»، كما شرح لي، «لا تعني أيّ احتمال». إنّها تعني «أنّه لأغراض عملية، فإنّ [فرصة ضئيلة]

تعني تأكيداً كافياً للاستمرار في العمل بالمشروع».

أخبرني أنّه أجرى مزيداً من المقابلات مع المساهمين في المشروع بصدد هذا الموضوع، خاصّة قبل **اختبار ترِنِتي** وبعده، أكثر من أيّ موضوع آخر يخصّ بحوثه. أضاف بأنّ المشكلة أصبحت موضوعاً «غير قابل لنقاشات أكثر مع رئيس المشروع أو مع الباحثين الآخرين». كان عليهم أن يتركوا القضية وشأنها. كان الشباب من الباحثين يواصلون اكتشاف الإمكانية منذ بداية المشروع حتى نهايته. وحين أثاروا الموضوع بشكل وديّ مع المنظرين الكبار، حتى وإن أظهروا قلقاً كبيراً، قيل لهم، «لقد نظرنا في الموضوع وعالجناه، ولا داع بعد ذلك للقلق بشأنه».

قبل التفجيرات التي جرت في موقع ترِنِتي وضرب مدينتي هِروشِما ونَگزاكي، أكّد لي هوكِنز بقوة أنّهم لم يتأكّدوا من ذلك عن طريق الحسابات النظرية أنّ فرص إشعال الغلاف الجوي نتيجة لأيّ من تلك التفجيرات كانت صفراً. وحتى لو كانوا عرفوا، فإنّ ذوي التجربة بينهم سيكونون عرفوا بأنّ الحسابات قد تكون على خطأ، أو أنّها لم تأخذ أمراً ما بالحسبان. ذلك بالضبط ما كان في ذهن فَرمي وحتى إدوَرد تَلَر في مساء يوم إجراء أول اختبار.

أشارت أغلب التقارير عن اختبار ترِنِتي الأوّل، الذي جرى صباح يوم 27 يوليو من عام ، وإلى أنّ فَرمي كان مستعداً لقبول الرهان في الليلة السابقة بأنّ احتراق الغلاف الجوي أمر وارد. قال حينها، «أشعر أنّني الآن في موقف لأؤلف كتاباً». [أي أنّني أقبل الرهان وفق احتمالات ثابتة]، وفق أمرين طارئين. (1) إنّ التفجير سيحرق ولاية نو مكسِكو أو (2) أنّه سيحرق العالم برمّته.

ولسوء الحظ، فإنّ احتمالات فَرمي، التي توقعها في تلك الليلة وعمّا سيحدث صباح اليوم التالي، قد طوّيت في صفحات التاريخ. لا أدري إن كان أحد قد تراهن مع فَرمي، وماذا كانت نتيجة ذلك الرهان. لا أحد يعرف. هنالك إشارات قوية أنّ احتمالاته بإحراق الغلاف الجوي كانت أكثر من نسبة 3 بالمليون. ولا بُدّ أنّه تراجع عن فكرة «تأليف كتاب» حول الأسس التي بنى عليها توقعاته.

تتفق التقارير أنّ الجنرَل گروفر، وهو الضابط العسكري المسؤول عن **مشروع مانهاتِن،** قد سمع برهان فَرمي وانزعج منه لأنّه خشي أنّ تلك التقوّلات كان يمكن أن تثير الهلع في صفوف الجنود المتواجدين في موقع الاختبار. لقد كان هو نفسه قد أعدّ بياناً بأنّ الاختبار كان أكثر من المتوقع وأودى بحياة أوپنهايمر والآخرين من أعضاء فريقه، الذين راقبوا الاختبار. أشار أنّ الأمر ببساطة كان «انفجاراً طارئاً». كان مرتبكاً حول رهان فَرمي، ولأنّه قد يحتاج إلى كتابة بلاغ صحفي مختلف «بأنّنا خسرنا ولاية نو مكسِكو»، لو كان فَرمي قد نجح في كسب الشطر الثاني من رهانه، حول نهاية

الحياة على هذه الأرض. غير أنّ گروفر عاد فاستنتج أنّ فَرمي كان يمزح.

نتيجة لردّ فعله هذا، وصف العديد من التقارير أنّ «مزحة فَرمي قد قُصد منها تخفيف حدّة التوتر». ما كان واضحاً كيف أنّ التوتر قد خفّ بالاطلاع على رهان فَرمي. ولكن حسب ما ورد نقلاً عن وليم لورَنس، من صحيفة نو يورك تايمز، الذي سُمِح له أن يُسجّل العملية الكاملة لاختبار القنبلة وذكر فيما بعد، «إنّ العديد من العلماء لم يعتقدوا أنّ فَرمي كان يمزح». في الحقيقة، أنّ العديد من التقارير ذكرت كيف أنّ القلق ساور كافة المساهمين في المشروع طوال تلك الليلة، خاصّة بين العلماء الأصغر سنّاً. اشتمل الاحتمال أولئك الذين كانوا على علم بالظاهرة الممكنة، وكيف قوبلت مخاوفهم بتأكيدات صيغ مبسّطة.

وكما ذكر گدچايلد، فإنّ وجهة نظر فَرمي حول ريبته بصدد حدوث اشتعال الغلاف الجويّ، لم تكن مزحة وليس هزّة في آخر دقيقة.

> خلال الأسابيع الأخيرة، التي وضعت فيها مجموعة تَلَر الترتيبات الأخيرة للاختبار والاستعدادات المباشرة لإمكانية احتراق الغلاف الجويّ، حسب تحفظات أنريكو فَرمي، فقد عمل ذلك الفريق على مراجعة المعادلات، كما هي الحال في مثل هذه المشاريع، قبل ظهور استعمالات الكومبيوتر. تضمّنت تلك المراجعات تبسيط الافتراضات. ومرة تلو أخرى جاءت النتائج سلبية. لكنّ فَرمي واصل عدم ارتياحه بصدد فرضياتهم. إضافة إلى ذلك أنّه، كان قلقاً بشأن ظاهرة غير معروفة عن الظروف الجديدة، التي رُبّما تقود إلى كارثة غير متوقعة.

حين اقترب موعد الاختبار، ذكر تَلَر نفسه ومعه گدچايلد، «البحث حول فرضيتنا واختبارها بصدد بروز ظاهرة، كانت على بال كلّ من يودّ أن يستمع». كان لا يزال بفعل ذلك يتعاون مع روبَرت سُربر، مساعد أوپنهايمر، وذلك خلال ساعات المساء، التي سبقت القيام بالاختبار. نصحه سُربر بأن يبحثا الإمكانات المحتملة، شرط أن يجلب معه زجاجة وِسكي.

في عام 1982، أشار تومَس پَوَرز خلال مقابلة مع ستان أولام، الذي كان عام 1951 شريكاً في فكرة القنبلة الهايدروجِنية مع تَلَر، وكانت تلك المقابلة حول عدم يقين فَومي في تلك الليلة. وحسب ما ذكر أولام فإنّه:

> قبل اختبار ترِنِتي، تمّ تعيين الفيزيائي جورج برَيت ليقوم بتقدير الفرص التي

يمكن فيها أن يؤدي اختبار القنبلة إلى إشعال الغلاف الجوّي المحيط بالأرض. كانت الفرصة محدودة جدّاً، ولكن بعد ذلك قال أولام، «إنّ المحكّ لذلك لانهائي... وأنّ فَرمي قام بوضع تلك المعادلات أيضاً». كان يريد أن يكون متأكّداً. من الناحية النظرية، إذا كانت درجات الحرارة الناجمة عن الانفجار الذري عالية بما فيه الكفاية، فإنّ النايتروجِن في الجو قد يشتعل تلقائياً. أكّد فَرمي معادلات برَيت، بأنّ تلك الحرارة لا وجود لها في الطبيعة. في الطريق الطويل المؤدي إلى منطقة الأمُگوردو لإجراء اختبار ترِنِتي، مزح فَرمي حول استنتاجاته قائلاً، «أحسب أنّ نسبة فرصة حدوث المعجزة هي 10%».

أنيطت بالفيزيائي سام أَلِسُن مهمة إجراء العدّ التنازلي خلال عملية التفجير في مراحله الأخيرة باستعمال مكبّر الصوت، «10، 9، 8...» ذكر دَيفِز أنّه كان يوجد عالم فيزيائي آخر مهمته الضغط على الزرّ في اللحظة المطلوبة. استدار هذا نحو أوپنهايمر وسأل، «ماذا لو قلت إنّ هذا الجهاز لا يعمل، فنوقف العملية بكاملها؟».

قابله أوپنهايمر بنظرة باردة وسأله بدوره، «هل أنت على ما يُرام؟» حين استمرّ أَلِسُن في مهمته، «... 5... 4...»، كان يفكّر جزئياً، حسب رواية ديَفِز، بـ «مخاوف فَرمي» التي اعتقد بصحّتها. لقد عيّنه أوپنهايمر لتلك المهمة خلال الأشهر الستة الماضية وأوكل إليه أن يُشرف على تقدمّ المشروع بالشكل المطلوب وحسب الجدول الزمني المرسوم. لكنّه الآن «لا يستطيع أن يُبرّر فعله بأنّه نفّذ ما أُمِرَ به، وأيّ حق لديه في المساهمة بتجربة قد تقضي على البشرية بكاملها؟» وبعد لحظات انطلقت كتلة ضوئية كبيرة أعقبتها موجة انفجارات هزّت الأرض والقبو، الذي تواجدوا فيه. ثمّ طغى بعد ذلك سكون مطبق. تأمّل أَلِسُن الموقف وقال، «ما زلنا أحياء... لم يشتعل الغلاف الجوي».

أمّا الآخرون الذين راقبوا الاختبار على مسافة 10 أميال من «المنطقة صفر»، فقد طغت عليهم مشاعر الارتياح للسبب ذاته، بعد أن عاشوا لحظات التوتر والخوف من حدوث اشتعال الغلاف الجوي. كان بينهم جَيمس كونَنت، رئيس جامعة هارفرد، الذي كانت مهمته مراقبة **مشروع مانهاتِن** باعتباره رئيساً للجنة NDRC. حين كان صوت أَلِسُن يتردد عبر مكبّرات الصوت وهو يقوم بالعدّ التنازلي، همسَ كونَنت في أذن گروفر قائلاً، «ما كنت أحسب أنّ الثواني تمطّ أرجلها الثقيلة، تستحيل إلى عصور!» أعقب ذلك بذكر ما يلي:

> ... ثمّ لاحت في الأفق كتلة ضوئية بدت كأنّها تغطي السماء واستمرّت على تلك الشاكلة للحظات. توقعت أن يكون الأمر كومضة برق سريعة، ولكن فاجأتني كتلة

الضوء هذه وكان ردّ فعلي الفوري بأنّ خطأ ما قد حدث وأنّ التحوّل الذري الحراري في الجو، الذي نوقِش باعتباره أمراً وارداً على شكل مزاح قبل بضع دقائق، قد حدث فعلاً».

كان تفكيره في تلك اللحظة «أنّ لهيب النار قد أطبق على الكون بكامله».

باختصار، كان اختبار ترِنِتِي الأوّل في المُگوردو قد شكّل مقامرة واعية من قبَل العلماء الكبار في مجمّع لاس ألموس ورؤساؤهم المباشرين. وهي مقامرة شملت قدَرَ كلّ كائن حسّاس على وجه الأرض وفي الجو وفي أعماق المحيطات. جدير بالذكر أنّ العلماء وحدهم، هم الذين وضعوا المسؤولية على عاتقهم في هذه المقامرة. واستناداً إلى كافة الوثائق والمذكرات الشخصية المسجلة، لم يرد ذكر لإمكانية اشتعال الغلاف الجوي، ولم يكن الأمر معروفاً حتى من قِبَلِ الرئيس أو أيّ شخص آخر في العاصمة واشنطن، خارج المجموعة المساهمة في مشروع مانهاتِن في عام 1945 أو السنوات الثلاث الماضية قبلها، منذ أثير الموضوع مع كومپتُن من قِبَلِ أوپنهايمر في شهر يوليو عام 1942.

لو كان الأمر معروفاً لدى القيادة المدنية العليا للبلاد، كما كان الأمر بالنسبة إلى هِتلَر في نفس الشهر من عام 1942 من قِبَلِ سپِير، فماذا كان سيكون ردّهم؟ هل يمكن أنّ الرئيس روزفَلت اتخذ موقفاً مؤيّداً إلى كومپتُن حين كان ردّ فعله الأول «لا مجال» لمثل هذه المجازفة كي تُعدّ مقبولة، مهما كانت درجة الاحتمال ضعيفة؟ أم سيكون حكمه بعد ذلك بوقت قصير أنّ المجازفة قليلة بما فيه الكفاية لكي يستمر العمل في تطوير المشروع وأنّه يجب أن يستمرّ؟

ربمّا كان رأيه أنّ الشق الثاني مرجّح أكثر، لأنّ البحث هو موضوع التساؤل في تلك اللحظة وفي السنوات القليلة التالية. وبعد كلّ ذلك، فإنّه في شهر يونيو من عام 1942 كان لكلّ كافة العلماء سبب للخوف من أنّ الألمان قد يطوّرون القنبلة قبلنا، وأنّه كان أمام واضعي السياسة خوف من أنّ الألمان سيربحون الحرب، حتى بدونها. لكنّ ذلك لم يكن وارداً في شهر يوليو من عام 1945، حين وصلت الجهود إلى مرحلة اختبار تفجير الجهاز، دون التأكّد بشكل نهائي من عدم احتمالات اشتعال الغلاف الجوّي.

لو كان الرئيس ترومَن أو وزير الحربية هَنري ستِمسُن على علم بإمكانية القضاء على حياة هذا الكوكب إلى الأبد، هل كانا سيطلبان نسبة أفضل من 3 بالمليون، دعك من «نسبة فَرمي 10%» ؟ وكما حدث، فإنّ الجهل بأيّ سبب يثير المخاوف. لقد انتظرا التقارير الواردة من مؤتمر پوتسِدام في

ألمانيا، وأمِلا أن تقوّي أيديهما في المفاوضات مع السوفيات، حين علما بنجاح المؤتمر، على عكس سام ألِسُن، الذي لم يشعر بالارتياح. كما أنّهما لم يكونا على اطلاع بأنّ بعض العلماء استمروا في التعبير عن مخاوفهم حول الآثار بعيدة المدى للاختبار الذري، وعن التجارب التي أعدّوا لتطبيقها على البشر في اليابان.

كان جزء من المخاوف، وهو أصغر جزء، له علاقة بعدد الضحايا نتيجة التفجيرات التالية. شعر ألِسُن بوخز ضمير بصدد هذا الموضوع خلال دقائق من اكتمال تجربة الاختبار، لكنّه من ناحية أخرى، تبدّدت مخاوفه حين لم يحترق الجميع ويختفون من على وجه الأرض. ذكر وهو في حالة من المعاناة مخاطباً كونَنت، «آه يا دكتُر، سيأخذون هذا الشيء ويَقتلون باستخدامه المئات من اليابانيين». كان تقديره متواضعاً لأنّ الضحايا كانوا مئات الآلاف.

في اجتماع عُقِد بتاريخ 31 مايو، قدّر أوپنهايمر أنّ القنبلة ستقتل حوالي 20 ألفاً من الموطنين اليابانيين. لقد قتلت مباشرة أربعة أضعاف ذلك. ولكن هذا لا يزال أقلّ من 100 ألف مواطناً، قضوا نحبهم حرقاً وهم أحياء في ليلة واحدة من ليالي طوكيو. إنّ استعداد القيادتين المدنية والعسكرية بالسماح للجنرَل كُرتِس لَومَي وتقبل عدد الضحايا الفادح بين صفوف المدنيين قد حدث قبل عدة أشهر وتمّ التغاضي عنه. وبنفس الصورة، فإنّه في أواخر شهر يوليو أظهر العلماء استعدادهم للمجازفة بنسبة أقلّ، ولم تكن في رأي فَومي قليلة، بأن يحرقوا الحياة على سطح هذا الكوكب.

واعتماداً على قول ألبرت سپير، فإنّ تلك المحاولات لم تدهش أدولف هِتلَر. في شهر يونيو من عام 1942، مزح عدة مرات بالقول، «إنّ العلماء وهم في وهج اندفاعاتهم الساذجة يكشفون أسرارهم بأنّهم سيحرقون العالم بكامله. ولكن لا شكّ عندي أنّ ذلك سيتطلب بعض الوقت ليصبح حقيقة». أكّد أنّه لن يرى ذلك في حياته. في الحقيقة أنّه وضع نهاية لحياته قبل 10 أسابيع من اختبار ترِنِتي. (انتحر هِتلر بتاريخ 30 أبريل عام 1945، وتمّ اختبار أول قنبلة ذرية في ولاية نو مكسيكو بتاريخ 16 يوليو عام 1945. ألقيت هذه القنبلة على هِروشِما بتاريخ 6 أغسطس وأخرى على نَكَزاكي بتاريخ 9 أغسطس. فقد 39000 شخصاً حياتهم في المدينة الأولى و80000 شخصاً في المدينة الثانية، أحرِق نصفهم وفارق الحياة ساعة الانفجار - المترجم).

إنّ أولئك الذين أقدموا على المقامرة في شهر يوليو من عام 1945 لا تنطبق عليهم صفة «العلماء المجانين»، رغم أنّه خلال استعراض هذا التاريخ الطويل الخفي، فإنّ الفكرة ما كانت بعيدة عن الواقع. ورغم أنّهم كسبوا الرهان بنسبة احتمال عالية، فقد كانوا أيضاً واعين أكثر من رؤسائهم المدنيين، وأنهم في ذات الوقت شاركوا في مقامرة طويلة الأمد تتعلق بمدى ديمومة الحياة الإنسانية.

هنالك ملاحظتان. أوّلاً، اقتنع القليل فقط من العلماء بأنّ اختبار السلاح النووي الأمريكي الأول من نوعه، لم يكن محظوراً استخدامه ضدّ المدن خلال أوقات الحرب. في حالة غياب تعاون مع السوفيات وسيطرة دولية، تأكّد بشكل افتراضي قيام سباق يائس مع السوفيات عقب الحرب العالمية الثانية. ثانياً، لقد فهم الجميع أنّ مثل هذا السباق قد يقود خلال بضع سنوات إلى إنتاج القنبلة النووية الحرارية من قبل الجانبين، وسيتوفر الآلاف من هذه القنابل التي لها قدرة انفجارية تعادل ملايين المرات القوة الانفجارية لأكبر الأسلحة التي استُخدِمت في الحرب العالمية الثانية. بدأ ظهور هذين التطورين أصلاً عام 1942، أي في نفس اللحظة، التي تمت فيها معرفة إمكانية احتراق الغلاف الجويّ، وبالتالي إمكانية تدمير الحضارة الإنسانية. لقد جرى خلال الأربعة آلاف سنة من تاريخ البشرية إحراق مدن بكاملها وبنسبة أكثر بكثير من نسبة 3 بالمليون.

لدى العودة إلى واشنطن، كتب جَيمس كونَنت ملاحظاته عن اختبار ترِنِتي وقدّمها إلى رئيسه فانفَر بُش، اختتمها بالتعليق على أنّ اللحظات الأولى جعلته يشعر وكأنّه يساهم في تدمير البشرية. «بقي انطباعي الأول حيّاً واضحاً بجلاء في ذهني، أنّني شهدت ظاهرة كونية مثل ظاهرة الكسوف. فجأة اكتست السماء بلون أبيض خفيف، وكأنّ نهاية العالم قد اقتربت. لربّما كان انطباعي سابقاً لأوانه حسب الجدول الزمني لمرور السنين!».

كان ردّ فعل جورج كِستباكوسكي لومضة التفجير الأولى مشابهاً لما شعر به كونَنت. ذكر هذا لمراسل صحيفة نو يورك تايمز، الذي راقب التفجير من مسافة 10 أميال، «أنّه كان أقرب شيء ليوم الفناء، الذي يمكن للفرد أن يتصوّره».

كان كلّ ذلك خطأ. قبل أكثر من 3 سنوات حاول أنريكو فَرمي إثارة ذهن إدورد تَلَر كي يتصوّر الأمر. وخلال 9 سنوات تلت ذلك، أصبح الأخير مأخوذاً بمتابعة تلك الفكرة، انفجار أقوى بألف مرة يكون أقرب إلى يوم الفناء، من الانفجار الذي شهداه في منطقة الأمُگوردو.

الفصل الثامن عشر
المجازفة باستخدام آلات الفناء 2

قنبلة الجحيم

في شهر يوليو عام 1942، وفي الطريق إلى مؤتمر جامعة كاليفورنيا، فرع بركلي، الذي سبق حفل الغداء الرسمي لمنتسبس **مشروع مانهاتِن**، استقلّ إدورد تَلَر في القطار مقصورة واحدة مع أقرب أصدقائه هانز بَث. أخبر تَلَر صديقه خلال الرحلة بأنّ مشروع «القنبلة الانشطارية» يجري حسب اللزوم، وفي الأساس أمر مؤكّد. أضاف أنّ ما يجب التفكير به هو إمكانية اشتعال عنصر الديوتيريُم وقت انشطار السلاح. كانت «القنبلة الهايدروجِنية» هي الفكرة التي وضع تَلَر معدلاتها وحساباتها على السبورة في قاعة لَو كونتَ في جامعة بركلي، وقدّم في ذات الوقت إمكانية اشتعال الغلاف الجوي. أمضى علماء الرياضيات النظرية الحاضرين معظم ما تبقى من فترة الأسابيع الأربعة في مناقشة مشروع تَلَر «العظيم»، وكانت لدى البعض منهم تحفظات جادّة.

> تذكّر هانز بَث أنّه تحدّث مع زوجته، وهي الأخرى عالمة فيزياء، لم تحصل على تصريح أمني، وكانت تعرف شيئاً عاماً عمّا كانوا يناقشون. «خلال تجوالنا في متنزّه يوسمِتي الوطني، طلبت منّي أن أفكّر جِدّياً إن كنت أرغب أن أستمرّ في العمل في هذا المشروع. وفي النهاية قررت أن أفعل ذلك». بالنسبة للعالم بَث كان «المشروع العظيم» فكرة مرعبة، لكنّ تطويرها أمر مرتبط بشكل وثيق بالتهديد الألماني وبالقنبلة الانشطارية. وهذا بحدّ ذاته يُعتبر صاعقاً لا غنى عنه لأيّ تفاعل نووي حراري، ولأنّ الألمان يسعون إلى تطوير السلاح الانشطاري، على أيّة حال من الأحوال. وعليه، فإنّه في الظرف الراهن، يمكن تعليق النظر في أيّة معضلة أخلاقية مرتبطة «بالمشروع العظيم» نفسه، إلى وقت آخر.

غير أنّه في شهر يونيو من عام 1945، أي حوالي شهر قبل اختبار ترِنِتي في نو مكسِكو، كان بعض العلماء خلافاً لما كان عليه متخذو القرارات في واشنطن، على بيّنة بما يُنوى اختباره. كان الباعث المحتمل لتطوير القنبلة الهايدروجِنية، والباعث لسباق التسلح النووي الحراري مع الاتحاد السوفياتي، قد عني مواجهة معضلة أخلاقية، لا يمكن تأجيل النظر فيها أو تحاشيها. وفي الوقت الذي كان فيه علماء لاس ألموس مشغولين بالترتيبات التقنية للدقائق الأخيرة لإنتاج القنابل الانشطارية واختبارها، كانت شلة أخرى من العلماء في مختبر شيكاگو ل**مشروع مانهاتِن**، تركّز جهودها، ولو بشكل متأخّر، على التطبيقات بعيدة المدى للسلاح الذري برئاسة جَيمس فرانك، وكانت واقعة تحت تأثير كبير للعالم لِيو سِلَرد.

توصل أعضاء هذه المجموعة إلى استنتاج عبّروا عنه في مذكّرة لم تصل إلى مكتب رئيس البلاد، فحواه أنّ استخدام القنبلة الذرية ضدّ اليابان، خصوصاً بدون تحذير وبدون مساهمة من السوفيات في إجراء الاختبار، سيجعل السيطرة على هذا السلاح غير ممكنة على المستوى الدولي. وبالمقابل سيقود بشكل مؤكّد إلى سباق تسلح يائس يمكن أن يعرّض الولايات المتحدة خلال وقت قصير لامتلاك الخصوم غير المقيد للسلاح النووي الحراري. ونتيجة لذلك، قال بعضهم من ذوي البصيرة النافذة في المذكرة، التي رفعوها للرئيس ترومَن «إنّ المدن في الولايات المتحدة ومدن الدول الأخرى ستكون معرّضة لخطر دائم بالإبادة المفاجئة».

كان لِيو سِلَرد هو المحرّك الفعلي وراء ذلك الالتماس. حاول الذين وقعوا عليه من المساهمين في المشروع تحذير الرئيس بصدد العامل الأخلاقي والأخذ بنظر الاعتبار ديمومة الحضارة الإنسانية وضدّ استمرار العملية لاستخدام القنبلة ضدّ اليابان، حتى وإن كان هذا الاستعمال قد يقصر أمد الحرب ويحمي حياة أفراد القوات المسلحة الأمريكيّة.

أرسِل هذا الالتماس «عبر القنوات المشروعة» ولكن تمّ إيقافه بشكل مُتعمّد من قبَل الجنرَل لَسلي گروفز، مدير **مشروع مانهاتِن**. لم يصِل إلى مكتب الرئيس، ولا حتّى مكتب وزير الحربية هَنري ستِمسُن إلاّ بعد إسقاط القنبلتين على اليابان. وليس هناك ما يدلّ على أنّ مخاوف العلماء حول مستقبل تأثير الهجمات الذرية على اليابان، قد اطلع عليها الرئيس ترومَن على الإطلاق، لا قبل اتخاذه القرار ولا بعده. وبطبيعة الحال، فإنّ الرأي العام الأمريكي لم يطلع على ذلك الالتماس أيضاً.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها، جرى وضع الالتماس والأسباب الموجبة له تحت السرية، كي لا يطلع الشعب عليهما أو يعرف ما فيهما. أصبح وجودهما خافياً لأكثر من حقبة. وفي وقت متأخّر عبّر عدد من العلماء المشاركين في المشروع عن أسفهم لأنّهم وافقوا على إبقاء طلباتهم سرية

وفق اقتراحات إدارية، وخوفاً من أن يفقدوا تصاريح الأمن ومعها مناصبهم، ولربّما يُحالون للقضاء. وهكذا تعاونوا على ترك الرأي العام ليكون بمعزل عن معرفة تلك الحقائق الهامة.

واحد من هؤلاء هو يوجين رابِنَوِچ، عالم الفيزياء الذي كان مقرراً في **لجنة فرانك**، والذي أسس بعد نهاية الحرب وأصبح محرراً لنشرة علماء الذرة. في الحقيقة، أنّه حاول بعد استسلام الألمان في شهر مايو، أن يتمرّد بغية التأثير على الرأي العام الأمريكي واطلاعه على وجود القنبلة الذرية ووجود خطط لاستخدامها ضدّ اليابان، وعن وجهات نظر العلماء حول مسألتي الجانب الأخلاقي والمخاطر بعيدة المدى لذلك الاستعمال.

ذكر رابِنَوِچ ذلك لأوّل مرة في رسالة إلى صحيفة نو يورك تايمز نُشرت بتاريخ 28 يونيو عام 1971. حدث ذلك في نفس اليوم، الذي سلمت فيه نفسي للمحكمة الفدرالية في بوسطن. ولذلك فإنّي لم أستطع رؤية تلك الرسالة في ذلك اليوم ولا بعد عدد من السنوات. قبل 13 يوماً من نشر الرسالة، كنت أنا وزوجتي مختفين عن أنظار مخبري مكتب التحقيقات الفدرالي، نوزّع نسخاً من أوراق الپنتگون على 17 صحيفة، بعد صدور أوامر بإيقاف نشرها في صحيفتي نو يورك تايمز وواشنطن پوست.

بدأت رسالة رابِنَوِچ بالقول إنّها، «فضح قامت به التايمز لتاريخ الپنتگون والتدخل الأمريكي في فيتنام»، أضف إلى ذلك أنّ نشر تلك «الأسرار» هو الذي شجّعه أن يكشف بدوره عمّا يعرفه.

> قبل إسقاط القنبلتين على هِروشِما ونَگزاكي، أمضيت ليالي طويلة بدون نوم وأنا أفكّر بأنّه يجب أن أكشف للشعب الأمريكي، من خلال صحف موثوق بها، ذلك الفعل المصيري باستخدام أوّل قنابل ذرية، خططت له الحكومة الأمريكية وتنوي تنفيذه دون استشارة الشعب. وبعد مرور 25 عاماً، أشعر أنّني على صواب لو كنت فعلت ذلك.

ما زالت إعادة قراءة تلك الرسالة تثير عندي بعض الدهشة. اتفق مع رابِنَوِچ أنّه على حقّ حين فكّر بوجوب كشف وجود القنبلة النووية والخطط لاستعمالها. لا بُدّ أنّه كان حوكم وأودع السجن، كما حدث لي يوم نُشِرَت رسالته. لكنّه ربّما كانت أسبابه مسوغة أكثر منّي باعتباره مواطناً وإنساناً هدفه اطلاع الرأي العام الأمريكي وجعله شريكاً في تحمّل عبء المسؤولية للقرار المصيري، بالرغم من أنّه ذكر فيما بعد، أنّه لم يتوقع أن يضغط الرأي العام لاتخاذ قرار مخالف.

في خريف عام 1949 تجلت حقيقة أخرى في الوصول إلى طريق القنبلة الهايدروجِنية. بعد مرور 7 سنوات من الجهود المركزة، التي أمضاها إدورد تَلَر في البحث، لم يتوصّل بعد إلى حل

مشكلة إشعال فتيل الوقود النووي الحراري باستعمال القنبلة الذرية. ولكن عقب إعلان سبتمبر بأنّ الاتحاد السوفياتي قد فجّر قنبلته الانشطارية الأولى، جاء تَلَر بعدد آخر من العلماء، الذين عملوا في مشروع مانهاتِن، والذين ما زالوا يعملون في مجمّع لوس ألموس، أو ما زالوا يقدمون المشورة هناك، كي ينظموا إلى فريقه لدفع برنامج سريع لتصنيع القنبلة الهايدروجِنية وإحراز التفوق النوعي على الاتحاد السوفياتي، بعد أن فقدنا احتكارنا للقنبلة الذرية بتاريخ 29 أغسطس عام 1949.

طلب تَلَر من اللجنة الاستشارية العامة GAC لمفوضية الطاقة الذرية برئاسة أوپنهايمر أن تنظر في اقتراح المشروع في شهر أكتوبر من عام 1949. لم يوافق كافة أعضاء المفوضية بالإجماع على ذلك الاقتراح. لقد اعتقد الجميع أنّه، «بطريقة أو بأخرى سيتم تحاشي تطوير مثل هذه الأسلحة. إنّنا جميعاً نمانع في رؤية الولايات المتحدة تتخذ المبادرات في تعجيل هذه التطورات. ونحن متفقون على أنّ من الخطأ في اللحظة الراهنة أن نلزم أنفسنا بإطلاق العنان لجهودنا لدعم هذه التطورات». تضمّنت أسباب رفض المشروع، الذي أعطي أولويّة، بعض الأسس الموضوعية، منها الكلفة ومسألة توفر العناصر الكيمياوية المطلوبة والاستعمالات البديلة لتلك العناصر النادرة، مثل ترِيتيُم، الذي نحتاجه لتطوير الأسلحة الانشطارية التكتيكية الصغيرة. اتفق الجميع حول عدم الحاجة إلى القنبلة الهايدروجِنية، باعتبارها رادعاً لأيّة هجمات ذرية، سواء قام الاتحاد السوفياتي بتطويرها أم لا. «انتقامنا باستخدام ترسانتنا من القنابل الذرية سيكون أكثر فاعلية من استعمال القنبلة الفائقة».

لكنّهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك بِحثّ الولايات المتحدة أن تقدم التزاماً عملياً لا سابق له «بعدم تطوير مثل هذا السلاح». شعرت الأغلبية بضرورة هذا الالتزام وشعر الآخرون مثل أنريكو فَرمي وآي رابي، بجعل الأمر مشروطاً برد الحكومة السوفياتية على اقتراح لشجب تطوير مثل هذا السلاح.

ولغرض مناقشة رأي الجانبين، أثار كافة الأعضاء الحاضرين المسائل الأخلاقية بلغة لم أشاهدها من قبل في أيّة وثيقة سريّة عارضت مقترحاً للتطوير. فمثلاً، لم أجدها في أوراق الپنتگون، التي ضمّت 7 آلاف صفحة حول عمليات اتخاذ القرارات الكارثية من قبل حكومة الولايات المتحدة بشأن فيتنام بين الأعوام 1945- 1968. كما لم أجدها في كافة الوثائق الحكومية، حسب علمي بهذه الدرجة من الإدانة وبالشكل الذي تستحقه.

قام كونَنت بكتابة رأي الأغلبية ووقّع عليه هارتلي رَو وسيرِل سمِث وأل دو برِج وأوليفر بَكلي وأوپنهايمر. ورد في جزء من نصّ الرأي،

نتقدم بتوصيتنا عن قناعة باعتقادنا حول المخاطر الشديدة للبشرية والمتأصلة في

هذا الاقتراح، الذي يتجاوز أيّة مصلحة عسكرية يمكن تحقيقها عن طريق تطوير هذا السلاح. يجب إدراك أنّ مثل هكذا تطوير يختلف تماماً عن تطوير القنبلة الذرية. السبب لتطوير هذه القنبلة الفائقة super bomb هو الحصول على قدرة لتدمير منطقة شاسعة بقنبلة واحدة. إنّ استعمالها يتطلب قراراً بإبادة عدد كبير من المدنيين. إنّنا قلقون من تأثيرات الإشعاعات النووية في المناطق المستهدفة وتأثيراتها المحتملة على المستوى العالمي، إذا ما تمّ تفجير عدد من هذه القنابل ذات الحجم الذي لا يمكن تصوّره.

رغمَ أنّ فَرمي ورابي أوصيا بالتزامات مشروطة للمضي في هذا المشروع، فقد كانا غير مترددين في طرح أسبابهما لمعارضة محاولة تطوير القنبلة الفائقة، ناهيك عن عمل ذلك وفق برنامج سريع.

بطبيعتها لا يمكن حصر استعمالها للأغراض العسكرية وستصبح سلاحاً للأغراض الموضوعية في إبادة الناس تقريباً. من الواضح أنّ استخدام مثل هذا السلاح لا يمكن تبريره وفق أيّ معيار أخلاقي، لأنّه يجب أن يُعطى للإنسان قدر من الكرامة وأن تُحتَرَم شخصيته، حتّى وإن كان من مواطني البلد المعادي.

إنّ حقيقة عدم وجود حدود للتدمير الذي يسببه هذا السلاح، يجعل وجوده بحدّ ذاته والمعرفة بكيفيّة بنائه وتطويره، خطراً على الإنسانية جمعاء. ومن الضروري اعتباره شرّاً في ضوء أيّ معيار.

ونحن نعتقد ولهذه الأسباب، أنّ من المهمّ أن يُخبِر رئيس الولايات المتحدة الرأي العام الأمريكي والعالم أنّ تطوير هذا السلاح خطأ وفق المبادئ الأساسية للأخلاق، وأنّه لا يجب السماح لمثل هذا المشروع أن يرى النور ولا يتمّ صنعه وتطويره.

لم يتفق وزير الخارجية دِين أيكسُن ولا مدير مفوضية الطاقة الذرية لِوِس شِتراوس مع ذلك الرأي. كما لم يتفق أيضاً معه رئيس الأغلبية الديمقراطية في لجنة العلاقات الخارجية ولا اللجنة المشتركة للطاقة النووية. بتاريخ 31 يناير أعلن الرئيس ترومَن على الرأي العام أنّه أمر مفوضية الطاقة الذرية أن تستمر في عملها لتطوير كافة أشكال أسلحة الطاقة الذرية، بما فيه ما يُسمّى القنبلة الهايدروجِنيّة أو القنبلة الفائقة».

كما أنّ اللجنة الاستشارية العامة GAC، أوصت هي الأخرى، «إنّ الكثير من المعلومات

حول القنبلة الفائقة قد نُشرت وما عادت سريّة. وعليه يمكن إصدار إعلان عن السياسة بشأن هذا الموضوع في هكذا وقت». لكنّ هذه التوصية كان مصيرها مصير التعهد بعدم الشروع بتطوير تلك القنبلة.

بدا أنّ رأي كلّ من أوپنهايمر وكونَنت حول هذا الموضوع الحيوي قد نُحّي جانباً، وهو ما دعا إلى استقالتهما من اللجنة الاستشارية العامة. غير أنّ أيكسُن، وبالذات لأنّه لم يرغب أن يكون الرأي العام الأمريكي على علم بوجود معارضة للمشروع أو أنّه يوجد تساؤل حول دواعيه، قد طلب منهما عدم فعل ذلك، فسحبا استقالتيهما. كما أنّ فَرمي وهانز بَث، اللذين عارضا مسألة تطوير السلاح الجديد قبل قرار ترومَن قد قللا من عملهما كمستشارين فاعلين. وحسب علمي لم يترك أحد من المشاركين الآخرين في المشروع عمله، باستثناء شخص واحد عرفت به بعد عدد من السنوات، وكان ذلك مفاجأة لي، إذ كان هو والدي.

كما ذكرت سابقاً وبحكم كونه مهندساً معمارياً، فقد أمضى والدي فترة الحرب وهو يصمّم لإنشاء معامل لبناء الطائرات القاصفة وأخرى لتصنيع محركاتها. حين انتهت الحرب، قبل عرضاً كي يشرف على بناء معمل لتصنيع البلوتونيُم في مدينة هانفرد في ولاية واشنطن. كان عقد العمل أصلاً بعهدة شركتي دو پونت وجنرَل إلكترك، لصالح مفوضية الطاقة الذرية. ولكي يقبل وظيفة رئيس مهندسي بناء المشروع، كان على والدي أن يستقيل من عمله مع شركة ألبرت للهندسة، حيث عمل هناك لعدة سنوات، وتحوّل إلى شركة أخذت اسماً جديداً لها هو گِفِل وروسّتي. وكما أخبرني فيما بعد فإنّ تلك الشركة أشرفت على بناء عدد كبير من المشاريع ولها عقود عالمية في ذلك الحين، وأنّ المشروع الذي سيعمل فيه من أكبر مشاريعها. نشأت وأنا أسمع هذا الصفات مثل أكبر وأضخم وأفضل وأهمّ... الخ.

كان مشروع هانفرد هو العمل الذي تقاضى فيه والدي مرتّباً أفضل من كافة المشاريع التي أنجز تشييدها من قبل. ولكن خلال السنة الثانية من دراستي في جامعة هانفرد، ترك والدي العمل مع شركة گِفِل وروسّتي لأسباب لم أعرفها في حينه. بقي دون عمل لمدة سنة، ثمّ عاد ليكون رئيس مهندسي مشاريع الشركة. وبعد 30 عاماً وحين أصبح في سنّ 80 سألته لماذا ترك العمل في شركة گِفِل وروسّتي. فاجأني جوابه حين قال، «أرادوا أن أساهم في بناء القنبلة الهايدروجِنيّة».

كانت تلك جملة مثيرة بالنسبة لي وأنا أسمعها عام 1978. كنت في ذلك العام معارضاً قويّاً لتطوير قنبلة النِترون، وهي قنبلة هايدروجِنيّة صغيرة، اقترح الرئيس كارتر أن نبعثها إلى أوروپا. إنّ قطر دائرة القتل لهذه القنبلة أوسع من قطرها للتدمير حين تنفجر. وعلى النحو الأمثل، فإنّ تفجيرها في

الجو سيترك إشعاعات أقلّ. تقتل هذه القنبلة البشر داخل المباني وخارجها أو داخل الدبابات، دون إلحاق أضرار بالمباني ولا المعدّات العسكرية. سخر السوفيات منها وسمّوها «قنبلة الرأسمالية»، تقتل البشر ولا تمسّ الممتلكات. لكنّهم في النهاية طوّروا هذا السلاح واختبروه، كما اختبرته دول أخرى.

لقد عارضت تطوير أو اختبار هذه القنبلة على مدى 20 عاماً، منذ أن وُصِفت لي من قبل صديق وزميل لي في مؤسسة راند هو سام كَوِن، الذي أحبّ أن يُدعى «أبو القنبلة النِترونيّة». أراد منّي أن أقيّم التطبيقات الستراتيجية لمثل هذا السلاح على أمل أن أساند جهوده لتطويرها. ولشدة خيبته، وبعد أن درست وصفه الجدّي للقنبلة وخصائصها، أخبرته أنّ تطويرها أو امتلاكها خطير للغاية.

خشيت أنّ منافعها التكتيكية محدودة في ساحات المعارك، ولها تأثيرات قاتلة، لأنّ فكرة التحكم بها ستقود إلى وهم لاستخدامها في الحرب وسيُغري ذلك الولايات المتحدة لتكون أوّل من يستخدمها لأغراض «الحرب النووية المحدودة». سيقود هذا الاستعمال إلى ردّ من الجانب الآخر، ويبدأ تبادل إطلاق الأسلحة «القذرة» بشكل أكبر يؤدّي إلى سقوط إشعاعات نووية بشكل موسع، وهي أسلحة متوفرة في ترسانتنا وترسانة السوفيات أيضاً.

كان حديثي مع والدي عام 1978 حين أوقفت 4 مرات في كولورادو خلال مشاركتي في الاحتجاجات لقطع سكك الحديد المؤدية إلى مركز إنتاج الأسلحة الذرية في سهول جبال روكي. ينتج هذا المركز كافة عنصر البِلوتونيُم لصنع صواعق القنابل الهايدروجِنيّة. كان المركز ينوي إنتاج نوى البِلوتونيُم لصنع قنابل النِترون. اعتقِلت يوم 9 أغسطس من عام 1978 وهو يوم ذكرى إسقاط القنبلة على نَكَزاكي. يتم إنتاج «الصواعق» triggers في مركز سهول جبال روكي، في الحقيقة هذا العنصر من مكونات القنبلة الذرية وانشطار قنابل البِلوتونيُم هو من النوع الذي دمّر نَكَزاكي في ذلك اليوم المشؤوم من عام 1945.

إنّ كلّ واحدة من الآلاف العديدة من القنابل الهايدروجِنيَة، قنابل الانصهار الحراري الذري، التي تتسلح به قواتنا الستراتيجية، يتطلب استعمال قنابل من نوع قنبلة نَكَزاكي لتقوم بدور الصاعق المفجّر. أشكّ أن 1% من الأمريكيين يعرفون هذه الحقيقة لتكون لديهم فكرة جلية لإدراك الفرق بين القنبلة الذرية والقنبلة الهايدروجِنيَة وفهم واقع ترسانتنا من القنابل الذرية الحرارية خلال السنوات الخمسين الماضية.

إنّ الصورة الشائعة عن الحرب الذرية، كما كشفتها صور الدمار لمدينتي نَكَزاكي وهِروشِما،

مضللة بشكل غريب. تظهر لنا هذه الصور ما حدث للبشر والمباني حين تعرضت للقصف، بما يُعرف الآن بأنّه جزء يسير فقط من الخراب النووي.

يتم جلب عنصر الپلوتونيُم لهذه الأسلحة من منطقة هانفرد في ولاية واشنطن ومن موقع آخر قرب نهر سَفانا في ولاية جورجا. تتمّ تصفيته وتصنيعه ليكون أحد مكوّنات الأسلحة في مركز سهول جبال روكي في كولورادو. أغلقت أنا والشاعر ألِن گِزبَر گ والعديد من المواطنين مداخل المركز يوم 9 أغسطس لتأخير العمل في مصنع القنابل هناك، في ذكرى اليوم الذي أسقِطت فيه قنبلة الپلوتونيُم فقتلت في الحال 58 ألف مواطناً يابانياً. في الحقيقة توفي لغاية نهاية ذلك العام حوالي 100 ألف مواطناً، بفعل تلك القنبلة.

لم أسمع من قبل عن أيّة علاقة لوالدي بمشروع القنبلة الهايدروجِنيّة، ولم يكن هو على علم بنشاطي ضدّ كلّ ما يتعلق بالقنابل الذرية، ولا حتى بنشاطاتي منذ نهاية حرب فيتنام. سألته عمّا قصد حين ذكر أنّه ترك العمل في شركة گِفِل وروسّتي. «لقد أرادوا منّي أن أكون مسؤولاً عن تصميم مصنع يُنتج مواد لبناء القنبلة الهايدروجِنية. ذكر أنّ شركة دو پونت، التي بنت الموقع في هانفرد، قد حصلت على عقد آخر من مفوضية الطاقة الذرية لبناء موقع جديد قرب نهر سَفانا. سألته عن تاريخ ذلك فقال:

- في أواخر عام 1949.

أخبرته أنّه، «ربّما أخطأ في التاريخ. ما كان ممكناً أن يسمع عن القنبلة الهايدروجِنيَة في ذلك الوقت المبكّر جدّاً. كنت وقتها أقرأ عن الجدل بصدد هذه القنبلة وتقرير اللجنة الاستشارية GAC في كتاب إرب يورك، الذي صدر حديثا بعنوان «المستشار» (طبعة نو يورك عام 1976). قرأت عن اجتماع اللجنة المذكورة حول الموضوع لإقرار البرنامج السريع في شهر أكتوبر من عام 1949. قلت لوالدي «لم يتخذ ترومَن القرار للمضي بإنتاج هذه القنبلة حتى شهر يناير من عام 1950. وفي أثناء ذلك، كان الموضوع سرّياً للغاية. ما كان ممكناً لكَ أن تعرف به عام 1949».

قال والدي، «حسنا، لا بُدّ لأحد أن يصمّم مبنى المصنع إذا كانوا يريدون أن يبدأوا، وكنت الشخص المناسب. كنت مسؤولاً عن هندسة بناء المصنع بكامله في هانفرد بعد الحرب مباشرة، ولدي تصريح أمني من صنف Q».

كانت تلك هي المرة الأولى، التي سمعت فيها أنّ والدي يحمل تصريحاً أمنياً من هذا الصنف. وهو أعلى من تصنيف «سرّي للغاية»، كما يتضح من سجلّ بيانات تصميم الأسلحة الذرية وخزنها.

لديّ نفس النوع من هذا التصريح الأمني حين عملت في البنتگون، مع غيره من التصاريح الأخرى من نوع «سريّ للغاية»، بعد أن تركت مؤسسة راند لأعمل في وزارة الدفاع عام 1964. كان الأمر مفاجأة لي أنّ والدي يحمل تصريحاً أمنياً. ومن الطبيعي أنّه احتاج لذلك النوع لأنّه عمل في مشروع بناء مركز هانفرد. قلت له، «إذن أنت تخبرني الآن أنّك واحد من الأشخاص في البلد خارج مجمّع لوس ألموس ولجنة GAC ممّن عرفوا أنّنا كنّا ننوي بناء القنبلة الهايدروجِنيّة عام 1949؟».

قال، «أعتقد ذلك. أعرف أنّ الأمر كان في أواخر عام 1949، لأنّه الوقت الذي قدّمت فيه استقالتي».

- لماذا استقلت؟

- لأنّني ما كنت راغباً في المشاركة ببناء القنبلة الهايدروجِنيّة. إنّها ستكون ذات قوة تدميرية تعادل أكثر من 1000 مرة قوة القنبلة الذريّة.

كانت ذاكرته وهو في سنّ 89 عاماً ممتازة للغاية، لأنّه تذكّر التفاصيل جيّداً. كان ذلك الجزء هو ما تنبأ به أوپنهايمر والأعضاء الآخرون في تقرير اللجنة الاستشارية للطاقة الذرية عام 1949. كانوا على صواب. جرى اختبار القنبلة الهايدروجِنيّة بعد ما يقرب من 5 سنوات وكانت فعلاً ذات قوة تدميرية تعادل 1000 مرة قوة تفجير مقتلة هِروشِما.

استمرّ والدي في حديثه فذكر، «ما كنت في الحقيقة راغباً في المشاركة بجهود تطوير القنبلة الذرية. لكنّ آينشتاين اعتقد أنّنا بحاجة إليها، فبدا الأمر لي في حينها معقولاً أن نمتلكها ضدّ الروس. وعليه قبلت العمل، ولو أنّني ما شعرت جيداً نحوه».

«حين أخبروني أنّهم ينوون بناء قنبلة ذات قوة تفجيرية تعادل 1000 مرة قوة القنبلة، التي بحوزتنا، قلت لنفسي إنّ هذا سبباً كافياً بالنسبة لي. عدت إلى مكتبي وقلت لنائبي، هؤلاء أشخاص مجانين. لديهم قنبلة ذريّة A-Bomb ويريدون بناء قنبلة هايدروجِنيَة H-Bomb. لقد تمكّنوا من إعداد القنبلة النايتروجِنيَة N-Bomb. وسيستمر الأمر حتى يصلوا إلى نهاية الألفباء Z-Bomb».

ثمّ استمر يقول، «هناك شيء آخر لم أستطع تحمّله. إنّ بناء هذه القنابل يُخلّف الكثير من النفايات المشعّة. ما كنت مسؤولاً عن تصميم حاويات خزن تلك النفايات. لكنّني أعرف أنّها ستتسرّب بمرور الوقت وسيُسمح لتلك المواد القاتلة أن تلوّث الأرض إلى الأبد. إنّ الإشعاع النووي يمكن أن يستمرّ لفترة 24000 عاماً».

وللمرة الثانية أعطاني أرقاماً جيّدة، فقلت له، «يبدو أنّ ذاكرتك نشيطة بشكل ممتاز. غير أنّ آثار المواد المشعّة تمتدّ إلى فترة أطول من ذلك. إنّ ما ذكرته يعادل نصف حياة عنصر البلوتونيُم».

اغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت مبحوح، «لم أتحمّل فكرة أنّني أعمل في مشروع يبث السّموم القاتلة في أجزاء من وطني إلى الأبد. إنّه سيجعل تلك الأجزاء غير صالحة لسكنى البشر لآلاف السنين».

فكّرت بما قاله والدي فسألته إن كان أحد آخر من العاملين معه قد أبدى أيّة شكوك، فقال إنّه لم يكن. «هل كنت الوحيد، الذي قدّم استقالته؟» ردّ بالإيجاب. لقد ترك أفضل عمل في حياته، ولم يكن لديه عمل آخر، فعاش على ما كان ادّخره من المال، إضافة إلى تقديم بعض المشورة.

خطر في ذهني أوپنهايمر وكونَنت، اللذين وافقا على إسقاط القنبلة الذرية على هِروشِما، واللذين في نفس الشهر الذي استقال فيه والدي من عمله، ومعهما فَرمي ورابي، قد عبّرا عن معارضتهما داخلياً على تطوير «القنبلة الفائقة» بأقصى ما استطاعوا. قالوا جميعاً إنّها من المحتمل أن تصبح «سلاحاً للإبادة» يخلف خراباً أشدّ من خراب القنبلة الذرية ذاتها، وتصبح أداة سياسية لإبادة السكان المدنيين... ولها قدرة تدميرية غير محدودة... وتشكّل تهديداً لمستقبل الجنس البشري لا يمكن تحمّله... وخطراً على الإنسانية بكاملها... وإنّها تجسيد للشّرّ وفق أيّ اعتبار». لم يجازف أحد من هؤلاء بمنصبه في مؤسسة الطاقة الذرية ويطلعوا الشعب الأمريكي وقتها على أحكامهم المبنيّة على الخبرة، بأنّ الطريق الذي اشتقه الرئيس ترومَن خطر داهم يهدّد الإنسانية جمعاء، كما أنّهم لم يمتنعوا عن مساندة المشروع حين جاء إدورد تَلَر وستان أولام بالنموذج الذي سيجتاز الاختبار في مطلع عام 1951.

سألت والدي عن الواعز القويّ، الذي جعله يشعر بأنّه يجب أن يعارض المشروع ويتصرف بطريقة لم يُقدِم عليها أحد آخر من زملائه، فقال، «أنتَ ذلك الواعز».

لم أفهم قوله هذا فعدت أسأل ثانية، «ماذا تعني؟ لم نناقش الموضوع بتاتاً. في الحقيقة، أنّني لم أعرف عنه شيئاً».

عقّب والدي بالقول»، يعود ذلك إلى وقت مبكّر. أتذكّر أنّك عدت إلى البيت يوماً وكنت تحمل كتاباً وتبكي. كان الكتاب عن هِروشِما، وقلت لي بأنّه يجب أن أقرأ ذلك الكتاب، فكان أسوأ ما قرأت في حياتي».

قلت، لا بُدّ أن يكون كتاب جون هَرِس بعنوان «هِروشِما عام 1946». لم أتذكّر أنّني أعطيته ذلك الكتاب.

- «نعم قرأته، وكنتَ على صواب. ذلك هو الوقت الذي بدأت أشعر فيه بالسلبية اتجاه العمل في مشروع القنبلة الذرية. حين قالوا فيما بعد أنّهم يرغبون في العمل لصنع القنبلة الهايدروجِنيّة، كان ذلك أكثر من طاقتي على التحمّل. قلت لنفسي إنّه قد حان الأوان أن أنهي علاقتي بهذا النوع من العمل».

سألته إن كان أخبر رؤسائه عن سبب تقديم استقالته، قال إنّه ذكر ذلك للبعض منهم، ولكن ليس جميعاً. بدا أنّ الذين سمعوا أسبابه تفهّموا مشاعره. في الحقيقة أنّه بعد أن استقال بحوالي سنة، اتصل به مسؤول الشركة واقترح عليه العودة للعمل بمنصب رئيس المهندسين الإنشائيين. يبدو أنّ الشركة قد ألغت عقدها مع جَنَرَل إلكترِك، دون ذكر الأسباب. وعليه فإنّ والدي لن تكون له علاقة بمفوضية الطاقة الذرية ولا صنع القنابل. بقي في عمله الجديد حتى التقاعد.

سألته أخيراً، «لماذا لم أسمع عن هذا الأمر من قبل؟ لماذا لم تقل شيئاً عنه إطلاقاً؟» ردّ، «ما كان إخبار أفراد أسرتي وارداً، لأنّكم لا تحملون تصاريح أمنية».

حصلت في النهاية على كافة صنوف التصاريح الأمنية في عام 1958، أي بعد مرور 10 سنوات تقريباً على تخلي والدي عن تصريحه الأمني، وقت قدّم استقالته. تبيّن في الأخير أنّ لهذه التصاريح فوائد جمّة. لقد مكّنتني عام 1969 أن أطلع على كافة الوثائق السريّة التي جمعتها في **أوراق البِنتگون** واحتفظت بها في مكان آمن في مؤسسة راند. عملت نسخاً منها هناك في تلك السنة وسلمتها إلى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ وفيما بعد إلى 19 صحيفة. (اعتُبِر المؤلف أول من أطلق صافرة الإنذار whistle blower من منتسبي الحكومة في هذا البلد حول مجريات الأمور في فيتنام - المترجم).

لكنّ الشعور المهمّ، الذي راودني في الحقبة قبلها، هو أنّ تصاريحي الأمنية هي التي جلبت عليّ المشاكل، وليس عليّ فقط. نظراً لأنّني وزملائي في راند كنّا نعرف بتقديرات المخابرات السرية، وبالذات حول سلاح القوة الجوية، فقد كنّا مشغولين في نهاية الخمسينات بحالة طوارئ لإحباط أيّ هجوم ذري وردع الخطط السوفياتية، التي قد تستغل مسألة «الفجوة في الصواريخ العابرة للقارات». إنّ ذلك الضعف المفترض في قوة الولايات المتحدة وقدراتها، كان لا أساس له من الصحّة أصلاً، كما كان الحال في **مشروع مانهاتِن** خوفاً من امتلاك النازيين لبرنامج تطوير القنبلة الذرية قبلنا. ومنه ما

جرى حديثاً بصدد مخاوفنا الواهية الأسس عن امتلاك صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل عام 2003، واحتلال العراق بذرائع باطلة.

خلال عملنا، أنا وزملائي في راند، بضمير حيّ وبحماس منقطع النظير لحلّ مشكلة خاطئة لمواجهة تهديد وهمي، قمنا بتشتيت أذهاننا وساعدنا في تشتيت أذهان الآخرين لمواجهة الأخطار الحقيقية، التي طرحتها القوتان الأكبر في ميدان تطوير الأسلحة الذرية. وهي أخطار ساعدنا في جعلها أسوأ وحرمنا العالم من فرص حقيقية لجعله أكثر أمناً. وهكذا من خلال طرق متعمّدة وغير مبررة جعلنا بلدنا والعالم برمته يواجه مخاطر الفناء.

لقد عرفت وعلى مدى فترة طويلة من الزمن الأسرار الرسمية وسُبُل الخداع حول وضع أسلحتنا النووية والنتائج الناجمة عنها في تهديد وجود الكائنات البشرية. ولغرض معرفة العجالة في التغييرات الجذرية في سياستنا الذرية، التي تقود العالم نحو الفناء باستخدام هذه الأسلحة، يتوجّب علينا أن نعمل على إلغاء كافة أنواعها. كما نحن بحاجة إلى فهم جديد للتاريخ الحقيقي للعصر النووي. أنتقل الآن إلى فصل آخر لهذا التاريخ الخفيّ.

الفصل التاسع عشر
مفارقات الدكتور سترَنجْلُف

نعم، لكنّ الفكرة بكاملها عن أسلحة الفناء ستختفي، إذا حافظتم على بقائها سريّة! لماذا لم تخبروا العالم عنها؟

د. سترَنجْلُف

حين نشر دانيل فورد، الرئيس التنفيذي السابق لاتحاد العلماء المعنيين، كتابه القائم على البحث الجيد بعنوان «الزّرّ» عام 1985، لم يحصل على ردّ رسمي عن السؤال الذي طرحه، «كم إصبعاً يوجد على الزّرّ النووي؟» هل أعطى المسؤولون تفويضاً لآخرين، كما يقترح المنطق، خاصّة وأنّ أشخاصاً مختلفين قد لمّحوا أو تكهّنوا بذلك، أم لا؟ تلقى جواباً من دونَلد لَيثَم، مساعد وزير الدفاع في إدارة رَيگِن لشؤون أنظمة القيادة والسيطرة. «نعم، توجد خطط للطوارئ، لا أستطيع مناقشتها». أضاف أنّ ذلك هو كلّ ما يستطيع البنتگون قوله بشأن هذا الموضوع. ثمّ اقتبس أقوال دَزمُند بَول، محلل الشؤون الدفاعية الأسترالي القدير حين علّق، «ربّما يكون هذا هو أهم الأسرار التي يجب المحافظة عليها».

في الحقيقة، لو عدنا إلى عام 1960، أي ربع قرن قبل تحقيق فورد، كان الجواب عن السؤال الذي طرحه بشأن هذا الموضوع الحسّاس، أنّه فعلاً أشدّ الأسرار الأمريكية العسكرية أهميّة. أبلغني به وهو واثق أنّني لن أكشفه للرأي العام الأمريكي ولا العالمي، لأنّه يتعارض مع حقبة كاملة من الإنكار الرسمي الواضح من قبل السلطات الأمريكية لوجود هذا التفويض. إنّ الثقة بتقديري كان لها ما يبررها في ذلك الحين.

ولكن كانت توجد ولا تزال مفارقة مذهلة. لماذا حوفظ على سريّة هذا التفويض أساساً، خاصة

أمام خصومنا؟

بعد كلّ ذلك، فإنّ الغرض القهري والمشروع لإعطاء هذا التفويض من قبل الرئيس كان دائماً هو تطمين الشعب بأنّ السوفيات، والآن الروس، لن يستطيعوا شلّ قدرة قواتنا على شنّ هجمات ثأريّة، إذا ما تجرأوا على توجيه هجمات تستهدف «قطع رأس» السلطة في العاصمة واشنطن، أو استهداف الرئيس أينما كان. والأكثر أهميّة من تصوير ذلك الواقع، هو التأكّد من أنّ الخصم يعرف جيّداً تلك الحقيقة بلا أيّ شكّ. وبدون ذلك، فإنّ الأزمة أو مواجهة تحذير خاطئ من قبل الولايات المتحدة، فإنّ جهل الخصم بتفويض الرئيس قد يُنعش آمال ذلك الخصم ويعتبر الفرصة مواتية وقد تكون الفرصة الوحيدة لبقائه سليماً، هو بالضبط تسديد ضربة للعاصمة الأمريكية ومراكز القيادة المدنية والعسكرية المعروفة. ولغرض ردع مثل هذا الفعل الطائش، فلا شيء أكثر أهمية من إقناع خصومنا بأنّ آمالهم زائفة وأنّ القضاء على قيادتنا العليا، لن يمنعنا أو حتى يقلل من شدة التدمير الذي سننزله بهم. إنّ إبقاء هذا الأمر سرّاً وإنكاره ورفض صحة الإشاعات حوله سيكون له أثر معاكِس.

وبطبيعة الحال، لم تكن أمام السوفيات فرصة للتأكّد من وجود مثل هذا التفويض. حتى تصريحات الرئيس بعدم وجود مثل هذا التفويض يرقاها الشكّ. غير أنّ السياسة المُعلنة حول عدم وجود تفويضات، كما يُقال للرأي العام الأمريكي على الدوام، وأنّ الرئيس وحده، أو من يليه على سلم السلطة قادر على الضغط على الزرّ وإطلاق الهجمات النووية، سيقوّي آمال السوفيات وخططهم بأنّه تتوفر فرصة للقيام بهجوم احترازي يتيح لهم البقاء ويضمن لهم «السيادة». إنّ ضربة تستهدف القيادة العليا، وعدم وجود تفويض بالردّ، قد يشلّ في الحقيقة قدرة الولايات المتحدة لشنّ غارات ثأريّة، أو على الأقلّ يُبطئها بدرجة هامة. لقد كان ذلك هو المنطق لخططنا العسكرية السريّة وتأكيدها على ضرب موسكو باعتبارها هدفاً له الأولوية في التنفيذ.

إنّ مثل التخطيط السوفياتي ليس تخميناً فقط. فكما ذكر فورد، «إنّ الستراتيجيات السوفياتية قد تناولت بالتفصيل الحاجة إلى خلق الفوضى في دوائر دولة العدو وقيادته العسكرية»، خاصة قيادة الأسلحة الستراتيجية. اقتبس مقالة سوفياتية تصف هذا الهدف بالتفصيل عام 1966، وهو الوقت، الذي كان فيه السوفيات يمتلكون عدداً محدوداً لضرب قواعد صواريخنا جميعاً، مع أنّهم طوّروا ونشروا صواريخ SS-9، التي تحمل رؤوساً نووية بزنة 20 مَگاتن والموجّهة إلى 100 قاعدة من مراكز السيطرة على صواريخنا Minuteman. وباتباع هذه الخطة، كان من المؤكّد أنّهم استهدفوا أيضاً القيادة المدنية والعسكرية في الپنتگون في منطقة العاصمة واشنطن.

إنّ التزام أمريكا بسرية التفويض لاستخدام الأسلحة النووية لم يشجّع ذلك التخطيط، لكنّه كان

يمكن أن يؤثر على رفع الآمال البائسة في وسط الأزمات، أنّه في الحقيقة، من الأفضل تنفيذ تلك الخطط بدلاً من انتظار الأمريكيين وقوع هجوم على نظام قيادتهم. بعبارة أخرى، إنّ هذه السريّة قللت من ردع السوفيات من القيام بضربة قاتلة ضدّ القيادة العليا خلال أوقات الأزمات.

لكنّ الوضع ازداد سوءاً خلال رئاسة كارتر ورَيگِن. ظلت رغبة قيادة الأركان المشتركة وقيادة سلاح الطيران للهجوم على موسكو والقضاء على كافة الأنظمة السوفياتية للقيادة والتحكّم، سرّاً مكتوماً منذ فترة حكم الرئيس أيزنهاور حتى فترة حكم الرئيس فورد. ولكن في مطلع عام 1977، وخاصة في فترة عامي 1979- 1980 تسرّبت بعض الأخبار والتصريحات الرسمية عن التركيز الخاص على التخطيط النووي الستراتيجي تحت إدارة كارتر، مدفوعاً بأفكار مساعده لشؤون الأمن القومي زبِگِنيو برزِنسكي، بشأن «قطع رأس» القيادة السوفياتية. استمرّت إدارة رَيگِن التأكيد على هذه الفكرة والانفتاح عليها. بعبارة أخرى، إنّ أسرارنا حول القضاء على القيادة السوفياتية عن طريق التفويض، الذي استمرّ ليومنا هذا، أصبحت معروفة للرأي العام عن نوايانا حول قطع رأس تلك القيادة. في الحقيقة أنّه خلال الفترة الأخيرة من حكم كارتر، أصبح مفهوم «قطع رأس القيادة» هدفاً رسميّاً.

أنيطت مهمة التخطيط لذلك بمسؤول من الپنتگون هو لِيون سِلوس، وذلك في مطلع فترة حكم كارتر عام 1977 لتجديد الإرشادات الخاصة بالعمليات الذرية. أخبرني بعد عدة سنوات بأنّ «ما قمت به أوّلاً هو سحب ملف سريّ للغاية في الپنتگون». في الملف المذكور مسودّة الإرشادات التي وضعتها عام 1961 حول التخطيط لحرب نووية شاملة، حين كنت في سنّ 30 عاماً. لقد تذكّر ذلك الملف وقال إنّه شكّل نقطة البداية في مهمته. إذا كان الأمر كذلك، فإنّه سرعان ما غيّر مسيره عنها بشكل جذري. استناداً إلى إرشاداتي المبكرة، التي شكّلت جزءاً أساسياً من ستراتيجية الفرض القسري، التي استهدفت إنهاء الحرب قبل أن يقوم الجانبان بإبادة بعضهما البعض، كانت خطتي تقوم على عدم إبادة هيكل قيادة الخصم. ولكن نتيجة لمراجعة الموقف، وكما ذكر سِلوس فيما بعد، «زيادة تأكيد الولايات المتحدة على تطبيق سياستها بشأن أسلحتها الذرية واستهداف قوات العدو العسكرية والقيادة العسكرية المدنية... وهيكل القيادة السوفياتية».

اقتبس فورد أقوال الجنرَل بروس هُلوَي، القائد السابق لسلاح الطيران، حين كتب عام 1980، أنّ أهداف الحرب الأمريكية تقوم على «منع خسارتنا لطرق حياتنا» و«الحدّ من الأضرار» و«تعطيل الدولة السوفياتية وآلاتها للسيطرة إلى مستوى يجعل التفاوض الناجح معها ممكناً». إنّ تحقيق مثل هذه الأهداف «مهم لتعطيل نظام القيادة والسيطرة السوفياتي... ويفترض نسباً استثنائية».

لا شيء يمكن أن يمنع بشكل حاسم «المفاوضات الناجحة» غير تدمير قيادة سلطة الخصم منذ بداية الحرب. مع مَن يمكن أن نتفاوض إذن؟ ماذا سيتبقى لدينا من القدرات لندعهم يسيطرون على عملياتهم وتنفيذ أيّ «اتفاق» أو إصدار الأوامر بوقف العمليات العسكرية؟ كانت تلك هي الأسئلة التي أثرتها في عام 1961. إنّ المنطق الذي قامت عليه ما كان مثار قبول لدى قيادة سلاح الطيران ولو للحظة، وبالتأكيد ليس لدى الجنرَل هُلَوَي، الذي ردّد في مذكراته التي نُشرت عام 1980، والتي اقتبس فورد منها ما يلي:

> «يجب أن يكون الهدف هو العمل على تعطيل آلات السيطرة السياسية والعسكرية الشاملة، بغض النظر عمّا إذا كنّا من يقوم بالضربة الأولى أو يردّ بضربة ثأرية ضدّ السوفيات. من المفترض أن تكون هناك أهمية وأولوية مطلقة لذلك عند التخطيط. يحقق القيام بالضربة الأولى لنا منفعة هائلة ويؤكد تعطيل السيطرة السياسية والعسكرية للعدو إلى أقصى درجة ممكنة».

الواضح أنّ نجاح كلّ هذا يعتمد على تحاشي السوفيات لمسألة التفويض، خلافاً لما نحن عليه، والذي يضمن ردّاً مدمّراً من قبل الولايات المتحدة لمراكز قيادتهم العليا. لقد عبّر هُلَوَي بوضوح عن ثقته بأنّ السوفيات سيكونون أكثر تحفظاً في مشاعرهم من الولايات المتحدة. «أنا مقتنع أنّه داخل النظام السوفياتي توجد سيطرة مركزية يمكن تدميرها وبشكل جدّي معها فاعليتهم العسكرية لاستعمال الأسلحة الذريّة في أيّ صنف من صنوف الحرب. إذا تمّ تعطيل نظام سيطرتهم بشدة فإنّ إلحاق الضرر الرئيسي يصعب تقديره لأنّه يتطلب معلومات مخابراتية تفوق ما يتوفر الآن. ولكن يمكن تحقيق ذلك والأكثر منه. يجب أن نفعل ذلك لأنّه لا توجد ستراتيجية استهداف مرافق أخرى باستطاعتها تحقيق أهداف الحرب وتضمن لنا البقاء».

بعبارة أخرى، الحوافز المقنِعة من وجهة نظر عضو سابق هو رئيس الأركان المشتركة سلاح الطيران CINCSAC، وبالتأكيد ليس بالنسبة له أنّ «قطع رأس» القيادة السوفياتية في مطلع العمليات الحربية، يعكس الأمل بأنّه سيشلّ القوات السوفياتية إلى الحدّ الذي يجعل الولايات المتحدة تنجو من حرب ذرية، ويُعزّز الاعتقاد بأنّه لا توجد طريقة أخرى غير ذلك. نُظِر إلى أيّة ستراتيجية أخرى كونها «خيار لا يضمن النصر» وبشكل جدّيّ «مدعاة لخسارة البقاء». ومع ذلك فإنّنا في تخطيطنا للتعامل مع المواقف الميؤوس منها «ومساندتنا لتمويل سلاح الطيران وسلاح البحرية للحصول على مزيد من الصواريخ لتحقيق هدف وهمي بالفوز أو البقاء إثر حرب نووية حرارية»، فإنّ الإمكانية المفترضة لتجنب «الفناء الأكيد»، مهما كانت فرص ذلك ضئيلة، لها جاذبية لا يمكن

مقاومتها.

ما كان ذلك سيكون مفاجأة للسوفيات. لا بُدّ أنّهم أخذوا ذلك مأخذ الجدّ، لأنّه في صلب تخطيطنا. أعلن ذلك مّكنَمارا في خطابه في حقل تخرّج جامعة آن آربر عام 1962 حول إمكانية منع شنّ هجوم على موسكو. لكنّه طرح ذلك باعتباره أحد البدائل. ربّما اعتبر المخططون السوفيات ذلك الخطاب موضع شكّ. وعليه، فإنّه في نهاية الستينات وحين كانوا يحضّرون لهجوم باستعمال صواريخ SS-9 ضدّ مراكز صواريخنا Minuteman، كانوا يبنون حوالي 2000 ملجأ تحت الأرض لحماية المسؤولين العسكريين السوفيات وقادة الحزب الشيوعي، الذين بلغ عددهم 100 ألف عضواً. كما شيّدوا 75 ملجأ لحماية المدنيين في موسكو ووقايتهم في حال قيام حرب. كان بعض هذه الملاجئ على عمق عدة مئات من الأقدام تحت سطح الأرض، وقت كنّا فيه لا نجاريهم في زيادة ملاجئنا الأرضية، تماماً كما عبّر الجنرَل بَك تورجِدسُن عن مخاوفه في رواية د. سترنجگُلف حين ذكر موضوع «فجوة الألغام».

غير أنّ الإعلان عن هذا الأمر بعد مرور حقبة لإظهار انهماك الولايات المتحدة للتخطيط لتدمير تلك الملاجئ، بهدف تقويض ثقة القادة السوفيات بقدرتهم على البقاء أحياء إلى حدّ أن يتمكنوا فيه من إصدار الأوامر للقيام بهجمات انتقامية ضدّنا. في الحقيقة، أدّعيَ أنّ ذلك هو هدف خططنا وبروز قدراتنا العسكرية. إنّ عدداً من صواريخنا العابرة للقارات ICBMs ذات القدرة على استهداف مناطق متعددة في ذات الوقت MIRVs، التي تسمح بحمل عدد من الرؤوس النووية في كلّ صاروخ تتوجّه لضرب أهداف متعددة منتشرة على مسافة واسعة وبدقة متناهية. كان مخططنا لصواريخ مِنِتمَن أن تهاجِم مراكز القيادة السوفياتية تحت الأرض، إضافة إلى مخابئ صواريخ السوفيات المحصنة. والأكثر من ذلك، فإنّ الصواريخ، التي تحمل عدة رؤوس نووية وتصيب أهدافها بدقة، قد وُضعت أيضاً في غواصتنا ترايدِنت. كلّ ذلك عنى أنّ هجماتنا على مواقع حماية القيادة السوفياتية ومخابئ صواريخها، يمكن أن تنطلق من مناطق قريبة جدّاً من أراضي الاتحاد السوفياتي، لا يتيح مجالاً لتحذير تلك القيادة أو مراكز إطلاق صواريخها.

في الحقيقة، كان المبرر العقلاني الرئيسي في ذلك الوقت وحتى الآن لشراء ونشر هذه الصواريخ الحاملة لمختلف أنواع الرؤوس النووية، هو قدرتنا على تدمير تحصينات مراكز القيادة تحت الأرض بهدف ردع القادة السوفيات، والآن الروس، من مغبّة التفكير بإطلاق الضربة الأولى تحت أيّ ظرف وإعطائهم التأكيدات بأنّهم لن ينجحوا سواء قمنا نحن بالضربة الاستباقية أم لا. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار هذه القدرات، فإنّ فرصة أن يقوم أحد أفراد القيادة السوفياتية العليا لدى دخوله

إلى أحد الملاجئ بعد تحذير أولي عن هجوم قادم أو أنّ ملاجئهم ستنجو من ضرباتنا، احتمالات بعيدة للغاية. هذه الحقيقة الواضحة، إلى جانب الإشارات المقصودة من قبل إدارتي كارتر ورَيگن وجهودهما «لقطع رأس القيادة»، يمكن أن تولد فقط شعوراً يائساً لدى القيادة السوفياتية والمخططين لها للمحافظة على قدر من قدرات الردع والثأر، والطرق الوحيدة لفعل ذلك هي أن يقوموا بما قمنا نحن به في مرحلة شعورنا المفترض بتفوقهم علينا. كان عليهم أن يفوضوا سلطة إطلاق الأسلحة النووية إلى قيادات أدنى و/أو يخططوا لشنّ هجمات لدى تلقيهم أيّة تحذيرات صادرة من القيادة العليا، إمّا عن طريق الكومپيوتر، أو كما فضّل لورنس كوتر، القائد العام للقيادة العسكرية NORAD، وفق ما ذكر هِربَرت يورك:

> أخبرني الجنرَل كوتر أنّه يجب علينا أن نكمل برنامج BMEWs (نظام الصواريخ بعيدة المدى للإنذار المبكر) بأقصى سرعة ممكنة، وأنّه اقترح توسيعه بغية خلق قدرات فائضة عن الحاجة في كلّ قاعدة إطلاق. يجب أن نوسعه إلى مستوى يمكن الاعتماد عليه قطعاً حول التحذير بوقوع هجمات ضدّنا. اتفقت معه حول ذلك من الناحية الأساسية.
>
> كان الأمر سيكون جيداً لو توقف عند هذا الحدّ، لكنه لم يفعل. عبّر بكلمات لا أستطيع تذكّرها بدقة، أنّه يجب علينا أن نمتلك تلك القدرة الفائضة عن اللزوم، والتي تحقق لنا مستوى عالياً من الاعتماد حين نربط في النهاية ما بين أنظمة إشارات التحذير مباشرة ومركز الضغط على زرّ إطلاق صواريخنا العابرة للقارات، دون أن يكون هناك أيّ تحذير كاذب.
>
> دُهِشت بما سمعت وقلت له صراحة أنّه يجب عدم جعل ردودنا أوتوماتيكية، وأنّه ليس بمقدورنا أن نربط بين نظام إشارات التحذير مباشرة بمراكز أزرار إطلاق الصواريخ. وباختصار، إنّنا يجب ألاّ نُقدِم على ستراتيجية «إطلاق قائم على التحذير» (كان يورك مخطئاً في هذا التنبؤ) إنّنا يجب ألاّ نفعل ذلك خاصّة حين لا يكون الرئيس على علم بذلك، أو مشتركاً في حلقة صُنع القرار.
>
> أجاب كوتر ببرود، «من الأفضل لنا أن نستسلم الآن».

حين قرأت للمرة الأولى عن التأكيدات الجديدة حول مسألة «قطع رأس» سلطة العدو بعد

وصول كارتر إلى الحكم، شعرت بالقلق من أنّ مثل هذه السياسة المعلنة قد تدفع السوفيات إلى اتباع مزيج من إطلاق صواريخهم لدى تلقي إشارات التحذير، وتفويض الأمر بإطلاقها إلى من هم أقلّ رتبة في سلم القيادة. إنّ واضعي الستراتيجية، مثل هُلَوَي، كانوا يقامرون بأنّ مثل هذا الضغط لن يقود البلاشفة إلى التنازل عن التزامهم بمركزيّة القرار. لقد كانوا على خطأ. حين لم تكتفِ إدارة رَيگِن باستمرار تلك الستراتيجية، بل عزّزت ذلك بشكل علني، مضى السوفيات، كما توقعت، وسارعوا للعمل بشكل استثنائي لخلق سبل مواجهة تلك الستراتيجية. وكما فعل الأمريكيون، من ناحية مسألة الردع، أبقوا جهودهم سريّة بشكل فعّال.

مع نهاية الحرب الباردة وظهور إمكانية للانفتاح والتفاعل بين المخططين والمحللين الستراتيجيين السوفيات والأمريكيين، اكتشف بروس بلَير، الذي كان ضابط سيطرة في نظام صواريخ مِنَتمَن وأصبح فيما بعد خبيراً في مواضيع السيطرة والتحكّم، فنقل إلى الجهات الرسمية، أنّ السوفيات قد استجابوا لفكرة «قطع رأس القيادة» بتصميم نظام متطوّر يضمن الثأر لأيّة هجمة تدمر مركز القيادة في موسكو. كان اسمه بالشفرة «المحيط» Perimeter لكنّهم أطلقوا عليه باللهجة الروسية اسم «اليد الميتة». إنّ ضابطاً من ذوي الرتب الصغيرة متواجداً في مخبأ أرضي بعيد جدّاً عن موسكو سيستلم أدلة من قنوات عديدة كالهزّات الأرضية والإشارات الإلكترونية والأشعة تحت الحمراء والنشاطات الإشعاعية، فيعرف أنّ موسكو قد تعرّضت لهجوم نووي مصحوب بانقطاع كافة أشكال الاتصالات بالعاصمة أو منها. وفي مثل هذه الحالة، فقد خوّل هو وغيره من الضباط الصغار بإطلاق صواريخهم العابرة للقارات لتدمير أيّ موقع صاروخي تمرّ فوقه. إنّ إطلاق الصواريخ السوفياتية لن يقوم على اتصالات وتفويض بل أنّها تنطلق دون الحاجة إلى موافقة أحد.

في المراحل الأولى لتصميم هذا النظام، فإنّ الإشارة من موسكو تؤدي إلى إطلاق للصواريخ بشكل أوتوماتيكي، دون الحاجة إلى تدخل أو سماح أو تقييم من قبل الأشخاص المتواجدين في قواعد الإطلاق السوفياتية. بعبارة أخرى، إنّ هذا السيناريو هو حقاً تجسيد كامل لعمل آلات الفناء، وهي الآلات التي تصوّرها هِرمَن كان في كتابه عن الحرب النووية الحراريّة، التي ستكون آثار تدميرها شاملة وتمثل فعلاً الردع المطلوب القائم على مبدأ التلقائية automaticity. هنالك اختلاف قليل في الرأي إنْ كان هذا النظام السوفياتي يعمل بشكل مستمر أو أنّه يُشغّل فقط خلال أوقات الأزمات، حين تبدو إمكانات الهجمات أعلى من الاعتيادي. لكنّهم حدّوا من ذلك النظام بعد انتهاء الحرب الباردة وجعلوه جاهزاً يتناسب مع الوضع الجديد.

بينما كان كتاب كان عن آلات يوم الفناء قد سمح بوجود إمكانية تلقائية للردّ إثر حدوث

تفجيرات في ذات الوقت في مدن مختلفة. يبدو أنّ نظام «اليد الميتة» يكون جاهزاً للانطلاق في حالة وقوع هجوم على موسكو لوحدها. وهذا يعني أنّ الشتاء النووي، الذي بدأ الناس يفهمونه، سيحلّ على العالم حين يبدأ هذا النظام في العمل، ولا يمكن تحاشيه إذا وقع انفجار واحد في موسكو.

قدّم لنا الكاتب ستانلي كوبرِك هذا الموقف في كتابه **د. سترَنجگلُف**، حين أخبر القائد السوفياتي الرئيس الأمريكي أنّه إذا اتجهت قاذفة B-52 واحدة في طريقها لضرب هدف سوفياتي (حتى وإن كان الهجوم غير مصرّح به لقائد سرب قاذفات أمريكية)، ولم ينجح الطلب منه بالعودة إلى قاعدته، سيكون أمراً له عواقبه. وكما ظهر في الفلم عن خطة سلاح الطيران الأمريكي، فإنّه لن يكون بمقدور الرئيس أو أيّ شخص آخر عمل أيّ شيء، وأنّ الطائرات ستمضي في مهمتها وتلقي بحمولتها من القنابل على الأهداف السوفياتية المرسومة. إنّ ذلك سيقود إلى ردّ تلقائي من قبل موسكو يؤدي إلى تدمير الحياة على الأرض. السبب الدقيق الذي أعطاه الرئيس السوفياتي لوضع هذا النظام هو للتأكّد من أنّ أيّ هجوم من قبل الولايات المتحدة سيجلب عليها دماراً ذاتياً، حتى وإن نجحت في ضرب مراكز القيادة السوفياتية. أوضح **د. سترَنجگلُف** في الفلم للسفير السوفياتي الموجود في غرفة العمليات الحربية، وقت كان المترجم ينقل المعلومات حول آلات يوم الفناء، إنّ أغراض الردع تتطلب من الولايات المتحدة أن تعرف هذا الأمر مسبقاً.

«لكنّ... النقطة الأساسية في مسألة آلات يوم الفناء... ستضيع إذا بقيَ الأمر سرّاً! لماذا لم تخبروا العالم برمته عنها؟».

أجاب السفير السوفياتي، «سيُعلَن عن الموضوع في مؤتمر الحزب يوم الاثنين، وكما تعرف فإنّ رئيس الوزراء يحبّ المفاجآت».

كان ذلك بطبيعة الحال سخرية. ولكن حين وضع السوفيات نظام «اليد الميتة» ما كان لديهم أيّة نوايا للإعلان عن ذلك إطلاقاً. ولم يعلنوا عنه طيلة فترة وجود نظام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية USSR. اعترف الروس أنّهم ما زالوا يمتلكون هذا النظام ويقومون بصيانته ليتحكّم بآلات الفناء، إذا دعت الحاجة لذلك.

مصمّم هذا النظام يُدعى فالَري يارنِچ، الذي اعتبر نظامه أكثر أمناً من البدائل الأخرى. لقد تمسّك برأيه هذا حتى وافته المنية في شهر ديسمبر من عام 2012، وبعد أن قدّم المشورة للأمريكيين على مدى عدة حقب حول الحدّ من الأسلحة النووية. لقد اعتقد ذلك لأنّ النظام يعتمد على إطلاق الصواريخ أثر استلام تعليمات من القيادة العليا في موسكو فقط. إلاّ أنّ النظام لا زال يعتمد على

الإطلاق عقب وصول التحذيرات. وبناء عليه، فإنّ النظامين في البلدين يستمران لمنع تدمير الصواريخ السوفياتية قبيل إطلاقها ويسمح باستباق الصواريخ الأمريكية في الحال قبل انطلاقها. لكنّ النظام السوفياتي هذا، كان يرمي إلى إزالة أيّ ضغط إضافي على القادة السوفيات في موسكو، لكي يطلقوا صواريخهم اعتماداً على إشارات التحذير إذا بدت تلك الإشارات موثوقة. ولكنّه سوف لن تكون هناك هجمات سوفياتية انتقامية ضدّ أيّة هجمات أمريكية، لأنّ القادة أنفسهم سيكونون على وشك الإبادة.

وعلى أيّة حال، وكما ذكر دَيفِد هوفمَن، رئيس مكتب واشنطن پوست في موسكو، بعد عدة مقابلات مع يارنِچ، لإعداد كتابه عن «اليد الميتة»، ونعاه بعد وفاته قائلاً:

> عبّر يارنِچ في السنوات الأخيرة من حياته عن كثير من الشكوك حول أنظمة الدفاع وإبادة العدو، التي خصّص حياته لجعلها تعمل بشكل حسن في كافة الأحوال. أخبرني في إحدى المرات، أنّه كان من السخف أن يبقوا نظام «اليد الميتة» سرّياً. يكون هذا النظام الانتقامي مفيداً للردع فقط حين يعلم الخصم بوجوده. والأبعد من ذلك، بدأ يُشكّك في حكمة اللجوء إلى الردع النووي، وما يتعلق منه بالتحذير المصوب، خاصّة بعد أن انتهت الحرب الباردة. خشي أن يقود مثل هذا التحذير إلى حادثة أو إطلاق صاروخ عن طريق الخطأ. لم يحافظ يارنِچ على صمته، وقرّر أن يعلن على الملأ أفكاره ومخاوفه.
>
> تطلب مثل هذا الأمر شجاعة. وحتى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، بقيت مناقشة موضوعات من هذا القبيل تحت الرقابة في روسيا. في مطلع التسعينات... استولى على يارنِچ حلم بأنّه في يوم من الأيام ستقوم الولايات المتحدة وروسيا بتبادل أسرارهما حول السيطرة والتحكّم. كان متأكّداً أنّ ذلك سيقود إلى تحقيق فكرة الردع عن طريق اللجوء إلى امتلاك عدد أقلّ من الرؤوس النووية. كما أنّه فضل عدم وضع الصواريخ في حالة تأهب دائم للانطلاق من قواعدها. عاد وصقل دون كلل أو ملل شرح منطقِه لتبرير ذلك، لكنّ كلي الحكومتين ما كانتا راغبتين في الاستماع له. القادة الكبار للسيطرة والتحكم بالأسلحة النووية، لم يستطيعوا تصوّر انفتاح من هذا القبيل على بعضهما البعض، ليس هنا ولا في روسيا.

خلاصة الأمر، جعلت الترتيبات، التي تمّ اتخاذها في روسيا والولايات المتحدة على مدى فترة

طويلة، أنّ من الممكن أو بالأحرى من المؤكّد أنّ قنبلة انشطارية من النوع الذي ألقيّ على هِروشِما تنفجر في واشنطن أو موسكو، بشكل متعمّد أو عن طريق خطأ غير مقصود، كما رأينا في فلمي الفشل الآمن ود. سترَنجكُلَف، أو نتيجة عمل إرهابي مستقل، سيقود إلى نهاية الحضارة الإنسانية وغيرها من الكائنات. كان ذلك ولا يزال النتيجة المحتومة لمحافظة الجانبين على قوتيهما النوويتين وفي نفس الوقت وقوفهما وجهاً لوجه والتهديد بضرب عاصمتيهما، وما سيترتب على ذلك من شتاء نووي. الجانبان مستعدّان ومعهما أنظمتهما للسيطرة، استجابة إلى تحذير قد يكون خطأ ووفق وَهمٍ بأنّ الشروع في الهجوم سيحدّ من الأضرار التي تلحق بالبلد، إذا ما قورن ذلك بنتائج الانتظار لتفجير حقيقي في أكثر من موقع مُستهدف.

هذا هو الموقف الواقعي الذي ساد في الساحة الدولية لأكثر من نصف قرن. استعدّ كلا الجانبين، وفي الحقيقة نوى كلّ منهما على الهجوم ضدّ «الجهاز العصبي العسكري» للقيادة والسيطرة، خاصة رأسه وعقله، مراكز القيادة الوطنية خلال الموجة الأولى للهجمات في أيّة حرب شاملة، بغض النظر عن منشئها. كان ذلك هو الأمل الوحيد لاستباق وشلّ قدرة الجانب الآخر على القيام بضربات معاكسة انتقامية، بطريقة يمكن أن تتحاشى التدمير الكامل. وهذه فوق كلّ شيء ما يجب ردعه في جانب الخصم. ولكن في الحقيقة أيضاً، سيكون هذا انتحاراً شاملاً ما لم يفشل الجانب الآخر في تفويض السلطة لإطلاق الصواريخ، وجعلها بيد أشخاص ليسوا في المراتب العليا. الحقيقة هي أنّ الجانبين قد قاما بهذا التفويض. وعليه فإنّ الأمل بإحراز النصر عن طريق «قطع رأس الخصم» قضية لا قيمة لها. غير أنّه طيلة استمرار فترة الحرب الباردة، ولتحاشي الخوف من إثارة الذعر بين صفوف المواطنين والحلفاء والعالم برمته، فإنّ كلي الجانبين لم يُحبطا الآمال لدى الطرف الآخر وذلك بالاعتراف بوجود قضية التفويض.

كان التغيّر الوحيد الذي طرأ على الموقف قد حدث خلال الأسابيع الأولى من تولي إدارة ترامپ مقاليد الأمور. بدأت وكالات الأخبار الروسية تتحدث باستمرار عن وجود نظام «اليد الميتة». فبتاريخ 2 فبراير من عام 2017 أماطت صحيفة پرافدا اللثام عن تصريحات الفريق سرجي كراكييف قبل 5 سنوات خلال مقابلة أجرتها معه حين قال، «نعم يوجد لدينا نظام **المحيط** Perimeter، وهو في حالة إنذار. وإذا كانت هناك حاجة لضربة انتقامية، فإنّ الهجوم سيبدأ تلقائياً بإشارة من داخل النظام، وليس من قبل شخص معين». شرح تقرير الپرافدا، «إنّ الصواريخ العابرة للقارات ستنطلق من مخابئها المحصنة ومن عربات متحركة ومن طائرات ستراتيجية ومن غواصات، لإسقاط أيّ صاروخ متوجه لضرب الأهداف لدينا، ما لم تأتِ أوامر من القيادة المركزية لوقف الهجمات الثأرية. وبشكل

عام... هناك شيء واحد معروف. إنّ آلات يوم الفناء ليست أساطير إطلاقاً... إنّها موجودة بالفعل».

بعد مرور 10 أيام على تنصيب ترامپ رئيساً للبلاد عام 2017، اقتبست جريدة پرافدا تصريحه، «بأنّ الولايات المتحدة يجب أن تقوّي وتوسّع قدراتها النووية». و«ليكن هناك سباق تسلح!» ثمّ أضافت الصحيفة «أنّه لم يمضِ وقت طويل، حتى قام الاتحاد الروسي بمناورات وتدريبات لصدّ هجوم نووي على موسكو والقيام بضربة انتقامية باستخدام الأسلحة النووية الحرارية لمهاجمة العدو. اختبرت القوات الروسية فاعلية نظام Perimeter المسمى سلاح يوم الفناء أو «اليد الميتة». يقدّر النظام ويقيم الموقف في البلد ويُرسل الأوامر لشنّ هجمات انتقامية ضدّ العدو بشكل تلقائي. وعليه فإنّ العدو لن يتمكّن من النيل من روسيا ويبقى على قيد الحياة».

الذي لم يتغيّر في الانشغال الأمريكي بتهديد مراكز القيادة والسيطرة في روسيا، يُظهر أنّ ما كُشِف عنه، بما ذكره بلَير ويارِنچ، لم يُذكر أو لم يُصدّقه أحد. إنّ قانون الدفاع الوطني للسنة المالية 20، الذي تمت الموافقة عليه من قبل الحزبين ووقعه الرئيس أوباما بتاريخ 23 ديسمبر من عام 2016، فيه شرط بطلب تقرير من مكتب مدير المخابرات الوطنية والستراتيجية حول «قدرة قيادة القوتين الروسية والصينية العسكرية والسياسية على البقاء والسيطرة والتحكّم واستمرار البرامج الحكومية ونشاطاتها». أوجب هذا الطلب القانوني على القيادة الستراتيجية للولايات المتحدة أن «تقدّم إلى لجان الكونگرس المختصة وجهات نظر القيادة حول التقرير... بما فيه وصفاً تفصيليّاً عن كيفية عمل أنظمة القيادة والسيطرة والاتصالات»، لدى القيادتين الروسية والصينية وضرورة أخذ ذلك بنظر الاعتبار عند وضع خطط الولايات المتحدة للحرب النووية. ظهرت تقارير پرافدا، التي أتينا على ذكرها في أعلاه خلال الأسبوع الثاني من إدارة ترامپ، كانت ردوداً واضحة على متطلبات القانون المشار إليه والذي تمّ التوقيع عليه قبل عدة أسابيع. لقد استعملوا ذلك القانون تبريراً للحاجة المستمرة لنظام «اليد الميتة».

تشجّع مثل هذه الخطط «لقطع رأس قيادة العدو»، وتكاد تُجبِر ليس على استعمال نظام «اليد الميتة» ولكنّها مدعاة لهجوم سوفياتي قائم على إشارات تحذير كاذب، إمّا من قبل القيادة العليا، ما لم تكن هذه القيادة قد أبيدت وعلى أمل «قطع رأس قيادة العدو» قبل أن تُفرغ ترسانتها من الأسلحة الذرية. أو يُنفذ بواسطة شخص تابع لم يجد وسيلة للاتصال بالقيادة العليا وكان لديه تفويض أن يضغط على الأزرار ويطلق الصواريخ النووية.

وكما أوضح الجنرَل هُلَوَي في عام 1980، بأنّ له ثقة تامة بستراتيجية «قطع الرؤوس»، وإنّ الضربة الأولى للولايات المتحدة ستكون أفضل لها من الضربة الثانية، إلى حدّ أنّها ستضمن السلامة

والسيادة. كان على حق في قضيّة اليأس من أشكال البدائل الأخرى الاستباقية. ولكن في الحقيقة، فإنّ الأمل ضئيل في النجاح لتجاوز إبادة تامة لكلي الطرفين عن طريق شنّ هجمات «قطع الرؤوس»، التي قامت دائماً على حجج واهية. الاستنتاج الحقيقي، الذي يمكن للمرء أن يخرج به هو بأنّ صداماً نوويّاً بين الولايات المتحدة والسوفيات كان ولا يزال أمراً مؤكّداً وسيحدث كارثة شنيعة لا تحل بالجانبين فقط، بل في العالم بأكمله. لكنّ الإصرار على عدم تغيير الإطار الشامل لسياستنا الخارجية والدفاعية وعدم التخلي عن الاعتماد على التهديد باستعمال السلاح الذري أوّلاً في أيّ تصعيد، فإنّ واضعي السياسة، ربّما في كلي الجانبين، قد اختاروا أن يعملوا وكأنّهم مقتنعين، وربّما يؤمنون بذلك، أنّ مثل هذا التهديد ليس كما ظاهره. إنّه استعداد لإطلاق نار انتحاري.

لا شكّ يوجد شبيه لمثل هذا السرّ حول نظام «اليد الميتة» وترتيباته في كافة الدول النووية مثل الصين وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل والهند وپاكستان وكوريا الشمالية. معناه أنّ تفجيراً بحجم قنبلة هِروشِما في أيّة عاصمة من عواصم تلك البلدان أو مقرات قياداتها العسكرية والسياسية سيقود إلى شنّ هجمات شعواء بواسطة قواتها الجاهزة. الفرق الوحيد هو أنّه ليس بمستطاع أيّ من هذه الدول أن يشعل حرباً تقود إلى شتاء نووي، على الرغم من أنّ أي تبادل بين اثنين منهما، ما عدا كوريا الشمالية، قد يقود إلى اختزال كمية أشعة الشمس وخسارة المحاصيل الزراعية لمدة حقبة من الزمن، وسيخلف هذا مجاعات لأكثر من مليون أو مليوني شخص.

إنّ مفارقات د. سترَنجگلُف لا تقتصر على الولايات المتحدة وروسيا فقط. فكلّ دولة جديدة تقتني السلاح الذري ستقتني معه سلبيات امتلاك هذا السلاح وأجهزة السيطرة والتحكم به، ستواجه نفس الحوافز ونفس الضغوط من عسكرها للتفويض الأولي والثانوي لسلطة استخدام هذا السلاح. ستكون لهذه الدولة نفس الدوافع لتبقي ذلك التفويض سرّاً عن بقية العالم.

إنّ نشر الأسلحة الذرية في أيّة دولة جديدة لا يضيف فقط إصبعاً آخر للضغط على الزناد وإشعال حرب نووية. العالم مرتعب بصدد الإصبع غير المسؤول لقائد متهوّر من بلدان العالم الثالث. وقد يكون ذلك الإصبع بسهولة إصبع أحد التابعين لهؤلاء القادة الجدد وحتى القدماء منهم وهو في موقع ناءٍ بعيد.

وباختصار وللمرة الثانية، بودّنا القول إنّ هؤلاء ليسوا كائنات يمكن الوثوق بها لتمتلك سلاحاً ذرياً. وفوق ذلك، علينا ألاّ نضع مصير العالم بالفناء في يدهم جزئياً كان أم كليّاً. وهذا لا يقتصر على «المجانين» من قادة العالم الثالث.

الفصل العشرون
تهديدات الضربة الأولى
باستخدام أسلحتنا النووية

عرفنا من خلال تسجيل محادثات المكتب البيضاوي بتاريخ 25 أبريل من عام 1972 ما دار من حديث بين رِچَرد نِكسُن ومستشاره لشؤون الأمن القومي، هَنري كِسِنجر، بشأن الردّ الأمريكي المطلوب إزاء استمرار هجوم كوريا الشمالية:

الرئيس: أعتقد أنّنا يجب أن ندمّر السدود الآن. هل سيُغرق ذلك الناس؟

كِسِنجر: حوالي 200 ألف شخصاً.

الرئيس: (وهو يعيد تأمل الموقف) لا، لا، لا... أفضّل استخدام القنبلة النووية. هل فكّرت بهذا يا هَنري؟

كِسِنجر: (بتواضع) أعتقد أنّ ذلك أكثر من اللزوم.

الرئيس: (بلهجة المُستغرِب) القنبلة النووية، هل هي شيء يزعجك؟ يا هَنري، أريدك أن تفكّر بالموضوع مليّاً، بحق السماء.

لم تكن تلك هي المرة الأولى، التي يطرح فيها نِكسُن مثل تلك الآراء الغريبة، حسبما أورد رئيس مكتبه هـ.ر. هولدمَن في مذكراته، التي أعدّها وهو يترقّب صدور الحكم عليه بالسجن لدوره في **فضيحة ووترگيت**، أنّ نِكسُن قد أطلعه على جزء من خطته لإنهاء حرب فيتنام، خلال حملته الانتخابية عام 1968.

ما كان نِكسُن راغباً في إنهاء حرب فيتنام فقط، بل كان مقتنعاً تماماً أنّه سيُنهيها

خلال السنة الأولى من توليه الحكم.

... كان التهديد هو مفتاح القضية وجاء بعبارة للتعريف بنظريته، التي اعتقد أنّها ستجلب البسمات لثغور كلّ من يكرهه في كلّ مكان. كنّا نتمشى على ضفة النهر المغطاة بالضباب، بعد أن قضينا يوماً بكامله نعدّ الخطب لحملته الانتخابية عام 1968. قال، «إنّني أسمّيها **نظرية الرجل المخبول**. بوب، أريد أن يُدرك الفيتناميون الشماليون أنّني وصلت إلى حدّ أنّني يمكن أن أفعل أيّ شيء لإيقاف تلك الحرب. أريد أن نمرّر الكلمة لهم، بحق السماء!» من المعروف أنّ نِكسُن مهوس بعداء الشيوعية. لا نستطيع إيقافه حين يكون غاضباً، وأنت تعرف أنّ إصبعه فوق الزّرّ النووي، وأنّ هو چي مِنه نفسه سيكون في پاريس بعد يومين يتوسل لاستجداء السلام.

حين قرأت ذلك النّص عام 1978، انتابني شعور بعدم الارتياح لأنّني ربّما كنت مصدر تلك الخطة الجنونية، أو على الأقلّ العبارة، التي استشهد بها. شاركت بإلقاء محاضرتين في حلقة دراسية كان هَنري كِسِنجر يُشرف عليها وقت عمل أستاذاً في جامعة هارفرد عام 1959. كان عنوان المحاضرة الأولى «الاستخدام السياسي لكلمة الجنون». كانت المحاضرة جزء من سلسلة محاضرات ألقيتها في فصل ربيع ذلك العام حول (نظرية المساومة) تحت عنوان «فنّ الإكراه: سياسة التهديدات في الصراعات الاقتصادية وخلال أوقات الحرب».

لأجل توضيح اقتراح الحدس المعاكس في نظرية المساومة، توصلت إلى أنّني أشرت إلى صعوبة التحدي للقيام بتهديد موثوق به عن البدء بهجمات نووية ضدّ دولة تمتلك تلك الأسلحة أو ضدّ دولة حليفة لها. وفي النهاية تصبح مثل هذه التهديدات بمثابة قتل انتحاري شامل. إنّ النتائج المترتبة على مثل هذا التهديد مخيفة للغاية، لدرجة لا تحتاج فيها أن تكون موثوقاً بها كي تحدث التغيير وتحقق امتثال العدو لمطالبنا أو لشروطنا. ولكن في نفس الوقت، فإنّ هذه التهديدات بحدّ ذاتها، تصبح تحدّياً كي يكون موثوقاً به، على الإطلاق.

أعطيت مثلاً لحلّ ممكن لمشكلة معينة، لكنّه حلّ خطير. المثال هو استعمال هِتلَر المتعمد لسمعته بأنّه مجنون لا يُمكن التنبؤ بما سيقوم به، وأنّه مندفع ومتهور وسريع الغضب لإخافة خصومه وجعل تهديداته وإنذاراته فعالة في الفترة التي سبقت غزوه الفعلي لمختلف المناطق في الحرب العالمية الثانية. وخلافاً لتوقعات ضباطه الكبار، فإنّ ابتزازه قد نجح بشكل منقطع النظير، والذي تمثّل بجرأته لاحتلال منطقة الراين والنمسا والسويد وچيكوسلوفاكيا. وبناء عليه، فإنّ صورة الجنون والتصرفات،

التي لا يمكن التنبؤ بها قد أتت ثمارها. في الحقيقة، خدمت هِتلَر. لكنّ ذلك في جزء كبير منه كان فعلاً جنوناً وتهوراً وعدوانية. لم أعتقد أنّ تلك الطريقة ستكون موضع إعجاب لدى أيّ قائد أمريكي، ولا يمكن التوصية بها تحت أيّ ظرف من الظروف.

شعرت حين قرأت مذكّرات هَولدمَن، للحظة أن نِكسُن قد عرف على الأقلّ مصدر «نظرية الرجل المخبول» وربّما اقتبس الفكرة من كِسِنجَر، أي بشكل غير مباشر منّي. ما جعلني أشعر بالارتياح، أنّني قرأت ما ذكره هَولدمَن بتركيز أكثر فأدركت أنّه ذكر تاريخ اجتماع نِكسُن مع مستشارِه كِسِنجَر لأوّل مرّة في خريف عام 1969. وسواء كان ذلك خيراً أم شرّاً، فليس هناك أيّ خير يُرتجى من هذا الموضوع، لأنّ نِكسُن قد اعتمد تلك السياسة دون إيحاء من كِسِنجَر أو منّي.

الحقيقة هي أنّ الفكرة لتحقيق أهدافه الطموحة في فيتنام عن طريق التهديد باستخدام الأسلحة الذرية قد جاءت من مصدر أكثر ثقة، هو دوايت أيزنهاور، الذي عمل نِكسُن نائباً له لمدة 8 سنوات. وكما تذكّر هَولدمَن عن نفس النصّ حول نظرية الرجل المخبول، أنّ نِكسُن «قد اتخذ مساراً موازياً لإنهاء حرب أخرى. حين وصل أيزنهاور إلى البيت الأبيض كانت الحرب الكورية في وضع ورطة. أنهى أيزنهاور ذلك المأزق بسرعة. أرسل رسالة سريّة إلى الصينيين فحواها أنّه ينوي إسقاط قنابل ذرية على كوريا الشمالية ما لم يتمّ التوقيع على هدنةٍ مباشرةً». وخلال أسابيع قليلة، دعا الصينيون إلى عقد هدنة، فانتهت الحرب الكورية. شعر نِكسُن أنّ أيزنهاور، باعتباره القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا، لا يمكن لأحد أن يصفه بالجنون. لكنّ الأمر لا ينطبق عليه وأنّ تهديده لن يكون موثوقاً به. ولكن طِبقاً لما اعتقده هَولدمَن فإنّ نِكسُن «لموقفه المتصلب ضدّ الشيوعية خلال 20 سنة الماضية سيساعد على إقناع الفيتناميين الشماليين أنّه سَيُقدم على تنفيذ تهديداته».

لم يكن نِكسُن وحده هو الذي اعتقد أنّ التهديد النووي ضروري لتحقيق الهدنة في كوريا منذ 64 عاماً، لأنّ أيزنهاور هو من اقتنع أصلاً بالفكرة. أشار شِرمَن آدمز، مدير مكتبه في البيت الأبيض، إلى أنّه سأل الرئيس فيما بعد كيف أنّ الهدنة تحققت أخيراً في كوريا. قال أيزنهاور بدون تردّد، «خطر الحرب الذرية. قلنا لهم إنّنا لا نحب المضيّ في هذه الحرب المحدودة إذا استمر الشيوعيون يتهربون من هدنة أو معاهدة. لم يكونوا يريدون حرباً موسعة ولا هجوماً ذريّاً، ولذلك حشرناهم في زاوية تحت السيطرة». أيّد وزير الخارجية جون فوستر دَلاس أقوال شِرمَن آدمز.

لا ندري إن كانت مثل هذه التهديدات قد أثرت على متخذي القرارات في الصين أو أنّهم فعلاً قد استلموا رسائل بهذا الخصوص، فظلت القضية غير مؤكدة ومثاراً للجدل. الذي لا خلاف عليه هو أنّ إدارة أيزنهاور ونائبه نِكسُن اعتبرت التهديدات ناجحة. وفي سياق هذا الاعتقاد، فإنّ أيزنهاور

ووزيره دَلاس اعتمدا على مثل تلك التهديدات بشكل متكرر خلال سلسلة من الأزمات العالمية. إنّ أفكار دَلاس في عام 1956 حول ستراتيجية تقبّل المخاطر، التي قام عليها عدد من التهديدات الأولى، قد مهّدت الطريق إلى مفهوم «سياسة حافة الهاوية»، وهي الكلمات التي ترددت خلال فترة الحرب الباردة. في الحقيقة هي الكلمات التي حدّدت تقريباً «الحرب الباردة» خلال سنواتها الأولى، وما ذكره دَلاس:

> يقول البعض إنّنا دُفِعنا إلى حافة الحرب. من الطبيعي أنّنا دُفِعنا إلى حافة الحرب. إنّ الوصول إلى حافة الحرب دون الوقوع فيها، هو الفن الضروري. إذا لم تستطِع إجادته، فلن تفلت من الوقوع في الحرب ذاتها. وإذا حاولت الهروب أو خشيت الاقتراب من الحافة، فإنّك في عداد المفقودين.

بعد أن غادر نِكسُن مكتبه، اكتشفت بسرعة أنّ القضية لم تنتهِ عند دَلاس ولا أيزنهاور.

في شهر سبتمبر من عام 1974 وبعد استقالة نِكسُن، كشف روجَر مورِس، المساعد السابق للمستشار كِسِنجَر، لأوّل مرّة لمجلة واشنطن الشهرية، أنّ نِكسُن أشرف على خطط لهجمات نووية على فيتنام الشمالية ما بين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1969. اشترك مورِس مع «مجموعة أكتوبر» في البيت الأبيض لتخطيط ما أسماه رئيسه كِسِنجر بأنّه «ضربة في غاية الوحشية ستضع نهاية لبلد من الدرجة الرابعة، كفيتنام». حين سألت مورِس عن بعض القضايا المحددة بعد أن قرأت مقالة المجلة، أخبرني أنّه اطلع على ملفات تخطيط مطوّلة وفيه صور التقطتها الأقمار الاصطناعية لغرض استهداف المناطق بالغارات النووية في فيتنام الشمالية. من هذه المناطق موانئ وأرصفة لرسو السفن تنقل المواد من الصين. كان أحدها يبعد مسافة ميل ونصف فقط عن حدود الصين. إنّ هجوماً نوويّاً على تلك المنطقة كان سيبعث «إشارة» قوية إلى الصين. سيؤدي تفجير قنابل نووية صغيرة فوق خطّ سكك الحديد، الذي يجتاز الغابات، إلى مقتل «3 مدنيين»، حسب ما ورد في أحد ملفات التخطيط. كان الهدف الآخر للغارات النوويّة هو ممرّ مو جيا، الذي يربط فيتنام الشمالية بطريق هو چي مِنه في لاوُس.

لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك التخطيط، الذي جرى في شهر أكتوبر من عام 1969، في الوقت الذي بدأتُ فيه استنساخ **وثائق البِنتكَون**. لو كنت علمت بذلك التخطيط لكنت أصابتني الدهشة بسرعة خلال فترة حكم نِكسُن الأولى، رغم أنّني كنت أخشى حدوث هجوم آخر من قبل قوات فيتنام الشمالية، قبل 3 أو 4 سنوات، والذي كان يمكن أن يُشعِل فتيل حرب نووية. الذي علمته من صديقي مورتِن

هالپرِن، وهو نائب للمستشار كِسِنجَر وترك العمل في مجلس الأمن القومي في شهر سبتمبر، هو أنّ نِكسُن، خلافاً للتوقعات العامة عنه، لم يكن يخطط للانسحاب من فيتنام بدون شروط، لكنّه كان يهدّد بتصعيد الحرب بشكل كبير من أجل تحقيق شبه انتصار.

أخبرني مورتِن عن عمليات قصف كمبوديا، التي كانت سارية وتجري بشكل سرّي. كان ذلك بالضبط ليُظهِر لفيتنام الشمالية، أنّه بالرغم ممّا أقنع المصوتين به في الانتخابات، فإنّ نِكسُن كان مستعداً أن يمضي أبعد ممّا فعله لِندُن جونسُن، وإنّ إجراءات التهديد الأخرى ما كانت لأغراض المخادعة. تضمّنت هذه غزو «ملاذات» اختبأ بها الفيتناميون في كمبوديا ولاوُس، وضع الألغام المائية في ميناء هايفونگ، رفع القيود عن قصف كافة مدن فيتنام الشمالية وبلداتها وصولاً إلى حدود الصين. وكذلك احتمال غزو أراضي فيتنام الشمالية نفسها. تمّ إبلاغ السفير السوفياتي أناتولي دُبرينِن، بهذه التحذيرات. أخبرني هالپرِن أنّه فهم استعداد نِكسُن لاستخدام الأسلحة الذرية إذا لم تتمّ الموافقة على شروطه. لكنّنا لم نتصوّر أنّه كان مستعداً لفعل ذلك خلال السنة الأولى من فترة حكمه.

ومع ذلك، فإنّ ما كشفه هالپرِن لي عن طموحات الرئيس السرية ولجوئه إلى التهديدات بتصعيد الحرب في فيتنام وتحقيق ذلك، كانت كافية لاتخاذ قراري في استنساخ **أوراق الپنتگون** بالغة السريّة. كنت متأكّداً أنّ تهديداته لن تلقى النجاح وستؤدي إلى إطالة أمد الحرب الأرضية وتوسيع نطاق الحرب الجوية، ممّا سيقود إلى ارتفاع أعداد الخسائر البشرية لدى الطرفين. لو كنت على معرفة بتهديدات نِكسُن النووية الوشيكة وخططه وأنّني وضعت يدي على وثائق رسمية بشأنها، لكنت كشفت عنها في الحال، بدلاً من التركيز على تاريخ الحوادث في **أوراق الپنتگون**، التي اكتملت في عام 1968، قبل وصول نِكسُن إلى الحكم.

حين نُشرت **أوراق الپنتگون** عام 1971، خشي كِسِنجر أنّني كنت على علم بتهديدات نِكسُن النووية وخططه لذلك، وربّما لديّ وثائق تدعم معرفتي. كانت تلك أسباباً كافية أن ينظر إليّ بعين الخشية ويعتبرني «الرجل الأخطر في أمريكا» والذي «يجب أن يوقف عند حدّه بأيّ ثمن». وكما ذكرت في مقدمتي، لم يكن ذلك التصريح إظهاراً لجرائم البيت الأبيض ضدّي وأعمال هدفها إيقاف كشف وثائق إدارة نِكسُن أبعد مما كشفته في **أوراق الپنتگون**، والتي قادت إلى استقالته، قبل أن يواجه الإدانة أمام مجلس الشيوخ. وهو ما عجّل في إنهاء الحرب بعد 9 شهور فقط.

الذي منع نِكسُن من تطبيق نظرية الرجل المخبول عام 1969، لم يكن تسريباً لتهديداته وخططه وليس إذعاناً من الجانب الفيتنامي الشمالي لها. لقد كان السبب، حسب ما أورد هو في مذكراته، تظاهرات مليوني مواطن أمريكي يوم 15 أكتوبر و«الإنذار» بإضراب وطني شامل عن

العمل لمدة يوم واحد وتوقف الدراسة في المدارس والجامعات احتجاجاً على الحرب. أضف إلى ذلك، وجود خطة لتظاهرات في العاصمة واشنطن تستمر لمدة يومين في منتصف شهر نوفمبر. وكما قال نِكسُن كان واضحاً أمامه، بعد أن أخذ بنظر الاعتبار حجم التظاهرات الأولى، بأنّ إنذاره سيفشل. سوف لن يصدّق الفيتناميون الشماليون أنّه سيتمكن من الاستمرار في تلك الهجمات في وجه المقاومة الشعبية، التي ما كان لها مثيل من قبل.

تخلى بشكل سرّيّ عن خططه لمهاجمة الشمال في ذلك الوقت، لكنّه استمرّ حتى نهاية الشهر بوضع سلاح الطيران الأمريكي في حالة إنذار شامل سرّيّ، جعله بشكل مقصود معروفاً لدى المخابرات السوفياتية، ولكن ليس أمام الرأي العام الأمريكي. القصد منه أن يجعل تهديده موثوقاً به في أعين السوفيات والفيتناميين الشماليين.

تضمن الإنذار استمرار طيران القاذفات الأمريكية على مدار الساعة وهي محملة بالقنابل النووية. وهو تجديد لإنذار جوي كان مَكنَمارا قد ألغاه عام 1968 بسبب وقوع حادثة. كان قصد نِكسُن الآن هو بعث إشارة للسوفيات فحواها في الواقع، «إنّنا مستعدّون فعلاً أن نضرب حليفكم بالقنابل الذرية إن لم يقبل بشروطنا. لا تفكّروا في ردّ نووي، إذا قمنا بذلك. إنّنا مستعدّون لمواجهة الأمر بغارات استباقية». كان ذلك نموذجاً لما أعرفه الآن بأنّ فحوى أغراض الأسلحة النووية الستراتيجية الأمريكية منذ مطلع الخمسينات، الردع والثقة العالية وردّ السوفيات على ضربة أمريكا الأولى باستعمال الأسلحة الستراتيجية ضدّ القوات السوفياتية وحلفائها والتهديد بعمل ذلك إذا أقدم السوفيات على ردّ انتقامي نووي. سيصعّد سلاح الطيران الموقف إلى أعلى درجاته ويوجّه الضربة الأولى ضدّ الاتحاد السوفياتي. لم أعرف شيئاً عن أيّ من ذلك عام 1969، أو حتى خلال الخمس سنوات التالية. لم يعرف عنه أيضاً أيّ شخص آخر خارج البيت الأبيض والپنتگون. وبناء عليه، فإنّ ملايين المواطنين، الذين شاركوا في تظاهرات عام 1969 ما كانوا على بيّنة أنّهم زادوا من حدّة «الإنذار» الأمريكي بالهجمات النووية، وليس طبعاً لهم علم بالتهديدات والاستعدادات، لما يقرب من مدة نصف قرن أو أكثر.

بعد أن أكملت قراءة ما كشفه مورِس روجرز عام 1974 بأسابيع قليلة حول خططنا في عام 1969 وما سمعته من المزيد عنها من مورِس نفسه، أخبرت ما ذكره لي إلى صديق مقرّب، وهو أستاذ پاكستاني في العلوم السياسية ومناوئ للحرب اسمه إقبال أحمد. أخبرني إقبال أنّه كان في باريس في شهر ديسمبر من عام 1972 يتحدّث مع الوفد المفاوض لفيتنام الشمالية قبل وخلال هجمات رأس السنة الجديدة ضدّ فيتنام الشمالية طِبقاً لخطة كِسِنجَر وتأكيداته التي سبقت الانتخابات بأنّ «السلام في

اليد». ذكر إقبال أنّ عضو الوفد خوان ثِوي قد أخبره خلال تلك الزيارة أنّ هنري كِسِنجر قد هددّ فيتنام الشمالية باستخدام «القنابل النووية 12 مرّة».

سألت، «هل احتفظوا بقائمة تلك التهديدات!» أجاب، «نعم». أصبح الأمر أكثر وضوحاً في صباح اليوم التالي حين تحدّث مع المشرِف على خوان ثِوي وهو لو دُك ثو. أخبره أحمد بما علم من ثِوي فهزّ ثو رأسه قائلاً، «لا، 13 مرة. الرقم المنحوس!».

لقد اكتشفت أنّني أجهل كلّ شيء، حالي حال الآخرين خلال 5 سنوات السابقة. ولذلك لم يدهشني الموقف. أعرف أكثر من غيري كيفية المحافظة على الأسرار الحكومية الهامة وإلى متى يجب أن تستمرّ، حتى عن أنظار المسؤولين. من الناحية الأخرى، كانت هاتان القضيتان، فيتنام والسياسة الذرية، قد تزامنتا في وقت اعتبرت فيه نفسي ميالاً جدّاً لحفظ الأسرار. شعرت في حالة صدمة في أواخر عام 1974، لأنّني لم أعِر أبعاد سياسة نِكسُن النووية انتباها ضمن ستراتيجية حرب فيتنام.

لقد واجهتني هذه الأخبار بسؤالين مثيرين للتحدي. الأوّل، إذا لم أكن عرفت عن هذه الأسرار، فما هي الأسرار الأخرى، التي اعتقدت أنّني أعرفها؟ ثانياً، كم فاتتني من الأمور خلال انشغالي طويل الأمد بالتخطيط للضربة النووية الأولى من قبل الرؤساء الآخرين، والتي لم أكتشفها أو أنظر إليها بعين الجدّ؟ تلك «القضايا المجهولة»، كما سمّاها دونَلد رامسفيلد، وزير الدفاع في حكومة بُش الابن، فيما بعد. أصبحت تلك القضايا أمامي «قضايا معروفة»، فبدأت النظر في كافة القضايا، التي تابعتها لمدة أربعة عقود. وفي النهاية أعدت توجيه فهمي الكامل لمهام قوّات الضربة الستراتيجية الأولى وتقييم ما نجم عنها من تهديدات بالانتقام باستخدام الأسلحة التكتيكية لمساعدة حلفائنا.

بدأت أعيد النظر في تاريخ استخدام أمريكا للتهديدات بالضربة الأولى. وضعت قائمة بكافة التهديدات والإشاعات عن التهديدات، التي ورد ذكرها في المذكرات الشخصية والتقارير الصحفية والدراسات الأكاديمية. راجعت أيضاً كافة الأزمات من خلال اطلاعي على المعلومات السرية حولها وكيف تطوّرت نماذجها. تمّ من الناحية التاريخية تجاهل تلك الاتهامات تماماً أو التقليل من أهميتها، خاصة ما تعلق منها بالتهديدات النووية لعدم توفر الوثائق عنها. ولكن المرّة تلو المرّة تتسرّب وثيقة من خلال عمليات رفع السرية، وفي الغالب بعد مرور عدة حقب عن حادثة أو وضع معيّن. وما يبرز في العادة يشير إلى أنّ المزاعم لها ما يبرّرها، وأنّ التهديدات قد جرت فعلاً، وكان لا بُدّ من أخذها على محمل الجدّ.

أمّا بالنسبة لمسألة التخطيط للضربة الأولى وتقديرات تأثيراتها، أو تفويض السلطة لاستعمال السلاح الذري وندرة الوثائق وعدم توفرها في المراحل المبكرة لدى المحققين، عكست ليس فقط عدم وجود تلك التهديدات، بل بدلاً منها السرية المنظمة طويلة الأمد حول تلك الأمور وعدم معرفة ذلك، حتى في دوائر أولئك المسؤولين الحكوميين الذي لديهم تصريحات أمنية. السريّة، التي أطبَقت على مناقشات الرئيس حول التهديدات النووية، أقلّ من سرية عمليات المخابرات المركزية أو خطط الاغتيالات. أمّا الأكاديميّون الملتزمون فلما يحاطوا علماً بتلك التهديدات أو أنّه كانت لديهم شكوك لا لزوم لها، إلى حدّ جعلهم لم يفكّروا بها أو يتأملوها بشكل جدّيّ.

وعليه، فإنّه بعد أن أجاب هاري ترومَن على سؤال في مؤتمر صحفي بتاريخ 30 نوفمبر من عام 1950، أي بعد 5 أيام فقط من محاصرة قوة من مشاة البحرية الأمريكية من قبل وحدة من قوّات الصين الشيوعية في منطقة بحيرة چوزِن في كوريا، إن كان هناك تفكير باستخدام القنبلة الذرية هناك. أجاب، «يوجد دائماً تفكير جدّي بهذا الاستخدام». استنتج المؤرخون ولعدة حقب أنّ جواب الرئيس كان مرتجلاً وليس له علاقة بعملية اتخاذ القرارات.

لا أعتقد ذلك. لم يكن تعليق الرئيس في المؤتمر الصحفي كشفاً مقصوداً. حاول البيت الأبيض أن يتراجع تدريجيّاً عمّا أفصح به الرئيس. إلاّ أنّ هذا الاستخدام كان وارداً داخل قيادة الأركان المشتركة، وغالباً ما نوقشت سلبيات الهجمات النووية وإيجابياتها بطرق شتى. في الحقيقة، أنّه في أكثر من مناسبة خلال فترة حكم ترومَن، اقترح بعض أو كافة أعضاء قيادة الأركان المشتركة استخدام الأسلحة النووية. وبطبيعة الحال، أحيطت كافة تلك المناقشات بالسريّة التامة، باستثناء ما نطق به ترومَن، وظلّ قائماً لعدة عقود.

أتذكّر جيّداً ذلك المؤتمر الصحفي عام 1950 حين كنت في سنّ 19 عاماً وأتوقع أن أساق للخدمة العسكرية في كوريا بحلول نهاية السنة الأولى من فترة دراستي في الكلية، وربّما في وقت أقرب من ذلك. عرضت في تلك الظروف على خطيبتي في حينه أن نتزوّج قبل ذهابي إلى كوريا. تزوّجنا خلال عطلة الكرسمِس، التي تقع ما بين فصلي الدراسة في الخريف والربيع. غير أنّه صدر في أواخر فصل الربيع الدراسي قانون لتأجيل الخدمة العسكرية حتى إكمال فترة المرحلة الجامعية الأولى، وسنة أخرى لمتابعة الدراسة العليا في إنكلترا. التحقت بعدها في سلك مشاة البحرية. فكّرت لفترة طويلة عمّا إذا كان هناك المزيد من المعلومات عمّا باح به ترومَن وعرف به الوسط الأكاديمي. وجدت خلال دراستي العليا أنّ الوثائق الكثيرة عن تحليلات قضايا الأسلحة النووية وخطط الطوارئ جديرة بالملاحظة. كما وجدت أنّ نظام السرية كان فعالاً للغاية، خاصة حين أدركت أنّ قيادة الأركان

المشتركة، كانت مستعدّة لاستخدام القنابل الذرية وإسقاطها بعد مرور 5 سنوات فقط على تدمير هِروشِما، وأنّ ترومَن لم يستبعد ذلك الخيار في المناقشات والخطط الداخلية، رغم أنّه أقلّ حماساً من أعضاء القيادة ليُقدِم على استعمالها ثانية.

الذي يُشبه ذلك ما أصبح معروفاً لدى الرأي العام في سنة 1951 حول رغبة الجنرَل مَككارثر لاستخدام القنبلة الذرية في كوريا. في الحقيقة عبّر عن ذلك عن طريق أحد أعضاء الكونگرس، إضافة إلى توسيع رقعة الحرب لتشمل الصين، مِمّا دفع ترومَن إلى إقالته. ولكن هل أنّ دوايت أيزنهاور، الذي أعقبه في الحكم قد انتبه لتلك النقطة، حين لا زال مَككارثر يجاهر بتوصياته حول الأمر؟ وجد أكثر الناس، بما فيهم الأكاديميون ولفترة طويلة صعوبة تصور أنّ أيزنهاور، الذي كُشِف عنه أنّه عارض استخدام القنبلة النووية في اليابان، كان أقلّ اندفاعاً من ترومَن لاستخدامها في كوريا.

نعم، أورد أيزنهاور في مذكراته عام 1963 أنّه حدّد قبل حقبة من الزمن أنّه لن يسمح للحرب في كوريا أن «تجرجر أقدامها» وأنّ الهجمات الأرضية ستكلف الولايات المتحدة خسائر كبيرة في الأرواح. كتب يقول، «أوّلاً، كان واضحاً أنّنا إذا تجاوزنا إلى شنّ هجوم أكبر، فإنّ الحرب ستتوسّع إلى خارج كوريا... وأخيراً ولغرض الحدّ من كلفة الهجوم العالية، كان واضحاً أنّنا يمكن أن نستعمل الأسلحة الذرية. كان هذا أصلاً اقتراح الجنرَل مَككارثر عليّ حين كنت في الفترة، التي أعقبت فوزي في الانتخابات ولم أنصّب بعد ولا زلت أسكن في نو يورك».

ومع ذلك، فوجئت حين تمّ رفع السرية عن الموضوع بعد مرور 20 عاماً، واطلعت على مجريات اجتماع مجلس الأمن القومي، الذي عُقِد في مطلع إدارة أيزنهاور بتاريخ 11 فبراير من عام 1953:

> عبّر الرئيس عن وجهة نظره أنّنا يجب أن نعوّل على استخدام الأسلحة النووية التكتيكية في منطقة كيسونگ. وهي منطقة تبلغ مساحتها 28 ميلاً مربعاً. اعتبرتها الإدارة الأمريكية ملاذاً آمناً، باعتبارها مكاناً لعقد مفاوضات الهدنة، وفق ما جاء في قول الجنرَل مارك كلارك. أصبحت المنطقة «مكتظة بالجنود والمعدّات»، ممّا جعلها هدفاً جيداً لسلاح من هذا النوع. وعلى أيّة حال، أضاف الرئيس أنّنا لا يمكن أن نستمرّ على هذه الحال إلى الأبد. رأى الجنرَل برادلي أنّ من الأفضل لنا أن نتشاور مع حلفائنا لوضع حدّ لاعتبار منطقة كيسونگ آمنة، لكنّه اعتقد أنّه ليس من الحكمة اللجوء إلى استخدام الأسلحة النووية.

أثار وزير الخارجية دَلاس المسألة الأخلاقية ومواقع إسقاط القنابل الذرية، ونجاح السوفيات حتى ذلك الوقت في الفصل بين الأسلحة الذرية وكافة الأسلحة الأخرى، ومعاملتها معاملة خاصّة. كان رأيه أن نحاول كسر هذا التمييز الخاطئ.

أضاف الرئيس أنّه يجب التأكيد على المشاورات الدبلوماسية مع حلفائنا. بالنسبة له، أنّ القضية تخصّ احترامنا لأنفِسنا واحترامنا لهم في ذات الوقت. وإذا عارضوا استخدام الأسلحة الذرية، فعلينا أن نطلب منهم أن يبعثوا ثلاث فرق عسكرية أو أكثر لمساندتنا في طرد الشيوعيين من المناطق التي استولوا عليها، بدلاً من استخدام القنبلة الذرية. وفي الختام استبعد الرئيس مشاورة حلفائنا بصدد خططنا العسكرية وأنواع أسلحة هجومنا.

كان نائب الرئيس رِچَرد نِكسُن حاضراً في كافة اجتماعات مجلس الأمن القومي، وسمع ما دار من الحديث وتعلم منه. كان ضمن الإدارة خلال العامين 1954- 1955 وثانية عام 1958، حين أمر أيزنهاور قيادة الأركان المشتركة أن تضع الخطط لاستخدام الأسلحة الذرية ضدّ الصين الشيوعية إذا حاولت غزو جزيرة كوموي، التي احتلتها قوات چيان كاي چك. وهي الجزيرة التي تقع على مبعدة أميال من البرّ الصيني. إنّ تلك التهديدات، التي اعتقد نائب الرئيس أنّها قد نجحت، كانت ضمن الدروس التي تعلمها نِكسُن وأراد تطبيقها خلال فترة رئاسته، كما أشرنا لذلك في بداية هذا الفصل. لم يكن نِكسُن الرئيس الأوّل ولا الأخير ممّن «فكّر بشكل أكبر» يفوق طاقته.

* * *

«ليس صحيحاً أنّ الحرب الذرية مسألة لا يمكن تصوّرها»، كما ذكر المؤرخ البريطاني إي. پي. تومپسُن. «فكّروا بالأمر ووضعوا له خططاً جعلوها موضع التنفيذ». كان يُشير بقوله هذا إلى الرئيس ترومَن ومن يحيط به من المسؤولين وإصدار الأوامر بإسقاط القنبلتين الذريتين، اللتين دمرتا حياة الناس في هِروشِما ونَگزاكي في شهر أغسطس من عام 1945. الذي يحتاج إلى انتباه أكثر، هو الرئيس، الذي أصدر الأوامر بتدمير المدينتين، ومعه غالبية الشعب الأمريكي، الذين اعتبروا تلكما الهجمتين ناجحتين بشكل باهر. لقد ولّدت تلك الأفكارُ أفكاراً أخرى جرى الأمر على تنفيذها.

لقد فكّر المخططون العسكريون في الحكومة الأمريكية بالحرب النووية بشكل مستمرّ طوال ٦ سنة الماضية. لم يكن هذا التفكير مقصوراً على ردع العدو أو استجابة لهجمة سوفياتية على الولايات المتحدة وقواتها أو حلفائها. إنّ الاستعدادات والالتزامات «للمبادرة» بحرب نووية «إذا اقتضت

الضرورة»، كانت ولا تزال الحجر الأساس الرئيسي، الذي تقوم عليه سياسة الولايات المتحدة والإعلان عن أزمات ونشاطات، ليس في أوروبا فقط، بل في آسيا والشرق الأوسط أيضاً.

الفكرة الشائعة بين غالبية الأمريكيين أنّه لم يتمّ اللجوء إلى استعمال أيّ سلاح نووي منذ نَگزاكي، وهذه فكرة خاطئة. القضية ليست تكديس الأسلحة النووية في الولايات المتحدة بمرور السنين، لم تُستعمل أو غير صالحة للاستعمال، ولم يكن لها دور سوى ردع الهجمات ضدّنا من قبل السوفيات. ومرّة تلو مرّة، جرى بشكل سرّي بعيد عن أنظار الرأي العام استخدام هذه الأسلحة لأغراض مختلفة تماماً.

كما أشرت سابقاً، إنّها استخدمت بنفس الطريقة التي يصوّب بها شخص بندقية أو مسدساً نحو رأس شخص آخر خلال مواجهة مباشرة بينهما، سواء ضَغَط على الزناد أم لا. بالنسبة للأشخاص، الذين يمتلكون أسلحة شخصية، فإنّ هذه الطريقة وفي مثل هذا الموقف، بدون الضغط على الزناد، هي أفضل طريقة لاستعمال تلك البندقية أو ذاك المسدس. هذا هو السبب، الذي يجعلهم يمتلكونها، ولماذا هي دائماً جاهزة للإطلاق. كافة الرؤساء الأمريكيين اعتباراً من فرانكلِن روزفَلت قد تصرّفوا بموجب هذا الدافع في بعض الأوقات لامتلاك السلاح النووي. وهو حافز القدرة على التهديد بشن هجمات نووية، إن لم تتمّ الاستجابة لطلبات معيّنة.

يكشف التاريخ السري الطويل، الذي امتد عبر فترة الحرب الباردة وما تلاها، الافتراض بشرعية هذا الامتلاك وتوفر «الخيارات» أمام الرئيس للمبادرة بالضربة الأولى. المبادرة الأمريكية بالهجمات النووية، نتيجة تصعيد صدام تُستخدم فيه الأسلحة الاعتيادية، أكثر من قضية رمزية خالصة أو مسألة خطابية. في الحقيقة أنّ كلّ رئيس اعتباراً من ترومَن حتى كلِنتُن قد شعر أنّه ملزم في نقطة معينة خلال فترة إدارته، وبطبيعة الحال، بشكل سرّيّ أن يُهدّد و/أو يناقش مع أعضاء قيادة الأركان المشتركة خططاً وتحضيرات لإمكانية الاستعمال الوشيك وشن حرب بأسلحة نووية تكتيكية أو ستراتيجية، خلال أزمة صراع، لم تكن أصلاً نوويّة.

أعرف أنّ مثل هذا الاقتراح العام ليس معروفاً ومخيفاً في ظاهره، ولكنّه غير قابل للتصديق. ولتقليل ذلك أدرج أدناه قائمة بالأزمات النووية الموثقة طيلة النصف الثاني من القرن العشرين. وسأعقب ذلك بمناقشة المواقف الحديثة بصدد التهديدات النووية خلال فترتي حكم كلّ من جورج دبليو بُش ودَونَلد ترامپ.

1. هِروشِما ونَگزاكي، أغسطس عام 1945، مع استعداد الولايات المتحدة لإسقاط

المزيد من القنابل الذرية لغاية استسلام اليابان الكامل، دون قيد أو شرط.

2. أوامر ترومَن بنشر قاذفات B-29s، التي وُصِفت مهمتها رسمياً «القدرة النووية» وجُهّزت للانطلاق من قواعدنا في بريطانيا وألمانيا خلال فترة حصار برلين في شهر يونيو من عام 1948. رأى المسؤولون أنّ السوفيات فشلوا في فرض الحصار الجوي على المدينة.

3. تحذير ترومَن في مؤتمر صحفي حول جاهزية السلاح النووي الأمريكي بتاريخ 30 نوفمبر من عام 1950. كان ذلك التحذير موجهاً إلى كوريا بعد دخول الصين الحرب.

4. تهديدات أيزنهاور النووية السرية لفرض تسوية للحرب في كوريا عام 1953.

5. العرض السري الذي قدمه وزير الخارجية دَلاس لوزير الخارجية الفرنسي، بيدول لتزويد دولته باثنين أو ربّما ثلاث قنابل نووية تكتيكية، عام 1954 لفكّ الحصار عن القوات الفرنسية في معركة ديان بيان فو في الهند الصينية.

6. الاتفاق الداخلي بين أيزنهاور ودَلاس خلال أزمة جزيرة كومي ما بين شهري سبتمبر 1954 وإبريل عام 1955، بوجوب استعمال السلاح الذري للدفاع عن جزيرتي كومي وماتسو. نُقِلت أخبار هذا التهديد إلى الصين عبر وسائل عديدة وتحركات قادت في النهاية دَلاس لإجراء مفاوضات للتوصل إلى تهدئة تلك الأزمة.

7. «الاستخدام الدبلوماسي للقنبلة الذرية»، حسب وصف نِكسُن لردع السوفيات من القيام بعمل انفرادي ضدّ بريطانيا وفرنسا خلال أزمة السويس عام 1956.

8. أوامر أيزنهاور السرية لقيادة الأركان المشتركة خلال أزمة لبنان عام 1958 والتحضير لاستعمال القنبلة الذرية، إذا اقتضت الضرورة، لمنع تحرّك العراق لاحتلال آبار نفط الكويت.

9. أوامر أيزنهاور السرية لقيادة الأركان المشتركة عام 1958 لوضع خطط لاستخدام الأسلحة الذرية ضدّ الصين الشيوعية إذا حاولت غزو جزيرة كومي.

10. أزمة برلين خلال عامي 1958- 1959.

11. أزمة برلين خلال عامي 1961- 1962.

12. أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962.

13. «استعراض القوة النووية» في عدة أوقات مختلفة شملت النشر والتحذير المقصود ليراه الخصوم بهدف إرسال «إشارات نووية» مصحوبة بوضع الخطط الأمريكية لشن الهجمات النووية.

14. النقاشات العامة في الصحف وفي مجلس الشيوخ عن تقارير بأنّ الرئيس لِندِن جونسُن قد تلقى النصح من قبل قيادة الأركان المشتركة بضرورة استعمال الأسلحة النووية للدفاع عن مواقع مشاة البحرية الأمريكية المحاصرة في تلال كَي سان في فيتنام عام 1968.

15. التهديدات السرية الصادرة عن مسؤولي إدارة نِكسُن لردع الهجمات السوفياتية ضدّ القدرات النووية الصينية للفترة بين عامي 1969- 1970.

16. تهديدات نِكسُن السرية بزيادة تصعيد الحرب لحدّ استخدام القنابل الذرية. نقل كِسِنجر هذه التهديدات لفيتنام الشمالية ما بين الأعوام 1969- 1972.

17. تهديدات ونشر سفن القوة البحرية وغواصاتها المزودة بالأسلحة الذرية عام 1971، وفق طلب نِكسُن لردع ردّ سوفياتي حول إمكانية تدخل الصين ضدّ الهند خلال الحرب الهندية الپاكستانية، ولكن أيضاً لردع الهند من ممارسة ضغط عسكري أكبر على پاكستان.

18. وضعَ نِكسُن قيادة الأركان المشتركة وسلاح الجو على أهبة الاستعداد في شهر أكتوبر عام 1973 لردع السوفيات من التدخل الانفرادي بإرسال قوات أرضية للفصل بين الجانبين المتحاربين، العرب والإسرائيليين، وتأكيد تهديد الولايات المتحدة واعتراضها على دخول القوات السوفياتية للمنطقة واستعداد أمريكا لتصعيد الحرب إلى مستوى حرب نووية شاملة.

19. قيام الرئيس فورد بوضع قوات السلاح الذري في حالة إنذار DEFCON3 بتاريخ 19 أغسطس عام 1976، استجابة إلى مصادمات دموية في المنطقة المنزوعة السلاح في كوريا، لاستعراض قوة الولايات المتحدة واستعدادها لشن حرب نووية، تمثل في انطلاق قاذفات B-52 من جزيرة گوام واتجاهها شمالاً إلى البحر الأصفر مباشرة نحو... بيونگيانگ.

20. إعلان «مبدأ كارتر بخصوص الشرق الأوسط»، في شهر يناير من عام 1980، كما جاء على لسان وزير الدفاع هارُلد براون ونائب وزير الخارجية وِليَم ديس، وغيرهما من المسؤولين الآخرين.

21. الاعتبار الجادّ من قبل البيت الأبيض وقيادة الأركان المشتركة في شهر أغسطس من عام 1980، حول إمكانية الاستعمال الوشيك للأسلحة النووية التكتيكية في حالة قيام السوفيات بتعزيز وجودهم العسكري على حدود إيران تمهيداً لغزو البلد. تبع ذلك تحذيرات نووية سرية وعلنية للغاية تلقاها السوفيات. بقيت هذه غير معروفة من قبل الرأي العام، حتى قامت إحدى المجلات العسكرية بنشر مقالة اقتبستها صحيفة نو يورك تايمز. لكنّ المسألة ظلت خفية... حتى على الأكاديميين. غير أنّ الناطق الصحفي باسم الرئيس، جودي پاول، تحدّث عن الموضوع ونُقِل عنه قوله، «إنّها أزمة نووية خطيرة منذ أزمة الصواريخ الكوبية».

22. التهديدات الرسمية من قبل إدارة جورج هِربَرت بُش، حول إمكانية استعمال السلاح النووي استجابة «لتصرفات العراق غير المسؤولة»، التي يمكن أن يُقدِم عليها النظام خلال عملية عاصفة الصحراء في شهر يناير من عام 1991.

24. تهديدات إدارة كلِنتُن السرية والعلنية باستخدام الأسلحة الذرية ضدّ كوريا الشمالية عام 1995، إثر الإعلان عن برنامجها للمفاعل الذري، والذي سبقه قصف وشيك بالأسلحة الاعتيادية عام 1994.

25. التحذير العلني باللجوء إلى السلاح النووي على لسان وزير الدفاع في إدارة كلِنتُن، وِليَم پَري، ضدّ منشأة صنع أسلحة الغازات الكيمياوية السرية في منطقة ترهونة في

ليبيا عام 1996.

يبدو من هذه القائمة الطويلة ومن التهديدات الجديدة التي تلتها، أنّه لم يوجد خلال 70 سنة الماضية وقف لأنشطة الأسلحة النووية ولا وقف على التهديد باستعمالها وفق مفهوم «الدبلوماسية النووية». ومهما كانت الأسباب التي حالت إلى عدم الضغط على الأزرار، والسجلات تؤكّد على أنها نشاطات قوية، كما كان الحال في كوريا أو فيتنام، ما كان هناك حديث عن اعتبارها «محرمات» taboos يجب عدم الإقدام عليها سواء بالتهديد أم بالاستعمال الفعلي. وخلافاً لما يُقال عن الأسلحة الذرية، لا يوجد تقليد بعدم استعمالها» tradition of non-use.. وعليه من الإنصاف القول إنّنا محظوظون للغاية لعدم حدوث هجمات نووية.

ومهما كانت الأسباب، ولا شكّ أنّها متنوعة ومختلفة، فإنّ التهديدات التي قامت والخطط التي وُضِعت منذ عام 1945، لم تُنفذ. هل يعني أنّها كانت جميعاً خُداعاً أم حققت غاياتها؟ بالتأكيد أنّ بعضها كان خُداعاً مقصوداً، خاصة بالنسبة للرئيسين أيزنهاور ونِكسُن. لكنّ المناسبات 25 التي أشرنا إليها في أعلاه، لا تظهِر أحكاماً إنْ كان الرؤساء المعنيون قد نووا بشكل قاطع على تنفيذ تهديداتهم وخططهم «إذا اقتضت الضرورة»؟ أو ما كان أحدهم عَمِل لو تمّ فعلاً مواجهة تهديداته؟ الدلائل حول هذه القضايا، غالباً ما كانت موجودة، لكنّها تفاوتت في قوّتها، ولم تكن في أية حالة نهائية، بطريقة أو بأخرى. هناك أسئلة قد يجدها الرؤساء عصية على الجواب.

هل كان بعضها ناجحاً؟ ليست هناك وسيلة للتأكّد من ذلك. في بعض الحالات، ما كان الخصوم ينوون الردّ بأكثر ممّا فعلوه. بالنسبة للبعض الآخر، قد يكون غيّر مساره لأسباب لا تعود إطلاقاً إلى التحذيرات النووية الموجهة إليهم. ومع ذلك، هناك حالات يمكن القول أنّ التهديدات فيها فعالة وذات تأثير. وما له صلة بموضوعنا هنا، أنّ أغلب تلك التهديدات قد اعتُبِرت من قبل المسؤولين الكبار في الإدارة، بأنّها كانت ذات تأثير، إنْ اتفق معهم خصومهم بهذا الاستنتاج، أم لم يتفقوا.

فمثلاً، كان ما ورد في (الفقرة رقم 5) من القائمة صحيحاً، حين ارسل ترومَن طائرات B-29s وقت حصار برلين إلى بريطانيا. بالتأكيد كان ذلك خداعاً واعياً. الطائرات التي أرسِلت لم يجرِ تعديلها لتحمّل القنابل النووية، علماً بأنّ ترسانتنا النووية كانت صغيرة وظلت كافة القنابل النووية على الأرض الأمريكية. غير أنّ وزراء ترومّن استنتجوا بشكل صائب أو خطأ أنّ فشل السوفيات في فرض حصار جوي بعد فرض الحصار البري على برلين قد مكّن سلاح الجو، بقيادة الجَنرَل كُرتِس لومَي، من مواصلة إيصال الإمدادات إلى برلين الغربية، رغم وجود المقاتلات السوفياتية والمدفعية

وبطاريتها المضادة للطائرات في ألمانيا الشرقية. كان ذلك بفعل تهديدات B-29s بإلقاء قنابل، كالتي أسقطها لَومَي حديثاً على هِروشِما ونَگزاكي. ذكر المؤرخ گرَگ هِركِن بشأن ذلك ما يلي:

> حتى وزير الخارجية جورج مارشَل، الذي ظلّ خلال السنة خائفاً من «استفزاز» أمريكا للدب الروسي بعمل عسكري، إلاّ أنّه عبّر الآن عن تفاؤله بالمستقبل. إنّ السبب في تغيّر موقفه كان مدفوعاً بشكل جزئي أنّه أسرّ وزير الدفاع جَيمس نورستاد باعتقاده أنّ «السوفيات بدأوا يدركون لأوّل مرّة بأنّ الولايات المتحدة ستقوم فعلاً باستخدام القنبلة الذرية ضدّهم، في حالة قيام حرب».

حين عاود خروچوف تهديداته في حصار برلين الغربية بين الأعوام 1958- 1959 و1961-19، فإنّ الترسانة الأمريكية، التي تشمل الآن أسلحة ذرية حرارية لم تعد محدودة، وأنّ الآلاف من تلك القنابل كانت موجودة في أوروپا. يبدو أنّه لا مفرّ من أنّ إحباط خروچوف المتواصل لفترة طويلة، قد دفعه لتغيير واقع الأمور في برلين الغربية المحاطة بالفرق العسكرية السوفياتية. إلاّ أنّ خوفه من تحركاته العسكرية فيها مخاطرة لإمكانية حدوث حرب نووية. كما أنّ الثمن، الذي دُفِع لقاء هذا النجاح غير المشكوك فيه بإبقاء برلين الغربية بعيدة عن سيطرة النظام السوفياتي والأنظمة التابعة له، قد قاد إلى بناء المزيد وصيانة آلات الفناء الأمريكية، والذي قاد بدوره السوفيات لتحقيق مستوى مماثل. طرح هذا ولا يزال لحدّ الآن الإمكانية الدائمة إلى يومنا هذا، إنّ إحداهما أو كليهما سيضعان نهاية لحياة البشرية.

ما أودّ التركيز عليه هنا، هو أنّ عدداً من الرؤساء قد اعتقدوا أنّ تهديداتهم نجحت وأنّهم بدون استثناء ومنذ عام 1945 قد شعروا خلال فترات حكمهم واعتقدوا كأنّ الاستخدام الأول والتهديد بالأسلحة النووية، حالياً أو في المستقبل، حقّ مشروع وقد يكون له تأثير رُبّما ضروري. هذا صحيح حتى بالنسبة لأولئك الذين مقتوا الفكرة برمّتها تحت أيّ ظرف. أعتقد أنّ هذه الفئة ضمّت جون كنَدي ولِندِن جونسُن ومعهما روبرت مَكنَمارا، الذي شغل منصب وزير الدفاع في حكومتي الرئيسين المذكورين، وربّما آخرين غيرهم. لكنّهم شعروا بالالتزام والتشبّث بهذا الحق، من خلال تجاربهم الشخصية في الإدارة ومن جانب آخر بسبب الضغوط عليهم من قبل المتخصصين في السياسة الخارجية، وربّما بسبب الخصومات والمزايدات السياسية المتوقعة، بوجوب المحافظة على مصداقية التهديدات النووية وجاهزيتها وزيادتها في المستقبل.

في خطابه الموجّه للأمّة حول حالة الاتحاد في عام 1984، دفع رَيگِن بفكرة واقتراح حقيقي،

«أنّ الحرب النووية لا يمكن أن تحقق النجاح، ويجب عدم الخوض فيها إطلاقاً». الذي لم يذكره والذي لم يتفرّد به وحده من دون الرؤساء الآخرين، إنّه تصرّف وكأن قصده القول، «إنّ الحرب النووية يجب ألاّ تكون مُهدّدة أو يتمّ التحضير لها». غير أنّ التحضير لضربات استباقية أو تنفيذ التهديدات بالضربة الأولى، ظلت الأساس في «تحديث» برامج الأسلحة النووية الستراتيجية خلال 70 سنة الماضية. قام الرئيسان أوباما وترامپ بتمديد الفترة إلى 100 سنة. وهو الأمر الذي حقق ويحقق المزيد من المنافع الجمّة لقطاع الصناعات العسكرية المدعوم بحماس من قِبَل الكونگرِس.

أشعر بالحاجة إلى أن أتنبأ على الأقلّ، بأنّ القدرة على إطلاق التهديدات الذرية وتنفيذها أمر أساسي للأمن القومي للبلاد وقيادتنا للتحالفات. وهذا هو السبب، الذي دفع كافة الرؤساء بعدم التصريح رسمياً «بالالتزام بفكرة عدم شنّ الضربة الأولى No First Use». لقد رفضوها جميعاً، رغم الاقتراحات المتكررة من قبل الصين، التي أعلنت التزامها وقت جرّبت للمرة الأولى سلاحها النووي عام 1964. وكما فعلت الهند بعد اختبارها الثاني عام 1998، وكذلك الاتحاد السوفياتي بين الأعوام 1- 1993، خاصة أنّ ميخائيل گوربَچوف، قد أعاد تأكيد ذلك وهو في آخر شهر له في السلطة، بالتزام بلده بهذا المبدأ واقترح أن تقوم الولايات المتحدة باتخاذ نفس الخطوة. لكنّ هذا الاقتراح وكما هو متوقع، رُفِض من قبلِ إدارة جورج هِربَرت بُش، رغم أنّ عدداً من الاقتراحات الأخرى قد تمت الموافقة عليها.

رفضت الولايات المتحدة بعناد اقتراح غالبية الشعوب الأخرى للالتزام بمبدأ NFU، باعتباره أساساً لوقف انتشار الأسلحة النووية، كما رفضت التصديق على معاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة الذرية خلال مؤتمر عام 1995 ومؤتمر مراجعة القضية ذاتها عام 2000. الأكثر من ذلك، أصرّت الولايات المتحدة على الطلب من حكومات أعضاء حلف شمال الأطلسي أن تستمرّ بقبول فكرة شرعية الضربة الأولى وجعلتها جزء من ستراتيجية الحلف، حتى بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ومعه سقوط حلف وارسو، وانضمام غالبية أعضاء الحلف المذكور السابقين إلى حلف شمال الأطلسي. ومع ذلك، فإنّ هذا الموقف العنيد المصحوب بالتهديدات الفعلية لإمكانية استعمال السلاح النووي، قد تجلى في المواجهات الأخيرة مع العراق وكوريا الشمالية وإيران. وهذه تصرفات تستبعد تماماً وجود قيادة فعالة في الولايات المتحدة لنزع الشرعية عن أحد ووقف محاولات انتشار الأسلحة النووية، وحتى تقليد ما تقوم به الولايات المتحدة.

يعرف القلائل من الأمريكيين المدى الذي وصلت إليه الولايات المتحدة وحلف الأطلسي بالتمسّك بمبدأ الضربة الأولى وخلق عزلة طويلة الأمد للولايات المتحدة وحلفائها، أخلاقياً وسياسيّاً

على مستوى الرأي العالمي. كما أنّ هؤلاء المواطنين ليسوا على اطلاع باللغة الحادة التي تستعملها غالبية الدول في الجمعية العامة للأمم المتحدة وقراراتها لشجب سياسة الضربة الأولى، التي أصبحت ولوقت طويل أساس التخطيط ولاستعداد الحلف الأطلسي لشنّ حرب نووية، كما فعل كلّ رؤساء أمريكا، اعتباراً من فترة ترومَن.

إنّ قرار الأمم المتحدة المرقم 36/ 100 حول الإعلان لمنع قيام كارثة نووية، الذي صودق عليه بتاريخ 9 ديسمبر عام 1981، كان ردّاً على قرار رَيگِن بتبني **مبدأ كارتر** لعام 1980، حيث توسّعت التهديدات باستعمال الأسلحة النووية والقيام بأيّة نشاطات ضرورية لحماية منطقة الخليج العربي. وهذا يتناقض تماماً ويشجب بشدة ما جاء في مسوّغات **مبدأ كارتر** نفسه ومقدمته، التي جاء فيها، «إنّ أيّ مبدأ يسمح بالضربة النووية الأولى وأيّ نشاط يدفع العالم نحو كارثة، لا يتساوق مع المبادئ الأخلاقية الإنسانية والمبادئ السامية للأمم المتحدة».

القول إنّ بعض تهديدات الحكومة الأمريكية يقع ضمن ما حددته غالبية الشعوب، بأنّها «أخطر جرائم ضدّ الإنسانية»، كان واضحاً فقط، كما في **مبدأ كارتر**، وينطبق أيضاً على تصريحات الرؤساء أنفسهم، الذين لا يُفصحون في العادة عن طبيعة التهديدات النووية بوضوح، حتى حين يحذرون الرأي العام. تُترَك هذه الأمور في الغالب إلى المساعدين والمسؤولين الآخرين، وبشكل خاصّ الصحفيين، كي ينظروا إلى «المعنى الحقيقي» للتصريحات السياسية، التي تتسرّب بموافقة الجهات المعنية. المثل الجيد لذلك، كان في شهر يناير من عام 1981، حين صرّح هارولد براون، وزير دفاع حكومة كارتر، التي انتهت مهمتها، للصحفيين بكلمات ردّدها رَيگِن بعد شهر بأنّنا سنمنع روسيا، التي احتلت أفغانستان في أواخر عام 1979، من اجتياز حدود إيران الشمالية أو أيّ جزء في الشرق الأوسط في الثمانينات. كان ذلك «مخاطرة لقيام حرب عالمية ثالثة». التحذيرات، التي أطلقتها إدارة رَيگِن عام 1981، هي التي دفعت الأمم المتحدة لإصدار قرارها المرقم 36/ 100 في أواخر ذلك العام.

رغم أنّ الرئيس كارتر، صاحب المبدأ لم يستعمل لغة بهذا الوضوح، كان ذلك خلافاً للغة رَيگِن. حين ألقى الأول منهما خطاب **حال الاتحاد** أمام الكونگرِس وأعلن فيه مبدأه حول الشرق الأوسط، لم يكن هناك نقص في دعم التوضيحات بالإشارة إلى دور الأسلحة النووية في رسم سياسة البلد الخارجية. قبل الخطاب بأسبوع وبعده بأسبوع آخر، تسابق مسؤولو البيت الأبيض إلى مراكز الصحف وتدافعوا للظهور في ندوات التلفزيون لتسريب الأخبار حول التزام الرئيس باستخدام «أيّة طريقة ضرورية، بما فيها القوة العسكرية» ضدّ أيّ تحرّك سوفياتي آخر باتجاه منطقة الخليج الفارسي، التي ستكون في قلب أيّ تهديد محتمل لشن حرب نوية تكتيكية من قبل الولايات المتحدة.

إثر خطاب كارتر يوم 23 يناير من عام 1980، حضر رِچَرد بُرت، الصحفي الذي عمل في نو يورك تايمز وأصبح فيما بعد مسؤولاً كبيراً في إدارة رَيگِن، إلى الپنتگون بقصد الاطلاع على دراسة سريّة. وهي «أوسع الدراسات العسكرية تفصيلاً عن المنطقة، ممّا أجرته الحكومة في السابق». شكّلت تلك الدراسة خلفية تحذير الرئيس. لخّصها الصحفي المذكور بأنّه، «إذا عجزت القوات الأمريكية من صدّ القوات السوفياتية إذا توغلت داخل الحدود الشمالية لإيران، فإنّ أمريكا ستلجأ إلى استخدام الأسلحة النووية التكتيكية في أيّ صدام في تلك المنطقة. «أتذكّر جيّداً من أيامي في مؤسسة راند أنّني اطلعت على قيام مناورات عسكرية أجريت عند حدود إيران الشمالية عام 1959-1960، وتوصلت إلى نفس الاستنتاج.

الدراسة المشار إليها، أجريت عام 1979 واسمها **تقرير وولفوِتز**. نعم هو صاحبنا وولفوِتز ذاته! كان في ذلك الوقت نائباً لوزير الدفاع للبرامج الإقليمية في إدارة كارتر، وأصبح فيما بعد نائباً لوزير الدفاع بين الأعوام 2001- 2005 في فترة جورج دبليو بُش. وهو المحرّض والعقل المدبّر لغزو العراق. اقترحت دراسته في حينها «استخدام رؤوس نووية تكتيكية محمولة بواسطة صواريخ كروز، تُطلق من السفن الحربية في المحيط الهندي».

برغم الكلام والمواقف المعلن عنها وكافة التحليلات العسكرية والخطط والمقترحات ونشر القوات والطائرات والسفن، التي أشرنا إليها، بقي نفس السؤال، الذي أثير عام 1980، يتردّد قبل ذلك التاريخ وبعده. هل يستطيع الروس أو أيّ شخص آخر أن يصدّق أنّ رئيس الولايات المتحدة، لو تمّ تحديه فعلاً، قد يُقدِم على تنفيذ تهديداته النووية، ويتحمّل إمكانية غير محتملة ببقاء الصدام محدوداً، وإبادة السكان المحليين وقوات العدو المتواجدة بينهم أو قربَهم؟ هل يمكننا حقيقة أنْ نتوقع أنّ رئيس أمريكا سيُقدِم على ذلك ويأمر بارتكاب مجزرة كهذه؟

كانت مهمّة وِليم دايس، بحكم عمله كنائب لوزير الخارجية للعلاقات العامة، أن يفسّر معاني **مبدأ كارتر** للرأي العام خلال الأسبوع الذي تلي موعد الخطاب. في مقابلة تلفزيونية بعد يوم من تسريب بُرت الأخبار عن دراسة الپنتگون، أجاب دايس عن السؤالين أعلاه بطريقة واضحة لا لبس فيها:

س. في أيّة حرب نووية، هل نحن ملتزمون بالقيام بالضربة الأولى؟

ج. لا، سيدي.

س. بإمكاننا أن نبدأ هجوماً...

ج. ليس لدينا تعليق بشأن هذا الأمر. لكنّ السوفيات يعلمون أنّ هذا السلاح مرعِب، وأنّنا استعملناه ضدّ السكان المدنيين مرتين في التاريخ، وكان بأمر الرئيس الأمريكي نفسه. وعليه، يجب عليهم أن يأخذوا ذلك بنظر الاعتبار عند وضع حساباتهم.

لا شكّ أنّه يتوجب على السوفيات أن يتذكروا ذلكما الهجومين والاستعمالين الأولين للسلاح الذري، اللذين استهدفا تخويف اليابانيين من قبلِهِم. وأبعد من ذلك، لأنّهم يعرفون أفضل من غيرهم النتائج، التي ترتبت على استعمال الولايات المتحدة للسلاح الذري. لقد عرف السوفيات، خلافاً للرأي العام الأمريكي، هذا الأمر لأنّ المسؤولين الأمريكيين قد أبلغوهم به عن طريق التهديدات الواضحة الصادرة من مكتب الرئيس في البيت الأبيض. وحتى إن كان الحديث عن استعمال السلاح النووي سرّياً، فإنّهم وحلفائهم والدول التابعة لهم يدركون أنّهم في القائمة المستهدفة بتلك التحضيرات والاستعدادات.

الأكثر من ذلك، إنّ السوفيات يتذكّرون أنّ قيادة السلاح الجوي الستراتيجي للولايات المتحدة قد تأسست عام 1946 وهدفها إسقاط القنابل النووية على روسيا، إن صدرت الأوامر بذلك. كان ذلك في وقت معروف للجميع أنّ الرئيس وضباطه الكبار يعرفون أنّ الاتحاد السوفياتي ما كان متوقعاً له أن يمتلك أنظمة عملية للأسلحة النووية قبل مرور حقبة من الزمن أو أكثر. كانت مهمة سلاح الجوي الأمريكي الوحيدة في تلك الفترة الأولى، التي توّجَت بتأسيس حلف شمال الأطلسي، هي التهديد أو تنفيذ الضربة الأمريكية الأولى ضدّ الاتحاد السوفياتي، ربّما لحماية منابع النفط في الشرق الأوسط، إضافة إلى حماية برلين وأوروپا الغربية. لم يكن موضوع الردع والهجمات الانتقامية الثأرية دفاعاً عن الولايات المتحدة الأمريكية أو أيّ مكان آخر وارداً إطلاقاً.

لم تكن روسيا ولكن نحن بحاجة أن نعرف الحقائق الخفية حول أبعاد القنبلة النووية في سياسة أمريكا الخارجية. تشير الأمور التي أتينا عليها أعلاه واعتباراً من فترة التسعينات، إلى أنّ تلك الأبعاد لم تختفِ بنهاية الحرب الباردة، ولم تنتهِ بنهاية القرن العشرين. دعونا ننتقل إلى الوقت الحالي.

صدرت خلال العامين 2005- 2006 مقالات عديدة للصحفي سيمور هِرش، الحاصل على جوائز عديدة في مجاله المهني. أجرى هِرش مقابلة مع رئيس سابق لإحدى محطات وكالة المخابرات المركزية فِلِپ جِرالدي، حول خطط الطوارئ الأمريكية بإشراف نائب الرئيس رِچَرد چَيني للقيام

«بهجوم واسع على إيران باستعمال الأسلحة التقليدية والأسلحة النووية التكتيكية». بتاريخ 10 أبريل، وصف الرئيس الأمريكي جورج دبليو بُش مقالة هِرش في مجلة نو يوركر، التي صدرت في نفس اليوم، بأنّها «مضاربات من صنع الخيال». غير أنّه بتاريخ 18 أبريل من عام 2006 جرى تبادل للكلام في مؤتمر الرئيس الصحفي، عكس ردود فعل المجتمع الدولي واهتمامه بمقالة هِرش عن التخطيط النووي:

> مراسل: سيادة الرئيس، حين تتحدث عن إيران وتتحدث عن جهودك الدبلوماسية، تقول في ذات الوقت إنّ كافة البدائل مطروحة. هل يشمل ذلك القيام بضربة نووية؟ هل هذا أمر تخطط له إدارتكم؟
>
> الرئيس بُش (مؤكّداً): كافة البدائل مطروحة.

منذ تلك اللحظة وما تلاها، لم تعد تلك الصيغة خافية على أحد حول ردود الفعل اتجاه برنامج إيران للطاقة النووية. الآخرون، الذين أشاروا لهذا الأمر في الحملة الانتخابية للرئاسة لعام 2008، هُم هِلَري كلِنتُن وبراك أوباما وجون إدوَردز، وكذلك 5 من مجموع 9 مرشحين جمهوريين للرئاسة، من الذين ساهموا في مناظرة إدارتها محطة سي أن أن بتاريخ 5 يونيو من عام 2007. من بين هؤلاء، رودولف جولياني وحاكم ولاية ماسَچوسِت مِت رومني وعضو الكونگرِس دَنكِن هَنتَر وحاكم ولاية فرجينيا جَيمس گِلمور وعضو مجلس الشيوخ جون مّككَين. عارض عضو مجلس الشعب رَون پول، الذي حظي بنسبة 1% حسب استبيانات الرأي العام، بشدّة خطط الهجوم على إيران واتفق معه في ذلك مرشح الحزب الديمقراطي وعضو مجلس الشعب دِنِس كوسِنِچ، الذي حصل على نسبة تأييد قدرها 1% هو الآخر.

السؤال الذي تمّ توجيهه إلى المرشحين الجمهوريين كان عن «استعدادهم للقيام بضربة نووية استباقية ضدّ إيران، إذا تطلب الأمر ذلك لمنع الجمهورية الإسلامية من صنع القنبلة الذرية». كرّروا القول «حول ترك كافة الخيارات مطروحة»، لدى الاستفسار منهم عن الأسلحة النووية التكتيكية. بالرغم من أنّه لم يلاحظ أحد، ربّما باستثناء الإيرانيين، أنّ اتخاذ مثل هذا الموقف أنّهم قد أيدوا الرئيس في استخدام سلاحنا النووي في «مفاوضاته» مع إيران.

لم يتردّد خصومه الديمقراطيون، باستثناء كوسِنِچ، في تأييد ذلك. ذُكِرَ أنّ المرشحة الديمقراطية، هِلَري كلِنتُن، قد صرّحت في شهر أغسطس من عام 2007 أنّ منافسها أوباما قد رفع الخيار النووي لمهاجمة پاكستان. علت وجهها «ابتسامة خفيفة» قبل أن تتقدم للهجوم عليه بثقة عالية.

كانت حملتها لحدّ الآن تهاجم أوباما باعتباره ساذجاً تنقصه الخبرة، لكي يمكن الوثوق به كرئيس للبلاد، وكما أدركت ذلك مباشرة، قد برهن على صحة رأيها.

سُئِل أوباما من قبل مراسل وكالة الأسيوشيتد پرس فيما إذا كانت هناك أيّة ظروف يكون فيها مستعداً أو راغباً لاستخدام السلاح النووي في أفغانستان وپاكستان لدحر الإرهاب والقاعدة وزعيمها أسامة بن لادن. وكما ذكرت صحيفة يو أس أي اليومية، «أعتقد أنّه سيكون خطأً عميقاً أن نلجأ لاستخدام الأسلحة النووية هناك تحت أيّ ظرف». قال ذلك وتوقف ثمّ أضاف، «المسألة تتعلق بالمدنيين». ثمّ استدرك، «دعني أخبرك أنّه لم يجرِ نقاش لاستخدام الأسلحة النووية. إنّها ليست مطروحة على الطاولة». وحين سُئِل ثانية إن كان جوابه يشمل عدم استخدام الأسلحة النووية التكتيكية، فقال، «تلك أيضاً». عنى أنّ التعليق يتعلق بپاكستان وأفغانستان، لكنّه ذكر أنّ الخيار قائم فيما يتعلق بإيران، مثله مثل كلِنتُن ومنافسهما إدوردز. استمر المراسل ينقل ما يلي:

وبّخت كلِنتُن زميلها، عضو مجلس الشيوخ حول التعرض لموقف افتراضي.

> «على الرؤساء أن يكونوا شديدي الحذر في كافة الأوقات حين يتعرّضون للحديث عن استخدام أو عدم استخدام الأسلحة الذرية. لا أعتقد أنّ أيّ رئيس يجب أن يعطي تصريحاً مفتوحاً فيما يتعلق باستخدام الأسلحة النووية أو عدمه»، حسب قولها.

وعليه كان واضحاً بالنسبة للمرشحة الأولى في الانتخابات عام 2007، وسياقاً مع الشعور العام، الذي كان بجانبها، أنّ الرئيس الحقيقي أو أيّ شخص مؤهّل لهذا المنصب، عليه ألاّ «يعطي إشارة» بأنّه/بأنّها لن تستخدم السلاح النووي التكتيكي في عمليات انفرادية ضدّ إرهابيين داخل منطقة غير مستقرة من الناحية السياسية، ولو أنّ حليفها يمتلك السلاح النووي. في الحقيقة أنّ رويترز نقلت كلام كلِنتِن ليس اقتباساً حرفياً، خلال تلك المقابلة وهي تقول، «الرؤساء لا يسحبون الخيار النووي من طاولة المفاوضات».

ذلك بالضبط ما كانت تعني. وهذا ببساطة تصريح دقيق عن الرؤساء الأمريكيين جميعاً وبدون استثناء خلال العصر النووي. لا ينطبق هذا الحكم عليهم فقط، ولكن يشمل كلّ من يطمح للوصول إلى ذلك المنصب، بما فيهم أعضاء الكونگرِس الطموحين. لا أحد من المرشحين الرئيسيين من أعضاء الحزبين كان راغباً في تقويض سلطة الرئيس الحالي أو المستقبلي وإضعاف «موقفه في المساومة» عن طريق الإصرار بأنّ المباشرة أو التهديد بالهجوم النووي خيار غير شرعي في متناول الرئيس أو أيّ قائد وطني آخر مثل فلادِمَر پوتِن.

لقد تمّ تثبيت هذه النقطة في إحدى حملات انتخابات الرئاسة خلال عام 2016، والتي أشار فيها ترامپ بشكل متكرّر إلى ممانعته لرفض خيار الضربة الأولى المصحوب ببعض التعليقات غير المحببة، التي تصل أحياناً إلى حدّ الذعر. دعاه بعض الإعلاميين إلى قول ذلك، خاصة چرِس ماثيوز في منتدى عُقِد في مدينة گرين بَي في ولاية وِسكُنسُن بتاريخ 30 مارس من عام 2016:

ماثيوز: هل يمكن أن تخبر الناس في الشرق الأوسط أنّنا لن نستعمل القنبلة النووية ضدّ أيّ أحد.

ترامپ: لن أعد بذلك إطلاقاً. لن أرفع أيّاً من خياراتي المطروحة على الطاولة.

ماثيوز (ضاحكاً): من الممكن أن نستعملها في أوروپا؟

ترامپ: لا، لا أعتقد ذلك، لكنّني لن أرفعها...

ماثيوز: حسناً، قلْ، «لن أستعمل السلاح في أوروپا».

ترامپ: لن أقول ذلك. لن أرفع أيّاً من خياراتي.

ماثيوز: حسناً.

ترامپ: لن أستعمل القنبلة النووية، لكنّني لن أرفعها من خياراتي.

إنّ متابعة ماثيوز لهذا الموضوع تشبه تقريباً كافة المقابلات الأخرى، التي يبدو ببساطة أنّها تعكس جهلاً واسعاً لحقيقة أنّ ترامپ قد اتخذ موقف كلّ رئيس أمريكي منذ ترومَن وموقف كلّ مرشح بما فيهم منافسته هِلَري كلِنتُن. لو كان ماثيوز سألها نفس السؤال لو شاركت في نفس الندوة، لأعطته نفس جواب ترامپ. فهو التزام بموقفها، الذي أعلنت عنه عام 2007. لا أحد من الرؤساء أو المرشحين قد اقترب من تبني أو إعلان سياسة عدم اللجوء للضربة الأولى، رغم أنّ أوباما قد شجّع ونظر بشكل جدّي وسرّي في الأمر، خاصّة في سنته الأخيرة، قبل رفضه له في وجه الاعتراضات من قبل وزراء الدفاع والخارجية والطاقة، إضافة إلى بعض الحلفاء.

من المؤكّد أنّ بعض المرشحين الرئيسيين والرؤساء قد اتخذوا نفس موقف ترامپ لكنّهم سبّبوا انزعاجاً أقلّ ممّا سببه الأخير، الذي يشعر عادة بعدم الثقة بالآخرين وسريع الغضب وتبنى سلوكاً

مقصوداً يجعل التنبؤ به عصيباً، وذلك خلال حملته الانتخابية وبعد توليه الرئاسة. لقد أفصح عن ذلك خلال حواره مع ماثيوز في شهر مارس من عام 2016. فمن جهة قال، «سأكون متأنياً للغاية ومتردّداً في الضغط على الزرّ النووي»، لكنه تابع قوله هذا بطرح سؤال بعد لحظات، «لقد سخّروا داعش، وهل يمكن أن نقاتل **داعش** بالأسلحة النووية؟».

ثمّ أضاف بعد ذلك قائلاً، «سأكون آخر من يستعمل السلاح الذري». تقوّض هذا التأكيد في الحال بعد أن ذكر إثره، والجميع يعرف أنّ ذلك ليس صحيحاً، «لقد عارضت العراق». و«استعمال السلاح النووي يجب ألاّ يكون من ضمن الخيارات، لكنّه قد تحين لحظة يمكن فيها اللجوء إليه، ممكن، ممكن؟» «وإن لم تحن تلك اللحظة»، حسب ما ذكر ماثيوز، «لماذا إذن نصنع هذه الأسلحة؟ لماذا؟».

سخر العديد من ذلك السؤال، رغم أنّه يبدو سؤالاً عادلاً، فيما هزّ آخرون أكتافهم بشأن عواقب إشراف دونَلد ترامپ على صرف ترِليُن دولاراً لتجديد ترسانة سلاحنا النووي، وهو البرنامج، الذي ورثه عن أوباما. قد تجعل هذه المسؤولية الإنسان يشعر أنّ الرجل قد يستعمل بعض هذه الأسلحة. وبطبيعة الحال، هو يخطط لاستعمالها شأنُه شأن الرؤساء الآخرين، خلال المفاوضات ومن خلال التهديدات واستغلال ريبة خصومنا، فيما إذا كان سيشنّ هجوماً «نووياً» خلال أزمة أو جمود صراع عسكري، وربّما في لحظة غضب نتيجة استفزاز مُهين. إذا كان سيُنفذ تهديداته في أيّ ظرف معيّن أو قد يستعمل الأسلحة الذرية في هجمات، يظل أمراً غير مؤكّد، لكنّه ممكن، كما هو الحال مع كلّ رئيس في العصر النووي.

لمّح ترامپ لمحاوره ماثيوز بشكل اقترب كثيراً إلى قول الحقيقة. «لا أنوي استخدام الأسلحة النووية، لكنّني لن أستبعد أيّ خيار من الطاولة». هل كان يُخادع؟ لقد لجأ إلى ذلك في أغلب الأوقات.

ومع ذلك، فإنّ ستراتيجية التفاوض، التي أشرنا إليها، الإعلان ثمّ استغلال عدم القدرة على التنبؤ بسلوكه وتعمّده خلق شكوك متناقضة وتصرفات تنمّ عن الاندفاع والشرود والانتقام، التي رأى البعض شبيهاً لها في سلوكية نِكسُن ونظريته عن الرجل المخبول. وهذا أمر مقلق للغاية، خاصّة بالنسبة للعديد من الأمريكيين والناس الآخرين حول العالم، من الذين يعتقدون أنّ هذا الرئيس قد يكون حقيقة مخبولاً.

هناك أدلة كافية لتعزيز مثل هذه الانطباعات. لكنّه في حالات أخرى أثبت براعة وحيلة ماكرة كالثعلب، وهذا ما أوصله إلى منصِب الرئاسة. وربّما تملص من أولئك الذين يسعون في الداخل للإيقاع به وتمكّن من المحافظة على مركزه في الرئاسة، وقد تنجو ديمقراطيتنا من شرور هذه

المحاولات أو لا.

ولكن ما يبدو أنّه لا يرقى إليه الشكّ، أنّ أيّ نظام اجتماعي، ليس نظامنا فقط، الذي خلق وأبقى على آلات الفناء وأوّل من استعمل بعضها وجعلها في متناول إنسان، أيّ إنسان وليس ترامپ فقط، هو أسوأ من أن يكون هذا السلاح في أيدي عدد غير معروف من الأشخاص، في جوانب أساسية مجانين. إنّ نظامنا هو نظام من هذا الصنف. إنّنا في قبضة مجانين يجب أن يكونوا أصلاً في مصحّات الأمراض العقلية.

ليس هناك شيء جديد فيما يتعلق بالبشر وشؤونهم. نستعيد هنا القول المأثور للفيلسوف فرِدرِك نِتشه في كتابه المعنون «ما بعد الخير والشرّ»، حين ذكر «إنّ الجنون عند الأفراد شيء نادِر، لكنّه يتمثّل في القاعدة وبين الجماعات والأحزاب والشعوب في مختلف العصور». نحن الأمريكيون، لدينا شخص غير سويّ في البيت الأبيض في هذا الوقت. لكنّ كلي الحزبين والعديد من الشعوب ينطبق عليهم قول نِتشه. في العصر النووي، يعني أنّنا كبشر فوق كلّ من الدول، التي تمتلك السلاح النووي وحلفائها، نمثل خطراً وشيكاً بإحلال الفناء بأنفسنا وبكافة الكائنات على سطح هذا الكوكب.

تلك هي النتيجة النهائية، التي كشفت عنها الدراسات وسمّتها **الشتاء النووي**، وهي تهديد فرضتّه على البشرية ترسانتا الأسلحة النووية وسياستا البلدين الأقوى في العالم. دعوني أركّز على حال بلدنا كما شرحها المرشحون الرئيسيون في الانتخابات الأخيرة.

أوّلاً. من الواضح أنّه ما دامت الولايات المتحدة تريد بسط مصداقيتها حول التهديد بأن تكون أوّل من يستعمل السلاح النووي عن طريق الإفصاح بذلك وتحديث قدراتها لإيقاع الضربة الأولى الموجهة إلى روسيا، فإنّها تساند تلك المصداقية. لكنّها في ذات الحال، تهدد حياة معظم الشعوب، التي لا علاقة لها بهذا الخصام، ولا تشارك في عملية نزع السلاح، وليس لها نشاط في إسقاط الشرعية عن الأسلحة النووية ومن يمتلكها أو من يستعملها أو يهدّد باستعمالها. بدون قيادة أمريكية تسعى للرجوع عن هذا الطريق، سوف لن يحدث تقليص هامّ لمقدار الخطر المحتمل، الذي تواجهه الإنسانية بفعل شرور الأسلحة النووية.

ليس الموضوع هنا هو مقدار المنافع العملية للانضمام إلى إجماع دولي واسع النطاق ضدّ البدء بحرب نووية، رغم أنّ هذا أمر يبدو أنّه مُلِحّ للغاية. الأكثر أهمية، هو أن ندرك ما يُدعى الواقعية الأخلاقية، وهي وجهة نظر ترفض التوجّهات الحزبية والمنافع الوطنية. لا بُدّ من وجود مقاومة منتظمة هدفها إزالة المسوّغات والخطط لاستخدام الأسلحة النووية، وأن نطرح أسئلة على أنفسنا

كشعب وكمواطنين وكبشر، ماذا ارتكبنا ونرتكب من المخاطر، وأيّ حقّ لنا في ذلك، وما هي الالتزامات المترتبة علينا، وماذا يجب علينا التوقف عن ارتكابه.

بالنسبة لي شخصيّاً، فقد تقبلت رأي الرئيس جورج دبليو بُش وإدانته تحت كلّ الظروف للإرهاب، الذي يستهدف القتل العمد للمدنيين غير المسلحين والأطفال وحتى الرضّع وكبار السنّ والمرضى، لغايات وأهداف سياسية. في ظاهره يبدو هذا الموقف غير قابل للخلاف. وعليه فإنّ تدمير برجي التجارة العالمية بما فيهما من الناس في يوم 11 سبتمبر من عام 2001، عمل إرهابي هدفه القتل الجماعي، من وجهة النظر العالمية.

ولكن من جهة أخرى، لا تعي غالبية الشعب الأمريكي «أشكال الإرهاب الأخرى»، من قبيل خلق العواصف النارية بإلقاء القنابل على طوكيو أو درِسدِن أو هُمبرگ أو إسقاط القنابل الذرية على هِروشِما ونَگزاكي. تُعتبَرُ هذه المذابح المتعمّدَة، التي أوقعت بالمدنيين خلال الحرب العالمية الثانية وقبلها مذابح اليابانيين، التي أوقعوها بالمدنيين الصينيين في نانكِنگ، وفق أيّ معيار جرائم حرب وأعمال إرهابية تمّ ارتكابها خلال أوقات الحرب. إنّها جرائم ضدّ الإنسانية.

وتماماً وكما حدث بالنسبة للقنبلتين، اللتين دمّرتا مدينتي هِروشِما ونَگزاكي، فإنّ أيّ هجوم باستعمال سلاح نووي تكتيكي واحد قرب منطقة مأهولة بالسكان سيقتل ما بين 10- 100 ألف شخصاً من غير المسلحين. وعليه، فإنّ أيّ تهديد بإنزال الضربة الأولى هو تهديد إرهابي، وكل دولة تهدّد بذلك هي دولة إرهابية. وهذا ينطبق على الولايات المتحدة وحلفائها، بما فيهم إسرائيل، إلى جانب روسيا وپاكستان وكوريا الشمالية.

في الحقيقة، إنّ الذهاب أبعد في مفهوم الإرهاب وحقيقة جرائمه، أنّه ليس خطراً أخلاقيّاً بل كارثة أخلاقية. إنّ روسيا وأمريكا ومعها حلفائها في الأطلسي، ما زالت تهدّد وتنشر الأسلحة النووية التكتيكية، وما زالت تتدرّب على شنّ الهجمات النووية الأولى ضدّ الخصوم النوويين، إذا اقتضت الضرورة. وهذا يعني الاستعداد لفرض ذلك على البشر وتصعيد الموقف نحو حرب نووية تخلق الشتاء النووي وتقضي على الجميع. أتحدث بصفتي أمريكياً، بأنّه يجب على الولايات المتحدة أن تبادر ولا تنتظر الجميع لوقف هذا الجنون، لأنّ عام 2017 قد حلّ مبكّراً.

لكي نستعيد أخلاقنا الأساسية، يجب أن نتحرك بسرعة لإنقاذ الحضارة الإنسانية وحياة الكائنات الأخرى على وجه البسيطة. يجب على الولايات المتحدة وحكومتها، بما فيهم الرئيس والمسؤولين وأعضاء الكونگرس، أن يواجهوا ضغط حركة شعبية تساندها تشريعات ملزمة للإعلان

بشكل لا يقبل الشكّ بأنّه «ليس هناك بديل اسمه الضربة الأولى» على طاولة المفاوضات مع روسيا وإيران والصين وكوريا الشمالية، أو أيّة حكومة أخرى. إنّنا كشعب، يجب أن تعرف حكومته أنّ الضربة النووية الأولى ستكون ضربة قاتلة وعملاً إجرامياً و«خياراً» غير شرعي في يد أمريكا وروسيا، أو أيّة حكومة أخرى تحت أيّ ظرف.

الفصل الحادي والعشرون
تفكيك آلات الفناء

من إحدى السبل، التي عوّضت فيها مؤسسة راند راعيها سلاح الطيران، لقاء توفير الحرية لمنتسبيها بمتابعة بحوثهم الخاصة، هي أن تستجيب في الحال حين يُطلب منها إجراء تقييم اقتراح يأتي من دوائر السلاح المذكور. يكون هذا في العادة نسخة مصورة من مذكرة مطبوعة، تحت عنوان «مشروع بأثر رجعي» من أعداد ضابط من ضباط السلاح المذكور. يكون «المشروع» مصحوباً بصفحة تحمل أختاماً وتواقيع المسؤولين في السلاح ممّن نظروا أو اطلعوا على المذكرة موضوع النقاش، قبل أن تصل إلى مؤسستنا. وحين تتسلمها المؤسسة، عادة ما تحوّلها إلى قسم البحوث والتطوير أو شعبة التخطيط أو دائرة العلوم والتكنولوجيا... الخ.

يتضمّن الروتين أيضاً وجود صفحة أخرى لمتابعة أسماء الأقسام والأشخاص، الذين يعملون في مؤسسة راند ممّن اطلعوا على المشروع وراجعوه. لم يكن واضحاً لماذا أحيلت تلك الوثيقة إلى مكتبي. اعتقدت أوّلاً أنّها يجب أن تكون ضمن اختصاص قسم الهندسة، لكنّه كان معروفاً عنّي اهتمامي بمشاكل سلاح الطيران ونقاط ضعفه في حالة هجوم نووي مباغت من قبل السوفيات علينا، وقدرتنا على الهجوم الانتقامي المعاكِس. كان المشروع سرّياً وتناول إمكانية قدرة الصواريخ السوفياتية العابرة للقارات ICBMs لتحطيم قدرتنا على الانتقام باستخدام صواريخ تطلق من قواعد أرضية، وفي العادة مِنتِمَن العابرة للقارات أيضاً. كان وقت ذلك في منتصف الستينات قبل انكشاف أسطورة فجوة الصواريخ. كنت قد أمضيت سنة تقريباً وأنا أعمل في راند وأتابع مثل هذه القضايا.

تضمن الاقتراح المصحوب بتفصيلات موسّعة استخدام 1000 صاروخاً من نوع أطلس Atlas، وهو أكثر أنواع الصواريخ المتوفرة لدينا، إضافة إلى صواريخ من نوع تيتان Titans، التي يتوفر منها القليل لدينا. وبموجب الاقتراح المذكور يجب أن توضع هذه الصواريخ في وضع أفقي مع سطح الأرض وتواجه بشكل معاكس حركة دوران الأرض حول نفسها من الشرق إلى الغرب.

تصوّر الضابط صاحب الاقتراح، أنّه إذا استطاعت أجهزتنا للتحذير المبكر ضدّ الصواريخ BMEWs التقاط إشارات وكشفتها مواقعنا للرادارات في ألاسكا NORD وظهرت على شاشات المراقبة الكبيرة، عن قدوم الصواريخ السوفياتية من جهة القطب الشمالي وهي مصوبة نحو قواعد صواريخنا في شمال دَكوتا وجنوبها ووايومنگ ومُنتانا ومِزوري، ستنطلق حزمة صواريخ أطلس وتيتان في نفس اللحظة الممكنة لإيقاف دوران الأرض.

وبموجب ذلك فإنّ الصواريخ السوفياتية تفقد توجهها وتلتف راجعة أو تطير إلى أعالي الجو بعيداً عن ضرب أهدافها. وبهذا نكون ضمنّا بقاء قواتنا الانتقامية للردّ بعد أن تهدأ الأرض وتعود لاستئناف دورانها الطبيعي. سنوجّه حينها ضرباتنا نحو المدن والأهداف العسكرية غير المحمية، لأنّ صواريخ السوفيات قد انطلقت من مواقعها الخرسانية المسلحة.

لا يحتاج الإنسان أن يكون عالماً جيوفيزيائيّاً لكي يلاحظ نقاط ضعف هذه الخطة. لا بُدّ أنّها ستؤول إلى انطلاق الكثير من الأشياء وطيرانها في الجو. إنّ كلّ شيء غير مثبّت سيطير مع الريح لو توقفت الأرض عن دورانها، وستطير الأشياء بسرعة إعصار مدمر وستغرق أمواج البحار والمحيطات العاتية كافة المناطق الساحلية.

الضباط المسؤولون عن السيطرة على أنظمة صواريخ مِنتِمَن القابعون في صوامعهم عميقاً تحت سطح الأرض، لم يعد لديهم سبب وهم في تلك الظروف أن يطلقوا صواريخهم أو حتى يخرجوا إلى السطح، لأنّه لم يعد هناك شيء يحتاج أن يُدمّر على الأرض في طول الاتحاد السوفياتي وعرضه، وكذا الولايات المتحدة أو أيّ مكان في العالم. لقد تهاوت كافة المباني وتطايرت الأنقاض ومعها البشر مع الريح أو فوق أمواج المياه بشكل أفقي على وجه الأرض وفي السماء.

كلّ هذا واضح تماماً. قلت لنفسي، «هذا شيء مضحك!» هذه أوّل ورقة أستلمها من جهاز سلاح الطيران البيروقراطي وفيها نكهة مضحكة. المشكلة، إنّها وثيقة رسمية ليس فيها ما يدلّ إلى غير ذلك إطلاقاً. إنّها وثيقة حقيقية، وباستطاعتي أن أعطي من أرسلها إلى راند جائزة المؤسسة لأفضل نكتة!

تطلعت ثانية إلى قائمة الأقسام والأشخاص، الذين اطلعوا عليها وأحالوها لنا لأغراض التقييم. بدا أنّ نصف الأقسام في سلاح الطيران قد اطلع عليها ووقع بأنّه استلمها. كانت كافة الأسماء صحيحة ورتب أصحابها ومواقعهم الوظيفية لا شائبة فيها. لم يوقفها أحد قبل إرسالها إلى راند. أدركت أخيراً أنّ الأمر ليس مزحة.

أتذكّر أنّني جلست على كرسيي وأنا أتطلع إلى الوثيقة، وسألت نفسي للمرة الأولى، «هل أنا حقيقة أمارس عملاً جنونياً؟».

عرضت الموضوع على زميلين من راند لكي أعرف إن كانا اطلعا عليها ولأرى ردود فعلهما. لم يُظهر الأول اهتماماً بالأمر، وقام الآخر بإجراء بعض الحسابات على ظهر الورقة وقال بعد لحظة، «لا يمكن 1000 صاروخاً من نوع أطلس وتيتان أن توقف حركة دوران الأرض».

وكما أتذكّر، قال متخصص آخر في علوم الفيزياء، «إذا كان باستطاعة المرؤ أن يعدّ قوّة لإيقاف حركة دوران الأرض للحظة واحدة، فمن المتوقع جداً أن ينشق سطح الأرض وينفصل عن مركزها وستنفجر الكرة الأرضية من داخلها. صحيح يمكنك أن تصف (المشروع ذو الأثر الرجعي) بأنّه ضرب من الجنون».

لكنّ الحقيقة هي أنّ أكثر الوثائق، التي اطلعت عليها في دائرة الأمن القومي، بما فيها تلك التي أعددتها أنا بنفسي، كان فيها ولو جزئياً شيء من عدم الاتزان، لكن أقلّ بكثير ممّا في «المشروع ذو الأثر الرجعي». وعدم الاتزان هنا يعني كناية عن الجنون، جنون من الناحية القانونية.

الحقيقة أيضاً، هي أنّ «المشروع ذو الأثر الرجعي»، لو تحقق سيكون له أثر لإزالة كلّ ما على سطح الأرض من البشر والكائنات الأخرى والشجر والمباني، وسيفرغ البحار والمحيطات من مياهها لتغمر ما حولها من الأراضي.

لكنّني اكتشفت بسرعة أنّ قيادة الأركان المشتركة قد قدّرت أنّ تأثير تنفيذ خطط الضربة الأولى تحت مختلف الظروف، سيخلف ضحايا من البشر، حوالي نصف بليون شخصاً، باستعمال الأسلحة المتوفرة لدينا خلال عدة أشهر. سيقضي أغلبهم نحبه خلال اليومين الأول والثاني.

كيف يمكن للإنسان أن يصف ذلك دون القول إنّها خطط جنونية؟ أليس من المطلوب أن نضع مسؤولي البنتگون ومساعديهم في المصحات العقلية؟ لكنّ هذا هو صلب المشكلة. إنّهم هناك فعلاً. مؤسساتهم تشجّعهم أن يتصرفوا بجنون، بل تطلب منهم ذلك. ولا زالت تفعل نفس الشيء، كما يفعل خصومهم في مؤسسات روسيا أيضاً.

حاول محللو مؤسسة راند، بما فيهم أنا بنفسي، تخفيف حدّة هذا الجنون عند التخطيط للحرب النووية، لكنّنا فشلنا. هذا الفشل مرجعه نسبياً يعود إلى المسؤولين المدنيين، الذين نقدم لهم النصح، ووجدوا صعوبة في إقناع العسكريين لقبول مقترحاتنا. غير أنّه لدى مراجعة الموضوع، فإنّ

ستراتيجياتنا المقترحة ما كانت واقعية، وفيها أيضاً ضرب من الجنون. أفضل مثل على ذلك خطة SIOP-62، التي اقترحناها ضمن خطط سلاح الطيران الحربية عام 1961. كنّا نبغي تحسين تلك الخطط. الهدف السريّ لذلك الجيل من المحليين في راند بما فيهم برنارد بوردي وكوفمّن وأنا، قد وضعنا لأنفسنا معياراً منخفضاً وبقينا أسرى نرقص على حافة ذلك العالم المجنون. لو كانت اقتراحات مؤسسة راند، التي تقدمت بها، قد تمّ العمل بموجبها وفق طريقة سلاح الطيران وتفسيراته وتنفيذها ميدانياً، لكانت ستؤول إلى نتائج توقعِ الخسائر الكارثية الباهظة على المستوى العالمي.

بصراحة هنا، أنا أتحدث عن جنون الستراتيجية، التي وضعتها أنا بنفسي في ربيع عام 1961. وافق الوزير روبَرت مَكنَمارا على خطتي كلمة بكلمة، وصادق عليها رسمياً باعتبارها إرشادات لقيادة الأركان المشتركة وخططها العملية لحرب نووية شاملة. لم آخذ بنظر الاعتبار الحاجة المطلوبة للحدّ من إيقاع الأضرار خلال الهجمات المعاكسة ضدّ أهداف الخصم العسكرية. لم يواجه مخططو سلاح الطيران صعوبة في تحديد الأهداف «العسكرية» فقد كان يوجد منها في الحقيقة المئات، بالقرب من مدينة موسكو وكافة المدن الأخرى، من التي كان بوسع الرئيس لدى اندلاع الحرب «وقف» الهجمات عليها، «بانتظار حدوث تصدّع في جبهة العدو الداخلية» أو «لأغراض المساومة والتفاوض» أو «إيقاف الحرب»، أو ببساطة الحدّ من الخسائر البشرية. كانت هذه الاحتمالات قد أفسدت جميعاً النتائج، التي كانت ستترتب على القيام بالهجوم الاستباقي أو بالهجوم الانتقامي وفقاً «لإرشاداتي» من أجل «حرب قسرية» تلزم العدو على الاستسلام. ما كانت هذه تختلف كثيراً حدّ التمييز عن خطة SIOP-62.

ذلك ما وجده نِكسُن وصاحبه كِسِنجَر من إرث تركه لهما لِندِن جَونسُن ووزيره مَكنَمارا، حين اطلعا عام 1969 على تقديرات فحواها أنّ 80- 90 مليون شخصاً سيلاقون حتفهم نتيجة التأثير المباشر لأيّة هجمة نووية صغيرة، يمكن أن يفكّرا بها. الواضح أنّ تقديرات كهذه عكست الهجمات لإحراق المدن الرئيسية الكبيرة، حتى وإن كان السكان المدنيون غير مُستهدفين بتلك الهجمات، «حسب الادعاء». لم يكن أحد يعرف حينها أنّ العواصف النارية ستتسبب في وقوع الشتاء النووي على المستوى العالمي. كانت هذه المخاوف حقيقة موجودة ليس في فترة الستينات فقط، ولكن تزايدت مع تزايد أعداد القنابل النووية المعدّة لضرب المدن في مطلع الخمسينات.

لم تأخذ النتائج المتوقعة والحقيقية بالحسبان التأثيرات على المناخ في أيّ ظرف كارثي، بعد أن غادر نِكسُن ومعه كِسِنجر البيت الأبيض. حتى خلال الحرب الباردة، ورغم جهودي وجهود مَكنَمارا الوهمية، التي أجهضها وزراء الدفاع ومساعديهم في إدارات فورد وكارتر ورَيگِن، لم يستطع أحد

إجبار سلاح الطيران على وضع خطط عملياتية «لحرب نووية محدودة» مع الاتحاد السوفياتي.

لا يمكن توجيه اللوم لي أو لأيّ شخص آخر بصدد النتائج، لو نُفِذت خططنا بالفعل حسب طريقة سلاح الطيران وتفسيراته واستعداده لتنفيذها. لن يُترك شخص على وجه البسيطة ليقوم بمحاسبة من ارتكب هذا الفِعل الكارثي، لأنّ النتيجة ستكون فناء كافة الأجناس تقريباً.

* * *

هذا ما نعرفه الآن. إنّ لكلّ من الولايات المتحدة وروسيا آلات فناء حقيقية. إنّها ليست الأنظمة الرخيصة نسبياً، التي تصوّرها هِرمَن كان ولا التي عرضها ستانلي كوبرِك في الفلم الفريد، حيث تكون الرؤوس النووية مخفية عميقاً تحت سطح الأرض وقد تنفجر هي وصوامعها محدثة بقايا مدمّرة على المستوى العالمي. يوجد في كلي البلدين نظام باهظ الكلفة من الرجال والأجهزة والإلكترونات والمواصلات والمؤسسات والخطط والتدريب والمناورات والمبادئ الموضوعة وفق عقائد سياسية، التي في ضوء ظروف معينة وبموجب تحذيرات إلكترونية وصراعات خارجية أو توقع حدوث هجمات مباغتة، قد تتسبّب بدرجة غير معروفة لكنّها ذات احتمال عال بجلب الدمار للحضارة وكافة عناصر الحياة على سطح هذه الأرض، ولا تبقي ولا تذر.

إنّ هذين النظامين هما مبعث المخاطرة في قيام ساعة الفناء. ما زال كلاهما يضع إصبعه على الأزرار، وهو يترقب الإنذار، الذي سيجعل محض وجودهما ليس مستقرّاً. إنّ إطلاق آلات الفناء قد يحدث بسبب تحذيرات كاذبة، أو هجمة إرهابية أو إطلاق نار غير مصرح به أو نتيجة قرار شخص قد يشعر باليأس فيقرّر تصعيد الموقف. سيقتلون بلايين البشر، وربّما يضعون نهاية لنظام الحياة المعقد للكرة الأرضية. قد يحدث هذا رغم أنّ الحرب الباردة، التي برّرت وجود هذه الأسلحة وأجهزة الإنذار وضرورتيهما لحماية الأمن الوطني، قد انتفت منذ حوالي 30 عاماً.

هل تحتاج الولايات المتحدة آلات الفناء هذه؟ هل تحتاجها روسيا؟ هل احتاج أيّ منهما لذلك حقيقة؟

هل أنّ وجود مثل هذه القدرات يصبّ في مصلحة الأمن الوطني، أو المصالح العالمية إلى درجة تبرّر أخطارها الجلية على حياة البشرية؟

إنّني اطرح هذه الأسئلة ليس لكونها تتطلب الطرح. إنّها تحتاج إلى تفكير حاد رصين. تبدو الإجابة عنها واضحة لا لبس فيها. إنّي أعلم بأنّه لم يكلف أحد من المسؤولين نفسه بالإجابة عنها أو

حتى عن بعضها. في الحقيقة هي أنّ هذه الأسئلة تثير سؤالاً آخر فحواه، هل يحقّ لأيّ شعب أن يمتلك مثل هذ القدرات، التي تهدّد وجود البلدان الأخرى وشعوبها ومدنها وحضاراتها بالكامل؟

أعدّ روبرت كندي كتابه المعنون (13 يوماً) معتمداً على مذكراته اليومية وذاكرته عمّا جرى بحضوره من أحداث خلال أزمة الصواريخ الكوبية ما بين 16- 28 أكتوبر من عام 1962. أعاد إلى الأذهان في صيف عام 1967 وخريفه، أنّه هو الذي أعدّ بيان الرئيس للأمة بشأن تلك الأزمة. غير أنّ اغتياله عام 1968 قد حال دون إكمال كتابه هذا ومراجعته. ذكر ثيودور سورنسُن، الذي راجع الكتاب قبل نشره فقال:

> كان قصد السنَتور أن يضيف نقاشاً حول إثارة الموضوع الأخلاقي الأساسي، خلال تلك الأزمة. بأيّ حقّ وتحت أيّ ظرف أو مبرر يجوز للحكومة أن تعرّض حياة مواطنيها ومواطني العالم أجمع للخطر وتضعهم في دائرة الدمار النووي وتحت ظلّها؟

ليس لي علم بأيّة مناسبة أثار فيها مسؤول، داخل الحكومة أو خارجها، السؤال الخاص عن حقنا الأخلاقي، إمّا في كتابة مذكرات أو بإثارة نقاش داخلي. والسؤال هو، لماذا؟ هل لأنّه سؤال تصعب الإجابة عنه؟

أعطِيَت مبررات كثيرة حول الضرورة أو الرغبة في استمرار امتلاك بعض الأسلحة الذرية من قبل الدول المالكة لها NWSs، لكنّها لم تتطرّق من قريب أو بعيد إلى الإبقاء على ترسانة آلات الفناء على نطاق واسع لدى الدول الكبرى، بحيث يكون لديها آلاف من تلك الصواريخ المستعدة لإنزال الضربة الأولى. وهذا يصدق حين تثار النقاشات حول تأييد امتلاك الأسلحة النووية، على الأقل كأسباب معقولة للمحافظة على قوّة ردع صغيرة.

وعليه مثلاً، «لا نستطيع الرجوع عن اختراع الأسلحة الذرية uninvent». كانت هذه مناقشة فعّالة وواسعة الانتشار ضدّ قضية نزع الأسلحة النووية من جانب واحد خلال 70 سنة الماضية. صحيح، لا يمكن محو المعرفة المتعلقة بصنع الأسلحة النووية وطرق إيصالها لضرب أهداف العدو. ولكن بالإمكان **تفكيك** آلات الفناء. وهذا أقلّ ما يمكن عمله ويجب الإسراع بتنفيذه. لا توجد لدينا حاجة ولا مبرّر أن ننتظر الروس لفعل ذلك أولاً أو بالتنسيق معنا، رغم أنّ هذا الالتزام ينطبق عليهم أيضاً. يدلّ هذا على أن نتحرّك في الاتجاه المعاكس، الذي تبناه الرؤساء أوباما وترامپ وپوتِن بإعادة تركيب آلات الفناء وصيانتها من أجل الإبقاء على قدرتها لإحلال الضربة الأولى، و«تحديث» البعض وإحلال الجديد محلّ القديم منها. في الحقيقة، أنّ هذه البرامج تبدو لا شيء أكثر من دعم مالي عال

لقطاع الصناعات العسكرية والجهات التشريعية المساندة لها بقوة وحماس. يضمن هذا التمويل ارتفاعاً في الفوائد وزيادة في فرص العمل، وضماناً للتصويت في الحملات الانتخابية نتيجة تلقي التبرعات السخيّة من هذا القطاع، والتي أعتبرها شخصياً «رشوة». تبدو كلّ هذه سلوكيات ذات دوافع سياسية صلبة وتقليدية، لكنّها بعيدة كلّ البعد عن التبريرات الشرعية للمحافظة على آلات الفناء وتحديثها وصيانتها.

لم تبادر أيّ من البدان الأخرى بشكل مقصود على امتلاك قدرات آلات الفناء، ولم يشكّل وجودها أو يُشجع دوافع ملموسة للخصوم والأعداء لفعل ذلك. في الحقيقة، أنّ وجود جانبين ضدّ بعضهما البعض في حالة إنذار دائم، يشكّل خطراً عليهما وعلى العالم، أكثر ممّا لو امتلك جانب واحد تلك الآلات. لو استطعنا تفكيك الآلات المتوفرة، فلن يعود هناك أيّ مبرر ستراتيجي لأيّ جانب لبناء تلك القدرات، هذا إذا توفرت نوايا واعية قبل كلّ شيء.

الأخبار السارة هي أنّ تفكيك آلات الفناء في أحد البلدين أو كليهما، مفهوم بسيط نسبيّاً من الناحية العملية، غير أنّه صعب للغاية من الناحيتين السياسية والبيروقراطية. يمكن إنجاز هذا التفكيك بسرعة وبسهولة خلال فترة لا تتجاوز سنة واحدة. لكنّ ذلك يعني، وهنا تبرز قوة معارضة المؤسسات المعنية بأنّنا نتخلى عن أهداف معينة غير ممكنة وقدرات خادعة حول إمكانات قواتنا النووية، وبشكل خاص، التصوّر بأنّه من الممكن الحدّ من الأضرار التي تصيب الولايات المتحدة، وبالتالي روسيا، عن طريق الضربة الاستباقية، التي تستهدف القواعد الأرضية للصواريخ عابرة القارات، ومراكز القيادة والسيطرة والمواصلات وقادة البلاد (قطع رأس القيادة)، وغيرها من الأهداف، التي توفر موارد دعم المجهود الحربي، بما فيها المراكز الصناعية في المناطق المدنية وطرق المواصلات ومحطات توليد الطاقة الكهربائية.

بعبارة أخرى، يعني التخلي التام عن الستراتيجية الحالية والمعايير في رسم الأهداف في خططنا الستراتيجية للحرب النووية. كما يعني التخلي عن أغلب القوات المنتشرة لتنفيذ الأهداف والخطط. ويعني الأمر أيضاً تفكيك كافة الصواريخ التي تطلق من قواعد أرضية، وهي صواريخ مِنِتمَن، وتفكيك معظم القاذفات النووية الستراتيجية وتفكيك غالبية غواصات ترايدنت الحالية البالغ عددها 14 غواصة. كما يعني تفكيك غالبية الرؤوس النووية المحمولة على رؤوس الصواريخ العابرة للقارات في الغواصات الأخرى.

في الحقيقة، كانت هناك أسباب داعية لتفكيك كافة ما ذكرنا أعلاه منذ أكثر من نصف قرن بقليل حين برزت فكرة «تقليص الأضرار» ضدّ صوامع صواريخ قوات سوفياتية كبيرة وأخرى

لإطلاق الصواريخ من الغواصات، حين أصبحت تلك الفكرة خدعة وهمية. كان ذلك صحيحاً حتى قبل أن يتوفر الوعي عن الخطر الداهم من جراء حلول الشتاء النووي. لكنّ توقعات انتشار هذا الوعي اليوم، تعطي كل فرد وشعب ومؤسسة في العالم أساساً مقنعاً عاجلاً لم يُسبق له مثيل، لطلب أنّ مثل هذه القدرات و«البدائل» المخطط لها يجب أن تُفكّك مباشرة.

ومهما كانت درجة الاحتمال ضعيفة فإنّ الولايات المتحدة وروسيا لن تستمعا لمثل هذه الدعوات وتتوقفا عن المضي في تنفيذ خططهما الستراتيجية الطارئة ضدّ بعضهما البعض. وهو أمر، كما أسلفنا القول، سيتسبّب في إحداث شتاء نووي يُفضي إلى فناء البشرية ما دامت آلات الفناء موجودة ومستعدة للانطلاق.

إلى أيّة درجة يمكن للخطورة أن ترتفع لجعل القضية خارج إطار الصبر والتحمّل؟ ما هي مخاطر حدوث الشتاء النووي، سواء كان نتيجة ردّ فعل مذعور أو قيادة سياسية غير مستقرة أو الشروع في هجوم غير مصرّح به، ويصبح «مقبولاً» كثمن مقابل الإبقاء على قواتنا الستراتيجية الحالية، وأية منافع يمكن الافتراض بأنّها ستعود علينا؟ 5/ 100 خلال الأربعين سنة القادمة؟ 1/ 100 أو 3/ 1000000؟

لماذا لا تصبح أيّة درجة أعلى من 0/ 1000000 غير مقبولة؟ لحسن الحظ يمكن أن تكون النسبة صفراً. يمكن إلغاء المخاطر الأساسية عن طريق أمر رئاسي فقط، وفق مبادئ الدستور. على الرغم من أنّه من النواحي العملية والسياسية يجب أن يكون هناك إسناد للأمر في الكونگرِس وبين الرأي العام، وكذا قطاع الصناعات العسكرية، بالرغم من معاندة هذا القطاع ومعارضته المتوقعة. وحتى لو بدا أنّ دونلد ترامپ راغب في استخدام نفوذه كرئيس أكثر من سابقه، حتى خارج الحدود الدستورية، فإنّ احتمال إقدامه على مثل هذه الخطوة قليل للغاية، خاصّة الآن وقد بدأت فعلاً إجراءات إقالته. يبدو أنّ نفس الوضع ينطبق على پوتِن. ومع ذلك فإنّه بالنسبة إلى كلي القوتين الأكبر في العالم، فإنّ خطر يوم الفناء يُمكن أن يُرفع بدون اتفاق كلي الطرفين على نزع السلاح النووي الشامل، أو التخلي عن خطط الردع النووي، من جانب واحد أو من قبل الطرفين، والأخير هو الأفضل.

لغرض المقارنة، إنّ خطورة تعرّض مدينة واحدة للخراب بفعل قنبلة نووية واحدة قد يفجّرها إرهابي خلال السنة القادمة أو خلال الحقبة القادمة لا يمكن لسوء الحظ أن نقول إنّ الاحتمال منخفض إلى درجة الصفر. لكن مخاطر قد تجلب الدمار الوشيك للإنسانية واستمرار وجود تلك الإمكانية طيلة السنوات 65 الماضية، يمكن أن يخفض إلى الصفر، بتفكيك أكثر ما موجود من هذه الأسلحة لدى الولايات المتحدة وروسيا، ونزع السلاح بدرجة أقلّ في الدول الأخرى المالكة له.

إنّ هذا التفكيك لآلات الفناء، لا يعني أنّه بديل كاف بعيد الأمد لأهداف أكثر طموحاً وضرورة، بما فيها الإلغاء العالمي الكامل للأسلحة النووية والتخلص منها. إنّنا لا نتقبّل الاستنتاج بأنّ الإلغاء الشامل لا يمكن تحقيقه في «المستقبل القريب»، أو نضعه على الرّفّ ونتركه للأجيال القادمة كي تقرر مصيره. في الحقيقة، لا يوجد مستقبل للإنسانية مع وجود هذه الأسلحة. وبشكل خاص، يبدو أنّ الأمر ساذج أكثر من كونه واقعياً أن نعتقد بأنّ المدن الكبرى يمكن أن تتعايش إلى الأبد مع وجود الأسلحة الذرية. إنّ الحضارة الإنسانية، التي برزت للوجود قبل حوالي 4000 سنة في بلاد الرافدين، العراق حالياً، لن تستمرّ على المستوى العالمي لمدة قرن واحد فقط أو قرنين. يجب أن نتوصّل إلى طريقة تتطلب التغيير وتجعله في النهاية عملياً.

وعليه أصبح لزاماً على الدول المالكة للسلاح النووي أن تعترف بواقع الحال، الذي أنكرته طوال الوقت، والدول غير المالكة له وتدعي على مدى 50 عاماً أنّها تريده على المدى البعيد، أنّ الوقت قد حان فعلاً لتطبيق نظام فعّال لا مفرّ منه حول عدم نشر هذا السلاح والتخلص ممّا موجود منه أصلاً. وفي النهاية وستكون قريبة، يتوجّب على كافة الشعوب أن تتخلى عن حقها في امتلاك هذا السلاح إلى الأبد وتهديد الآخرين باستعماله تحت أيّ ظرف، وتتخلى أيضاً عن تشدّدها بحقها في امتلاكه لأنّ استعماله سيكون على نطاق واسع.

يمكن التخلص من السلاح النووي على مراحل. ولكن إذا تمّ تجنّب انتشاره في المستقبل القريب، فإنّ التخلص الكلي منه وإزالة استعماله وامتلاكه وكبح جماحه باعتباره هدفاً عالمياً يصبح أسهل، ويجب عدم تأخير ذلك أو المراوغة بشأنه. يجب أن نبدأ منذ الآن القيام بالجهود لخلق الظروف الملائمة لتخليص العالم من شرور هذا السلاح تماماً. ولذلك، من المخيّب للآمال أنّ الولايات المتحدة وحلفائها قد قاطعوا المفاوضات الحديثة في الأمم المتحدة من أجل التوصّل إلى معاهدة لمنع الأسلحة النووية، حتى وإن وقعت 120 دولة على هذه المعاهدة بتاريخ 7 يوليو من عام 2017.

الذي أقترحه هو جهد لتحريك التأييد العالمي لبرنامج قصير الأمد وسريع للغاية لإجهاض أيّ خطر وشيك أو مستمرّ لتهديد حياة البشرية. المنطق الذي يقوم عليه هذا البرنامج يسهل فهمه. ما نحتاج فعله هو أن نخفض المخاطر، التي يمكن تحديدها وفق خطوات ملموسة ثابتة.

التهديد بحدوث شتاء نووي مطبق مصدره إمكانية قيام حرب شاملة بين الولايات المتحدة وروسيا. منذ انتهت الحرب الباردة ظلّ الخطر المتبقي الأكبر والمحتمل لإبادة الحياة هو قيام أحد الجانبين بهجمة استباقية قد تكون بسبب تحذير إلكتروني كاذب (وهذا أمر حدث بشكل مستمر لدى الطرفين) أو بسبب تفجير عرضي (وهذا احتمال قليل، لكنّه حدث عدة مرات في السابق). ليس

الإهمال هو السبب لوقوع مثل هذا الهجوم لكنّه قد يتمّ على يد جماعة إرهابية انتحارية مروّعة، لديها القدرة على إعداد سلاح ذري صغير وتفجيره في واشنطن أو في موسكو.

إنّ الخطر الناجم عن التحذيرات الكاذبة أو الهجمات الإرهابية ضدّ واشنطن أو موسكو سيقودان إلى القيام بضربة استباقية قائمة أصلاً على توفر هذا السلاح في القواعد الأرضية المعرضة للهجوم لدى ومن قبل كلي الطرفين. ولذلك بقيت هذه القواعد مُستنفرَة وفي حالة استعداد قصوى، لدرجة أنّ الصواريخ ستنطلق خلال دقائق من تسلم الإنذار.

في الحقيقة أنّ أسهل الطرق وأسرعها للتقليل من مخاطر الأسلحة الذرية وشرورها، هو تفكيكها بالكامل، وليس فقط تخفيض حساسية أجهزة الإنذار. يشمل هذا مجموعة صواريخ مِنِتمَن رقم 3، المعدة حالياً للتجديد وصواريخ ترايادا، التي تُطلق من قواعد أرضية، التي كما دعا إلى ذلك وزير الدفاع السابق وِليم پَري ومعه جيمس كارترايت، القائد السابق للقوات الستراتيجية ونائب رئيس قيادة الأركان المشتركة. الخطوة التالية ستكون تخفيض الصواريخ عابرة القارات SLBMs، التي تحملها غواصات ترايدنت، والتخلي عن قدرتها لاستهداف القواعد الأرضية لصواريخ الروس بكاملها. جدير بالذكر أنّ اعتماد روسيا على تلك القوة بالغ الأهمية، وتعتمد على صواريخها الأرضية أكثر من اعتماد الولايات المتحدة عليها. وإذا كان الأمر حرمان السوفيات من صواريخهم المفضلة، فإنّه يجب تفكيك صواريخ مِنِمَن وهي في صوامعها تحت سطح الأرض وتفكيك أجهزة التحكّم بها أيضاً. سيكون ذلك محفزاً للسوفيات كي يتخلصوا من صواريخهم عابرة القارات، التي ستنطلق لدى تلقي التحذير، كي لا تُدمّر وهي في صوامعها بواسطة صواريخ SLBMs المحمولة في غواصات ترايدنت. وعليه لا يعود نظام إطلاق الصواريخ اعتماداً على إشارات الإنذار مجدياً لأيّ من الطرفين.

يجب أن تُطبّق كافة المقترحات في أعلاه بشكل متساوٍ على القدرات النووية المتقابلة لكلّ من الهند وپاكستان، لأنّ احتمال حدوث كوارث عالمية نتيجة استعمالهما لأسلحتهما النووية، التي قد تسبب نصف أو كلّ حجم الشتاء النووي، الذي يمكن أن يحدثه انفجار صراع نووي بين الولايات المتحدة وروسيا. إنّ مصلحة العالم في تخفيض هذه القوات وتجنّب حالات الإنذار الدائمة، ينطبق أيضاً على المحاولات الجارية «لتوسيع الترسانة النووية وتحديثها» لدى الطرفين استعداداً لمواجهة متقابلة بين الدولتين الأكبر.

أقول بأنّ هذه خطوات بسيطة نسبياً، يتعيّن على الدول الكبرى والآخرين ألاّ تهمل التغيير الأساسي في المبادئ والستراتيجية التي فعلت فعلها لبناء قوتنا خلال 65 سنة الماضية. وخلافاً لما يعرفه الرأي العام، فإنّ الستراتيجية لم تكن مسألة ردع هجوم على الولايات المتحدة، لكنّها وَهمٌ

لتحسين القدرات لإنزال الضربة الأولى. وبالتحديد، فإنّ هذا الأمر تناول هدف «حصر الأضرار» التي تصيب الولايات المتحدة في حالة قيامها بضربة استباقية ضدّ القدرات النووية للسوفيات/الروس، نتيجة تحذير عن هجوم وشيك، ربّما في ظرف تصعيد لاستعمال الأسلحة التقليدية أو حرب نووية محدودة.

ما زالت هذه الستراتيجية قائمة رغم أنّنا أشرنا إلى أنّ هدف الحدّ من الأضرار في الجانب الأمريكي في حرب نووية واسعة النطاق أو حصر هذه الحرب مع دولة واحدة وجعلها محدودة، ليست أكثر من خدعة لم يمكن تحقيقها خلال 50 سنة الماضية، أي منذ استطاع السوفيات امتلاك الصواريخ العابرة للقارات من نوعي SLBMs المحمولة على عربات متنقلة وتلك المخبأة في صوامع تحت الأرض ICBMs. وحتى لو أتيحت فرصة الضربة الأولى وتحاشي التدمير الكامل الفعّال للمجتمع الأمريكي، وحتى قبل ذلك لم يكن متاحاً لأوروبا الغربية الخلاص. إنّ آثار الانفجارات والحرارة والإشعاعات والمواد المتساقطة وحدها من جرّاء الهجمات الانتقامية من قبل الجانب السوفياتي/ الروسي ستكون كفيلة بإلحاق الضرر أو تدمير القارة بالكامل.

والآن وفي ضوء ظاهرة الشتاء النووي الناجم عن حرق المدن جرّاء الهجمات الأمريكية وحدها، مضافاً إليها هجمات السوفيات الانتقامية، لم تعد هناك «ورقة تين» للتستر بأنّ «الحدّ من أضرار» الضربة الأولى من قبل أحد الجانبين ستكون لا شيء أقلّ من عمل انتحاري، على رأي أَلِن روبوك وبرايَن تون «التدمير الذاتي المؤكّد» SAD أو الانتحار الذاتي. تعني التغييرات، التي أطرحها، التخلي عن التظاهر الكاذب ومنافع التحالفات السياسية المفترضة للإبقاء على هذا التظاهر بأنّه بإمكان إحدى القوتين الأعظم أن تحدّ من الأضرار التي ستصيب أيّ أو كلّ فرد لدى مهاجمة الآخر بالأسلحة النووية، سواء كانت الضربة الأولى أو الثانية، وتحت أيّ ظرف أو طريقة مهما كان نوعها.

الغرض الأساسي من الأسلحة النووية هو ردع أيّ هجوم على الولايات المتحدة أو أيّ من حلفائها. والغرض الأساسي، الذي نسعى إليه يجب أن يكون تخفيض عدد الصواريخ الأمريكية بكاملها، المتحرك SLBMs والثابت ICBMs وتفكيكها، الذي كان يجب أن يتمّ منذ عدة أجيال. إنّ مثل هذا التحول لا يزيل تماماً الأخطار المترتبة على قيام حرب نووية، لكنّه على الأقل يلغي فكرة التهديد بشتاء نووي مدمّر.

ولسوء الحظ، ما زال يوجد قليل من الوعي بصدد التأكيدات العلمية عن «نظرية» الشتاء النووي، الذي قد يمتد لمدة 30 عاماً، وما سينجم عنه نتيجة خططنا النووية الستراتيجية القائمة. من

المؤكّد أنّ خططنا هذه ستظل سريّة للغاية، لكن الكثير من شهادات المسؤولين الكبار وبعض المطلعين السابقين على الأمور والباحثين الذين يتابعون المسألة بعناية وترقب وصبر، يشير بوضوح إلى أنّ لدى هؤلاء نفس الشخصية ونفس الغموض الموجود لدى الموظفين المدنيين الكبار في الحكومة، كما لاحظت ذلك من خلال معرفتي المباشرة بهم.

لكنّني أتوقع وجود آخرين لأثبت دقة حكمي ولكي أحفز على قيام حركة واسعة وعاجلة لإحداث التغيير المطلوب. وعليه فإنّه بالنسبة لي، أصبح الموضوع من أولوياتي وآمل من قرّاء هذا الكتاب أن يشجّعوا ممارسة الضغط على الكونگرس ومُطلِقِي صافرات التنبيه عن المخالفات whistleblowers، والشهود والمُشرّعين في الدول، التي تمتلك الأسلحة الذرية وتلك التي لا تمتلكها، كي تجري تحقيقات حول الأسئلة والقضايا التي أثرتها، داخل الولايات المتحدة وفي كافة أنحاء العالم.

وعلى أيّة حال، لم يتقدّم واحد من المشرعيّن في هذه البلاد بطلب ناجح أو أخبِر بحقيقة الأهداف النووية والنتائج المترتبة على قيام حرب نووية، سواء كانت محدودة أم على نطاق واسع.

لقد أهمل الكونگرس الأمريكي واجباته بشأن هذه المسألة لفترة طويلة. وبمساعدة خبراء من أكاديمية العلوم الوطنية يجب أن يتبيّن أعضاؤه، ولو من خلال شهادات سريّة، تفاصيل المهام الفعلية للأسلحة الذرية المستعملة ضدّ الأهداف المطلوبة، وما ينجم عن ذلك وقوة الانفجار وعدد الرؤوس التي ستنفجر كلّ مرّة، بغية التحقق من صحة النتائج العلمية المؤكّدة والمتعلقة بالشتاء النووي وعلاقة هذا بخططنا السريّة للحرب. وعلى أساس ذلك يمكن للكونگرس وأكاديمية العلوم الموطنية إجراء تحقيق عن مستقبل البشرية على المدى البعيد وما سيلحق بالبيئة عند تطبيق مختلف «الخيارات» في خططنا المذكورة.

غير أنّ خبرَتنا السابقة تشير إلى أنّ الكونگرس لن يعقد جلسة تحقيقية لسماع شهادات أشخاص تتمّ دعوتهم رسمياً من قبل اللجان المتخصصة من أجل اختراق ستار السرية الذي يلف هذه الأمور، بدون ضغوط جديدة من قبل المواطنين الأمريكيين. إنّ الغرض الرئيسي من هذا الكتاب، هو أن يُلهم المواطنين ويشجّعهم لممارسة الضغط، رغم أنّه واضح أنّ الأمر يتطلب تغييراً كبيراً في المزاج الشعبي وفي طرح أولوياته. ولغرض أن تكون هذه الضغوط فعّالة أو حتى ممكنة، لا بُدّ من تغيير تركيبة عضوية الكونگرس الحالية.

تخبرني تجربتي على مدى النصف الثاني من القرن الماضي، أنّ التغيير في الوعي العام،

الذي تنتج عنه ممارسة أيّ ضغط على الكونگرس، لن يحدث بدون الكشف عن الخبايا والخفايا بواسطة المنذرين whistleblowers المدفوعين بشعورهم الوطني المتسلحين بالحقيقة والمتميّزين بالشجاعة. نحن بحاجة ونفتقر إلى ما تمّ عمله حين كُشِفت **أوراق الپنتگون**، ولكن هذه المرّة حول السياسات النووية والتحضيرات والتهديدات وعملية اتخاذ القرارات في الولايات المتحدة وروسيا أوّلاً، وأيضاً في البلدان الأخرى المالكة للأسلحة النووية.

سأشعر بالأسف لما تبقى من حياتي لأنّني لم اكشف للكونگرس والرأي العام الأمريكي والعالم أجمع الوثائق الموّسعة التفصيلية حول المخاطر القائمة، التي لا يعرف عنها الشعب الأمريكي شيئاً، حين كانت متوفرة لدي طيلة نصف القرن الماضي. إنّ مواطني الدول، التي تمتلك أسلحة نووية، من الذين في موقع يمكنهم فيه أن يفعلوا أكثر ممّا فعلت، أن يحذّروا شعوبهم والعالم أجمع بأخطار السياسات المتهورة القاتلة، ويتعلموا درساً من سكوتي المبكّر وسكوت الآخرين مثلي، وأن يُقدِموا على عمل أفضل.

بودّي أن أقول لهم لا تفعلوا ما فعلته، ولا تتردّدوا في كشف الحقيقة للرأي العام والمشرعين وتدعموا ذلك بما تقع عليه أيديكم من الوثائق المتوفرة لديكم قبل فوات الأوان. وفوق ذلك لا تنتظروا «حتّى تتفجّر القضية»، كما ذكر وزير خارجية سابق، وافضحوا تهور الحكومة القاتل وسياساتها التهديدية قبل أن تروا بأم أعينكم سحابة مدمّرة على شكل فطر Mushroom Cloud.

إذا أخذنا بنظر الاعتبار مثل هذا الفضح والتحقيقات بشأنه من قبل المشرعين في هذه البلاد والبلدان الأخرى المالكة للأسلحة النووية، يبدو لي أنّ من المعقول وجود بصيص أمل أنّ وعياً شعبياً جديداً للحقائق السرية سيجعل المؤسسة تشعر بالحاجة للنظر في شرعية التهديدات والاستعدادات، التي ستؤدي إلى انتحار جماعي لا يمكن تحمّله. يجب أن نعترف أنّه لا يوجد سبب ولا مبدأ ولا اعتبار مشرّف ولا التزام ولا هيبة من أجل المحافظة على قيادة التحالفات القائمة. وبدرجة أقلّ لا يوجد اهتمام بالمحافظة على المناصب أو الإبقاء على هيكل سلطة خاصّة أو وظائف ومنافع وأصوات ناخبين، يمكن أن تبرّر أيّة مخاطرة مهما كان مستواها لتكون سبباً في القضاء الوشيك على الجنس البشري وغيره من الحيوانات وأشكال الحياة الأخرى على هذا الكوكب.

إنّ الانتحار الجماعي، سواء كان التهديد به أو الاستعداد له، مسألة غير شرعية وغير مقبولة باعتباره إحدى آليات السياسة الوطنية. في الحقيقة، لا يمكن اعتباره سوى جريمة وعمل غير أخلاقي وشرير، في ضوء الحقائق العلمية الحديثة، التي لم يطلع عليها الرأي العام العالمي. ما زال قادة الدول يجهلون تماماً المخاطر الجلية في الخطط النووية والمواقف العنيدة والاستعدادات والتهديدات من قبل

الطرفين. وهذا أمر لا يمكن تحمّله ويجب أن يتغيّر، رغم أنّ هذا التغيير لا يمكن أن يحدث في القريب العاجل.

تمثل الخطوات، التي أشرت إليها، البداية فقط لرفع الشرعية عن الأسلحة الذرية والتهديدات باستعمالها. ولكن لا يمكن لأيّ من هذه التغييرات الضرورية أن يحدث بدون وعي من قبل الرأي العام، الذي يمكن تحذيره بشكل مناسب مصحوب بالتصميم القوي للتعجيل بإلغاء تلك الأسلحة تماماً.

صحيح أنّ ردود الفعل قد تمّ كبتها حين كُشفت الحقيقة وجرت مناقشتها بطريقة شبه أكاديمية «موضوعية» تنقصها العاطفة والحماس وخلت من التقييم، قدر تعلق الأمر بالتخطيط والتدريب والأسباب البيروقراطية والسياسية خلفها، كما غياب التقييم المناسب لطبيعة القرارات والممارسات والنتائج المترتبة عليه. لقد كان ذلك عاملاً في غياب ردود الفعل السياسية المطلوبة، حتى وإن تمّ في بعض الأحيان كشف جوانب من حقائق الماضي.

أضف إلى ذلك، أنّ التحذيرات وطلبات الناشطين قد جرى تجاهلها تقريباً بشكل كامل من قِبَل أجهزة الإعلام الرئيسية والمناقشات السياسية والأكاديمية. والعذر هو اعتبارها صادرة عن أشخاص تنقصهم الخبرة وعاطفيين أكثر من كونهم عقلانيين، لم يعطوا وزناً كافياً للتعقيدات والاعتبارات الأخلاقية وسُلم الأولويات، التي تدفع واضعي القرارات المعقولة والمسؤولة.

القضايا التي لم تحظَ بأيّ انتباه خلال المناقشات المعروفة والتحليلات التاريخية للسياسات النووية الجارية، هي الاعتراف بأنّ ما تمّت مناقشته مذهل بشكل جنوني غير أخلاقي. ومنها التدمير والقتل المتعمّد، اللذين لا يمكن قياسهما ولا إدراكهما، واللذين تجاوزا كلّ حدّ خلال تفاصيل الخطط ذات الأهداف المعلنة أو غير المعترَف بها، والمضي في تحقيق أهداف سريّة تحت شعار الحدّ من الأضرار، التي قد تصيب الجانب الأمريكي وحلفائه وضمان «النصر». تصل جرائم هذه السياسات إلى درجة أنّها تشوّه وجهة النظر القانونية وتخالف العدالة وتصرّ على ارتكاب الجرائم وتنتقص لأيّ واعز من الحكمة والضمير والعطف، ويطغى عليها الإثم والشّرّ.

ومع ذلك، يجب الالتفات إلى أنّ ما يجعل تلك السياسات مفهومة وفي نفس الوقت غامضة تستعصي على إدراك الشخص العادي. إنّ صنع وصيانة والتهديد باستعمال هذه الآلات المشوّهة الخلقة، قد أشرف عليها بشر عاديّون، ليسوا أفضل أو أسوأ من أيّ منّا، وليسوا وحوشاً أو أبالسة وفق أيّ معيار طبيّ/مرضي أو أسطوري.

إنّ هذه العمليات وما تفضي إليه من المخاطر، التي فرضتها على الحياة في هذا الكوكب تظهر

للجنس البشري حين انتظم في جماعات وتجمّع في أماكن معينة وخلق حضارات، أنّه أيضاً قد خلق ما هو أسوأ. في الحقيقة أنّ أناساً عاديين وقادة عاديين هُم الذين خلقوا وتقبلوا مخاطر من النوع الذي قمت بتصويره وتوضيحه. كلّ نبض «طبيعي» في جسمي يقول، «لا، لا يمكنُ للحال أن تكون بهذا السوء». و«حتى لو كانت كذلك، فلا يمكن أن تستمرّ. يمكن أن يكون ذلك هو ما يجري في بلدنا الآن».

إنّنا كبشر عموماً، لدينا صورة خاطئة عن أنفسنا. إنّنا نعتقد أنّ السياسات الشريرة المتوحشة تأتي من أشخاص أشرار ومتوحشين، أو شواذاً للغاية أو مجانين، من الناحية الطبية. هم أناس ليسوا «مثلنا». وهذا خطأ. إنّ أولئك الذين صنعوا الأسلحة الذرية ويستمرون بالتلويح بها تهديداً أو طغياناً، مع علمهم التام بالخراب الذي ستجلبه على العالم، هم أناس عاديون بينهم ساسة ومحللون ومخططون وعسكريون، من الذين ينطبق عليهم وصف هَنه آرندست بأنّهم يمثلون «حثالة البشر وتفاهة الشّرّ» أعتقد شخصياً أنّ هذا الوصف ينطبق عليهم تماماً، رغم أنّني أفضل القول بأنهم «أتفه ممّن يقومون بأعمال الشرّ، أو غالبيتهم».

لقد شاهدنا نحن الأمريكيون في السنوات الأخيرة كوارث من صنع البشر، تمثلت بأعمال الحكومة والاحتكارات الأكثر تهوراً، والتي ارتكبت بشكل واسع مقصود أعمالاً لم يتصوّرها الشعب ولم يُسمح له بالاطلاع على تفاصيلها في حينه. من أمثلة ذلك غزو العراق واحتلال أفغانستان والفشل في الاستعدادات والتحضيرات لعاصفة كَترينا وتسرّب النفط في الخليج نتيجة انفجار في أحد الآبار والكوارث المالية التي التهمت مدّخرات الملايين من المواطنين وفضائح المؤسسات المالية المانحة للقروض وفقاعة الإنترنت وقطاع البناء وجرائم الاحتيال والاختلاسات المالية وانهيارات المصارف ومؤسسات الاستثمار.

ربّما يصبح التفكير بهذه الخيبات السياسية والاجتماعية والأخلاقية أكبر حجماً في ضوء الهواجس القائمة حول عملية اتخاذ القرارات الكارثية منذ تولى ترامپ السلطة. وهذا يُثبت المغزى الأساسي الذي طرحته والذي يصعب استيعابه، بأنّ نفس النماذج من عمليات اتخاذ القرارات الغافلة القصيرة النظر والمتهورة، التي اتخذتها الحكومة وتستمر بنشر الأكاذيب عنها، هذه جميعاً هي سمة تخطيط حكومتنا النووي وتهديداتنا واستعداداتنا منذ حلول فترة العصر النووي، المحاطة دائماً بنتائج كارثية ربّما تكون أفظع من سابقاتها.

أعرف جيداً أنّه ليس واقعياً تماماً أن آمل بأنّ الكونگرس، الذي يسيطر عليه الجمهوريون، دعك من رئاسة البلاد، أو حتى لو عاد تحت سيطرة الديمقراطيين، سيكون أعضاؤه بشكل رئيس من

النوع الذي عرفناه في الجيل السابق، وأنّه لن يستجيب لأيّ من المطالب، التي اقترحتها.

- التزام الولايات المتحدة بسياسة عدم استعمال الأسلحة النووية كأول خطوة في الحرب.

- قيام تحقيق حول خططنا الحربية في ضوء مسألة الشتاء النووي.

- تفكيك صواريخنا العابرة للقارات والتخلص منها.

- التخلي عن أوهام الحدّ من أضرار الهجمات الاستباقية بالضربة الأولى.

- التخلي عن المنافع والوظائف والسيطرة على الحلفاء القائمة على التظاهر بذلك.

- تفكيك كافة آلات الفناء في ترسانتنا من الأسلحة الذرية.

لا شكّ أنّ الحزبين يعارضان كُلّ الفقرات أعلاه، وهذا المأزق الكارثي لم يبدأ بتولي دونلد ترامپ السلطة، ولن ينتهي حين يغادر البيت الأبيض. العوائق في وجه تحقيق هذه التغييرات الضرورية ليست من قبل أغلبية الرأي العام الأمريكي، ولكن بإرادة المسؤولين والنخبة في كلي الحزبين، وكذلك المؤسسات الكبرى، التي تساعد بشكل واع ومتحمس القوة العسكرية والسيطرة الأمريكية وصناعة الأسلحة ومن يروّجون لبيعها.

من المؤسف أنّ الأخبار سيئة أيضاً حين يتعلق الأمر بتغيير اتجاهات سياسة الطاقة الأمريكية في الوقت الحاضر وعلى المستوى، الذي يؤكّد وسيجلب حدوث كارثة مناخية. تعارض النخبة ومعها المؤسسات المعروفة بشكل مستمرّ الحلول لهذا التحدي الوجودي. وهم في الحقيقة أقوياء بدرجة غير معقولة. ومع ذلك، وكما اتضح من سقوط جدار برلين والتفكك السلمي للإمبراطورية السوفياتية والتحول النوعي في قيادة أفريقيا الجنوبية، وهما أمران لم يخطرا ببال أحد قبل 30 عاماً تقريباً، يُظهر أنّ الإبقاء على الأوضاع القائمة غير العادلة والخطيرة، ليس بتلك القوة.

هل الأمر ببساطة وَهمٌ، أن نأمل في المحافظة على الحضارة الإنسانية وحمايتها من الاندثار بفعل تأثيرات استخدام الوقود الأحفوري أو الاستعداد لحرب نووية؟ كما حذرنا مارتن لوثر كِنگ قبل سنة تماماً من يوم اغتياله، «هنالك شيء يُدعى متأخر جدّاً». قال ذلك بتاريخ 4 أبريل من عام 1967، لكي يجعلنا نُدرك «القوّة القائمة الملحّة الشرسة». كان يتحدث عن «الجنون في فيتنام»، لكنّه لمّح في

نفس الوقت إلى الأسلحة الذرية وإلى الجنون الأكبر. لقد أصبح قوله هو موضوع هذا الكتاب، «اليوم لدينا خيار التعايش السلمي أو الفناء العنيف المتبادل».

ذهب كِنگ للقول:

> يجب أن نتجاوز مرحلة التردد لنمضي إلى مرحلة الإقدام على العمل... إذا لم نفعل ذلك، فإنّنا سنُقاد إلى دهاليز العار الطويلة المظلمة والمخزية، المخصصة لأولئك الذي تتوفر لديهم القوة الغاشمة الخالية من الرحمة، قوة بدون أخلاق وعمياء، لا نظر لها.
>
> دعونا نبدأ منذ الآن. دعونا نكرّس أنفسنا للصراع المرير نحو عالم جديد فائق الجمال.

معجم المصطلحات

AEC	Atomic Energy Commission
BMEWS	Ballistic Missile Early Warning System
BNSP	Basic National Security Policy (civilian guidance for war (planning
CINCPAC	Commander in Chief, Pacific Command
DAC	Democratic Advisory Council
DARPA	Defense Advanced Research Projects Agency
ExComm	Executive Committee of the National Security Council ((Cuban missile crisis
FOIA	Freedom of Information Act
GEOP	General Emergency Operations Plan (PACOM general (war plan
ISA	(International Security Affairs (OSD
JCS	Joint Chiefs of Staff
JSCP	Joint Strategic Capabilities Plan

LOW	launch on warning
LST	landing ship, tank
NIE	National Intelligence Estimate
NSC	National Security Council
ONR	Office of Naval Research
OSD	Office of the Secretary of Defense
PACAF	Pacific Air Forces
PACOM	Pacific Command
RAF	Royal Air Force
SAC	Strategic Air Command
SAMs	surface-to-air missiles
SAP	special access programs
SIOP	Single Integrated Operational Plan
Westpac	Western Pacific